

NETFLIX

الآن مسلسل أصلي من NETFLIX

ketab_n

ترجمة نوف السعيدي

المدعوّة غريس

مارغريت آتوود

"مؤلّفة الرواية الشّهيرة حكاية الجارية"

مارغريت آتوود

المدعوّة غريس

ترجمة نوف السعيدي

المدعوّة غريس

هـذا الكـتـاب بـدعـم مـن:



مبادرة 1001 عنوان

المدعوّة غريس

تأليف: مارغريت آتوود
ترجمة: نوف السعيدي
مراجعة: عبدالحق شارني

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-37-977-5



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2021

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-2090117
التصنيف العمري: +13



إلى غرام وجِس

الفهرس

أيًا كان ما حدث خلال هذه السنوات، يعلم الله أنني أقول الحقيقة بقولي إنّك تكذب.

- ويليام موريس، الدفاع عن جونيفر.

لا شيء يحكمني.

- إميلي دكنسون، الرسائل.

لا يمكنني أن أخبركم ما الضوء، لكن يمكنني أن أخبركم ما ليس هو... ما حافز الضوء؟ ما الضوء؟

- يوجين موريس، روح النملة البيضاء.

I

الحافة المسنّنة

وقت زيارتي، كانت في السجن أربعون امرأة فقط. يقول هذا الكثير عن الترويض الأخلاقي المتفوق للجنس الأضعف. كان هدفي الأساسي من زيارة قسمهنّ النظرُ في أمر القاتلة الشهيرة غريس ماركس، التي سمعتُ عنها الكثير، ليس فقط من الصحف العامة، ولكن من الرجل الذي دافع عنها في المحاكمة، وأنقذتها مرافعته القديرة من المشنقة، فيما أنهى شريكها البائس مسيرة ذنبه.

- سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

تعال وشاهد

الزهور الحقيقية لهذا العالم المؤلم.

- باشو.

1

تخرج الفاوانيا[1] من الأرض. تتسلل عبر الحصى الرمادي المتناثر، براعمها تختبر الهواء مثل عيون القواقع، ثم تنتفخ وتتفتّح، زهور حمراء داكنة ضخمة. تسطع وتلمع مثل الساتان. ثم تنفرط وتهوي إلى الأرض.

تذكرني في اللحظة التي تسبق انفراطها بزهور الفاوانيا في الحديقة الأمامية لمنزل السيد كينير، خلال يومِ عمليَ الأول هناك، غير أن تلك كانت زهورًا بيضاء. فيما تقطفها نانسي مرتدية فستانًا فاتحًا مطبعًا ببراعم ورد زهرية وتنورة بثلاث طيات، وقلنسوة من القش أخفت وجهها، حاملة سلة مسطّحة لتضع فيها الزهور. تحني وسطها مثل سيدة، مع إبقاء خصرها مستقيمًا. عندما سمعتنا والتفتت لتنظر، وضعت يدها على فمها كما لو أنها ذهلت.

أمشي مطأطئة الرأس، ملتزمة بإيقاع خطوات الآخرين في سيري، خافضة عينيَّ، نسير بصمت مثنى حول الفناء، داخل الساحة التي صنعتها الجدران الحجرية العالية. يداي مشبوكتان أمامي، متشققتان، محمرتا المفاصل. لا أستطيع تذكرها إلا وهي على هذه الحال. طرف حذائي يدخل ويخرج تحت حافة تنورتي، يظهر الحذاء الأبيض ثم يغيب تحت التنورة الزرقاء: الأزرق ثم الأبيض ثم الأزرق ثم الأبيض، خطواتي تمضغ الطريق. هذا الحذاء يناسبني أكثر من أي زوج أحذية امتلكته من قبل في حياتي.

حبستُ هنا حين كنت في السادسة عشرة من عمري، ها هو العام 1851 وسأبلغ في عيد ميلادي المقبل الرابعة والعشرين. أنا سجينة مثالية، ولا أتسبب في المشاكل، هذا ما سمعته خلسة من زوجة الآمر، أنا ماهرة في اختلاس السمع، إذا كنت جيدة وهادئة بما فيه الكفاية، ربما يسمح لي بالرحيل في نهاية الأمر. لكن ليس من السهل أن تكون هادئًا وجيدًا، إنه يشبه التعلق بحافة الجسر عند سقوطك، ظاهريًا أنت لا تتحرك، تتدلى فقط، ومع ذلك، فهذا السكون يستنزف قواك.

---

1 نبات عشبي يسمى أيضًا: عود الصليب. (م).

أشاهد زهور الفاوانيا بطرف عيني. أدرك أنه لا يفترض بها أن تكون هنا: فنحن في أبريل، وهي لا تزهر في هذا الوقت من العام. هناك ثلاثٌ منها الآن، أمامي مباشرة، تنبثق من المسار نفسه. مددت يدي -بتستر- للمس واحدة. إنّ لها ملمسًا جافًا، ما جعلني أفطن إلى أنها مصنوعة من القماش.

رأيت نانسي أمامي، جاثيةً على ركبتيها، شعرها منسدل والدم ينزلق إلى عينيها. ثمة منديل قطني أبيض مطبع بزهور الشونيز الدمشقي[2] الزرقاء ملفوف حول عنقها، إنه منديلي. ترفع وجهها، تمد يديها نحوي طالبة الرحمة. تلبس أقراطًا ذهبية صغيرة، كنت أحسدها عليها، لكني لم أعد أفعل. تستطيع نانسي الاحتفاظ بها، فهذه المرة كل شيء سيكون مختلفًا، هذه المرة سأركض للمساعدة، سأرفعها وأمسح الدم بتنورتي، سأمزق ضمادة من ثوبي، بعدها لن يكون أيٌّ من هذا قد حدث. سيعود السيد كينير إلى البيت بعد الظهر، سيصعد الممرّ الداخلي، سيأخذ ماكديرموت الحصان، سيدخل السيد كينير إلى الصالون، سأعد له بعض القهوة، وستأخذها نانسي إليه على صينية كما تحب أن تفعل، وسيقول: يا لها من قهوة جيدة. وفي الليل ستظهر اليراعات من البستان، وبجانب ضوء المصباح، ستعزف الموسيقا، عبر فلوت الصبي جيمي والش.

كدت أصل إلى المكان الذي تجثو فيه نانسي. لكني لا أتعجل الوصول، لا أكسر إيقاع السير، ألتزم بموقعي في الطابور. ثم تبتسم نانسي، فمها يبتسم، أما عيناها فمخبّأتان بالدم والشعر. تتناثر بعدها إلى لطخات من اللون، في مدٍّ من بتلات القماش الأحمر عبر الحجارة.

أضع يدي على عيني لأنها تظلم فجأة، وهناك يقف رجل بشمعة، يعترض السلالِم التي تؤدي إلى أعلى. وجدران القبو تحيط بي، وأنا أعلم أنني لن أخرج أبدًا. هذا ما قلته للدكتور جوردن، عندما وصلنا إلى ذلك الجزء من القصة.

---

2 يسمى بالإنجليزية love-in-a-mist ويعني بالضّبط: حب في السديم (م).

II

طريق وعر

الثلاثاء، الثانية عشرة وعشر دقائق، في سجن المدينة الجديد، يخضع جيمس ماكديرموت قاتل السيد كينير لأقصى عقوبة في القانون. تجمع عدد هائل من الرجال والنساء والأطفال يترقبون بفارغ الصبر مشاهدة النزع الأخير لابن جنسهم المذنب. لا يمكنني التكهن بنوع المشاعر التي تقود النساء اللاتي يتدفقن كالقطيع من بعيد أو قريب، عبر الطين والمطر لكي يحضرن هذا المشهد البشع. أجرؤ على القول إنّهن يفتقرن إلى الحساسية واللباقة. في لحظته الأخيرة، أظهر المجرم البائس الهدوء والجسارة ذاتها التي ميزت سلوكه منذ اعتقاله.

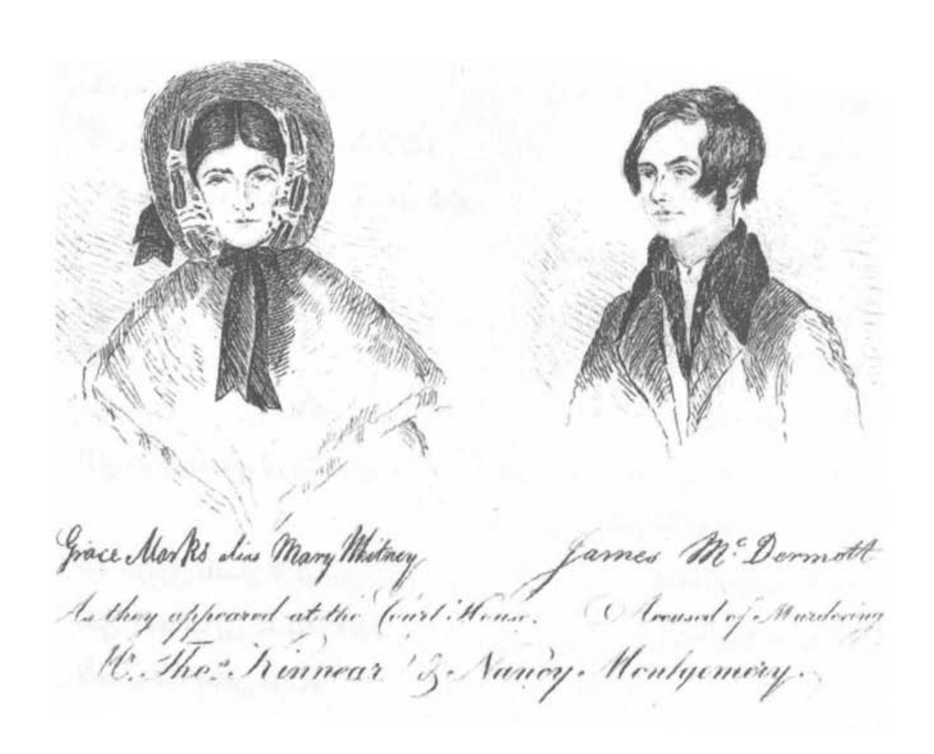
- تورنتو ميرور،

23 نوفمبر، 1843.

الإساءة	العقوبة
التحدث والضحك.	٦ جلدات بسوط ذي تسعة ذيول.
التحدث في غرفة الغسيل.	٦ جلدات بجلد غير مدبوغ.
التهديد بضرب رأس مدان.	٢٤ جلدة بسوط ذي تسعة ذيول.
التحدث مع الحراس عن أمور خارج إطار عملهم.	٦ جلدات بسوط ذي تسعة ذيول.
السلوك السيئ خلال التزود بالمؤن، على الرغم من الأمر بالجلوس.	٦ جلدات بجلد غير مدبوغ، والحرمان من الأكل عدا الخبز والماء.
التحديق وعدم الانتباه عند طاولة الإفطار.	الحرمان من الأكل عدا الخبز والماء.
ترك العمل والذهاب إلى المرحاض أثناء وجود مدان آخر فيه.	٣٦ ساعة في زنزانة معتمة، والحرمان من الأكل عدا الخبز والماء.

- سجل العقوبات،

سجن كنجستون، 1843.


Grace Marks alias Mary Whitney
James McDermott
As they appeared at the Court House. Accused of Murdering
Mr. Thos. Kinnear & Nancy Montgomery.

2

جريمة قتل توماس كينير المحترم، ومدبرة منزله نانسي مونتغمري في ريشموند هيل ومحاكمة كل من غريس ماركس وجيمس ماكديرموت والحكم بشنقه في سجن نيو غول بتورنتو، في الواحد والعشرين من نوفمبر 1843.

كانت غريس ماركس عاملة منزل،
عمرها ستة عشر عامًا،
كان ماكديرموت فتى إصطبلات،
كلاهما كانا يعملان لدى توماس كينير.

كان توماس كينير رجلًا نبيلًا،
يعيش حياة سهلة،
وكان يحب مدبرة منزله،
التي تدعى نانسي مونتغمري.

أوه عزيزتي نانسي لا تيأسي،
علي الذهاب إلى المدينة الآن،
لأجلب لكِ بعض المال،
من البنك الواقع في تورنتو.

أوه نانسي لم تكن سيدة بنسب رفيع،
نانسي ليست ملكة،
مع ذلك فهي ترفل في الساتان والحرير،
في أفضل ما وجد من الساتان والحرير.

أوه نانسي لم تكن سيدة بنسب رفيع،
مع ذلك تعاملني كعبد،
نانسي التي تقودني للعمل من الفجر حتى الليل
سوف تقودني إلى قبري في نهاية الأمر.

أما غريس فقد عشقت الرجل الطيب توماس كينير
عشق ماكديرموت غريس،
وأنا أدّعي أن هذين العشيقين
جلبا الخزي لهم.

أوه غريس كوني حبي الحقيقي،
أوه هذا لا يمكن أن يكون
ما لم تقتل من أجلي
نانسي مونتغمري.
هوى بفأسه،
على رأس نانسي الفاتنة،
جرها إلى باب القبو
وألقى بها من الدرج.

أرجوك اعف عني ماكديرموت
قالت: اعف عني.
قالت: اعفي عني يا غريس ماركس.
وسأمنحك فساتيني الثلاثة.

ليس من أجلي،

ولا من أجل مولودي الذي لم يولد بعد،
بل من أجل توماس كينير حبي الحقيقي،
سأعيش لأشهد الضحى.

ماكديرموت أمسكها من شعرها،
فيما أمسكتها غريس ماركس من الرأس،
وهذان المجرمان المتوحشان
خنقاها حتى الموت.
ماذا فعلت؟ فقدت روحي،
وأخاف على حياتي.
لذا لننقذ أنفسنا،
علينا قتل توماس كينير عندما يعود.

أوه لا، أتوسل إليك ألا تفعلها،
أرجوك بكل آلامي أن ترحمه!
لا، يجب أن يموت،
لأنك أقسمت أن تكوني خليلتي.

عاد توماس كينير إلى البيت راكبًا حصانه،
وعلى أرضية المطبخ
أطلق ماكديرموت رصاصة على قلبه
ليغرق في دمائه المسفوكة.

البائع المتجول قدم إلى المنزل،
سألني أن أشتري منه فستانًا؛

اذهب سيدي البائع،
لدي فساتين تكفي لثلاثة!
الجزار قدم إلى المنزل،
هو اعتاد القدوم كل أسبوع؛
اذهب سيدي الجزار،
لدينا ما يكفي من اللحم الطازج!

لقد سلبا كينير فضّته،
سلباه ذهبه،
سرقا حصانه والعربة،
وركبا إلى تورنتو.

كل ذلك كان في منتصف الليل،
هربا إلى تورنتو،
وحين عبِرا البحيرة باتجاه الولايات المتحدة
ظنّا أنّهما سيكونان حرين
قادت ماكديرموت من يده،
بكل ما للجرأة من معنًى،
وتوقفت في فندق لويستون
تحت اسم ماري ويتني

وجدت الجثث في القبو،
كان وجهها مسودًّا،
وقد كانت تحت المغسلة،
أما هو فقد كان ملقًى على ظهره.

ثم طاردهم بيليف كنجسميل،
استأجر سفينة
أبحرت بأقصى سرعتها،
عبر البحيرة إلى لويستون.

لم يكن قد انقضى على وجودهما في السرير ست ساعات،
ست ساعات أو أكثر بقليل،
عندما وصل إلى فندق لويستون
وقرع الباب.

من هناك؟ سألت غريس الجميلة،
ما الذي جلبك إلى هنا؟
لقد قتلتما توماس كينير الرجل الطيب
ونانسي مونتغمري.
وقفت غريس ماركس في قفص الاتهام،
ونفت عنها كل التهم.
لم أرها تخنق،
ولم أسمع صوت سقوطه.

لقد أجبرني على مرافقته،
قال إني إذا وشيت،
سيبعثني إلى الجحيم،
بطلقة واحدة من بندقيته الموثوقة.

وقف ماكديرموت في قفص الاتهام،

لم أفعلها لوحدي،
وما كنت لأفعلها لولا فتنة
غريس ماركس.

وقف الفتى جيمي والش في المحكمة،
أقسم على قول الحقيقة:
أوه غريس تلبس فستان نانسي،
وقلنسوتها أيضًا!
عُلق ماكديرموت من رقبته،
على المشانق الفارعة،
وغريس رميت في وحشة السجن،
حيث عليها أن تنحل وتتحسّر.

عُلق ساعةً أو ساعتين
ثم أنزلوا الجثة
وقطعوها إلى أجزاء
في الجامعة.

من قبر نانسي نبتت وردة،
وكرمة من قبر توماس كينير
وارتفعتا حتى تشابكتا،
وهكذا اجتمع الاثنان.

ولكن لباقي حياتها المرهقة
على غريس ماركس أن تكون محتجزة

بسبب إثمها وجرمها المشين،
في سجن كنجستون
لكن إن تابت غريس ماركس أخيرًا،
وكفرت عن ذنوبها،
عندما تحين لحظتها، ستقف
أمام عرش مخلصها.

أمام عرش مخلصها ستقف،
وستشفى من محنتها،
وستغسل يديها الملطختين بالدم،
وستكون بيضاء كالثلج.

وستكون بيضاء كالثلج،
وستعبر إلى الجنة،
وستخلد في الفردوس،
في الفردوس أخيرًا.

III

هِرٌّ في الرّكن

هي امرأة متوسطة الحجم، تتسم بالكياسة. هناك آثار غمّ يائس على وجهها، مما يجعل تأمله مؤلمًا. بشرتها بيضاء، ولا بدّ أنها كانت جميلة قبل أن تشحب بفعل لمسة الحزن اليائس تلك. عيناها زرقاوان لامعتان، شعرها كستنائي، وجهها سيكون جميلًا إلى حد ما لولا الذقن الطويل المنحني، الذي يعطيها -كما هو الحال دائمًا بالنسبة لمعظم الأشخاص الذين لديهم هذا العيب في وجوههم- تعبيرًا ماكرًا وقاسيًا.

تنظر إليك غريس ماركس نظرة جانبية مسترقة. عينها لا تلتقي أبدًا بعينيك، وبعد نظرة مختلسة، توجه تحديقها بثبات ناحية الأرض. إنها تبدو كشخص أعلى من مكانتها المتواضعة...

- سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

رفعت الأسيرة وجهها، كانت لطيفة وناعمة كقديس رخامي منحوت، أو كرضيع ناعس. كانت لطيفة وناعمة، كانت حلوة وجميلة، لم يكن الألم قادرًا على رسم خط، أو ظل حزين هناك!

رفعت الأسيرة يدها وضغطت بها على جبينها؛ قالت: «لقد ضُربت، وأنا أعاني الآن. ومع ذلك، فمساميرك وقضبانك القوية، قليلة القيمة. وهي وإن كانت مصنوعة من الفولاذ، فإنها غير قادرة على كبحي لوقت طويل.»

- إيميلي برونتي – السجينة، 1845.

3

العام 1859.

إنني جالسة على المقعدِ المخملي الأرجواني في صالون الآمر، صالون زوجة الآمر؛ دائمًا في صالون زوجة الآمر، على الرغم من أنها ليست دائمًا الزوجة نفسها، فهُم يتغيرون وفقًا لسياسة الحكومة. يداي مطويتان في حضني على النحو اللائق على الرغم من أنني لا ألبس القفازات. القفازات التي أرغبُ في امتلاكها ستكون ناعمة وبيضاء، ستلائمني تمامًا ولن تكون بها أي ثنيات.

غالبًا ما أكون في هذا الصالون. أزيل مستلزمات الشاي وأنفضُ الغبار عن الطاولات الصغيرة، والمرايا الطويلة المُؤطرة بفروع وعناقيد العنب، والبيانو، والساعة الطويلة التي أتت من أوروبا، ذات الشمس الذهبية المائلة إلى البرتقالي والقمر الفضي، اللذين يدخلان ويخرجان وفق التوقيت من اليوم والأسبوع من الشهر. الساعة هي الشيء المفضل لدي في الصالون، على الرغم من أنها تقيس الوقت، وهو وافر لدي.

لم أجلس على أريكة الصالون من قبل، فهي مخصصة للضيوف. تقول زوجة الوالي باركنسون إنّه لا يتعين على سيدة أبدًا الجلوس في كرسي أخلاه رجل للتو، على الرغم من أنها لم تذكر السبب. لكن ماري ويتني تقول: لأنه سيظل دافئًا بسبب مؤخرته، أيتها الساذجة! وهو ما كان كلامًا فظًا. لهذا لا أستطيع الجلوس هنا دون التفكير في المؤخرات الأنيقة التي جلست عليها. مؤخرات حساسة وبيضاء، مثل بيض مغلي طري ولدن.

تلبس الزائرات فساتينَ بعد الظهر التي تمتاز بأزرار أمامية تمتد إلى أعلى، وكرينولين بهيكل سلكي صلب. أمّا المدهش فهو قدرتهنّ على الجلوس بعد كل ذلك! وحين يمشين فلا شيء يمس أرجلهن تحت التنانير المنتفخة باستثناء ملابسهن الداخلية وجواربهن. ينجرفن كالبجعات على أقدام غير مرئية؛ أو بالأحرى مثل قنديل البحر في مياه الميناء الصخري بالقرب من المنزل الذي عشت فيه عندما كنت صغيرة، قبل أن أخوض الرحلة الطويلة الحزينة عبر المحيط.

كانت القناديل ذات شكل جرسي بثنيات، تتموّج برشاقة ورِقة تحت الماء. ولكن إذا ما جُرفت إلى الشاطئ وجفت في الشمس لم يبق منها شيء. وهذا هو حال تلك السيدات: لا يكنّ شيئًا، بمجرد أن يُفرّغن من الماء.

عندما قدمت إلى هنا لأول مرة، لم تكن كريونولين الأسلاك قد وجدت. فلم تخطر على بالهم بعد. وقد كانت حتى ذلك الحين تُصنَعُ من شعر الخيل. وكلما ذهبت لتفريغ وترتيب سلال الغسيل، رأيتها معلقة في خزانة الملابس. تبدو مثل أقفاص الطيور، لكن ما الذي تسجنه؟ السيقان، سيقان السيدات، المكبوتة بحيث لا تستطيع الخروج لتحتك بيناطيل السادة. زوجة الآمر لا تقول «سيقان» أبدًا على الرغم من أن الصحف قالت «سيقان» عندما تحدثت عن نانسي بساقيها الميتتين الظاهرتين من أسفل حوض الغسيل.

القدومُ إلى هنا ليس حِكرًا على سيدات قناديل البحر. في يوم الثلاثاء نستضيفُ قضية المرأة والحريات المتعلقة بهذا أو ذاك، مع أشخاص تنويريين من كلي الجنسين. وتعقد يوم الخميس جلسة استحضار الأرواح لتناول الشاي والتحدث مع الموتى، وهو ما يُشكل عزاء لزوجة الآمر بسبب رضيعها الراحل، لكن أغلب جمهور الدائرة من السيدات. يرتشفون من الأكواب الأنيقة بينما يجلسون، ثم تَقرع زوجة الآمر جرسًا خزفيًا صغيرًا. لا تُحب أن تكون زوجة الآمر، تفضل لو كان حاكمًا لشيء آخر غير السجن. كان لدى الآمر أصدقاء نافذون بما فيه الكفاية لجعله آمرًا، لكن ليس لأي شيء آخر.

لكنها هنا على أي حال، وتتوجب عليها الاستفادة إلى أقصى حد من موقعها وإنجازاتها الاجتماعية، حتى وإن كان موضوع إحسانها مثيرًا للرعب كعنكبوت، فأنا في نهاية الأمر إحدى إنجازاتها. أدخل الغرفة وأنحني، ثم أتحرك فيها، بفمي المستقيم ورأسي المُطأطأ، تعتمد حركاتي على ما إن كنت هنا لرفع الكؤوس أو وضعها، لكنهن في الحالتين يحدقن بي، من تحت قبعاتهن، دون أن يظهرن ذلك.

تعود رغبتهنّ في النظر إليّ كوني قاتلة «شهيرة»، أو هذا ما دُوّن. تفاجأتُ عندما رأيت هذا المصطلح أول مرة، لأنهم اعتادوا قول مغنية شهيرة وشاعرة

شهيرة وعرافة شهيرة وممثلة شهيرة، لكن ما الذي يمكن تعظيمه في القتل حتى يصبح شهيرًا؟ عدا ذلك، فإنك تشعر بعنف الكلمة حين تُربَط بك. تلك الكلمة ذات الرائحة المِسكية القاسية، مثل ورد ميت في مزهرية. أحيانًا أهمسُها لنفسي في الليل: قاتلة، قاتلة. فأجد لها حفيفًا كتنورةٍ من قماش التِفتا تعبر الأرضية.

أما (قاتل) فهي مجرد كلمة وحشية، مثل مطرقة، أو كتلة معدن. أُفضل أن أكون قاتلة على أن أكون قاتلًا، إن كان هذان هما الخياران المتاحان.

أحيانًا أنظر إلى نفسي في المرآة ذات الإطار المزخرف بالكروم وأنا أنفضُ الغبار عنها. بالرغم من معرفتي أن النظر في المرآة ينطوي على شيءٍ من الغرور. تحت ضوء ظهيرة الصالون، تتخذ بشرتي لونًا بنفسجيًا باهتًا، مثل كدمة شاحبة، وتميل أسناني إلى الخضرة. أفكر في كل الأشياء التي كُتبت عن كوني أنثى شيطانية. وأنّني ضحية بريئة لوغد هدد حياتي وأجبرني على القيام بأفعال لست واعية بها. وإن صح ذلك فإن شنقي سيُعد جريمة قضائية. وأنّني مغرمة بالحيوانات، وأنّني جميلة جدًا ببشرة متوهجة، وأنّ لدي عيونًا زرقاء، وعيونًا خضراء، ولديّ شعرًا كستنائيًا، وأيضًا بنيًا. وأنّني طويلة القامة، وأنّني متوسطة الطول. كما أنّني ألبس ملابسَ أنيقةً ولائقةً، سلبتها من امرأة ميتة حتى أظهر بهذه الصورة. وأنّني ذكية ونشيطة في عملي، وعندي نزعتي النكديّة التي يخالطها مزاج مشاكس، وأنّ لدي مظهرَ شخصٍ أعلى من منزلتي المتواضعة. وأنّني فتاة جيدة ذات طبيعة سمحة ولا تُذكَر لي أيّ إساءة، كما أنّني ماكرة ومخادعة، وبلهاء أو شبه بلهاء. وأنا أسأل نفسي، كيف يمكنني أن أكون كل هذه الأشياء المختلفة في الوقت نفسه؟

عندما وصفني محاميَّ السيد كينيث ماكنزي بالبلاهة، استأت. لكنه شرح لي عن كونها الفرصة الأفضل لكسب القضية، وحذرني من الظهور خلاف ذلك. ولأني لم أكن أكثر من طفلة بريئه، فقد وعدني ببذل قصارى جهده لأجلي، فحتى يكون الحكم مشروعًا يجب أن تتوفر إرادة الجاني الحرة وإصراره على الجُرم، وهو ما لم يكن متوفرًا في حالتي، بغض النظر عن ملابسات الأحداث. كان السيد ماكنزي طيبًا معي، صحيح أنني لم أفهم الكثير ممّا قاله خلال المرافعة إلا أن دفاعه كان

عظيمًا بلا شك، حتى إنّ الصحف وصفته بالبطولي. إنهم يسمونه دفاعًا، على الرغم من أن ما رأيته كان طعنًا في أخلاقية الشهود والدفع بهم ليظهروا بمظهر الخبثاء أو المخطئين على أقل تقدير.

أتراه صدقني!

فور مغادرتي الغرفة حاملة الصينية، نظرت السيدات إلى سجل قصاصات صحف زوجة الآمر.

- يكاد يغمى عليّ لمجرد تخيل ذلك! -قلنَ لها- ما كانت أعصابي لتحتمل، لا بدّ أن لكِ أعصابًا حديديّة، لتتركي تلك المرأة تمشي طليقة في منزلك.

- نحن أيضًا -كما تعلمن- سجناء بِدورِنا، جميعنا كذلك بمعنًى ما. على المرء أن يتصالح مع مثل هذه الأشياء، وأن يشعر بالشفقة على هذه المخلوقات المسكينة الجاهلة. وبالنسبة لغريس فقد دُرّبتْ لتكون خادمة، ومن الأفضل إبقاؤها منشغلة. إنها خياطة رائعة، بارعة ومنجزة، وهي تقدم لي مساعدة كبيرة خاصة مع فساتين الفتيات، ولديها عين مثالية للزركشة، وكان بإمكانها -في ظل ظروف أكثر حظًا- أن تكون مُساعدةً ممتازة لأحد صانعي القبّعات. مع ذلك فإني أسمح لها بالحضور هنا خلال النهار فقط، ما كنت لآمنها خلال الليل. لا بدّ أنكنّ على دراية بأنها أمضت بعض الوقت في المصحة العقلية في تورنتو، قبل سبعة أو ثمانية أعوام، وعلى الرغم من أنّها تبدو معافاة تمامًا، فليس لأحد أن يخمن متى تعاودها النوبات. لا يمكن للمرء المخاطرة، إذ إنّي أقبض عليها أحيانًا تتحدث إلى نفسها أو تغني بصوت عالٍ بأكثر الطرق غرابة. يُعيدها الحراس في المساء ويحتجزونها كما ينبغي، ما كان ليُغمضَ لي جفن لولا ذلك.

- أوه، لا يمكن لومك فهناك حدٌّ للإحسان، فالفهود لا تغير بقعها كما يقال، كما لا يمكن لأحد إنكار أنك قمت بواجبك وأظهرتِ الحسّ القويم بالقدر الذي استطعته.

يُغطّى سجل القصاصات -الذي يوضع على المائدة المستديرة- بشالٍ حريرٍ،

مزخرف بأغصان تبدو كفروع كروم متداخلة تنتمي إلى شجرة كبيرة واحدة. تخرج من الفروع أزهار وفاكهة حمراء، وتحطّ عليها عصافير زرقاء. وإذا ما حدقت لفترة كافية، تلتوي الكروم أمامك كما لو أن ريحًا تهبّ عليها. قَدِم هذا الشال من الهند، أرسلته ابنتها الكبرى، التي تزوجت من مبشّر. شخصيًا لا يعني لي السفر إلى هناك، سوى الموت المبكر. فإن لم تمت بفعل شغب السكان الأصليين كما حدث في كنبور -حيث تعرضت نساء محترمات للاعتداء، ذُبِحْنَ بعدها ليخلّصنَ من عارهنّ ويُستللن من بؤسهنّ- أقول إن لم تمت من العنف، ستموت بالملاريا التي تحيلك مصفرًا، وتَصرعك أخيرًا بنوبة عنيفة. في الحالتين سيحين الموت قبل أن تحين فرصة العودة، ثم تسجّى تحت شجرة نخيل في تراب أجنبي. لقد شاهدت صورًا لهم في كتاب النقوش الشرقية الذي تُخرجه زوجة الآمر عندما ترغب في ذرف دمعة أو اثنتين.

توجد على المائدة المستديرة نفسها، كومة من كتب غودي للسيدات اللّاتي يتابع الموضة الأمريكية، كما توجد ألبومات تذكارية لابنتيها الصغيرتين. البنتان تتطفلان وتشاكسان في بعض الأحيان، لكنهما في النهاية أصغر من أن تعيا ما تقولانه. تقول الآنسة ليديا -مثلًا- إنّني شخصية رومانسية. يقلن لي:

- غريس لماذا لا تبتسمين أو تضحكين أبدًا، فنحن لم نرك مبتسمة من قبل؟

- أفترض يا آنستي أن الابتسامة فقدت طريقها، ففمي لم يعد ينحني في ذلك الاتجاه. هكذا أرد.

لكن يُحتمل أن أعجز عن التوقف، إذا ما ضحكتُ بصوت عالٍ. وسيفسد ذلك تصورهما الرومانسي عني فالرومانسيون لا يضحكون، هذا ما تعلمته من خلال النظر إلى الصور.

تضع البنتان كل أنواع الأشياء في ألبوماتهما، قصاصات صغيرة من قماش فساتينهما، قصاصات صغيرة من الأشرطة، صور مأخوذة من المجلات -أطلال روما القديمة، الأديرة الخلابة لجبال الألب الفرنسية، جسر لندن القديم،

شلالات نياغارا في الصيف وفي الشتاء -وهو شيء أود أن أراه، يقولون إنّه مثير للإعجاب- وصور للسيدة فلانة واللورد فلان من إنجلترا. وأصدقاؤهما يكتبون أشياء بخطوط أياديهم الرشيقة: إلى ليديا العزيزة، من صديقتك الأبدية كلارا ريتشاردز. إلى ماريان العزيزة في ذكرى نزهتنا الرائعة على شواطئ بحيرة بلوست أونتاريو. وبعض القصائد أيضًا:

كضفيرة حول البلوط المتين
مجدولة بنبات الهيدرا المعرش برقة،
أتعهد لك -بولائي الصادق-
أنّني -وإلى الأبد- لن أكون إلا ملكك.
المخلصة لورا.

وأيضًا:

على الرغم من أنه يتوجب عليّ الرحيل،
لا تسمحي لقلبك أن ينكسر،
نحن اثنتان بروح واحدة،
لهذا -في الواقع- لن نفترق أبدًا.
لوسي.

غرقت هذه السيدة الشابة بعد فترة وجيزة في البحيرة عندما حملت العاصفة سفينتها، ولم يعثَر على أي شيء يخصها عدا صندوقٍ نقشت عليه حروفها الأولى بالمسامير الفضية. كان لا يزال مقفلًا، لذلك لم تُجرف محتوياته -على الرغم من البلل- التي كان من ضمنها وشاحٌ أعطي تذكارًا للآنسة ليديا.

حين أكون ميتة، مدفونة في قبري
وحين تبلى كل عظامي،
اذكريني عندما ترين هذا،
حتى لا أنسى.

هذه الأبيات موقعة هكذا: سأظل معك دائمًا بروحي، مُحبتك نانسي، هانا

ادموندز. وأجدني مجبرة على الاعتراف بأن التوقيع أرعبني أول الأمر، على الرغم من أنها كانت -بالطبع- نانسي أخرى. مع ذلك، لا بدّ أنّ عظامها قد بلت الآن. كان وجهها أسود تمامًا حين وجدوها، لا بدّ أن الرائحة كانت رهيبة، إذ كان الجو حارًا جدًا، فقد كنا في يوليو حينها، مع ذلك فقد يخطر ببالك أنها لن تتلف بتلك السرعة بما أنها في قبو الألبان، إذ عادة ما يكون المكان باردًا هناك. لكنها في الحقيقة تلفت بسرعة مذهلة. أنا ممتنة بالتأكيد أنني لم أحضر المشهد، وإلا لكان مفجعًا إلى أبعد حد.

لا أدري لماذا يتوق الجميع ليتذكرهم الآخرون. بأي فائدة سيعود عليهم ذلك؟ بعض الأشياء يجب أن تنسى تمامًا من قبل الجميع، فلا يعودون للحديث عنها مجددًا.

إن دفتر قصاصات زوجة الآمر مختلف تمامًا. يعود ذلك لكونها امرأة ناضجة وليست فتاة شابة، إذ على الرغم من أنها مغرمة بالتذكر، فما تريد تذكره ليس البنفسج والنزهات، ليس الأعزاء والحب والجمال، ولا الأصدقاء الأبديين. تلك أشياء ليست لها. ما تحفظه عوضًا عن هذا: المجرمون المشهورون. أولئك الذين شنقوا، أو أحضروا هنا للتوبة، فهذه مؤسسة إصلاحية -في نهاية الأمر- ويفترض بك أن تتوب فيها، بل ستكون أمورك أفضل إذا ادّعيت ذلك، سواء كان لديك ما تندم عليه أو لا.

تقتطع زوجة الآمر قصاصات الجرائم من الصحف وتلصقها في كرّاسها، يصل بها الأمر أحيانًا أن تكتب للصحف القديمة طالبة الجرائم التي وقعت قبل ولادتها. كم تحب إرعاب معارفها في كل فرصة مواتية! إنها سيدة وجميع السيدات يجمعن الأشياء هذه الأيام، لذا توجب عليها جمع شيء ما، فكانت هذه مجموعتها. إن ثلة المجرمين تلك كانت بديلًا عن سحب السراخس أو تخليل الزهور.

وهكذا قرأتُ ما قيل عني. عَرضت عليّ سجل القصاصات بنفسها، أعتقد أنها كانت تريد اختبار ردة فعلي. لكنني تعلمت كيفية الحفاظ على وجهي محايدًا، بجعل عيني عريضة ومسطّحة، مثل بومة في ضوء شعلةٍ، وقلت إنني قد تبت

بدموعي المريرة، وأصبحت الآن شخصًا آخر، وسألتها إن كانت تريد مني إزالة لوازم الشاي الآن. لكنني أيضًا عاودت النظر هناك عدة مرات منذ ذلك الوقت عندما كنت لوحدي في الصالون.

الكثير ممّا دوّن باطل. لقد قالت الصحافة إنّني أمية، مع أنه كان بإمكاني القراءة حتى في ذلك الوقت. علمتني والدتي القراءة في وقت مبكر، قبل أن يصبح ذلك عبئًا عليها، وقمت بأشغال الخياطة مستخدمة مخلفات الخيوط المتروكة، ألف أرنب، باء بطة. كما أن ماري ويتني كانت تقرأ معي، حين كنا في بيت زوجة الوالي السيدة باركنسون. ولقد تعلمت الكثير منذ أن قدمت إلى هنا، فهناك غرضٌ من تعليمنا. إنهم يريدونك أن تكون قادرًا على قراءة الكتاب المقدس، وكذلك الأدعية، لأن الدين والضرب العنيف هما العلاجان الوحيدان لطبائعنا الفاسدة. إنهم يسحقوننا رفقًا بأرواحنا الخالدة. وبالمناسبة فكم الجرائم التي يحويها الكتاب المقدّس صادم. ربما ينبغي لزوجة الآمر أن تقتطعها جميعًا وتلصقها في دفتر قصاصاتها.

لكنهم أيضًا ذكروا بعض الأشياء الحقيقية. قالوا إنّني أملك شخصيّةً صلبةً، وهذا صحيح؛ لأن أحدًا -على الرغم من المحاولات- لم يستغلّني على الإطلاق. لكنهم ادّعوا أن جيمس ماكديرموت (عشيقي) كتبوا ذلك في صدر الصحيفة! وهو أمر مقرف.

في الحقيقة، هذا بالضبط ما يثير اهتمام السادة والسيدات على حدٍّ سواء. لا يهمهم ما إذا كنت قد قتلت، كان بإمكاني قطع العشرات من الحناجر، دون أن يرف لهم جفن. بل إنّ القتل ميزة يعجبون بها إذا ما تحلى بها جندي. القدرة على القتل؟ كلا هذا لا يهمهم، ما يهمهم حقًا هو ما إذا كنت عشيقته. هم حتى لا يعرفون إذا ما كانوا يريدون أن تكون الإجابة نعم أو لا.

أمّا الآن فأنا لا أبحث في سجل القصاصات، لأنهم قد يأتون في أيّ لحظة. أجلس، يداي الخشنتان مطويتان، عيناي تنظران إلى الأسفل، تحدّقان في الزهور، أو ما يفترض بها أن تكون زهورَ السجادة التركية، بتلات حادة ومدببة،

لكنها بلون أحمر، أحمر غائر وسميك، كألسنة غليظة مختنقة. بثلاثٍ تتخذ شكل الماس في بطاقات اللعب. كالبطاقات المترامية على طاولة السيد كينير، بعد لعب السادة في الليلة السابقة.

لست بانتظار السيدات اليوم، لكنّني أنتظر طبيبًا يُعِدُّ لكتاب ما. زوجة الآمر تحب أن تكون مقربة ممّن يعملون في إنتاج الكتب ذات الأهداف التقدمية، حتى تبدو كشخص ذي عقلية متحررة بوجهات نظر طموحة. والعلوم تتقدم سريعًا، ومع الاختراعات الحديثة وقصر الكريستال[3] وبمراكمة المعرفة العالمية، من يدري أين سنكون جميعًا بعد مئة سنة.

وجود الطبيب في أي مكان، فألٌ سيئ. فهم وإن لم يتسبّبوا في القتل بأنفسهم، فوجودهم -بحد ذاته- يعني أن الموت قريب، وهكذا فهُم غربان بطريقة ما. لكن هذا الطبيب لن يؤذيني، وعَدَتْ بذلك زوجة الآمر. كل ما يريده هو فحص رأسي، فهو يقيس رؤوس جميع المجرمين في السجن، ليرى ما إذا كان بمقدوره أن يعرف من النتوءات على جماجمهم أي نوع من المجرمين هم، سواء كانوا من النشالين أو النصابين أو المختلسين أو المجرمين المعتوهين أو القتلة، هي لم تقل مثلكِ يا غريس. ومن ثم يمكنهم القبض على هؤلاء المجرمين المحتملين قبل أن تتاح لهم الفرصة لارتكاب أي جرائم. فكر كيف يمكن لشيء كهذا أن يحسن العالم.

قرأت في سجل القصاصات، أنهم صنعوا قالبًا من الجبس لرأس جيمس ماكديرموت بعد شنقه. أفترض أن الغرض من ذلك كان تحسين العالم أيضًا.

كما شُرّحت جثته أيضًا. عندما قرأت ذلك أول مرة لم أعرف ما يعنيه التشريح، لكنني عرفت ذلك عاجلًا. إنه أمر يفعله الأطباء. قطعوه إلى أشلاء مثل خنزير يُملَّح، ربما هذا ما كان عليه بالنسبة لهم: لحم خنزير مقدّد. جسده الذي سمعته يتنفس، وقلبه الذي كان يخفق، شُرّحا بالسكاكين. لا أستطيع تحمل الفكرة.

أتساءل ماذا فعلوا بقميصه. هل كان واحدًا من الأربعة التي باعها له جيرمايا

---

3 قصر الكريستال هو معرض في لندن يضم الاختراعات التكنولوجية الحديثة. (م).

البائع المتجول؟ كان ينبغي له أن يقتني ثلاثة، أو خمسة لأن الأرقام الفردية أكثر حظًا. كان جيرمايا يتمنّى لي التوفيق في كل مناسبة، لكنه لم يتمناه أبدًا لجيمس ماكديرموت.

لم أشهد الإعدام بنفسي. شنقوه أمام السجن بتورنتو. «كان يجب أن تكوني هناك غريس، لكان ذلك عبرة لك.» يقول الحرس. لقد تصورت ذلك مرات عديدة، جيمس المسكين واقف ويداه مربوطتان ورقبته عارية، وهم يضعون غطاءَ الرأس عليه مثل قطة صغيرة تُغرَق. كان ثمة كاهن برفقته، على الأقل لم يكن وحيدًا تمامًا. قال لهم: «ما كان كل هذا سيحدث لولا غريس ماركس.»

كانت السماء تمطر، وحشد ضخم يقف في الوحل، بعضهم قدموا من أماكن تبعد عدة أميال. لولا أنهم خفّفوا عقوبتي في اللحظة الأخيرة، لشاهدوني معلقة بذات المتعة الجشعة. كانت هناك العديد من النساء والسيدات، أراد الجميع أن يحدقوا، أرادوا أن يستنشقوا الموت كعطر فاخر، وعندما قرأت عن ذلك المشهد فكرت: إذا كان هذا هو الدرس، فما الذي يفترض بي تعلمه؟

أستطيع أن أسمع خطاهم الآن، فأقف سريعًا وأنفض مئزري ليستوِيَ. أستطيع تمييز صوت رجل غريب يقول: «هذا من لطفك سيدتي.» وزوجة الآمر ترد: «إنني سعيدة للغاية لأن بمقدوري المساعدة.» فيقول مجددًا: «أنت في غاية اللطف.»

ثم يدخل من الباب، رجل ببطن كبير، معطف أسود، صدرية ضيقة، أزرار فضية، ولفاع محكم الربط حول الرقبة، وهذا كل شيء فأنا لا أنظر إلى أبعد من الذقن. يقول إنّ هذا لن يستغرق وقتًا طويلًا، ولكني أفضل -يا سيدتي- أن تبقي في الغرفة. لا يكفي المرء أن يكون فاضلًا، عليه أيضًا أن يبدو كفاضلٍ. يضحك وكأنها مزحة، وأستطيع أن أميز في صوته توجسًا مني. امرأة مثلي دائمًا مغرية، إن بقينا دون مراقبة، فلن يهم ما ندعيه لاحقًا، لأن أحدًا لن يصدقنا.

بعدها رأيت يده، مثل قفاز محشو باللحم النيئ، تغطس في الفم المفتوح لحقيبته الجلدية، ثم تخرج متوهجة، وأنا أعلم أنني رأيت يدًا كهذه من قبل، فأرفع رأسي وأحدق في عينيه مباشرة، ينقبض قلبي ويبدأ في الخفقان بقوة كأنه

سيهرب، فأشرع بالصراخ.

أصرخ لأنه هو نفسه، الطبيب نفسه، الطبيب بمعطفه الأسود مع حقيبة من السكاكين اللامعة.

حاولوا إيقاف هيجاني برشق كوب ماء بارد في وجهي، لكنني واصلت الصراخ، على الرغم من أنّ الطبيب لم يعد في مرمى بصري. حاوَلَتِ الخادمتان كبحي، والبستاني أيضًا، حيث جلس على ساقي، لكني لم أتوقف إلا حين صفعتني مشرفةٌ قدمتْ من السجن رفقة حارسين، بعد أن أرسلت زوجة الآمر في طلبها. لم يكن ذلك الطبيب نفسه على أي حال، لكنه بدا مثله، في مظهره البارد الجشع المليء بالكراهية.

قالت المشرفة: إنها الطريقة الوحيدة للتعامل مع الهستيريين، تيقني من ذلك سيدتي، إن لدينا خبرة كبيرة مع هذا النوع من النوبات، التي كانت هذه المرأة ميالة لها، لكننا لم نتساهل أبدًا معها، عملنا على تصحيحها واعتقدنا أنها تخلت عنها أخيرًا؛ لكن ربما عادت اضطراباتها القديمة. لأنها على الرغم ممّا قالوه عنها في تورنتو، فقد كانت مجنونة في ذلك الوقت منذ سبع سنوات. لقد كنتم محظوظين إذ لم تكن هناك مقصات أو أي أدوات حادة في متناولها.

جرني الحراس إلى مبنى السجن الرئيس، أخبرتهم أنني أفضَلُ حالًا بعد أن ابتعدتُ عن الطبيب وسكاكينه، لكنّهم حبسوني في هذه الغرفة على أي حال، حتى أعود إلى طبيعتي مرة أخرى، كما قالوا. أخبرتهم عن رهابي من الأطباء، وهذا كل ما في الأمر. من أن أُقطَّع على أياديهم، رهاب لا يختلف عن خوف البعض من الثعابين. لكنهم قالوا: كفّي عن حيلك غريس، أنت فقط تريدين لفت الانتباه، ما كان ليقطّعك، لم يكن لديه سكاكين أصلًا، لقد كانت «سَمّاكَة» لقياس الرأس. أرْعَبْتِ زوجة الآمر، لكنها تستحق، فقد أفسدتك بدلالها، لقد صنعت منك حيوانًا أليفًا، ألم تفعل؟ حتى إنّ رفقتنا لم تعد كافية بالنسبة لك، حسنًا، ها هو الخبر السيئ، سيكون عليك تحملها لبعض الوقت، إلى أن يقرروا ما يجب فعله معك. فقد أثرت الآن نوعًا مختلفًا من الاهتمام.

تحتوي هذه الغرفة على نافذة صغيرة مرتفعة للغاية مع قضبان من الداخل، ومرتَبَة محشوة بالقش، هناك أيضًا كسرة خبز على طبق من الصفيح، ووعاء

فخاري للماء، ودلو خشبي فارغ، يستخدم لقضاء الحاجة. وُضِعتُ في غرفة كهذه قبل أن يرسلوني إلى المصحة العقلية. قلت لهم إنّني لم أكن المجنونة، لم أكن الفاعلة، لكنهم لم يستمعوا.

لم تكن الكثير من نساء المصحة مجنونات، إلا بقدر جنون ملكة إنجلترا، بل لم يكنّ ليعرفن الجنون حتى لو رأينه. كثير منهنّ كن عاقلات بما فيه الكفاية في حال صحوهن، لكن جنونهن يخرج من قنينة الخمر، وهو نوع كنت أعرفه جيدًا. كانت إحداهن هناك لتبتعد عن زوجها، الذي ضربها حتى ترك آثارًا على جسدها، لقد كان هو المجنون، لكن أحدًا لم يحتجزه. وقالت أخرى إنّها تجن بحلول الخريف، لأنها لم تكن تملك منزلًا، فيما المصحة دافئة، وإن لم تدّع الجنون بشكل جيد، فستتجمد حتى الموت. وعندما يأتي الربيع، يعود لها عقلها من جديد؛ لأن الطقس يصبح جيدًا ويمكنها أن تخرج وتتسكع في الغابة وتصطاد السمك، إذ إنّها من أصول هندية[4] ولديها معرفة بمثل هذه الأشياء. أرغب في أن أفعل ذلك بنفسي لو أن لدي الخبرة، ولو لم أكن أخشى الدببة.

نساء أخريات كنّ يعانين فعلًا من الجنون. مثل فتاة إيرلندية مسكينة خسرت جميع أفراد عائلتها، نصفهم عانى حتى الموت خلال مجاعة إيرلندا الكبرى، فيما قضى النصف الآخر من الكوليرا في القارب الذي حملهم من هناك إلى هنا. كانت تطوف الأرجاء مناديةً أسماءهم. أنا ممتنة لأنني غادرت إيرلندا قبل كل ذلك، فالمعاناة التي حدثتني عنها كانت مرعبة، وقد تراكمت الجثث في كل مكان ولم يكن هناك أحد ليدفنها. امرأة أخرى -من نزيلات المصحة- قتلت طفلها، لكنه بقي يتبعها في كل مكان ممسكًا تنّورتها، كانت تحمله لتضمّه وتقبّله أحيانًا، وفي أوقات أخرى كانت تزجره، وتضربه بيديها. كانت تلك المرأة تخيفني.

نزيلة أخرى متدينة للغاية، كانت دائمة الصلاة والغناء، وعندما علِمتْ بما ادّعوا أنّني فعلته ظلّت تتبعني وتنغص علي كلما استطاعت. قالت لي: اجث على ركبتيك يا غريس، لا ينبغي لنا القتل، ولكن هناك ربّ للآثمين، توبي ما دام لديك

---

4 نسبة إلى الهنود الحمر. (م).

مجال للتوبة، وإلا ستحلّ عليك اللعنة. كانت مثل واعظ في كنيسة، وحاولت أن تعمدني بالحساء، كان حساء رقيقًا يحتوي على الملفوف، صبت منه ملعقة كاملة على رأسي. وعندما اشتكيت، أعطتني المشرفة نظرة جافة، فيما زمّت شفتيها، وأظهرت وجهًا عديم الملامح، قالت: حسنًا غريس، قد يكون عليك الانصياع لها، إذ لم تبدر عنك توبة حقيقية، بالرغم من أن قلبك القاسي يحتاجها. ووجدتني فجأة غاضبة، فصرخت: لم أفعل شيئًا! هي السبب، كان ذلك خطأها!

سألتني المشرفة: من تقصدين غريس؟ تماسكي وإلا عوقبت بالحمّام البارد، وقميص التكبيل. ثم رمقت زميلتها: هذا بالضبط ما كنت أعنيه، إنها مجنونة كأفعى.

كل مشرفات المصحة كن بأجساد ضخمةٍ متينةٍ، مع أذرع كبيرة، وذقون تتجه مباشرة إلى أعناقهن وياقات بيضاء عتيقة، وشعر ملفوف مثل حبل باهت. لا بدّ أن تكوني قوية لتصبحي مشرفة في المصحة، في حال قفزت امرأة مجنونة على ظهرك وبدأت بشد شعرك، على الرغم من أن شدّ الشعر لا يحسن المزاج. كانوا يستفزّوننا أحيانًا، خاصة قبل أن يأتي الزوار. لقد أرادوا إظهار مدى خطورتنا، ومدى سيطرتهم علينا في الوقت نفسه، ما يجعلهم يظهرون على أنهم أكثر قيمة ومهارة.

توقفت بعدها عن إخبارهم بأي شيء. لا للدكتور بانرلينـج، الذي يأتي إلى الغرفة عندما أكون مقيدة في الظلام بينما يداي مصفدتان بقماش سميك: ابقي ثابتةً أنا هنا لفحصك، لا فائدة من الكذب عليّ. ولا للأطبّاء الآخرين الذين يأتون للزيارة: «أوه يا لها من حالة مثيرة فعلًا!» وكأنني عجل برأسين. في النهاية توقفت تمامًا عن الكلام، ما عدا الردود التي تفرضها اللباقة: نعم سيدتي، لا سيدتي، لا ونعم سيدي. ثم أعادوني إلى السجن، بعد أن اجتمعوا معًا بمعاطفهم السوداء: «هم...» «آها...» «في رأيي...» «زميلي المحترم...» «أستميحك عذرًا لمخالفتك الرأي...» بالطبع لا يمكنهم أن يعترفوا مباشرة أنهم كانوا مخطئين عندما قرّروا إنزالي هنا أول الأمر.

الناس الذين يلبسون نوعًا معيّنًا من الملابس لا يخطئون أبدًا. ولا يطلقون الريح أبدًا. اعتادت ماري ويتني القول: حيثما وجدت رائحة في غرفة هم فيها، تأكدي أنك أنت من أطلقها. وحتى لو لم تفعليها، فإيّاك أن تتفوّهي بشيء، وإلا حملتِ وقاحتك اللعينة، وضربة حذاء على المؤخرة، ورميت إلى الشارع.

كانت غالبًا تتحدث بطريقة أبعد ما تكون عن اللباقة. لم يساعدها أحد في تصحيح أخطائها. كنت -أنا نفسي- أتحدث بهذه الطريقة، لكنني اكتسبت آدابًا أفضل في السجن.

أجلس على فراش القش، فيصدر صوتًا مثل السحق. مثل ماء يرتطم بضفة. أتقلب من جانب إلى آخر لأستمع إليه. أستطيع إغلاق عيني وتخيل أنّني على البحر، في يوم جاف برياح هادئة. خارج النافذة، في البعيد، هناك شخص ما يقطع الخشب: ينزل فأس، يلمع برق خاطف غير مرئي، يتبعه صوت ثلم، ولكن كيف لي حتى أن أعرف أنه خشب؟

الغرفة باردة، وأنا لا أملك شالًا، فأعوّض ذلك بلف ذراعي حولي، أعانق نفسي، فمن غيري هنا ليفعل؟ عندما كنت أصغر سنًا اعتدت على التفكير في أنّي إذا ما استطعت أن أحضن نفسي بقوة كافية، فيمكنني أن أصبح أصغر حجمًا. لم يكن هناك متسع لي لا في البيت ولا في أي مكان آخر، لكن إذا ما كنت أصغر فسيصبح بمقدوري الانسجام.

شعري يخرج من تحت قبعتي. شعر أحمر كشعر الغول. أو كما قالت الصحف (كحيوان بري) وحش! ربما عليّ وضع الدلو فوق رأسي والاختباء خلف الباب حين يأتون حاملين عشائي، هكذا سأخيفهم. إذا كانوا يرغبون بشدة في الحصول على وحش، فيتعين توفير واحد لهم.

مع ذلك أنا لا أفعل مثل هذه الأشياء. كل ما هنالك أنني أفكر بها فقط. إذا ما فعلتها، سيتأكّدون أنني انتهيت إلى الجنون مرة أخرى. «انتهى إلى الجنون.» هو التعبير الذي يستخدمونه، وأحيانًا يقولون «في طريقه إلى الجنون.» كما لو كان الجنون اتجاهًا، مثل الغرب، كما لو أن الجنون بيتٌ آخر يمكنك المرور به، أو

بلد منعزل تمامًا. لكن عندما تنتهي إلى الجنون، فأنت لا تبرح مكانك، تبقى حيث أنت، غير أن شخصًا آخر يسكنك!

لا أريد أن أبقى وحيدة في هذه الغرفة. الجدران فارغة تمامًا، بلا صور معلقة، ولا ستائر تغطي النافذة الصغيرة المرتفعة. لا شيء للنظر إليه باختصار، وهكذا ينتهي بك الأمر محدّقًا في الحائط، وحين تستغرق في التحديق لبعض الوقت، تظهر لك الصور بعد كل شيء، وترى زهورًا حمراء تنبثق.

يتراءى لي أن النعاس تملّكني.

لقد حل الصباح، لكن أي صباح هو؟ الثاني أو الثالث؟ أيقظني الضوء المنعش خارج النافذة. وهأنذا أعاني للنهوض، أقرص نفسي، وأطرف بعيني، وأرفع أطرافي المتيبسة عن الفراش الذي يصدر خشخشةً. ثم أغنّي أغنية، لسماع صوت ما، للاستئناس برفقة من نوع ما:

«يا قدوس، يا قدوس، يا قدوس، أيها الرب القادر على كل شيء،
ستصعد أغنيتنا في الصباح الباكر إليك،
يا قدوس، يا قدوس، يا قدوس، أيها القدير الرحيم،
الرب في ثلاثة، تبارك الثالوث.»

لا يمكنهم الاعتراض حين تكون ترنيمة دينية غالبًا. ترنيمة للصباح، الذي طالما كنت مولعة به.

ثم أشرب آخر ما تبقى من الماء، وأسير في الغرفة، بعدها أرفع تنورتي الداخلية وأتبول في الدلو. بضع ساعات أخرى، وسيُنتن المكان كالمجاري.

النوم بملابسك يجعلك متعبًا. الملابس مجعدة، كما هو حال الجسد تحتها. كما لو أنني أُودعت صرة ودُحرجت، ثم رميت على الأرض.

أتمنى لو كان لدي مئزر نظيف.

لا يزورني أحد. تُركت للتفكير مليًا في خطاياي وجنحي، والتأمل أفضل ما يكون في العزلة، «أو هكذا هي وجهة النظر الخبيرة المعتمدة هنا يا غريس، بعد تجربتنا الطويلة مع هذه الأمور.» في الحبس الانفرادي، وأحيانًا في الظلام. هناك

سجون يحتجزونك فيها لسنوات، سنوات دون أن تلمح شجرة أو حصانًا أو وجهًا بشريًا. يقول البعض إنّ ذلك مفيد للبشرة.

ليست هذه هي المرة الأولى لي في السجن الانفرادي، يصفني الدكتور بانيرلينج بالمنافقة والمراوغة، التي لا أمل في إصلاحها: «حافظي على هدوئك، أنا هنا لفحص تشكيلة دماغك، قبل ذلك سأقيس نبضات قلبك ومعدل تنفسك.» لكنني كنت أعرف تمامًا ما ينويه. كانت ماري ويتني ستقول: «أبعد يديك عن صدري أيها الوغد القذر.» ولكن كل ما أمكنني قوله هو: «أوه لا، لا.» ولم تكن لدي أي طريقة للإفلات أو التراجع، نظرًا للطريقة التي ثبتوني بها، كنت مربوطة إلى الكرسي، وأكمام قميص التكبيل ملفوفة حولي ومعقودة خلفي. لذلك لم يكن بوسعي سوى عض أصابعه بأسناني، ثم وجدنا أنفسنا مقلوبين على الأرض نموء معًا مثل قطتين في كيس. كانت أصابعه بطعم النقانق النيئة ورطوبة الملابس الداخلية الصوفية. سيكون حالها أفضل لو غسلت بالماء الحار ووضعت في الخارج لتتشمس.

لم يقدموا لي العشاء الليلة الماضية، ولا الليلة التي سبقتها، لا شيء باستثناء الخبز، ولا حتى القليل من الملفوف، واليوم سيقدمون المزيد من الخبز والماء. حسنًا هذا متوقع. فالجوع مهدئ للأعصاب. ذلك أن اللحم يهيج المجرمين والمجانين، فالرائحة التي تصل إلى أنوفهم تفعل بهم ما تفعله بالذئاب، وعندها لا تلومن إلا نفسك. حصة البارحة من الماء انتهت، وقد عطشت، بل كدت أموت من العطش، أتذوق طعم كدمة في فمي، لساني يتورم. هذا ما يحدث لمن يلقي بهم البحر في مكان ناءٍ، لقد قرأت عنهم في صفحات أخبار المحاكمات، يضيعون في البحر ويشربون دماء بعضهم البعض. كانوا يقترعون بالقش لأجل ذلك. فظائع آكلي لحوم البشر ملصقة في سجل القصاصات. وأعرف على نحو مؤكد أنني لن أفعل شيئًا كهذا مهما بلغ بي الجوع.

هل نُسيت؟ سيكون عليهم جلب المزيد من الطعام، أو على الأقل المزيد من الماء، وإلا متّ جوعًا، وسوف أتصلب، وتجف بشرتي، متحولة إلى شيءٍ يشبه

الكتان الأصفر القديم. سأستحيل هيكلًا عظميًا. قد يجدونني أخيرًا بعد أشهر، أو سنوات، أو حتى قرون من الآن. سيتساءلون حينها من أكون: لا بدّ أننا سهونا عنها، حسنًا اكنس كل تلك العظام والقمامة إلى الزاوية، ولكن احفظ الأزرار، لا معنى للتفريط بها، لا جدوى من ذلك الآن.

عندما تبدأ الشعور بالأسف على نفسك، فإن ذلك يعني أنهم قد نالوا منك. ثم سيرسلون في طلب القسيس: أوه تعالي إلى ذراعي أيتها الروح الضالة المسكينة. هناك سعادة إضافية في السماء لذاك الحمل الضائع. أريحي عقلك المهموم. اركعي أمام قدمي. اقحمي يديك في الكرب. صِفي كيف يعذبك الضمير ليل نهار، وكيف تتبعك عيون ضحاياك في أرجاء الغرفة، حارقة مثل الفحم المحمر من الحرارة. اذرفي دموع الندم. اعترفي، هيا اعترفي. دعيني أغفر وأشفق. اسمحي لي أن ألتمس لك. أخبريني كل شيء.

ثم ماذا فعل؟ إنه أمر صادم حقًا! ماذا فعل بعد ذلك؟

اليد اليسرى أم اليمنى؟

إلى أي مدى ذهب للأعلى؟

أرني أين بالتحديد.

أظنني أسمع همسًا. هناك عين تنظر إليّ من خلال شق ضيق في الباب. لا أستطيع رؤيته، لكنني أعلم أنه هناك. ثم أسمع طرقًا.

وأتساءل من يمكن أن يكون؟ المشرفة؟ آمر السجن جاء لتوبيخي؟ لكن لا يمكن أن يكون ذلك أيًا منهما، فلا أحد هنا يقدم لك مجاملة الطرق على بابك، فهم ينظرون إليك من خلال الشق الضيق ثم يدخلون مباشرة. قالت ماري وتني: عليك دائمًا أن تطرقي الباب أولًا. ثم انتظري حتى تُمنحي الإذن. أنت لا تعرفين ما يفعلن حينها، نصف الأشياء لا يردنك أن تريها، قد تكون أصابعهن في أنوفهن أو في مكان آخر، حيث إنّ السيدات الراقيات أيضًا يشعرن بالحاجة إلى حك المكان المتهيّج، وإذا لمحتِ زوجًا من الكعوب يخرج من تحت السرير، فمن الأفضل ألّا تعيريه انتباهًا. قد يكنّ صرة حرير في النهار، لكنهن جميعًا آذان خنازير

في الليل.[5]

كانت ماري شخصًا ذا منظور ديمقراطي.

يعود الطرق مرة أخرى. كما لو أن لدي خيار السماح لهم بالدخول من عدمه. أدفع شعري تحت قبعتي، وأنهض من فراش القش، وأرتب ثوبي والمئزر، أتراجع إلى أبعد ركن في الغرفة، ثم أقول بحزم شديد، للحفاظ على كرامتي إن كان ذلك ممكنًا بعد: تفضل بالدخول.

---

5 المقولة الأصلية: Can't make a silk purse out of a sow's ear

5

يُفتح الباب ويدخل رجل من خلاله. إنه رجل شاب، في مثل عمري أو أكبر قليلًا. يعد شابًا بالنسبة للرجال، بينما تعد امرأةٌ في عمره قد تجاوزت الشباب، فامرأة مثلي هي عانس عجوز، لكن الرجل لا يكون عزبًا عجوزًا إلا حين يبلغ الخمسين، وحتى في ذلك العمر له حظ مع السيدات، كما اعتادت ماري ويتني القول. إنه طويل القامة، ذو ذراعين وساقين طويلتين، ولكنه ليس من النوع الذي قد تشير إليه بنات الآمر على أنه وسيم. إنهن يملن إلى ذلك النوع النحيل الذي يظهر في المجلات، من شديدي الأناقة حتى إنّ الزبدة لا تذوب في أفواههم، بأقدامهم الضيقة في الأحذية المدببة. هذا الرجل لديه نوع من الشدة وهو أمر لا يوافق الموضة، وكذلك قدم كبيرة، على الرغم من أنه رجل نبيل، أو يكاد يكون. لا أظن أنه إنجليزي، لذا يصعب عليّ تحديد ما إن كان نبيلًا أو لا.

يصح وصف شعره -البني، المتموج- بالجموح، إذ إنّه من النوع الذي لا يمكن تسويته بتمشيطه. معطفه وإن كان جيد التصميم، فهو ليس جديدًا، إذ توجد رقع لامعة على المرفقين. سترته من الترتان، الذي أصبح شائعًا منذ أن تحالفت الملكة مع إسكتلندا وشيدت قلعة هناك، مليئة برؤوس الغزلان أو هكذا يقولون. ولكن، الآن أرى أنها ليست من الترتان الحقيقي، إنه قماش بمربعات صفراء وبنية. لديه سلسلة ساعة ذهبية، لذلك على الرغم من أنه أشعث وغير مبالٍ بمظهره إلا أنه ليس فقيرًا.

يفتقر لسوالف الشعر التي أصبحت شائعة مؤخرًا. عن نفسي، لا أحبها كثيرًا، أعطني شنبًا أو لحيةً أو لا شيء على الإطلاق. كان جيمس ماكديرموت والسيد كينير حلِيقَي الذقن، وجيمي والش أيضًا، مع أنه لم ينبت لجيمي شعر يستحق الحلاقة. غير أن السيد كينير كان يملك شنبًا. عندما كنت أفرغ حوض حلاقته في الصباح، كنت آخذ بعض الصابون الرطب -كان يستخدم صابونًا جيدًا من لندن- وأفركه على جلدي، تحديدًا على جلد معصمي، لترافقني الرائحة طوال اليوم، أو على الأقل حتى يحين موعد فرك الأرضيات.

يغلق الرجل الشاب الباب خلفه. لا يوصده، لكن شخصًا آخر يفعل ذلك من الخارج. هذه الغرفة مقفلة علينا.

يقول: صباح الخير يا غريس. لقد علمت أنك تخافين من الأطباء، ويجب أن أخبرك على الفور أنني طبيب. اسمي د. جوردن، د. سايمون جوردن. ألقي عليه نظرة سريعة، ثم أنظر إلى أسفل.

وأسأل: هل سيعود الطبيب الآخر؟

- الشخص الذي أخافك؟ لا لن يعود.
- أفترض إذًا أنك هنا لقياس رأسي.
- لا أحلم بذلك.

قالها مبتسمًا، غير أنه ألقى على رأسي نظرة فاحصة. ولأني أضع غطاء الرأس، فلن يتمكن من رؤية شيء على أي حال. الآن وبعد أن تحدث، أعتقد أنه أمريكي بلا شك. لديه أسنان بيضاء، لم يفقد منها شيئًا، على الأقل ليس من أسنان المقدمة. أما وجهه فطويل وناتئ العظام. أنا أحب ابتسامته، على الرغم من أنها مائلة عند أحد جانبيها، ممّا يعطيه طابعًا مزوحًا.

أنظر إلى يديه، إنهما عاريتان، لا خواتم في أصابعه، ولا أي شيء آخر. أسأله:

- هل تحمل معك حقيبة بها سكاكين؟ حقيبة جلدية.
- لا -يرد- لست النوع المعتاد من الأطباء. أنا لا أشرّح. هل أنت خائفة مني يا غريس؟

لا أستطيع أن أقول إنني أخاف منه حتى الآن. من السابق لأوانه معرفة ذلك، من المبكر جدًا معرفة ما يريد. لا أحد يأتي لرؤيتي هنا إلا إذا كان يريد شيئًا.

وددت لو يقول أي نوع من الأطباء هو، إن لم يكن من النوع المعتاد، ولكن بدلًا من ذلك قال:

- أنا من ولاية ماساشوسيتس، أو لأقل إنّه المكان الذي ولدت فيه. لقد سافرت كثيرًا منذ ذلك الحين. «قطعت الأرض ذهابًا وإيابًا، ومشيت من أعلاها إلى أدناها.» ثم نظر إليّ، ليرى إن كنت أفهمه.

وأنا أعرف أنه كان يقتبس من سفر أيوب، قبل أن يصاب بالدمامل والقروح الجارية، وقبل الزوابع. وهذا ما كان يقوله الشيطان للرب. هذا يعني أنه جاء ليختبرني، على الرغم من أنه فات الأوان على ذلك، حيث إنّ الله قد غالى في اختباري سابقًا، وكنت أظنه قد تعب أخيرًا. لكنني لم أقل شيئًا، وعوضًا عن ذلك نظرت إليه بغباء. لدي نظرة غبية تمرست عليها.

- هل زرت فرنسا؟ ذلك المكان الذي تأتي منه كل الموضات؟
- -أسأله، فأرى أنني قد خيبت ظنه-
- نعم. وإلى إنجلترا، وكذلك إلى إيطاليا، وإلى ألمانيا وسويسرا أيضًا.

إنه لأمر شاذ الوقوف في غرفة سجن موصدة، والتحدث مع رجل غريب عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا. رجل سافر كثيرًا. لا بدّ أنه رحال مثل جيرامايا البائع المتجول. لكن جيرامايا سافر لكسب قوته، أما هذا النوع الآخر من الرجال فهم أصلًا أثرياء بما فيه الكفاية. يذهبون في رحلات بحرية طويلة بدافع الفضول فحسب. يتجولون في جميع أنحاء العالم ويحدقون في الأشياء، يبحرون عبر المحيط لمجرد المغامرة، وإذا ما ساء بهم الأمر في مكان ما، جمعوا أمتعتهم وارتحلوا إلى مكان آخر.

حان الآن دوري لقول شيء.

- لا أعرف كيف تدبرت أمرك سيدي، أنت وجميع الأجانب، حين لا يكون بمقدورك فهم ما يقال. عندما يأتي -المساكين- إلى هنا أول الأمر يهرفون مثل الإوز، على الرغم من أن أطفالهم سرعان ما يتمكنون من التحدث جيدًا.
- هذا صحيح، لأن الأطفال -أيًا كانوا- سريعو التعلم.

يبتسم، ثم يفعل شيئًا غريبًا. يضع يده اليسرى في جيبه ويسحب تفاحة. يمشي نحوي ببطء، يمسك التفاحة أمامه مثل شخص يحمل عظمًا إلى كلب خطير، من أجل كسب صداقته. ويقول: هذه لك.

أشعر بالعطش الشديد، والتفاحة تبدو لي كقطرة ماء كبيرة، باردة وحمراء. يمكنني عبها كاملة بجرعة واحدة. أتردد، ثم أفكر أنه لا يمكن لتفاحة أن تتسبب

بأي سوء، لذلك أخذتها. لم أحظ بتفاحة منذ فترة طويلة. لا بدّ أن هذه تفاحة من الخريف الماضي، حفظت في برميل في القبو، لكنها تبدو طازجة.

- لست كلبًا. قلت له.

معظم الناس كانوا سيسألون عمّا أعنيه، لكنه ضحك عوضًا عن ذلك. ضحكته مجرد نفس واحد: هاه. كما لو أنه وجد شيئًا فقده. ثم قال:

- لا يا غريس، أستطيع أن أرى أنك لست كلبًا.

فيمَ يفكر؟ أقف حاملة التفاحة بكلتا يدي. إنه شعور نفيس، مثل كنز ثقيل. أرفعها للأعلى وأشمها. إنها تحمل رائحة الهواء الطلق، أشعر أني سأبكي.

- ألن تأكليها؟
- لا، ليس بعد.
- لم لا؟
- لأنها ستزول بذلك.

الحقيقة، أنني لا أريده أن يراقبني وأنا آكل. لا أريده أن يرى جوعي. فمتى ما عرفوا حاجتك، استخدموها ضدك. أفضل طريقة هي التوقف عن الرغبة في أي شيء.

ضحك ضحكة النفس الواحد مجددًا. يقول: هل يمكن أن تخبريني ما هي؟ نظرت إليه، ثم أشحت بنظري بعيدًا. تفاحة، أقول. لا بدّ أنه يظن أنني ساذجة، أو ربما كانت خدعة من نوع ما، أو أنه مجنون، ولهذا تحديدًا أغلقوا الباب بعد دخوله، لقد حبسوني في هذه الغرفة مع رجل مجنون. لكن الرجال الذين يلبسن ملابس كالتي يلبسها، لا يمكن أن يكونوا مجانين، لا سيما بسلسلة الساعة الذهبية. إن لم يفعل أقاربه، فإنّ حراسه هم من سينتزعونها منه بلمح البصر، لو كان كذلك.

يبتسم ابتسامته المائلة، يقول:

- ما الذي تدفعك التفاحة إلى التفكير به؟
- أستميحك عذرًا سيدي أنا لا أفهمك. أرد.

لا بدّ أنه لغز من نوع ما. أفكر في ماري ويتني، وقشرة التفاح التي ألقيناها من فوق أكتافنا تلك الليلة، لنرى من سنتزوج. لكني لا أخبره بذلك.

- أعتقد أنك تفهمينني بما فيه الكفاية. يقول.
- القطعة المطرزة. أقول.

حان الآن دوره ليكون في موقف الجاهل.

- ماذا تعنين؟ يقول.
- القطعة التي خطتها وأنا صغيرة. ألف أرنب، باء بطة، وتاء تفاحة.
- آه نعم، لكن ماذا أيضًا؟

تلبست نظرتي الغبية وقلت:

- فطيرة التفاح.
- نعم، شيء تأكلينه. قال.
- أرجو ذلك سيدي، لم عساها أن تكون غير ذلك!
- هل هناك نوع آخر من التفاح يجب ألّا يؤكل؟ سأل.
- تفاحة فاسدة، حسب علمي.

إنه يلعب لعبة التخمين، التي لعبها معي د. بانرلينج في المصحة النفسية. هناك دائمًا إجابة صحيحة، فقط لأنها الإجابة التي يريدون، ويمكنك أن تقرأ في وجوههم ما إذا كنت قد خمنت بشكل صحيح. على الرغم من أن كل الإجابات مع د. بانرلينج خطأ. أو ربما كان دكتورًا في اللاهوت، هم الآخرون ميالون لهذا النوع من الاستجواب. لقد ضقت ذرعًا بهم منذ فترة طويلة.

تفاحة شجرة المعرفة، هي ما كان يعنيه. الخير والشر. يمكن لأي طفل تخمين ذلك، لكنني لن أخضع. أعود إلى مظهري الغبي.

- هل أنت واعظ؟ أسأله.
- لا، لست واعظًا. أنا طبيب لا يعمل مع الأجساد، ولكن مع العقول. أمراض العقل والدماغ والأعصاب.

أضع يدي والتفاحة خلف ظهري. أنا لا أثق به على الإطلاق.

- لا لن أعـود إلى هنـاك. لـن أعـود إلى المصحـة النفسـية، فإنسـان من لحـم ودم لا يمكنـه احتمـال ذلـك. أقـول.
- لا تخـافي. أنـت لسـت مجنونـة، هـل أنـت كذلـك غريـس؟
- لا لسـت كذلـك سـيدي.
- إذًا مـا مـن سبب لعودتـك إلى المصحـة، أهنـاك سـبب يـدعـو لذلـك؟
- إنهـم لا ينصتـون للمنطـق هنـاك سـيدي.
- لذلـك أنـا هنـا، أنـا هنـا لأنصـت للمنطـق، ولكـن إن كان عليّ أن أنصـت، فعليـك أن تتحـدثي.

أرى مـا يسـعى إليـه. إنـه جامـع. يعتقـد أن كل مـا عليـه فعلـه هـو أن يعطيني تفاحـة، ومـن ثـم يمكنـه أن يجمعنـي. ربمـا كان مـن إحـدى الصحـف، أو ربمـا كان مسـافرًا يقـوم بجولتـه. إنهـم يأتـون ويحدقـون، وعندمـا ينظـرون إليـك تشـعر بأنـك صغـير كنملـة، فيأخذونـك بين السـبابة والإبهـام ليقلبـوك. وأخـيرًا يضعونـك ويذهبـون في حـال سـبيلهم.

أنـت لـن تصدقنـي سـيدي، على أي حـال لقـد نَفِـذَ الأمـر، والمحاكمـة انتهـت منـذ زمـن طويـل ومـا أقولـه لـن يغـير أي شيء. يجـب أن تسـأل المحامين والقضـاة، ورجـال الصحافـة، يبـدو أنهـم يعرفـون قصتـي أفضـل ممّـا أعرفهـا شخصيًا. عـلى أي حـال، ليس بمقـدوري التذكـر. أسـتطيع تذكـر أشـياء أخـرى ولكنـي فقـدت ذلـك الجـزء مـن ذاكـرتي نهائيًا، لا بـدّ أنهـم أخـبروك بذلـك.

- أريـد مسـاعدتك يـا غريـس. قـال.

المسـاعدة، هـذا هـو البـاب الـذي يتسـلّلون منـه. يعرضـون المسـاعدة لكنهـم يتوقـون إلى الامتنـان في المقابـل. يتدحرجـون عليـه كمـا تتدحـرج القطـط في حشيشـة الهـر. يرغـب في أن يعـود إلى المنـزل ويقـول لنفسـه: لقـد أدخلـت إبهـامي وأخرجـت خوخـة[6]، يـا لي مـن فتىً جيـد. ولكننـي لـن أكـون خوخـة أحـد. لـن أقـول شـيئًا.

يواصـل:

6 إشارة إلى أغنية الأطفال: Little Jack Horner (م).

- إذا حاولتِ التحدث، سأحاول الاستماع. اهتمامي بالمسألة علمي بحت. لا يجب أن نهتم بجرائم القتل وحدها.

إنه يستخدم صوتًا لطيفًا، لطيفًا على السطح يخفي رغبات أخرى مخبأة تحته.

- قد أخبرك الأكاذيب. أقول.

لا يقول لي: يا له من اقتراح خبيث يا غريس، لديك مخيلة آثمة. بل يقول:

- ربما ستفعلين، قد تكذبين دون قصد، وقد تكذبين عامدة. ربما كنت كاذبة.

أنظر إليه.

- هناك من قال إنني كذلك من قبل. أقول.

- أحيانًا ينبغي علينا أن نجازف. يقول.

أنظر إلى الأرض:

- هل سيأخذونني مجددًا إلى المصحة؟ أم سيضعونني في الحبس الانفرادي، دون أن يقدموا لي ما يؤكل عدا الخبز؟ أقول.

- أعدك أنّك طالما واصلتِ الحديث معي، ولم تفقدي السيطرة على نفسك وتصبحي عنيفةً، فستبقين في وضعك الحالي. لديّ وعدٌ من آمر السجن. يرد.

أنظر إليه، ثم أنظر بعيدًا، وأعود فأنظر إليه من جديد، أمسك التفاحة بين يدي الاثنتين، فيما يترقب، ثم أخيرًا أرفع التفاحة، وأضغط بها على جبهتي.

IV

ولع رجل يافع

من بين هؤلاء المجانين المهتاجين عرفت الوجه الاستثنائي لغريس ماركس، الذي لم يعد حزينًا ويائسًا، بل مضاء بشعلة الجنون، ومتوهّجًا بفرحة شيطانية فاحشة. عندما أدركتْ أن الغرباء كانوا يراقبونها، تلاشت صارخة وكأنها شبح، مختفية في إحدى الغرف الجانبية. في أكثر نوبات مرضها الرهيب جموحًا. ما زالت تطاردها باستمرار ذكرى الماضي. يا لها من فتاة حزينة! متى ينتهي الرعب الطويل لعقابها وندمها؟ متى تجلس عند قدمي يسوع، مرتدية كسوة لا تشوبها شائبة من الصلاح، متى تُغسل يداها من لطخة الدم؟ متى تولد روحها من جديد؟ ويُغفر لها؟ ومتى تعود لصوابها؟

دعونا نأمل في أن تُنسب كل ذنوبها السابقة إلى الأفعال التي يولدها هذا المرض المروع.

- سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

إنه لمن دواعي الأسف الشديد أننا لا نملك المعرفة التي قد نتعامل بوساطتها مع هذه المنكوبة سيئة الحظ. يمكن للجراح أن يقطع البطن ويكشف عن الطحال. يمكن قطع العضلات وعرضها على الطلاب الشباب. لكن لا يمكن تشريح الحالة النفسية للإنسان، كما لا يمكن وضع طريقة عمل الدماغ على الطاولة لعرضها.

كطفل لعبت ألعابًا وأنا عاصب العينين، ما حجب رؤيتي. لقد عدت ذلك الطفل من جديد. معصوب العينين، أتلمس طريقي، لا أعرف في أي اتجاه أنا ذاهب، أو إذا ما كنت في الاتجاه الصحيح. لا بدّ أن يأتي اليوم الذي يزيل فيه أحدهم تلك العصابة.

- دكتور جوزيف وركمان، المشرف الطبي، المصحة العقلية الإقليمية، تورنتو. رسالة إلى هنري، شاب متقصي ومضطرب، 1866.

لا يحتاج المرء أن يكون غرفة؛ ليكون مسكونًا. لا يحتاج إلى أن يكون منزلًا.
فالدماغ يحتوي ممرات تفوق أي مكان مادّي.

- ...

ذواتنا المستترة وراء ذواتنا
حري بها أن ترعبنا أكثر من سفاك مختبئ في شققِنا.

- إيميلي ديكنسون، 1863.

6

إلى الدكتور الطبيب سايمون جوردن، دار لابيرنوم، لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية. من الدكتور جوزيف وركمان، المشرف الطبي، المصحة العقلية الإقليمية، تورونتو، غرب كندا. *15* أبريل *1859.*

عزيزي الدكتور جوردن:

أقر باستلام رسالتكم الثانية. وأشكركم على رسالتكم التقديمية من زميلي الموقر الدكتور بينسوانغر من سويسرا، والذي تابعت إنشاءه لعيادته الجديدة ببالغ الاهتمام. اسمح لي أن أقول، باعتباري على معرفة شخصية بالدكتور بينسوانجر، إنّك ستكون موضع ترحيب كبير لتعاين المؤسسة التي أشرف عليها، في أي وقت. سيكون من دواعي سروري أن آخذك بنفسي في جولة عبر المؤسسة، وأن أشرح لك أساليبنا.

بما أنك تنوي إنشاء مؤسسة خاصة بك، فيجب أن أشدد على أن التطهير والتصريف الجيد من الأمور ذات الأهمية القصوى، لأنه لا فائدة من محاولة الاعتناء بذهن مريض، في حين يكون الجسم مصابًا بالعدوى. هذا الجانب من الموضوع غالبًا ما يُهمَلُ. حين قدِمتُ إلى هنا، كانت تتفشى حالات الكوليرا، والزحار المتمكن، والإسهال المستعصي، والتيفوئيد بكل أطيافه المميتة، كانت جميعها تؤرق نزلاء المصحة. في مسار تحقيقاتي حول مصدرها، اكتشفت وجود بالوعة ضخمة ومؤذية إلى حد بعيد تمتد على طول الأقبية. في بعض الأماكن تكون درجة الكثافة بقوة الشاي الأسود، وفي حالات أخرى مثل الصابون الليّن اللزج، والذي لم يصرف بسبب فشل البناة في توصيله بمصرف المجاري الرئيس. بالإضافة إلى ذلك، فإمدادات مياه الشرب والغسيل تأتي عبر ماسورة سحب من البحيرة، في خليج راكد، بالقرب من الأنبوب الذي تَصرِف المجاري الرئيسة من خلاله دفقها الفاسد. لا عجب أن النزلاء كانوا يشتكون في كثير من الأحيان من

أن مياه شربهم تحتوي على طعم مركب لم يسبق لمعظمهم تجربته، ولا تشتهي القلة التي جربته من قبل إعادة استهلاكه!

النزلاء هنا مقسمون حسب الجنس، والأعراض، هناك تنوع كبير. أجد التعصب الديني تربة خصبة لتهييج الجنون، تمامًا كالإدمان. ولكنني أميل إلى الاعتقاد أنّه لا الدين ولا الإدمان يثيران الجنون في عقل سليم تمامًا. أعتقد أن هناك دائمًا سببًا مهيئًا يجعل الفرد قابلًا للمرض، عند التعرض لأي قوة مزعجة، سواء كانت عقلية أو بدنية.

ومع ذلك، فللحصول على معلومات بشأن الهدف الرئيس من استفسارك، يؤسفني أنه سيتوجب عليك السعي في مكان آخر. أُعيدت السجينة غريس ماركس التي أدينت بالقتل، إلى السجن الموجود في كينغستون في أغسطس 1853، بعد إقامتها هنا خمسة عشر شهرًا. بما أنني كنت قد عُينت قبل مغادرتها بحوالي ثلاثة أسابيع فقط، لم تكن لدي فرصة تقريبًا لإجراء دراسة شاملة عن قضيتها. ولذلك أحلت رسالتك إلى الدكتور صامويل بانرلنغ، الذي شهد وجودها في عهد من سبقني. أما بالنسبة إلى درجة الجنون التي عانت منها في الأصل، فأنا لست مؤهلًا للكلام. كان انطباعي أنها كانت عاقلة لفترة جديرة بالاعتبار في الماضي، أو عاقلة لدرجة تسوغ إخراجها من المصحة. أوصي بشدة بتبني معاملة لطيفة في ما يخص ضبطها. أعتقد أنها حاليًا تقضي جزءًا من يومها خادمةً لدى عائلة الآمر. في الفترة الأخيرة من إقامتها، كانت تتصرف بكثير من الانضباط. في حين جعلها صنيعها وعطفها العام تجاه المرضى، نزيلة مفيدة ونافعة. وهي تعاني بين حين وآخر من الإثارة العصبية، والإجهاد المؤلم للقلب.

إحدى المشكلات الرئيسة التي تواجه مدير مؤسسة ممولة من القطاع العام كهذه، ميلُ سلطات السجون إلى الإيعاز إلينا بالكثير من المجرمين المزعجين، من بينهم القتلةُ الوحشيّون، النهابون واللصوص الذين لا مكان لهم بين الأبرياء والمجانين غير العنيفين، يحدث ذلك ببساطة لإخراجهم من السجن. من

المستحيل أن نجعل مبنًى -زوّد بسبل الراحة من أجل علاج المجانين- مكانًا لحبس المجرمين المعتوهين، وبالتأكيد ليس للمجرمين المحتالين. وأنا أميل بشدة للاشتباه في أن الطبقة الأخيرة أكثر عددًا ممّا يمكن افتراضه عمومًا. إلى جانب العواقب الوخيمة المترتبة على المرضى جراء اختلاط الأبرياء مع المجرمين المعتوهين، هناك سبب للاعتقاد بوجود تأثيرٍ متدهورٍ على الطباع والعادات التي يمارسها المراقبون والموظفون التابعون للمصحة، ممّا يجعلهم غير قادرين على تقديم معاملة ملائمة، وإنسانية كالسابق.

ولكن عندما تقترح إنشاء مؤسسة خاصة، فأنا على ثقة بأنك ستتعرض لصعوبات أقل من هذا النوع، وستعاني أقل من التدخل السياسي المزعج الذي كثيرًا ما يمنع علاجهم. وبالحديث عن هذا، أتمنى لك كل النجاح في مساعيك بهذا الخصوص، كما في باقي الأمور. مع الأسف، فوجود مؤسسة كمؤسستك هو أمر مطلوب في الوقت الحاضر، سواء في بلدنا أو في بلدكم. نظرًا لقلق الحياة العصرية المتزايد وما يترتب على ذلك من توترات عصبية، فإن معدل الإنشاء بالكاد يواكب أعداد مقدمي الطلبات. وأنا مستعد برحابة صدر لتقديم أي مساعدة، تقع ضمن حدود قدرتي.

المخلص،

الطبيب/ جوزيف وركمان.

***

من السيدة ويليام ب. جوردن، لابورنوم هاوس، لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية. إلى الدكتور سايمون جوردن، المقيم لدى الرائد سي. همفري، شارع لور يونيون، كينغستون، الغرب الكندي.

29 أبريل 1859.

ابني العزيز:

وصلت اليوم مذكرة طال انتظارها تحوي عنوانك الحالي وتعليمات لمرهم الروماتيزم. لقد كان مبهجًا رؤية خطك العزيز مرة أخرى، ولو القدر القليل منه، وهو أمر لطيف منك أن تعتني بالبنية المعيبة لأمك المسكينة.

أغتنم هذه الفرصة لأكتب لك بضعة أسطر، مع إرفاق الرسالة التي وصلت إلى هنا من أجلك في اليوم التالي لمغادرتك. كانت زيارتك الأخيرة لنا قصيرة للغاية، متى نتوقع رؤيتك بين عائلتك وأصدقائك مرة أخرى؟ الكثير من السفر لا يمكن أن يكون مفيدًا، لا لراحة بالك ولا لصحتك. أتوق إلى اليوم الذي تختار فيه الاستقرار بيننا، وأن تثبت نفسك على نحو لائق، بالطريقة التي تناسبك.

لا يسعني سوى ملاحظة أن الرسالة المرفقة مرسلة من المصحة النفسية في تورنتو. أفترض أنك تنوي زيارتها، على الرغم من أنك ولا بدّ قد شاهدت -بحلول هذا الوقت- كل منشأة من هذا القبيل في العالم، ولا يمكن أن تستفيد من رؤية أخرى. إن وصفك لتلك المؤسسات في فرنسا وإنجلترا، وحتى تلك التي في سويسرا، والتي تبدو أنظف، ملأني بالرعب. يجب علينا جميعًا أن نصلي من أجل الحفاظ على سلامة عقولنا. ولكن لدي شكوك جدية بشأن وضعك المستقبلي، في حالة اتباع مسار العمل المقترح. يجب أن تغفر لي اعترافي هذا بني، فلم أتمكن مطلقًا من فهم الاهتمام الذي توليه لمثل هذه الأمور. لم يُشغل أي شخص في العائلة من قبل بالمجانين، على الرغم من أن جدك كان أحد رجال الدين الكويكرز.[7] إنه أمر جدير بالثناء أن تسعى لتخفيف المعاناة الإنسانية، ولكنَّ المجانين بالتأكيد، مثلُهم مثل البلهاء والمقعدين، مدينون بحالهم إلى العناية الإلهية، ويجب على المرء ألا يحاول نقض القرارات العادلة بالتأكيد، على الرغم من غموضها بالنسبة لنا.

بالإضافة إلى ذلك، لا أستطيع أن أصدق أن مصحة خاصة يمكن أن تكون مربحة، فأقارب المجانين يصبحون مهملين بشكل ملحوظ بمجرد أن يُبْعَد الشخص المصاب عنهم، ولا يعودون راغبين في سماع أو معرفة المزيد عنه، ويمتد هذا الإهمال

7 جماعة دينية مسيحية. (م).

إلى تسديد فواتيره، ثم هناك تكلفة الطعام والوقود، والأشخاص الذين يجب أن يعينوا ليحملوا مسؤوليته. هناك العديد من الاعتبارات التي يجب أن تأخذها في الحسبان، وبالتأكيد فإنه من المستبعد أن يفضي الالتزام اليومي مع المجانين، إلى أسلوب حياة هادئ. يجب أن تفكر أيضًا في زوجتك وأطفالك المستقبليين، الذين لا يجب أن يوضعوا بالقرب من مجموعة من المجانين الخطرين.

أعلم أنه ليس من شأني تحديد مسار حياتك، لكني ألح بقوة على أن شركة التصنيع ستكون خيارًا أفضل، وعلى الرغم من أن مصانع النسيج لم تعد كما كانت، بسبب سوء إدارة السياسيين، الذين يستغلون ثقة العامة دون رحمة، ويصبحون أسوأ كل عام، لكن -مع ذلك- فهناك العديد من الفرص الأخرى في الوقت الحاضر، وقد قام بعض الرجال باستغلالها على نحوٍ جيّدٍ، فأنت تسمع عن ثروات جديدة تصنع كل يوم، وأنا متأكدة من أن لديك ما لديهم من الطاقة والفطنة. إنهم يتحدثون عن ماكينة خياطة جديدة يمكن استخدامها في المنزل، وقد تحدث فرقًا كبيرًا، إذا أنتجت بثمن يسير؛ لأن كل امرأة سترغب في امتلاك مثل هذه الآلة، التي من شأنها أن تقلص الساعات الطويلة من الكدح الرتيب والكد المتواصل، كما ستقدم أيضًا مساعدةً كبيرةً للخياطات الفقيرات. ألا تستطيع أن تستثمر الميراث الصغير المتبقي لك من بيع مشاريع أبيك المسكين، في مثل هذا المشروع الرائع الذي يمكن الاعتماد عليه؟ وأنا على يقين من أن ماكينة الخياطة ستخفف من معاناة البشر بالقدر الذي تفعله مئات المصحات العقلية، وربما أكثر من ذلك حتى.

لطالما كنت مثاليًا دائمًا، ومليئًا بالأحلام المتفائلة. لكن الحقيقة لا بدّ أن تظهر في وقت ما، وأنت الآن على وشك أن تبلغ الثلاثين.

أنا لا أقول هذه الأشياء من باب التطفل أو التدخل، ولكنها نابعةٌ من حرص أمٍّ قلقة على مستقبل ابنها الوحيد المحبوب. أرجو أن أراك مستقرًا قبل أن أموت -كانت أيضا لتكون رغبة والدك العزيز أيضًا- تعرف أنني أعيش على أمل رؤيتك هانئًا.

تدهورت صحتي بعد مغادرتك، لطالما كان لوجودك تأثيرٌ إيجابيٌ على معنوياتي. كنت أسعل كثيرًا بالأمس حتى إنّ موريـن المخلصة بالكاد استطاعت إعانتي على صعود الدرج، فأنا وهي تقريبًا في ذات العمر، وذات الوهن أيضًا، ولا بدّ أننا بدونا مثل ساحرتين عجوزين تصعدان التل. هذا بجانب الخلطات التي أتجرعها عدة مرات في اليوم، والتي تحضّرها سامانثا الطيبة في المطبخ. إنها سيئة الطعم مثلها مثل كل الأدوية التي يجب تناولها، وسـامانثا تُقسم أنها ما عالجت أمها. لكني لا أزال على نفس الحال، على الرغم من أنني كنت صحيحة بما يكفي اليوم لاستقبال الضيوف في الصالون كالمعتاد. كان لدي العديد من الزوار، الذين سمعوا عن وعكتي، من بينهم السيدة هنري كارترايت، التي تتمتّع بقلب طيب على الرغم من أن أسلوبها يفتقر للتهذيب أحيانًا، كما هو الحال دائمًا مع أولئك الذين اكتسبوا ثرواتهم مؤخرًا. لكن هذا أمر يأتي مع الوقت. كانت برفقة ابنتها فايث، التي تتذكرها باعتبارها فتاة خرقاء ذات ثلاثة عشر عامًا، ولكنها كبرت الآن، وقد عادت مؤخرًا من بوسطن، حيث أقامت مع عمتها، لزيادة تحصيلها العلمي. لقد تحولت إلى امرأة شابة جذابة، تتمتع بكل ما يرغب فيه المرء، وقد أظهرت لطفًا رقيقًا وكيّسًا يستحق الإعجاب، وهو ما يفوق بكثير الجمال الصارخ. لقد غمرتني السيدة العزيزة كارترايت بدلالها، حيث أحضرت معها سلة من الأطعمة الشهية، التي أعربت عن امتناني لجلبها، بالرغم من أنني بالكاد أستطيع تذوق أي شيء، إذ إنّني مصابة بفقدان الشهية في الوقت الحالي.

إنه لأمر محزن أن تكون عاجزًا، وإنني أدعو كل ليلة ألّا يصيبك ذلك. احرص على ألّا تبالغ في إرهاق نفسك بالكثير من الدراسة والإجهاد العصبي، والبقاء مستيقظًا طوال الليل على ضوء المصباح، ممّا يتلف عينيك ويريك عقلك، ولا تنسَ ارتداء الصوف على جسمك إلى أن يحل الطقس الدافئ. نبتت أول خسة لنا، وبرعمت شجرة التفاح. أفترض أن المكان الذي تسكنه لا يزال مغطّى بالثلوج. لا أعتقد أن كينغستون يمكن أن تكون جيدة للرئتين، كونها في الشمال وواقعة على جانب البحيرة، لا بدّ أنها باردة جدًا ورطبة. هل غرفكم جيدة التدفئة؟ أتمنى أن

تتناولوا طعامًا يقوّيكم، وأن يكون لديهم جزارّون جيّدون هناك.

أرسل لك كل حبي يا بني العزيز، وموريـن وسـامنتثا تتمنيان أن تذكرهما، ونحن جميعًا بانتظار الأخبار -التي نأمل أن تأتي قريبًا- حول زيارتك القادمة. إلى أن نلتقي مجددًا سأبقى دائمًا،

أمك المحبة.

***

من الدكتور سايمون جوردن، المقيم لدى الرائد سي. همفري، شارع لور يونيون، كينغستون، الغرب الكندي. إلى الدكتور إدوارد مورشي، دورشيستر، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية.

1 مايو 1859.

عزيزي إداورد:

آسف لعدم تمكني من زيارة دورتشستر، لأرى كيف تجري أموركم هناك، وقد شمرت عن ساعديك، مشغولًا بالعناية بالعُرْج المحليّين والمكفوفين، بينما كنتُ أجوب أنحاء أوروبا كالغجر، ساعيًا لأعرف كيفية التخلص من الشياطين، والتي لم أتعلم سرّها حتى الآن -لأكون صريحًا معك- ولكن كما يمكن أن تفترض، فقد قضيت الوقت بين وصولي إلى لوميسفل ومغادرتي لها، في التحضيرات، وكانت فترات ما بعد الظهيرة بالضرورة مكرسة لوالدتي. ولكن عند عودتي، لا بدّ لنا من لقاء، لرفع كأس أو اثنين معًا من أجل الأيام الخوالي، والتحدث عن مغامراتنا الماضية، ومشاريعنا الحالية.

بعد رحلة معتدلة لطيفة عبر البحيرة، وصلت بسلام إلى وجهتي. لم ألتق بعد بصاحب العمل الذي تواصل معي -القس فيرينغر- لأنه يزور تورنتو في هذه الأثناء، لذا فما زال بإمكاني الاستمتاع بوضع التكهنات، على الرغم من أنّنا لو اعتبرنا رسائله إليّ المؤشرَ الوحيد، لوجدناه يعاني كالعديد من رجال الدين -وهو أمر يكاد يستوجب العقوبة- من الافتقار إلى الفطنة، والرغبة في معاملتنا جميعًا كأغنام

ضالة، فيما يكونون هم رعاتنا. ومع ذلك فإني أدين بهذه الفرصة له وللدكتور بينسوينجر الطيب، الذي قدمني باعتباري أفضل رجل -في الجانب الغربي من المحيط الأطلسي- لهذه المهمة. وأيضًا للسعر المنخفض الذي عرضته، فالميثوديّون معروفون باقتصادهم. فرصة آمل أن أستغلها من أجل النهوض بالمعرفة. فعلى الرغم من كل التقدم الذي نشهده ما زالت المعرفة بالعقل ووظائفه مجهولة.

لا أجد كينغستون مدينة جذابة، حيث أحرقت وسويت بالأرض منذ حوالي عقدين، وأعيد بناؤها بسرعة، وبصورة تفتقر للجمال. المباني الجديدة من الحجر أو الطوب، والتي تجعلها -كما هو مأمول- أقل عرضة للحرائق. أما السجن فيتخذ طراز معبد يوناني، وهذا مصدر فخر بالنسبة لهم، على الرغم من أنني بصدد اكتشاف أي إله وثني قُصد أن يُعبد في داخله.

تمكنت من تأمين غرفة في مسكن الرائد س. د. همفـري، وعلى الرغم من أنه غير فاخر إلا أنه يفي بالغرض. أخشى مع ذلك أن مالك العقار مدمن على الكحول. في الحالتين اللتين صادفته فيهما، كان يجد صعوبة في لبس قفازاته، أو خلعها، بدا غير واثق أيهما لأيهما، وأعطاني عينًا حمراء، كما لو أنه يسأل ما الذي أفعله في منزله بحق الشيطان. أتوقع أن ينتهي به المطاف في مصحتي الخاصة التي أحلم بإنشائها، على الرغم من أنني يجب أن أوقف نزوعي لرؤية كل شخص جديد على أنه زبون مستقبلي. من اللافت للنظر أنه عندما يتقاعد العسكريون حاصلين بذلك على نصف أجورهم، يؤولون لحالة سيئة، يبدو الأمر كما لو أنهم اعتادوا على الإثارة الحادة والعواطف العنيفة، بحيث يصبحون مدفوعين لتطبيقها في الحياة المدنية. ومع ذلك، فلم تتمّ الترتيبات الخاصة بي مع الرائد -الذي لا شك في أنه لم يكن قادرًا على تذكر أنه قام بها- بل مع زوجته التي عانت معه ولا تزال.

أتناول وجبات الطعام، باستثناء الإفطار -والذي هو بالمناسبة أسوأ حتى من وجبات الإفطار التي تشاركناها أثناء دراستنا الطب في لندن- في نزل حقير يقع بالجوار. حيث كل وجبة تقدم محروقة، ولن يكون الأمر أسوأ حتى لو أضافوا القليل من التراب والأوساخ مع تتبيلة من الحشرات. إنني أظل هنا على الرغم من

فن الطهي المشوه، وأنا آمل أن تأخذه كمعيار لمدى تفاني الحقيقي لقضية العلم.

أما بالنسبة للمجتمع، فلا بدّ أن أقول إنّ هناك فتيات جميلات هنا كما في أي مكان آخر، وإن كن يلبسن أزياء تجاوزتها موضة باريس منذ ثلاث سنوات، ونيويورك منذ سنتين. على الرغم من التوجهات الإصلاحية للحكومة الحالية للبلاد، فإن المدينة تزخر بكل من المحافظين الناقمين، والإقطاعيين المتعجرفين المثيرين للشفقة وأتوقع أن صديقك الذي لا يهتم بمظهره -والأهم من ذلك- اليانكي الديمقراطي سيقابل بنظرات الشك من قِبل السكان المتحزّبين.

ومع ذلك، فإن الآمر -إثر إلحاح القس فيرينغر، على ما أظن- قد بذل جهده في تضييفي، وقد رتب وضع غريس ماركس تحت تصرفي لعدة ساعات بعد ظهر كل يوم. يبدو أنها تعمل في منزل الآمر كخادمة غير مدفوعة الأجر، سواء كانت تنظر لتلك الخدمة على أنها جميل أو كفارة، عليّ التحقق من ذلك. في الحالتين لن تكون مهمتي سهلة، حيث إنّ غريس اللطيفة كسيت بقشرة صلبة من المحن خلال الخمسة عشر عامًا الماضية، وسيكون من الصعب كسرها الآن. تساؤلات كتلك التي أحملها، غير مجدية ما لم أحز على ثقة موضوع الدراسة. ولكن انطلاقًا من معرفتي بالمؤسسات الجزائية، أظن أنه كان لدى غريس دافع ضئيل للثقة بأي شخص على الإطلاق لفترة طويلة جدًا.

لم تتح لي سوى فرصة واحدة حتى الآن للقاء موضوع تحقيقاتي، ولذا فمن السابق لأوانه نقل انطباعاتي. دعني أقول فقط إنّني متفائل، وبما أنك قد أعربت عن رغبتك في الحصول على أخبار عن مسار الأمور، فسأتحمل مشقة إبقائك على اطلاع. وحتى ذلك الحين سأبقى -يا عزيزي إدوارد- الصديق القديم ورفيق الأمس،

سايمون.

7

يجلس سايمون على طاولة الكتابة، فيما يقضم طرف قلمه وينظر من النافذة إلى المياه الرمادية المتلاطمة لبحيرة أونتاريو. على الجانب الآخر من الخليج تقع جزيرة وولف، التي -يفترض- أنها سميت على اسم الجنرال الشاعري الشهير. لا يعجبه المنظر -إنه أقرب لأن يكون أفقًا فارغًا وممتدًا- لكن الرتابة البصرية بإمكانها أن تساعد على التفكير في بعض الأحيان.

زخات المطر تسقط على زجاج النافذة. الغيوم المنخفضة تجري فوق البحيرة. البحيرة نفسها تثور وتعلو، والأمواج تُسحب باتجاه الشاطئ، فترتد، ثم تسحب من جديد. وأشجار الصفصاف تحته تهز نفسها مثل رؤوس من الشعر الأخضر الطويل، تنحني وتتحرك بعنف. تمر رفرفة شاحبة، تبدو مثل وشاحٍ أو خمارِ امرأة أبيض، لكنه يرى بعد ذلك أنه مجرد نورس، يحارب الرياح. يفكر في الاضطراب الطائش للطبيعة. أسنان ومخالب الطبيعة كما يصفها تينيسون.[8]

لا يشعر بأنه مفعم بالأمل الطروب الذي عبر عنه للتو. بدلًا من ذلك هو غير مستقر، بل يكاد يكون مكتئبًا. سبب وجوده هنا يبدو غير موثوق، لكنها أفضل فرصة له في الوقت الحالي. كان دافع دراساته الطبية عناد الشباب. وكان والده صاحب مصنع ثري آنذاك، وتوقع بكل ثقة أن يتولى سايمون إدارة الشركة في الوقت المناسب. وتوقع سايمون نفسه ذات الشيء. سيتمرد قليلًا في البداية على أي حال. سيغيب، سيسافر، سيدرس، سيختبر نفسه في العالم، وكذلك في عالم العلم والطب، الذي لطالما أغراه. بعدها سيعود إلى البيت بهوايته، مرتاحًا إلى أنه لن يحتاج إلى تكييف هوايته لدر المال. معظم العلماء الكبار لديهم دخل خاص يسمح لهم بإمكانية البحث العلمي المتحرر من النفعية.

لم يكن يتوقع انتكاسة والده، وكذلك انتكاسة مصانع النسيج. لم يعد يتذكر أي نكسة حلت أولًا. وبدلًا من أن يتجاوز جدولًا هادئًا، وجد نفسه وسط البحر مُجتاحًا بالمصائب. وقد تُرك متشبثًا بصارية مكسورة. بعبارة أخرى، رمي إلى موارده

---

8 من قصيدة تأبين - In Memoriam (م).

الخاصة. وهو ما ادعى في جدالات المراهقة مع والده، أنّه أشد ما يرغب فيه.

بيعت المصانع، ومنزل طفولته الفخم، وعدد كبير من طاقم الخدمة: خادمات غرف النوم، خادمات المطبخ، خادمات الصالونات، تلك الجوقة -التي تتغير باستمرار- من الفتيات المبتسمات أو نساء بأسماء مثل أليس وإيفي، اللّاتي دُلّلن وهيمنَّ أيضًا على طفولته وشبابه، واللّاتي يفكّر أنّهنّ بِغْنَ بطريقة ما مع البيت. كانت رائحتهنّ مثل الفراولة والملح. كان لديهن شعر طويل ممتد، عندما يكون مُرسلًا، أو على الأقل امتلكت واحدة منهنّ شعرًا كهذا، لقد كانت تلك إيفي على الأغلب. أما بالنسبة لميراثه، فهو أصغر ممّا تعتقد أمه، والكثير من دخله يذهب إليها. وترى أنها تعيش في وضع مقتصد، وهذا صحيح، إذا أُخِذت في الاعتبار مكانتها السابقة. إنها تعتقد أنها تقدم تضحيات لسايمون، وهو لا يرغب في تحريرها من هذا الوهم. بنى والده نفسه بنفسه، أما والدته فبناها الآخرون، وهذه الصروح هشة بشكل واضح.

وبالتالي فإن المصحة الخاصة بعيدة عن متناوله في الوقت الحاضر. ومن أجل جمع الأموال اللازمة، سيتوجّب عليه أن يكون قادرًا على تقديم شيءٍ جديدٍ، اكتشافٍ جديدٍ أو علاجٍ جديدٍ، في حقل مزدحم بالفعل ومثير للجدل. ربما عندما يثبت اسمه، سيكون قادرًا على بيع أسهم فيه. لكن بدون فقدان السيطرة: يجب أن يكون حرًا مطلق الحرية، في اتباع أساليبه الخاصة، بمجرد أن يقرر بالضبط تلك الأساليب، فسوف يكتب نشرة إعلانية تنص على: غرف كبيرة ومبهجة، تحتوي على التهوية والصرف المناسبين، وأراضٍ ممتدّةٌ، مع نهر يتدفق من خلالها، حيث إنّ صوت الماء مهدئ للأعصاب. سوف يضع خطًا أحمر للآلات والموضات العابرة، وخصوصًا الأجهزة الكهربائية، لن يستخدم المغناطيس. صحيح أن الرأي العام الأمريكي معجب كثيرًا بمثل هذه الأفكار -فهم يفضلون العلاجات التي يمكن إجراؤها عن طريق سحب ذراع أو الضغط على زرٍّ- لكن سايمون لا يثق في فعاليتها. على الرغم من الإغراء، يجب عليه رفض التنازل عن نزاهته.

كل شيءٍ لا يزال مجرد خطط مرسومة حاليًا. لكن يلزم أن يكون لديه مشروع من نوع ما، ليلوح به في وجه والدته. يجب أن تصدق أنه يعمل على تحقيق هدف ما، حتى وإن كان هدفًا تستهجنه. بالطبع يمكنه دائمًا أن يتزوج المال، كما فعلت هي نفسها. حيث قايضت اسم عائلتها وعلاقاتها بكومة من النقود الطازجة الخارجة مباشرة من مصنع صك العملة، وستكون أكثر من مستعدة لترتيب شيء كهذا له: لقد أصبح هذا النوع من الزواج الذي يشابه تجارة الخيول، شائعًا ومتزايدًا بين الأرستقراطيين الأوروبيين الذين فقدوا ثروتهم والمليونيرات الأمريكيين حديثي الثروة، هو أيضًا قابل للحدوث على نطاق أضيق بكثير، في لوميسفيل بولاية ماساتشوستس. ثم خطرت بباله الأسنان الأمامية البارزة والرقبة الشبيهة برقبة إوز للآنسة فيث كارترايت، فاقشعر بدنه.

ينظر إلى ساعته: فطوره متأخر مرة أخرى. يتناوله في غرفته، حيث يصل كل صباح، تحمله دورا على صينية خشبية. دورا هي رئيسة خدم صاحبة البيت المتخصصة في كل شيء. إنها تضع الصينية مع طرقة عنيفة وخشخشة على الطاولة الصغيرة في نهاية غرفة الجلوس، حيث يجلس لِيَلْتهم ما عليها، فور ذهاب مضيفته، أو على الأقل الأجزاء التي يخمن أنها صالحة للأكل منها. وقد اتخذ عادة الكتابة قبل الإفطار على الطاولة الأخرى والأكبر، حتى إذا وُجد عاكفًا على عمله، لن يكون مضطرًا للنظر إليها.

دورا قوية ولها وجه منتفخ، وفم صغير مقلوب للأسفل مثل طفل مصاب بخيبة الأمل. يلتقي حاجباها الأسودان الكبيران فوق أنفها، ممّا يعطيها عبوسًا دائمًا يسمها بتعبير من الغضب الرافض. من الواضح أنها تكره كونها خادمة لكل شيء. يتساءل إذا كان هناك أي عمل آخر قد تفضله. لقد حاول تخيلها كعاهرة -غالبًا ما يلعب هذه اللعبة الذهنية الخاصة مع العديد من النساء اللاتي يصادفهنّ- لكنه غير قادر على تصور أي رجل يدفع مقابل خدماتها. سيكون الأمر أشبه بالدفع مقابل أن تدهسك عربة، وهذه التجربة ستشكل تهديدًا واضحًا للصحة. دورا مخلوق ضخم، يمكنه كسر العمود الفقري لرجل إلى نصفين بفخذيها، واللذين

يتصورهما سايمون مائلين للون الرمادي، مثل النقانق المسلوقة، ومكتنزين مثل ديك رومي محترق، وهائلين كل واحد منهما بحجم خنوص.

دورا تبادله عدم الاحترام. يبدو أنها تشعر أن استئجاره هذه الغرف له غرض وحيد هو التسبب في المتاعب لها. فهي تتلف مناديله، وتوسع قمصانه، وتضيع أزرارها، والتي بلا شك تنتزعها بشكل روتيني. حتى إنّه يشتبه في أنها تحرق خبزه وتبالغ في طبخ بيضته عن قصد. بعد رمي صينيته على الطاولة، تزفر «ها هو طعامك.» كما لو أنها تنادي خنزيرًا للطعام. ثم تمشي متثاقلة، تُطبق الباب خلفها بعنف.

أفسد سايمون دلالُ الخدم الأوروبيّين الذين ولدوا وهم يعرفون مكانتهم. لم يعوّد نفسه بعد على هذا المظهر المشين للمساواة والذي يمارس كثيرًا على هذا الجانب من المحيط. ما عدا في الجنوب بالطبع، لكنه لا يذهب إلى هناك.

هناك مساكن أفضل في كينغستون يمكنه استئجارها، لكنه لا يرغب في دفع ثمنها. مسكنه الحالي مناسب بما فيه الكفاية للفترة القصيرة التي ينوي قضاءها. بالإضافة إلى أن غياب المستأجرين الآخرين يمنحه خصوصية يقدرها، كما يقدر الهدوء الذي يمكّنه من التفكير. إنه منزل حجري بارد ورطب. ولكنه يلائم مزاجه -لا بدّ أنه (الإنجليزي الجديد) القديم الذي بداخله- يشعر سايمون بنوع من الازدراء تجاه الانغماس في الملذات المادية. وبوصفه طالبًا في الطب اعتاد على التقشف الرهباني، وأن يعمل لساعات طويلة في ظل ظروف صعبة.

يعود مرة أخرى إلى مكتبه، ويبدأ: أمي العزيزة، شكرًا لك على رسالتك الطويلة والمفيدة. أنا بخير، وأحرز تقدمًا كبيرًا هنا في دراستي للأمراض العصبية والدماغية بين المجرمين. إذا ما عرفت مفاتيح تلك الأمراض فسنقطع بذلك شوطًا كبيرًا نحو التخفيف...

يعجز عن المواصلة، إذ يشعر بأنه مخادع. لكن عليه أن يكتب شيئًا ما، وإلا افترضت أنه غرق، أو مات فجأة بالسل، أو أنه ضرب من قبل اللصوص. يفكر في أنّ الطقس دائمًا موضوع جيد، لكن، لا يمكنه الكتابة عن الطقس على معدة فارغة.

يأخذ من درج مكتبه منشورًا صغيرًا يعود تاريخه إلى وقت الجريمة، والذي أرسله إليه القس فيرينغر. يحتوي المنشور على اعترافات غريس ماركس وجيمس ماكديرموت، بالإضافة إلى نسخة موجزة للمحاكمة. توجد في المقدمة صورة منقوشة لغريس، يمكن أن تقبل بسهولة كبطلة لرواية عاطفية. كانت في السادسة عشرة من عمرها في ذلك الوقت، لكن المرأة المصورة تبدو أكبر بخمس سنوات. أكتافها مغطاة بالفرو، تحيط حافةُ قبعتها برأسها مثل هالة مظلمة. الأنف مستقيم، الفم رقيق، بتعابير الحنان التقليدية، ومظهر التأمل المبتذل لمريم المجدلية، مع العيون الكبيرة التي تحدق في اللّا شيء.

إلى جانبها نقش مماثل لجيمس ماكديرموت، الذي يظهر في ياقة مفتوحة بإفراط على موضة تلك الأيام، وشعر سرحت أطرافه للأمام يذكّر بنابليون، ويقصد منه الإشارة إلى هيجانه. إنه مقطب الوجه، مطيل التأمل على طريقة بايرون. لا بدّ أن الرسام الذي رسمه كان معجبًا به.

كتب على صفيحة نحاسية، تحت اللوحة المزدوجة لهما: غريس ماركس، الاسم المستعار ماري ويتني، وجيمس ماكديرموت، المتّهمان بقتل السيد توماس كينير، ونانسي مونتغمري. كما ظهرا في المحكمة. الشكل العام يحمل تشابهًا مزعجًا مع دعوات الزفاف، أو قد يظهر كذلك بدون الصور.

تجاهل سايمون هذه الصورة تمامًا خلال استعداداته لمقابلة غريس أول مرة. كان يفكر أنّها بلا شك ستبدو مختلفة تمامًا الآن؛ شعثاء أكثر من السابق، أقل ضبطًا للنفس، أقرب للمتسولين، بل ومن المحتمل جدًا أن تكون مجنونة. قاده أحد الحراس إلى زنزانتها المؤقتة، وحبسه في الداخل معها، بعد أن حذّره من أنها أقوى ممّا تبدو عليه، وأن باستطاعتها أن تعض رجلًا عضةً شيطانيةً، ونصحه بطلب المساعدة إذا أصبحت عنيفة.

فور أن رآها، عرف أن هذا لن يحدث. سقط ضوء الصباح مائلًا من خلال النافذة الصغيرة العالية على الجدار، مضيئًا الزاوية التي كانت تقف فيها. لقد كانت صورة من العصور الوسطى تقريبًا في ملامحها الجلية، تبدو في الزاوية

الواضحة: كراهبة في الدير، أو عذراء في زنزانة شاهقة، بانتظار أن تحرق على وتد في اليوم التالي، إلا إذا أتى بطل اللحظة الأخيرة لإنقاذها. المرأة في الزاوية، بثوب السجن الذي ينسدل حتى الأسفل، مخفيًا قدميها العاريتين بلا شك. فراش القش على الأرض، الكتفان محنيان من الرهبة، فيما كانت الأذرع معلقة بالقرب من الجسد الرقيق، الخصلات الطويلة للشعر الكستنائي تفلت ممّا بدا للوهلة الأولى، إكليلًا من الورد الأبيض. كل ذلك، وخصوصًا العينان الهائلتان في الوجه الشاحب والمتوسعتان بدافع الخوف، أو التشفع الصامت، كل ذلك، كان كما يجب أن يكون. لقد شاهد كثيرًا من النساء الهستيريات في سلبيترِيار بباريس، واللاتي بدون بهذه الهيئة تقريبًا.

اقترب منها بهدوء وابتسامة، مبديًا لها صورة عن نياته الحسنة، التي كانت حقيقية -بعد كل شيء- لأن النية الحسنة هي ما شعر به فعلًا. كان من المهم إقناع هؤلاء المرضى بأنك -على الأقل- لا تصدق أنهم مجانين، بما أنهم هم أنفسهم لا يصدقون ذلك.

لكن غريس تقدمت إلى الأمام بعد ذلك، والمرأة التي رآها من قبل، لم تعد هناك فجأة. بدلًا منها، كانت هناك امرأة مختلفة: أكثر استقامة، وأطول، وأكثر تحكمًا في ذاتها، تلبس اللباس التقليدي لنزلاء السجن، مع تنورة مخططة باللونين الأزرق والأبيض، تخرج من تحتها قدمان غير عاريتين على الإطلاق، ولكنهما في حذاء بسيط يحتويهما. كان الشعر الهارب أقل ممّا اعتقد، فمعظمه مدسوس تحت الغطاء الأبيض.

صحيح أن عينيها كانتا كبيرتين بشكل غير معتاد، إلا أنهما أبعد ما تكونان عن الجنون. بدلًا من ذلك كانتا تقيمانه بصراحة. كان الأمر كما لو أنها تتأمل في موضوع تجربة غير مفسرة؛ كما لو أنه هو -وليس هي- من كان تحت الفحص.

جفل سايمون عندما تذكر المشهد، وفكر في أنه أتاح لنفسه الخيال والولع: عليّ أن أتقيد بالملاحظة، وأتابع بحذر. التجربة الموثوقة، لا بدّ أن تكون مبنية على حقائق. يجب أن أقاوم الميلودراما، وهذا الدماغ المحموم.

هناك جرجرة أقدام خارج الباب، ثم صوت دوي. لا بدّ أن يكون فطوره. أدار ظهره، وأحس برقبته تنكمش إلى ياقته مثل سلحفاة في صدفة. صاح «تفضلي.» فطار الباب مفتوحًا.

زعقت دورا «ها هو طعامك.» الصينية حطت على الطاولة، دورا خطت إلى الخارج، وأُغلق الباب بقوة وراءها. سطت على بال سايمون صورة عابرة لها وهي معلقة من الكاحلين في واجهة الجزار، تغطيها طبقة قرنفل مثل لحم خنزير محلًّى. يعتقد أن موضوع توارد الأفكار جدير بالملاحظة، بمجرد أن يبدأ المرء في مراقبة عمليات عقله. على سبيل المثال: دورا، خنزير، لحم خنزير. من أجل الوصول إلى الفكرة الثالثة مبتدئًا بالأولى، فمن الضروري العبور عبر المصطلح الثاني. مع أن القفزة من المصطلح الأول إلى الثاني، ومن الثاني إلى الثالث، ليست بالقفزة الكبيرة.

يجب أن يسجل ملاحظة بذلك: ضرورة المصطلح الوسيط. ربما يكون المجنون ببساطة شخصًا تتقاطع في دماغه هذه المسارات الفاصلة بين المعنى الحرفي، والمعنى الخيالي. كما قد يحدث لأيّ منا تحت تأثير الحمى، ونوبات السرنمة، وبتأثير بعض الأدوية. لكن ما هي الآلية؟ لا بدّ من وجود مفتاح لذلك. هل يمكن العثور على مفتاح اللغز في الأعصاب، أو في الدماغ نفسه؟ ما الذي يتضرر أولًا لإنتاج الجنون، وكيف يحدث ذلك الضرر؟

فطوره بدأ يبرد بلا شك، هذا إن لم تكن دورا قد برّدته مسبقًا عن قصد. يقتلع نفسه من الكرسي، وينتزع ساقيه الطويلتين، يتمطط ويتثاءب، ويتجه إلى المنضدة الأخرى، التي وضعت عليها الصينية. البارحة كانت بيضته مثل المطاط الهندي. كان قد أتى على ذكر ذلك لصاحبة المكان، السيدة همفري الشاحبة، ولا بدّ أنها قد عاتبت دورا، لأن بيضة اليوم غير مطبوخة لدرجة أنها بالكاد تكون هلامية، مع مسحة زرقاء عليها حتى بدت مثل مقلة عين.

اللعنة عليها. متجهمة، فظة، انتقامية، عقل موجود دون المستوى العقلاني، لكنه مع ذلك ماكر ومتملص ومراوغ. لا توجد طريقة لمحاصرتها فهي خنزير زلق.

تهشمت قطعة من التوست مثل لوح صخري بين أسنانه. «أمي العزيزة...»

كتب في خياله. «الجو هنا جيد جدًا. اختفت الثلوج تقريبًا، الربيع يقترب، والشمس تدفّئ البحيرة، والخضرة الحيوية تنتَأ من...» من ماذا؟ لم يكن يعرف الكثير عن الزهور.

8

أجلسُ في غرفة الحياكة، التي تقع على رأس الدرج في منزل زوجة الآمر، على الكرسي المعتاد، على الطاولة المعتادة، مع أدوات الخياطة في السلة كالمعتاد، باستثناء المقص، فهم يصرون على إبقائه بعيدًا عن متناولي، وإذا ما احتجت إلى أن أقطع خيطًا أو أشذّب زرًا، فعلي طلبه من الدكتور جوردن، الذي يخرجه من جيب السترة ويعيده إليها فور انتهائي. يقول إنه لا يجد أن هذه التدابير التافهة ضرورية إطلاقًا، إذ يعتبرني غير مؤذية، وبمقدوري السيطرة على نفسي. يبدو أنه رجل يثق بالآخرين.

مع أنني أقطع الخيط بأسناني أحيانًا.

أخبرهم الدكتور جوردن أنه يتمنى أن يُوفر لي جوٌ من الاسترخاء والهدوء، فهو ما يفضي إلى أهدافه مهما كانت، ولذلك أوصى بأن أظل في نفس الروتين اليومي قدر المستطاع. أستمر في النوم في زنزانتي المخصصة، وألبس الملابس نفسها وآكل وجبة الإفطار نفسها، في صمت إذا أمكنت تسميته صمتًا، وسط أربعين امرأة -أسوأ سبب لاحتجازهن السرقة- يجلسن ويمضغن الخبز بأفواه مفتوحة، ويرتشفن الشاي لصنع ضجيج من نوع ما حتى وإن لم يكن كلامًا، مع قراءة تثقيفية جهورية للإنجيل.

يمكنك أن تغرق في أفكارك الخاصة حينها، لكن إذا حدث وضحكتَ سيتعين عليك التظاهر بأنك تسعل أو تختنق. الاختناق أفضل حلّ، لأنهم حينها يضربونك على ظهرك وينتهي الأمر، ولكن إذا سعلت فسيحضرون الطبيب. قطعة كبيرة من الخبز، قدح من الشاي الخفيف، لحم على العشاء ولكن بحصص قليلة، لأن الإفراط في تناول الأطعمة الغنية يحفز الأعضاء الإجرامية في الدماغ، أو هكذا يقول الأطباء، ثم يكررها علينا الحراس والسجانون. في هذه الحالة، لماذا لا تتحفز أعضاؤهم الإجرامية، فهم يأكلون اللحوم والدجاج ولحم الخنزير المقدد والبيض والجبن، وبالقدر الذي يمكنهم الحصول عليه. هذا هو سبب سمنتهم. من وجهة نظري يأخذون ما يفترض به أن يكون حصتنا، وهو ما لا يفاجئني على

الأقل، حيث إنّ السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة هنا.

بعد وجبة الإفطار، أُحضر إلى قصر الآمر كالمعتاد، من قبل اثنين من الحراس اللّذين هما رجلان لا يترفّعان عن إطلاق النكات فيما بينهما بعيدًا عن مسامع السلطات العليا. يقول أحدهما: حسنًا غريس، أرى أن لديك حبيبًا جديدًا، وهو طبيب هذه المرة، هل جلست على ركبتيه حتى الآن، أم رفعت نفسك لأجله؟ من الأفضل أن يبقي عينه يقظة أو سينتهي به الأمر ميتًا بسببك. يرد الآخر: نعم، ملقًى على ظهره في القبو دون حذائه، وقد اخترقت قلبه رصاصة. ثم يضحكان. إنهما يجدان هذا مضحكًا للغاية!

أحاول أن أفكر في ما كانت ستقوله ماري ويتني، وأقوله أحيانًا. أقول لهما: إذا كنتما تظنّان أن باستطاعتي فعل ذلك حقًا، فيجب أن تمسكا لسانيكما القذرين، وإلا أخرجتهما من جذور فاهيكما في ليلة مظلمة، حتى إنّني لن أحتاج إلى سكين لفعل ذلك، سوف أمسكهما بين أسناني وأسحبهما، لن يكون هذا كل شيء، فسأشكركما على إبقاء أياديكما القذرة النجسة لأنفسكما.

ألا تتقبلين بعض المزاح؟ لو كنت مكانك لرحبت بذلك. يقول. نحن الرجال الوحيدون الذين سنضع أيدينا عليك لبقية حياتك، ستبقين في الداخل، موصدًا عليك هناك كراهبة، تعالي الآن، اعترفي أنك تتوقين لبعض المرح، كنتِ جاهزة لذلك مع الحقير جيمس ماكديرموت قبل أن يمددوا عنقه الملتوي، ذلك النغل القاتل. وهذه هي الطريقة يا غريس، يقول الآخر، تترفعين كعذراء نقية -تطفين- بنقاء الملائكة، صدقتك! كما لو أنك لم تكوني في غرفة نوم رجل في نزل لويستون، أجل سمعنا عن ذلك. كنت تضعين المشد، وتلبسين الجوارب عندما ألقي القبَض عليك. لكني مسرور لرؤية أنك لا تزالين تحملين لمسة من نارك القديمة، لم يخمدوها لك بعد. أحب القليل من المزاج العالي في المرأة. يقول. أو زجاجة كاملة من المزاج، يقول الآخر. الشراب -باركه الله- يقود إلى المعاصي، لا يوجد ما هو أفضل من القليل من الوقود لجعل النار تتقد. كلما انتشت أكثر، كان الأمر أفضل، وإن أغمي عليها تمامًا فهو منتهى النعيم. بعدها لن تضطر للاستماع لهن،

لا يوجد ما هو أسوأ من عاهرة صاخبة. هل كنت صاخبة غريس؟ يسأل الآخر. هل سُمع أنينك وتأوهك، هل تحركت تحت ذلك الجرذ الصغير، ينظر إليّ مترقبًا ما سأقوله. أحيانًا أقول إنّني لن أدير معهم هذا النوع من النقاش، ما يدفعهم إلى الضحك بحرارة. ولكن القاعدة هي ألّا أقول شيئًا.

هكذا نزجي الوقت في طريقنا إلى بوابة السجن، من هناك؟ أوه إنها أنت، طاب يومك يا غريس. حصلت على شابين مربوطين بحزام مئزرك إذًا، ثم همز ولمز على طول الطريق. كل منهما يمسك ذراعًا بإحكام، هما في غنًى عن فعل ذلك، غير أن هذا يعجبهما. يميلان نحوي أكثر فأكثر، إلى أن أصبح محشورة بينهما. عبر الوحل، فوق البرك، حول أكوام روث الخيل، مرورًا بالأشجار التي تتفتّح في الساحات المسيّجة، بشراباتها المعرشة، زهورها تتدلى مثل أساريع باللونين الأصفر والأخضر الباهتين، الكلاب تنبح والعربات والمركبات تمر، راشّةً قطرات من برك الماء المتجمع في طريقها، والناس يحدقون وقد اتضح لهم المكان الذي جئنا منه، يستطيعون تخمين ذلك من ملابسي، إلى أن نصعد الطريق الطويل مع الحواف العشبية باتجاه مدخل الخدم. وها هي ذي... تحت تصرفنا الكامل، حاولتِ الهروب أليس كذلك يا غريس؟ حاولت الإفلات منا، إنها خبيثة على عكس ما تظهره عيناها الزرقاوان الكبيرتان، حظًا أفضل في المرة القادمة يا فتاتي، كان عليك على الأقل أن ترفعي تنورتك وتظهري لنا كاحليك المثيرين، أو زوجًا من الكعوب النظيفة. يقول أحدهم. أوه لا، أعلى قليلًا، يقول الآخر، ارفعيها حتى عنقك، كان يجب عليك أن تنطلقي مثل سفينة مفتوحة الأشرعة، مسلمة ردفيك للريح، حينها سنسهو، كحملين مضروبين على الرأس يقادان إلى الذّبح، كأنما صعقنا ببرق، حينها ستتمكّنين من الذهاب في سبيلك. يبتسمان لبعضهما البعض ويضحكان، لقد كانا يتبجحان، يتحدّثان في ما بينهما دون أن يوجها الحديث لي طوال هذا الوقت. إنهما شخصان وضيعان.

لم أعد حرة في فعل ما أريد بالبيت كالسابق. فما زالت زوجة الآمر مرعوبة مني؛ تخشى حدوث نوبة أخرى، وهي لا تريد لأي من فناجين شايها المفضلة أن

يكسر. يكاد المرء يظن أنها لم تسمع أي شخص يصرخ من قبل. لذا فأنا لا أزيل الغبار هذه الأيام، ولا أحمل صينية الشاي أو أفرغ أواني الغرفة أو أرتب السرير. بدلًا من ذلك، أعمل في المطبخ الخلفي، أنظف القدور والمقالي في حجرة غسيل الأطباق، أو أغسل الملابس. لا أمانع في ذلك كثيرًا فلطالما أعجبني القيام بالغسيل، إنه عمل شاق يشقق اليدين، لكني أحب رائحة النظافة.

أساعدُ كلاري العجوز الخلاسية المسؤولة عن الغسيل، والتي كانت عبدة في السابق، قبل أن يُنهوا العبودية هنا. لا تخاف مني، ولا تهتم بي أو بماذا أكون قد فعلت، حتى لو قتلت رجلًا نبيلًا، كلّ ما تفعله أن تومئ، وكأنها تقول «أرحتنا من أحدهم.» تقول إنّني عاملة منتظمة، آخذ نصيبي، ولا أهدر الصابون، وأجيد التعامل مع الكتان الرفيع، متمرسة في ذلك، وأيضًا أعرف كيف أزيل البقع، حتى عن الدانتيل الأشقر، الذي يصعب استخراجها منه؛ وجيّدة في التنشية، ويمكن الوثوق بي في عدم حرق الأشياء أثناء الكي، وهذه الأشياء كافية بالنسبة لها.

عند الظهيرة نذهب إلى المطبخ، ويمنحنا كوك ما تبقّى من الطعام. على الأقل يتوفر بعض الخبز والجبن ومرق اللحم ولكن عادة ما يكون أكثر من ذلك، لأن كلاري مفضلة لدى كوك، وهي معروفة بمزاجيتها إذا ما تطاول أحدهم عليها، وزوجة الآمر تضرب بها المثل، خاصة في شغل الدانتيل والكشكشة، وتقول إنّها كنز وليس هناك من يماثلها، وستكون منزعجة لفقدانها، لذلك فهم لا يبخلون عليها، ولا علي كوني معها.

إنه أفضل من الطعام الذي أحصل عليه داخل تلك الجدران. بالأمس قدموا لنا هيكل دجاجة، وكان هذا كل شيء. هناك جلسنا على الطاولة مثل ثعلبين في قن الدجاج نقضم العظام. يثورون لوجود مقصّ في متناولي بالطابق العلوي، بينما تنتصب السكاكين والأسياخ في المطبخ مثل قنفذ ضخم. يمكنني أن أضع أحدها في جيب مئزري بكل سهولة، لكن ذلك لم يخطر ببالهم بالطبع. شعارهم هو: لا وجود لما لا أراه. ولا يهمهم ما يوجد أسفل الدرج إلّا بالقدر الذي يهمهم ما تحت الأرض. ما لا يعلمونه هو أن ما يأخذه الخدم عبر الباب الخلفي

بوساطة ملاعقهم الصغيرة، يفوق ما يمكن للسيد أن يجلبه من الباب الأمامي بأكبر مجرفة لديه. يكمن السر في إتمام الأمر شيئًا فشيئًا. لا يمكن افتقاد سكين صغيرة، وأفضل مكان لإخفائها سيكون شعري، تحت قبعتي، مثبتة بالدبابيس، لأن وقوعها في الوقت الخطأ سيكون مفاجأة غير سارة على الإطلاق.

قطّعنا بقايا الدجاجة بإحدى السكاكين، وأكلت كلاري القطعتين الصغيرتين أسفل ظهرها، أو كما يقول البعض بالقرب من المعدة؛ إنها تحب أن تأكلها دائمًا إذا ما تركت، وبما أنها أكبرنا سنًا فلها الاختيار الأول. لم نتبادل الكثير من الحديث ولكننا ابتسمنا لبعضنا ابتسامتين عريضتين، لأن تناول الدجاج كان جيدًا جدًا. أكلت الجلد والدهن عن ظهر الدجاجة، أمتص عظام الضلوع، ثم ألعق أصابعي مثل قطة. وبعد أن انتهينا دخنت كلاري غليونها سريعًا على العتبة، ثم عدنا للعمل. بين الملابس المتسخة للآنسة ليديا والآنسة ماريان ينتظرني الكثير من الغسيل، على الرغم من أن الكثير منها لا يمكن وصفه بالمتسخ على الإطلاق؛ أعتقد أنهم يجربون بعض الملابس في الصباح ثم يغيرون رأيهم، يخلعونها، ويلقون بها على الأرض بإهمال، ويخطون عليها، ثم ترسل للغسيل بعدها!

بعد مرور الساعات، ومع انتقال الشمس في ساعة الطابق العلوي إلى منتصف الظهيرة، يصل الدكتور جوردن إلى الباب الأمامي. أنصت لطرق وطنين، وجلبة خطى الخادمة، ثم يأخذوني عبر السلالم الخلفية. يداي مبيضتان كالثلج بفعل صابون الغسيل، وأصابعي متجعدة من الماء الساخن كشخص حديث الغرق. الأمر سيان إن كانت محمرة أو خشنة، فقد حان وقت الخياطة.

يجلس الدكتور جوردن في الكرسي على الجانب الآخر. لديه مفكرة يضعها على الطاولة. دائمًا ما يجلب شيئًا معه. في اليوم الأول كانت زهرة زرقاء مجففة من نوع ما، في اليوم الثاني كمّثرى شتوية، والثالث بصلة، لا يستطيع المرء أبدًا تخمين ما سيحضر معه، على الرغم من أنه يميل إلى الفواكه والخضروات. وفي بداية كل حديث يسألني بماذا أفكر حين أرى الشيء الذي أحضره، وأقول شيئًا ما فقط لإبقائه سعيدًا، ويكتبه أيًا كان. يجب أن يبقى الباب مفتوحًا في جميع

الأوقات لأنه لا يجوز أن يكون هناك محل للشبهة، خلف الأبواب المغلقة كل شيء ملائم. أيّ نكتة ستكون لو علموا بما يجري يوميًا في طريقي إلى هنا. تخطو الآنسة ليديا والآنسة ماريان على الدرج وتختلسان النظر، تريدان رؤية الطبيب، إنهما فضوليتان كالطيور. أوه أظن أنني تركت قمع الخياطة هنا. «طاب يومك يا غريس، آمل أنك أصبحت بخير. اعذرنا من فضلك يا دكتور جوردن نحن لا نقصد إزعاجك. يبتسمن له ابتسامات فاتنة، فقد انتشر خبر أنه غير متزوج، ولديه بعض المال. على الرغم من اعتقادي أنهن ما كن ليرضين بطبيب أمريكي لو أنهن استطعن الحصول على شيء أفضل. مع ذلك تغريهن فكرة تجريب سحرهن وجاذبيتهن عليه. لكنه قطب بعد أن ابتسم لهن ابتسامته المائلة. لا يولي لهن اهتمامًا كبيرًا، في النهاية هما مجرد فتاتين صغيرتين ساذجتين، وليستا سبب وجوده هنا، بل أنا السبب. لذلك لا يرغب في أن يقاطع حديثنا. في اليومين الأولين لم يكن هناك الكثير من الكلام حتى يقاطع. أبقيت رأسي مطرقًا، لم أكن أنظر إليه، عملت بعيدًا على قطع الغطاء، الغطاء الذي أصنعه لزوجة الآمر، تبقت لي خمس قطع لإنهائه. شاهدت إبرتي تدخل وتخرج، بالرغم من أنني أكاد أكون قادرة على الخياطة حتى في نومي، أقوم بذلك مذ كنت في الرابعة من عمري، غرز صغيرة كما لو أن فأرًا حاكها. أنت في حاجة للبدء في سن مبكرة لكي تجيد الأمر. أما الألوان الرئيسة فدرجتان من الوردي، مع فرع وزهرة باللون الوردي الفاتح، بالإضافة إلى حمامٍ وعنب باللونين النيلي والأبيض.

وإن لم أكن أنظر إلى الإبرة، فأنا أنظر إلى الحائط من فوق رأس الدكتور جوردن. هناك صورة مؤطّرة خلفه، زهور في مزهرية، فاكهة في وعاء، كوِنت من غرز متقاطعة اشتغلت عليها زوجة الآمر. لها مظهر خشن، حيث يبدو التفاح والخوخ كمربعات متصلبة، كما لو كانت منحوتة من الخشب. ليست أفضل أعمالها، ولا بدّ أن هذا سبب تعليقها هنا، وليس في غرفة نوم الضيوف. أستطيع بدوري إنجاز ما هو أفضل منها بعينين مغلقتين.

كان من الصعب أن أبدأ الحديث. لم أتحدث كثيرًا طوال الخمس عشرة

سنة الماضية، وقطعًا ليس بالطريقة التي كنت أتحدث بها مع ماري ويتني، وجيرمايا البائع المتجول، ومع جيمي والش أيضًا قبل أن يغدر بي. وبطريقة ما نسيت كيف كنت أتحدث. أخبرت الدكتور جوردن أنني لا أعرف ما الذي يريدني أن أقوله. وأخبرني أنه لا يهم ما يريدني هو أن أقوله، بل ما أريد أنا الإفصاح عنه. قلت إنني لا أملك أي حاجة من هذا النوع، ذلك لأنني لم أكن في موقع من يرغب بقول أي شيء.

- هيا يا غريس، بوسعك فعل ما هو أفضل من ذلك. لقد عقدنا صفقة.
- نعم سيدي، قلت. لكن لا أستطيع التفكير في أي شيء.
- إذًا دعينا نناقش الطقس، قال. لا بدّ أن لديك بعض الملاحظات لتدلي بها، بما أنها الطريقة التي يبدأ بها الجميع.

لم يزل خجلي، لكني ابتسمتُ. الحقيقة أنني لم أعتد على طرح آرائي، حتى وإن كان موضوعها الطقس وخاصة مع رجل يحمل مفكرة. لم أصادف الكثيرين من هذا النوع، ربما باستثناء محاميّ السيد كينيث ماكنزي، والذي كنت أخشاه، والصحفيون في السجن، وفي قاعة المحكمة، ممّن حكوا الأكاذيب عني.

تحدث الدكتور جوردن في البداية، بما أنني عجزت عن الحديث. أخبرني عن السكك الحديدية التي ينونها في كل مكان الآن، وكيف يضعون المسارات، وكيف تعمل المحركات باستخدام البخار الصاعد من مرجل تسخين الماء. كان لهذا دور في تهدئتي، قلت إنّ بودي ركوب قطار كهذا. وقال إنّ هذا قد يحصل يومًا ما. أخبرته أنّني لا أعتقد ذلك، فقد حكم عليّ بالبقاء حبيسة مدى الحياة، لكننا أيضًا لا نعلم ما يخبئه الوقت.

أخبرني بعدها عن المدينة الأمريكية التي ترعرع فيها، والتي تدعى لوميسفيل، كانت مدينة نسيج مزدهرة قبل تراجع إنتاجها بسبب الأقمشة الرخيصة القادمة من الهند. وعن امتلاك والده مصنعَ نسيجٍ، يستقدم الفتيات من الريف، ويزودهن بالهندام، والمساكن الداخلية، التي تشرف عليها نساء محترمات ورزينات. كان الشرب ممنوعًا، بينما سُمح لهن أحيانًا بعزف البيانو في الصالون.

كن ملزمات باثنتي عشرة ساعة من العمل في اليوم الواحد، بينما يفرغن صباح الآحاد للذهاب إلى الكنيسة. ويمكنك أن تميّز من استغراقه في الذكريات، وبوادر الدمع في عينيه، وجودَ حبيبةٍ له بينهن.

عُلمت الفتيات القراءة، وكانت لديهن مجلتهن الخاصة، ينشرن فيها تجاربهن الأدبية من بين أشياء أخرى. وسألته عمّا يقصده بالتجارب الأدبية؟ فأخبرني أنهن كتبن قصصًا وقصائد نشرنها في المجلة. سألت: تحت أسمائهن؟ قال نعم، فقلت إنّ في ذلك جرأة تصد الشبان، من يرغب بعد في زوجة تكتب أشياء يراها الجميع، وتضيف إليها من خيالاتها. لا يمكنني شخصيًا أن أكون بهذه الصفاقة. فابتسم، وقال إنّ ذلك لم يزعج الشبان على ما يبدو، حيث ادخرت الفتيات أجورهن من أجل المهور، والمهر دائمًا مقبول. قلت: من الجيد أن الأطفال الذين يأتي بهم الزواج سيشغلونهن عن اختلاق أي قصص أخرى.

عندها أصابني الحزن، إذ تذكرت ألّا فرصة لي في الزواج، أو إنجاب أطفال من صلبي. على الرغم ممّا للأمر من إيجابيات، فأنا لا أريد الموت مخلفة ورائي تسعة أو عشرة، كما يحدث للكثيرين. ولكن لا يزال الأمر مدعاة للأسى.

عندما تواجه موضوعًا محزنًا، فمن الأفضل تغييره. فعلت ذلك بسؤاله إن كانت أمه لا تزال حية، وأجاب: نعم. على الرغم من أن صحتها لم تكن جيدة، وقلت إنّه محظوظ -على عكسي- لوجود أمه. ثم غيرت الموضوع مرة أخرى، وأخبرته عن ولعي بالخيول، فأخبرني بدوره عن الحصان بيس، الذي امتلكه في صغره. وبعد فترة، وأنا أجهل كيف حدث ذلك، وجدتني -شيئًا فشيئًا- أتحدث معه بسهولة، وأفكر في أشياء يمكن قولها.

وهذه هي الطريقة التي مضينا بها. يسأل سؤالًا، أدلي بإجابة يدوّنها فورًا. في قاعة المحكمة، كانت كل كلمة تخرج من فمي تُكوى على الورق الذي يمسكونه، وأعلم بمجرد أن أقول شيئًا، أنّه لن يعود بإمكاني استعادته أبدًا. كانت كل الكلمات التي قلتها خطأ؛ فكل ما يخرج مني يحور معناه، حتى لو كان الحقيقة الكاملة. الأمر نفسه حدث مع الدكتور بانرلينج في المصحة. لكني أشعر الآن بأن

كل ما أقوله -أي شيء على الإطلاق- صحيح تمامًا. فطالما أتحدث، يبتسم الدكتور جوردن ويدون، ويقول إنّني أبلي بلاءً حسنًا.

بينما يكتب، أشعر كما لو أنه يرسمني، أو لا، هو لا يرسمني، بل يرسم علي، على بشرتي. ليس بقلم الرصاص الذي يستخدمه، ولكن بريشة الإوز القديمة، بنهاية الريشة، لا بطرف الكتابة. كما لو أن مئات الفراشات غطت وجهي، وأخذت تفتح وتغلق أجنحتها بنعومة.

لكن شعورًا آخر تحت هذا، بأنني يقظة بعيون مفتوحة. يشبه ذلك استيقاظك فجأة منتصف الليل، واضعًا يدك على وجهك، تجلس فيما يخفق قلبك بسرعة، تجلس دون أن يكون أحد قربك. وتحت ذلك الشعور، شعور آخر بعد، شعور تفتحك منفلقًا ليس كجسد، فهذا لا يؤلم على هذا النحو، ولكن مثل خوخة، وهي لا تنفلق بفعل فاعل، بل لكونها نضجت بإفراط حتى تفتحت من تلقاء نفسها.

بداخل الخوخة هناك حجر!

9

من الدكتور الطبيب صامويل بانيرلينغ، ذا ميبلز، شارع فرونت، تورنتو، أونتاريو، الغرب الكندي. إلى الدكتور سايمون جوردن، دكتوراه في الطب، المقيم لدى السيدة ويليام ب. جوردن، لابورنوم هاوس، لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية. إعادة توجيه إلى المقيم لدى الرائد سي. همفري، شارع لور يونيون، كينغستون، الغرب الكندي.

20 أبريل 1859.

عزيزي الدكتور جوردن:

تلقيت طلبك عبر الدكتور وركمان في الثاني من أبريل، بخصوص المدانة غريس ماركس، ومذكرة منه يطلب فيها مني تزويدك بأي معلومات أخرى تحت تصرفي.

يجب أن أبلغك فورًا أنّي والدكتور وركمان لم نكن دائمًا على وفاق. في تقديري -وقد كنت في المصحة لسنوات طويلة قبل أن يأتي- أدت سياساته المتساهلة إلى التعهد بمهام حمقاء، في حين نعلم أنه لا يمكن تحويل شيء قبيح إلى شيء ذي قيمة. معظم الذين يعانون من الاضطرابات العصبية والدماغية الحادة لا يمكن شفاؤهم، لكن يمكن السيطرة عليهم فقط، وعليه فإن الكبت الجسدي والتقويم، واتباع نظام غذائي مقيَّد، والحجامة والنزيف للتخفيف من حضور الأرواح الحيوانية المفرطة، أثبتت في الماضي فعاليتها بما فيه الكفاية. على الرغم من أن الدكتور وركمان يدعي أنه حصل على نتائج إيجابية في عدة حالات اعتبرت سابقًا ميؤوسًا منها، فإن هذه العلاجات المفترضة لا شك في أنها ستثبت مع الوقت أنها سطحية ومؤقتة. تكمن لوثة الجنون في الدم، ولا يمكن إزالتها باستخدام القليل من الصابون والفلانيل.

أتيحت للدكتور وركمان فرصة فحص غريس ماركس لبضعة أسابيع فقط،

بينما كانت تحت رعايتي لأكثر من سنة. وبالتالي، فإن آراءه حول شخصيتها لا يمكن أن تكون ذات قيمة كبيرة. ومع ذلك، فقد كان لديه قدر كاف من حدة الذكاء ليكتشف حقيقة واحدة وثيقة الصلة بالموضوع، وهي أن جنون غريس ماركس مزيف -وهي وجهة نظر وصلت إليها أنا نفسي في السابق، بالرغم من أنّ سلطات ذلك الوقت رفضت التصرف بناء عليها. قادتني الملاحظة المستمرة لها، ولسلوكياتها المفتعلة، إلى استنتاج أنها لم تكن في الواقع مجنونة، كما كانت تتظاهر، لكنها تخادع بطريقة مدروسة وسافرة. دعني أقولها بصراحة، لقد كان جنونها غشًا وخداعًا، تبنته للتساهل مع نفسها، وحتى يتساهل معها الآخرون في النظام الصارم للسجن، حيث كانت قد وضعت كجزاء عادل على جرائمها الوحشية، لكنّ ذلك لم يعجبها.

هي ممثلة بارعة، وكاذبة متمرسة. حين كانت بيننا، كانت تسلي نفسها بالنوبات المفتعلة، الهلوسات، الغناء والقفز، وما شابه، لا شيء ينقص أداءها التمثيلي سوى زهور أوفيليا[9] البرية، المجدولة في شعرها. لكن -على أي حال- سارت أمورها على ما يرام حتى بدون تلك الزهور، لأنها تمكنت من خداع -ليس السيدة الفاضلة مودي وحدها، والتي كالعديد من الإناث ذوات القدرات الذهنية العالية من نوعها، يملن إلى تصديق أي قطعة هذر مسرحية تقدم إليها، شريطة أن تكون مثيرة للشفقة بما يكفي، والتي لا بدّ أنك -بلا شك- قرأت تقريرها غير الدقيق والهستيري- بل أيضًا العديد من زملائي، والمثال الأخير مثال واضح للقاعدة القديمة: عندما تدخل امرأة جميلة من الباب، يطير الحكم الموضوعي من الشباك.

إذا قررت على الرغم من كل هذا دراسة غريس ماركس في محل إقامتها الحالي، كن ممنونًا لأنك حُذّرت قبل لقائها. العديد من العقول الأخبر والأحكم وقعت في شباكها. وضْعُ الشمع في الأذنين يُعين على تجاوز الأمر، مثلما فعل عوليس مع بحارته، للهروب من غناء الحوريات المُودِي للهلاك. فهي مجردة من الأخلاق أو أي

---

9 إحدى شخصيات شكسبير في مسرحية هاملت. (م).

وازع آخر، ولن تتورع عن استخدام أي أداة خداع في متناول اليد.

يجدر التنبيه أيضًا إلى أنك قد تجد نفسك فور المشاركة في القضية، محاصرًا بحشد من ذوي النيات الحسنة، ولكن ذوي التفكير الضعيف من الجنسين، بما فيهم رجال الدين الذين شغلوا أنفسهم بالسعي في مصالحها. إنهم يضايقون الحكومة بالتماسات إطلاق سراحها، ويحاولون باسم الإحسان أن يقطعوا طريقك ويجنّدوك. لقد ردعتهم مرارًا وتكرارًا وأبعدتهم عن طريقي، فيما أشرح لهم أن غريس ماركس محتجزة لسبب وجيه جدًا، أعني بذلك الأعمال الوحشية التي ارتكبتها، والتي أملتها عليها شخصيتها المنحطة وخيالها المريض. إن إطلاقها بين العامة الغافلين سيكون عملًا غير مسؤول إلى أقصى درجة، لأنه ببساطة سيتيح لها فرصة إرضاء ذوقها المتعطش للدماء.

أنا واثق من أنك إذا ما اخترت استكشاف الموضوع أكثر، فستصل إلى الاستنتاجات نفسها التي وُصِلَ إليها من قبل.

خادمك المطيع،

(الطبيب) صمويل بانرلينج.

يجتمع سايمون مع القس فيرينغر هذا الصباح. إنه لا يتطلع لذلك، لأن الرجل قد درس في إنجلترا، ولا شكّ في أنه سيتغطرس. لا أكثر حماقة من أحمق متعلم. وعليه سيتعين على سايمون أن يعرض أوراق اعتماده الأوروبية، وأن يتباهى بسعة اطلاعه، وأن يبرر نفسه. سيغط في مقابلة شاقة، للحد الذي يغريه بالاستهزاء، واستخدام مصطلحات كـ «أنا أحسب...» وتمثيل النسخة الاستعمارية البريطانية للأمريكي المزيف، كل ذلك لمجرد الإزعاج. عليه بالرغم من هذا الشعور أن يكبح نفسه، ويلتزم بسلوك جيد. فهو لم يعد غنيًا، وبالتالي لم يعد -كليًا- حرًا في أفعاله.

يقف أمام مرآته، محاولًا ربط لفاعه. يكره اللفاعات وربطات العنق، ويتمناها للشيطان. يستاء من بنطاله أيضًا، ومن جميع الملابس الجامدة والرسمية عمومًا. لماذا يجد الإنسان المتحضر نفسه مستعدًا لتعذيب جسده بحشره في سترة ضيقة من الكساء النبيل؟ ألِكبح الجسد، مثل المتصوفين؟ يُفترض أن يولد الرجال في بدلات صوفية صغيرة، تنمو معهم بمرور السنين، وبالتالي يتجنب عمل الخياطين بكامله، مع كل ما يرافقه من اكتراث مبالغ، وعجرفة لا نهائية.

هو ليس امرأة على الأقل، وبالتالي لا يضطر إلى لبس الكورسيهات، وتشويه جسده بالأربطة الضيقة. إنه يزدري الرأي السائد حول أن النساء بطبيعتهن ضعيفات القوام، وهلاميات، وقد ينزلقن إلى الأرض مثل الجبن المذاب إن لم يكن مشدودات. لم يجد أثناء تشريح جثث النساء -من الطبقات العاملة، بطبيعة الحال- خلال دراسته الطب، أن عضلاتهن وأعمدتهن الفقرية -في المتوسط- أضعف من الرجال، على الرغم من أن العديد منهن عانين الكساح.

صارع لفاعه حتى يأخذ مظهر القوس. إنه مائل، لكن هذا أفضل ما يستطيعه؛ إذ لم يعد قادرًا على تحمل كلفة خادم خاص. يُمشط شعره العنيد، الذي يعود لمكانه الأصلي فور مفارقة المشط. ثم يأخذ معطفه، ويتذكر أخذ مظلته. هناك ضوء شمس ضعيف يشق طريقه من خلال النوافذ، لكن ذلك لا

يضمن ألّا تمطر. كينغستون مكان مبلل في الربيع.

يشق طريقه خلسة إلى أسفل السلالم الأمامية، لكن ليس بالتخفي الكافي، إذ تقطع مالكة المنزل طريقه لأمر تافه أو آخر. تنساب الآن خارجة من الصالة، في حريرها الأسود الباهت وياقة الدانتيل، ممسكة بمنديلها المعتاد بيد ضعيفة، كما لو أن الدموع ليست بعيدة. كان واضحًا أنها كانت رائعة الجمال حتى وقت قريب، وكان بإمكانها أن تظل كذلك لو أنها تكبدت عناء الاهتمام به، ولو لم يكن شعرها مفروقًا بتلك الحدة. وجهها من نوع الوجوه التي تتخذ شكل قلب، لها جلد حليبي، وعينان كبيرتان وجذابتان، خصرها نحيل، إلا أن انطباعًا معدنيًا يوجد حياله، كما لو أنه مشدود إلى ماسورة غاز قصيرة، عوضًا عن المشد. إنها تلبس اليوم تعبير القلق المتوتر المعتاد؛ حيث تفوح منها رائحة البنفسج، وكذلك رائحة الكافور -هي بلا شك عرضة للصداع- ورائحة شيء آخر لا يستطيع أن يحدده تمامًا. رائحة جافة ساخنة. هل هي رائحة غطاء كتان أبيض يكوى؟

كقاعدة عامة، يتجنب سايمون نوعها من الإناث الواهنات، ذوات الاضطرابات الخفية، بينما يجذب الأطباء هذا النوع من النساء كالمغناطيس. مع ذلك، فيها شيء من الأناقة الجبارة وغير المتكلفة، مثل مقر لاجتماع الكويكر، الذي له جاذبيته الجمالية فقط بالنسبة له. فلا يمكن للإنسان أن يمارس الحب مع صرح ديني.

«دكتور جوردن -تناديه- أردت أن أسألك...» إنها مترددة. ابتسم سايمون، ليشجعها على المواصلة. «هل كان طبق البيض مرضيًا هذا الصباح؟ فقد طهوته بنفسي هذه المرة.»

«لذيذ، شكرًا لك.» يجيبها كاذبًا. فالصدق سيكون فظاظة غير معذورة. في الواقع، كان للبيضة ذات التماسك الذي لورَمٍ مستأصَل، وضعه أحد زملائه مرّةً في جيبه أيام دراسة الطب على سبيل المزاح، كان صلبًا واسفنجيًا في الوقت نفسه. تتطلّب الإساءة لبيضة إلى هذا الحد، موهبةً منحرفةً.

تقول: «أنا سعيدة للغاية. من الصعب الحصول على خدم جيدين. هل

ستخرج؟» وكان الأمر واضحًا لدرجة أن إيماءة من سايمون برأسه كانت كافية.

«هناك رسالة أخرى لك -قالت- كانت قد أضاعتها الخادمة، غير أني وجدتها مرة أخرى. وضعتُها لك على طاولة الردهة.» تقول ذلك بشيء من الاضطراب، كما لو أن كل رسالة لسايمون لا بدّ أن تكون ذات محتوًى مأساوي. شفتاها ممتلئتان، ولكن رقيقتان، مثل وردة على وشك الانهيار.

يشكرها سايمون، ويقول: «وداعًا.» يلتقط رسالته ويغادر، إنها من أمه. لا يرغب في تشجيع المحادثات الطويلة مع السيدة همفري. إنها وحيدة -كما أنها قد تكون متزوجة من الرائد الشرود، المعتوه- ووحدةُ النساء كجوع الكلاب. لا يرغب في أن يكون المتلقف الأمين لأحزان ما بعد الظهر، خلف ستائر الصالون المسدلة.

ومع ذلك فهي مثيرة للاهتمام كعينة دراسة. فتصورها عن نفسها -على سبيل المثال- أفضل بكثير من أن تبرره ظروفها الحالية. بالتأكيد كانت لها مربية في طفولتها؛ تشي كتفاها بذلك. أثناء الترتيبات المتعلقة بتسكينه، كانت عابسة وصارمة، لدرجة شعوره بالحرج من سؤالها عمّا إذا كان الغسيل مشمولًا. يخبر سلوكُها أنها لم تكن معتادة على مناقشة الرجال حول وضع أشيائهم الشخصية، فمن الأفضل ترك مثل هذه الأمور الشاقة للخدم.

أوضحتْ -وإن كان بشكل غير مباشر- أنّ التأجير يحدث بغير موافقتها. إنّها المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك؛ لظروف تمر بها مؤقتًا. وعلاوة على ذلك، فقد كانت محددة «رجل نبيل يتحلى بالعادات الهادئة، على استعداد لتناول الوجبات في مكان آخر.» قرأ إشعارها. وعندما قال سايمون إنه يرغب في أخذها -بعد معاينته الغرف- ترددت، ثم طلبت إيجار شهرين مقدمًا.

كان سايمون قد عاين المساكن الأخرى المعروضة، والتي كانت إمّا أكثر كلفة أو أقذر بالنسبة له، لذلك وافق على هذه. وكان المبلغ لقاءها متوفرًا بالكامل. لقد لاحظ باهتمام مزيج الممانعة والتوق الذي أظهرته، كما لاحظ تورد خديها نتيجة هذا الصراع العصبي. كان الموضوع مقيتًا بالنسبة لها، ويكاد يكون غير لائق؛ إذ لم ترغب في لمس أمواله في حالة العري هذه، وكانت تفضل لو أنها طويت في مظروف؛

لكنها أيضًا كبحت رغبتها في انتزاع المال من يده.

أظهرت إلى حد كبير السلوك الذي يميز الطبقة الأرفع من العاهرات الفرنسيات: الخجل من عملية التبادل المالي، التظاهر بأن ذلك لم يحدث، الجشع الكامن. على الرغم من أن العاهرة ستكون -بالمجمل- خرقاء بصورة أقل. لا يَعتبر سايمون نفسه مضطلعًا في هذا المجال، لكنه كان سيخفق في أداء واجبه المهني، إذا ما رفض الانتفاع من الفرص التي تقدّمها أوروبا، وهي فرص ما كانت متاحة أو متنوعة بالقدر نفسه في انجلترا الجديدة. على المرء أن يفهم الإنسانية أولًا، من أجل أن يتمكن من شفائها، ليس الفهم الذي يكون عن بعد؛ بل يجب أن يحتك بها، إن صح التعبير. وهو يرى أن من واجب أولئك الذين يعملون في مهنته أن يسبروا الحياة إلى الحد الأقصى، وعلى الرغم من أنه لم يجرِ بعد الكثير من التحقيقات حتى الآن، لكنه بدأ بذلك على الأقل. وقد اتخذ بالطبع، جميع الاحتياطات المناسبة لاتّقاء الأمراض المحتملة.

حين صادف الرائد في طريقه للخارج، حدق به كما لو كان يراه من خلال ضباب كثيف. عيناه ورديتان، لفاعه معوج، وأحد قفازيه مفقود. يحاول سايمون تخيل نوع اللهو الذي كان فيه، والمدة التي قضاها على هذه الحال. هناك نوع من الحرية في عدم امتلاك سمعة تخسرها. يومئ الرائد ويرفع قبعته. يبدو مهانًا.

ينطلق سايمون باتجاه سكن القس فيرينغر، الذي يقع في شارع سيدينهام. لم يستأجر عربة، ولا حتى حصانًا؛ فهذه نفقات غير مبررة خصوصًا أن كينغستون ليست بالمكان الكبير. صحيح أن الشوارع موحلة وممتلئة بروث الخيل، لكنه يمتلكِ حذاء جيدًا.

تفتح باب منزل القس فيرينغر المثير للإعجاب، امرأةٌ مسنةٌ ذات وجه كلوح من خشب الصنوبر. القس غير متزوج، ولديه حاجة إلى مدبرة منزل غير قابلة للشكوك. أُرشد سايمون إلى المكتبة. هذا هو بذاته نوع المكتبات الذي يرغب بإلحاح في إلقائه إلى النار.

يقف القس فيرينغر عن كرسي جلدي بجوانح جانبية، ويقدم يده للمصافحة. على الرغم من أن شعره وبشرته سيان في ضعفهما وشحوبهما، فإن مصافحته قوية بشكل يدهش. وبالرغم من فمه الصغير والمتجهم، مثل فم شرغوف -يفكر سايمون- فإن أنفه الروماني يشير إلى شخصية قوية، وجبهته ذات القبة المرتفعة تعكس فكره المتطور، وعيناه المتورمتان -إلى حدٍ ما- مشرقتان وحادتان. لا يمكن أن يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين؛ يفكر سايمون في أنه بلا شك يمتلك علاقات جيدة، ليستطيع التقدم بهذه السرعة في المؤسسة الميثودية، وأن يكسب مثل هذه الأبرشية الموسرة. وبالنظر إلى الكتب، فلا بدّ أن يكون لديه دخل شخصي. كان والد سايمون يملك كتبًا كهذه.

«أنا مسرور لأنك تمكنت من القدوم د. جوردن.» يقول. صوته أقل تكلفًا ممّا خشي سايمون. «لطف منك أن تشرفنا بحضورك. وقتك مقدر في الحقيقة.» يجلسان، ثم تأتي مدبرة المنزل ذات الوجه المتخشب بالقهوة، على صينية بسيطة التصميم، لكنها مع ذلك مصنوعة من الفضة. صينية ذات تدين ميثودي؛ ليست صارخة، ولكنها تثبت بهدوء قيمتها الخاصة.

يقول سايمون: «إنها مسألة ذات أهمية مهنية عالية بالنسبة لي.» «نادرًا ما تتوفر مثل هذه الحالة، المصحوبة بالكثير من السمات الفريدة.» يتكلم كما لو أنه عالج شخصيًا المئات من الحالات. تكمن الخدعة في أن تبدو مهتمًا، بدون حماس مبالغ، كما لو كان هو صاحب الجميل. يأمل ألّا يكون قد ظهر عليه الخجل.

يقول القس فيرينغر: «من شأن تقرير مقدم منك أن يمثل مساعدة كبيرة للجنة، التقرير الذي يفترض أن يصب في صالح نظرية البراءة. سوف نرفقه بالتماسنا. فالسلطات الحكومية حاليًا أميَل إلى أخذ رأي الخبراء في الاعتبار.» يضيف مع لمحة متبصرة «بالطبع، سيدفع المبلغ المتفق عليه لك، بغض النظر عن النتيجة التي تتوصل إليها.»

«أفهم ذلك تمامًا.» يقول سايمون مع ما يأمل أن تكون ابتسامة لبقة.

- أظنك درست في إنجلترا؟

- بدأت السعي وراء مهنتي كعضو في الكنيسة المؤسسة -يقول القس فيرينغر- لكن شعوري بالذنب تفاقم بعدها. من المؤكد أن نور كلمة الله وفضله متاحان لأولئك الذين هم خارج الكنيسة الإنجليزية، ومن خلال وسائل أكثر مباشرة من الطقس الديني.

- آمل ذلك من قلبي. يقول سايمون بتهذيب.

- يتبع القس البارز إجيرتون رايرسون من تورونتو نفس المسار. وهو قائد في الحملة الصليبية للتعليم المجاني، ولمنع المشروبات الكحولية. لقد سمعت عنه، بطبيعة الحال.

في الواقع، لم يسمع سايمون به من قبل. يصدر صوتًا غامضًا على أمل أن يمر كمجاراة.

- وأنت؟

يتفادى سايمون الإجابة قائلًا:

- كانت عائلة والدي من الكويكر. ولسنوات الآن، أمي موحّدة.

- آه نعم. بالطبع، كل شيء مختلف للغاية في الولايات المتحدة.

توقفا عن الكلام، وأخذا يفكّران في ذلك.

- لكن هل تؤمن بخلود الروح؟

هذا سؤال مخادع. قد يكون هذا الفخ هو الذي سيضع حدًا لفرص سايمون.

- نعم، بالطبع. لا يجب الشك في ذلك.

ارتاح فيرينغر لسماع ذلك.

- الكثير من رجال العلم يلقون الشكوك. أما أنا فأقول اترك الجسد لِلأطباء، والروح لله. دع ما لقيصر لقيصر، إن جاز التعبير.

- طبعًا، طبعًا.

- يطري الدكتور بينسونغر عليك. كان من دواعي سروري أن أقابله أثناء تجوالي في أوروبا، تحظى سويسرا باهتمام كبير بالنسبة لي، لأسباب تاريخية، وقد وجدت الفرصة للتحدث معه حول عمله. وبالتالي كان من الطبيعي

أن أستشيره، في بحثي عن شخص ذي نفوذ على هذا الجانب من المحيط الأطلسي. شخص -يتردد- في حدود إمكانياتنا. قال إنك على مستوى عالٍ من المعرفة بالأمراض الدماغية والاضطرابات العصبية، وفي المسائل المتعلقة بفقدان الذاكرة، وأنك في طريقك لتصبح خبيرًا بارزًا. يدعي أنك أحد الرجال القادمين.

- لطف منه أن يقول ذلك -يهمهم سايمون- إنه مجال محير. لكنني نشرت ورقتين متواضعتين أو ثلاثًا.

- دعنا نأمل أن تتمكن في نهاية تحقيقاتك، من إضافة رقم آخر إلى مجموع أوراقك، تسلط فيها الضوء على لغز محير؛ وأنا على يقين من أن المجتمع سيمنحك التقدير الذي تستحق. خاصة مع مثل هذه الحالة الشهيرة.

يضع سايمون ملاحظة لنفسه: على الرغم من فمه الشرغوفي، إلا أن القس فيرينغر ليس أحمقَ. بالتأكيد لديه حاسة شم حادة، تشتم طموحات الرجال الآخرين. هل يمكن أن يكون تحوله من كنيسة إنجلترا إلى الميثودية قد تزامن مع النجم السياسي الساقط لهذه، والنجم الصاعد لتلك؟

- هل قرأت البيان الذي أرسلته لك؟ -يومئ سايمون- أستطيع أن أرى معضلتك. -يتابع- من الصعب معرفة ما يجب تصديقه. يبدو أن غريس قد حكت قصة ما في التحقيق، وقصة أخرى في المحاكمة، وحتى بعد تخفيف عقوبة الإعدام، كانت هناك قصة ثالثة. تتفق النسخ الثلاث على نفي وضع إصبع على نانسي مونتغمري. ولكن بعد ذلك بعدة سنوات، أصبح لدينا تقرير السيدة مودي، الذي يرقى لأن يكون اعترافًا من غريس، بأنها ارتكبت الفعل. وهذه القصة تتفق مع كلمات جيمس ماكديرموت الأخيرة، قبيل شنقه. لكنّها ومنذ عودتها من المصحة تنكر كل ما يقال.

القس فيرينغر يرتشف قهوته.

- إنها تنكر تذكر ذلك. يستدرك.

- آه نعم. تنكر تذكره -يقول سايمون- هذا فارق جوهري.

- يمكن أن يكونوا قد أقنعوها بتصديق إتيانها فعلًا لم تأته حقًا -يقول القس فيرينغر- سبق وأن حصلت مثل هذه الأشياء. إن الاعتراف المزعوم في الإصلاحية، والذي أعطته السيدة مودي مثل هذا الوصف الملون، حدث بعد عدة سنوات من الاحتجاز تحت نظام المأمور سميث الطويل. كان الرجل معروفًا بالفساد، وهو شخص غير مؤهل لشغل وظيفته إطلاقًا. كان متهمًا بارتكاب سلوكيات صادمة ووحشية. كان يسمح لابنه باستخدام المدانين للتدرّب على الرماية، على سبيل المثال. وفي إحدى المناسبات أصاب عينًا بالفعل. كان هناك حديث عن إساءة معاملته للسجينات أيضًا، بطرق يمكنك تخيلها. وأخشى أن ما من شك في حدوث ذلك؛ إذا حقّق في الأمر. إنني أعزو فَصْلَ جنون غريس ماركس إلى سوء المعاملة تحت يديه.

- هناك من ينكر جنونها في الواقع. يقول سايمون.

يبتسم القس فيرينغر:

- أفترض أنه قد بلغك كلام الدكتور بانرلينج إذًا. لقد كان ضدها من البداية. لقد ناشدناه نحن في اللجنة -فتقريرٌ مُواتٍ منه سيكون ذا قيمة لا تقدر بثمن لقضيتنا- لكنه عنيد. إنه من أكثر المحافظين تطرفًا. لو كان القرار عائدًا إليه لرمى جميع المجانين المساكين في القش مكبلين بالسلاسل، ولشَنق كل من يوجه إليه ولو نظرة. يؤسفني أن أقول إنني أعتبره جزءًا من النظام الفاسد نفسه الذي كان مسؤولًا عن تعيين رجل غليظ ودنيء مثل المأمور سميث. أفهم أن هناك مخالفات في المصحة أيضًا، لدرجة أنه كان يشتبه في أن غريس ماركس كانت بحالة حساسة، قبيل عودتها منها. لحسن الحظ كانت هذه الشائعات بلا أساس. ولكن أي جبان، أي قاس ذلك الذي يحاول الاستفادة من أولئك الذين لا يملكون السيطرة على أنفسهم! لقد أمضيت الكثير من الوقت في الصلاة برفقة غريس ماركس، محاولًا تضميد الجروح التي أصابتها بها تلك المجموعة من غير المخلصين، المستحقين للعتب، والخائنين للثقة العامة.

- هذا محزن. يقول سايمون.

يفكر بطلب المزيد من التفاصيل. ثم تبرق في رأسه فكرة مفاجأة: إن القس فيرينغر يحب غريس ماركس! ومن هنا يأتي سخطه وحماسه واجتهاده، وعرائض التماسه الشاقة واللجان، وفوق كل شيء، رغبته في تصديق براءتها. هل يرغب في إخراجها من السجن، تبرئتها براءة لا شك فيها، واتخاذها زوجة؟ إنها -على أي حال- لا تزال امرأة جميلة المظهر، ولا شك أنها ستكون ممتنة امتنانًا مؤثّرًا لمنقذها، امتنانًا خانعًا: الامتنان الخانع في الزوجة -بلا شك- سلعة أساسية في المقايضة الروحية لدى فيرينغر.

- من حسن الحظ أن هناك تغييرًا في الحكومة -يقول القس فيرينغر- لكن على الرغم من ذلك، لا نرغب في المضي قدمًا في عريضتنا الحالية، حتى نتأكد أننا نقف على أرضية صلبة تمامًا. وهذا هو سبب دعوتك. يجب أن أخبرك بصراحة، لم يكن جميع أعضاء اللجنة مؤيدين لذلك، لكنني نجحت في إقناعهم بالحاجة إلى وجهة نظر مستنيرة وموضوعية. مثل تشخيص للجنون الكامن وقت الجريمة. على الرغم من ذلك، يجب اتخاذ أقصى تدابير الحذر وسداد الرأي. لا يزال هناك موقف واسع الانتشار ضدّ غريس ماركس، في بلد يميل للتكتل حول مواقفه. يبدو أن المحافظين خلطوا بين غريس والمسألة الإيرلندية[10] بالرغم من أنها بروتستانية. واعتبروا مقتل رجل واحد من حزب المحافظين -مهما كان الرجل جديرًا، ومهما كانت الجريمة مؤسفة- على أنه مماثل لتمرد عرق كامل.
- تعاني كل البلدان من التحزب. يقول سايمون بلباقة.
- بغض النظر عن ذلك -يقول القس فيرينغر- نحن عالقون بين فكرة «امرأة تُحتمل براءتها، يعتقد الكثيرون أنها مذنبة.» «وامرأة تحتمل جنايتها، يعتقد البعض أنها بريئة.» لا نريد منح خصوم الإصلاح فرصة للشماتة بنا، ولكن، كما يقول الرب: «الحق يحرّركم.»

10 تستخدم لوصف القومية الإيرلندية، والدعوة للاستقلال. (م).

- قد يتبين لنا أن الحقيقة أغرب ممّا نظن -يقول سايمون- قد يكون الكثير ممّا اعتدنا وصفه بالشر، الشر المُختار بحرية، هو -عوضًا عن ذلك- مرض بسبب نوع من التضرر في الجهاز العصبي، وأن الشيطان نفسه هو ببساطة تشوه في الدماغ.

يقول القس فيرينغر مبتسمًا:

- أوه، أشك في أننا سنصل إلى هذا الحد. مهما كانت الإنجازات التي سيحققها العلم في المستقبل، سيكون الشيطان دائمًا أكبر منها. أعتقد أنك تلقيت دعوة إلى منزل الآمر بعد ظهر الأحد؟

- نعم، لقد حظيت بهذا الشرف. يقول سايمون بأدب، وهو ينوي الانصراف.

- أتطلع لرؤيتك هناك -قول القس فيرينغر- رتبت الدعوة بنفسي. إن زوجة الآمر الرائعة، هي عضو لا يقدر بثمن في لجنتنا.

11

في منزل الآمر، يُرشَد سايمون إلى الصالون، الذي يكاد يكون كبيرًا بما يكفي ليسمّى: قاعة استقبال. نجد كل سطح يمكن تنجيده؛ تتخذ ألوانه ألوان جسم الإنسان الداخلية: الكستنائي كالكلى، والأرجواني المحمر كالقلوب، والأزرق الغامق كالأوردة، وعاج الأسنان والعظام. يتخيل الإحساس الناتج عن التصريح بهذا التصور للآخرين.

حيته زوجة الآمر. امرأة جميلة ذات خمس وأربعين سنة أو نحو ذلك، يظهر عليها الاحترام الواضح، لكنها تلبس على الطريقة الريفية أزياء غير منسجمة، ذلك أن السيدات يشعرن فيما لو كان صفٌ واحدٌ من الدنتلة والثنيات جيدًا، فإن ثلاثة صفوف بالتالي ستكون أفضل. لها عينان مروعتان، جاحظتان إلى حد ما، وهي إشارة إما لنزعة عصبية، أو مرض في الغدة الدرقية.

تقول: «أنا مسرورة جدًا لتشريفك لنا.» أخبَرته أن الآمر لسوء الحظّ يغيب لدواعي العمل، ولكنها هي نفسها مهتمة بشدة بالعمل الذي يقوم به. إنها تحترم العلوم الحديثة، وخاصة الطب الحديث؛ لقد أحرزت العديد من التحسينات، لا سيّما في مجال (الأثير) الذي أنجى من الكثير من المحن. ثم رمقته بنظرة عميقة وذات مغزًى، فتنهد سايمون بداخله. إنه على دراية تامّة بما يعنيه هذا التعبير: إنها على وشك أن تقدم له هدية -غير مرغوبة- من أعراضها المرضية.

عندما حصل على شهادة الطب، لم يكن مستعدًا للتأثير الذي سيحدثه على النساء. نساء من أرفع الطبقات، وخصوصًا السيدات المتزوجات، بسمعة لا تشوبها شائبة. بدا أنهن منجذبات إليه كما لو كان يمتلك كنزًا ثمينًا ولكن شيطانيًا أيضًا. كان اهتمامهن بريئًا، لم تكن لديهن نية للتضحية بعفتهن؛ ولكنهن كن يَتُقْنَ إلى إغوائه في زوايا غامضة، ومناقشته بصوت منخفض، لكشف أسرارهن له. بصوت متهدج، وبشيء من الرهبة، لأنه يثير خشيتهن. ما هو سر جاذبيته؟ الوجه الذي يراه في المرآة، ليس قبيحًا ولا وسيمًا أيضًا، كان بالكاد يستطيع حمل تفسير لذلك.

ظن أنه فهم الأمر بعد مدة. كنّ متلهفات للمعرفة؛ بينما لم يستطعن الاعتراف بتوقهن، حيث إنها كانت معرفة محرمة! معرفة بوهج صارخ؛ معرفة تُكتسب عبر السقوط في هوة. كان حيث لا يمكنهن الذهاب مطلقًا، ورأى ما لا يمكن أن يرينه. لقد فتح أجساد النساء، ونظر داخلها. وباليد ذاتها التي رفعت أيديهن نحو شفتيه، رفع ذات مرة قلب امرأة نابضًا.

وهكذا فهو واحد من الثلاثي الأسود: الطبيب، القاضي، الجلاد. يتشارك معهم قوى الإحياء والإماتة. فكرة الاستسلام لفقدان الوعي، الاستلقاء مكشوفات، دون خزي، تحت رحمة الآخرين، أن يُلمسن، أن يُشرحن، أن يُستلبن، أن يُعاد تشكيلهن. هذا ما يفكرن به عندما ينظرن إليه، بعيونهن المتسعة والشفتين المتباعدتين قليلًا.

«أعاني بفضاعة.» يأتي صوت زوجة الآمر. تكشف عن أعراضها باحتشام، وكأنها تكشف عن كاحل: «تنفس مهتاج، انقباض حول الضلوع.» تضمن كلامها إشارة إلى أنها ستذكر المزيد من الأعراض. لديها ألم لا تريد الإفصاح عن مكانه تحديدًا. ما عساه تسبب به؟

يبتسم سايمون ويقول إنه لم يعد يزاول الطب العام.

بعد تقطيبة إحباط مؤقتة، تبتسم زوجة الآمر أيضًا، وتقول إنّها تود تقديمه للسيدة كوينل، الروحانية الشهيرة والمدافعة عن النساء على نطاق واسع، والنجم الأهم في حلقة نقاش الثلاثاء، بالإضافة إلى جلسة استحضار الأرواح التي تعقد الخميس. يا لها من شخص بارع، كثير الترحال، إن كان في بوسطن أو أماكن أخرى. تبدو السيدة كوينل -في تنورتها الضخمة التي تدعمها الكرينولين- مثل كريما بافارية بلون الخزامى. ويبدو رأسها كما لو كان متوجًا بجرو بودل رمادي اللون. تُقدم -بدورها- سايمون للدكتور جيروم ديبونت، القادم من نيويورك، وقد وعد بتقديم عرض لقواه الاستثنائية. وهو معروف جدًا، كما تقول السيدة كوينل، وقد مكث لدى الأسرة الملكية في إنجلترا. ليس الملكية تحديدًا؛ لكن الأسر الأرستقراطية هناك، الأمر سيان.

يقول سايمون بأدب: «قواه الاستثنائية؟» إنه راغب في معرفة نوعها. من المحتمل أنه يزعم القدرة على التحليق في الهواء، أو استحضار هندي ميتٍ، أو ربما كان يدير حلقة طاولة القرع[11] مثل الأخوات فوكس الشهيرات. الروحانية جنونُ الطبقات الوسطى، النساء على وجه الخصوص؛ يجتمعون في غرف مظلمة، يتحلقون حول طاولة واضعين أيديهم عليها، على طريقة جداتهم في لعب الورق، أو يدونون كتابات تلقائية طويلة يمليها عليهم شكسبير أو موزارت، أو أحد الموتى. يعتقد سايمون أن إظهار الوهن والتأثر الكبير في أسلوب النثر ضروري، بما أنهم أموات. لو لم يكن هؤلاء الأشخاص على درجة عالية من الثراء، لأودى بهم هذا النوع من التصرفات إلى المصحات العقلية. الأسوأ من ذلك، أنهم يملؤون قاعات الرسم بالدراويش، والدجالين، الذين يكتسون الأثواب المهترئة من شبه القداسة التي منحوها لأنفسهم. لكن، ما الذي يمكن فعله؟ إذ تفرض قواعد المجتمع على المرء أن يكون مهذبًا تجاه هؤلاء.

للدكتور جيروم ديبونت العيون المائعة العميقة، والتحديق الحادّ لدجال محترف. لكنه يبتسم برثاء، ويعطي هزة كتف مستخفة. يقول:

- أخشى أنها ليست استثنائية إلى هذا الحد.

في طريقة حديثه أثر للهجة أجنبية، يتابع:

- هذه أشياء تشبه إجادة لغة أخرى. إذا تكلّمها المرء، فهي بالنسبة إليه أمر عادي ببساطة، فيما يجدها الآخرون أمرًا مدهشًا.

- أنت تتحدث مع الموتى؟ يسأل سايمون، بارتعاشة في فمه.

يبتسم الدكتور ديبونت:

- لا أفعل ذلك -يقول- أنا ما يمكن أن تسميه ممارسًا للطب. أو عالمًا مستقصيًا، مثلك. تدربت على التنويم المغناطيسي العصبي على منهج جيمس بريد.

- لقد سمعت عنه -يقول سايمون- إسكتلندي، أليس كذلك؟ ذو سمعة

---

11 وسيلة تواصل مع الأموات، تنقر فيها أرواحهم على طاولة أو لوح لتمرير الرسائل. (م).

مرموقة في مجال حنف القدم والحول، على ما أظن. لكن الطب المحترف بالتأكيد لا يعترف بمزاعمه الأخرى. أليس التنويم المغناطيسي العصبي مجرد إعادة تشكيلٍ لبقايا التنويم المغناطيسي المسمري سيئ السمعة؟

- افترض ميسمر[12] وجود سائل مغناطيسي يحيط بالجسم، وهو مخطئ بالتأكيد -يقول الدكتور ديبونت- فيما لا يتضمن منهج بريد سوى الجهاز العصبي. يمكنني القول إنّ أولئك الذين يعارضون أساليبه، هم ممّن لم يجرّبوها. هذه الأساليب أكثر قبولًا في فرنسا، حيث الأطباء أقل انصياعًا للأرثوذكسية المتخوفة. وهي مجدية في حالات الهستيريا، أكثر من غيرها. وبينما تعجز عن فعل الكثير لساق مكسورة بالطبع، فإنها تؤدي لنتائج مذهلة في حالات فقدان الذاكرة معظم الأحيان -يبتسم ابتسامة باهتة- ويمكنني القول نتائج سريعة للغاية.

يشعر سايمون بأنه حوار عقيم، فيغير الموضوع:

- ديبونت، هل هو اسم فرنسي؟
- كانت عائلتي بروتستانتية فرنسية، لكن من جهة الأب فقط. كان أحد هواة الكيمياء. أنا نفسي أمريكي، لكني زرت فرنسا لدواعٍ مهنيّة، بالطبع.
- ربما يود الدكتور جوردن أن يكون فردًا في مجموعتنا -تقول السيدة كوينل مقاطعةً- تجد زوجة الآمر، خلال جلسات استحضار الأرواح كل خميس، راحة في معرفة أن طفلها الصغير على الجانب الآخر، بخير وسعادة. أنا متأكدة من أن الدكتور جوردن مشكِك، لكننا نرحب دائمًا بالمشككين. تتلألأ قبالته العيون الصغيرة الساطعة تحت تسريحة الشعر الشبيهة بكلب.
- لست مشككًا، أنا طبيب فقط. قول سايمون.

ليس لديه أي نية للانحدار إلى هراء مناف للعقل يحط من شأنه. يتساءل ما الذي كان يفكر فيه فيرينغر لضم هذه المرأة إلى لجنته. لكن من الواضح أنها غنية.

---

12 فرانز أنطون ميسمر: طبيب ألماني. (م).

- طبيب، اشفِ نفسك. يقول الدكتور ديبونت. في ما يبدو أنه مزحة.

تقول السيدة كوينل:

- ما هو موقفك من مسألة إلغاء العبودية دكتور جوردن؟

أصبحت المرأة مفكرة الآن! وسوف تصرّ على مناقشات سياسية عنيفة، وستطالب بلا شك بإلغاء العبودية في الجنوب على الفور. يجد سايمون أنه من المزعج أن يُتهم شخصيًا باستمرار، بكل خطايا بلاده، وخاصة من قِبل هؤلاء البريطانيين، الذين يظنون أن ضميرهم المكتشف حديثًا يبرر عدم امتلاكهم لأي ضمير على الإطلاق مسبقًا. على ماذا تأسست ثروتهم الحالية، ألم تتأسس على تجارة الرقيق؟ وكيف سيكون حال مدن النسيج الكبرى دون قطن الجنوب؟

- كان جدي من عائلة الكويكر -قال- علمني حين كنت لا أزال صبيًا، ألّا أفتح أبواب الخزانة، خوف أن يكون لاجئ مسكين في الداخل. فطالما ظن أن وضع سلامته على المحك أفضل بكثير من النباح على الغير من وراء سياج حام.

- الجدران الحجرية لا تصنع سجنًا. تقول السيدة كوينيل.

- لكن يجب على جميع العلماء أن يبقوا عقولهم منفتحة. يقول الدكتور ديبونت، في ما يبدو أنه إشارة لمحادثتهم السابقة.

- أنا متأكدة أن عقل الدكتور جوردن مفتوح ككتاب -تقول السيدة كوينل- يقال إنّك تنظر في أمر غريس، من وجهة النظر الروحية.

يستطيع سايمون أن يرى أنه إذا ما حاول أن يشرح الفرق بين الروح، بالمعنى الذي تفترضه للكلمة، والعقل اللّا واعي الذي يقصده، فسوف يقع في جدل عديم الجدوى؛ لذا يبتسم ويومئ برأسه.

- ما المقاربة التي تتبعها لاسترجاع ذاكرتها المتلاشية؟ يسأل ديبونت.

- بدأت بأسلوب قائم على الاقتراح، وترابط الأفكار -يقول سايمون- إنّني أحاول بلطف وبتدرج أن أعيد تأسيس سلسلة الأفكار التي قطعت، ربّما بسبب صدمة الأحداث العنيفة التي شاركت فيها.

- آه -يقول الدكتور ديبونت، مع ابتسامة متكبرة- في التأني السلامة.

يشعر سايمون بالرغبة في ركله.

- نحن على يقين من أنها بريئة -تقول السيدة كوينل- جميع أعضاء اللجنة مقتنعون بذلك! القس فيرينغر يعمل على عريضة، إنها ليست الأولى، لكننا نأمل في أن ننجح هذه المرة. شعارنا هو (مرة أخرى حتى الوصول) -ثم تهزّ جسدها بطريقة طفولية- هيا، قل إنّك في صفنا؟!

- إذا لم تنجح أنت أولًا. يقول الدكتور ديبونت برصانة.

- لم أصل إلى أي استنتاجات بعد -يقول سايمون- على أي حال، أنا لست مهتمًا بذنبها أو براءتها، بقدر اهتمامي...

- بآليات عمل دماغها. يقول الدكتور ديبونت.

- ما كنت لأصُوغها بهذه الطريقة. يقول سايمون.

- ليس النغم الذي يصدره صندوق الموسيقا، بل التروس الصغيرة والدواليب هي ما يهمك.

- ماذا عنك؟ يقول سايمون، الذي بدأ يجد الدكتور ديبونت أكثر إثارة للاهتمام.

- آه -يقول ديبونت- لا يهمني الصندوق بصوره الخارجية الجميلة، ما يهمني هو الموسيقا. الموسيقا التي تعزف عبر شيء مادّي، وبالرغم من ذلك فهي ليست مادة. كما يقول الكتاب المقدس: «اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ.»[13]

- القديس يوحنا -تقول السيدة كوينل- «الْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ.»

- «اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ.» يقول ديبونت.

ينظر الاثنان إليه بشيء من الظفر الدمث لكن غير القابل للنقاش، فيشعر سايمون وكأنه يختنق تحت مرتبة.

- دكتور جوردن -يناديه صوت قريب. إنها الآنسة ليديا، إحدى بنات زوجة

---

13 «اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ» (يو 3: 8).

الآمر- أرسلتني ماما لأسأل ما إذا كنت قد شاهدت سجل قصاصاتها بعد.

سايمون يبارك مضيفته بينه وبين نفسه، ويقول إنّه لم يحظَ بهذا الشرف بعد. إن احتمال النظر إلى القصاصات الغامضة لمواقع جميلة في أوروبا، وإطاراتها المزينة بورق السرخس لا يغريه عادة، لكنه يبدو الآن مهربًا ملائمًا. يبتسم ويومئ، ويذهب مبتعدًا.

تشير له الآنسة ليديا للجلوس على مقعد بلون اللسان، ثم تجلب كتابًا ثقيلًا من الطاولة المجاورة وتتخذ مقعدًا بجانبه.

- اعتقدت أنك قد تجده موضع اهتمام، بسبب كل ما تفعله مع غريس.

- أوه؟ يقول سايمون.

- إنه يحوي جميع جرائم القتل الشهيرة -تشرح الآنسة ليديا- تقتطعها أمي وتلصقها هنا. إنه يحوي أخبار الشنق أيضًا.

- هل تفعل ذلك حقًا؟ -يسأل سايمون- لا بدّ أن المرأة غول، كما أنها مصابة بلا شك بالوسواس المرضي.

- إنه يساعدها في تحديد السجناء الذين يستحقون الإحسان، من بين السجناء جميعًا -تقول الآنسة ليديا- ها هي غريس. تفتح الكتاب على ركبتيها وتميل في اتجاهه، بجدية تعليمية، أنا مهتمة بها؛ لديها قدرات رائعة.

- مثل الدكتور ديبونت؟ يقول سايمون.

تحدّق السيدة ليديا:

- أوه، لا. أنا لا أدخل إلى تلك الجلسات. لن أسمح لنفسي أبدًا بأن أنوم مغناطيسيًا، ذلك فعل جريء جدًا! ما أعنيه أن غريس تتمتع بقدرات رائعة كخياطة.

يفكر سايمون بأن فيها شيئًا من التهور المكبوح. تظهر أسنانُها العليا والسفلية حين تبتسم. ولكنها صحيحة عقليًا بعكس والدتها. إنها حيوان يافع صحيح. لا يفوت سايمون جيدها الأبيض المحاط بشريط بسيط مزين بالبراعم، كما يتناسب مع فتاة غير متزوجة. وعبر طبقات من النسيج الرقيق، تضغط

ذراعُها ذراعَه. هو ليس حجرًا بعد كل شيء، فعلى الرغم من أن شخصية الآنسة ليديا -كجميع الفتيات مثلها- لم تتشكل بعد، ولا تزال طفولية، إلا أن لجسدها خصرًا ضيقًا. تفوح منها سحابة عطر، ذلك زنبق الوادي يكتنفه بحرير رائحته.

لكن الآنسة ليديا على الأغلب غير واعية بتأثيرها عليه، فهي بالضرورة أجهل من أن تفهم طبيعة مثل هذه التأثيرات. يأخذ نفسًا، ويضع ساقًا على ساق.

- هنا خبر إعدام جيمس ماكديرموت -تقول الآنسة ليديا- نشر في العديد من الصحف. هذا مأخوذٌ عن: ذي إيجزامينر[14].

يقرأ سايمون:

أي نزعة مرضية تلك التي تجذب المجتمع لمثل هذه المشاهد، عندما يحتشدون غاضّين النظر عن حالة الطرق الراهنة؛ من أجل أن يشهدوا عذاب احتضارِ رجلٍ منهم. رجل تعيس الحظ، وإن كان مجرمًا. هل بالإمكان افتراض تحسن الأخلاق العامة، أو قمع الميل إلى ارتكاب جرائم فظيعة، عبر مشاهد عامة كهذه.

- أميل إلى الموافقة. يقول سايمون.
- كنت سأحضرها لو تمكنت -تقول الآنسة ليديا- ألن تفعل؟

فوجئ سايمون بهذا التوجه. فهو لا يوافق على عمليات الإعدام العلنية، المثيرة على نحو غير سليم، منتجة خيالات متعطشة إلى الدماء لدى السكان من ضعفاء العقول. لكنه يعرف نفسه في مناسبات كهذه، يتغلب حب استطلاعه على وخز ضميره.

- بصفتي المهنية ربما -يقول بحذر- لكني ما كنت سأسمح لأختي بالحضور، على افتراض أن لدي أختًا.
- تفتح الآنسة ليديا عينيها بتعجب:
- لكن لم لا؟
- يجب على النساء عدم حضور مثل هذه المناظر المروعة -يقول- إنها تشكل خطرًا على طبائعهن النقية.

---

14 The Examiner.

يعي أن ما قاله مبتذل. فقد صادف أثناء رحلاته العديد من النساء اللواتي بالكاد يمكن اتهامهن بأنهن ذوات طبيعة نقية. رأى نساء مجنونات يمزّقن ثيابهن ويعرضن أجسادهن العارية. رأى أدنى نوع من البغايا يفعلن الشيء نفسه. شاهد النساء في حالة سكر وتهجم، يتقاتلن مثل المصارعين، ويسحبن الشعر من رؤوس بعضهن البعض. شوارع باريس ولندن تعج بهؤلاء؛ عرفهن وهن يتخلصن من أطفالهن الرضع، ويبعن بناتهن الصغيرات إلى الرجال الأثرياء، الذين يأملون أن يجنبهم اغتصاب الصغيرات الأمراض التي يمكن أن تنتقل عبر النساء الأكبر سنًا. لذا فهو لا يمكن أن يكون واقعًا تحت وهم نقاوة النساء الفطرية، ولكن كل هذه الحقائق ما هي إلا سبب إضافي لصون نقاء الأنقياء. في مثل هذه القضية، من المؤكد أن للنّفاق ما يبرره: يجب على المرء أن يقدم ما ينبغي أن يكون حقيقة كما لو أنه هو الحقيقة الحاصلة.

- هل تعتقد أن لديّ طبيعة نقية؟ تقول الآنسة ليديا.
- أنا متأكد من ذلك. يقول سايمون بينما يتساءل إذا كان هذا الذي يشعر به فخذها، أو جزءًا من ملابسها فقط.
- يساورني الشك أحيانًا -تقول الآنسة ليديا- يقول بعض الناس إنّ الآنسة فلورانس نايتنغيل ليست ذات طبيعة نقية، وإلا لَما كان باستطاعتها أن تشهد مثل تلك المناظر المهينة دون الإضرار بصحتها. لكنها -بالرغم من ذلك- بطلة.
- لا شك في ذلك. يقول سايمون.

يشتبه في أنها تغازله. لم يصبه الضيق بل كان بعيدًا عنه، ولكن في المقابل جعله ذلك يفكر بوالدته. كم عدد الفتيات الملائمات اللاتي جرجرتهن بتروٍّ إليه، مثل طعم سمكة ذا ريش مغر؟ دائمًا ما تصفهن كما تصف مزهرية من الزهور البيضاء. أخلاقهن بلا عيب، آدابهن نزيهة كماء الينبوع، عرضت عليه عقولهن كقطعة عجين غير مخبوزه، سيكون له امتياز صياغتها وتشكيلها. وفيما يشرع محصول الموسم من الفتيات في الخطوبة والزواج، ينمو جيل أصغر، مثل زنابق مايو. إنهن الآن صغيرات جدًا بالنسبة لسايمون، حتى إنّه يواجه مشكلة في

التحدث معهن. التحدث إليهن يشبه التحدث إلى سلة من القطط الصغيرة.

لطالما كانت والدته تخلط بين الشباب وقابلية التشكيل. ما تريده حقًا هو زوجة ابن يمكنها هي -لا سايمون- تشكيلها كما تريد. وهكذا تستمر الفتيات في تجاوزه، فيما يستمر هو في الابتعاد دون اكتراث، متهمًا بلطف من قِبل والدته بالكسل والعقوق. يوبخ نفسه على ذلك -إنه كلب حزين وسمكة باردة- ويعطي اهتمامًا لشكر أمه على أتعابها، ويطمئنها بأنه سيتزوج في النهاية، لكنه غير مستعد لذلك بعد. إذ يجب عليه أولًا متابعة أبحاثه، يجب عليه أن ينجز شيئًا ذا قيمة، ويكتشف شيئًا مهمًا. عليه أن يصنع اسمه وسمعته.

لديه اسم بالفعل -تتنهد موبخة- اسم جيد، يبدو مصرًا على إبادته برفضه تمريره لجيل آخر. عند الوصول إلى هذه النقطة من النقاش، دائمًا ما تسعل؛ للدلالة على أن ولادته كانت صعبة، حتى إنّها كادت أن تودي بها، وقد أضعفت رئتيها على نحو مهلك، وهي تبعات غير قابلة للحدوث طبيًا، كان في صباه يعتصر ذنبًا بتأثير منها. أكملت: لو أنه أنجب ابنًا فقط، بعد زواجه بالطبع، فستموت سعيدة. يشاكسها بالقول إنّه في هذه الحالة سيكون آثمًا بزواجه من الأصل، ما دام ذلك سيؤدي إلى موتها، ويضيف -لتخفيف الفظاظة- أنّه يفضل أن يكون بلا زوجة، على أن يكون بلا أم، وخاصة إن كانت أمًا مثالية مثلها. حينها تنظر إليه نظرة حادة تخبره أنها ضليعة بالعديد من حيله التي لن تنطلي عليها. لكنها تقول إنّ ذكاءه يعمل ضد مصلحته، وإنّه لن يتملص منها عبر الإطراء. لكنها ترضى بذلك.

تغريه فكرة الخضوع في بعض الأحيان. كان بإمكانه اختيار إحدى السيدات الشابات المعروضات عليه، أغناهن بالتأكيد. تضمن له روتينًا منظّمًا، ووجبات إفطَار صالحة للأكل، وأطفالًا محترمين. فِعلُ الإنجاب سيكون عملية غير مرئية، محجوب بحرص في قطن أبيض. ستكون مطيعة، طاعة تبغضها بالقدر الملائم، فيما يتمتع بها باعتبارها حقه، وهو شيء لا حاجة للإتيان على ذكره أبدًا. سيحظى منزلُه بكل وسائل الراحة الحديثة، وسيكون هو نفسه محميًا بالمخمل. هذا ليس المصير الأسوأ الذي يمكن أن يؤول إليه الإنسان.

- هل تعتقد أن لدى غريس تلك الطبيعة؟ -تقول الآنسة ليديا- الطبيعة النقية. أنا متأكدة من أنها لم ترتكب جرائم القتل. على الرغم من أنها أبدت ندمها لاحقًا لعدم إبلاغ أحد. لا بدّ أن جيمس ماكديرموت كان يكذب. يقولون إنّها كانت عشيقته. هل هذا صحيح؟

يحمر وجه سايمون. إن كانت تغازله، فهي تفعل ذلك دون إدراك. إنها بريئة جدًا لدرجة أنها لا تعي افتقارها للبراءة.

- لا يمكنني القول في الحقيقة. يتمتم.

- قد تكون اختطفت -تقول ليديا حالمة- في الكتب، تُخطف النساء دائمًا. لكني لم أعرف أي شخص حدث له ذلك. ماذا عنك؟

يقول سايمون إنه لم يلقَ أحدًا كذلك.

- لقد قطعوا رأسه -تقول الآنسة ليديا بصوت منخفض- وضعوه في زجاجة في جامعة تورونتو.

- بالتأكيد لا -يقول سايمون- ربما حفظت الجمجمة، لكن بالتأكيد ليس الرأس بأكمله!

- مثل مخلل كبير -تقول الآنسة ليديا بارتياح- أوه، انظر، ماما تريد مني الذهاب والتحدث إلى القس فيرينغر. لكني أفضل التحدث معك، فهو تربوي جدًا. تعتقد أن مجالسته نافعة لتهذيب أخلاقي.

يدخل القس فيرينغر إلى الغرفة، متبسمًا لسايمون ابتسامة ودّ وثناء، كما لو كان سايمون ربيبه. أو ربما كان يبتسم لليديا.

يشاهد سايمون ليديا تنسلّ من الغرفة. لديها تلك المشية اللينة التي ربيت عليها. وحين انسحب إلى نفسه متكئًا على الأريكة فكر في غريس، التي يراها خلال أيام العمل، جالسة قبالته في غرفة الخياطة. بدت في الصورة التي انتشرت لها أكبر من سنها، لكنها الآن أصغر. بشرتها شاحبة، جلدها ناعم وخالٍ من التجاعيد، ونسيجه رائع على نحو لافت للنظر، ربما لأنها بقيت في الداخل، أو قد يكون النظام الغذائي الزهيد للسجن. إنها أنحل الآن، وجهها أقل امتلاءً. وفي حين

أن الصورة تظهر امرأة جميلة، فهي الآن ليست جميلة فقط. يمكن القول إنّها جميلة على نحو مختلف. خط وجنتها فيه بساطة رخامية، كلاسيكية. يجعلك النظر إليها تؤمن بأن المعاناة تتطهر بالفعل.

يمكن لسايمون حين يجلس قربها، في غرفة الخياطة، أن يشمها فيما ينظر إليها. وعلى الرغم من أنه يبذل جهده حتى لا ينتبه، إلا أن رائحتها تيار مُشتت. لها رائحة الدخان. الدخان، وصابون الغسيل، مختلطًا بملح ورائحة الجلد نفسها بخفوت، وامتلاء، ونضج. ماذا؟ إنها رائحة السراخس والفطر، والفاكهة المسحوقة المخمرة! ويتساءل كم مرة يُسمح للسجينات بالاستحمام. شعرها المضفّر والملفوف تحت غطاء رأسها، يبعث رائحةً ما بدوره، رائحة مسكية قوية لفروة الرأس. إنه في حضرة أنثى حيوان؛ حيوان يقظ مثل ثعلب. يستشعر انتباه اليقظة على طول بشرته، شعور يشبه انتصاب شعيرات الجسد. أحيانًا يشعر وكأنه يسير على رمال متحركة.

يضع شيئًا أمامها كل يوم، ويطلب منها أن تخبره أي خيال يثيره فيها. حاول مع العديد من الخضروات الجذرية هذا الأسبوع، على أمل التوصل إلى رابط، على سبيل المثال: شمندر، قبو التخزين، جثة. أو حتى لفت، تحت الأرض، قبر. وفقًا لنظرياته، يجب أن يستدعي العنصر الصحيح سلسلة من الروابط المربكة لديها. على الرغم من أنها -حتى الآن- تعاملت مع عناصره المعروضة بمعناها الظاهري ببساطة، وكل ما نجح في استخراجه منها كان عبارة عن سلسلة من طرق الطهي.

حاول يوم الجمعة اتباع مقاربة أكثر مباشرة.

- عليك أن تكوني صريحة تمامًا معي يا غريس -قال- ليس عليك إخفاء أي شيء.
- ليس لدي أي دافع لعدم الصراحة، سيدي -قالت- قد تضطر السيدة أي سيدة لكتمان بعض الأمور، إذ إنّ لديها سمعة مهددة بالتشويه، أما أنا فقد تجاوزت ذلك.
- ماذا تقصدين يا غريس؟ قال.
- أعني سيدي، أنني لم أكن سيدة من قبل، وقد فقدت بالفعل أي سمعة

حزتها في أي وقت مضى. والآن أستطيع قول ما أشاء؛ وإذا لم أرغب فيمكنني ألّا أتكلم على الإطلاق.

- أنت إذًا لا تهتمّين برأيي فيك يا غريس؟

أعطته نظرة سريعة حادة، ثم واصلت تطريزها.

- سبق الحكم علي سيدي. ورأيك بي لن يصنع فارقًا.
- هل كان حكمًا عادلًا، غريس؟ لم يستطع مقاومة السؤال.
- لا يهم إن كان حكمًا صائبًا أو خطأً -قالت- يريد الناس متّهمًا حين تقع جريمة. يريدون معرفة من فعلها، إنهم لا يحبون عدم المعرفة.
- إذًا فقد فقدت الأمل؟
- الأمل في ماذا سيدي؟ سألت بحياد.

شعر سايمون بالحمق، كما لو أنه ارتكب خرقًا للآداب المتعارف عليها:

- حسنًا... الأمل في إطلاق سراحك.
- وما الذي يجعلهم راغبين بذلك، سيدي؟ -قالت- لا يحصل الناس على قاتلة كل يوم. أما بالنسبة لآمالي فأنا أوفّرها لمسائل أصغر. أعيش مثلًا على أمل أن يكون فطوري غدًا أفضل من فطور اليوم -تبتسم قليلًا- قالوا في ذلك الوقت إنّهم يجعلون مني عبرة، لهذا حكم علي بالإعدام، ومن ثم خفف ليكون السجن المؤبد.

ولكن ماذا تفيد العبرة، بعد مضي الوقت؟ فكر سايمون. انتهت قصتها، قصتها الرئيسة، الشيء الذي صنع هويتها. كيف يفترض بها أن تملأ بقية الوقت؟

- ألا تشعرين بأنك عوملت بطريقة غير عادلة؟
- لا أعرف ما تعنيه سيدي.

كانت تخيط، وضعت نهاية الخيط في فمها لترطبه، من أجل أن يسهل تمريره في الإبرة. بدت له هذه اللفتة طبيعية تمامًا وحميمة بشكل لا يطيقه، في الوقت نفسه. شعر كما لو كان يراقبها من خلال فتحة في الحائط، وهي تخلع ملابسها. كما لو أنها كانت تنظف نفسها بلسانها، مثل قطة.

٧

أطباق مكسورة

اسمي غريس ماركس، وأنا ابنة جون ماركس، الذي يعيش في بلدة تورنتو، ويعمل في حرفة البناء الحجري. جئنا إلى هذا البلد من شمال إيرلندا منذ حوالي ثلاث سنوات. لدي أربع أخوات وأربعة أخوة، أخ وأخت منهم يكبرونني سنًّا؛ كان عمري ستَّ عشرة سنة في يوليو الماضي. عشت خادمةً في أماكن مختلفة، خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في كندا...

- الاعتراف الطوعي لغريس ماركس، إلى السيد جورج والتون، في السجن، حرر في 17 نوفمبر 1843، ستار آند ترانسكريبت، تورنتو.

...طوال السبعة عشر عامًا،
لم أشتبه مرة
بأن عمري مختلف جدًا عن أي امرأة أخرى في العالم.
لا بدّ أن العلة قد نمت -خطوة خطوة- على نحو رهيب وغريب:
هذه المشاكل الغريبة تسللت على رؤوس الأصابع، من حيث كانت إلى حيّ وبيتي،
تجلس في المكان الذي أجلس فيه وتستلقي حيث أستلقي.
وجدت معتادة على الخوف،
عندما اقتحم الأصدقاء المكان، حملوا الشعلة وصرخوا:
«ماذا تفعلين يا بومبيليا في الكهف هكذا،
ماذا تفعل ذراعك على ذلك الذئب؟
وهذا الامتداد اللدن -الذي يتمدد داخلًا وخارجًا من قدميك، ويلف ركبتك. ثعبان إذًا!» وهكذا...

- روبرت براونينج، الحلبة والكتاب، 1869.

12

إنه اليوم التاسع الذي أجلس فيه مع الدكتور جوردن في هذه الغرفة. لم تكن الأيام متتالية، حيث تخللتها أيام الآحاد، وأيام أخرى تغيّب فيها. اعتدت أن أعد الأيام ابتداءً بعيد ميلادي، ثم أخذت أحسبها منذ اليوم الأول لي في هذا البلد، ثم من اليوم الأخير لماري ويتني على الأرض، وبعدها منذ ذلك اليوم في يوليو حين حدثت أسوأ الأشياء، وبعد ذلك أخذت أعد الأيام من أول يوم لي في السجن. لكنني الآن أحسبها من اليوم الأول الذي قضيته في غرفة الخياطة مع الدكتور جوردن، حيث لا يمكنك دائمًا الاعتماد على شيء واحد، فالأمر يصبح مضجرًا للغاية، ويطول يطول الوقت، وبالكاد يمكن تحمل ذلك.

يجلس الدكتور جوردن على الجانب الآخر. تفوح منه رائحة صابون الحلاقة، تحديدًا النوع الإنجليزي منه، يفوح الصابون من أذنيه، فيما تفوح رائحة الجلد من حذائه. إنها رائحة مطمئنة أتطلع إليها دائمًا، فالرجال الذين يغتسلون يُفَضلون على الذين لا يغتسلون في هذا الصدد. أما اليوم فقد وضع البطاطا على الطاولة، لكنه لم يسألني عنها بعد، لذا فكل ما يفعله البطاطس الآن هو الجلوس بيننا. لا أعرف ماذا يتوقع مني أن أقول عنها، عدا أنني قشرت الكثير في زماني، وأكلت الكثير منها أيضًا، البطاطا الجديدة الطازجة هي مصدر بهجة خصوصًا مع قليل من الزبدة والملح، والبقدونس إن كان متاحًا. حتى القديمة منها يمكن أن تخبز لتصبح شهية. وبالرّغم من أنها تصلح للأكل -في جميع أحوالها- إلا أنها لا تصلح لمحادثة طويلة على أي حال. تبدو بعض حبات البطاطا كوجوه الأطفال، وأحيانًا تأخذ شكل الحيوانات. رأيت مرة واحدة تشبه قطة. لكن هذه الحبة بالذِات لا تبدو إلا كحبة بطاطا، لا أكثر ولا أقل. أجد الدكتور جوردن -أحيانًا- مجنونًا بعض الشيء. لكنني أفضل الحديث معه حول البطاطا -إذا كان هذا هو موضوع ولعه- على ألّا أتحدث معه على الإطلاق.

يلبس اليوم ربطة عنق مختلفة؛ إنها حمراء مع بقع زرقاء أو زرقاء مع بقع حمراء. إنها صاخبة بالنسبة لذوقي، لكن ليس بمقدوري النظر إليه بتمعن كافٍ

لأتأكد. أحتاج لاستخدام المقص، فأطلبه منه، ثم يدعوني لأبدأ الحديث، فأقول: سأنتهي اليوم من الرقعة الأخيرة لهذا الغطاء، بعد ذلك ستخاط القطع معًا، استعدادًا لحشوه. أجهزها لإحدى بنات الآمر. إنه على نمط الكوخ الخشبي.

غطاء الكوخ الخشبي شيءٌ يجب أن تحصل عليه كل شابة قبل الزواج، لأنه يعني المنزل. وهناك دائمًا مربع أحمر في المركز يرمز لموقد النار. أخبرتني ماري ويتني ذلك. لكنني لا أفصح عن هذه الفكرة، إذ لا أحسبها ستثير اهتمامه، كونها فكرة عامة وشائعة. على الرغم من أنها ليست أكثر شيوعًا من البطاطا.

- ماذا ستخيطين بعد هذا؟ يسأل.
- لا أعلم، أفترض أني سأفعل ما يملى علي، إنهم لا يكلفوني بصناعة الأغطية، بل بصناعة الرقع التي تشكّله فقط لأنّني أبرع في ذلك. قالت زوجة الآمر إن مهاراتي أهدرت بتكليفي بالخياطة البسيطة في السجن: حقائب البريد، والأزياء الموحدة، ومثل هذه الأشياء. تُعد عشية حشو الأغطية احتفالًا، وأنا لا أدعى للاحتفالات.
- لو كان باستطاعتك خياطة غطاء لنفسك، فأي نمط ستختارين؟ يقول.

حسنًا، أعرف تمامًا ما أريده. سيكون (شجرة الفردوس) كذاك الذي في خزانة الأغطية في منزل زوجة الوالي باركنسون. اعتدت على إخراجه بذريعة التحقق من حاجته للإصلاح، لمجرد الاستمتاع برؤيته، كان قطعة فاتنة، مصنوعة من المثلثات. مثلثات غامقة للأوراق وفاتحة للتفاح، الشغل دقيق جدًا. الغرز صغيرة كالتي أشتغلها بنفسي، غير أن نسختي من الغطاء ستكون بإطار مختلف. حوافّه كانت على نمط (مطاردة البط البري) لكن في نسختي ستكون حوافًا متداخلة، لون فاتح، ولون داكن، يسمونها حواف الكروم، تتشابك الكروم معًا مثل تلك التي على مرآة الصالون. سيكون عملًا ذا شأن كبير، سيستغرق وقتًا طويلًا لإنجازه، ولكن إن كان لي وحدي، سأكون على استعداد للقيام بذلك.

لكن ما قلته كان مختلفًا تمامًا.

- لا أعرف سيدي. ربما ستكون دموع أيوب، أو شجرة الفردوس، أو سياج

الأفعى، أو ربما أحجية الخادمة المسنة، لأنني خادمة مسنة، ألست كذلك سيدي؟ ولقد كنتُ بالتأكيد محيرة كأحجية.

قلت الجملة الأخيرة مشاكسة. لم أعطه إجابة مباشرة، لأن الإفصاح عن رغباتك بصوت عالٍ يجلب الحظ السيئ، ومن ثم لن يحدث الشيء الجيد أبدًا. قد لا يحدث على أي حال، ولكن لأضمن ما يمكن ضمانه. يجب أن تكون حريصًا في التصريح بما ترغب، أو حتى في الرغبة من الأصل، لأنك قد تعاقب على رغباتك. هذا ما حدث لماري ويتني.

يكتب أسماء الأغطية. يستفهم: أشجار الفردوس، أم شجرة الفردوس؟

- شجرة سيدي يمكن أن يكون لديك غطاء بأكثر من واحدة، لكن يطلق عليها مع ذلك شجرة الفردوس، رأيت غطاء بأربع أشجار مع قمم مدببة في الوسط.

- ما السبب في ذلك برأيك غريس؟

يتصرف كطفل في بعض الأحيان، طفل يسأل لماذا باستمرار.

- لأن هذا هو اسم النمط سيدي، هناك أيضًا شجرة الحياة، لكن هذا نمط مختلف. وكذلك شجرة الإغراء، وهناك شجرة الصنوبر، وهو نمط جميل بالمناسبة.

يكتب ذلك. ثم يلتقط البطاطا وينظر إليها. يقول:

- أليس من الرائع أن ينمو هذا الشيء تحت الأرض، يمكن القول إنّه ينمو في نومه، في الظلمة بعيدًا عن الأنظار، محجوبًا عن الرؤية.

حسنًا، لا أعرف أين يتوقع أن تنمو البطاطا، لم أرها في حياتي تتدلى من الشجيرات، لكني لا أقول شيئًا فيقول: ما الأشياء الأخرى التي توجد تحت الأرض غريس؟

- هناك الشمندر، والجزر، إنها تنمو جميعًا بالطريقة نفسها سيدي، هكذا هي طبيعتها.

يبدو أن إجابتي خيبت ظنه، فيمتنع عن كتابتها. ينظر إليّ ويفكر. ثم يقول:

- هل كانت لديك أي أحلام غريس؟
- ماذا تقصد سيدي؟

أظنه يسأل عمّا إذا كنت أحلم بالمستقبل، هل لدي أي خطط لما سأقوم به في حياتي، وأعتقد أنه سؤال قاس، مع الأخذ بالاعتبار أنني سأبقى هنا إلى أن أموت، ليس لدي جانب مضيء من الاحتمالات للتفكير فيه. أو ربما عَنَى أحلام اليقظة، ما إذا كنت أتخيل رجلًا أو آخر، مثل فتاة صغيرة، وهذه الفكرة قاسية بقدر الفكرة الأولى إن لم تكن أقسى. وأقول، غاضبة ومؤنبة بعض الشيء:

- ماذا أفعل بالأحلام، ليس لطيفًا أن تسأل هذا النوع من الأسئلة.
- كلّا، أرى أنك أسأت فهمي. ما أسأل عنه هو أحلامك عندما تنامين ليلًا.

أقول بصوت لاذع، لأن ذلك يبدو لي مجرد هراءِ سيدٍ نبيل، كما أنني ما زلت غاضبة:

- أفترض أن الجميع يحلم.
- مع ذلك غريس، هل تحلمين؟

لم يلاحظ نبرتي أو أنه اختار ألا يلاحظها. أستطيع قول أي شيء دون أن أزعجه أو أصدمه، أو حتى أفاجئه، سيدونه فقط. أفترض أنه مهتم بأحلامي لأن الحلم يمكن أن يعني شيئًا، أو هكذا يقول الكتاب المقدس. مثل فرعون والبقرات السمان، والبقرات العجاف. ويعقوب مع الملائكة صاعدين ونازلين على السلم. هناك غطاء مستوحى من ذلك يطلق عليه سلم يعقوب.

- أحلم سيدي.
- بماذا حلمتِ الليلة الماضية؟

حلمت أنني أقف عند باب المطبخ في منزل السيد كينير. كان المطبخ الصيفي. وكنت قد انتهيت قبل قليل من تنظيف الأرضية. أعلم ذلك لأن تنورتي كانت لا تزال مطوية لأعلى، وكانت قدماي عاريتين ومبللتين، ولم أكن قد انتعلت قباقيبي بعد. كان هناك رجل عند العتبة الخارجية، كان بائعًا متجولًا من نوع ما، مثل جيرمايا الذي اشتريت منه الأزرار ذات مرة، لأجل فستاني الجديد، فيما اشترى منه

ماكديرموت قمصانه الأربعة.

لكنه لم يكن جيرمايا، بل كان رجلًا آخر. كانت حقيبته مفتوحة والبضاعة متناثرة على الأرض: الأشرطة، الأزرار، الأمشاط، وقطع القماش -التي كانت ساطعة جدًا في الحلم- الحرير وشالات الكشمير والقطن المطبع الذي يلمع تحت الشمس، لأنه كان في وضح نهار يوم صيفي.

شعرت بأنه شخص عرفته في الماضي، لكنه أبقى رأسه في الاتجاه الآخر فلم أستطع تمييزه. أحسست به ينظر إلى أسفل، ينظر إلى ساقيّ العاريتين، عاريتين ابتداء من أسفل الركبة، متسختين من أثر فرك الأرضية. لكن الساق هي الساق، نظيفة كانت أم متسخة، مع ذلك لم أُنزل تنورتي. قلت لنفسي دعي الرجل المسكين ينظر، لا توجد أشياء كهذه من حيث أتى. لا بدّ أنه أجنبيٌ، يخوض مسيرة طويلة. إن له نظرة قاتمة وجائعة، أو هكذا فكرت في الحلم.

لكن بعدها لم يعد ينظر، كان يحاول بيع شيء لي. كان لديه شيء يخصني، لكني لم أتمكن من استعادته، كوني لا أملك مالًا. «سوف نتبادل إذًا.» قال «سنعقد صفقة. هيا ماذا لديك لي؟» قال مستفزًا.

استطعت أن أرى الآن بأنها كانت إحدى يدي. بيضاء وذابلة، تتدلى من المعصم مثل قفاز. لكني نظرت بعدها إلى يديّ وكانتا كلتاهما هناك، ملتصقتين برسغي، خارجتين من الأكمام كالمعتاد. فعرفت أن هذه اليد الثالثة تعود لامرأة أخرى ولا شك. كان عليها البحث عن يدها، وإذا ما وجدتها في حوزتي فستتّهمني بالسرقة. لم أعد أريدها -بعد الآن- لأنّها ولا بدّ قد بترت، ومن المؤكد أن الدم كان يقطر منها سميكًا مثل الشراب، لكني لم أكن مروعة منها على الإطلاق، كما سأكون لو كنت أشاهد دمًا حقيقيًا في يقظتي. عوضًا عن ذلك كنت قلقة بشأن شيء آخر. سمعت موسيقا الفلوت خلفي، وقد أراعتني.

اذهب بعيدًا، قلت للبائع المتجول، يجب أن تذهب بعيدًا الآن. لكنه أشاح برأسه جانبًا ولم يتحرك، وأظن أنه كان يضحك علي.

وهذا ما كان عليه الأمر: سوف يعلق الدم بالأرضية النظيفة.

***

أقول إنّي لا أستطيع تذكر حلم البارحة سيدي، كان شيئًا محيّرًا. فيدون ذلك.

أنا لا أملك الكثير، لا متاع، ولا ممتلكات، ولا حياة خاصة للحديث عنها؛ لذلك أنا بحاجة للاحتفاظ بشيء ما لنفسي. وعلى أي حال، كيف ستفيده أحلامي، بعد كل شيء؟

- حسنًا، هناك أكثر من طريقة لسلخ قطة.

أجده اختيارًا غريبًا للكلمات، وأقول:

- لستُ قطة، سيدي.

- أوه تذكرت، ولست كلبًا أيضًا -يبتسم- السؤال غريس هو ماذا أنتِ إذًا؟ سمك أو لحم أو ربما سمكة رنجة حمراء جيدة؟

- أستميحك عذرًا سيدي؟

أنا لا أقبل بتسميتي سمكة، وددت لو أغادر الغرفة إلا أنني لا أجرؤ على ذلك.

- دعينا نبدأ من البداية.

- بداية ماذا سيدي؟

- بداية حياتك.

- ولدت يا سيدي، مثل أي شخص آخر. أقول وأنا لا أزال مزعوجة منه.

- لدي اعترافك هنا، دعيني أقرأ لك ما ذكرت فيه.

- هذا ليس حقًا اعترافي، إنه فقط ما نصحني المحامي بقوله، وأشياء أخرى اختلقها رجال الصحافة. ما دام الأمر كذلك، فربما ترغب أيضًا في تصديق عريضة الفضائح القذرة التي كانوا يبيعونها. في المرة الأولى التي وقعت فيها عيني على صحفي، فكرت: حسنًا، هل تعرف والدتك أنك في الخارج؟ كان تقريبًا في مثل سني، لم تكن له علاقة بالكتابة في الصحف. كان بالكاد كبيرًا كفاية ليحلق. جميعهم هكذا، سذج، ولا يعرفون الحقيقة إذا ما وقعوا

عليها. قالوا إنني كنت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة أو أكثر من عشرين، عندما كنت في طريقي إلى بلوغ السادسة عشرة من عمري فقط، ولم يتمكنوا حتى من الحصول على الأسماء الصحيحة، كتبوا اسم جيمي والش بثلاث طرق مختلفة: ولش، ويلش، ووالش. حدث الأمر نفسه مع ماكديرموت أيضًا: مك وماك وماكديرموت بتاء واحدة واثنتين. وسجلوا نانسي باسم آن، لم يُطلق عليها هذا الاسم أبدًا في حياتها، فكيف يمكن أن تتوقع منهم الإصابة في أي شيء آخر؟ سوف يشكلون الأشياء بالطريقة التي تناسبهم.

قال بعدها:

- غريس، من هي ماري ويتني؟

منحته نظرة سريعة.

- ماري ويتني سيدي؟ من أين لك بهذا الاسم الآن؟
- إنّه مكتوب تحت صورتك. في مقدمة اعترافك كتب: غريس ماركس، الاسم المستعار ماري ويتني.
- أوه نعم، إن الصورة لا تشبهني.
- ماذا عن ماري ويتني؟
- هذا هو الاسم الذي أعطيتهم إياه في الحانة بلويستون سيدي، عندما هربت مع جيمس ماكديرموت. قال إنه لا ينبغي أن أعطي اسمي الحقيقي، في حال جاؤوا يبحثون عنّا. أذكر أنه كان يمسك ذراعي بقوة حينها، للتأكد من أنني سأفعل ما يقوله.
- وهل أعطيتهم اسمًا عشوائيًا خطر حينها ببالك؟
- لا، سيدي. كانت ماري ويتني صديقة لي في الماضي. كانت ميتة في ذلك الوقت سيدي، ولم أعتقد أنها ستمانع في استخدامي لاسمها. كانت في بعض الأحيان تعيرني ملابسها أيضًا -أتوقف دقيقة، أفكر في الطريقة الصحيحة لشرح ذلك- كانت دائمًا لطيفة معي، ولولاها، لكانت قصتي مختلفة تمامًا.

13

أتذكر بيت شعر من طفولتي يقول:

إبر ودبابيس، إبر ودبابيس،

تبدأ مشاكل الرجل حين يصبح عريسًا!

إنه لا يخبرنا متى تبدأ مشاكل المرأة. بالنسبة لي فقد بدأت مشاكلي منذ ولدت -على الأغلب- لأنه وكما يقال سيدي لا تستطيع اختيار والديك، ولو أني خيرت، لما اخترت اللذين منحنيهما الرب.

ما أُدرج في بداية اعترافي صحيح بما يكفي. أتيت بالفعل من شمال إيرلندا؛ لكن من الإجحاف الإشارة إلى أن المتّهمين كانا من إيرلندا حسب اعترافهما. هذا يجعل الأمر يبدو كجريمة، وأنا لا أظن أن كونك إيرلنديًا يعد جريمة؛ بالرغم من التعامل معه كما لو كان كذلك. لكن بالطبع كانت عائلتنا من البروتستانت، وهذا أمر مختلف.

أتذكر منها الميناء الصخري الصغير بالقرب من البحر، تشرف عليه أرض تتلون بين الأخضر والرمادي، خالية تقريبًا من الأشجار؛ لذلك أخافتني الأشجار الكبيرة التي هنا أوّل الأمر. لم أر كيف يمكن لشجرة أن تطول إلى هذا الحد. ولأني كنت لا أزال طفلة حين تركت المكان، فذكرياتي عنه مجرد شظايا، مثل طبق مكسور. هناك دائمًا بعض القطع التي يبدو أنها تنتمي إلى طبق آخر تمامًا. ثم هناك المساحات الفارغة، التي تعجز عن ملئها بأي شيء.

كنا نعيش في كوخ بسقف يسرب الماء، وغرفتين صغيرتين، على حافة قرية بالقرب من بلدة لم أذكرها للصحف، حيث يحتمل أن الخالة بولين لا تزال حية، ولا رغبة لي في جلب العار لها. لطالما كان ظنها بي حسنًا، على الرغم من أنني سمعتها تخبر أمي بما يمكن توقعه لي، مع الإمكانيات الضئيلة، وأب كأبي. كانت مقتنعة أن أمي تزوجت شخصًا أقل منها. قالت إنّ هذا هو سلوك العائلة، وإنّي على الأغلب سأؤول إلى المصير نفسه، لكن علي الكفاح ضد هذا القدر، وأن أعطي قدرًا لنفسي، ولا أقبل بأول رفيق لطيف أصادفه، على طريقة أمي، دون النظر إلى

عائلته أو خلفيته. وكم عليّ أن أكون حذرة من الغرباء. ولأني كنت في الثامنة، لم تكن لدي فكرة عمّا تتحدث عنه. على الرغم من أنها كانت نصيحة جيدة. وقالت والدتي إن مقصد العمة بولين كان لطيفًا، غير أن معاييرها لا تصلح إلّا لأولئك الذين يستطيعون الارتقاء إليها.

كان للخالة بولين، وزوجها العم روي -وهو رجل طليق اللسان، منكفئ المنكبين- متجر في البلدة المجاورة. بجانب السلع العامة التي كانوا يبيعونها، تتوفر مواد الخياطة وقطع من الدانتيل، وبعض قطع الكتان القادمة من بلفاست، وكانت أحوالهم جيدة بما فيه الكفاية. أمي هي الشقيقة الصغرى للخالة بولين، والشقيقة الأجمل من خالتي، التي كانت لها بشرة مثل ورق الصنفرة، بعظام بارزة، ومفاصل إصبع كبيرة كركب الدجاج. فيما كان لوالدتي شعر كستنائي طويل -ورثته عنها بالمناسبة- وعينان زرقاوان مستديرتان مثل عيني دمية، وقبل زواجها عاشت مع الخالة بولين والعم روي، وكانت تساعدهما في المتجر.

كان والد أمي والخالة بولين رجلَ دين ميثودي. وقد قيل إن أباهما قام بشيء غير متوقع بأموال الكنيسة، حتى إنّه لم يستطع -بعدها- الحصول على منصب. وعندما مات، كانوا مفلسين تمامًا، وانتهى بهم الأمر مطالَبِيْن بإعالة أنفسهم. حظيت كلتاهما بقسط من التعليم، وكانتا تجيدان التطريز والعزف على البيانو، حتى إنّ الخالة بولين شعرت أنها -هي الأخرى- تزوجت رجلًا أقل منها. كانت ترى أن سيدة مثلها لا تليق بها العناية بمتجر، ليست هذه طريقة العيش التي تبتغيها لنفسها. وعلى الرغم من أن العم روي لم يكن رجلًا مصقولًا، إلا أنه كان حسن النية، وكان يحترمها. وفي كل مرة تلقي فيها نظرة على خزانة ملابس الكتان، أو حين تحسب مجموعتي الأطباق اللّتين لها -واحدة للاستخدام اليومي، وأخرى للمناسبات مصنوعة من الخزف الحقيقي- تصبح ممتنة، لأن أوضاعها بعد كل شيء أفضل من كثير من النساء، إنها تقصد أمي بذلك.

لا أعتقد أنها قصدت إيذاء أمي، بالرغم من أن لكلتيهما هذا التأثير، وكانت تبكي بعدئذ. لقد وجدت نفسها تحت تصرف الخالة بولين واستمر الأمر كذلك،

حتى التقت والدي وأصبحت تحت تصرفه أيضًا. كانت الخالة بولين تحثها دومًا على الوقوف في وجه أبي، وكان أبي يحثها على الوقوف في وجه الخالة بولين، وقد سحقت بينهما إلى أن استوت، كانت خجولة مترددة، ضعيفة، وحساسة، وهو ما كان يغيظني. كنت أريدها أن تصبح أقوى، حتى لا أحتاج أنا نفسي لأكون كذلك.

بالنسبة لأبي، فهو لم يكن إيرلنديًا حتى. كان رجلًا إنجليزيًا من الشمال، ولم يكن سبب قدومه إلى إيرلندا واضحًا أبدًا، حيث إنّ معظم الميالين للسفر ذهبوا في الاتجاه الآخر. قالت الخالة بولين إنه ولا بدّ وقع في بعض المشاكل في إنجلترا، وأتى إلى هنا ليخرج نفسه منها. ويحتمل ألّا يكون ماركس اسمه الحقيقي. كان يجب أن يكون اسمه مارك[15] وذلك لعلامة قابيل، في النظرة القاتلة لعينيه. لكنها لم تقل ذلك إلا في وقت لاحق، عندما ساءت الأمور تمامًا.

بدا أوّلَ الأمر -كما تقول والدتي- شابًا جيدًا بما فيه الكفاية، مستقرًا، وعلى الخالة بولين أن تعترف بأنه بدا وسيمًا أيضًا؛ إذ كان طويل القامة، بشعر أصفر، محتفظًا بمعظم أسنانه. وفي الوقت الذي تزوّجا فيه، كان لديه مال في جيبه، إضافة إلى خطط مستقبلية، بينما كان في الواقع بناء، كما كتبت الصحف. ومع ذلك، قالت الخالة بولين إن أمي ما كانت ستتزوجه لولا أنها اضطرت للتغطية على حملها. بالرغم من أنه قيل إن شقيقتي الكبرى مارثا كانت أكبر من أن تكون بنت سبعة أشهر. جاء ذلك من كون أمي خدومة للغاية، وقد أوقع بالكثير من الشابات بهذه الطريقة، وقد أخبرتني بذلك حتى لا أقع في الأمر نفسه. وقالت إن والدتي كانت محظوظة للغاية لأن أبي وافق على الزواج منها، إنها تعترف بذلك، لأن معظمهم كانوا سيركبون أول قارب يغادر بلفاست بعد سماع مثل هذه الأخبار، تاركين رفيقاتهم على الشاطئ. ماذا كان بإمكان الخالة بولين أن تفعل لها بعد، فقد كانت قلقة على سمعتها وسمعة المتجر.

لذلك شعر كلٌّ من والديّ أنه وقع في شباك الآخر!

لا أعتقد أن والدي كان رجلًا سيئًا بالفطرة، إلا أنه سهل الانقياد للضلال،

---

15 أي (علامة) بالإنجليزية. (م).

وكانت الظروف ضده. فلكونه إنجليزيًا، لم يكن مرحّبًا به حتى بين البروتستانت، إذ لم يكونوا مولعين بالدخلاء. يدعي عمي أنه خدع والدتي بالزواج منها حتى يحظى بوقت جيد، يعيش براحة، وينغمس في أموال المتجر، والذي كان صحيحًا جزئيًا، إذ لم يكن باستطاعتهم رفضه بسبب أمي وأولادها.

عرفت كل ذلك في سن مبكرة. لم تكن الأبواب في منزلنا سميكة جدًا، وقد كنت جرة صغيرة بأذنين كبيرتين، وكان صوت والدي يرتفع عند السكر. وحين يهم بالرحيل لا ينتبه لمن قد يكون مختبئًا في الزاوية، أو واقفًا خارج النافذة، بهدوء فأرة.

من الأشياء التي قالها إن أولاده كثيرو العدد، حتى بالنسبة لرجل أثرى. وكما كتبت الصحف، كنا تسعة في نهاية المطاف، تسعة أحياء. لم يدرجوا الموتى، الذين كانوا ثلاثة، ولا الطفل الذي أجهض، ولم يكن له اسم حتى. كانت أمي والخالة بولين تشيران إليه بالطفل المفقود، وعندما كنت صغيرة تساءلت عن مكان فقده، لأنني اعتقدت أنه فقد بالطريقة التي يمكن أن تفقد بها قرشًا. وإذا كان قد ضاع، ربما يُعثر عليه مجددًا ذات يوم.

دُفن الموتى الثلاثة الآخرون في فناء الكنيسة. وفيما كانت صلوات أمي تتزايد، كان ذهابنا للكنيسة يتناقص، قالت إنها لن تعرض أطفالها المساكين بأسمالهم البالية، وأقدامهم الحافية للناس مثل فزاعة. لم تكن سوى كنيسة أبرشية. على الرغم من طبيعة أمي الواهنة، كانت لديها عزة نفس، ولكونها ابنة رجل دين، فهي تعي ما يليق بالكنسية مهما تكن صغيرة. حاولت طويلًا أن تصبح لائقة مرة أخرى، ولكي تجعلنا لائقين أيضًا. ولكن من الصعب جدًا -سيدي- أن تكون لائقًا بدون الملابس المناسبة.

أما أنا فلم أتوقف عن الذهاب إلى فناء الكنيسة على الرّغم من ذلك. كنيسة بحجم حظيرة أبقار، فناؤها مكسو بالعشب. كانت قريتنا أكبر من ذلك، لكن العديد منهم عبروا المحيط أو انتقلوا إلى مطاحن بلفاست. لم يتبقَ أحد من عائلة الموتى ليهتم بالقبور. كانت المقبرة أحد الأماكن التي آخذ الأطفال الأصغر سنًا إليها

عندما تأمرني أمي بإخراجهم من المنزل. لذا كنا نذهب لنلقي نظرة على الموتى الثلاثة هناك، وكذلك القبور الأخرى. بعضها قديمٌ جدًا، وشواهدها مزينة برؤوس الملائكة، على الرغم من أنهم كانوا أشبه بالكعك المسطح بعينين محدقتين، وجناحين يخرجان من الجانبين، تمامًا حيث ينبغي أن تخرج الأذنان. لم أكن أفهم كيف لرأس أن يطفو دون جسد، كما لم أفهم كيف يمكن لشخص أن يكون في الجنة، وفي فناء الكنيسة أيضًا! لكنه أمر يتفق عليه الجميع على أي حال.

بالنسبة لإخوتنا الثلاثة فلا شواهد حجرية لقبورهم، بل مجرد صلبان خشبية. لا بدّ أنها مغطاة بالأعشاب الآن.

عندما بلغت التاسعة، غادرتْ شقيقتي الكبرى مارثا البيت لتخدم في البيوت الأخرى، وهكذا كلّفتُ بالأعمال المنزلية التي اعتادت أن تتولّاها. ثم بعد ذلك بعامين، ذهب أخي روبرت إلى البحر على متن سفينة تجارية، ولم نعرف عنه شيئًا منذ ذلك الحين. ولكن بما أننا انتقلنا بعدها بفترة قصيرة، فحتى لو حدث وأرسل رسالة، ما كانت ستصلنا.

وعليه بقينا أنا وإخوتي الخمسة في البيت، بالإضافة إلى سادس في الطريق. لا أتذكر والدتي إلا وهي في ما يسمونه الحالة الحرجة. على الرغم من أنني لا أرى سببًا لتلك التسمية. يطلقون عليه أيضًا وضعًا غير سار، وهو ما أجده أدق؛ وضعًا غير سار، يليه حدث سار، على الرغم من أن الحادثة نفسها لا يجب أن تكون دائمًا سارة.

بحلول هذا الوقت، كان والدي قد بلغ أقصى درجات الضجر من هذا الأمر. ما الذي تجلبين لأجله شقيًا آخر إلى العالم؟ ألم تكتفِ بما جلبته للآن؟ لكن لا، أنت لا تستطيعين التوقف، تريدين أن تجلبي لنا فمًا آخر لإطعامه. كان يتحدث كما لو لم تكن له علاقة بالأمر. عندما كنت أصغر، في حوالي السادسة أو السابعة، كنت أضع يدي على بطن أمي، الذي كان مكورًا ومشدودًا، وكنت أسألها: ما الذي تخبئه هناك؟ فم آخر؟ تبتسم أمي بحزن وتقول: نعم، مع الأسف. فكنت أتخيل فمًا ضخمًا بأسنان مركبًا على رأس كرأس الملاك الطائر على شواهد القبور، ثم

أبكي وأنا أتخيله يأكلها من الداخل! إذ ظننتها تموت.

اعتاد والدنا على الذهاب بعيدًا، يصل حتى بلفاست أحيانًا، للعمل لصالح البنائين الذين استأجروه. ثم يعود للبيت بنهاية المهمة بعد بضعة أيام، باحثًا عن عمل آخر. يجد في الحانة -أثناء وجوده بيننا- مهربًا من الزعيق. قال إن الإنسان ليس بوسعه سماع أفكاره وسط كل تلك الجلبة، خصوصًا أن رجلًا في ظروفه، بعائلة كبيرة كالتي له، يحتاج للتأمل في كيفية تلبية احتياجاتهم البدنية والروحية. لكنّ تأمله انصب في قعر القناني. وكان هناك دائمًا من هم على استعداد لمساعدته على مواصلة التأمل. لكنه ما إن يسكر، يصبح غاضبًا ويبدأ في شتيمة الإيرلنديين. ويسيء إليهم واصفًا إياهم بثلة الأوغاد السارقين عديمي الفائدة، مما يؤدي حينها إلى الشجار.

كانت له ذراع قوية، وعدد يتناقص من الأصدقاء، على الرغم من أنهم كانوا سعداء ليشاركوه الشرب، إلا أنهم لا يريدون أن يكونوا على الطرف الآخر حين يشهر قبضته. وهكذا كان يشرب بمفرده أكثر فأكثر، وكلما غرق في الشراب، طالت الليالي، وبدأ يتغيب عن مهام العمل النهارية.

وهكذا حصل على السمعة باعتباره رجلًا لا يُعتمد عليه، وأصبحت فرص العمل قليلة ومتباعدة. كان حضوره أسوأ من غيابه، إذ لم يعد تعبيره عن الغضب بحلول هذا الوقت مقتصرًا على الحانات وحدها. كان يقول إنه لا يعرف لماذا أسرج الرب ظهره بهكذا ذرية. العالم لا يحتاج المزيد منّا، يجب أن نغرق جميعًا مثل قطط في كيس. حينها يرتعب الصغار. لذلك كنت آخذ الأربعة الذين كانوا كبارًا بما فيه الكفاية ليسيروا تلك المسافة، وكنا نمسك بأيدي بعضنا البعض، وننهب إلى المقبرة ونلتقط الحشائش، أو ننزل إلى المرفأ، ونتسلق الصخور على الشاطئ ونلكز بالعصي قناديل البحر التي تقطعت بها السبل، أو نستكشف تجمعات المد والجزر بحثًا عن أي شيء.

أو نخرج على الرصيف الصغير حيث تربط قوارب الصيد. لم يكن من المفترض أن نذهب إلى هناك لأن والدتنا كانت تخشى أن ننزلق ونغرق، لكنني أقود

الأطفال على أي حال؛ لأن الصيادين يعطوننا في بعض الأحيان سمكة أو رنجة لطيفة أو إسقمري، وكنا نحتاج لأي نوع من الطعام في المنزل، حيث كانت تمر بنا أيام لا نعرف فيها ما سنأكله في اليوم التالي. لقد حظرت أمّنا علينا التسول، وما كنا نفعل بالمعنى الدقيق للكلمة، لكن خمسة صغار بثياب رثة، وعيون جائعة، مشهد يصعب إغفاله في قريتنا. ولذا فقد كانت احتمالية حصولنا على السمك أكبر من عدمها. بعدها ننطلق إلى المنزل بفخر كما لو أننا اصطدناها بأنفسنا.

أعترف بأن فكرة خبيثة كانت تراودني كلما جلس الصغار على حافة الحوض، بسيقانهم العارية الصغيرة متدلية إلى أسفل. فكرت في أن دفعي لواحد أو اثنين منهم سيقلل الطعام الذي ينبغي توفيره، والملابس التي يجب غسلها. لأني كنت الشخص الموكل بمعظم أعمال الغسيل. لكنها كانت مجرد فكرة، وضعها الشيطان في رأسي بلا شك. أو والدي على الأرجح، إذ كنت لا أزال أحاول إرضاءه في ذلك الوقت.

انضم إلى صحبة مشبوهة بعد فترة، وشوهد في الأنحاء مع الإيرلنديين المعارضين سيّئي السمعة. سمعنا بعدها أن بيتًا أحرق على بعد عشرين ميلًا، كان يعود لرجل نبيل من البروتستانت والذي وقف في صف الكاثوليك، وعن رجل آخر وُجد برأس مهشم. كان وأمي يتجادلان حول الأمر، وسألها كيف تتوقع منه بحق الشيطان أن يكسب قرشًا، وأقل ما يمكنها فعله هو إبقاء الأمر سرًا. مع أنه لا يمكن الوثوق بامرأة -على أي حال- إنهن يخن بمجرد النظر. والجحيم أقلُّ ما تستحقه النساء. وعندما سألتُ أمي ما السر، أحضرتْ الكتاب المقدس، وسألتني أن أقسم بدوري على ألا أفشيه، وأن الله سيعاقبني إذا ما حنثت بمثل هذا الوعد المقدس. الأمر الذي أرعبني كثيرًا، إذ خشيت البوح به دون انتباه، كوني لا أعرف أبدًا ما هو. ولا بدّ أن عقاب الرب فظيع، بما أنه كان أضخم من والدي. وهكذا أصبحت حذرة جدًا بشأن الاحتفاظ بأسرار الآخرين، أيًا كانت.

كان هناك مال لبعض الوقت، لكن الأمور لم تتحسن، وتحولت الكلمات إلى لكمات، على الرغم من أن أمي المسكينة لم تفعل إلا القليل لاستفزازها. وعندما

تزورنا خالتي بولين، تهمس والدتي لها، وتكشف عن الكدمات على ذراعيها وتبكي، وتقول إنه لم يكن هكذا دائمًا. ترد عليها الخالة بولين: لكن انظري إليه الآن، إنه ليس أكثر من حذاء مثقوب، وكلما صببت من الأعلى، كلما سرب من الأسفل، إنه لا يجلب سوى العار والخزي.

جاء العم روي معها في العربة ذات العجلتين التي يجرها حصان واحد، حيث جلبت بعض البيض من دجاجهم وشريحة من لحم الخنزير المقدد، لأن دجاجاتنا وخنازيرنا رحلت منذ زمن بعيد. وجلسوا في الغرفة الأمامية، حيث عُلّقت الملابس لتجف، لأنه ما إن تغسل وتنشر في يوم مشمس في مناخ كذاك، حتى تأتي الغيوم ويبدأ تساقط الرذاذ. وقال العم روي، الذي كان رجلًا صريحًا للغاية، إنه لا يعرف رجلًا يضاهي والدي في سرعة تحويل الأموال إلى بولِ حصانٍ. وطلبت منه الخالة بولين الاعتذار عن طريقة حديثه غير اللائقة. على الرغم من أن والدتي سبق وسمعت أسوأ من ذلك، إذ إن والدي ما إن يشرب، حتى يصبح له فم كريه كالمجاري.

وقتها لم يعد المال الذي يحضره والدي إلى المنزل هو ما يبقينا أحياء. بل ما تخيطه أمي من قمصان بمساعدتي، ومساعدة كاتي أيضًا، شقيقتي الأصغر. وكانت الخالة بولين هي من دبرت لها هذا العمل؛ تجلبه وتعود لأخذه. وهي مهمة مكلفة بسبب الحصان، والوقت الإضافي، والمتاعب. مع ذلك كانت دائمًا تجلب معها بعض الطعام، مع أنه كان لدينا قطعة صغيرة من الأرض مزروعة بالبطاطا والملفوف، إلا أنها لم تكن كافية على الإطلاق. كما كانت تجلب لنا أيضًا الأقمشة المتبقية من المتجر، والتي نصنع منها ملابسنا، كما كنا نفعل دائمًا.

كان والدنا أول الأمر يسأل من أين أتت هذه الأشياء. في تلك الأيام -سيدي- كانت إعالة الرجل عائلته مسألة شرف. أيًا يكن رأيه في تلك العائلة. وكانت والدتي -بالرغم من افتقارها للحيوية- امرأة أحكم من أن تخبره كل شيء. والشخص الآخر الذي لم يكن يعرف الكثير عن الأمر كان العم روي، على الرغم من أنه بلا شك قد خمّنه، ورأى بعض الأشياء تختفي من بيته، لتعاود الظهور في بيتنا. لكن

الخالة بولين كانت امرأة ذات تفكير مستقل.

ثم جاء الطفل الجديد، لم يعنِ هذا بالنسبة لي سوى المزيد من الغسيل، كما هو الحال مع الرضع، وبقيت والدتي مريضة لفترة أطول من المعتاد. واضطررت لإحضار وجبات العشاء، بالإضافة للإفطار الذي كنت مسؤولة عنه بالفعل. وقال والدي إن كل ما علينا فعله هو ضرب الطفل الجديد على رأسه وحشره بحفرة في رقعة الملفوف، لأنه سيكون أسعد تحت الأرض منه فوقها. ثم قال إنّ مجرد النظر إليه يدفعه للجوع، سيبدو لطيفًا جدًا على طبق محاط بالبطاطا المشوية، مع تفاحة في فمه. ثم تساءل لماذا كنا نحدق في وجهه.

في هذا الوقت حدث شيء مثير مفاجئ. كان لدى الخالة بولين يأس من إنجاب الأطفال، ولذلك كانت تعدنا جميعًا أطفالًا لها. أما الآن فهناك علامات على أنها في الطريق لتكوين عائلة. وكانت سعيدة للغاية، سعدت أمي لأجلها أيضًا. لكن العم روي قال للخالة بولين إنّ وقت التغيير قد حان، فليس بإمكانه الاستمرار في إعالة عائلتنا، ولديه طفل في الطريق. قال إنه يتعين وضع خطة أخرى. لكن الخالة بولين قالت إنه لا يمكن تركنا نتضور جوعًا، مهما يكن أبي سيئًا، فأختها هي من روحها وجسدها، والأطفال أبرياء. أخبرها العم روي أنّه لا يتحدث عن تركنا نجوع، بل كان يفكر في الهجرة. الكثيرون يفعلون ذلك، خصوصًا مع وجود مساحات فارغة من الأراضي في كندا يمكن تملكها، وهي فرصة ذهبية لينظف والدي صفحة أعماله. هناك طلب شديد على البناء الحجري بسبب المباني والأعمال الجارية، كما كان يحمل أخبارًا موثوقة عن إنشاء العديد من محطات السكك الحديدية، وبإمكان الرجل المجتهد استغلال ذلك.

وجدتها الخالة بولين فكرة جيدة، لكن من سيدفع تكاليف النقل؟ أوضح لها أن بحوزته بعض المدخرات، وقال إنه سيذهب عميقًا في جيبه لا ليتمكن من توفير النقل فقط، بل الزاد الذي تتطلبه الرحلة أيضًا. وقد وجد رجلًا يمكنه ترتيب كل ذلك مقابل عمولة. خطط لكل شيء قبل طرح الموضوع للنقاش. فالعم روي من نوع الرجال المنظمين الذين يستعدون لكل شيء قبل أن يشرعوا بالتصرف.

وهكذا تقرر كل شيء. وجاءت العمة بولين مخصوصًا على عربتها، بالرغم من وضعها، لتكرار كل هذا لأمي، وقالت والدتي إنها سوف تضطر للحديث مع والدي وأخذ موافقته. كان ذلك مجرد ادعاء، فمنذ متى كان للمتسولين أن يختاروا، وليس لديهم طريق آخر؟ بالإضافة إلى قدوم بعض الغرباء إلى القرية، يتجولون في النواحي، ويطرحون الأسئلة عن المنزل الذي أحرق والرجل الذي قتل. حينها أصبح والدي متعجلًا ليخرج نفسه من هناك.

لذا أظهر جانبًا جيدًا، وقال إنها ستكون بداية جديدة، وإنها بادرة كريمة من العم روي، وإنه يعتبر تكاليف الرحلة قرضًا يعيده فور ازدهار أعماله. وتظاهر العم روي بتصديقه. لم تكن لديه رغبة في إذلال والدي، إنه فقط يتمنى أن يكون هذا آخر عهده به. أما عن كرمه، فأعتقد أنه فكر في أنّ تقديم مبلغ كبير من المال مرة واحدة، أفضل من امتصاصه قرشًا قرشًا على مرّ السنين. لو كنت في مكانه لفعلت الشيء نفسه.

وهكذا شرعنا في التجهيزات. تقرر أن نبحر نهاية أبريل، وهكذا سنصل إلى كندا بداية الصيف، ونحظى بالطقس الدافئ خلال فترة استقرارنا. لقد جرت الكثير من التخطيطات بين والدتي والخالة بولين، والكثير من الفرز والتوضيب؛ وقد حاولتا أن تبدوا مبتهجتين، لكنهما كانتا حزينتين في العمق. فبعد كل شيء هما أختان، وقد تشاركتا الأفراح والأتراح، وكانتا تعلمان أنه فور أن تبحر السفينة؛ فمن غير المرجح أن تجتمعا مرة أخرى في هذه الحياة.

جلبت العمة بولين غطاء كتان جيدًا -معيبًا قليلًا- من المحل. وشالًا سميكًا دافئًا، حيث سمعت أن الجو بارد على الجانب الآخر من المحيط. وسلة صغيرة مِن الخوص، معبأة بالقش -لتحمي إبريق شاي خزفيًا، وكأسين وصحنين- مزينة بالورود. شكرتها والدتي كثيرًا، وقالت إنها لطالما كانت طيبة معها، وإنها سوف تحتفظ بإبريق الشاي إلى الأبد، كذكرى لها.

ثم كان هناك قدر كبير من البكاء الهادئ.

14

صعدنا إلى بلفاست في عربة استأجرها عمي، كانت رحلة طويلة وعرة، لكنها لم تمطر كثيرًا أثناء الرحلة. كانت بلفاست مدينة كبيرة وصخرية، أكبر مكان كنت فيه طوال حياتي، ضاجة بالعربات والمركبات وفيها مبان ضخمة والعديد من الفقراء أيضًا، ممن يعملون في مصانع الكتان ليل نهار. أضاءت مصابيح الغاز مع وصولنا مساء، كنت أراها لأول مرة. كانت مثل ضوء القمر إلا أنها مخضرة قليلًا.

نمنا في نزل مليء بالبراغيث حتى لتكاد تشك في أنه حظيرة كلاب. أخذنا صناديقنا معنا إلى الغرفة خشية تعرض سلعنا المتواضعة للسرقة. لم تتح لي فرصة رؤية المزيد، حيث كان علينا أن نصعد على متن السفينة أول الصباح. وهكذا قمت باستعجال الأطفال، لم يستوعبوا الأمر، ولأكون صادقة معك سيدي، لا أظن أن أيًا منا استوعب ذلك.

كانت السفينة هاجعة بجانب المرسى، ثقيلة، هائلة، وحشية. كانت قادمة من ليفربول، وقيل لي لاحقًا إنّها تجلب جذوع الأخشاب من شرق كندا، وتأخذ المهاجرين غربًا في الاتجاه الآخر، وكلاهما كان يُنظر إليهما بنفس القيمة كبضاعة تنقل عبر البحر. الناس يذهبون بالفعل حاملين جميع حزمهم وصناديقهم، فيما تنتحب النساء. لم أكن منهن، إذ لم أرَ جدوى ذلك، وكان والدنا متجهمًا وفي حاجة إلى صمت عميق، وليس في مزاج لتجنيب أحد صفعة يده.

كانت السفينة تتأرجح جيئة وذهابًا مع الأمواج، وأنا لم أثق بها على الإطلاق. كان الأطفال الصغار متحمسين، خصوصًا الأولاد منهم، أما أنا فشعرت بأن قلبي يغرق عميقًا داخل صدري، إذ لم أكن على متن سفينة من قبل، ولا حتى على قارب صيد صغير في مرفأنا، وكنت أعرف أننا سنبحر عبر المحيط، حيث الأرض خارج نطاق رؤيتنا، وإذا ما حدث وتحطمت السفينة أو سقطنا في البحر، فجميعنا لا نعرف السباحة.

رأيت ثلاثة غربان تقف في صف واحد على العارضة المتقاطعة للصاري،

ورأتها أمي أيضًا، وقالت إنّها فأل سيّئ، لأن ثلاثة غربان متتالية تعني الموت. فوجئت بكلامها، لأنها لم تكن تؤمن بالخرافات. لكنني أفترض أنها كانت منقبضة، وقد لاحظت أن الذين يعانون من الاكتئاب في أرواحهم، أكثر قابلية لتصديق النذر المشؤومة. كنت هلعة، هلعًا لم أظهره بسبب الصغار: فلو استسلمتُ له سيستلمون أيضًا، وقد كان هناك بالفعل ما يكفي من الجلبة والإزعاج.

تظاهر والدنا بالشجاعة، وخطى خطوات واثقة على لوح السفينة حاملًا أكبر حزمة من الملابس والفُرش، محدقًا بثقة حوله كما لو كان كل هذا مألوفًا. لكن أمي تبعته بحزن، ملتفعةً بشالها، تذرف دموعها بسرية، وقالت فيما يدها ترتجف: ما الذي أودى بنا إلى هذا الحال؟ وعندما صعدنا السفينة قالت إنّ قدمها لن تلمس الأرض مجددًا. قلت لها: ما الذي يجعلك تقولين ذلك أمي؟ فقالت: أشعر به في عظامي.

وهذا ما حدث فعلًا.

استأجر والدنا من يحمل الصناديق الأكبر. وبالرغم من أن إهدار المال على مثل هذا أمر مؤسف، إلا أنها الطريقة الوحيدة، لأنه ما كان يقوى على حملها من جهة، وليجنب نفسه جلافة وإزعاج الحمالين الذين كانوا يعيقونه من جهة أخرى. كان سطح السفينة مزدحمًا جدًا، الكثير من القادمين والذاهبين، والرجال يصرخون علينا لنبتعد عن طريقهم. خُزنت الصناديق التي لا نحتاجها أثناء رحلتنا في غرفة خاصة وجب إغلاقها منعًا للسرقة. أما زاد الرحلة فقد كان له مكانه الخاص. أُخذت البطانيات والشراشف إلى أسرّتنا. أصرت أمي على الاحتفاظ بإبريق الخالة بولين معها، حتى لا يغيب عن بصرها. وعلقت سلة الخوص على الزاوية العلوية للقائمة اليمنى للسرير، بقطعة من الخيوط المجدولة.

يقع المكان المعد لمبيتنا أسفل سطح السفينة، في مكان يدعى مَقصُورَة الحُمولة يؤدي إليه سلم لزج، وهو مكون بالكامل من الأسرة. ألواح خشنة صلبة، بالكاد ثبتت إلى بعضها بالمسامير. طول الواحد منها حوالي مترين، وعرضها متران تقريبًا. معدة لنوم شخصين بالغين، وثلاثة إلى أربعة إن كانوا أطفالًا.

كل منها بمستويين أحدهما فوق الآخر، بينهما مساحة لا تكفي سوى للانحشار بينهما من أجل الدخول. عندما تكون في السرير السفلي لن تجد المساحة الكافية للجلوس بشكل كامل، فلو حاولت سيرتطم رأسك بالسرير العلوي. أما إذا كنت في الأعلى فستكون لديك فرصة أكبر لفقدان التوازن والسقوط من ارتفاع أعلى. كان الجميع معًا، مكتظّين مثل رنجة في علبة، بلا شباك أو أي منفذ لمرور الهواء، باستثناء باب سطح السفينة المؤدي إلى مَقْصُورَة الحُمولة. كان الجو خانقًا، لكن ليس بالقدر الذي سيصبح عليه لاحقًا. كان علينا أن نحجز أسرتنا سريعًا، بوضع أشيائنا عليها، كان هناك الكثير من الازدحام والتدافع، وما كنت أرغب في أن نفترق عن بعضنا والأطفال وحيدون، وخائفون في مكان غريب ليلًا.

أبحرنا عند الظهيرة، بعد شحن كل شيء على متن السفينة. وفور أن رفعوا لوح العبور، ولم يعد هناك طريقة للعودة إلى الأرض، استدعانا القبطان عبر دق الجرس، وكان إسكتلنديًا من الجنوب، ذا بشرة متجعدة. أخبرنا أن علينا الالتزام بقواعد السفينة، حيث يُمنع إيقاد نيران الطبخ، فطباخ السفينة سيتكفل بطبخ طعامنا شرط إحضاره فور قرع الجرس. كما لا يسمح بتدخين الغليون خصوصًا في الطوابق السفلية، لأنه قد يؤدي لحرائق، ويمكن لأولئك الذين لا يستغنون عن التبغ مضغه وبصقه. يمنع غسيل الملابس، إلا في الأيام التي يسمح فيها الطقس بذلك، وفق حُكمه. ففي الطقس المهتاج قد نعرض ممتلكاتنا للضياع في البحر، وإن أمطرت فسيمتلئ المكان ببخار الملابس المبللة ليلًا، وهو أمر لن يسرنا.

كما أنه لا يسمح بإحضار فرش النوم إلى سطح السفينة لتجفيفها إلا بإذن مسبق. وعلى الجميع إطاعة أوامره، وأوامر وكيله، وباقي البحارة، فسلامة السفينة تعتمد على ذلك. ومن يخترق القواعد يحتجز في كابينة ضيقة، وهو يرجو منا ألا نختبر صبره. علاوة على ذلك، لن يتسامَحَ مع السكر، لأنه قد يؤدي إلى السقوط عن سطح السفينة. يمكن لنا أن نسكر كالسادة لكن عندما نصل إلى الشاطئ، وليس على سفينته. لم يكن مسموحًا لنا بالبقاء على سطح السفينة ليلًا، لأننا قد نتوه. كما أنه لا يسمح بمقاطعة عمل البحارة، أو تقديم

رشاوًى لهم مقابل خدمات خاصة، فلديه عيون في مؤخرة رأسه، وسيعلم مباشرة إن أقدم أحدنا على ذلك. إنه يدير سفينته بحزم، كما يمكن لبحارته أن يؤكدوا، وفي عرض البحر فكلمة القبطان هي القانون.

ثمة طبيب على متن السفينة للتعامل مع حالات المرض. من المتوقع أن يشعروا بتوعك إلى أن يعتادوا دوار البحر، ولكن عليهم ألا يزعجوا الطبيب بمشاكل تافهة كهذه. وإذا سار كل شيء على ما يرام، فسنكون على الأرض مرة أخرى بعد ستة أو ثمانية أسابيع. أخبرنا في الختام بضرورة وجود جرذ أو اثنين على متن أي سفينة عائمة، وهذه علامة حظ لأن الجرذانَ أولُ من يعرف عندما يكون مقدّرًا للسفينة أن تغرق، لذلك لا يريد أن يُزعَجَ لأمر كهذا، إذا ما لاحظت وجودها سيدة مهذبة. يفترض أن أيًا منا لم يرَ جرذًا في حياته، ضحكوا، ولكن إن كنا فضوليين فيمكننا إلقاء نظرة على واحد قتل حديثًا، وهو شهي أيضًا إن كنا جائعين، فضحكوا أكثر. كما لو أنه يساعدنا على الشعور بالراحة عبر إطلاق النكات.

عندما توقف الضحك، وضع الخلاصة بهذه الطريقة: سفينته ليست قصر باكنغهام، ونحن في المقابل لسنا ملكة فرنسا، ومثل كل شيء آخر في هذه الحياة، يحصل الإنسان على ما يدفع مقابله. وتمنى لنا رحلة سعيدة. ثم انزوى إلى مقصورته، وتركنا لنرتب أنفسنا بأفضل ما يمكن. كان يتمنى أن يرانا جميعًا في قاع البحر بينه وبين نفسه، لطالما أن بإمكانه الاحتفاظ بأموال النقل التي سلمناها. لكن على الأقل بدا أنه يعرف عمله، وهذا جعلني أشعر بالطمأنينة. لا أحتاج لإخبارك أن العديد من تعليماته لم تتّبع، خاصةً المتعلقة بالتدخين والشرب. لكن أولئك المتساهلين، كانوا ماكرين في ارتكابها.

في البداية لم تجرِ الأمور على نحو سيئ للغاية. نحلت الغيوم ومر من خلالها ضوء شمس متقطع، وبقيت على سطح السفينة أشاهدهم يخرجون المركب من الميناء، وبما أننا كنا لا نزال في حماية الأرض، لم أمانع الحركة. ولكن بمجرد أن أصبحنا في الخارج، موشكين على خوض البحر الإيرلندي، وكلما أسدلوا المزيد من الأشرعة، بدأت أشعر بالغرابة والغثيان، وسرعان ما فقدت فطوري في فتحة

التصريف، ممسكة بصغير في كل يد، فيما يفعلون الشيء نفسه. لم أكن وحدي على أي حال، حيث اصطف آخرون كثر مثل الخنازير على حوض. كانت أمّنا منكفئة، وأبونا مريضًا أكثر مني حتى، لذا لم يكن أي منهما قادرًا على رعاية الأطفال. من حسن الحظ أننا لم نتعشَ، وإلا ساءت الأمور أكثر. كان البحارة مستعدين لهذا، بما أنهم رأوه مسبقًا، وقد سحبوا دلاء المياه المالحة لغسل كل شيء.

شعرت بأنني أفضل حالًا بعد فترة، قد يعود ذلك إلى هواء البحر المنعش، أو ربما أكون قد اعتدت على تموج السفينة وتخبطها، وأيضًا -واعذرني على وضعه بهذه الطريقة سيدي- لم يتبق شيء لتقيئه. لم أكن أشعر بالمرض طالما بقيت فوق سطح السفينة. لم نكن نتساءل عن العشاء، فقد كان الجميع متوعّكًا؛ ولكن أحد البحارة أخبرني أن من الأفضل أن نحاول شرب القليل من الماء، وقضم قطعة من بسكويت السفينة، إن أمكننا ذلك. وبما أننا وضّبنا مؤونة من البسكويت حسب تعليمات العم روي، فقد فعلنا ذلك بأفضل ما أمكننا.

وهكذا تحسنت الأمور قليلًا حتى حلول الظلام، ثم اضطررنا للعودة إلى الأسفل، وحينها ساءت أحوالهم كثيرًا. كما قلت، كان كل الركاب محشورين معًا، بدون جدران فاصلة، ومعظمهم كانوا مرضًى كالكلاب. الأسوأ من أصوات تأوّه وتقيؤ جيرانك، والتي يمكنها أن تصيبك بالغثيان لمجرد الاستماع إليها، واقعُ أن الهواء بالكاد يدخل إلى المكان، وهكذا يصبح هواء المهجع فاسدًا أكثر فأكثر، والنتانة كافية لقلب معدتك.

اغفر لي قول ذلك سيدي، لكن لم تكن هناك أي طريقة مناسبة لتريح نفسك. زوّدنا بالدلاء، لكنها وضعت في بقعة مكشوفة للجميع، أو كان يمكن أن تكون كذلك، لو أن المكان مضاء. وعليه فقد كان علينا تلمس الطريق في الظلام، متجاوزين أولئك الذين يلعنون. يحدث أحيانًا أن ينقلب الدلو عن طريق الخطأ، لكن حتى لو بقي منتصبًا، فالذي لا يدخل فيه يقع على الأرضية. لحسن الحظ لم تكن الأرضية صلبة، لذلك كان بعضه -على الأقل- يتسرب إلى الأسفل. جعلني ذلك أفكر -سيدي- في أن هناك أوقاتًا تكون فيها النساء اللواتي يلبسن التنانير

أفضل حالًا من الرجال بسراويلهم، لأننا على الأقل نحمل معنا -بمعنى ما- خيمة طبيعية، في حين كان الرجال المساكين يترنحون، وسراويلهم حول كواحلهم. ولكن كما قلت، لم يكن هناك الكثير من الضوء.

ما القصة مع تأرجح السفينة وارتطامها، وتلاطم الأمواج والضوضاء والرائحة، والجرذان التي تركض ذهابًا وإيابًا بجرأة اللوردات والسيدات، إنّها أشبه بمعاناة الروح في الجحيم. فكرت في يونس في بطن الحوت. لكن على الأقل هو لم يبقَ هناك سوى ثلاثة أيام، وكان أمامنا ثمانية أسابيع. وكان في البطن بنفسه، ولم يكن مجبرًا على الاستماع لنواح وقيء الآخرين.

تحسن الوضع بعد عدة أيام، مع تعافي الكثيرين من دوار البحر، لكن الهواء كان دائمًا كريهًا في الليل، وكان الإزعاج مستمرًا. تراجعت أصوات التقيؤ بالتأكيد، لكنها أخلت المكان للمزيد من السعال والشخير، بالإضافة إلى قدر كبير من البكاء والصلوات، الأمر الذي يمكن تفهمه في ظل تلك الظروف.

لا أقصد الإساءة إلى حساسيتك سيدي بقص هذا عليك. كانت السفينة بعد كل شيء مجرد حي فقير متنقل، على الرغم من عدم وجود محلات الجن. على أي حال فقد أصبحت لديهم سفن أفضل الآن. كما سمعت.

ربما ترغب في فتح النافذة.

***

كان هناك جانب جيد وحيد للمعاناة. كان الركاب خليطًا من الكاثوليك والبروتستانت، مع بعض الإنجليز والإسكتلنديين الآتين من ليفربول، كإضافة. ولو أنهم كانوا صحيحين لرأيتَهم يتشاجرون ويتقاتلون، لأنهم يمقتون بعضهم. لكن لا يوجد شيء مثل نوبة دوار قوية لإزالة الرغبة في الشجار. كنت ترى الذين -لو كانوا على الأرض لكانوا يتناحرون- ممسكين رؤوس بعضهم البعض أمام حفرة التصريف، بحنان الأمهات. وقد لاحظت الشيء نفسه في السجن، حيث إن الضرورة تجعل الغرباء رفاقًا. قد تكون الرحلات البحرية والسجون تذكير الرب لنا أننا مجرد أجساد من لحم، واللحم ليس سوى عشب، وكل اللحم ضعيف.

أو هكذا اخترت أن أعتقد.

اعتدت على البحر بعد عدة أيام، وصار بإمكاني أن أحضر وأحمل الأشياء عبر السلم من وإلى سطح السفينة، وأهتم بوجبات الطعام. تُزوَّد كلّ عائلة بوجبتها الخاصة، التي تحضِرُها إلى طبّاخ السفينة، فتوضع في حقيبة من الشبك، وتغمس في مرجل من الماء المغلي، لتغلى مع وجبات الطعام الأخرى، لذلك فحين تحصل على عشائك فأنت لا تذوق طعمه الخاص، بل كل ما يأكله الآخرون. كان لدينا لحم الخنزير المملح، ولحم البقر المملح، كما كان لدينا بعض البصل والبطاطس، ولكن ليس الكثير منها بسبب الوزن. أما البازلاء المجففة، والملفوف فسرعان ما نفدت، إذ شعرت أن علينا تناولها قبل أن تذبل. لم يكن من الممكن غلي دقيق الشوفان الذي بحوزتنا في المرجل الرئيس، بل كان يُنقع في الماء الساخن، وكذلك الشاي. وكان لدينا البسكويت، كما قلت من قبل.

أعطت خالتي بولين أمي ثلاث حبات من الليمون، تساوي وزنها ذهبًا، حيث إنّها معروفة بمحاربتها لمرض الأسقربوط. وقد حفظتها بعناية لوقت الحاجة. وبشكل عام، كان لدينا ما يكفي للحفاظ على قوتنا، أكثر من البعض هناك، الذين كانوا قد أنفقوا معظم أموالهم على تكلفة العبور. حتى إنّه كان لدينا القليل لتوفيره، أو هكذا شعرت، لأن والدينا لم يكونا في حالةٍ تسمح لهما بتناول حصصهما من الطعام. لذلك أعطيت العديد من قطع البسكويت إلى جارتنا، التي كانت امرأة مسنة تسمى السيدة فيلان، وقد شكرتني وباركتني. كانت كاثوليكية، تسافر مع حفيديها، اللذين تُركا عندما هاجرت العائلة. وهي الآن تأخذهم إلى مونتريال، حيث دفع زوج ابنتها تكاليف عبورهم. ساعدتُها مع الأطفال، ولاحقًا شعرت بالامتنان لفعل ذلك. السنبلة تضاعف بعشر أمثالها، كما يقال سيدي.

كنا بحاجة ماسة للغسيل، حين أُشعرنا -أخيرًا- أن الجو صار مناسبًا لذلك. حيث كان الجو معتدلًا، مع ريح مجففة. تعود حاجتنا إليه خصوصًا بسبب حالات المرض. غسلت غطاء سرير جارتي بالإضافة إلى أشيائنا الخاصة. لم يكن هناك الكثير من الغسيل عمومًا، حيث كان كلُّ ما سمح لنا باستخدامه دلوًا من

مياه البحر، ولكن على الأقل تخلصنا من أسوأ أشكال الفوضى، على الرغم من أن الغسيل فاح لاحقًا برائحة الملح.

بعد أسبوع ونصف فاجأتنا عاصفة وحشية، لعبت بالسفينة كفلينة في حوض، وأصبحت الصلاة والصياح شرسين. لم يكن هناك مجال لطبخ أي شيء، وفي الليل كان من المستحيل أن تنام، لأنك ستتدحرج خارج سريرك ما لم تتمسك بقوة، وأرسل الكابتن وكيله ليخبرنا أن نظل هادئين، فهي ليست سوى عاصفة عادية ولا شيء يستدعي الإثارة، كما أنها كانت تحملنا في الاتجاه الذي نقصده. أغلق الباب المؤدي لسطح السفينة حين بدأ بتسريب الماء. احتجزنا جميعًا في الظلمة المرتجفة، فيما كان الهواء أقل من السابق حتى، ظننت أننا سنموت اختناقًا. لا بدّ أن القبطان فهم ذلك، لأن النوافذ الصغيرة كانت تفتح من وقت لآخر. أما الجالسون بقربها فقد صاروا مبللين، لكن عمومًا كان ذلك دورهم ليدفعوا ثمن تزودهم بالحظ الأوفر من الهواء الذي كانوا يستمتعون به حتى ذلك الحين.

أخمدت العاصفة نفسها بعد يومين، ونظمت طقوس عيد الشكر للبروتستانت، فيما كان على متن السفينة -أيضًا- كاهن يتلو القداس على الكاثوليك. كان من المستحيل تجنب حضورهم معًا نتيجة ضيق المكان. لكنهم لا يعترضون، وكما قلت فالصنفان هنا يتسامحان مع بعضهما البعض، أكثر ممّا يفعلان على الأرض. أنا نفسي أصبحت أكثر لطفًا مع العجوز فيلان، التي صارت الآن أصح من أمي الواهنة.

أصبح الجو أبرد بعد العاصفة. بدأنا في مواجهة الضباب، ثم الجبال الجَليدية، التي قيل إنّها أوفر هذا الموسم. كنا نبحر ببطء خشية الارتطام بها، إذ أخبرنا البحارة أن نصفها الأكبر كان مختفيًا تحت سطح الماء، بطريقة غير مرئية. كنا محظوظين لأن الريح لم تكن عاتية، وإلا فإنها قد تقودنا للارتطام بواحد منها، فيسحق المركب. أما أنا فلم أتعب أبدًا من النظر إليها. كانت جبالًا عظيمة من الجليد، بقمم وعوارض مدببة، بيضاء، تتلألأ حين تسقط عليها الشمس،

مشتملةً على أضواء زرقاء في مراكزها. ثم فكرت أن جدران الجنة -ولا بد- شكّلت من جبال الجليد، جليد ليس بهذه البرودة.

وإذ نحن بين الجبال الجليدية، انحدرت أمي بشدة نحو المرض. كانت في سريرها معظم الوقت بسبب دوار البحر، ولم تأكل أي شيء سوى البسكويت والماء، والقليل من العصيدة المصنوعة من دقيق الشوفان. وأبي لم يكن أفضل حالًا. بل يمكن القول إنّه الأسوأ إذا ما قيس الأمر بالآهات. وكانت الأمور في حالة مؤسفة، حيث لم نتمكن من القيام بالغسيل أو تهوية الفرش خلال العاصفة. لذلك لم ألاحظ في البداية درجة السوء التي بلغتْها. قالت إنها تعاني من صداع عنيف لدرجة أنها بالكاد ترى، فأحضرت لها قطعة قماش مبللة وضعتها على جبهتها، فوجدتها مصابة بالحمى. ثم بدأتْ تشتكي من آلام في المعدة، فتحسست موقع الألم، وكان هناك انتفاخ صلب، فظننت أن فمًا آخر في الطريق، بالرغم من أنني لم أعرف كيف للأمر أن يحدث بهذه السرعة.

لذلك أخبرت السيدة فيلان العجوز، التي أشرفت على ولادة ستة عشر طفلًا، منهم تسعة لها، فجاءت في الحال. تحسست الشيء، لكزت ونخست، فصرخت والدتي. وقالت السيدة فيلان إن عليّ الإرسال إلى طبيب السفينة. لم يعجبني ذلك، لأن القبطان قال إنه لا ينبغي أن نزعجه بالتفاهات. لكن السيدة فيلان أكدت لي أنّه ليس بالأمر التافه، وهي ليست مسألة حمل أيضًا.

وحين سألت والدي قال إن بإمكاني فعل ما أريد بحق الشيطان، حيث كان مريضًا لدرجة لا تسمح له بالتفكير. في النهاية أَرسلت في طلبه، لكن الطبيب لم يأتِ، وكانت حالة أمي المسكينة تزداد سوءًا بمرور الوقت. كانت بالكاد تقوى على التحدث في هذه المرحلة، وكل ما تقوله عديم المعنى.

قالت السيدة فيلان إن طريقة التعامل هذه عار عليهم، وإن بقرة مريضة تستحق معاملة أفضل. وأخبرتني أن أفضل طريقة لإحضار الطبيب هي ادعاء الإصابة بالتيفوئيد أو الكوليرا، حيث إن ما من شيء يرعبهم أكثر من أمراض كهذه على متن سفينة. ولذا ادعيت ذلك، وجاء الطبيب على الفور.

لكنه لم يكن مفيدًا أكثر من -واعذرني على قول ذلك سيدي- ثدي رضاعة على ديك، كما تقول ماري ويتني. لأنه بعد أخذ نبض أمي وتحسس جبهتها، وطرح أسئلة لا إجابات لها، كل ما أخبرنا به هو أنها ليست مصابة بالكوليرا، الأمر الذي أعرفه؛ لأنني من اختلقه. لم يستطع إخبارنا بما تعانيه فعلًا، كان على الأرجح ورمًا، أو تكيسًا، وإلا فهي زائدة دودية، وسيعطيها شيئًا لتخفيف الألم. وقد فعل ذلك. أظن أنه كان اللودنم، جرعة كبيرة من اللودنم، لأن أمي سرعان ما حققت هدفه، وأصبحت هادئة. أوصانا أن نأمل في أن تتمكن من اجتياز المشكلة، التي ما من طريقة لتحديدها بغير الجراحة، وهو ما من شأنه أن يقتلها بالتأكيد.

سألت ما إذا كان ممكنًا أخذها إلى سطح السفينة حيث الهواء، لكنه قال إن من الخطأ نقلها. ثم ذهب بأسرع ما أمكنه، مشيرًا إلى أن الهواء كريه هنا حتى إنّه يكاد يختنق، دون أن يوجه كلامه لأحد على وجه الخصوص. وكان هذا أمرًا آخر أعرفه بالفعل.

توفيت والدتي في تلك الليلة. أتمنى لو أستطيع القول إنّها حظيت برؤى ما، قبل الموت، أو القول إنها قدمت لنا خطبة احتضار رفيعة، كما يحدث في الكتب. ولكن إذا كان لديها أي رؤى، فقد احتفظت بها لنفسها، لأنها لم تقل ولا كلمة، لا عنها ولا عن أي شيء آخر. لقد غلبني النوم، بالرغم من أنني كنت أنوي البقاء مستيقظة لأراقبها. وفي الصباح، كانت ميتة كسمكة إسقمري، وعيناها مفتوحتان وثابتتان. وضعت السيدة فيلان ذراعيها حولي، ولفتني في شالها، وأعطتني شرابًا من زجاجة صغيرة من المشروبات الروحية التي كانت لديها لأسباب علاجية، وقالت إن البكاء سيفيدني، وعلى الأقل ارتاحت المسكينة من معاناتها، وهِي في السماء الآن مع القديسين المباركين، على الرغم من أنها كانت بروتستانتية.

قالت السيدة فيلان أيضًا إننا لم نتبع العرف بفتح النافذة لتخرج الروح. ولكن ربما لا تُحاسَبُ أمي المسكينة على ذلك، إذ لا توجد نوافذ لتفتح أسفل السفينة. أما أنا فلم أسمع من قبل بعرف كهذا.

لكني لم أبكِ. شعرت كما لو أنني أنا التي مت وليس أمي. وجلست كما لو

كنتُ مشلولة، ولم أكن أعرف ماذا أفعل بعد ذلك. لكن السيدة فيلان قالت إنه لا يمكن أن نتركها ترقد هناك، وسألتني إن كانت لديّ ملاءات بيضاء لدفنها، ثم بدأت أشعر بالقلق الرهيب، فكل ما كان لدينا هو الملاءات الثلاث. كانت هناك اثنتان باليتان قُطِعَتا لتصبح كلٌّ منهما اثنتين، وكذلك الملاءة الجديدة التي أعطتنا إياها العمة بولين، ولم أعرف أيها أستخدم. بدا لي أن استخدام القديمة يوحي بعدم الاحترام، في المقابل فاستخدام الجديدة هدرٌ بالنسبة للأحياء، وهكذا أصبح كل حزني مركزًا -إن جاز التعبير- على مسألة الشراشف. وفي النهاية، سألت نفسي ما الذي كانت ستفضله أمي؟ وبما أنها وضعت نفسها دائمًا في المرتبة الثانية أثناء حياتها، قرّرت استخدام القديم. كان نظيفًا إلى حدٍ ما.

بعد إخطار القبطان، جاء اثنان من البحارة لحمل أمي إلى سطح السفينة. وجاءت السيدة فيلان معي لتحضيرها، حيث كانت عيناها مغلقتين وشعرها الجميل مُسدلًا، لأن السيدة فيلان قالت إنه لا ينبغي دفن الجسد بشعر معقود. تركتها في نفس الملابس التي كانت تلبسها، باستثناء حذائها. استرجعت الحذاء، والشال أيضًا، فهي لم تعد في حاجة إليهما. بدت شاحبة وناعمة، مثل زهرة ربيع. التفّ الأطفال حولها يبكون، جعلتهم يقبلونها على جبينها، وهو ما لم أكن لأفعله إذا ما شككت في أنها ماتت بمرض معدٍ. لفّ أحد البحارة، وقد كانت لديه دراية بمثل هذه الأشياء، الشرشفَ حولها بعناية، ثم خاطه بإحكام مثبّتًا سلسلة حديدية قديمة عند قدميها؛ لتُغرقها. أنساني الارتباك قصّ خصلة من شعرها للاحتفاظ بها.

فورَ أن غطّى الشرشف وجهها، بدأت أفكر أن المرأة تحته لم تكن في الحقيقة والدتي، كانت امرأة أخرى. أو أن والدتي تغيرت، ولو أني كشفت عنها الآن، فستكون قد تحولت إلى شخص آخر تمامًا. لا بدّ أن الصدمة جعلتني أفكر هكذا.

كان من حسن حظنا وجود رجل دين على متن المركب، هو نفسه الذي قام بطقس عيد الشكر بعد العاصفة. رسم إشارة الصليب عليها في إحدى الكابينات، وقرأ صلاة قصيرة. استطاع أبي أن يخرج من المهجع مترنحًا عبر السلم، ووقف

مطأطئ الرأس، بوجه متجعد وذقن غير حليق، لكن على الأقل استطاع أن يكون هناك. وبين الجبال الجليدية العائمة حولنا والضباب المتقدم نحونا، ألقيت أمي المسكينة في البحر. لم أكن قد فكرت قبل هذه اللحظة بالمكان الذي ستؤول إليه، كان في الأمر شيء من الرهبة، وأنا أتخيلها عائمة في شرشفها الأبيض وسط الأسماك المحدقة. كان أسوأ من دفنها في الأرض، فعلى الأقل حين يوضع إنسان في الأرض فأنت تعرف مكانه.

ثم انتهى كل شيء، بسرعة كبيرة، ومضى اليوم التالي كما كان يمضي من قبل، فقط من دون أمي.

في تلك الليلة أخذت حبة ليمون وقطعتها، أعطيت كل واحد من الأطفال قطعة يأكلها، وأكلت قطعة منها بنفسي. كانت حامضة، فشعرت أنها لا بدّ مفيدة. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير في فعله.

والآن لديّ شيء أخير أخبرك به عن هذه الرحلة. عندما كان المركب ساكنًا، وسط الضباب الكثيف، سقطت سلة خوص العمة باولين على الأرضية، وانكسر إبريق الشاي. بقيت تلك السلة في مكانها خلال العاصفة، مشدودة إلى عارضة السرير. وكانت قد نجت من كل القذف والخبط والتأرجح.

قالت السيدة فيلان إن رباطها لا شك قد انفك حين حاول أحدٌ ما سرقتها، غير أنه تراجع حين أصبح معرّضًا لأن يُكتشف، والسلة ليست أول شيء يتغير وضعه في محاولة كهذه. لكني لا أعتقد ذلك. أظن أنها روح أمي المحتجزة في قاع السفينة لأننا لم نفتح النوافذ، تُعبّر عن غضبها لاختياري الشرشف الأسوأ. والآن ستبقى مسجونة فيه إلى أبد الأبد، هناك في الأسفل مثل عثة في زجاجة، تبحر ذهابًا وإيابًا عبر المحيط المظلم البشع، فيما تجري المراكب فوقها، ذاهبة بالمهاجرين، وعائدة بالخشب. ضايقني التفكير في ذلك.

أترى أي أفكار غريبة يمكن أن تخطر ببال الإنسان؟ لكني كنت فتاة صغيرة حينها وجاهلة للغاية.

لحسن الحظ أننا لم نبقَ ساكنين أكثر من ذلك، وإلا نفدت مؤونتنا من الطعام والماء. فقد هبت الرياح أخيرًا، وانزاح الضباب، وقالوا إننا عبرنا نيوفاوندلاند بأمان، على الرغم من أنني لم أسمع بها من قبل ولست متأكدة ممّا إذا كانت مدينة أو دولة. وسرعان ما أصبحنا في نهر سانت لورانس، على الرغم من أن الإبحار استمر لوقت طويل قبل ظهور اليابسة. فعندما رأيناها على الجانب الشمالي من السفينة، كانت مجرد صخور وأشجار، وبدت مظلمة ومنيعة، وغير صالحة -على الإطلاق- لاستيطان البشر. كانت مأهولة بسحب من الطيور التي تصرخ كالأرواح الضائعة، وكنت آمل ألا نضطر للعيش في هذا المكان.

لكن بعد ذلك ظهرت مزارع ومنازل على الشاطئ، وبدت الأرض أكثر وداعة، أو يمكن القول مروضة. طلب منا التوقف في جزيرة والخضوع لفحص الكشف عن الكوليرا، إذ إنّ كثيرين قبلنا أحضروها للبلاد على متن السفن. ولكن بما أن الموتى على متن سفينتنا قد ماتوا لأسباب أخرى -أربعة إلى جانب والدتي: اثنين من السل، واحد بالسكتة، بينما قفز الأخير عن ظهر السفينة- سمح لنا بالمضي قدمًا. أتيحت لي فرصة تحميم الأطفال في مياه النهر، على الرغم من برودته الشديدة، لكني نظفتُ وجوههم وأذرعهم على الأقل، وكانت بحاجة ماسة لذلك.

في اليوم التالي رأينا مدينة كيبيك، على جرف حاد مطلّ على النهر. كانت البيوت من حجارة، وكان هناك باعة متجوّلون على مرفأ حوض السفن، يبيعون بضائعهم، واستطعت شراء بعض البصل الطازج من إحداهنّ. لم تكن تتحدث سوى الفرنسية، لكننا أتممنا الصفقة بأصابعنا. وأعتقد أنها أعطتني سعرًا مناسبًا بسبب الأطفال ووجوههم النحيلة الصغيرة. كنا متعطشين جدًا لحبات البصل تلك حتى إنّنا أكلناها نية، كما يؤكل التفاح، ما أصابنا بنفخة في البطن بعد حين. لم أتذوق بصلًا بتلك اللذة.

نزل بعض الركاب في كيبيك، ليجربوا فرصهم هناك، أما نحن فقد واصلنا الرحلة.

لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر يمكن ذكره عن بقية الرحلة. كان أكثرها ترحالًا غير مريحٍ، جزء منها عبر البر لتجنب المنحدرات المائية، ثم عبر سفينة أخرى لقطع بحيرة أونتاريو التي كانت أشبه بالبحر منها بالبحيرة. كانت هناك جحافل من الذباب الصغير اللاسع، وبعوض بحجم الفئران. وكان الأطفال مهددين بالحك حتى الموت. كان والدنا في مزاج بارد وسوداوي، وكثيرًا ما قال إنه لا يعرف كيف سيتدبّر الأمور بعد رحيل والدتي. من الأفضل في مثل هذه الأوقات عدم قول أي شيء.

في النهاية وصلنا إلى تورنتو، المكان الذي وُعدنا فيه بأراض مجانية. لم تكن المدينة في وضع جيد، كونها مسطحة ورطبة. كانت تمطر في ذلك اليوم، وكان هناك العديد من العربات والرجال المسرعين، وكميات من الطين، باستثناء الشوارع الرئيسة التي عبدت. كان المطر ناعمًا ودافئًا، والهواء له شعور الكثافة والسمك الذي لزيت ملتصقٍ بالجلد، وهي ظاهرة شائعة في ذلك الموسم من السنة -كما عرفت لاحقًا- وينتج عنها العديد من أنواع الحمى والأمراض الصيفية. كانت هناك بعض مصابيح الغاز ولكن ليست بالكثرة نفسها في بلفاست.

بدا أن الناس هناك من أصول مختلطة. العديد من الإسكتلنديين وبعض الإيرلنديين، وبالطبع الإنجليز، والكثير من الأمريكيين، والقليل من الفرنسيين، والهنود الحمر، على الرغم من أنهم لا يضعون الريش. وبعض الألمان بألوان من جميع الدرجات، وهو أمر جديد علي. لم يكن بالإمكان تخمين اللغة التي ستسمعها. كان هناك العديد من الحانات، والكثير من السكر حول الميناء، بسبب البحارة، وبدا كل ذلك مثل برج بابل.

لكنّنا لم نرَ الكثير من البلدة في يومنا الأول، حيث احتجنا لتدبير مأوًى بأقل تكلفة ممكنة. كان والدنا قد وطّد علاقته برجل في السفينة تمكن من إعطائنا بعض المعلومات. فتركنا مع كوب من عصير الفاكهة، محشورين بين صناديقنا في غرفة حانة أقذر من مستنقع خنزير، ثم انطلق لإجراء المزيد من التحقيقات.

عاد في الصباح وأخبرنا أنه وجد مسكنًا، فذهبنا إليه. كان يقع شرقي الميناء،

قبالة شارع لوت، في الجزء الخلفي لمنزلٍ متهالكٍ. كان اسم المؤجّرة السيدة بيرت، أرملة محترمة لرجل من البحارة، أو هكذا أخبرتنا، سيدة ممتلئة، حمراء الوجه، ولها رائحة تشبه رائحة سمك الإنقليس المدخن. وهي أكبر من والدي ببضع سنوات. كانت تعيش في الجزء الأمامي من المنزل، والذي هو بحاجة ماسة إلى طبقة من الطلاء. فيما عشنا نحن في غرفتين تقعان في الجزء الخلفي، الذي كان أشبه ببناء خارجي، بلا قبو تحته. كنت سعيدة لأننا لم نكن في الشتاء، وإلا لمرت الريح من خلاله. صنعت الأرضيات من ألواح عريضة، موضوعة قريبًا جدًا من الأرض، حتى إنّ الخنافس وغيرها من المخلوقات الصغيرة كانت قادرة على شق طريقها من خلال الشقوق، خصوصًا بعد المطر، حتى إنّني وجدت دودة حية في أحد الصباحات.

الغرف لم تكن مؤثثة، لكن السيدة بيرت أقرضتنا سريرين مع مراتبهما المحشوة بقشر الذرة، إلى أن يقف والدي على قدميه مرة أخرى -كما قالت- بعد الضربة المحزنة التي تعرض لها. بالنسبة للمياه، كان لدينا مضخة خارجية في الفناء. أما بالنسبة للطهي، فاستفدنا من موقد حديديّ كان في الممر بين جزأي المنزل. لم يكن في الواقع معدًا للطبخ، بل للتسخين، لكني قمت بأفضل ما أمكنني باستخدامه، وبعد نضال طويل تعلمت حيله، وتمكنت من إجباره على غلي الإبريق. كان أول موقد حديدي اضطر للتعامل معه، لذا -كما يمكنك أن تتخيل- كانت هناك لحظات من القلق، ناهيك عن الدخان الكثيف. لكن وقودها كان وافرًا، فالبلد مغطاة تمامًا بالأشجار، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم لتقطيعها وإزالتها. كما كانت هناك ألواح خلفت من عمليات البناء التي جرت، وكان بإمكانك الحصول على لوح من العمال مرفقًا بابتسامة لتخليصهم من عناء نقلها.

الحقيقة -سيدي- لم يكن هناك الكثير ليطهى. فكما قال والدي كنّا بحاجة لتوفير المال القليل الذي لدينا، حتى يتمكن من تهيئة نفسه عندما تتاح له الفرصة. وهكذا في البداية عشنا في الغالب على العصيدة. لكن كان للسيدة بيرت ماعزٌ في زريبة بفنائها، أعطتنا حليبًا طازجًا منها، وبما أننا كنا في أواخر يونيو،

كانت تعطينا بعض البصل من حديقة مطبخها مقابل اقتلاع الأعشاب الضارة، التي كان هناك الكثير منها، وكانت عندما تخبز، تعد رغيفًا إضافيًا من أجلنا.

قالت إنها آسفة على وفاة والدتي. لم يكن لها أطفال، فقد توفي وحيدها بفعل الكوليرا في نفس الوقت الذي توفي فيه زوجها الغالي، وإنها تفتقد صوت الأقدام الصغيرة، أو هكذا أخبرت والدي. كانت تحدق فينا بحزن وتسمّينا الأيتام المساكين، أو الملائكة الصغار. على الرغم من أن ثيابنا كانت رثة، وفوق ذلك غير نظيفة. أظن أنه كانت تخطر ببالها فكرة مصاحبة والدي. كان يُظهر أفضل صفاته، ويعتني بنفسه بعض الشيء. ورجل مثله -ثكل مؤخرًا، وتحته الكثير من الأطفال- لا بدّ أنه بدا للسيدة بيرت فاكهة ناضجة تهم بالسقوط عن الشجرة.

اعتادت على استضافته في الجزء الأمامي من المنزل لمواساته. قالت إنه لا يمكن لأحد فهم ما يعنيه فقدان القرين، أكثر من أرملة مثلها، إنه أمر يطيح بالجسد، لذلك فهو بحاجة إلى صديق حقيقي ومتعاطف، يمكن أن يشاركه في أحزانه. وقالت إنها الشخص المناسب لهذه الوظيفة، وقد تكون محقة في ذلك، فما من متقدمين آخرين لشغلها.

أما بالنسبة لأبي، فقد فهم التلميح ولعب الدور، وكان يجول مثل رجل نصف ذاهل، دائمًا مع منديل على أهبة الاستعداد. وقال إنّ قلبه اقتلع حيًا من جسده، وتساءل ما تراه يفعل بكل هذه الأفواه الصغيرة البريئة التي يجب إطعامها، وبدون مساعدته المحبوبة إلى جانبه، والتي هي الآن في السماء، لأنها أفضل من أن تكون على الأرض. كنتُ أستمع إليه ينطلق في الحديث في صالة السيدة بيرت. لم تكن الجدران الفاصلة بين جزأي المنزل سميكة، ويمكنك الاستماع بصورةٍ أفضل إذا ما وضعت كأسًا على الحائط وأذنك على الطرف الآخر. كان لدينا ثلاثة أكواب أعارتنا إياها السيدة بيرت، جربت كل منها بالتتابع، وسرعان ما اخترت أفضلها لهذا الغرض.

مررت بما يكفي من المصاعب عندما ماتت أمي، لكني حاولت التماسك، والدفع بالعجلة إلى الأمام. وكان سماع أبي يتباكى بتلك الطريقة كافيًا لإصابتي

بالغثيان. أظن أنني لم أبدأ بكراهيته حقًا إلا حينها، ولا سيما بالنظر إلى طريقة تعامله مع أمّنا وهي حية، كما لو أنها لم تكن سوى خرقة لتنظيف حذائه. وعرفت -على الرغم من أن السيدة بيرت لم تعرف- أنه خطط لكل شيء، وأنه كان يتلاعب بمشاعرها لأنه يسعى وراء توفير الإيجار، لأخذه إلى أقرب حانة. وبعد ذلك باع أكواب الشاي ذات الورود الخاصة بوالدتي، وعلى الرغم من أنني توسلت لإبقاء إبريق الشاي المكسور، فقد قام ببيعه أيضًا، قائلًا إنه كسر يمكن إصلاحه. وذهب حذاء أمي بالطريقة نفسها. وكذلك أفضل غطاء لدينا. ربما كان من الأصوب استخدامه لدفن أمّي المسكينة.

كان يخرج من المنزل نشيطًا كديك، متظاهرًا بالبحث عن عمل، لكنني أعرف أين ينوي الذهاب، أعرف ذلك من الرائحة التي يعود بها. كنت أراه يبتعد متبخترًا عبر الطريق، ويعيد منديله إلى جيبه. وسرعان ما تخلت السيدة بيرت عن خطة المواساة، ولم تعد ترتب لحفلات الشاي في صالونها، وأوقفت توريد الحليب والخبز إلينا وطالبت باستعادة أكوابها، وبدفع الإيجار، وإلا طردتنا نحن وأمتعتنا.

***

كان ذلك عندما بدأ أبي يقول إنّني أصبحت امرأة ناضجة الآن وإنّني أقضي على طعام المنزل، وقد حان الوقت لأخرج وأحصل على خبزي، كما فعلت أختي من قبل. على الرغم من أنها لم ترسِل أبدًا ما يكفي من أجرها، تلك البغي الجاحدة. وعندما سألت عمن سيعتني بالصغار، قال إن أختي الأصغر ستفعل ذلك. كانت تبلغ من العمر تسع سنوات، وإن كانت في منتصف الطريق إلى العاشرة. ورأيت أنه لا جدوى من مناقشته.

لم تكن لدي أي فكرة عن كيفية الحصول على عمل، لكنني سألت السيدة بيرت، لأنها الشخص الوحيد الذي أعرفه في البلدة. أرادت أن تتخلص منا. ومن يلومها على ذلك! لكنها رأت في عملي فرصة لتعويض خسائرها. كان لديها صديق يعرف مدبرة المنزل لدى زوجة الوالي باركنسون، وقد سمعت أنهم في حاجة

لموظفين آخرين. فطلبت مني أن أرتب نفسي، وأعارتني غطاء شعر نظيفًا، وأخذتني هناك بنفسها، وقدمتني إلى مدبرة المنزل. وقالت إنني مبادرة، أعمل بجد، وحسنة الخلق، وإنّها تشهد على ذلك بنفسها. ثم أخبرتها عن موت أمّي على متن السفينة ودفنها في البحر، ووافقت مدبرة المنزل على أن ذلك أمرٌ مؤسفٌ، وأمعنت النظر فيّ. لاحظتُ أنه ما من شيء كالحديث عن الموت يساعدك على تخطي عتبة الباب.

كانت مدبرة المنزل تدعى السيدة هوني، وبالرغم من أن اسمها يعني العسل، إلا أنها لم تكن حلوة إلا بالاسم فقط، فهي امرأة جافة ذات أنف مدبب مثل مطفأة شمعة.

بدت كما لو كانت تعيش على القشور الناشفة وقلافة الجبن، وهو على الأغلب ما فعلته في حياتها، كونها امرأة إنجليزية معسرة أصبحت مدبرة منزل فقط من خلال وفاة زوجها، تقطعت بها السبل في هذا البلد، بلا مال. أخبرتها السيدة بيرت أنّني كنت في الثالثة عشرة من عمري، ولم أنكر، لقد حذرتني مسبقًا قائلةً إنّه من الأفضل قول ذلك، لأنه سيمنحني فرصة أفضل في التوظيف. ولم تكن كذبة بالكامل، حيث كنت سأبلغ الثالثة عشرة في أقل من شهر.

نظرت إليّ السيدة هوني بفم مزموم، وأشارت إلى أنّني هزيلة للغاية، وأنها تأمل فقط ألا أكون مصابة بشيء، ثم سألت عن المرض الذي أودى بأمي. لكن السيدة بيرت قالت إنه لم يكن معديًا، وإنني مجرد فتاة ضئيلة بالنسبة لسنها، إذ لم أحقق النمو الكامل بعد، وإنني نحيلة لكن قوية، وقد رأتني وأنا أحمل أكوام الخشب مثل رجل.

أخذت السيدة هوني الكلام على علاته. تنهدت وسألت عمّا إذا كنت انفعاليه كما هو الحال مع ذوي الشعر الأحمر عادة. أجابتها السيدة بيرت أنني أملك أحلى مزاج في العالم، وقد واجهت المحن بقبول مسيحي، تمامًا كقديسة. ذكّر ذلك السيدة هوني أن تسأل إن كنت كاثوليكية طالما أنني من إيرلندا. فإن كان كذلك فلا مكان لي بينهم، لأن الكاثوليك متمردون، يؤمنون بالخرافات، وقد كانوا

يدمرون البلد. لكنها شعرت بالارتياح لمعرفة أنني لست كذلك. سألت السيدة هوني إن كنت أجيد الخياطة، وقالت السيدة بيرت إنني أخيط بسرعة الريح، وسألتني السيدة هوني مباشرة إن كان ذلك صحيحًا. وتحدثت عن نفسي، على الرغم من توتري، وقلت إنّني ساعدت أمي في صنع القمصان منذ سن مبكرة، ويمكنني عمل عرى الأزرار بمهارة، وإصلاح الجوارب، وتذكرت أن أخاطبها بسيدتي.

ترددت السيدة هوني، وكأنها تجري حسابات في رأسها. ثم طلبت أن تنظر إلى يدي. ربما رغبت في أن ترى ما إذا كانت يدَ شخصٍ يعمل بجد. لم تحتج للتفكير كثيرًا، فقد كانت خشنة وحمراء تمامًا كما تريد، وبدا أنها راضية. لو رأيتها وهي تتفحصني لظننت أنها تشتري حصانًا، حتى إنّني فوجئت لأنها لم تطلب النظر إلى أسناني. لكنك حين تدفع أجرًا -والحق يقال- سترغب في الحصول على عائد جيد من ورائه.

والنتيجة أن السيدة هوني راجعت زوجة الوالي باركنسون، وأرسلت تطلبني في اليوم التالي. كان أجْرِي عبارة عن تكاليف إطعامي ودولار في نهاية الشهر، وهو أدنى مبلغ يمكن لضميرها دفعه. لكن السيدة بيرت قالت إن باستطاعتي المطالبة بزيادة في أجري فور تلقي بعض التدريب، وحين أكبر قليلًا. وكان بإمكان الدولار حينها توفير أشياء أكثر من الآن. أما بالنسبة لي، فقد كنت مسرورة لتمكّني من كسب مالي الخاص، واعتبرتها ثروة.

تصور والدي أنني سأذهب يوميًا للعمل وأعود لقضاء الليل في البيت. البيت الذي كان يدعوه غرفتينا المتداعيتين، مستمرة بذلك في الاستيقاظ أول الصباح وإشعال الموقد، وغلي الإبريق، ثم التنظيف في نهاية اليوم وغسل الملابس في طريقي. أي غسيل هذا، ونحن لا نملك مرجلًا حتى، ولم يكن مجديًا أن نطلب من والدي شراء الصابون، حتى أرخص نوع منه. لكنهم أرادوا مني العيش في منزل زوجة الوالي باركنسون، وكان عليّ أن أحضر بداية الأسبوع.

وبالرغم من أسفي على انفصالي عن إخوتي، فقد كنت ممتنة لخروجي من البيت، وإلا وصل الأمر بيني وبين والدي لتكسير العظام. فكلما كبرت، كلما تناقصت قدرتي على إرضائه، وفقدت أنا نفسي الإيمان الطبيعي للطفل بوالده،

لأنه كان يستل الخبز من أفواه أطفاله؛ ليشرب به. ولا أستبعد إجبارنا على التسول أو السرقة، أو ما هو أسوأ. كما عادت نوبات غضبه، أقوى ممّا كانت قبل وفاة أمي. كانت ذراعي سوداء وزرقاء، وفقدت الوعي ذات ليلة بعد أن رمى بي على الجدار، كما كان يفعل أحيانًا مع والدتي، فيما يصرخ بأنني بغي عاهرة. بعد هذه الحادثة أصبحت خائفة من أن يكسر عمودي الفقري في يوم من الأيام، فأصبحَ مشلولة إلى الأبد. لكنه كان يستيقظ من فوراته في الصباح التالي، قائلًا إنه لا يستطيع تذكر أي شيء عن الأمر، وإنه لم يكن نفسه، وإنّه لا يعلم ما أصابه.

على الرغم من أنني أكون متعبة ككلب نهاية كل يوم، كنت أستلقي مستيقظة في الليل أطيل التفكير في الأمر. لا يمكن التنبؤ متى يفارقه عقله، لتبدأ ثورته، وتهديده بقتل هذا الشخص أو ذاك، بما في ذلك أطفاله، دون أي سبب واضح غير الشراب.

بدأت أفكر في إناء الطهي الحديدي، وكم كان ثقيلًا. وكيف أنه إذا ما حدث وسقط عليه في نومه، فإنه يمكن أن يحطم جمجمته، ويقتله، وسأقول إنه كان حادثًا. لم أكن أريد التورط في خطيئة خطيرة من هذا النوع، على الرغم من أنني كنت أخشى أن الغضب الأحمر الناري الذي كان في قلبي تجاهه سيقودني إلى فعل ذلك.

لذلك -وبعد أن أصبحت مستعدة للذهاب إلى منزل زوجة الوالي باركنسون- شكرت الرب لإخراجي عن طريق الغواية، وصليت ليبعدني عنه في قابل الأيام.

السيدة بيرت قبلتني مودعة، وتمنت لي الحظ، وبصرف النظر عن وجهها السمين المرقط ورائحة السمك المدخن التي تحملها، فقد سررت به. ففي هذا العالم عليك اقتناص فتات اللطف أنّى وجدته، لأنه لا ينمو على الأشجار. بكى الصغار عندما غادرت حاملة حزمتي الصغيرة بما في ذلك شال أمي، ووعدتهم بالعودة لزيارتهم. وقد كنت أعني ما أقول حينها.

لم يكن أبي في المنزل عندما غادرت. ويؤسفني القول إن هذا جيدٌ، وإلا كان وداعنا -على الأرجح- تبادلًا للشتائم، على الرغم من أني سأكون صامتة من جهتي. إذ من الخطأ أن تشتم صراحة أولئك الذين يفوقونك قوة، ما لم يكن بينكم سياج.

16

من الدكتور سايمون جوردن، القاطن في سكن الرائد سي. دي. هامفري، شارع لور يونين، كنجستون، الغرب الكندي. إلى الدكتور إدوارد مورتشي، دورتشستر، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية. *15* مايو *1859*.

عزيزي إدوارد:

أكتب لك على الضوء المتبقي لزيت منتصف الليل، الذي طالما أحرقناه معًا. أكتب من هذا المنزل القارس اللعين، وهو -من هذه الناحية- مساوٍ تمامًا لمسكننا في لندن. ولكن سرعان ما سيصبح الجو حارًا جدًا، ونعاني الرطوبة، الجو الخانق، والأمراض الصيفية، التي سأشتكي منها لاحقًا حين يأتي دورها.

أشكرك على رسالتك والأخبار المبهجة التي تضمنتها. وإذًا فقد تقدمت لكورنيليا الجميلة، وقد قبلت بك! سوف تسامح صديقك القديم لعدم الإعراب عن دهشته، حيث كان الأمر مكتوبًا بين سطور رسائلك، ويمكن التكهن به بسهولة، دون الحاجة لفطنة كبيرة من قارئها. أرجو قبول تهاني الحارة. يمكنني القول من خلال ما أعرفه عن الآنسة روثرفورد، إنّك كلب محظوظ. في لحظات كهذه أحسد أولئك الذين وجدوا ملاذًا آمنًا يمنحونه قلوبهم، أو ربما كنت أحسدهم لامتلاكهم قلوبًا يمنحونها. أما أنا فأشعر غالبًا بأنني دون قلب، وباستطاعتي أن أضع مكانه حجرًا. وعليه، فقد حكم عليّ (بالتجول وحيدًا كغيمة) كما يقول الشاعر وردزورث.

ولا شك في أن خبر خطبتك سيحفّز أمّي العزيزة، ويحثها على بذل المزيد من الجهود لتزويجي. وليس لدي أي شك في أنك ستُستخدم ضدي في كل فرصة، كمثال بارز على الاستقامة، وكعصًا لضربي. حسنًا، لا شك أنها على حق. عاجلًا أم آجلًا، سيتوجب عليّ وضع ترددي جانبًا، وإطاعة الأوامر الإنجيلية (أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا). يجب أن أعهد بقلبي الحجري إلى حنان فتاة لا تمانع كونه ليس قلبًا

حقيقيًا من لحم ودم، ويكون لديها الموارد المادية اللازمة لرعايته؛ فالقلوب الحجرية معروفة بحاجتها للرفاهية أكثر من الأنواع الأخرى.

على الرغم من عجزي، تواصل أمّي العزيزة خططها الماكرة لتزويجي. وهي حاليًا تكيل المديح للآنسة فيث كارترايت، التي يمكنك تذكرها من إحدى زياراتك لنا قبل عدة سنوات. من المفترض أنها تحسنت كثيرًا خلال إقامتها المؤقتة في بوسطن، والتي على حد علمي -وعلمك أيضًا، يا عزيزي إدوارد، كوننا كنا طلابًا في جامعة هارفارد- لم تنجح في تحسين أي شخص آخر. ولكن من الطريقة التي تمتدح فيها والدتي الفضائل الأخلاقية للسيدة الشابة، أخشى أن مفاتنها الأخرى لم تشملها التحسينات. وا حسرتاه، إنها ليست فيث الفاضلة التي لا تشوبها شائبة، بل نوع آخر من العذراوات يمتلكن قدرة تحويل صديقك القديم المتشائم إلى شبه عاشق.

دعك من تذمري وتبرمي، أنا سعيد من أجلك يا رفيقي العزيز، وسوف أرقص في زفافك حاملًا أعظم الأماني لك، شريطة أن أكون بقربك وقت العرس.

لطف منك أن تسألني -وأنت في غمرة طريك- عن سير الأمور مع غريس ماركس. ليس لدي إلى الآن سوى القليل لأخبر به، ولكن بما أن الأساليب التي أوظفها هي تدريجية وتراكمية الأثر، لم أتوقع أن توقظ الجزء الكامن من عقلها؛ لسبر ما يرقد تحت عتبة وعيها، ولاكتشاف الذكريات التي دفنت هناك بفعل الضرورة. أتعامل مع دماغها كما لو كان صندوقًا مغلقًا، يجب أن أجد مفتاحه المناسب. ولكن عليّ الاعتراف أنني لم أقطع شوطًا طويلًا بعد.

سيكون الأمر أسهل بالنسبة لي لو كانت مجنونة بالفعل، أو على الأقل أكثر جنونًا بقليل ممّا تبدو. لكنها برهنت -حتى الآن- على اتزانٍ عقليٍّ تحسدها عليه الدوقات. لم أعرف قبلها أي امرأة على هذه الدرجة من ضبط النفس. وبغض النظر عن الحادث الذي وقع وقت وصولي -والذي لم أشهده لسوء حظي- لم تحدث أي نوبة هيجان. صوتها منخفض ورخيم، وأكثر ثقافة ممّا تجده عادة في الخدم، وهو ما تعلمته -بلا شك- خلال خدمتها الطويلة في منازل المخدومين ذوي

المنزلة الاجتماعية الأرفع. وهي تحتفظ بأثر من لهجة إيرلندا الشمالية التي قدمت بها، بالرغم من أنها غير ملحوظة، إذ كانت لا تزال طفلة لدى قدومها، وقد أمضت الآن أكثر من نصف حياتها على هذه القارة.

إنها تجلس على الأريكة وتخيط درزًا رقيقًا، باردة كحبة خيار، بفم مزموم كفم المربيات، وأنا أضع مرفقي على الطاولة في الجانب الآخر منها، أهوي على عقلي بالهراوات، محاولًا دون جدوًى أن أفتحها كصدفة محار. على الرغم من أنها تتحدث على نحو صريح كما يبدو، فإنها تنجح في إخباري بأقل قدر ممكن، أو أقل قدر من الأشياء التي أريد معرفتها فعلًا. على الرغم من أنني تمكنت من معرفة الكثير حول وضع أسرتها عندما كانت طفلة، وعن عبورها المحيط الأطلسي كمهاجرة. لكنّ أيًا منها ليس بعيدًا عن المألوف، فقط الفقر والمعاناة المعتادة، وما شابه. أولئك الذين يؤمنون بالطبيعة الوراثية للجنون قد يرتاحون لحقيقة أن والدها كان سكيرًا، وربما كان يحرق الممتلكات بشكل متعمد أيضًا. لكن بصرف النظر عن العديد من النظريات التي تناقض ذلك، فأنا بعيد عن الاقتناع بأن مثل هذه الميول موروثة بالضرورة.

بالنسبة لي، لولا إغراء حالتها، فقد أجن أنا نفسي من الضجر المطلق. المجتمع صغير هنا، ولا أحد يشاطرني آرائي واهتماماتي، مع احتمالية أن يكون الدكتور ديبونت استثناءً، وهو -مثلي- زائر هنا. لكنه مولع بطرق الإسكتلندي غريب الأطوار (بريد)، وهو -مثلي- بطة سوداء. أما بالنسبة للترفيه والاستجمام، فهناك القليل مما يمكن فعله، وقد قررت أن أسأل المؤجرة إن كان بإمكاني الحفر في حديقتها الخلفية المهملة لسوء الحظ، وزرع بعض الملفوف وما إلى ذلك، فقط من أجل التسلية والتمرين. أترى ما إلْتُ إليه؟ أنا الذي لم أرفع مجرفة في حياتي!

تجاوزنا الآن منتصف الليل، وعليّ إنهاء الرسالة، والذهاب وحيدًا إلى سريري البارد. تقبل مني أطيب الأمنيات، ورجائي أن تكون حياتك أكثر فائدة، وأقل حيرة من صديقك القديم،

سايمون.

VI

دُرج سري

الهستيريا: تحدث هذه النوبات غالبًا لدى النساء الشابات، العصبيات، وغير المتزوجات... الشابات اللواتي يصبن بهذه النوبات، معرضات لأن يعتقدن أنهن يعانين من (كل العلل التي يمكن أن يصاب بها الجسد). والأعراض الزائفة للمرض التي يظهرنها شبيهة إلى حد كبير بالأعراض الحقيقية، لدرجة أنه يستحيل اكتشاف الفرق أحيانًا. أما النوبات نفسها فتكون مسبوقة في الغالب بهبوط كبير في المعنويات، ذرف للدموع، المرض، وخفقان القلب، وإلخ... تصبح المريضة الآن غائبة عن الوعي، وغير مدركة. يتأرجح الجسد في جميع الاتجاهات، يخرج الزبد من الفم، ويبدأ التلفّظ بالتعابير غير المترابطة، وتحدث نوبات من الضحك، أو البكاء، أو الصراخ. بنهاية النوبة -في الغالب- تبكي المريضة بمرارة، فيما تكون لديها معرفة تامة، أو عدم معرفة نهائية بما حدث.

- إيزابيلا بيتن - كتاب بيتن حول الإدارة المنزلية 1859–61.

كان قلبي يسمعها ويخفق،
وحيث إنّه أرضي في سرير أرضي،
كان غباري يسمعها ويخفق،
وحتى لو استلقيت ميتًا قرنًا من الزمن،
فَتَحْتَ قدميها، سيرتعش ثم يزهر باللون الأرجواني والأحمر.

- الفريد، لورد تينسون، مود، 1855 .

17

سايمون يحلم برواق. إنه ممرّ العلية في بيته، بيته القديم، بيت الطفولة. المنزل الكبير الذي كان لديهم قبل فشل والده وموته. كانت الخادمات ينمنَ هنا. وقد كان عالمًا سريًا، لا يفترض بصبي اكتشافه، لكنه فعل ذلك، زاحفًا بصمت، كجاسوس على أقدامه الحافية إلا من الجوارب، متنصّتًا عبر الأبواب نصف المفتوحة إلى ما يتبادلن من أحاديث وهن يعتقدن ألّا أحد بإمكانه سماعهن.

وحين يمتلك الشجاعة يغامر بالدخول إلى غرفهن، عارفًا أنهن في الطابق السفلي. وبرجفة من الإثارة، كان يتفحّص أشياءهن، أشياءهن المحرمة. كان يفتح الأدراج، ويلمس المشط الخشبي ذا الأسنّة المكسورة، الأشرطة الملفوفة بعناية. كان ينقب في الزوايا. أما خلف الباب فتوجد تنورة داخلية مجعدة، وجورب من القطن، واحد فقط. يلمسه ويشعر بالدفء.

رأى الممر نفسه، غير أنه كان أكبر في الحلم. الجدران أطول، وأكثر اصفرارًا، متوهجة كما لو أن الشمس ذاتها تسطع من خلالها. لكن الأبواب مغلقة، وموصدة أيضًا. يحاول فتحها، الباب تلو الآخر، رافعًا المزلاج، دافعًا بلطف، لكن دون جدوى. يمكنه استشعار أناس خلفها. تحديدًا نساء، خادمات. يجلسن على حواف أسرتهن الضيقة، بقمصانهن الداخلية القطنية البيضاء، وشعرهن المسدل والمستلقي على أكتافهن. تفترق شفاههن، وتلمع عيونهن في انتظاره.

ينفتح الباب في النهاية، وإذ ببحر في الداخل. وقبل أن يتمكن من التوقف، يسقط في الأسفل، ويغطي الماء رأسه، يتصاعد منه تيار من الفقاعات الفضية. يسمع رنينًا في أذنه، ضحكة خافتة ومرتعشة، ثم الكثير من الأيدي التي تلاطفه. إنها أيدي الخادمات وهنّ على عكسه قادرات على السباحة. لكنهن الآن يسبحن مبتعدات، متخلّيات عنه. يناديهن للمساعدة، لكنهن يرحلن.

يتشبث بشيء: كرسي مكسور. الأمواج ترتفع وتنخفض. لا توجد ريح على الرغم من هذا الاضطراب، والهواء شديد الوضوح. تعوم حوله مختلف الأشياء، لكنها تجتازه، وتصبح بعيدًا عن متناوله: صينية فضية، زوج من الشمعدانات،

مرآة، صندوق الشمة[16] والساعة الذهبية، التي تصدر صوت صرير، مثل صرصار الليل. إنها الأشياء التي كان يمتلكها والده، والتي بيعت بعد وفاته. تصعد من الأعماق مثل فقاعات. يرتفع المزيد والمزيد منها، وعندما تصل إلى السطح تنقلب ببطء مثل سمكة نافقة. ليست قاسية كالمعدن، إنما لينة، ولها حراشف مثل الأنقليس. يراقبها مرعوبًا، لأنها الآن تتجمع وتتآلف وتبدأ بالتحول. تنمو المجسّات. يد ميتة. والده، في عملية ملتوية للعودة إلى الحياة. لديه إحساس غامر بالإثم.

يستيقظ، قلبه ينبض بشدة. تتشابك الشراشف والأغطية حوله، الوسائد على الأرض. إنه غارق في العرق. بعد أن اضطجع متأمّلًا بهدوء لبعض الوقت، ظن أنه يفهم سلسلة الروابط التي قادت إلى مثل هذا الحلم. كانت قصة غريس، وعبور الأطلسي، والدفن في البحر، وفهرستها للأغراض المنزلية، ووالدها المتعجرف بالطبع. فوالدٌ ما يُذَكِّر بالآخر.

يتحقق من الوقت عبر ساعة جيبه الموضوعة على الطاولة الجانبية للسرير: تأخر في الاستيقاظ للمرة الأولى. لحسن الحظ أن فطوره تأخر أيضًا. دورا العبوس ستصل في أي لحظة، وهو لا يريد أن يفاجأ بها وهو في قميصه الليلي، فيُقْبَض عليه متكاسلًا. يلقي بالملابس على جسده، ويجلس سريعًا على طاولة الكتابة ويدير ظهره للباب.

سوف يسجل الحلم الذي رآه في دفتر اليوميات المخصص لمثل هذه الأغراض. تنصح إحدى المدارس الفرنسية لعلاج المرضى العقليين، بتسجيل الأحلام كأداة تشخيص. سواء أحلامهم، أو أحلام مرضاهم، بهدف المقارنة. إنهم يعتبرون الأحلام -مثل السرنمات- تجلٍّ للحياة الحيوانية الكامنة تحت الوعي، بعيدًا عن الأنظار، بعيدًا عن متناول الإرادة. لعلّ عقف، أو بالأحرى مفاصل سلسلة الذاكرة تقبع هناك.

يجب عليه أن يعيد قراءة عمل توماس براون حول الربط والإيحاء، ونظرية

16 الشمة: نوع مخدّر من عائلة التبغيّات. (م).

هيربارت عن عتبة الوعي: الخط الذي يفصل الأفكار التي تدرك في وضح النهار عن تلك التي تندس في الظل منسية تحتها. يعتبر مورو دي تورز أن الحلم هو المفتاح لمعرفة المرض العقلي، واعتبرت ماين دي بيران أن الحياة الواعية أشبه بالجزيرة، تطفو على بحر شاسع من اللّا وعي، وتسحب الأفكار منه كالأسماك. ما يُنظر إليه على أنه معلوم هو جزء صغير فقط ممّا خزن في هذا المستودع المظلم. ذكريات ضائعة تستلقي هناك مثل كنز غارق، تُسترجع مجزّأة، إذا استعيدت من الأساس. وقد يكون فقدان الذاكرة نفسه نوعًا معاكسًا للحلم، غرقًا للذكريات، وهبوطًا إلى الأسفل...

يُفتح الباب خلف ظهره، ليدخل الفطور. يغمس قلمه باجتهاد. إنّه ينتظر خبطة الصينية، خشخشة آنية الفخار على الخشب، لكنه لا يسمعها.

- هلا وضعته على الطاولة؟ يقول دون أن يلتفت.

هناك صوت مثل الهواء الخارج من منفاخ صغير، يتلوه صوت تحطم. أول ما خطر ببال سايمون هو أن دورا رمته بالصينية -فلطالما كانت توحي له بعنف جنائي مكبوت. يصرخ لا إراديًا، يقفز، ويلتفت. كانت صاحبة السكن -السيدة همفري- ممددة على الأرض وسط فوضى الأواني الفخارية المكسورة والطعام المبعثر.

يهرع إليها، يجثو على ركبتيه، ويقيس نبضها. إنها لا تزال حية على الأقل. يفتح جفنها، ليرى بياض عينيها. وبسرعة يفك المئزر المتسخ الذي تأتزر به، والذي ميزه لأن دورا الفوضوية كانت تأتزره عادة. ثم يفك الأزرار الأمامية لثوبها، ملاحظًا -فيما يفعل ذلك- وجود خيط معلق لزر مفقود. يفتش في طبقات القماش، وينجح في نهاية المطاف في قطع خيوط الكورسيه بسكين الجيب، فتنطلق رائحة ماء البنفسج وأوراق الخريف والجسد الرطب. إنها أكثر امتلاءً ممّا كان يفترض، على الرغم من أنها بعيدة كل البعد عن البدانة.

يحملها إلى غرفة نومه، فالأريكة في غرفة جلوسه أصغر من أن تفي بالغرض، ويمددها على السرير واضعًا وسادةً تحت قدميها لدفع الدم إلى رأسها. يفكر في

خلع حذائها، الذي لم يخضع للتنظيف اليومي المعتاد بعد، ولكنه يقرر أن في هذا ألفة غير مضمونة.

السيدة همفري لديها كاحل أنيق، يتجنب النظر إليه. شعرها مبعثر من أثر السقطة. وهو يراها بهذه الطريقة يجدها أصغر ممّا اعتقد. ومع تغييب الإغماء لتعبير القلق المتكلف المعتاد، فإنها تبدو أكثر جاذبية. يضع أذنه على صدرها، ويستمع: نبضات قلبها منتظمة. فهي إذًا حالة بسيطة من الإغماء. يرطب منشفة بماء الإبريق ويمررها على وجهها ورقبتها، فيرتعش جفنها.

يصب سايمون نصف كوب ماء من الزجاجة على منضدة نومه، ويضيف عشرين قطرة من أملاح الشم، وهو دواء يحمله دائمًا خلال زيارات ما بعد الظهر، في حال أبدت غريس ماركس هذا النوع من الرهافة، حيث يقال إنها عرضة للإغماء. يسند السيدة همفري بإحدى ذراعيه، ويحمل الكأس إلى شفتيها:

- ابلعي هذا.

ترتشفه على نحو أخرق، ثم ترفع يدها إلى رأسها. يلاحظ على جانب وجهها وجود علامة حمراء. يبدو أن زوجها الوغد بهيمي بقدر ما هو سكير. بالرغم من أنها تبدو كصفعة قوية، ومن المؤكد أن رجلًا مثل الرائد سيستخدم قبضة مغلقة عوضًا عن ذلك. يشعر سايمون بشيء من الشفقة التي تحثه على الدفاع عنها، وهي مشاعر لا يستطيع تحمل تكلفتها. المرأة ليست سوى مؤجرته. غريبة تمامًا عنه. ليس لديه الرغبة في تغيير هذا الوضع، على الرغم من هذه الصورة التي تقفز إلى ذهنه دون دعوة، والتي أثارتها مشاهدة امرأة عاجزة ممددة على سريره غير المرتب: صورة السيدة همفري، نصف واعية ويداها تلوحان بلا حول ولا قوة في الهواء، بلا مشد وبقميص نصف ممزّق. قدماها غير المحتشمتين لا تزالان في الحذاء الطويل، تركلان بشكل متقطع، ممّا يجعلهما تصدران مواءً خافتًا، في حين تتعرض للهجوم من شخص ضخم لا يشبهه على الإطلاق. على الرغم من أنه -كما يبدو من الأعلى، ومن الخلف، وهي الجهة التي يراه منها في هذا المشهد الدنيء- يلبس الروب نفسه.

لطالما أثارت تجليات الخيال -من هذا النوع- فضوله، كونه كان قادرًا على ملاحظتها في نفسه. من أين تأتي؟ وما دامت تحدث له، فلا بدّ أنها تحدث كذلك مع غالبية الرجال. إنه عاقل وطبيعي، وقد طور ملكته المنطقية لتصبح على درجة عالية. ومع ذلك لا يمكنه دائمًا التحكم في مثل هذه الصور. قد لا يكون الفرق بين رجل متحضَر وبربري شيطاني -مجنون مثلًا- سوى قشرة رقيقة من ضبط النفس المتعمد.

- أنت سليمة -قال بلطف- لقد انهرتِ، والآن يجب أن ترتاحي جيدًا إلى أن تشعري بالتحسن.

- لكني على السرير. حدقت حولها.

- إنه سريري، سيدة همفري. اضطررت لحملك إليه لأني لم أجد مكانًا أنسب.

احمر وجهها بعد أن لاحظت أنه يلبس الروب.

- علي المغادرة حالًا.

- أتوسل إليك أن تتذكري بأنني طبيب، وفي الوقت الحالي، أنت مريضتي. إذا حاولت النهوض الآن، فقد يتكرّر الأمر.

- يتكرر الأمر؟

- لقد انهرتِ أثناء حملِ -يبدو من الفظاظة ذكر ذلك- صينية إفطاري. لكن هل لي أن أسألك ما الذي حدث لدورا؟

ما أذعره دون أن يدهشه هو أنها بدأت تبكي.

- لم أستطع دفع أجرها. أدين لها بأجور متأخرة ثلاثة شهور. لقد نجحت في بيع بعض... بعض الأغراض ذات الطابع الشخصي، ولكن زوجي أخذ المال مني، قبل يومين، ولم يعد منذ ذلك الحين. أنا لا أعرف أين ذهب.

إنها تبذل جهدًا واضحًا للسيطرة على دموعها.

- وهذا الصباح؟

- خضنا حديثًا عنيفًا. أصرت على الدفع. قلت لها إنني لا أستطيع، إن

ذلك غير ممكن. وقالت إنها ستدفع لنفسها في هذه الحالة. بدأت بالمرور على أدراج منضدتي بحثًا عن المجوهرات، على ما أظن. لم تجد أي شيء، وقالت إنها ستأخذ خاتم زواجي. كان من الذهب، لكنه بسيط جدًا. حاولت الدفاع عنه. قالت إنّني لم أكن صادقة معها، لقد... دفعتني ثم أخذته، وقالت إنها لن تكون عبدة، ولن تقبل بالعمل دون أجر بعد الآن، ثم غادرت المنزل. بعد ذلك أعددت فطورك بنفسي، وحملته إليك. ماذا عساي أفعل غير ذلك؟

وإذًا فزوجها ليس الفاعل، يفكر سايمون. كانت الخنزيرة دورا. تبدأ السيدة همفري في البكاء مرة أخرى، بلطف، وبدون جهد، كما لو أن شهقاتها نوع من الزقزقة.

- لا بدّ أن لديك صديقة جيدة، يمكنك الذهاب إليها، أو دعوتها للقدوم.

سايمون متلهف لإزاحة هم السيدة همفري عن كاهله، وتحميله شخصًا آخر. تساعد النساء بعضهن البعض. إن رعاية المنكوبين هو اختصاصهن. يصنعن اللحم البقري، الشاي، والجلي. ويحكن شالات مريحة. إنّهن مربّيات ومطمئنات.

- ليس لدي أصدقاء في هذا المكان. لقد جئنا مؤخرًا لهذه المدينة، بعد أن عانينا بعض الصعوبات المالية في مسكننا السابق. زوجي لا يشجع الزيارات. لم يكن يريدني أن أخرج.

تخطر لسايمون فكرة مفيدة:

- يجب أن تأكلي شيئًا. سوف يجعلك ذلك أقوى.

تبتسم بشحوب:

- لا يوجد ما يمكن تناوله دكتور جوردن. وقد كان فطورك آخر ما يؤكل. أنا لم آكل منذ يومين، منذ غادر زوجي. القليل الذي كان في المنزل أكلته دورا. لم يتبقَ لي سوى الماء.

وهكذا وجد سايمون نفسه في السوق، يشتري من المتاجر -بماله الخاص- ما يمكنه صيانة جسد مؤجّرته. ساعد السيدة همفري على نزول الدرج نحو الجزء

الخاص بها من المنزل. أصرت على ذلك قائلة إنها لا تتحمل أن يعثر عليها في غرفة نوم مستأجرها عند عودة زوجها. لم يكن مندهشًا عندما اكتشف أن الغرف أصبحت شبه خالية من الأثاث، فكل ما تبقى في الصالة طاولة وكرسيّان. ولكن ما زالت غرفة النوم الخلفية تحوي سريرًا، وضع عليه السيدة همفري، في حالة من الإجهاد العصبي، والجوع أيضًا. لا عجب أن عظامها كانت ظاهرة. أدار رأسه بعيدًا عن السرير، وعن مشاهد البؤس الزوجية التي لا بدّ أن تكون مرت بها.

ثم عاد للطابق العلوي إلى غرفته الخاصة، مع سطل عثر عليه في المطبخ، والذي كان في حالة فوضى. نظّف الإفطار المسكوب والأطباق المكسورة عن أرضيته، ملاحظًا أنّ البيض التالف أصبح الآن -ولأول مرة- مطهوًا كفاية.

يفترض أنه سيضطر إلى إخطار السيدة همفري بتغيير مسكنه، وهو ما سيكون محرجًا، لكنه مع ذلك أفضل من تعطيل حياته وعمله، وهو ما سيحدث بالتأكيد في حال بقائه. الفوضى، وعدم النظام، وحَجَبة المحكمة يأتون لأخذ الأثاث من غرفه، عاجلًا أو آجلًا. ولكن إذا رحل -بالمقابل- ماذا سيحدث للمرأة البائسة؟ لا يريد تحميل ضميره ذنب موتها جوعًا في زاوية من زوايا الشارع.

يشتري بعض البيض ولحم الخنزير المقدد والجبن وبعض الزبدة ذات المظهر المتسخ من مزارعةٍ عجوزٍ في أحد الأكشاك. ويلف بعض الشاي في الورق بأحد المحلات. إنه يحب الخبز، لكنه لا يرى أي مكان قريب لبيعه. لا يعرف حقًا كيف يمضي في هذا. لقد زار السوق من قبل، ولكن بصورة عابرة؛ للحصول على الخضروات التي يأمل من خلالها في استفزاز ذاكرة غريس. لكن شأنه مختلف الآن. من أين يمكنه شراء الحليب؟ لماذا لا يوجد تفاح؟ هذا كون لم يسبق له اكتشافه، إذ لم يكن لديه أي فضول حول مصدر طعامه، طالما أنه حاضر. أما المشترون الآخرون في السوق فهم الخدم -الذين يتأبّطون سلال تسوق ربات عملهم- أو من نساء الطبقات الأشد فقرًا، بأغطية الرأس المرتخية والشالات المحلولة. يشعر أنهم يضحكون عليه من وراء ظهره.

عندما عاد، كانت السيدة همفري قد نهضت. لفّت نفسها في لحاف وصففت

شعرها، وجلست إلى جانب الموقد، تفرك يديها وترتجف. الموقد مضاء لحسن الحظ، فهو لا يعرف كيفية التعامل معه. نجح في إعداد بعض الشاي لها، وفي قلي بعض البيض ولحم الخنزير المقدد، وفي تحميص كعكة وجدها في السوق أخيرًا. يأكلان معًا، على الطاولة الوحيدة المتبقية. يتمنى لو كان هناك بعض المربى.

- لطف منك أن تفعل كل هذا دكتور جوردن.
- دعي عنك هذا، ما كان بإمكاني تركك تتضورين.

كان صوته متحمسًا أكثر ممّا انتوى، الصوت المبتهج والمنافق للعم الذي لا يكاد يقوى على الانتظار حتى يمنح ربع الدولار المتوقع منه لابنة أخيه المتذللة، الخاضعة له، ويقرص خدها، ثم يذهب في طريقه إلى الأوبرا. يتساءل سايمون عمّا يفعله الرائد همفري السيئ الآن، ويشتمه بصمت ويحسده. فأيًا كان... المؤكد أنه أمتع من هنا.

تتنهد السيدة همفري:

- أخشى أن هذا ما سيحدث في النهاية. فمواردي في طريقها إلى النفاد -إنها الآن هادئة للغاية، تتأمل وضعها بموضوعية تامة- يجب دفع إيجار المنزل، ولا أملك المال. قريبًا سيأتون مثل النسور الجشعة لتنقيب العظام، وسأطرد. وربّما سأعتقل أيضًا بسبب الديون. أفضل الموت على ذلك.
- لا بدّ أن هناك ما يمكنك القيام به؛ لكسب لقمة العيش. يقول سايمون. يُعجبه تمسكها باحترامها لذاتها.

تحدق به. عيناها -في هذا الضوء- تكتسبان درجة فريدة من خضرة البحر.

- ماذا تقترح يا دكتور جوردن؟ شغل الإبرة الفاخر؟ النساء أمثالي يمتلكن مهارات محدودة يمكنهنّ بيعها.

هناك تلميح ساخر خبيث في صوتها. أتراها تعرف ما كان يفكر به وهي ترقد فاقدة الوعي على سريره غير المرتب؟

وجد نفسه يقول:

- سأدفع لك إيجار شهرين آخرين مقدّمًا.

إنه أحمق، أحمق رقيق القلب. لو كان لديه أي منطق لخرج من هنا كما لو كان الشيطان يلاحقه.

- سيكون ذلك كافيًا لإبعاد الذئاب، على الأقل حتى يتوفر لكِ الوقت للنظر في مستقبلك.

تمتلئ عيناها بالدموع. وبدون أي كلمة، ترفع يدها عن الطاولة وتضغطها بلطف على شفتيها. كان يمكن لحركة كهذه أن تكون أكثر تأثيرًا، لولا آثار الزبدة المتبقية على فمها.

اليوم، يبدو الدكتور جوردن أكثر اضطرابًا من المعتاد، كما لو كان مشغولَ البال. لا يبدو أنه يعرف كيف يبدأ. لذلك واصلت الخياطة، لأترك له فرصة تمالك نفسه من جديد. ثم قال: أتعملين على غطاء جديد غريس؟

وقلت: نعم سيدي، إنّه بنمط صندوق باندورا للآنسة ليديا.

وضعه هذا في مزاج تعليمي، وأستطيع أن أرى أنه سيعلمني شيئًا، وهو أمر عادة ما يكون السادة مولعين بالقيام به. كان السيد كينير هكذا أيضًا. ويسأل: هل تعلمين من هي باندورا غريس؟

وأقول: نعم، لقد كانت أسطورة يونانية قديمة، وقد فتحت صندوقًا أوصيت بعدم النظر داخله، وخرجت منه العديد من الأمراض، والحروب وغيرها من البلايا البشرية. عرفت ذلك منذ زمن طويل، في بيت زوجة الوالي باركنسون. كانت ماري ويتني تشكك في القصة، متسائلة لماذا تركوا صندوقًا كهذا مرميًا إن لم يريدوا فتحه.

كان مندهشًا من اكتشاف أنني أعرف ذلك، يسأل: لكن هل تعرفين ما كان في قاع الصندوق؟ «نعم سيدي.» أقول: «الأمل.» يصلح هذا لنكتة: الأمل هو ما تحصل عليه عندما تفرك قاع البرميل، فبعض الناس يضطرّون للزواج في نهاية المطاف من فرط اليأس. أو يمكنك القول صندوق أمل. لكن على كل حال، كل ذلك مجرد خرافة. على الرغم من أنه يشكل نمطًا جميلًا لغطاء.

«حسنًا، أفترض أنّنا جميعًا بحاجة إلى القليل من الأمل بين حين وآخر.» يقول.

كدت أقول إنّني أمضي بدونه منذ وقت طويل، لكنني أحجمت. ثم قلت: تبدو على غير عادتك سيدي، أرجو ألّا تكون مريضًا؟

ابتسم ابتسامته المائلة، وقال إنه ليس مريضًا، إنه مشغول البال فقط، لكن يمكنني مساعدته بمواصلة قصتي، لأن ذلك سيصرفه عن مخاوفه. التي لا يتحدث عنها، فأواصل.

«الآن، سيدي...» أقول «وصلنا إلى جزء أسعد من قصتي. في هذا الجزء سأخبرك عن ماري ويتني. ومن ثم سوف تفهم لماذا استعرت اسمها. عندما احتجت إلى ذلك، فهي من النوع الذي لا يرفض مساعدة صديق محتاج، وكنت آمل أن أتمكن من الوقوف إلى جانبها أيضًا، عندما يحين الوقت لذلك.»

كان منزل عملي الجديد كبيرًا جدًا، وكان معروفًا بكونه أحد أروع المنازل في تورنتو. كان يقع في شارع فرونت، ويطل على البحيرة، حيث توجد المزيد من المنازل الكبيرة الأخرى. وكان له رواق مقوس مع أعمدة بيضاء في المقدمة. كانت غرفة الطعام بيضاوية، كما كانت غرفة الجلوس أيضًا، وهي أعجوبة بصرية، على الرغم من كونها عرضة لتيارات الهواء البارد. وكانت له مكتبة بحجم قاعة رقص، مع رفوف تصل إلى السقف، محشوة تمامًا بكتب في أغلفتها الجلدية، مستوعبة كلمات أكثر ممّا يمكنك أن تقرأ في حياتك.

كما أن حُجَر النوم كانت تحتوي على أعمدة أسرة عالية عُلّقت عليها ستائر ونسيج مشبك لإبعاد الذباب في الصيف، وطاولات زينة ذات مرايا، وخزانات من خشب الماهوغاني، وخزائن بأدراج فوق بعضها. كانوا يتبعون الكنيسة الإنجليزية، التي أسست حديثًا، كما تفعل الطبقات الرفيعة تلك الأيام، والذين أرادوا أن ينتموا لتلك الطبقات.

تألفت العائلة: أولًا، الوالي باركنسون، وهو نادرًا ما يُرى، لانخراطه في الأعمال والسياسة. كان له شكل تفاحة ملحقة بزوج عصي تمثل الأرجل. كان لديه الكثير من سلاسل الساعات الذهبية، ودبابيس الذهب، وصناديق الشمة، وغيرها من الحلي، كان بإمكانك الحصول على خمس قلادات منه إذا ما صهر، قلادات مع أقراطها.

ثم هناك زوجته، التي تقول ماري ويتني إنّها وجب أن تكون هي الوالي، لأنها الأرجل بينهما. كانت امرأة بشخصية مهيبة، ولجسدها شكل مختلف للغاية، بفعل الكورسيهات. ولكن عندما كانت تحزم بقوة، يبرز صدرها مثل رف، بإمكانها حمل صينية شاي عليها، وتقديمها دون أن تسقط قطرة. جاءت من الولايات

المتحدة، وكانت أرملة ثرية قبل أن يوقعها -على حد تعبيرها- الوالي باركنسون في شباك حبه. وهو منظر يستحق المشاهدة، قالت ماري ويتني إنه من المستغرب أن الوالي باركنسون نجا بحياته بعد هذه الوقعة.

كان لديها ابنان بالغان يدرسان في إحدى الكليات في أمريكا. بالإضافة إلى كلب سبنيلي يدعى بيفيلينا، أعده من العائلة لأنه كان يعامل على هذا النحو. كقاعدة أنا مغرمة بالحيوانات، لكن هذا بالتحديد تطلب مني جهدًا لأحبه.

ثم الخدم، والذي كان عددهم كبيرًا. رحل بعضهم وجاء آخرون بينما كنت هناك، لذلك لن أذكرهم جميعًا. كانت هناك وصيفة السيدة باركنسون الانطوائية، التي ادعت أنها فرنسية، على الرغم من أن لدينا شكوكًا حول ذلك. والسيدة هوني مدبرة المنزل، التي كانت لديها غرفة كبيرة في الجزء الخلفي من الطابق الرئيس، وكذلك كبير الخدم. أما الطباخ والخادمة المسؤولة عن غسيل الملابس فيعيشون بجوار المطبخ. يعيش البستاني وسائسو الخيل -وكذلك عاملتا المطبخ- في المباني الخارجية، بالقرب من الإصطبل الذي يحوي الخيول والبقرات الثلاث، حيث كنت أذهب أحيانًا للمساعدة في الحلب.

وُضعت في العلية، في أعلى الدرج الخلفي، وتشاركت السرير مع ماري ويتني، التي كانت تساعد في الغسيل. غرفتنا لم تكن كبيرة، حارّة في الصيف وباردة في الشتاء، فهي تقع بجانب السقف وتفتقر لموقد. وكان فيها السرير، الذي حوى فراش القش، وصندوقًا صغيرًا، ومغسلة بسيطة مع حوض مثلوم، ووعاء للغرفة. وأيضًا كرسيًا بمسند ظهر مستقيم، باللون الأخضر الفاتح، حيث نطوي ملابسنا ونضعها في الليل.

أسفل الممر كانت تعيش خادمات الغرف: أغنيس وإفي. كانت أغنيس ذات حسّ ديني، على الرغم من كونها متساعدة وطيبة القلب. في شبابها خضعت لعملية من أجل إزالة صفار أسنانها، لكنها أزالت البياض أيضًا. وهذا قد يكون السبب في كونها نادرًا ما تبتسم، وحين تفعل أخيرًا فبشفتين مغلقتين. قالت ماري ويتني إن صلواتها الكثيرة كانت من أجل أن يعيد الرب أسنانها البيضاء مرة

أخرى، ولكن دون جدوًى إلى الآن. أصبحت إيفي كئيبة جدًا عندما رُحِّلَ رجلها إلى أستراليا -قبل ثلاث سنوات- لمشاركته في التمرد. وعندما تلقت خطابًا يخبرها بموته، حاولت شنق نفسها برباط مئزرها. لكنه انقطع، وعثر عليها على الأرض نصف مختنقة وفاقدة عقلها، فكان لا بدّ من إبعادها.

لم أكن أعلم شيئًا عن التمرد، إذ لم أكن في البلاد حينها، لذا أخبرتني ماري ويتني عنه. كانت ضد طبقة النبلاء، الذين يديرون كل شيء، ويحتفظون بالمال والأرض لأنفسهم. وكان يقودها السيد ويليام ليون ماكنزي، الذي كان راديكاليًا، وبعد أن فشل التمرد هرب عبر البحيرة خائضًا الجليد والثلج إلى الولايات المتحدة، مرتديًا ملابس امرأة، وكان يمكن أن يتعرض للخيانة عدة مرات ولكن ذلك لم يحدث، لأنه كان رجلًا صالحًا وقف دائمًا في صف المزارعين العاديين؛ لكن العديد من الراديكاليين قبض عليهم ورُحِّلوا أو شنقوا، وفقدوا ممتلكاتهم، أو أنهم هربوا إلى الجنوب. ومعظم هؤلاء الذين بقوا هنا كانوا من المحافظين، أو ادعوا ذلك؛ لذا فمن الأفضل تجنب الأحاديث السياسية، إلا بين الأصدقاء.

قلت إنني لا أفهم شيئًا عن السياسة، لذا لن أتحدث فيها على أي حال؛ وسألتُ ماري إذا كانت راديكالية. وقالت إنه يتعين عليّ عدم إخبار آل باركنسون، الذين كانوا قد سمعوا قصة مختلفة، ولكن والدها فقد مزرعته -التي هيأها بالكثير من الجهد- بهذه الطريقة. وأحرقوا منزله الخشبي الذي بناه بيديه، بينما كان يقاتل الدببة والحيوانات البرية الأخرى. ثم فقد حياته أيضًا، بسبب المرض الناجم عن الاختباء في الغابة الشتوية؛ وكانت والدتها قد ماتت من الحزن. لكن الانتقام سيحين، وبدت شرسة وهي تقول ذلك.

سُرِرْت بالعيش مع ماري ويتني، فقد أحببتها فورًا. كانت هي الأصغر هناك من بعدي، إذ كانت في السادسة عشرة من عمرها. وكانت فتاة جميلة ومبهجة، ذات شكل أنيق، وشعر داكن، وعينين سوداوين متلألئتين، وخدين ورديين بغمازتين. وكانت رائحتها مثل جوزة الطيب أو القرنفل. سألتْ عن كل شيء، وأخبرتها عن الرحلة في السفينة، وعن وفاة أمّي، وغرقها في البحر بين جبال الجليد. وأعربت

ماري عن حزنها تجاه الموضوع. ثم أخبرتها عن والدي، لكنني أخفيت الأجزاء الأسوأ، لأنه ليس من الصواب أن نتحدث بالسوء عن الوالدين. وعن خشيتي بمطالبته براتبي، وقالت إنه لا ينبغي أن أعطيه نقودي لأنه لم يعمل من أجلها، بالإضافة إلى أن ذلك لا يصب في مصلحة إخوتي وأخواتي، لأنه كان لينفق كل شيء على نفسه وعلى الشراب غالبًا. قلت إنني كنت خائفة منه، وقالت إنه لن يستطيع الوصول إلى هنا، وإذا ما حاول فستخبر جيم عامل الإصطبلات، الذي كان رجلًا ضخمًا، مع أصدقاء يمكنهم المساعدة. وبدأت أشعر بالراحة.

قالت ماري إنني قد أكون صغيرة جدًا، وجاهلة، لكنني كنت مشرقة كقرش جديد، والفرق بين الغباء والجهل أن الجاهل يمكن أن يتعلم. وأنني أبدو كعامل مجتهد يمكن أن يتحمل مسؤولية نفسه، وسنكون قادرتين على التعايش معًا. وقد كان لها وظيفتان قبل هذه، وحين تضطرين لتوظيف نفسك كخادمة فلن تجدي أفضل من منزل باركنسون، فهم ليسوا بخلاء في ما يتعلق بتوفير الطعام.

وكان هذا صحيحًا، إذ سرعان ما بدأت بالامتلاء، وبدأت أزداد طولًا. من المؤكد أن الحصول على الطعام كان أسهل في كندا عنه في الجانب الآخر من المحيط، وكان هناك تنوع أكبر. حتى إنّ الخدم يأكلون اللحوم كل يوم، وإن كان لا يتعدى لحم الخنزير المملح أو اللحم المقدد. وكان هناك خبز جيد من القمح ومن الذرة الهندية أيضًا. وكان للبيت ثلاث بقرات، وحديقة مطبخ، وأشجار فاكهة: الفراولة، والمشمش، والعنب. ومشاتل زهور كذلك.

كانت ماري ويتني فتاة مشاغبة، ومحبة للمرح وجريئة في حديثها عندما نكون وحدنا. لكنها تحسن سلوكها في حضور الأكبر سنًا فتصبح محترمة ورزينة. وبسبب ذلك، ولنشاطها في العمل، كانت المفضلة في العموم. بينما تلقي النكات وراء ظهورهم، وتقلّد وجوههم ومشياتهم وطرقهم. غالبًا ما كانت تدهشني الكلمات التي تخرج من فمها، لأن الكثير منها كان جلفًا جدًا. ليس الأمر أنني لم أسمع مثل هذه اللغة من قبل، فهناك مخزون وافر منها في المنزل عندما يسكر والدي، وعلى متن السفينة القادمة إلى هنا، وأسفل الميناء بالقرب من الحانات والنزل، لكنني

فوجئت بسماعها من فتاة، فتاة بهذا الشباب والجمال، بملابس شديدة النظافة والأناقة. لكنني سرعان ما تعوّدت عليها، وعزوت ذلك إلى كونها كندية مولودة في وطنها، حيث لم تكن تكِنُّ كثيرًا من الاحترام للمراتب. وحين تبدو عليّ الصدمة أحيانًا، كانت تقول إنني سرعان ما سأغني ترانيم متفجعة مثل أغنيس، وأتجول بفم كالحٍ متجهّم مقوس إلى أسفل مثل مؤخرة خادمة عجوز. وكنت أعترض، ثم ننتهي بالضحك.

كان يزعجها امتلاك بعض الناس للكثير، فيما لا يمتلك الآخرون إلا القليل، إذ لم تر أي حكمة إلهية في ذلك. زعمت أن جدتها كانت هندية حمراء، وهذا هو السبب في أن شعرها قاتم السواد. ولو أنها وجدت أي فرصة، فستهرب إلى الغابة، وتتجول بالقوس والسهام، ولن يتوجب عليها أن ترفع شعرها، أو تلبس مشدًّا، وقالت إن بإمكاني مرافقتها. ثم نعكف في التخطيط للكيفية التي نختبئ بها في الغابة، وكيف نقفز على المسافرين، وننزع فروة رؤوسهم، وهو ما قرأت عنه في الكتب. وقالت إنها ترغب في فروة رأس السيدة باركنسون، إلا أنها لن تستحق العناء لأن شعرها لم يكن طبيعيًا، فقد احتفظت بخصلات من نفس اللون في غرفة ملابسها. ورأت ذات مرة وصيفتها الفرنسية تمشط كومة منه، وفكرت في أنه يعود للكلب. لكنها كانت طريقتنا في الدردشة، ولم نكن ننوي التسبب في أي أذًى.

أخذتني ماري تحت جناحها منذ البداية. وسرعان ما خمنت أنني لست في السن الذي ادعيته، وأقسمت ألّا تبوح بذلك لأحد؛ ثم نظرت إلى ملابسي، وقالت إن معظمها كان صغيرًا جدًا علي، ولم يكن مناسبًا إلّا لحقيبة الخردة، وأنني لن أنجح في تجاوز الشتاء معتمدة على شال أمّي فقط، حيث إنّ الريح ستدخل عبره مباشرةً كأنه منخل. ساعدتني في الحصول على الملابس التي أحتاجها، حيث أخبرتها السيدة هوني أنّني أبدو كصعلوك، وكان لا بدّ من جعل مظهري مقبولًا، حتى تحافظ السيدة باركنسون على اسمها في الحي. لكن أولًا يجب فركي مثل البطاطس، لقد كنت بتلك القذارة.

وقالت إنها ستستعير مغطس السيدة هوني. كنت مروّعة، لأنني لم أستخدم

من قبل أي نوع من المغاطس، ومن السيدة هوني أيضًا. لكن ماري قالت إن تهديداتها أكبر من أفعالها، وعلى أي حال يمكنني دائمًا الإنصات لقدومها، لأنها تصلصل مثل أحمال غلايات قديمة بسبب كم المفاتيح التي تحملها. وإذا جادلت فستهددها بتحميمي في الخارج، عارية تمامًا، أسفل المضخة في الفناء الخلفي. صدمت بهذا، وقلت إنني لن أسمح بذلك. وقالت إنها لن تفعل مثل هذا الشيء بالطبع، ولكن مجرد ذكر ذلك سيكسبنا موافقة السيدة هوني.

عادت سريعًا جدًا، وقالت إن بإمكاننا استخدام المغطس طالما أنّنا سننظفه فور أن ننتهي. وهكذا أخذناه إلى غرفة الغسيل، وضخَخْنا الماء، وسخنّاه على الموقد، وسكبناه. طلبت من ماري الوقوف على الباب لمنع أي شخص من الدخول، مديرة ظهرها، كوني لم أخلع ملابسي كلها من قبل، على الرغم من أنني أبقيت قميصي التحتي بدافع الاحتشام. لم يكن الماء دافئًا جدًا، وبحلول نهاية الحمام كنت أرتعش، الجيد أننا كنا في الصيف وإلّا مت بردًا. قالت ماري إنه كان عليّ أن أغسل شعري أيضًا. وحتى وإن صح أن غسله أكثر من اللازم سيأخذ كل قوة من جسدي، وقد عرفت فتاة ضعفت وماتت من كثرة غسل شعرها، ولكن كان لا بدّ من القيام بذلك كل ثلاثة أو أربعة أشهر. ثم نظرت إلى رأسي، وقالت إنني لا أحمل قملًا على الأقل، ولكن إذا ظهر لدي فسوف أحتاج لوضع الكبريت وزيت التربنتين. حين اضطرت لوضعه ذات مرة أصبحت رائحتها مثل البيض الفاسد لعدة أيام بعد ذلك.

أعارتني ماري ملابس ليلية إلى أن تجف ملابسي، فقد غسلت كل ملابسي. ولفتني في شرشف حتى أخرج من غرفة الغسيل، وأتسلق السلالم الخلفية. وقالت إنني بدوت مضحكة للغاية، تمامًا مثل امرأة مجنونة.

طلبت ماري من السيدة هوني أن تسلمني راتبي مقدمًا، لاقتناء لباس لائق. وحصلنا على إذن للذهاب إلى المدينة في اليوم التالي. أعطتنا السيدة هوني خطبة قبل مغادرتنا، وقالت إنه يتعين علينا التصرف باحتشام، وأن نذهب ونعود على الفور، وألّا نتحدث إلى الغرباء، وخاصة الرجال. وعدناها أن نفعل ما أوصتنا به.

أخشى أننا -مع ذلك- أخذنا الطريق الطويل، ونظرنا إلى الزهور في حدائق المنازل المسيجة، وإلى المتاجر التي لم تكن كبيرة أو كثيرة كما في بلفاست، على الأقل هذا كان انطباعي من مرورنا السريع. ثم سألتني ماري إن كنت أريد رؤية الشارع الذي تعيش فيه العاهرات. وكنت خائفة، لكنها قالت إنه لا خطر في ذلك. كنت أشعر فعلا بالفضول لرَؤية النساء اللواتي كن يعشن من خلال بيع أجسادهن، لأنني اعتقدت أنه إذا آلت الأمور إلى الأسوأ، وإذا جعنا، فسيكون لا يزال لدي شيء للبيع. وأردت أن أرى كيف يبدين. لذلك ذهبنا إلى شارع لومبارد؛ ولأننا كنا لا نزال في الصباح، لم يكن هناك الكثير ليرى. قالت ماري إن الشارع يعج بالمواخير، على الرغم من أنه يصعب تخمينها من الخارج. ولكن قيل إنها فاخرة للغاية من الداخل، مؤثثة بالسجادات التركية والثريات الكريستالية والستائر المخملية، والعاهرات يعشن فيها في غرفهن الخاصة، وتحضر الخادمات فطورهن، وتنظّفنَ أرضياتهن، وترتبنَ أسرتهن، وتخرجنَ دلاء المياه المستخدمة. كل ما كان عليهنّ فعله هو لبس ملابسهن، ومن ثم خلعها مرة أخرى، والاستلقاء على ظهورهن. وهو أسهل من العمل في مناجم الفحم أو الطواحين.

يوجد في هذه البيوت الطبقة الأرفع من العاهرات، والأكثر تكلفة أيضًا، وكان زبائنهن من السادة، أو على الأقل عملاء جيدو الدفع. لكن كان على النوع الأرخص أن يتجول في الخارج، وأن يستفيد من الغرف المستأجرة بالساعة. الكثير منهن يصبن بالأمراض، ويصبحن مسنات بحلول العشرين، وكانت عليهن تغطية وجوههنّ بالطلاء، لتضليل البحارة السكارى المساكين. وعلى الرغم من أنهن قد يظهرن أنيقات للغاية من مسافة بعيدة، مع الريش والساتان، فبإمكانك أن ترى عن قرب أن ملابسهن متسخة وغير ملائمة، لأن كل قطعة قماش تكسوهن كانت مستأجرة باليومية، وبالكاد يتبقى لهن ما يكفي لخبزهن. كان نوعًا بائسًا من الحياة، وتساءلت كيف لا يلقين بأنفسهن في البحيرة، وهو ما فعلته بعضهن، وغالبًا ما يعثر عليهن طافيات عند المرفأ.

تساءلت كيف عرفت ماري الكثير عن الأمر. لكنها ضحكت، وقالت إنني

سأسمع الكثير إذا أبقيت أذني مفتوحة، خاصة في المطبخ. عرفتُ فتاة من الريف آلت بها الأمور إلى هذا السبيل، وقد كانت تقابلها في الشارع؛ لكنها لا تعرف ماذا حدث لها بعد ذلك، وتخشى ألّا يكون بالأمر الجيد.

بعد ذلك ذهبنا إلى شارع كينج، إلى متجر الملابس وأدوات الخياطة حيث تباع بقايا حزم القماش بأسعار رخيصة. وكان هناك الحرير والقطن والبابلين والفلانيل والساتان والترتان، وكل ما يشتهى. لكن كان علينا أن نضع السعر في الحسبان، وكذلك الغرض من الفستان. اشترينا في النهاية قماشًا صالحًا للخدمة باللون الأزرق والأبيض منسوجًا من القطن، وقالت ماري إنها ستساعدني في خياطته. على الرغم من أنها فوجئتْ لاحقًا من اكتشاف قدرتي على الخياطة جيدًا وبغرز في غاية الدقة، وقالت إن موهبتي تهدر في الخدمة، وإن علي العمل كخياطة.

اشترينا خيطًا للفستان، وكذلك الأزرار، من بائع متجوّل جاء في اليوم التالي، وكان معروفًا للجميع هناك. كان مفضّلًا عند كوك، حيث أعدت له كوب شاي وقطعت له شريحة من الكعك بينما يفتح حقيبته وينشر بضاعته. كان اسمه جيرمايا، وعندما عبر المدخل إلى الباب الخلفي كانت تتبعه فرقة من خمسة أو ستة أطفال مثل قنافذ قذرة، يتبعونه كموكب، كان أحدهم يضرب على وعاء بملعقة. وكانوا يغنون معًا:

«جيرمايا، نفخ النار، أوف، أوف، أوف،

أولًا باللطف... ثم بالعنف.»

جلبنا الصخب جميعًا إلى النافذة وعندما وصلوا إلى الباب الخلفي، أعطاهم فلسًا، فهربوا. وعندما سألته كوك عن قصتهم، قال إنه يفضل أن يتبعوه ويكونوا تحت قيادته، بدل أن يرموه بكتل الطين وروث الخيول، والتي كانت عادتهم مع الباعة المتجولين، الذين لا يستطيعون مطاردتهم دون التخلي عن أحمالهم. وإذا ما فعلوا ذلك، فسينهبهم الأشرار الصغار بسرعة، لذلك اختار المسار الأكثر حكمة، ووظفهم، وعلّمهم الأغنية بنفسه.

كان جيرمايا هذا رجلًا ماهرًا وحاذقًا، ذا أنف وأرجل طويلة وجلد مسمرّ بفعل أشعة الشمس، ولحية سوداء مموجة. وقالت ماري إنه على الرغم من أنه كان يشبه يهوديًا أو غجريًا مثل العديد من الباعة المتجولين، إلا أنه كان أمريكيًا من والد إيطالي جاء للعمل في المصانع، في ولاية ماساشوستس. واسمه الأخير كان بونتيلي، لكنه كان محبوبًا جدًا. كان يتحدث الإنجليزية جيدًا، ولكن بلكنة أجنبية في صوته. كانت له عينان سوداوان ثاقبتان، وابتسامة عريضة ووسيمة، ويغازل النساء بلا خجل.

كان لديه الكثير من الأشياء التي أرغب في شرائها، لكني لم أمتلك المال، على الرغم من أنه كان راضيًا بأخذ نصف المال الآن وترك الباقي للمرة القادمة. لكني لا أحب أن أكون مدينة. كانت لديه شرائط وأربطة، بالإضافة إلى الخيط والأزرار. كانت لديه أزرار معدنية، وأخرى من صدف اللؤلؤ، أو الخشب أو العظام. واخترت العظم. وجوارب قطنية بيضاء، وياقات وأكمام، وربطات عنق ومناديل، والعديد من التنانير الداخلية، ومشدين مستخدمين، لكنهما نُظّفا ليصبحا كأنهما جديدين. وقفازات صيفية بألوان فاتحة، معظمها أُعِدَّ على نحو جميل. وأقراط بلون الفضة والذهب، على الرغم من أن ماري ترى أنها قد تفقد لونها. وصناديق شمة مصنوعة من الفضة الحقيقية. وزجاجات عطر برائحة الورد، قوية جدًا. اشترت كوك واحدة منها، وقال جيرمايا إنها بالكاد تحتاجها، إذ إن لها رائحة أميرة بالفعل. فتورد خداها وقهقت بالرغم من أنها كانت تقترب من الخمسين ولم تكن ذات هيئة أنيقة. وقالت: بل رائحة بصل. وقال إن رائحتها جيدة بما يكفي لتؤكل، وإن الطريق إلى قلب الرجل هو معدته، ثم ابتسم بأسنانه البيضاء الكبيرة، التي بدت أكبر وأكثر بياضًا بسبب لحيته القاتمة، وأعطى كوك نظرة الجائع، ولعق شفتيه، كما لو كانت كعكة لذيذة يتوق إلى التهامها. وحينها ازداد وجهها توردًا.

ثم سألنا عما إذا كان لدينا أي شيء للبيع، فهو يعطي بالمقابل أسعارًا جيدة، كما عرفنا. وقد باعت أغنيس أقراطها المرجانية التي حصلت عليها من عمة لها، وقد كانت بذخًا هي في غنًى عنه، عرفنا لاحقًا أنها احتاجت المال من أجل أختها،

التي تواجه بعض الصعوبات. وجاء جيم فتى الإصطبل، وقال إنه يريد المبادلة بقميص لديه، ومنديل كبير ملون أيضًا، مقابل قميص آخر -أعجبه- في حال أفضل. وتمت الصفقة بعد إضافة سكين جيب ذات مقبض خشبي إليها.

وحين كان جيرمايا في المطبخ، كان الأمر أشبه بحفل، وجاءت السيدة هوني لتكتشف ما كان يتسبب بكل هذه الضجة. وقالت: حسنًا يا جيرمايا، أرى أنك قد عدت لطيشك القديم، مستغلًا النساء مجددًا. لكنها ابتسمت وهي تقول ذلك، وهو مشهد نادر. وقال نعم، إنّ هذا ما كان يفعله، كان هناك الكثير من الجميلات اللاتي لم يستطع مقاومتهن، ولكن لم تكن أيٌّ منهن بجمالها. واشترت منه منديلين من الشاش، على الرغم من أنها قالت إنه يجب أن يكون سريعًا، وإلّا يأخذ اليوم بطوله، حيث كان على الفتيات أن يعملن. ثم انسحبت خارج المطبخ.

أراد بعضهم معرفة حظهم عبر قراءة الكف. لكن أغنيس قالت إن ذلك يستحضر الشيطان، وإن السيدة باركنسون لا تريد إثارة الشائعات حول حدوث مثل هذه الأنشطة الغجرية في مطبخها. لذلك لم يفعل. ولكن بعد الكثير من التضرع، قام بتقليد رجل نبيل، من حيث الصوت والسلوك وكل شيء، وقد صفقنا له بفرح، لقد كان نابضًا بالحياة. وأخرج عملة فضية من وراء أذن كوك، وأرانا كيف يمكنه ابتلاع شوكة، أو إظهارها. قال إن هذه كانت حيل خفة يد تعلمها في أيام شبابه الفاسدة، عندما كان فتًى جامحًا وعاملًا في المهرجانات، قبل أن يصبح تاجرًا صادقًا، تُسرق جيوبه ويُكسر قلبه عشرات المرات، بقسوة وجمال فتيات من أمثالنا، وضحك كل الحاضرين.

لكن عندما رصّ البضاعة مرة أخرى في حزمته -وكان قد شرب كأس الشاي وأكل قطعة الكعك، وقال إن ما من أحد يصنع كعكًا جيدًا مثل كوك، وبدأ يبتعد- أشار إلي لأقترب، وأعطاني زر عظام إضافي، يتماشى مع الأربعة التي اشتريتها. وضعه في يدي وطوى أصابعي عليه، وقد كانت أصابعه صلبة وجافة كالرمل. لكنه نظر إلى يدي بسرعة أولًا، ثم قال: خمسة من أجل الحظ، فالأشخاص من نوعه يعتبرون الأربعة رقمًا غير محظوظ، ويعتبرون الأرقام الفردية أكثر

حظًا من الزوجية. وأعطاني نظرة سريعة وذكية من عينيه السوداوين المتألّقتين، وقال بصوت منخفض جدًا بحيث لا يسمع الآخرون: أنت مقبلة على صخور حادة. والتي افترضت أنها موجودة دائمًا -سيدي- وقد قابلت ما يكفي منها سابقًا بالتأكيد، وقد نجوت منها لذلك لم أروَّع بما قاله.

لكن بعدها قال أغرب شيء على الإطلاق بالنسبة لي، قال: أنت واحدة منّا.

ثم حمل حزمته على كتفيه وأخذ عصاه وخرج. وتركني محتارة في ما عناه. لكن بعد أن فكرت مليًا، قررت أنه يعني أنني أيضًا بلا مأوًى، وأنني متجولة، مثل الباعة المتجولين وأولئك الذين عملوا في المهرجانات. لأنني لم أكن أتخيل شيئًا آخر يمكن أن يكون في ذهنه.

شعرنا جميعًا بشيء من الوهن والافتقار للحيوية بعد ذهابه. إذ لم يكن متاحًا لنا -في الغالب- نحن قاطنو الغرف الخلفية من أصحاب الواجبات، أن نحظى بمثل هذا: متعة أن ننظر إلى أشياء جميلة، وفرصة أن نضحك ونمرح في منتصف اليوم.

حين أصبح الفستان جاهزًا، بدا بشكل جيد، ولأنه كان لدينا خمسة أزرار بدل الأربعة، استخدمنا ثلاثة منها للرقبة، وواحدًا لكل كمٍّ. وحتى السيدة هوني قالت إنه أحدث فرقًا في مظهري، وكيف أني بدوت مرتبة ومحترمة، الآن بعد أن لبست الملابس اللائقة.

جاء والدي في نهاية الشهر الأول، عازمًا على أخذ راتبي كاملًا. لكنّني لم أتمكّن من إعطائه سوى الربع، بما أنني صرفت الباقي. ثم بدأ يشتم ويسب ممسكًا بي من ذراعي. لكن ماري سلطت عليه فتية الإصطبل. ثم عاد في نهاية الشهر التالي، وأعطيته الربع مرة أخرى، وأخبرته ماري أنّه لن يأتي إلى هنا مرة أخرى. ونعتها بنعوت سيئة، ونعتته بأسوأ منها، وصفرت حتى يأتي الرجال. وهكذا فقد طورِدَ. كانت أفكاري متضاربة حول ذلك، إذ شعرت بالأسف على الصغار. وحاولت أن أرسل لهم بعض المال من خلال السيدة بيرت، لكنني لا أعتقد أنهم تلقّوه.

عملتُ في البداية في غسيل الأطباق، وتلميع القدور والمقالي، لكن سرعان ما لوحظ أن القدور الحديدية كانت ثقيلة عليّ. ومن ثم غادرت عاملة الغسيل لعثورها على منصب جديد، وجاءت مكانها بديلة لم تكن بذات نشاطها، فوجهتني السيدة هوني لمساعدة ماري في الشطف والعصر، والتعليق والطوي والتجفيف والإصلاح، وكنا سعداء للغاية. قالت ماري إنها ستعلمني ما أحتاج أن أعرفه، وبما أنني ذكية بما فيه الكفاية فسوف أتعلم بسرعة.

كانت ماري تطمئنني عندما أرتكب خطأ ويصيبني القلق، وتقول إنه لا يتعين عليّ أخذ الأمور بجدية، وإن من لا يخطئ لا يتعلم. وعندما كلمتني السيدة هوني بحدة وكنت على وشك البكاء، قالت ماري إنه لا ينبغي لي أن أعيرها اهتمامًا، لأن تلك طريقتها في الحديث، إذ ابتلعت زجاجة خلّ والآن صارت تخرجه من لسانها. يجب علي أن أتذكر أننا لسنا عبيدًا، وكوننا خدمًا ليس شيئًا ولدنا به، ونحن لسنا مضطرين إلى الاستمرار فيه للأبد. إنها مجرد وظيفة نؤديها. وقالت إنه من المعتاد أن توظّف الفتيات الصغيرات في هذا البلد أنفسهن من أجل كسب المال لمهرهن. ثم يتزوجن، وإذا ما ازدهرت أعمال أزواجهن، فسيوظفن الخادمات بدورهن، أو على الأقل خادمة لكل الأعمال. وأنني سأكون في يوم من الأيام مسؤولة عن مزرعة منظمة ومستقلة، وحينها سأتطلع للخلف إلى محنتي ومعاناتي على يد السيدة هوني على أنها نكتة. لا فرق بين إنسان وآخر، وعلى هذا الجانب

من المحيط، يصعد الناس من خلال العمل الشاق، وليس من خلال ما كانه أجدادهم، وهذا هو الحال التي ينبغي أن تكون عليها الأمور.

وقالت إن كون المرء خادمًا يعني -مثل أي شيء آخر- امتلاكه مهارة يحتاجها من لم يتعلمها، كله يعتمد على طريقة النظر للأمور. على سبيل المثال، قيل لنا دائمًا أن نستخدم الدرج الخلفي، من أجل الابتعاد عن طريق العائلة، ولكن يفترض أن يكون العكس: كانت السلالم الأمامية هناك لتبقي العائلة بعيدًا عن طريقنا.

يمكنهم أن يقطعوا السلالم الأمامية صعودًا وهبوطًا في ملابسهم وحليهم الفاخرة، في حين يجري العمل الحقيقي للمكان وراء ظهورهم، دون أن يعيقوه، أو يتدخّلوا فيه، ويجعلوا أنفسهم محل إزعاج. إنهم كائنات ضعيفة وجاهلة، على الرغم من كونهم أغنياء، ومعظمهم غير قادرين على إشعال النار حين تتجمد أصابع أقدامهم، لأنهم لم يكونوا يعرفون كيف. أعجب من كونهم قادرين على تنظيف أنوفهم، أو مسح مؤخراتهم حتى. كانوا بطبيعتهم عديمي الفائدة مثل قضيب كاهن -عذرًا سيدي، ولكن هذه كانت كلماتها- وإذا ما خسروا كل أموالهم غدًا وطردوا إلى الشوارع، فلن يكونوا قادرين حتى على كسب عيشهم بالعهر المتقن، فهم لا يعرفون ما الذي يدخل في ماذا، وسينتهي بهم الأمر وقد أدخلوا -لن أقول الكلمة- في أذن ما. ومعظمهم لا يفرق بين ثقب في مؤخرته وثقب في الأرض. وقالت شيئًا آخر عن النساء، وكان فظًا للغاية لدرجة أني لا أستطيع تكراره سيدي، ولكنه جعلنا نضحك كثيرًا.

وقالت إن الحيلة تتمثل في إنجاز العمل دون أن يشهد أحد ذلك. وإذا ما فوجئت في وسط مهمة ما، فعليك ببساطة أن تسحب نفسك في الحال. في النهاية -قالت- نحن أفضل منهم، لأننا من يغسل ملابسهم الكتانية القذرة، وبالتالي فنحن نعرف الكثير عنهم. لكنهم لم يغسلوا لنا أي شيء وبالتالي فهم لا يعرفون عنا شيئًا على الإطلاق. كان هناك القليل من الأسرار التي يمكن إخفاؤها عن الخدم. وإذا ما أصبحت يومًا خادمة غرف، فعليّ أن أتعلم حمل دلو مليء

بالقذارة كما لو كان مزهرية من الورد، لأن الشيء الذي يكرهه هؤلاء الناس أكثر من غيره، هو أن يذكَّروا بأنهم أيضًا يملكون أجسادًا، ويخرون برائحة كريهة مثل أي إنسان آخر، إن لم يكونوا أسوأ. ومن ثم تلقي قصيدة تقول: عندما ولج آدم وتمددت حواء، أين كان الرجل النبيل آنذاك؟

كما قلت -سيدي- كانت ماري شابة صريحة، ولم تكن تختار كلماتها. وكانت لديها أفكار ديمقراطية، استغرقت بعض الوقت للتعود عليها.

في أعلى المنزل كانت هناك علية كبيرة مقسمة. وإذا ما صعدت السلالم، ثم مررت بمحاذاة الغرفة التي ننام فيها، ونزلت بعض السلالم الأخرى، ستجد نفسك في غرفة التجفيف. كانت تصطف فيها الحبال، وتحوي العديد من النوافذ الصغيرة التي تفتح تحت المزاريب. تمر مدخنة المطبخ -أيضًا- من خلال هذه الغرفة، التي كانت تستخدم لتجفيف الملابس في الشتاء، وعندما تمطر في الخارج.

كقاعدة عامة، لم نكن لنغسل إذا كان الطقس غير مطمئن. لكنّ اليوم -وخصوصًا في الصيف- يمكن أن يبدأ صحوًا ثم يغيم على حين غرة، ويرعد ويمطر. وكانت العواصف الرعدية عنيفة للغاية، بهزيم الرعد القوي، ووميض البرق الملتهب، حتى لتحسب أن نهاية العالم قد حانت. شعرت بالرعب حين شهدتها أول مرة، واختبأت تحت الطاولة وبدأت في البكاء، وقالت ماري إن هذا لا شيء، مجرد عاصفة رعدية. لكن بعد ذلك أخبرتني عدة قصص عن رجال كانوا في حقولهم أو حتى في حظائرهم عندما ضربهم البرق وأرداهم ميتين، وكذلك عن بقرة كانت تقف تحت شجرة.

عندما نكون قد علقنا الغسيل وبدأت القطرات الأولى في التساقط، كنا نأخذ السلال ونهرع لجمعها بأقصى سرعة ممكنة، ثم نصعد بها عبر الدرج ونعلّقها من جديد في غرفة التجفيف، إذ لا يمكن تركها في السلال لفترة طويلة خشية أن يصيبها العفن الفطري. لقد أحببت رائحة الغسيل المجفف في الخارج، كانت رائحة طازجة. وكانت القمصان وملابس النوم ترفرف في نسيم يوم مشمس مثل الطيور البيضاء الكبيرة، أو الملائكة المبتهجة، على الرغم من افتقارها للرؤوس.

لكن عندما نعلق نفس الأشياء في الداخل، في الشفق الرمادي لغرفة التجفيف، فإنها تبدو مختلفة، مثل أشباح شاحبة -تشبه أصحابها- تحوم وتلوح في كآبة. وكانت أشكالها -وهي صامتة، وبلا أجساد- تجعلني خائفة. وسرعان ما اكتشفت ماري ذلك، والتي كانت لماحة في مثل هذه الأمور، وكانت تختبئ خلف الشراشف، وتضغط عليها بحيث يظهر تشكيل وجهها، وتصدر أصوات أنين. أو تقف خلف ملابس النوم وتجعل لها أذرعًا متحركة. كانت تهدف إلى إخافتي، وكانت تنجح، فأصرخ مذعورة. ومن ثم كنا نطارد بعضنا البعض بين صفوف الغسيل، نصرخ ونضحك، محاولتين ألّا نفعل ذلك بصوت عالٍ جدًا، وإذا أمسكتها فإني أثب عليها وأدغدغها، حيث كانت حساسة للدغدغة. وكنا في بعض الأحيان نجرب مشد السيدة باركنسون فوق ملابسنا، ونتجول بصدرينا المدفوعين إلى الأمام، وننظر بأنف مرفوع. وكنا ننجح في تقليدها حتى نسقط إلى الخلف في سلال البياضات، ونستلقي هناك لنلتقط أنفاسنا بفمين مفتوحين كسمكة، إلى أن نستعيد وجهينا المعتدلين مرة أخرى.

إنها روح الشباب، التي لا تتّخذ دائمًا شكلًا نبيلًا. وأنا على يقين -سيدي- أنك لاحظت ذلك في نفسك في بعض الحالات.

كانت السيدة باركنسون تخزن عددًا من الأغطية يفوق الذي رأيته في حياتي كلها. إذ لم تكن هذه الموضة على الجانب الآخر من المحيط، والأقطان المطبوعة ليست رخيصة ولا وافرة. قالت ماري إن الفتاة هنا لا يمكن أن تعدّ نفسها جاهزة للزواج إلى أن يكون لديها ثلاثة أغطية كتلك، تصنعها بيديها. أما الأكثر روعة فهي أغطية الزواج، من نمط شجرة الفردوس وسلة الزهور. الأنماط الأخرى مثل (مطاردة الإوز البري)، (وصندوق بندورا) يحوي العديد من القطع الجيدة، ويتطلب مهارة. أما الأنماط من نوع (كوخ الخشب)، (والرقع التسعة)، فكانت للاستخدام اليومي، وكان إنجازها أسرع بكثير. لم تبدأ ماري في صنع غطاء زواجها بعد، إذ لم يتوفر لديها الوقت، كونها خادمة. لكنها أنهت بالفعل غطاء (الرقع التسع).

في يوم صحو في منتصف سبتمبر، قالت السيدة هوني إن الوقت قد حان لإخراج لحف وأغطية الشتاء، لتهويتها استعدادًا للطقس البارد. وتصليح الشروخ والرقع. وأعطت هذه المهمة لي ولماري. كانت الأغطية مخزنة في العلية، بعيدًا عن غرفة التجفيف، لتجنب الرطوبة. في صندوق من خشب الأرز يفصل بينها شرشف من الموسولين، وكافور كافٍ حتى للقضاء على القطط. وقد جعلتني رائحته خفيفة الرأس. كان علينا أن نحملها إلى الأسفل ونعلقها على حبال الغسيل في الخارج، ونفرشها ونرى ما إذا كان العث قد وصل إليها. ففي بعض الأحيان يدخل العث بالرغم من صندوق خشب الأرز والكافور. أغطية الشتاء كانت مبطنة بالصوف بدل القطن كما هو الحال مع أغطية الصيف.

كانت أغطية الشتاء ذات ألوان أغمق من ألوان الصيف، بالأحمر والبرتقالي والأزرق والبنفسجي. وبعضها يحوي قطعًا من الحرير والمخمل والديباج. على مرّ سنوات السجن، وعندما أكون لوحدي، كما هو الحال معظم الوقت، أغلق عيني وألقي برأسي نحو الشمس، وأرى الأحمر والبرتقالي الساطع كسطوع تلك الأغطية. وعندما كنا نعلق نصف دزينة منها على التوالي فوق الحبل، أراها شبيهة بالأعلام، يعلقها الجيش في طريقه إلى الحرب.

ومنذ ذلك الحين وأنا أفكر لماذا اختارت النساء خياطة مثل تلك الأعلام، ووضعها على الأسرة؟ ألجعل السرير محط الانتباه من الغرفة. ثم فكرت: إنه تحذير. قد تعتقد أن السرير قطعة مسالمة -سيدي- وهو قد يعني لك الراحة والاستجمام وليلة من النوم الجيد. لكنه ليس كذلك بالنسبة للجميع. وهناك العديد من الأشياء الخطيرة التي قد تحدث في السرير. إنه المكان الذي نولد فيه، وهذا هو أول تهديدات الحياة، وهو المكان الذي تلد فيه النساء، وهو غالبًا ما يكون الأخير بالنسبة لهن. وهو حيث يتم الفعل بين الرجال والنساء، الفعل الذي لن أسميه -سيدي- لكني أفترض أنك تعرفه. يسميه البعض حبًا، ويسميه آخرون يأسًا، أو ربما كان مجرد إذلال يجب أن يمروا به. والأسرة أخيرًا موضع نومنا، وحيث نحلم، وحيث نموت في كثير من الأحيان.

ولكن لم تتكون لدي هذه الخيالات بشأن الأغطية إلا بعد أن أصبحت في السجن. حيث لديك الكثير من الوقت للتفكير، ولا أحد لتخبره بما تفكر فيه، وهكذا تخبر بها نفسك.

هنا طلب مني الدكتور جوردن أن أتوقف قليلًا حتى يتمكن من تسجيل ما أقول. لأنه مهتم كثيرًا بهذا الربط. كنت سعيدة، إذ استمتعت بالحديث عن تلك الأيام، لو كان الأمر عائدًا لي، لبقيت فيها بقدر ما أستطيع. لذلك أنتظر، وأراقب يده تتحرك على الورق، وأعتقد أنه من اللطيف أن يكون لك موهبة الكتابة السريعة، والتي لا يمكن أن تكتسب إلا بالممارسة، مثل العزف على البيانو. وأتساءل -وأنا محتجزة في زنزانتي- عمّا إذا كان له صوت جميل، وما إذا كان يغني -في ثنائيّ- مع السيدات الشابات في المساء. إنه يفعل ذلك على الأرجح، فهو وسيم بما يكفي، ودود، وغير متزوج.

- وإذًا غريس -يقول ناظرًا إلى أعلى- فأنت تعتبرين السرير مكانًا خطيرًا؟

هناك رنة مختلفة في صوته. ربما كان يضحك عليّ في سره. لا ينبغي لي التحدث معه بحرية تامة، فأقرر أنني لن أفعل بعد الآن، ما دامت هذه هي النبرة التي سيتخذها.

- بالطبع ليس دائمًا -سيدي- فقط في المناسبات التي ذكرتها. أقول ذلك ثم أبقى صامتة، وأواصل الخياطة.

- هل أسأت إليك بطريقة ما غريس؟ إن حدث ذلك فهو عن غير قصد.

أخيط في صمت لبعض الوقت، ثم أقول:

- سأصدقك يا سيدي، وأتصرف بناءً على ثقتي في كلمتك. وآمل أن أقابل بالمثل في المستقبل.

- بالطبع، بالطبع -يقول بحرارة- أرجو أن تواصلي قصتك. ما كان ينبغي لي أن أقاطعك.

- من المؤكد أنك لا تريد الاستماع للأمور العادية، وتفاصيل الحياة اليومية.

- سأستمع لأي شيء تتحدثين عنه غريس. التفاصيل الصغيرة للحياة غالبًا ما تخفي أمورًا في غاية الأهمية.

لست متأكدة مما يعنيه بذلك، لكنّني أتابع.

في النهاية كنا نحمل كل الأغطية ونعلقها في الشمس، ونمشطها بالفرشاة. وأخذنا اثنين منها ثانية إلى الداخل من أجل إصلاحهما. بقينا في غرفة الغسيل -إذ لم يكن يجري أي غسيل حينها- لأنها أبرد من العلية. وكانت فيها طاولة كبيرة حيث يمكننا نشر الأغطية.

كان أحدها غريب المظهر. بأربع جرار رمادية وأربع أشجار صفصاف خضراء تنمو خارجة منها، وحمامة بيضاء في كل زاوية، أو ما قصدوا أن يكون حمامًا، مع أنها أشبه بالدجاج. وكان اسم امرأة مطرّزًا -في الوسط- باللون الأسود: فلورا. وقالت ماري إنه غطاء تذكاري، خاطته السيدة باركنسون في ذكرى رحيل صديقة عزيزة، كما كانت الموضة.

أما الغطاء الآخر فكان يدعى (نوافذ العلية) كان يحوي الكثير من القطع. إذا نظرت إليه من زاوية ما فيمكنك رؤية صناديق مغلقة، فيما تبدو الصناديق مفتوحة من زاوية أخرى، وأفترض أن الصناديق المغلقة كانت تمثل العلية، أما المفتوحة فتمثل النوافذ. تشترك الأغطية جميعها في هذا الأمر، حيث يمكنك رؤيتها بطريقتين مختلفتين، بتركيز النظر على القطع الغامقة أو الفاتحة. لكن عندما أخبرتني ماري اسم النمط، لم أسمعه بشكل صحيح، وظننتها قالت «أرامل العلية.» وقلت: «أرامل؟» إنه اسم غريب جدًا لغطاء سرير. ثم أخبرتني ماري الاسم الصحيح، فأصبنا بنوبة من الضحك، لأننا صورنا العلية مليئة بالأرامل، في ثيابهن السوداء، وقبعات الأرامل، والبكّاءات يمسكن رؤوسهن، ويصطنعن وجوه الحداد، ويعصرن أيديهن. يكتبن الرسائل على ورق الكتابة المؤطر بالحدود السوداء، يربتن على عيونهن بمناديلهن ذات الحدود السوداء. قالت ماري: إن الصناديق والخزائن في العلية ستحشى عن آخرها بخصل شعر أزواجهن المتوفين. وقلت: وربما يكون أزواجهن الأعزاء المتوفّون في الصناديق أيضًا.

أعادنا هذا لنوبة الضحك مرة أخرى، ولم نستطع التوقف إلى أن سمعنا السيدة هوني ومفاتيحها تصلصل عبر القاعة. دفنا وجهينا في الأغطية، وبحلول الوقت الذي فتحت فيه الباب، استعادت ماري هدوءها، أما أنا فقد كان وجهي للأسفل وكتفي تهتزان. سألتنا السيدة هوني: ما الأمر يا فتيات؟ وقفت ماري وقالت: عذرًا سيدة هوني لكن غريس كانت تبكي أمها الميتة، وقالت السيدة هوني: حسنًا إذًا، يمكنك أخذها إلى المطبخ لتناول فنجان من الشاي، لكن ليس عليّ البقاء هكذا لأمد طويل، وقالت إن الفتيات الصغيرات يملن لأن يكن بكّاءات في كثير من الأحيان، لكن على ماري ألّا تتساهل معي، وتسمح لي بالخروج عن السيطرة. وعندما خرجت أمسكنا ببعضنا، وضحكنا كثيرًا حتى كدنا نموت ضحكًا.

الآن قد تظن أن الضحك من الأرامل أمر طائش. ووجب أن تنبهني تجربة وفاة أمي، إلى أنه ليس موضوعًا للتندر. ولو وُجدت أرامل بالجوار ما كنا سنفعلها، لأن السخرية من معاناة شخص آخر أمر خطأ. ولكن لم تكن حولنا أرامل لسماعنا، وكل ما يمكنني قوله -سيدي- هو أننا كنّا فتاتين صغيرتين، وغالبًا ما تكون الفتيات الصغيرات سخيفات على هذا النحو. ومن الأفضل أن تضحك بدل أن تنفجر.

ثم فكرت بالأرامل: أسنمة الأرامل، ومشية الأرامل، والفلس الذي تصدقت به الأرملة في الكتاب المقدس. والذي نحث دائمًا -نحن الخدم- على تقديمه للفقراء من أجورنا. فكرت -أيضًا- كيف يغمز الرجال ويتبادلون الإيماءات عندما تذكر أرملة شابة وغنية، وكيف أن الأرملة تكون محترمة إذا ما كانت عجوزًا فقيرة، ويحدث العكس إن كانت خلاف ذلك. وهو أمر غريب جدًا إذا ما تأمّلته.

كان طقس سبتمبر جميلًا، بأيام مثل الصيف. ثم في أكتوبر، تحولت العديد من الأشجار إلى اللون الأحمر والأصفر والبرتقالي، كما لو كانت مشتعلة، ولم أستطع التوقف عن النظر إليها. وبعد ظهر أحد الأيام قرب المساء، كنت في الخارج مع ماري نجمع الشراشف عن الحبال، وسمعنا شيئًا مثل أصوات غليظة تنادي بعضها، وقالت ماري: انظري إلى الأعلى، إنه الإوز البري الذي يهاجر جنوبًا في الشتاء. كانت السماء مكتظة بها حتى إنّها أعتمت، وقالت ماري إن الصيادين

سيخرجون لها صباح الغد. وكان من المحزن التفكير في أن هذه المخلوقات البرية على وشك أن تتعرض لطلقات النار.

في ليلة بأواخر أكتوبر حدث لي شيء مخيف. ما كنت لأخبرك به سيدي، لولا أنك طبيب، والأطباء يعرفون ذلك على أي حال، لذلك لن تصدم. كنت أستخدم وعاء الحجرة، إذ كنت في ثوب النوم وعلى استعداد للذهاب إلى الفراش، لذلك لم أشأ الذهاب إلى الحمام الخارجي في الظلام. وعندما نظرت إلى أسفل، وجدت دمًا، ووجدت بعضه في ثوب النوم أيضًا. كنت أنزف من بين ساقي، واعتقدت أنني أموت، فانفجرت بالبكاء.

وجدتني ماري على هذه الحال عندما دخلت الغرفة. فسألتني ما الذي حدث؟ وقلت إنّني مصابة بمرض مرعب، سيقتلني بالتأكيد. كنت أشعر بألم في معدتي أيضًا، لكني تجاهلته إذ عزوت الأمر إلى تناولي الكثير من الخبز الجديد الذي أعددناه ذلك اليوم. لكني تذكرت أمي حينها، وكيف أن موتها بدأ بآلام المعدة، فزاد بكائي.

نظرت ماري، ولأعترف بجميلها فهي لم تضحك عليّ، بل شرحت كل شيء بهدوء. سوف تتعجب من أنني لم أكن أعرف، بالنظر لعدد الأطفال الذين أنجبتهم أمي. لكن الحقيقة أنني عرفت كيف يخرج المواليد، وكيف يوجدون، كوني رأيت كلابًا تفعلها في الشارع، ولكني لم أعرف أبدًا عن هذا الشيء الآخر. أفترض أنه لو كان لي صديقات في عمري، لكنت عرفت عنه.

وقالت ماري إنني أصبحت امرأة الآن، ممّا دفعني إلى البكاء مرة أخرى. لكنها وضعت ذراعيها حولي، وطمأنتني، أفضل ممّا كانت أمّي ستفعل، فهي إما مشغولة جدًا أو متعبة أو مريضة. ثم أعارتني تنورتها الداخلية من الفلانيل الأحمر، إلى أن أحوز تنورتي الخاصة، وأوضحت لي كيف أطوي وأثبت القماش. وقالت إنّ البعض يطلق عليها لعنة حواء، لكنها وجدته أمرًا غبيًا، إذ إنّ لعنة حواء الحقيقية هي اضطرارها لتحمل هراء آدم، الذي يلومها على كل ما يقع. وقالت أيضًا إنها ستعطيني بعض لحاء الصفصاف لمضغه، في حال اشتد الألم، فهذا من

شأنه تخفيفه، أو ستسخن طوبة على موقد المطبخ وتلفها بمنشفة. وكنت ممتنة للغاية، فهي صديقة لطيفة وطيبة حقًا.

ثم أجلستني ومشطت شعري، الأمر الذي كان لطيفًا ومهدّئًا. وقالت: غريس سوف تكونين جميلة، وسرعان ما ستديرين رؤوس الرجال. أسوؤهم السادة، الذين يعتقدون باستحقاقهم لأي شيء يريدونه. وعندما تخرجين للمرحاض ليلًا، يكونون قد شربوا واستلقوا في انتظارك. بعدها كل ما يحتاجه الأمر هو انتهاز وانتزاع. إنهم بلا منطق، فإذا وجدت نفسك مضطرة، فعليك بركلة بين سيقانهم حيث يمكنك إيذاؤهم بسهولة. ومن الأفضل دائمًا إيصاد الباب، واستخدام وعاء الغرفة. لكن أيًا يكن نوع الرجال، فجميعهم يحاول ذلك. يبدؤون بتقديم الوعود، يدّعون أنّهم سيفعلون ما تريدين، ولكن يجب أن تكوني حذرة جدًا في ما تطلبين، ويجب عليك ألّا تفعلي أي شيء من أجلهم حتى ينفّذوا ما وعدوا به. وإذا ما حضر الخاتم، فيجب أن يكون هناك قس برفقته.

سألتها ببراءة: لم ذلك؟ وقالت إن ذلك يعود إلى كون الرجال كذابين بطبيعتهم، ويقولون أي شيء لنيل ما يريدون منك، وبعد ذلك يفكرون في أنها لم تكن فكرة صائبة، ويرحلون على القارب التالي. حينها لاحظت أنها القصة نفسها التي أخبرتني بها العمة بولين عن والدتي، فهززت رأسي بحكمة وقلت إنها على حق. مع أني لست متأكدة تمامًا مما تعنيه. عانقتني، وقالت إنني فتاة جيدة.

في ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر، وهي كما تعلم -سيدي- ليلة الهالووين. حيث تعود أرواح الموتى من القبور، كما تقول الخرافة. قدمت ماري إلى الغرفة في تلك الليلة مخبئة شيئًا ما تحت مئزرها. قالت: انظري... جلبت لنا أربع تفاحات، توسلت كوك للحصول عليها. كان التفاح وفيرًا في ذلك الوقت من السنة، وكانت هناك براميل منها مخزنة في القبو. قلت: أوه، أهي لنا لنأكلها؟ وقالت إننا سوف نأكل منها لاحقًا، ولكن هذه هي الليلة التي يمكننا أن نعرف فيها من سنتزوج. وقالت إنّها جلبت أربعًا، بحيث تكون لكل منا فرصتان.

أرتني سكينًا صغيرة حصلت عليها من كوك أيضًا، أو هذا ما ادّعته. والحقيقة

أنها -في بعض الأحيان- تأخذ الأشياء دون إذن، الأمر الذي وترني. فهي تعتقد أنها لا تعد سرقة ما دمت تعيد الأشياء إلى مكانها مرة أخرى. لكنها أحيانًا لا تفعل ذلك حتى. أخذت من المكتبة، نسخة من ديوان سيدة البحيرة للسير والتر سكوت. حيث كان لديهم خمس منها. وكانت تقرؤه لي بصوت عالٍ. وكان لديها مخزن من الشموع التي أخذتها واحدة تلو الأخرى من غرفة الطعام، وخبأتها تحت أحد ألواح الأرضية المتزعزع. ولو أنها حصلت عليها بإذن، لما اضطرت إلى ذلك. سمح لنا بالحصول على شمعتنا الخاصة؛ لخلع ملابسنا ليلًا. لكن السيدة هوني قالت إننا نشعلها بإسراف، فيفترض بكل شمعة أن تدوم أسبوعًا، وكان ذلك المقدار من الضوء أقل من أن يفي بحاجة ماري. كان لديها بعض أعواد ثقاب من نوع لوسيفر والتي أبقت عليها مخفيةً أيضًا، وعندما تطفأ شمعتنا الرسمية لادّخارها، كان بإمكانها إضاءة أخرى متى أرادت. وقد أضاءت الآن فتيل شمعتين من شموعها.

خذي السكين والتفاح -قالت- يجب عليك تقشيرها مرة واحدة دون قطع القشرة. ثم عليك رميها -دون أن تنظري- من وراء كتفك الأيسر. وسوف يتشكل الحرف الأول من اسم الرجل الذي ستتزوجينه، وستحلمين به الليلة.

كنت أصغر من أن أفكر في زوج، لكن ماري كانت تتحدث كثيرًا عن الأمر. عندما تدخر ما يكفي من أجرها، ستتمكن عندها من الزواج بمزارع شاب لطيف، يملك أرضًا صالحة، وبيتًا مبنيًا عليها. وإذا لم تستطع الحصول على مثل هذا الزوج، فستقبل بالاستقرار مع زوج في كوخ خشبي إلى أن يبنيا بيتًا أفضل لاحقًا. حتى إنّها تعرف نوع الدجاج والبقر الذي سيمتلكانه، كانت تريد دجاجات ليغوورن بيضاء وحمراء، وبقرة جيرزي للقشدة والجبن، والتي قالت إنها الأفضل لهذا الغرض.

لذا أخذتُ التفاحة وقشّرتها، وتمكنت من انتزاع القشرة كاملة في قطعة واحدة. ثم ألقيتها ورائي، ونظرنا إلى الشكل الذي اتخذته بعد سقوطها. لم تكن هناك قاعدة تحدد أي طرف هو الأعلى، ولكن في النهاية قررنا أنها كانت ج. وبدأت ماري بإغاظتي، وسرد أسماء جميع الرجال الذين تعرفهم ممّن تبدأ

أسماؤهم بحرف الجيم. وقالت لي إنّني سأتزوج جيم من الإصطبلات، الذي كان لديه حوَل في عينيه، ورائحة فظيعة. أو جيرمايا، البائع المتجول، الذي كان أوسم منه، على الرغم من أني سأضطر للتجول على طول البلاد، ولن يكون لي بيت غير الحقيبة التي أحملها على ظهري مثل الحلزون. وقالت إنني سأقطعُ البحر ثلاث مرات قبل أن يحدث ذلك. وقلت إنها كانت تخترع كل هذا، فابتسمتْ، لأنني خمنتُ أنها خدعتني.

ثم جاء دورها، وبدأت في التقشير. لكن قشر أول تفاحة قطعت قبل أن تنتهي، وأيضًا الثانية. وأعطيتها تفاحتي الإضافية، لكنها كانت متوترة للغاية حتى إنّها قطعتها إلى قسمين فور أن بدأت. ثم ضحكت، وقالت إنها مجرد قصة قديمة ساذجة تحكيها العجائز، وأكلتُ التفاحة الثالثة، ووضعت الاثنتين المتبقّيتين على حافة النافذة للاحتفاظ بهما حتى الصباح، وأكلت تفاحتي أنا أيضًا. وحوّلنا الموضوع للسخرية من مشد السيدة باركنسون. لكنها كانت مستاءة تحت كل ذلك الهزل.

وعندما ذهبنا للنوم، شعرت أنّها لم تغفُ، بل استلقت على ظهرها بجانبي، تحدق في السقف. وعندما غفوت، لم أحلم بأي زوج على الإطلاق. حلمت بدلًا من ذلك بأمي الملتحفة بشرشفها، ذي اللون الأزرق المخضر، تهوي إلى الأسفل عبر الماء البارد. وبدأ الشرشف يرتخي من الأعلى، ويرفرف كما لو كانت تحركه الريح، وطفا شعرها، وتموج مثل الأعشاب البحرية. لكن الشعر غطّى وجهها فلم أتمكن من رؤيته، وكان أقتم من شعر أمي الذي تعوّدته. ثم فهمت أنها ليست والدتي على الإطلاق، بل امرأة أخرى، ولم تكن ميتة داخل شرشفها بل ما زالت على قيد الحياة.

استيقظت خائفة بقلب ينبض بسرعة كبيرة، وجسمٍ مغطًّى بالعرق البارد. لكن ماري كانت نائمة حينها، تتنفس بعمق. في الخارج كان ضوء الفجر الرمادي والوردي قد ظهر، والديوك بدأت بالصياح، وكل شيء كالمعتاد. فأشعرني ذلك بتحسن.

20

استمرت الأمور هكذا خلال نوفمبر، سقطت الأوراق عن الأشجار، صارت تُظلم في وقت مبكر، والطقس قاتمٌ ورمادي، مع أمطار شديدة. ثم جاء ديسمبر وتجمدت الأرض بصلابة كالصخر، وتساقطت ندف الثلج. كانت غرفة العلية التي نقطنها باردة للغاية، خصوصًا في الصباح، عندما نضطر للنهوض في الظلام ووضع أقدامنا الحافية على سطح الأرضية المتجمدة. وقالت ماري إنه عندما يصبح لديها منزلها الخاص، ستضع سجادة من القماش المضفر بجانب كل سرير، وسيكون لديها زوج من نعل اللباد الدافئ. كنا نأخذ ملابسنا إلى السرير معنا لتدفئتها أوّلًا، ونلبس ملابس تحتيّة قبل لبس ملابس النوم، وفي الليل كنا نسخّن الطوب على الموقد، نلفها في الفلانِيل ونضعها في السرير، حتى لا تتحول أصابع أقدامنا إلى جليد. وكان الماء الموجود في حوضنا باردًا جدًا على نحو يطلق الألم في الذراع كاملة عند غسل اليدين. سعدت لأنني لستُ وحيدة في السرير.

لكن ماري قالت إن هذا لا يعد شيئًا مقارنة بالشتاء الحقيقي الذي لم يصل بعد، فهو أبرد بكثير. وكانت الحسنة الوحيدة لذلك هي أنهم سيضطرون إلى إشعال مواقد المنزل لفترة أطول. كنا محظوظين بكوننا خدمًا -في النهار على الأقل- لأن بإمكاننا تدفئة أنفسنا في المطبخ، في حين أن غرفة الجلوس كانت باردة كحظيرة، ولا يمكنك الاستفادة من حرارة الموقد إلا إذا وقفت بجانبه. وعندما تكون السيدة باركنسون وحيدة في الغرفة، فإنها ترفع تنورتها أمامه لتدفئة مؤخرتها. وفي الشتاء الماضي، اشتعلت تنورتها وحين سمعت أغنيس الصراخ، هرعت إليها وارتعبت لدرجة الهستيريا. ألقيت بطانيةٌ على السيدة باركنسون ودِحرجها جيم -فتى الإصطبل- على الأرض مثل برميل. لحسن الحظ أنها لم تحترق، لكنّ النار لفعتها قليلًا بشيء من السمرة.

في منتصف ديسمبر، أرسل والدي شقيقتي المسكينة كيتي تتوسل للحصول على شيء من أجري، دون أن يأتي بنفسه. شعرت بالأسف على كيتي، حيث إنها تحمل الآن الأعباء التي كانت على عاتقي في يوم من الأيام. أدخلتها المطبخ وأدفأتها

بالموقد، وسألت كوك أن تعطيني قطعة خبز لها، وبالرغم من احتجاجها أنّها ليست مسؤولة عن إطعام جميع الأيتام الجائعين في البلدة، فقد أعطتها قطعة في النهاية. بكت كيتي وقالت إنها تتمنى عودتي للمنزل مرة أخرى. أعطيتها ربع دولار، وأوصيتها بإخبار والدي أن هذا هو كل ما لدي. وهو -وأنا آسفة على ذلك- ما لم يكن صحيحًا. لكنني توصلت إلى أنني لم أكن مدينة له بشيء. وأعطيتها عشرة سنتات لنفسها، وقالت إنها ستدّخرها للضرورة، على الرغم من أنّها كانت في حاجة ماسة لها. أعطيتها أيضًا ثوبًا نسائيًا لي كان قد أصبح صغيرًا علي.

قالت إن والدي لم يعثر على عمل ثابت، مجرد وظائف عرضية، ومن المحتمل أن يذهب شمالًا ذلك الشتاء، لقطع الأشجار. وقد وصلته أخبار عن بعض الأراضي غير المملوكة في الغرب، التي سنذهب إليها فور أن يأتي الربيع. وهو ما فعله، فقد أتت السيدة بيرت فجأة، وقالت إن والدي ذهب دون أن يدفع ولو القليل من مستحقاتها. في البداية أرادتني أن أعوضها، لكنّ ماري أخبرتها أنه لا ينبغي إجبار فتاة في الثالثة عشر على سداد دين رجل بالغ. لم تكن السيدة بيرت قاسية القلب، وفي النهاية قالت إنه ليس خطئي.

لا أعلم ما الذي حدث لأبي وللأطفال. لم أستلم أي رسالة منهم، ولم أسمع أي شيء عنهم أثناء المحاكمة.

***

ارتفعت الروح المعنوية مع قدوم الأعياد. أوقدت النار بشكل أكبر، سلم البقال سلالًا من البضائع، وقطعًا كبيرةً من اللحم البقري، وذبيحة خنزير من الجزار، كان من المفترض أن تشوى كاملة. وقد ضج المطبخ بالتحضيرات. استُدعينا -ماري وأنا- لتقديم المساعدة بعيدًا عن الغسيل، فخفقنا وخلطنا مع كوك، وقشرنا وقطعنا التفاح، وصفينا الزبيب والكشمش، وبشرنا جوزة الطيب، وخفقنا البيض كما يجب، وقد أعجبنا ذلك كثيرًا، حيث كانت هناك فرصة لنتذوق من هنا ونقضم من هناك، وكشطنا السكر لأنفسنا كلما وسعنا ذلك، دون أن تلاحظ كوك أو تقول أي شيء، فقد كان بالها مشغولًا بالكثير من الأمور.

كنت وماري من أعد الطبقة السفلية لجميع فطائر اللحم المفروم، لكن كوك أعدت الطبقة العليا، قالت إنها يجب أن تحضّر بطريقة فنية، نحن أصغر من أن نتقنها. وقطعتها على شكل نجوم، وتصاميم أخرى رائعة. وسمحت لنا بإزالة طبقة الموسولين التي تحيط بكعكات عيد الميلاد، وصب البراندي والويسكي، ومن ثم تغليفها ثانية. وكانت رائحتها من أجمل الروائح التي أتذكرها.

كنا مطالبين بإعداد الكثير من الفطائر والكعك، إذ كان ذلك موسم الزيارات، ودعوات العشاء والسهرات وحفلات الرقص. عاد ابنا الأسرة الاثنان إلى البيت من هارفارد ببوسطن. كان اسماهما السيد جورج والسيد ريتشارد، وقد بدا كلٌّ منهما لطيفًا وطويلًا إلى حد ما. لم أعرهما كثيرَ اهتمامٍ، فهما من منظوري لم يحضرا إلّا ليحضر معهما المزيد من الغسيل، والمزيد من القمصان التي يجب تسويتها وكيها. لكن ماري كانت تسترق النظر من نافذة الطابق العلوي إلى الفناء لمعرفة ما إذا كان بإمكانها التقاط لمحة لهما وهما يركبان خيولهما، أو تنصت لهما في الممر وهما يغنّيان في ثنائي مع السيدات المدعوات. وأعجبتْ خصوصًا بأغنية (وردة ترالي)، لأنها تذكر اسمها، حيث تقول الأغنية: أوه لا، كانت الحقيقة تبزغ في عينيها، وهذا ما جعلني أحب ماري، وردة ترالي. كان لها صوت جميل أيضًا، وكانت تحفظ الكثير من الأغاني عن ظهر قلب. وكانا يأتيان في بعض الأحيان إلى المطبخ ويدفعانها إلى الغناء. وتدعوهما الفتية اللعوبين، على الرغم من أنهما كانا يكبرانها بسنوات.

أهدتني ماري في يوم الميلاد، زوجًا من القفازات الدافئة التي حاكتها بنفسها. رأيتها تعمل عليها، لكنها كانت تخبرني -بمكر- أنها لصديقة صغيرة. ولم أفكر أبدًا أن صديقتها الصغيرة كانت أنا. كانت باللون الأزرق الغامق، مطرزة بالزهور الحمراء. وأعطيتها محفظة إبر صنعتها من خمس مربعات من الفلانِيل الأحمر، خيطت معًا. وعقدت بشريطين. فشكرتني ماري، ومنحتني عناقًا وقبلة، وقالت إنها أفضل محفظة إبر في العالم، وليس بالإمكان شراء شيء مثلها من المتاجر، ولم يسبق لها أن شاهدت شيئًا مثلها، وسوف تحتفظ بها للأبد.

سقطت الثلوج بغزارة ذلك اليوم، وكان الناس على زلاجاتهم، معلقين

أجراسًا على الخيول، وكانت أصواتها جميلة جدًا. وبعد أن تناولت العائلة عشاء عيد الميلاد، أكل الخدم. حُضِّر ديك رومي وفطائر لحم مفروم خاصة بهم، وغنينا بعض التراتيل معًا، وكنا سعداء. كان هذا أسعد عيد ميلاد قضيته على الإطلاق، سواء قبل أو بعد ذلك.

عاد ريتشارد إلى الكلية بعد الأعياد مباشرة، لكن السيد جورج بقي في المنزل. أصيب ببرد وصل إلى رئتيه، وكان يسعل كثيرًا. وكان السيد والسيدة باركنسون يتجوّلان بوجهيهما الطويلين. وقد قدم الطبيب، وهو ما أرعبني. قيل إنه لم يكن مصابًا بالسل، مجرد نزلة برد مع حمّى وألم أسفل الظهر، ويجب أن يرتاح، ويتناول المشروبات الساخنة. وقد أُمدّ بها بوفرة، لأنه كان مفضّلًا لدى الخدم. وسخنت ماري كرات من الحديد على الموقد، والذي قالت إنه أفضل علاج لألم الظهر، إذا وضِع على مكان الألم. وأخذتها له.

كان الوقت منتصف فبراير حين تحسنت صحته. ولأنه فوّت الكثير من الدروس، قال إنه سيبقى حتى الفصل الدراسي التالي. ووافقت السيدة باركنسون على ذلك، وقالت إنه بحاجة إلى استرداد عافيته. وهكذا كان هناك، وسط اهتمام الجميع، مع الكثير من الوقت بين يديه، والقليل ممّا يمكن أن يفعله، وهو وضع غير مبشر لشاب مليء الطاقة. لم يكن هناك نقص في الحفلات التي يذهب إليها، والفتيات التي يرقص معهن، وأمهاتهن اللاتي يخططن لحفل زفافه دون علمه. أخشى أنه كان مدللًا، ومتساهلًا مع نفسه. فإن كان العالم يعاملك جيدًا -سيدي- فستصدق أنك مستحق لتلك المعاملة.

كانت ماري محقة بشأن الشتاء. كان الثلج في وقت الميلاد ثقيلًا، لكنه كان مثل بطانية من الريش، وكان الهواء يصبح أدفأ بعد سقوطه، ليبدأ مزاح فتية الإصطبل عبر التراشق بكرات الثلج. وبما أنها كانت طرية، فقد كانت تتفتت عندما ترتطم بشيء.

لكن سرعان ما بدأ الشتاء الحقيقي، وبدأت الثلوج تنزل بجدية. هذه المرة لم تكن ناعمة بل صلبة، مثل قذائف صغيرة لاسعة من الثلج. كانت تدفع بريح

شديدة وعنيفة، وتراكمت في مجارٍ سميكة. وخشيت أننا سندفن أحياء. تكوّن الجليد على الأسقف، وكان عليك أن تحذر عند المرور تحته، لأنه يمكن أن يسقط عليك، وقد كانت قطعه حادة ومدببة. وكانت ماري قد سمعت عن امرأة قتلت بهذه الطريقة، حيث اخترق الجليد جسدها مثل سيخ. حين أصقعت في أحد الأيام، غطت كل فروع الأشجار بغطاء من الثلج، ولكن عندما أشرقت شمس اليوم التالي سطعت تحت الضوء مثل ألوف من الماسات. ولكن الأشجار كانت مثقلة بها، حتى إنّها كسرت العديد من الفروع. وكان العالم بأسره صلبًا وأبيض، وعندما أشرقت الشمس، كان شديد السطوع، بحيث يتوجب عليك أن تحمي عينيك، ولا تنظر إليها طويلًا.

بقينا في الداخل قدر المستطاع، خشية عضة البرد، خاصة في أصابع اليدين والقدمين. وكان الرجال يخرجون بالأوشحة المربوطة على آذانهم وأنوفهم، وكانت أنفاسهم تخرج سحابات. كانت لدى العائلة سجادات فرو في الزلاجة، وأغطية وعباءات، وذهبوا للزيارة. أما نحن فلم تكن لدينا مثل تلك الملابس الدافئة. وفي الليل نضع أنا وماري شالاتنا على أغطية الفراش، ونلبس جواربنا وقمصانًا إضافية للنوم. ولم نكن نحظى بالدفء بالرغم من كل ذلك. وبحلول الصباح تكون النار قد خمدت، وبرد الطوب الساخن، وكنا نرتعش مثل الأرانب.

في اليوم الأخير من فبراير تحسن الطقس إلى حد ما. وغامرنا بالخروج في مهمة. بعد أن غلفنا أقدامنا جيّدًا في أقمشة الفلانِيل، داخل الأحذية التي توسلنا فتية الإصطبل للحصول عليها، والتفعنا بأكبر عدد من الشالات التي أمكننا إيجادها أو اقتراضها، ومشينا حتى الميناء. كان متجمّدًا بصلابة، وقد تكدست كتل كبيرة وشرائح من الثلج مقابل الشاطئ. وقد أزيح الثلج عن مكان كانت السيدات والسادة يتزلجون عليه. كانت حركاتهم رشيقة، كما لو كانت السيدات يندفعن على عجلات تحت فساتينهن، وقلت لماري لا بدّ أن ذلك مبهج. كان السيد جورج هناك، منزلقًا على الثلج، ممسكًا بيد شابة في وشاح من الفراء، وحين رآنا، لوّح لنا مبتهجًا. سألتُ ماري إذا كانت قد تزلّجت من قبل، وقالت لا.

بدأت ألحظ تغييرًا في ماري في هذا الوقت. كانت غالبًا ما تتأخر في الذهاب إلى الفراش. وعندما تأتي لم تكن في مزاج للحديث. لا تسمع ما أقوله لها، لكن يبدو أنها تستمع إلى شيء آخر. وكانت تنظر باستمرار عبر المداخل، أو النوافذ، أو فوق كتفي. في إحدى الليالي عندما كانت تحسبني نائمة، رأيتها تخبئ شيئًا ملفوفًا بمنديل، تحت الأرضية حيث تحتفظ بالشموع وأعواد الثقاب. وعندما نظرتُ في اليوم التالي، بعد أن خرجت من الغرفة، وجدت أنه خاتم من الذهب. كان انطباعي الأول هو أنها سرقته، وهو أغلى من أي شيء سرقته من قبل، وسيكون الأمر سيئًا لو ضُبطت. على الرغم من عدم وجود أي حديث في المنزل عن خاتم مفقود.

لم تكن تضحك وتمزح كما كانت من قبل، ولم تُقبل على عملها بالطريقة الحيوية المعهودة. وأصبحت قلقة. لكن عندما سألتها إن كانت واقعة في المشاكل، ضحكت وقالت إنها لا تعلم من أين جئت بهذه الفكرة. وتغيرت رائحتها، من جوزة الطيب إلى السمك المملح.

بدأ الثلج والجليد بالذوبان، وعادت بعض الطيور، وعاودت غناءها ونداءاتها. فعرفت أن الربيع سيحل قريبًا. وفي أحد الأيام في أواخر مارس، عندما كنا نحمل الغسيل النظيف في السلال عبر السلالم الخلفية، لتعليقها في غرفة التجفيف، قالت ماري إنها مريضة. وركضت إلى الطابق السفلي خارجة إلى الفناء الخلفي، خلف المباني الملحقة. وضعت سلتي وتبعتها، تمامًا كما كنت، دون شالٍ حتى. ووجدتها جاثية على ركبتيها في الثلج الرطب قرب المرحاض، الذي لم يكن لديها الوقت للوصول إليه، حيث غلبها الغثيان.

ساعدتها على الوقوف، وكان جبينها رطبًا ودبقًا، وحين أخبرتها أنها يجب أن تكون في الفراش. غضبت، وقالت إنه مجرد شيء أكلته، لا بدّ أنها يخنة لحم الضأن الذي تناولته بالأمس، والآن ها قد تخلصت منه. لكنني تناولت الشيء نفسه، وأشعر أني بخير. لقد جعلتني أعدها بعدم الحديث عن ذلك، وقلت إنني لن أفعل. لكن عندما حدث الشيء نفسه بعد بضعة أيام، ومن ثم في صباح اليوم التالي، شعرت بالذعر. لأنني رأيت أمّي في مثل هذه الحالة في كثير من الأحيان،

وأعرف هذه الرائحة الحليبيّة. وكنت أعرف جيدًا علة ماري.

فكرت في الأمر، وقلبته في رأسي يمنة ويسرة. وبحلول نهاية أبريل استحلفتني بصرامة على أنها إذا ما أفضت لي، فإنني لن أفشي السرّ. لأنها كانت في حاجة ماسة للإفصاح لأحدهم، فقد كانت تضطرب في الليل، وكان لديها دوائر سوداء تحت عينيها، وكانت مرهقة بسبب عبء سرها. ثم انهارت وبكت، وقالت إن شكوكي صحيحة. وكان الرجل قد وعدها بالزواج، وأعطاها خاتمًا، ولمرة واحدة بطريقة ما صدقته، لأنها ظنت أنه ليس كغيره من الرجال. لكنه رجع عن وعده، وهو الآن لا يتحدث معها، وكانت في حالة من اليأس، لا تعرف ماذا تفعل.

سألتها من هو الرجل، لكنها لم تخبرني. وقالت إنهم فور أن يكتشفوا نوع المتاعب التي جلبتها، فستُبعَد، لأن السيدة باركنسون كانت ذات آراء صارمة للغاية. وعندها ما الذي سيحدث لها؟ بعض الفتيات في حالتها قد يرجعن إلى عوائلهن، لكن لا عائلة لها. والآن لن يتزوجها أي رجل محترم، وستضطر إلى العمل في الشوارع، وتصبح مومسًا للبحارة، لأنها لن تجد طريقة أخرى لإطعام نفسها وطفلها. وستحل نهايتها عاجلًا من وراء مثل هذه الحياة.

كنت حزينة عليها، وعلى نفسي أيضًا، لأنها كانت أعز أصدقائي -والوحيدة حقيقة- في هذا العالم. حاولت تهدئتها بأفضل طريقة ممكنة، لكنني لم أعرف ماذا أقول.

طوال شهر مايو، تحدثتُ وماري كثيرًا حول ما يجب عليها القيام به. قلت لا بد من وجود مأوًى أو شيءٍ من هذا القبيل يمكن أن يقبل بها. وقالت إنها لا تعرف أيًا منها، ولكن مع ذلك، فإن الفتيات اللاتي يذهبن إلى مكان من هذا النوع، يمُتن في النهاية، حيث يصبن بالحمى حالما يلدن هناك. وكانت تعتقد أن الرضع في هذه الأماكن يخنقون سرًّا، حتى لا يكونوا علة على ميزانية البلد وكانت تفضل أخذ فرصها في الموت في مكان آخر. ناقشنا كيف يمكن إجراء عملية الولادة بأنفسنا، وإبقاء الأمر سرًّا، إلى أن نرسله بعيدًا باعتباره يتيمًا. لكنها قالت إن حالتها ستصبح ظاهرة قريبًا، وللسيدة هوني عينان حادتان، وسبق أن لاحظت أن ماري كسبت

وزنًا مؤخرًا، ولم تستطع أن تأمل في أن تمضي طويلًا دون أن تكتشف.

قلت إنها يجب أن تحاول ولو مرة أخيرة التحدث مع الرجل صاحب الشأن، واستعطافه. وفعلت ذلك، ولكن عندما عادت من لقائه، الذي لا بد أن يكون قد وقع في مكان قريب، حيث لم تغب طويلًا، كانت غاضبة أكثر من أي وقت مضى. قالت إنه أعطاها خمسة دولارات. وقالت له أهذه هي قيمة طفله بالنسبة له؟ وقال إنها لن تصطاده بهذه الطريقة، وإنّه يشك حتى في كونه الأب، فقد كانت خدومة جدًا، حتى إنّه يشك في وجود آخرين، وإذا ما هددته بالفضيحة، أو ذهبت إلى عائلته، فسينكر ويدمر ما تبقى من سمعتها، وإذا ما كانت تريد نهاية سريعة لمعاناتها، فيمكنها إغراق نفسها في أي لحظة.

قالت إنها أحبته فعلًا، لكنها لم تعد. وألقت الخمسة دولارات على الأرض، وبكت بحرارة لمدة ساعة. لكنني رأيتها بعد حين تضع المال تحت اللوح المتزعزع.

في الأحد التالي قالت إنها لن تذهب إلى الكنيسة، لكن للتّنزه بمفردها. وعندما عادت، قالت إنها ذهبت إلى الميناء بنية إلقاء نفسها في البحيرة، ووضع حدٍّ لحياتها. وتوسلت لها بالدموع ألّا تقدم على مثل هذا الفعل الآثم.

قالت بعد يومين إنّها ذهبت إلى شارع لومبارد، وسمعت عن طبيب بإمكانه مساعدتها. إنه الطبيب الذي تلجأ إليه العاهرات حين يحتجن إلى ذلك. وسألتها عن الطريقة التي سيساعدها بها، فقالت إنه لا ينبغي عليّ أن أسأل. لم أعرف ما تعنيه، ولم أكن قد سمعت عن مثل هؤلاء الأطباء. وسألتُ إن كنت سأقرضها مدخراتي، التي بلغت في ذلك الوقت ثلاثة دولارات، والتي كنت أنوي أن أحصل بها على لباس صيفي جديد. وقلت إنني سأقرضها إياها من كل قلبي.

ثم أحضرت ورقة كتابة -حصلت عليها من المكتبة في الطابق السفلي- وقلمًا وحبرًا، وكتبت: إذا متّ، فإن كل ممتلكاتي تذهب إلى غريس ماركس. ووقعت عليها باسمها. ثم قالت: قد أموت قريبًا، لكنك ستظلين حية. وأعطتني نظرة باردة وساخطة، كالتي تعطيها الآخرين من وراء ظهورهم، كانت توجهها لي لأول مرة.

ذعرتُ كثيرًا، وأمسكت يديها، وتوسلت ألّا تذهب إلى ذلك الطبيب، أيًا

يكن. لكنها قالت إنها مضطرة، وعليّ ألّا أنفعل، بل عليّ أن أضع -سرًا- القلم والحبر مرة أخرى على درج الكتابة في المكتبة، وأتابع أعمالي. وغدًا ستتسلّل بعد وجبة منتصف النهار، وعليّ إذا ما سُئلت أن أقول إنها في المرحاض، أو في غرفة التجفيف، أو أي عذر آخر يخطر ببالي. ثم أتسلل بدوري وأنضم إليها فقد تواجه صعوبة في العودة إلى المنزل.

كلانا لم ننم جيدًا تلك الليلة. وفي اليوم التالي فعلت ما خططت له، وتمكنتْ من مغادرة المنزل دون شبهة، مع المال المعقود في منديلها. ثم تبعتها بعد فترة وجيزة، وانضممت إليها. كان الطبيب يعيش في منزل كبير، في حي جيد. دخلنا من مدخل الخدم. واستقبلنا الطبيب بنفسه. أول ما فعله هو عدّ النقود. كان رجلًا ضخمًا في معطف أسود، ينظر إلينا بقسوة. وأمرني أن أنتظر في غرفة غسل الأطباق، ثم قال إنني لو أخبرت عنه، فسينكر أنه رآني في حياته. ثم خلع معطف (الفروك) وعلّقه على خطاف الملابس، وبدأ في رفع أكمام قميصه، كما لو كان يستعدّ للقتال.

كان يشبه الطبيب الذي يقيس الرأس، والذي تسبب في نوبة ذعر لي، قبل قدومك إلى هنا.

ذهبت ماري معه خارج الغرفة، ووجهها في بياض الشراشف. ثم سمعت صراخًا وبكاءً، وبعد فترة دفعها الطبيب من خلال باب لغرفة الغسيل. كانت ثيابها رطبة بالكامل، والتصقت بها كضمادة مبلّلة. كانت بالكاد تستطيع المشي، فوضعت ذراعي حولها، وساعدتها -على قدر استطاعتي- للابتعاد عن ذلك المكان.

عندما وصلنا البيت كانت ملتوية على نفسها ويداها إلى بطنها. وطلبت مني مساعدتها للصعود إلى الطابق العلوي. وهو ما فعلته، وبدت ضعيفةً جدًا. فألبستها ثوب النوم، ووضعتها في السرير، احتفظت بتنورتها الداخلية، وتكورت على نفسها. سألتها ما الذي حدث، فقالت إن الطبيب أخذ سكينًا، وقطع شيئًا في داخلها، وقال إن هذا سيترافق مع ألم ونزيف يستمر بضع ساعات، لكن بعد ذلك ستعود طبيعية من جديد. لم تعطه اسمها بل اسمًا مزيّفًا.

بدأت أستوعب ببطءٍ أن ما قطعه الطبيب كان الطفل، الأمر الذي أحسبه من أكثر الأمور الآثمة. ولكني أيضًا فكرت: إما جثة واحدة أو جثتان معًا، لأنها لو لم تتخلص منه، لكانت قد أغرقت نفسها بالتأكيد. لذلك لم أجد مكانًا في قلبي للومها.

كانت في ألم شديد، وفي المساء سخنت الطوب وأخذته إلى الطابق العلوي. لكنها لم تسمح لي بجلب أي شخص. واقترحت أن أنام على الأرض، لأنها سترتاح أكثر هكذا، وقالت إنني أفضل صديق لها على الإطلاق، وأنه مهما حدث فلن تنساني أبدًا. التفعت بالشال، ووضعت مئزري كوسادة، وتمددت على الأرض التي كانت صلبة للغاية. لهذا، وبسبب الأنين المعذب لماري، لم أستطع النوم في البداية. ولكن بعد مرور الوقت، أصبح الوضع أهدأ، وغرقت في النوم، ولم أستيقظ حتى الفجر. وعندما فعلت، وجدت ماري هناك، ميتة في السرير، وعيناها مفتوحتان تمامًا كأنهما تحدّقان.

لمستها، فكانت باردة. تجمّدتُ مرعوبةً. لكن بعدها حرضت نفسي على التصرف، ومشيت عبر الممر، وأيقضت أغنس -خادمة الغرف- وهويت باكية بين ذراعيها. سألتني ما الأمر؟ لكني لم أقوَ على الكلام، بل أخذتها من يدها، وسرت بها إلى غرفتنا، إلى حيث كانت ماري. أمسكتها أغنس وهزت كتفها. ثم قالت: يا إلهي، إنها ميتة.

وقلت: ماذا أفعل أغنيس؟ لم أكن أعلم أنها ستموت، والآن سيلومونني، لأنني لم أخبرهم مسبقًا أنها أُصيبت بالمرض. لكنها جعلتني أعد بعدم إخبار أحد. وكنت أنشج وقد جمعت قبضتيّ معًا.

رفعت أغنيس أغطية الفراش ونظرت تحتها. كان ثوب النوم وتنورتها الداخلية غارقين في الدم، وكانت الملاءة حمراء، وبنية حيث جف. قالت: هذا فعل سيّئ، وأخبرتني أن أبقى حيث أنا، فيما ذهبت فورًا لجلب السيدة هوني. سمعت خطاها تبتعد، وبدا لي أنها غابت طويلًا.

جلستُ على الكرسي في غرفتنا ونظرت إلى وجه ماري. كانت عيناها

مفتوحتين، وشعرت بها تنظر إليّ بطرف عينها. ظننت أنني رأيتهما تتحركان، وقلتُ: ماري هل تتظاهرين؟ لأنها كانت تتظاهر بالموت في بعض الأحيان -لتخيفني- خلف الشراشف في غرفة التجفيف. لكنها لم تكن تتظاهر.

ثم سمعت خطوات شخصين يسيران مسرعين على طول الممر، وشعرت بالرعب. وقفت. دخلت السيدة هوني الغرفة. لم تبدُ حزينة، بدت غاضبة، ومقروفة أيضًا، كما لو أنها كانت تشم رائحة كريهة. كانت هناك رائحة في الغرفة بالفعل: رائحة القش الرطب للفراش، وكذلك رائحة الدم المالحة، رائحة شبيهة بما يمكن أن تشمه في متجر الجزار.

وقالت السيدة هوني: هذه إساءة، هذا عار، يجب أن أذهب وأخبر السيدة باركنسون. وانتظرنا، وجاءت السيدة، وقالت: تحت سقفي؟ يا لها من فتاة مخادعة. ونظرت إليّ مباشرة، على الرغم من أنها كانت تتحدث عن ماري. ثم قالت: لماذا لم تبلغيني بهذا غريس؟ وقلت: أستميحك عذرًا سيدتي، ماري طلبت مني ألّا أفعل. وقالت إنها ستكون أفضل في الصباح. وبدأت في البكاء، وقلت: لم أكن أعرف أنها ستموت!

أغنيس، التي كانت متدينة جدًا كما أُخبرت، قالت إن الموت هو جزاء الخطيئة.

قالت السيدة باركنسون: خبث منك أن تفعلي ذلك غريس. وقالت أغنيس: إنها مجرد طفلة، هي مطيعة جدًا، فعلتْ فقط ما قيل لها.

اعتقدتُ أن السيدة باركنسون ستوبخها على التدخل، لكنها لم تفعل. أخذتني بلطف من ذراعي، ونظرت في عيني، وقالت:

- من هو الرجل؟ يجب أن يُفضح الوغد، ويدفع ثمن جريمته. أفترض أنه كان بحّارًا في الميناء، إنهم ليسوا أفضل من براغيث. هل تعرفين غريس؟
- ماري لم تعرف أي بحارة. كانت تقابل رجلًا نبيلًا، وكانا مخطوبين. لكنه عاد عن وعده بزواجها.
- أي رجل نبيل؟ قالت السيدة باركنسون بحدة.

- أرجوكِ سيدتي، أنا لا أعرف. كل ما قالتْهُ إنّك لن تكوني سعيدةً على الإطلاق، باكتشاف من يكون.

لم تقل ماري هذا، ولكن كانت لدي شكوكي الخاصة.

عندها غرقت السيدة باركنسون في أفكارها، وأخذت تمشط الغرفة ذهابًا وإيابًا. ثم قالت:

- أغنيس وغريس، لن نناقش هذا الأمر أكثر، لأنه لن يؤدي سوى للتعاسة والبؤس، إضافة إلى أنه لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب، واحترامًا للميتة لن نفصح عن السبب وراء موت ماري، سنقول إنّه يعود للحمى المنخفضة. سيكون ذلك أفضل للجميع.

ونظرت إلى كل منّا بحدة، فانحنينا لها. وطوال هذا الوقت كانت ماري هناك على السرير، تستمع إلينا، تنصت إلى خططنا حول إخبار هذه الأكاذيب عنها. وفكرت في أنها لن تكون هادئة البال بعد معرفة ذلك.

لم أقل شيئًا عن الطبيب، وهم لم يسألوا. ربما لم يفكّروا حتى في شيء من هذا القبيل. ظنوا أنه مجرد طفل مجهض، كما هو الحال مع النساء في كثير من الأحيان. وأن ماري ماتت لذلك، كما تفعل النساء في بعض الأوقات. أنت أول شخص أخبره عن الطبيب -سيدي- ولكنّ ما أعتقده حقًا هو أن الطبيب هو الذي قتلها بسكينه. هو والرجل النبيل. لأن القاتل الفعلي ليس دائمًا الذي يضرب الضربة. والذي أودى بماري هو ذلك الرجل المجهول، تمامًا كما لو أنه أخذ السكين وغرزها في جسدها بنفسه.

غادرت السيدة باركنسون الغرفة، وبعد لحظات جاءت السيدة هوني، وقالت إننا سنأخذ الملاءة عن السرير، ومنامتها وتنورتها الداخلية لنغسل الدم عنها. ثم نغسل جسدها، ونأخذ الفراش للحرق، ونقوم بالأمر بأنفسنا. كان هناك غطاءُ فراشٍ آخر إلى جانب مكان تخزين الأغطية، حيث يمكننا أن نحشوه بالقش. وكان علينا أن نحضر ملاءة نظيفة أخرى. سألت إذا كان هناك ثوب نوم آخر لكسوة ماري، وقلتُ إنه متوفر، حيث كان لماري منامتان. لكن الآخر كان

في الغسيل. ثم قلت إنّني سأعطيها أحد مناماتي. قالت إنّنا لن نخبر أحدًا عن وفاة ماري حتّى تصبح في منظرٍ لائقٍ، بعد سحب الغطاء لتغطيتها وإغلاق عينيها، وتمشيط شعرها وترتيبه. ثم خرجت من الغرفة، وفعلت أنا وأغنيس ما قالت. وكانت ماري خفيفة أثناء رفعها، لكنها ثقيلة أثناء ترتيبها.

ثم قالت أغنيس، هناك ما هو أكثر ممّا تراه العين، وأنا أتساءل من كان هذا الرجل. ونظرت إلي. وقلت: بغض النظر عمّن هو، إنه لا يزال على قيد الحياة وبصحة جيدة، وعلى الأرجح يستمتع بوجبة الإفطار في هذه اللحظة، ولا فكرة لديه عن ماري المسكينة، ليس أكثر ممّا لو كانت ذبيحة معلقة لدى الجزار.

وقالت أغنيس، إنها لعنة حواء التي يجب علينا جميعًا تحمّلها، وكنت أعرف أن ماري كانت ستضحك على ذلك. ثم سمعت صوتها بوضوح تام، تهمس في أذني قائلة: دعيني أدخل. شعرت بالدهشة، ونظرت عن كثب إلى ماري، التي كانت حينها مستلقية على الأرض، إذ كنا نرتب السرير. لكن لم تبدُ وكأنها قالت أي شيء. وكانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، تحدّقان في السقف.

ثم فكرت في فورة ذعر: لكنني لم أفتح النافذة. وركضت عبر الغرفة وفتحتها، لأنني ولا بدّ لم أسمعها جيدًا، والذي عنته فعلًا هو: دعيني أخرج. قالت أغنيس: ماذا تفعلين، الطقس بارد كالجليد في الخارج؟ وقلت إنّ الرائحة تشعرني بالمرض. ووافقت على أن الغرفة تحتاج للتهوية. كنت آمل أن تطير روح ماري الآن عبر النافذة، عوض البقاء في الداخل، لتهمس الأشياء في أذني. لكنني تساءلت عمّا إذا كان الأوان قد فات.

أخيرًا فعلنا المطلوب، وربطت الملاءة والملابس معًا وأخذتها إلى الغسيل، وضَخخت حوضًا مليئًا بالماء البارد، لأنك تحتاج الماء البارد لإخراج الدم، فالماء الساخن يجعله يعلق. لحسن الحظ كانت مسؤولة الغسيل خارج المغسلة، كانت في المطبخ الرئيس، تسخن المكواة للكي، وتتبادل النميمة مع كوك. شطفت، وأخرجت الكثير من الدماء، ممّا جعل المياه كلها حمراء. فجعلته يتدفق إلى المجاري وقمت بضخ حوض آخر، وتركت الأشياء لتنتقع مع بعض الخل الذي

سكبته للمساعدة في التغلب على الرائحة. كانت أسناني تصطك، سواء من البرد أو الصدمة. وعندما ركضت مرة أخرى صاعدة الدرج شعرت بالدوار.

كانت أغنيس تنتظر في الغرفة مع ماري، كل شيء مرتب الآن. عيناها مغمضتان كما لو كانت نائمة، ويداها متقاطعتان على صدرها. أخبرت أغنيس ماذا فعلت، فأرسلتني لأخبر السيدة باركنسون بأن كل شيء أصبح جاهزًا. فعلت ذلك، ثم عدت إلى الطابق العلوي، وسرعان ما جاء الخدم ليلقوا نظرة عليها، بعضهم كان يبكي، بوجوه حزينة، كما هو مناسب. ولكن -مع ذلك- فهناك دائمًا إثارة غريبة مرتبطة بالموت، ويمكنني أن أرى الدم يتدفق بقوة في عروقهم أكثر من الأيام العادية.

تكلمت أغنيس، وقالت إنها كانت حمًّى مفاجئة. كذبت جيدًا، خصوصًا بالنسبة لامرأة ورعة مثلها. أما أنا فوقفت إلى جانب قدمي ماري، صامتة. وقال أحدهم: غريس المسكينة، تستيقظ في الصباح وتجدها باردة ومتصلبة بجانبها في السرير، دون سابق إنذار على الإطلاق. وقال آخر: إنه أمر يجعل لحمك يرتجف عند التفكير فيه، ما كانت أعصابي لتحتمله أبدًا.

ثم بدا الأمر كما لو أنه ما حدث بالفعل. استطعت تخيله بالكامل، الاستيقاظ وماري بجانبي في السرير، ثم لمسها، ومحاولة التحدث إليها دون أن تستجيب، والرعب والضيق الذي يتملكني. وفي تلك اللحظة سقطت على الأرض مغمًى علي.

قالوا إنني بقيت ممددة هكذا عشر ساعات، ولم يستطع أحدٌ إيقاظي، على الرغم من أنهم حاولوا القرص والصفع، والماء البارد، وحرق الريش تحت أنفي. وقالوا إنّني عندما استيقظت، لم يبدُ أنني أعلم أين كنت، أو ماذا حدث. وبقيت أسأل أين ذهبت غريس. وعندما أخبروني أنني أنا غريس، لم أصدقهم بل بكيت، وحاولت الخروج من المنزل، قلت إنّ غريس ضاعت، وإنّها ذهبت إلى البحيرة، وكنت بحاجة للبحث عنها. أخبروني لاحقًا أنهم خافوا أن أكون قد فقدت عقلي، والذي لا بدّ أنه غير مستقر بسبب الصدمة، وهو ما لم يكن مستغربًا إذا ما أخذنا

كل ما حدث بعين الاعتبار.

ثم ذهبت مرة أخرى في نوم عميق. استيقظت بعدها بيوم، وكنت أعرف مرة أخرى أنني غريس، وأن ماري ميتة. وتذكّرت الليلة التي رمينا فيها قشور التفاح من فوق أكتافنا، وحين فشلت ماري في التقشير ثلاث مرات. تحقّق كل شيء أخيرًا، فهي لم تتزوج، والآن لن تفعل ذلك أبدًا.

لكن لم يكن لدي أي ذكرى عن أي شيء قلته أو فعلته خلال الوقت الذي استيقظت فيه، بين الغيبوبتين، وقد أقلقني ذلك.

وهكذا كانت قد ولّت وانتهت أسعد مرحلة في حياتي.

VII

سور الثعبان

ماكديرموت... كان نكدًا فظًّا. كان هناك القليل ممّا يمكن أن يعجب في شخصيته... كان شابًا ذكيًا، رشيقًا لدرجة أنه يركض على طول سياج متعرّج مثل سنجاب، أو يقفز من فوق بوابة من خمسة ألواح، بدلًا من فتحها أو تسلقها.

كانت غريس ذات طبيعة حيوية وآداب سائغة، وربما كانت موضع غيرة نانسي... هناك مجال واسع لافتراض أنها لم تكن المحرض والمدبر للأفعال الرهيبة التي ارتكبت، بل مجرد مغفلة سيئة الحظ وسط العمل الرهيب. لا يبدو -بكل تأكيد- أنّ هناك أي شيء في شخصية الفتاة يحتمل أن يتطور إلى تجسيد للشرّ المركّز الذي حاول ماكديرموت أن يجعلها تبدو عليه، هذا إن كان قد تفوّه حتى بنصف العبارات المنسوبة إليه في اعترافه. كان استخفافه بالحقيقة معروفًا.

- وليم هاريسون، (ذكريات مأساة كينير)، التي كتبت لنيوماركت إيرا، 1908.

مع ذلك، إن كان لا بدّ أن تنساني لبرهة
ثم تتذكر بعد حين، لا تتحسر.
إن كانت الظلمة والعطب يتركان أثرهما على الأفكار التي كانت لي ذات مرة،
فأفضل بكثير أن تنسى وتبتسم،
على أن تتذكر وتحزن.

- كريستينا روسيت، تذكر، 1849.

21

يتناول سايمون قبعته وعصاه من خادمة زوجة الآمر، ثم يسير متمايلًا تحت أشعة الشمس. إنها ساطعة للغاية بالنسبة له، شديدة القسوة. يشعر كما لو كان محتجزًا في غرفة مظلمة لفترة طويلة، على الرغم من أن غرفة الخياطة بعيدة كل البعد عن الإعتام. لكن قصة غريس هي المظلمة. يشعر كما لو أنه جاء من مسلخ. لماذا أثرت عليه قصة الموت تلك كل هذا التأثير؟ هو يعرف بالطبع أن مثل هذه الأشياء تحدث، أن مثل هؤلاء الأطباء موجودون. ليس الأمر أنه لم ير امرأة ميتة من قبل. لقد شاهد الكثير منهن، لكنهن كن قد متن تمامًا، لقد كن عينات. لم يسبق له القبض عليهن في الحدث. ماري ويتني هذه، لم تبلغ بعد... كم؟ سبعة عشر؟ إنها فتاة صغيرة يرثى لها! يريد غسل يديه.

لا شك أن منحى الأحداث أخذه على حين غرة. عليه الاعتراف بأنه كان يتابع قصتها بمتعة شخصية معينة. إذ إنّ له هو الآخر أيامه السعيدة وذكرياته، وهي أيضًا تحوي صورًا للملاءات نظيفة وعطلات مبهجة، وخادمات شابات مبتهجات. ومن ثم، وسط كل ذلك، هذه المفاجأة الأليمة. فقدت ذاكرتها أيضًا، وإن كان لساعات قليلة فقط، وخلال نوبة هستيرية طبيعية بما فيه الكفاية، قد تبرهن أهميتها على الرغم من ذلك. إنها الذكرى الوحيدة التي يبدو أنها نسيتها، حتى الآن. خلاف ذلك يبدو أن كل زر وكل شمعة محسوبة. لكن من ناحية أخرى، هو لا يملك أي طريقة لمعرفة ذلك. ولديه إحساس متطير بأن قدرًا كبيرًا من ذكرياتها قد يكون نوعًا من الإلهاء، طريقة لجذب العقل بعيدًا عن حقيقة خفية ولكنها أساسية، مثل الزهور الزاهية التي تزرع على القبور. ذكر نفسه كذلك بأن الشاهدة الوحيدة التي يمكن أن تدعم شهادتها -لو كانت هذه محكمة قانونية- ستكون ماري ويتني نفسها، وهي غير متوفرة.

أسفل الطريق الداخلي المؤدي إلى اليسار تأتي غريس، تمشي مطأطئة الرأس، يرافقها رجلان كريهان يفترض أن يكونا حارسي السجن. يميلان نحوها، كما لو أنها ليست قاتلة، وإنما كنزًا ثمينًا يجب أن يبقى آمنًا. لا تعجبه الطريقة التي

يضغطان بها عليها. ولكن بالطبع ستكون حياتهما صعبة للغاية إذا ما هربت. على الرغم من معرفته بأنها تعاد كل مساء وتحبس في زنزانة ضيقة، إلا أنه أصيب اليوم بشعور متضارب. كانا يتحدثان معًا طوال فترة بعد الظهر كما لو كانا في أحد الصالونات. وهو الآن حر طليق، وبإمكانه فعل ما يحلو له، بينما تقيد وتحتجز. محبوسة في سجن كئيب. كئيب عن قصد، فإن لم يكن السجن كئيبًا، أين العقاب؟

حتى كلمة العقاب تُلح عليه اليوم. لا يستطيع أن يخرج ماري ويتني من عقله. متمددة في ملاءتها المخضّبة بالدم.

بقي لمدة أطول من المعتاد ظهر اليوم. خلال نصف ساعة من المقرر أن يكون في منزل القس فيرينغر لعشاء مبكر. لا يشعر بالجوع على الإطلاق. قرّر السير على ضفاف البحيرة. سينفعه النسيم هناك، وقد يعيد شهيته.

يفكر في أنّه كان جيّدًا أنه لم يستمرّ جراحًا. اعتاد الدكتور برانسبي كوبر -أكثر محاضريه مدعاة للرعب بمستشفى جاي في لندن- القول: حتى يصبح المرؤ جرّاحًا جيّدًا، كما هو الحال بالنسبة للنحات الجيد، فالقدرة على فصل النفس عن العمل الذي يقوم به، شرط أساسي. لا ينبغي للنحات أن يسمح بأن يشتت انتباهه بفعل السحر النافذ لنموذجه، بل يجب أن ينظر إليه بموضوعية، على أنه مجرد مادة أساسية أو طين يبدأ منه تشكيل عمله الفني. وبالمثل، فإن الجراح هو نحات مادته اللحم. يجب أن يكون قادرًا على تشريح جسم بشري بتروٍ ودقة كما لو كان ينحت حجَرًا كريمًا. كانت اليد الباردة والعين الثابتة ضروريّتين. أولئك الذين أحسّوا بعمق بمعاناة مرضاهم، هم الذين انزلقت السكاكين من بين أصابعهم. المنكوبون لا يحتاجون تعاطفك، إنهم يحتاجون مهارتك.

حقًا؟ -يفكر سايمون- لكن الرجال والنساء ليسوا تماثيل، وليسوا جمادات كالرخام، على الرغم من أنهم غالبًا ما يصبحون كذلك أثناء الجراحة في المستشفى، بعد فترة عذاب من المحنة الصارخة والطافحة. اكتشف سريعًا في جاي أنه لم يكن مولعًا بالدم.

لكنه تعلم بعض الدروس القيمة مع ذلك. كيف يموت الناس بسهولة، كمثال. وكيف يموتون بتكرّر، كمثال آخر. وكيف حُبكت الروح والجسد بدهاء معًا. زلّة من السكين وتكون قد أنتجت أبلهَ. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يحدث العكس؟ هل يمكن أن تخيط وتقصّ، لتخلق عبقريًا؟ ما هي ألغاز النظام العصبي التي لم تكتشف بعد؟ تلك الشبكة من التراكيب المادية والأثيرية، تلك الشبكة من الخيوط التي تجري في جميع أنحاء الجسم متألفة من آلاف الخيوط الأريادنية[17] وكلها تقود إلى الدماغ، ذلك العرين المركزي الغامض، حيث تضطجع عظام الإنسان المبعثرة، وتكمن الوحوش.

الملائكة أيضًا -يذكر نفسه- الملائكة.

يرى امرأة تمشي على مسافة بعيدة. إنها تلبس ملابس سوداء. تنورتها جرس متأرجح ناعم، خمارها يموج خلفها مثل دخان مظلم. تلتفت، تنظر إلى الوراء لوهلة: إنها السيدة همفري، مؤجرته الكئيبة. لحسن الحظ أنها تمشي مبتعدة عنه. أو ربما كانت تتجنبه عن قصد. فقط لأنه ليس في مزاج للمحادثة، ولا سيما لاستقبال الامتنان. ويتساءل لماذا تصرّ على لبس ملابس الأرامل. ربما كان نوعًا من التفكير الرغبوي. حتى الآن لم يصل أي خبر عن الرائد. سايمون يسير على طول الشاطئ، متخيلًا ما يمكن أن يكون الرائد يفعله الآن، مضمار سباقات الخيل، بيت دعارة، حانة. لا بدّ أن يكون واحدًا من الثلاثة.

ثم يفكر -بدون مناسبة- في خلع حذائه وخوض البحيرة. تطرأ على باله فجأة ذكرى غمسه لأطرافه في الجدول الواقع في الجزء الخلفي من أراضيهم. حين كان صبيًا صغيرًا برفقة مربيته -وهي واحدة من عاملات المصنع الشابات، تحولت إلى خادمة، كما هو الحال مع معظم الخادمات وقتها- ثم اتساخه، وتوبيخ والدته

17 نسبةً إلى أريادني في الميثولوجيا اليونانية القديمة، وهي ابنة مينوس ملك كريت وباسيفاي ابنة هيليوس إله الشمس. عندما أتى ثيسيوس -وهو أحد ملوك أثينا الأسطوريّين- ليقتل مينوتور -وهو ابن باسيفاني الذي أنجبته من ثور البحر الذي كانت قد وقعت في غرامه- وقعت أريادني في حبه -أي في حبّ مينوتور- وأرشدته إلى فكرة الخيط الذي وضعه في بداية المتاهة وأوصله إلى طريق الخروج، حيث اصطحبها معه وغادرا الجزيرة.

له وللمربية أيضًا: لسماحها بحدوث ذلك.

ماذا كان اسمها؟ أليس؟ أم أن ذلك حدث لاحقًا، عندما كان في المدرسة، بنطلونه الطويل، وصعد إلى العلية في واحدة من مغامراته السرية، وقبضت عليه الفتاة في غرفتها؟ يداعب نفسه فيما يلاطف شيئًا من ملابسها. كانت غاضبة منه، لكنها لم تستطع التعبير عن غضبها بالطبع حفاظًا على وظيفتها. لذلك فعلت ما تفعله النساء، وانفجرت بالبكاء. وضع ذراعاه حولها ليعزّيها، وانتهى بهم الأمر بالتقبيل. سقط غطاء رأسها فانسدل شعرها. شعر أشقر داكن طويل شهواني، ليس نظيفًا جدًا، برائحة كاللبن المتخثر. كانت يداها باللون الأحمر، لأنها كانت تنزع رؤوس الفراولة. وكان لفمها طعم الفراولة.

اصطبغ قميصه ببقع حمراء حين كانت تفك أزراره. ولأنها كانت المرة الأولى التي يقبّل فيها امرأة، فقد كان محرجًا، ثم منزعجًا، ولم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك. على الأغلب أنها ضحكت منه.

كم كان صبيًا ساذجًا حينها، كم كان غرًا. يبتسم لتلك الذكرى. إنها صورة لأيام أكثر براءة. وبحلول الوقت الذي انتهت فيه النصف ساعة، شعر أنه أفضل بكثير.

مدبرة منزل القس فيرينغر تحييه بإيماءة مستهجنة. لو أنها ابتسمت، فسيتكسر وجهها مثل قشرة بيض. لا بدّ أن تكون هناك مدرسة للقبح -يفكر سايمون- حيث ترسل مثيلاتها من النساء للتدريب. قادته إلى المكتبة، حيث أُشعلت النار ووُضِع كوبان من مشروب دافئ غير معروف. ما يريده حقًا كأس قوي من الويسكي، لكن لا أمل في الحصول عليه بين الميثوديين الممتنعين عن المسكِرات.

كان القس فيرينغر واقفًا بين أغلفة كتبه الجلدية، لكنه تقدم للترحيب بسايمون. جلسا يرتشفان الشراب من الكاسات، الشراب الذي له طعم الأعشاب المائية مع مسحة من خنافس التوت. «إنها تنقي الدم، تصنعها مدبرة منزلي بنفسها، من وصفة قديمة.» يقول القس فيرينغر. «قديمة جدًا.» يفكر

سايمون، وتخطر بباله الساحرات.

- هل هناك أي تقدم في مشروعنا المشترك؟ يسأل فيرينغر.

عرف سايمون أن هذا السؤال سيُسأل، ومع ذلك يتردد قليلًا في الإجابة:

- كنت أتوخّى أقصى درجات الحذر. بالتأكيد هناك عدة خيوط تستحق التعقب. كنت بحاجة أولًا إلى ترسيخِ أساسٍ من الثقة، والذي أعتقد أنني فعلته. سعيت بعد ذلك إلى استخراج التاريخ العائلي. يبدو أن موضوع دراستنا تتذكر حياتها قبل وصولها إلى السيد كينير بوضوح، ومقدارًا كبيرًا من التفاصيل الظرفية، تشير إلى أن المشكلة ليست مع ذاكرتها بشكل عام. تعرفتُ على رحلتها إلى هذا البلد، وكذلك السنة الأولى من خدمتها المنزلية، والتي لم تتميز بأي أحداث غير معهودة، باستثناء حدث واحد.

- والذي كان؟ يسأل القس فيرينغر، رافعًا حواجبه الشعثاء.

- هل أنت على معرفة بعائلة تسمّى باركنسون في تورنتو؟

- يبدو أنني أتذكرهم من شبابي. كان واليًا حسبما أذكر. لكنه مات منذ عدة سنوات. أما أرملته فأظنها عادت إلى موطنها الأصلي. كانت أمريكية، مثلك. وجدت الشتاء هنا شديد البرودة.

- هذا مؤسف كنت آمل أن أتحدث معهم، من أجل تأكيد بعض الحقائق المفترضة. أول حالة لغريس ظهرت مع هذه العائلة. كانت لديها صديقة... زميلة... خادمة تدعى ماري ويتني. الذي كان -كما قد تتذكر- الاسم المزيف الذي تسمت به عندما هربت إلى الولايات المتحدة، مع الـ... مع جيمس ماكديرموت. إن كان ذلك في الواقع هروبًا، وليس هجرة قسرية من نوع ما. على أي حال، ماتت هذه الشابة تحت -ما يجب أن أصفه- بظروف مفاجئة. وبينما تجلس في الغرفة مع الجثة، اعتقدت (موضوع دراستنا) أنها سمعت صديقتها الميتة تتكلم معها. هلوسة سمعية بالطبع.

- ليس أمرًا نادرًا تمامًا -يقول فيرينغر- حضرت بنفسي موت العديدين. يؤمن البعض وخصوصًا العاطفيّون والمتطيّرون، أن عدم سماع متوفاهم

يتحدث، ضرب من العار! وليس أفضل من سماع صوته، سوى سماع صوت جوقة ملائكة ترافقه أيضًا.

كانت لهجته جافة ومن المحتمل ساخرة أيضًا.

سايمون مندهش قليلًا، إذ كان يتوقع أنّ تشجيع الضلالات الدينية من واجب رجال الدين. لكنّه يتابع قائلًا:

- تبعت ذلك سلسلة من الإغماءات، ثم الهستيريا، مختلطة مع ما يبدو أنه سرنمة. تلاه نوم عميق وطويل، لحقه فقدان الذاكرة.

- آه...

يقول فيرينغر، مائلًا إلى الأمام:

- إذًا فلديها تاريخ من هذه الزلات!

يقول سايمون بتروٍ:

- يجب علينا ألّا نقفز إلى الاستنتاجات. فهي في الوقت الحالي الراوي الوحيد -يتوقف حيث لا يرغب في أن يظهر مفتقرًا للباقة- سيكون من المفيد للغاية بالنسبة لي، في تشكيل رأيي المهني، لو كنت قادرًا على التحدث مع أولئك الذين عرفوا غريس في وقت حصول الأحداث محلّ الشك، وأولئك الذين شهدوا بعد ذلك على حضورها وسلوكها في السجن، خلال السنوات الأولى من احتجازها، وكذلك في المصحة.

- أنا نفسي لم أكن حاضرًا في تلك المناسبات.

- قرأت تقرير السيدة مودي. لديها الكثير ممّا يثير اهتمامي، والذي يمكن أن تقوله. وفقًا لها، زار المحامي كينيث ماكنزي غريس في السجن بعد حوالي ست أو سبع سنوات من حبسها، وأخبرته غريس أنّ نانسي مونتغمري تطاردها، أن عينيها الملتهبتين، والمحتقنتين بالدم، تظهران في أماكن مثل حِجرها وصحن حسائها. قابلتْ السيدة مودي غريس في المصحة، في جناح الحالات العنيفة كما أعتقد. وصورتها على أنها امرأة مجنونة تهتز كشبح، وتركض في الأرجاء مثل قردٍ محترق. بالطبع كتبت تقريرها دون أن يخطر

لها أنه في غضون أقل من سنة سوف تخرج غريس من المصحة، باعتبارها عاقلة تمامًا، أو على الأقل عاقلة بما فيه الكفاية لإعادتها إلى السجن.

- لا يتعين على المرء أن يكون عاقلًا تمامًا من أجل ذلك. يقول فيرينغر، مع ضحكة قصيرة كمفصل يئنّ.

- فكرت في زيارة السيدة مودي، لكنني أسعى لنصيحتك. لست متأكدًا من كيفية استجوابها دون التسبب في فضح دقة ادعاءاتها.

- الدقة؟ يسأل فيرينغر مداهنًا، دون أن تبدو عليه الدهشة.

- هناك تناقضات غير قابلة للنقاش. على سبيل المثال، السيدة مودي غير واضحة بشأن موقع ريتشموند هيل، وهي غير دقيقة في موضوع الأسماء والتواريخ، وتدعو العديد من أصحاب الشأن في هذه المأساة بغير أسمائهم، وقد منحت السيد كينير رتبة عسكرية لم يحزها.

- ربما ميدالية ما بعد الوفاة. يهمهم فيرينغر.

يبتسم سايمون.

- جعلت الجناة أيضًا يقطعون جثة نانسي مونتغمري إلى أرباع، قبل إخفائها تحت المغسلة. وهو بالتأكيد ما لم يحدث. بالكاد يمكن للصحف أن تفشل في ذكر تفصيل بهذه الإثارة. أخشى أن هذه المرأة الطيبة لا تدرك مدى صعوبة تقطيع الجسد، كونها لم تفعل ذلك من قبل. هذا يجعل المرء يتساءل سريعًا حول أشياء أخرى. إنها ترجع دافع القتل -على سبيل المثال- إلى الغيرة الجامحة من جانب غريس، التي حسدت نانسي على مكانتها لدى السيد كينير، وشهوة ماكديرموت، الذي وعد بمقايضة خدماته كجزار، بامتنان غريس.

- تلك كانت النظرة الشائعة للأمر في ذلك الوقت.

- بلا شك -يقول سايمون- سيفضل الجمهور دائمًا ميلودراما شهوانية على حكاية سرقة محضة يرتكبها أصلع. ولكن يمكنك أن ترى أنه قد يكون للمرء تحفظات حتى على الأعين المحتقنة.

- صرحت السيدة مودي علنًا بأنها مغرمة جدًا بتشارلز ديكنز -يقول القس فيرينغر- وبأوليفر تويست بصورة خاصة. أتذكر زوجًا مماثلًا من العيون في هذا العمل، تنتمي أيضًا إلى أنثى ميتة تدعى نانسي. كيف أقول ذلك؟ السيدة مودي عرضة للمؤثرات. قد ترغب في قراءة قصيدة السيدة مودي (المهووس)، إذا كنت ضليعًا بأعمال السير والتر سكوت. تحتوي قصيدتها على جميع المتطلبات: جرف، قمر، بحر هائج، عانس تتعرض للخيانة تتغنى بلحن وحشي، لابسة ملابس رطبة معتلة، فيما يتدفق -كما أذكر- شعرها المزين بعينات نباتية. أعتقد أنها تنتهي بالقفز عن المنحدر الخلاب الموفر بعناية لها.

دعني أرى -وأغلق عينيه قارعًا إيقاعًا بيده اليمنى- وبدأ الإلقاء:

«كانت الرياح تموج ثيابها، فيما غيث أبريل الطائش،
يتعلق كأحجار كريمة في خصل شعرها الداكنة، المكلّلة بالزهور البرية.
كان نهدها مكشوفًا لعاصفة منتصف الليل الباردة،
التي تضرب هيأتها الهشة الرقيقة، بلا هوادة.
عيناها السوداوان تلمعان بعد أن فرّ العقل منهما،
وحدقت بي كشبح،
بينما كانت تغني بصوت عالٍ مجهد للرعد الجهور المندفع،
الذي رن في أذني مثل تفجع العويل.

وهو -الذي تركها للجنون والعار،
من سرقها شرفها، وأذبل سمعتها-
أتراه فكر في اللحظة التي مزق فيها ذلك القلب،
في النذور التي لم يفِ بها، المعاناة التي منحها؟
وأين كان الرضيع الذي دقت ولادته ناقوس الخطر على سلام أمه،
والذي فجر مصيبتها؟»

يفتح عينيه مرة أخرى:

- بالفعل أين هو؟

- أنت تدهشني. لا بدّ أنك تملك ذاكرة نادرة.

- للنظم من نوع معين، نعم للأسف. إنها تأتي من غناء التراتيل أكثر من اللازم -يقول القس فيرينغر- على الرغم من أن الرب نفسه اختار أن يكتب قدرًا كبيرًا من الكتاب المقدس شِعرًا، ممّا يدل على موافقته على هذا الشكل، إلا أنه يجب أن يمارس على نحو محايد. ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن ينتقد أخلاق السيدة مودي. أنا على يقين أنك تفهم ما أعني. السيدة مودي أديبة، لكنها كجنسها بشكل عام تميل إلى...

- التطريز. يتمم سايمون.

- بالضبط -يقول القس فيرينغر- كل ما أقوله هنا هو بالطبع سري للغاية. على الرغم من أنهم كانوا محافظين خلال فترة التمرد، فإن آل مودي أدركوا مآل طرقهم منذ ذلك الحين، وهم الآن في عملية إصلاح مخلصة. فقد تعرضوا للمعاناة، من قبل بعض الأشخاص الكائدين الذين هم في وضعٍ يمكّنهم من تعذيبهم بالدعاوى القضائية وما شابه. لن أقول شيئًا ضدّ السيدة. لكنني أيضًا لا أنصح بزيارتها. عرفت مصادفة، أن الروحانيين قد تمكنوا منها.

- حقًا؟ يقول سايمون.

- حسب ما بلغني، أنها كانت مشككة لفترة طويلة. كان زوجها أول من اعتنق هذا الفكر بينهما. لا شك أنها سئمت من قضاء الأمسيات بمفردها، بينما كان هو يستمع إلى الأبواق الوهمية، ويتحدث مع روح غوته وشكسبير.

- أعتبر أنك غير موافق.

- لقد طُرد كهنة من طائفتي من الكنيسة لتورطهم في هذا العمل، الذي أعتبره غير مقدس -يقول القس فيرينغر- صحيح أن بعض أعضاء لجنتنا انضموا، بل إنهم من المتعصّبين في الواقع، ولكن يجب أن أتحملهم إلى أن

ينتهي هذا الجنون، ويعودوا إلى رشدهم. وكما قال السيد ناثانيال هوثورن، فإن هذا الشيء مجرد هراء، والأسوأ إذا تبين أنه ليس كذلك. لأن الأرواح التي تقدم نفسها في الطاولة التي يتحلّقون حولها وما شابه، هم ولا بدّ أولئك الذين فشلوا في دخول العالم الأبدي، وما زالوا يزاحموننا مثل نوع من الغبار الروحي. ومن غير المرجح أنهم يتمنون لنا الخير، وكلما تبادلنا معهم أقل قدر من الأحاديث، كان ذلك أفضل.

- هوثورن؟ يقول سايمون باندهاش للعثور على رجل دين يقرأ هوثورن. إذِ اتّهم الرجل بالحسية، خاصة بعد الرسالة القرمزية حول انحلال الأخلاق.

- يجب على المرء أن يواكب سربه. وبالنسبة إلى غريس ماركس وسلوكها المبكر، سيكون من الأفضل استشارة السيد كينيث ماكنزي، الذي رافع عنها في المحاكمة، والذي -على حدّ علمي- لديه رأس سليم على كتفيه. وهو حاليًا شريك في شركة محاماة في تورنتو، بعد أن حقق صعودًا مهنيًا سريعًا. سأقدمك له في خطابي. أنا متأكد من أنه سيقدم لك هذه الخدمة.

- شكرًا لك يقول سايمون.

- يسرني أن أتيحت لنا فرصة التحدث بخصوصية، قبل مجيء السيدات. أظن أنهنّ وصلن، أستطيع سماعهن.

- السيدات؟ يستفسر سايمون.

- زوجة الآمر وبناتها يشرفننا برفقتهن هذا المساء -يقول فيرينغر- أما الآمر نفسه فلسوء الحظ بعيد في مهمة عمل. ألم أُشعرك بذلك؟ -تظهر بقعتان ملونتان، واحدة على كل من خدوده الفاتحة- دعنا نذهب للترحيب بهن.

لم تحضر سوى إحدى البنتين. «ماريان -قالت أمها- بقيت في فراشها بعد إصابتها بالبرد.» يتنبّه سايمون، إنه على معرفة بمثل هذه الخدع، فهو يعرف عصبة الأمهات. قررت زوجة الآمر إعطاء ليديا فرصة جلية معه، دون أي إلهاء من ماريان. ربما يجب عليه أن يكشف عن ضآلة دخله على الفور، حتى يحبطها. لكن ليديا طبق حلوًى، وهو لا يرغب في حرمان نفسه من هذه المتعة الجمالية

بهذه السرعة. طالما لم تصدر أي تصريحات، فلن يُلحَق به الأذى. وهو يستمتع بكونه محطّ تحديق عينيها المشرقتين.

تغير الموسم رسميًا الآن، فقد أينع ربيع ليديا. انتشر غطاء من الزهور الفاتحة على جسدها، وتموج حول كتفيها مثل أجنحة شفافة. يأكل سايمون قطعة السمك -لقد بالغوا في طهيها، لكن لا أحد في هذه القارة يمكنه أن يطبخ سمكة بشكل صحيح- ينظر بإعجاب إلى كِفَاف الثوب الذي يكشف عنقها الأبيض الناعم، وشيئًا من نهدها. كأنها منحوتة من الكريمة المخفوقة. يجب أن تكون هي على الطبق، بدل السمك. لقد سمع قصصًا عن مومس باريسية شهيرة قدمت نفسها بهذه الطريقة في مأدبة. عارية بالطبع. إنه يشغل نفسه بخلع ملابس ليديا ثم تزيينها: يجب أن تكلل بالزهور: اللون العاجي والصدف الوردي، وربما تحاط بالعنب الدافئ والخوخ.

أمها جاحظة العينين جميلة كعادتها، تداعب حجر الكهرمان حول عنقها، ثم تدخل في صلب الموضوع: تتطلع دائرة الثلاثاء بشدة إلى خطاب من الدكتور جوردن. ليس شيئًا رسميًّا جدًا، مناقشة جادة بين الأصدقاء، أصدقاؤه أيضًا، إنها تأمل أن تكون قادرة على تخمين الذين قد يشاركونهم الاهتمام بنفس القضايا. ربما يمكن أن يقول بضع كلمات حول مسألة إلغاء العبودية؟ إنه مصدر قلق لهم جميعًا.

يقول سايمون إنه ليس خبيرًا في هذا الأمر، بل إنه غير عارف به على الإطلاق، لأنه كان في أوروبا طوال السنوات القليلة الماضية.

- في هذه الحالة -يقترح القس فيرينغر- ربما يتفضل الدكتور جوردن بمشاركتنا أحدث النظريات المتعلقة بالأمراض العصبية والجنون؟ وسيكون هذا أيضًا موضع ترحيب كبير، حيث إنّ أحد مشاريعهم -الموجودة معهم منذ مدة كمجموعة- هو إصلاح المصحات العامة.
- سيكون الدكتور ديبونت خصوصًا مهتمًا بذلك -تقول زوجة الآمر- الدكتور جيروم ديبونت، الذي أصبح أحد معارفك. لديه مثل هذا الاتساع...

لديه مجموعة واسعة من... من الأشياء التي تهمه.

- أوه، سيكون ذلك رائعًا -تقول ليديا وهي تنظر إلى سايمون من تحت رموشها الطويلة الداكنة- آمل أن تفعل ذلك!

لم تقل الكثير هذا المساء. لكن الحقيقة أنه لم تكن لديها فرصة كبيرة، إلا حين ترفض عرض القس فيرينغر الذي يضغط عليها لأخذ المزيد من السمك. تقول:

- لطالما تساءلت كيف يكون الأمر حين تصبح مجنونًا. لم تخبرني غريس بذلك.

تخيل سايمون نفسه في زاوية ضليلة مع ليديا. خلف ستائر الديباج البنفسجية الثقيلة. ماذا لو أحاط خصرها بذراعه، برفق حتى لا يفزعها. هل ستتنهّد؟ هل ستسلّمه نفسها؟ أم أنها ستدفعه؟ أو كليهما.

***

يعود إلى مسكنه، يصب لنفسه كوبًا كبيرًا من الشيري، من الزجاجة التي يحتفظ بها في الدولاب. لم يشرب طوال فترة المساء، فالمشروب الوحيد في حفل عشاء فيرينغر هو الماءُ. لكنه مشوشٌ كما يكون تحت تأثير الشراب. لماذا وافق على التحدث في دائرة الثلاثاء الشيطانية؟ ما الذي يعنونه له؟ وما الذي يعنيه لهم؟ ما الأمر الذي يمكنه أن يحدّثهم عنه ويفهموه؟ نظرًا إلى قلة خبرتهم، إن ليديا هي السبب، إعجابها وجاذبيتها، يشعر كأنه وقع في فخ شجيرة مزهرة.

إنه لا يقوى على السهر، والقراءة والعمل كالمعتاد. يذهب إلى السرير وينام على الفور. ثم يحلم. حلمًا مضطربًا. إنه في ساحة مسيجة حيث يرفرف الغسيل على الحبال. لا يوجد أحد آخر هناك، ممّا يعطيه إحساسًا بالمتعة السرية. تتحرك الملاءات والبياضات في الريح، كما لو كانت أرداف ضخمة غير مرئية تلبسها، كما لو كانت حية. بينما يراقب -لا بد أن يكون صبيًا، فهو قصير بما يكفي لينظر إلى أعلى- وشاحًا أو خمارًا من الموسلين الأبيض على الحبل، يموج برشاقة

عبر الهواء مثل ضمادة طويلة تنتشر، أو مثل طلاء على الماء. يجري للقبض عليه خارج الفناء، عبر الطريق، وعبر الحقل -إنه في الريف الآن- في بستان. تعلقت قطعة الملابس بأغصان شجرة صغيرة مغطاة بالتفاح الأخضر. يسحبها فتسقط على وجهه. ومن ثم يدرك أنه ليس قماشًا على الإطلاق، بل شعرًا، شعرًا طويلًا فوّاحًا لامرأة غير مرئيّة، يلتوي حول رقبته. يكافح، يُطوِّقه بشدة، بالكاد يمكنه التنفس. لكنّ الإحساس مؤلم وشهواني لدرجة لا تطاق، ثم يستيقظ مفجوعًا.

22

حضرت اليوم إلى غرفة الخياطة قبل الدكتور جوردن. ليس هناك أي جدوًى من التساؤل عمّا يؤخره، فالسادة يحددون مواعيدهم. لذلك أواصل الخياطة، بينما أغني قليلًا لنفسي.

«يا صخرة العصور، انصدعي من أجلي،
دعيني اختبئ فيك.
دعي الماء والدم، المتدفق من جانب الشق،
يكون الشفاء المزدوج للخطيئة،
فيطهرني من إثمها ونفوذها.»

أحب هذه الأغنية، لأنها تجعلني أفكر في الصخور، والمياه، وشاطئ البحر. الأشياء التي تقع في الخارج. والتفكير في تلك الأشياء أفضلُ شيء، بعد الوجود فعليًا فيها.

- لم أكن أعلم أنك تجيدين الغناء غريس -يقول الدكتور جوردن وهو يدخل الغرفة- لديك صوت جميل.

لديه دوائر سوداء تحت عينيه، ويبدو كما لو أنّ جفنًا لم يغمض له.

- شكرًا سيدي. كانت لي مناسبات أكثر يمكنني الغناء فيها.

يجلس، ويخرج دفتر ملاحظاته وقلم الرصاص، وحبة جزر أبيض، يضعها على الطاولة. لو كان الأمر عائدًا لي لما اخترتها، فهي مصطبغة باللون البرتقالي، مما يعني أنها قديمة. أقول:

- أوه... جزر أبيض.
- هل يذكرك بشيء؟
- حسنًا، هناك المثل القائل «الكلمات الجميلة لا تطهو الجزر الأبيض.» بالإضافة إلى أنها صعبة التقشير.

- أظن أنها تخزن في الأقبية.

- لا سيدي. بل في الخارج، بداخل حفرة في الأرض مع القش، لأنها تصبح أفضل عندما تجمد.

ينظر إليّ بطريقة متعبة، وأتساءل ما الذي أفقده القدرة على النوم. ربما كانت شابة ما تشغل باله، ولا تبادله العاطفة. أو أنه لم يكن يتناول وجبات منتظمة.

- هل نواصل قصتك من حيث توقفنا؟

- نسيت أين توقفنا.

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، لكنني رغبت في معرفة إن كان يستمع إليّ فعلًا، أو يتظاهر فقط.

- توقفنا مع وفاة ماري. صديقتك المسكينة ماري ويتني.

- آه... مع ماري.

- حسنًا سيدي، تستّروا على الطريقة التي ماتت بها ماري قدر المستطاع. مسألة موتها بالحمى قد تكون صُدّقت وقد لا تكون، لكن أحدًا لم يناقض القصة علنًا. كما لم ينكر أحد أنها تركت أشياءها لي، على ضوء ما كتبته، بالرغم من أن بعض الحواجب ارتفعت دهشة لأنها كتبتها، كما لو أنها استشعرت موتها سلفًا. لكنني قلت إن الأثرياء يضعون وصيتهم مسبقًا، لماذا لا يحق لماري ذلك. لم يقولوا شيئًا بعدها. كما لم يُفتح موضوع ورقة الكتابة، وكيف حصلت عليها.

بعت صندوقها عالي الجودة، وكذلك أفضل فساتينها إلى جيرمايا -البائع المتجول- الذي جاء مرة أخرى، تمامًا عقب وفاتها. وبعت له أيضًا خاتم الذهب الذي خبّأتُهُ تحت الأرضية. أخبرته أني أبيعه الأشياء كي تُدفن بشكل لائق، فأعطاني سعرًا عادلًا، بل أكثر من عادل. قال إنه رأى الموت في وجه ماري، في الواقع غالبًا ما يكون الإدراك المتأخر دقيقًا. كما قال إنه آسف على وفاتها، وكان يريد أن يتلو صلاة لها. لا يمكنني تخيل صلاته، فقد كان

رجلًا غير متديّن، بكل حيله وقصصه عن الثروة. لكن بالتأكيد لا يهم شكل الصلاة، والتميز الوحيد الذي يفرق عند الله هو النية الحسنة من الخبيثة، أو هذا ما أؤمن به.

ساعدتني أغنيس في التحضير للدفن. طلبنا الإذن لنأخذ ورودًا وفاوانيا طويلة السيقان من حديقة السيدة باركنسون، بما أننا كنا في يونيو. اخترنا منها الأبيض ووضعناه في التابوت. بعثرتُ بتلاتها عليها أيضًا، ودسست محفظة الإبر التي صنعتها لها، خلسة، فقد يبدو لونها الأحمر غير لائق. وقطعتُ خصلة من شعرها الخلفي للذكرى، وربطتها بخيط.

دُفِنَت في أفضل ملابسها الليلية، ولم تكن تبدو ميتة أبدًا، بل نائمة فقط وشاحبة للغاية. وبدت كعروس، وهي ممددة وسط كل ذلك البياض.

اخترتُ تابوتًا بسيطًا من ألواح الصنوبر، وادخرتُ بعض النقود للشاهد الحجري على قبرها. لكنه لم يكفِ سوى لنقش اسمها، مع أني رغبتُ في وضع قصيدة مثل: «بالرغم من أنك هجرتِ الظلال الأرضية السوداء، تذكري الذين يقبعون هنا، عندما تكونين في السماء.» ولكنها كانت تتجاوز إمكانياتي. وُضِعَت مع الميثوديين في شارع أديلايد، في زاوية قريبة من الفقراء، لكن يبقى أنها ما زالت داخل فناء الكنيسة، لذلك شعرت أنني فعلت كل ما في وسعي لها. لم يحضر سوى أغنيس واثنان من الخدم الآخرين، حيث -لا بدّ- سرَتْ شكوك حول كون ماري قد ماتت في ظروف غامضة. وعندما جرفوا التراب فوق التابوت وقال الكاهن الشاب: «من الغبار إلى الغبار.» بكيت كما لو أن قلبي ينكسر. كنت أفكر في أمّي المسكينة أيضًا، التي لم تحظَ بدفن مناسب تحت التراب على النحو الذي ينبغي، عوضًا عن ذلك رُميت في البحر.

صعب عليّ التصديق أن ماري ماتت حقًا. بقيتُ أتوقع قدومها إلى الغرفة، وعندما أذهب إلى السرير في الليل أظن أحيانًا أنني أسمع تنفسها، أو ضحكتها خلف الباب. واظبتُ على وضع الزهور عند قبرها كل أحد، ليست زهور حديقة السيدة باركنسون، فقد كانت تلك المناسبة الوحيدة،

بل الزهور البرية التي أقطفها من أماكن القمامة، أو من جانب البحيرة، أو حيثما نمت.

بعد وقت قصير من وفاة ماري، غادرتُ منزل السيدة باركنسون. لم أرغب في البقاء، ولم تعد السيدتان باركنسون وهوني لطيفتين تجاهي. شكّتا على الأغلب في مساعدتي لماري في علاقاتها بالرجل الذي اعتقدوا أنني أعرفه. ومع أن هذا غير صحيح، إلا أنه يصعبُ وضع حد للشكوك بمجرد أن تبدأ. عندما أعربتُ عن رغبتي في ترك مكاني، لم تعارض السيدة باركنسون، بل استدعتني إلى المكتبة بدلًا من ذلك، وسألت جديًا مرة أخرى إن كنتُ أعرف الرجل. وعندما قلت إنني لا أعرفه، طلبت مني أن أقسم على الإنجيل بعدم الإفصاح عنه حتى لو كنت أعرف، وفي المقابل ستكتب لي توصية جيدة. لم يعجبني أن أعامل بعدم ثقة، لكنني فعلت ما طلب مني، وكتبت السيدة باركنسون التوصية، وقالت بلطف إنها لم تشتكِ من أي خطأ في عملي، وأعطتني بسخاء دولارين هدية قبيل مغادرتي، وعثرت لي على عمل جديد مع السيد ديكسون، الذي كان يعمل واليًا أيضًا.

في منزل السيد ديكسون، كنت أتلقى راتبًا أعلى، حيث أصبحت الآن مدربة وأحمل توصية. كانت الخادمات اللاتي يعتمد عليهن نادرات. حيث غادر الكثير منهن إلى الولايات المتحدة بعد التمرد، وبالرغم من وصول مهاجرين جدد طوال الوقت، إلا أن العجز لم يُسدّ بعد، وكان الطلب على الخدم كبيرًا. ولهذا السبب كنت أعلم أنني لن أضطر للبقاء في أي مكان إن لم يعجبني.

لم يعجبني الوضع في منزل السيد ديكسون، لأنني شعرت أنهم يعرفون جزءًا كبيرًا من القصة، وكانوا يعاملونني بشكل غريب. لذلك قدمتُ إخطارًا بالمغادرة بعد مرور نصف عام، وذهبت لمنزل السيد مكمانوس. لكنني لم أرتح هناك أيضًا، إذ كنتُ واحدة من اثنين من الخدم، وكان الآخر رجلًا كثير الحديث عن نهاية العالم، والمعاناة، وصرير الأسنان، ولم يكن رفيقًا جيدًا

للوجبات. بقيت هناك لثلاثة أشهر فقط، ثم وظفني السيد كوتس، وبقيت بضعة أشهر بعد عيد ميلادي الخامس عشر. كانت لديهم خادمة أخرى تغار مني، لأني أحرص منها في عملي. لذا انتقلتُ لمنزل السيد هيرفي بالأجر نفسه الذي أتقاضاه لدى كوتس، عندما سمعت بالفرصة.

كان الأمر جيدًا لبعض الوقت، إلى أن بدأت أشعر بعدم الارتياح، بسبب محاولة السيد هيرفي التحرش بي في الممر الخلفي بينما كنت أحمل الأطباق من غرفة الطعام. وعلى الرغم من أني تذكرت نصيحة ماري حول الركل بين الساقين، وجدتُ أن ركل رب العمل غير صائب، وقد يؤدي إلى الفصل دون توصية. سمعته على الجانب الآخر من باب العلية في إحدى الليالي. تعرفت عليه من سعاله المصفر. كان يتحسس مزلاج الباب. ومع أني أغلق على نفسي دائمًا في الليل، فقد أدركت أنه سيجد طريقة للدخول عاجلًا أو آجلًا، إن كان الباب موصدًا أو لا، حتى لو اضطر للصعود بالسلم. لم أستطع النوم بسهولة من فرط التفكير في الأمر، مع حاجتي إليه، إذ كنت متعبة للغاية من العمل النهاري. فور العثور عليك مع رجل في غرفتك أنتِ المذنبة، بغض النظر عن كيفية دخوله. فكما اعتادت ماري القول: «هناك بعض السادة الذين يعتقدون أنك مدينة لهم بالخدمة طوال اليوم، وكان يجب عليك القيام بمعظم العمل ممددة على ظهرك.»

أعتقد أن السيدة هيرفي قد اشتبهت في شيء من هذا القبيل. السيدة هيرفي من عائلة جيدة. كانت تمر بأوقات عصيبة، عندما قررتْ أن تجرب حظها باتخاذ زوج، فيما كسب السيد هيرفي ثروته من ذبح الخنازير. أشك في أنها المرة الأولى التي يتصرف فيها السيد هيرفي بهذه الطريقة، إذ لم تسألني السيدة هيرفي لماذا، عندما قدمت إشعاري، بل تنهدت، وقالت إنني فتاة جيدة، وكتبتْ التوصية فورًا على أفضل أنواع الورق لديها.

ذهبتُ إلى منزل السيد واتسون. ولو أتيح لي الوقت، لتمكنتُ من العثور على فرصة أفضل. لكني شعرت بضرورة الانتقال السريع، بعد أن

جاء السيد هيرفي لاهثًا مصفرًا إلى غرفة غسيل الأواني بينما كنت ألمع القدور، ويداي مغطّاتان بالشحم والسُّخَام، وحاول استغلال الوضع للإمساك بي على الرغم من كل ذلك، وكانت هذه علامة على يأس الرجل.

السيد واتسون صانع أحذية في أمس الحاجة للمساعدة، مع زوجة وثلاثة أطفال ورابع في الطريق، وكانت لديه خادمة واحدة فقط غير قادرة على تدبر كل الغسيل، على الرغم من أنها طباخة جيدة فيما يتعلق بالأطباق العادية. ولذلك كان على استعداد لدفع دولارين وخمسين سنتًا في الشهر مع زوج من الأحذية لإتمام الصفقة. كنت بحاجة إلى حذاء، فحذائي مهترئٌ تقريبًا، والزوج الذي تركته ماري لم يناسبني، أما الأحذية الجديدة فباهظة الثمن.

لم يمضِ الكثير على قدومي حتى تعرفت على نانسي مونتغمري، التي جاءت لزيارة سالي طاهية السيدة واتسون، فقد نشأتا معًا. كانت نانسي في تورونتو لشراء الملابس والأقمشة وأدوات الخياطة من مزاد يقام في متاجر كلاركسون. عرَضَتْ علينا قطعة الحرير القرمزي الجميلة التي اشترتها لخياطة ثوب شتوي -وتساءلتُ ما حاجة مدبرة منزلٍ لثوب كهذا- وبعض القفازات الجميلة، ومفارش من الكتان الإيرلندي نيابة عن رب عملها. قالت إنها تفضل الشراء من المزاد عوضًا عن المتجر، لأن الأسعار أرخص، ويحب سيدها استغلال كل قرش. لم تكن قد استقلت عربة عامة إلى المدينة، بل أوصلها بنفسه، وهو أنسب لها، حتى لا تضطر لمزاحمة الغرباء.

تبلغ نانسي مونتغمري حوالي أربعة وعشرين عامًا، جميلة جدًا، بشعر داكن. كانت لديها عينان بنّيّتان جميلتان، وكانت تضحك وتمزح مثل ماري ويتني، وبدت ذات طبع جيد للغاية. جلستْ في المطبخ وتناولتْ كوبًا من الشاي، وتحدثتْ هي وسالي عن الأيام الخوالي. لقد قصدن المدرسة نفسها، وهي الأولى في المنطقة، تقع في الشمال، يتولاها قس محلي صباح السبت، عندما يكون الأطفال خارج عملهم. «عُقِدَت الدروس في منزل خشبي، وكأنه إصطبل.» قالت نانسي. وكان عليهم أن يسيروا إليها عبر الغابة، على الرغم

من خشيتهم من الدببة، التي كانت أكثر عددًا في ذلك الوقت. في أحد الأيام رأوا دبًا، فهربت نانسي صارخة، وتسلقت إحدى الأشجار. قالت سالي إن الدب خاف أكثر منها، وقالت نانسي إنه لا شكّ دبٌ نبيل، هرب من ذلك الشيء الخطير الذي لمحه وهي تتسلق الشجرة. وضحكن كثيرًا. وتذكرن كيف دفع الأولاد المرحاض خلف المدرسة بينما كانت إحدى الفتيات فيه، ولم يحذرن الفتاة، بل راقبن مع الآخرين ما يحدث، ثم شعرن بالذنب تجاهها بعد ذلك. قالت سالي إنها خجولة مثل الفتاة التي تعرضت للمضايقة. قالت نانسي نعم، ولكن على المرء أن يتعلم الدفاع عن نفسه في هذه الحياة. واعتقدتُ أن كلامها صحيح.

بينما تلتقط نانسي شالها وتجمع حاجياتها، التي كانت بينها مظلة جميلة، بلون وردي، بالرغم من حاجتها للتنظيف، أخبرتني أنها مدبرة منزل السيد توماس كينير المحترم، الذي يعيش في ريتشموند هيل، فوق شارع يونج بعد جالو هيل وهوجز هولو. قالت إنها بحاجة لخادمة أخرى تساعدها في العمل، إذ إنّ المنزل كبير، والفتاة التي معها غادرت للزواج. كان السيد كينير رجلًا من عائلة إسكتلندية رفيعة، مريحٌ في عاداته، غير متزوج، ممّا يعني أن العمل أقل، وأن المنزل بلا سيدة تعيب وتنتقد، وسألتني إن كنتُ مهتمة بالوظيفة؟

وادّعتْ أنها تتوق لرفقة نسائية، فمزرعة السيد كينير على مسافة من البلدة، وهي لا تحب أن تكون هناك لوحدها، فامرأة عزبة وسط السادة، تدفع الناس للكلام. واعتقدتُ أن هذا يظهر حسًا سليمًا. قالت إن السيد كينير رجل ليبرالي، يُكرم عندما يكون راضيًا. وإنّي إذا ما قبلت، فسوف أحظى بصفقة جيدة وأتقدم خطوة في العالم. ثم سألتْ عن أجري الحالي، وقالت إنها ستدفع ثلاثة دولارات في الشهر. ووجدت أنّ هذا أكثر من عادل.

قالت نانسي إن لها عملًا في المدينة ستعود لأجله خلال أسبوع، ويمكنها الانتظار حتى حينها لتعرف قراري. قضيت الأسبوع أقلب الموضوع في ذهني.

شعرتُ بالقلق من الانتقال إلى الريف، بعد أن عشت في المدينة، فقد اعتدت على الحياة في تورونتو: كان هناك الكثير لرؤيته أثناء الخروج لأداء المهمات، وفي بعض الأحيان تقام أسواق ومعارض -بالرغم من أنه يتعين عليك الحذر من اللصوص، والمبشرين في الخارج- ودائمًا ما تجد صبيًا أو امرأة يغنون في الشارع لجمع القليل من المال. رأيت رجلًا يأكل النار، وآخر يتكلم من بطنه، وخنزيرًا قادرًا على العد، ودبًا يرقص مرتديًا كمامة، مع أنه في الواقع أشبه بالترنح استجابة للكزات صبي رث يوجه إليه عصاه. سيكون الريف موحلًا، بدون الأرصفة الجميلة المرتفعة. بلا مصابيح زيت تضيء في الليل، بلا محلات كبيرة، وأبراج كنائس، وعربات أنيقة، وبنوك الطوب ذات الأعمدة. لكنني فكرت أن بإمكاني العودة دائمًا إذا لم تعجبني الإقامة في الريف.

عندما سألت سالي عن رأيها، قالت إنها لا تعرف ما إذا كان هذا المنصب مناسبًا لفتاة شابة مثلي، وعندما سألتها: لم لا؟ قالت إن نانسي كانت دومًا لطيفة معها، لذا لا تريد التحدث عن ذلك، وعلى الإنسان أن يجرب فرصه الخاصة، وعدم الكلام عن المشاكل علاج للمشاكل، ولأنها ليست متأكدة من أي شيء، فليس من الصواب أن تقول أكثر. لكنها شعرت بأنها قامت بواجبها من خلال قول القدر الذي قالته، إذ إنّي بلا أم تنصحني. ولم تكن لدي أدنى فكرة عمّا تتحدث عنه.

سألتها ما إذا كانت قد سمعت عمّا يسيء إلى السيد كينير، فقالت: ليس ما يتفق العالم على أنه إساءة.

كانت أشبه بأحجية لا أستطيع حلها. وكان من الأفضل للجميع لو أنها تحدثت بوضوح. لكن الراتب أعلى من أي راتب عُرض علي، وهو ما أثر في قراري. كذلك كانت نانسي مونتغمري نفسها تشبه ماري ويتني، أو هذا ما ظننته. ومعنوياتي المتدنية منذ وفاة ماري. لهذا كله قررت الذهاب.

23

أعطتني نانسي ثمن التذكرة، وهكذا أخذتُ أول عربة في اليوم المتفق عليه. كانت رحلة طويلة، إذ تبعد ريتشموند هيل ستة عشر ميلًا بعد شارع يانغ. لم يكن الطريق سيئًا للغاية شمال المدينة، على الرغم من التلال شديدة الانحدار التي اضطررنا للخروج والمشي لاجتيازها، وإلّا فما كانت الخيول ستتمكن من سحبنا. صادفنا العديد من الزهور التي تنمو بجانب مصارف المياه كالأقحوان، وفراشات تحلق حولها، وكانت هذه الأجزاء من الطريق جميلة جدًا. فكرت في اختيار باقة، لكنها بلا شك ستذبل في الطريق.

بمضي الوقت، أصبح الطريق أسوأ، الحجارة الأخاديد العميقة تتسبب بارتجاجات وارتطامات كافية لزعزعة مفاصلك، والغبار فوق قمم التلال قادر على خنقك، والطين في الأماكن المنخفضة، وألواح وضعت على مفترق الطرق فوق المستنقعات. قالوا إنها عندما تمطر فإن الطريق يصبح أرضًا سبخة، وفي مارس خلال ذوبان الثلج في الربيع، بالكاد تستطيع السفر على الإطلاق. أما أفضل وقت فهو الشتاء، عندما يتجمد كل شيء بصلابة، وعندها يمكن للمزلقة أن تتخذ طريقها بسهولة. ولكن يبقى خطر العواصف الثلجية، والتجمد حتى الموت إذا انقلبت المزلقة، فأحيانًا تتكدس الكثبان الثلجية بارتفاع منزل، وكانت فرصتك الوحيدة للنجاة هي بالقليل من الصلاة والكثير من الويسكي. أخبرني كل هذا وأكثر، الرجلُ الذي جلس محشورًا بجانبي، حيث قال إنه كان تاجرًا في الأدوات الزراعية وبذور الحبوب، وادّعى أنه يعرف الطريق جيدًا.

مررنا في طريقنا بمنازل كبيرة وجميلة، وأخرى لا تعدو كونها بيوتًا خشبية، منخفضة وذات مظهر فقير. كانت الأسوار حول الحقول مختلفة الأنواع، أسيجة ثعابين من قضبان مكسرة، وأخرى مصنوعة من جذور شجرة سُحِبَت من الأرض، تبدو كطية عملاقة من الشعر الخشبي. يظهرُ بين الحين والآخر مفترق طرق مع تكتّلات من المنازل المتقاربة بالإضافة إلى نزل، حيث يمكن إراحة أو استبدال الخيول وشرب كأس من الويسكي. بعض الرجال الذين يتسكعون

كانوا قد أخذوا أكثر بكثير من مجرد كوب واحد، وكانوا يلبسون ملابس رثة، وقد وصلوا إلى العربة حيث جلست، وحاولوا النظر تحت حافة قبعتي. عندما توقفنا في منتصف النهار، سألني تاجر الأدوات الزراعية إن كنت مهتمة بالذهاب إلى الداخل وشرب كأس وتناول بعض المرطبات، لكنني قلت لا، إذ لا ينبغي لامرأة محترمة أن تذهب إلى هذه الأماكن مع غريب. كان معي بعض الخبز والجبن وبإمكاني الحصول على شربة ماء من بئر الفناء، وكان ذلك كافيًا بالنسبة لي.

لبست للرحلة أفضل ملابسي الصيفية. كانت لدي قبعة من القش، مزينة بشريط منحنٍ أزرق، أخذته من صندوق ماري، وكان غطاء رأسي تحتها، وفستان من القطن المطبع مع أكمام تتجاوز الكتفين انتهت موضتها، غير أني لم أجد الوقت الكافي لإصلاحها. كان في الأصل مطبعًا بنقاط حمراء، لكنها أصبحت وردية بسبب الغسيل، وقد كان جزءًا من أجري في منزل كوتس. اثنتان من التنانير الداخلية، واحدة ممزقة ولكنها أصلحت بعناية، أما الأخرى فقد أصبحت قصيرة جدًا الآن، ولكن من يمكنه رؤيتها؟ وقميص تحتي من القطن وزوج من المشدات المستخدمة من جيرمايا -البائع المتجول- وجوارب من القطن الأبيض، مرتقة ولكن لا تزال صالحة لتلبس. وزوج الأحذية التي قدمها لي السيد واتسون صانع الأحذية، لم تكن بجودة عالية ولم تناسبني، إذ إنّ أفضل الأحذية تأتي من إنجلترا. شال صيفي من الموسولين الأخضر، ومنديل تركته ماري لي، يعود لأمّها. المنديل كان أبيضَ ومطبعًا بزهور زرقاء صغيرة من نوع الشونيز الدمشقي، مطويًا على شكل مثلث، يُلبس حول الرقبة للحماية من الشمس ومنع النمش. كانت حيازة شيء يذكرني بها، مصدر عزاء. لكنّني لم أمتلك قفازات، لم أُعطَ ولم أشترِ، فهي تتجاوز إمكاناتي.

كانت أغراضي الشتوية: تنورة الفلانيل الداخلية الحمراء، وثوبي الثقيل، وجواربي الصوفية، ومنامتي الفلانيل، بالإضافة إلى منامتين من القطن للصيف، ولباس العمل الصيفي وقباقيبي وقبعتين، ومئزر، ولباسي الآخر. كانت كلها محزومة مع شال والدتي ومحملة على سطح العربة. كانت مربوطة جيدًا ولكني

بقيتُ قلقة بشأنها طوال الرحلة، من أن تسقط وتضيع في الطريق، فصرت أنظر إلى الخلف.

«لا تنظري خلفك أبدًا.» قال تاجر الأدوات الزراعية. «لم لا؟» قلت. كنت أعرف أنه لا يفترض بي التحدث مع رجال غرباء، ولكن كان من الصعب تجنب ذلك، فقد كنا محشورين بقرب بعضنا البعض. «لأن الماضي هو الماضي -قال- والندم هو عبث، دعي السالف يذهب. تعرفين ماذا حدث لزوجة لوط[18] -واصل- تحولت إلى عمود من الملح، امرأة جيدة تذهب هدرًا، ليس الأمر وكأنها أفضل من الملح.» وضحك. لم أكن متأكّدة ممّا عناه، غير أنني شككت في أنه لا يمكن أن يكون جيدًا، وفكرت في أنني لن أتحدّث معه.

كان البعوض مؤذيًا للغاية، خاصةً في الأماكن السبخة وحواف الغابات، لأنه على الرغم من أن بعض الأراضي المجاورة للطريق قد نُظِّفَت، فلا تزال تنتصب بعض الأشجار الكبيرة، الطويلة والقاتمة. كانت لهواء الغابة رائحة مختلفة؛ باردة ورطبة، خليط من الطحالب والأرض والأوراق القديمة. لم أثق بالغابة، لأنها كانت مليئة بالحيوانات البرية مثل الدببة والذئاب. وتذكرت قصة نانسي عن الدب. قال تاجر الأدوات الزراعية: هل تخافين الذهاب إلى الغابة يا آنسة؟ وقلت: لا أخاف. لكني لن أذهب إلّا إذا اضطررت. وقال أيضًا: لا ينبغي للشابات الذهاب إلى الغابة وحدهن، فأنت لا تعرف أبدًا ما قد يحدث لهن، عثروا على إحداهن مؤخرًا، كانت ملابسها ممزقة ورأسها مرميًّا على مسافة من جسدها. وقلت: أوه، هل فعلت الدببة ذلك؟ وقال: الدببة أو الهنود الحمر، أتعلمين أن الغابة مليئة بهم؟ بإمكانهم الانقضاض في أي لحظة، ونزع قلنسوتك بلمح البصر ومن ثم فروة رأسك، فهم يحبون قطع شعر السيدات، إذ يمكنهم بيعه بسعر جيد في الولايات المتحدة. ثم قال: أتوقع أن لك شعر رأس جيدًا تحت الغطاء. وكان يضغط عليّ -طوال هذا الوقت- بطريقة وجدتها مسيئة.

---

18 حسب الكتاب المقدس، تحجرت زوجة لوط متحولة إلى عمود من الملح بعد أن نظرت خلفها إلى سدوم. (م).

كنت أعرف أنه يكذب، إن لم يكن حول الدببة، فحول الهنود بالتأكيد، وكل ما كان يحاول فعله هو بث الرعب فيّ. فقلت بوقاحة إلى حد ما: أني آمن على رأسي مع الهنود -الذين ذكرتهم- أكثر ممّا آمن عليه معك. فضحك، على الرغم من أنني كنت أعني ما أقول. شاهدت الهنود الحمر في تورنتو، حيث كانوا يذهبون في بعض الأحيان إلى هناك لجمع أموال معاهداتهم[19] وآخرون يأتون إلى الباب الخلفي للسيدة باركنسون لبيع السلال والأسماك. إنهم يبقون وجوههم ساكنة فلا تعرف في ماذا يفكرون، لكنهم يتعدون ما إن يطلب منهم ذلك. مع هذا كنت مسرورة بمغادرة الغابة، ومشاهدة الأسيجة والمنازل والغسيل المتدلي، وشم دخان النار الموقدة للطبخ، والأشجار التي تحرق من أجل رمادها.

بعد مرور شيء من الوقت، مررنا ببقايا مبنًى لم ينجُ منه سوى الأساس المسود. أشار التاجر إليه، وأخبرني أنها حانة مونتغمري الشهيرة، حيث كان ماكنزي وعصبته الرعاع يعقدون اجتماعاتهم المحرضة، للانطلاق في مسيرات عبر شارع يونغ، خلال التمرد. أُطلِقَت النار على رجل أمامه، كان ذاهبًا لتحذير قوات الحكومة، بعد ذلك أحرِقَت. شنقوا بعض هؤلاء الخونة ولكن ليس بما فيه الكفاية -قال التاجر- ويجب أن يُسحب ذلك الجبان الصفيق ماكنزي من الولايات المتحدة، حيث هرب، تاركًا أصدقاءه يتأرجحون في نهاية الحبال من أجله. كان التاجر يمتلك قارورة في جيبه، وبحلول هذا الوقت أصبحت لديه جرعة قوية من شجاعة الزجاجة، تشي رائحة أنفاسه بذلك، وعندما يكونون في تلك الحالة، فمن الأفضل عدم استفزازهم. لذلك لم أقل شيئًا.

وصلنا ريتشموند هيل في وقت متأخر بعد الظهر. المكان لا يشبه باقي البلدة. كان أشبه بقرية، حيث المنازل مصفوفة في خط على طول شارع يونغ. هبطتُ في نزل محطة العربات، وهو المكان الذي اتفقت مع نانسي للقاء فيه، وأنزل الحوذي حزمتي. نزل تاجر الأدوات الزراعية أيضًا، وسألني عن مكان إقامتي، فأجبت أنّه لن يضيره ألّا يعرف. عند ذاك أمسك بذراعي، وقال إن عليّ الذهاب معه إلى النزل،

19 المدفوعات التي يستحقها الهنود لقاء توقيعهم المعاهدات مع التاج البريطاني. (م).

وتناول مشروب أو اثنين من الويسكي لأجل الأيام الخوالي، حيث أصبحنا معارفَ مقربين في العربة. وحاولت أن أسحب ذراعي، لكنه لم يفلتها، ثم تمادى وحاول تطويق خصري. وكان العديد من الرجال المتعطلين يهتفون له. نظرت حولي بحثًا عن نانسي، لكني لم أرها. فكرت في الانطباع الذي سأتركه في نفسها حين تجدني أصارع رجلًا مخمورًا في نزل. كان باب النزل مفتوحًا، وفي تلك اللحظة خرج جيرمايا البائع المتجول، بحزمة على ظهره وعصًا طويلة في يده. سررتُ برؤيته، وناديته. نظر حوله بارتباك، ثم أسرع باتجاهي.

- أوه إنها غريس ماركس. لم أكن أتوقع رؤيتك هنا.
- ولا أنا.

قلت وابتسمت، لكني كنت مرتبكة إلى حد ما بسبب تاجر الأدوات الزراعية، الذي كان لا يزال ممسكًا بذراعي.

- هل هذا الرجل صديقك؟
- لا، إنه ليس كذلك.
- هيا! السيدة لا تريد رفقتك. قال جيرمايا بصوته متظاهرًا بأنه رجل نبيل.

وقال تاجر الأدوات الزراعية إني لست سيدة، وأضاف بعض الأشياء التي لم تكن مجاملات بالتأكيد، وأيضًا بعض الكلمات النابية حول والدة جيرمايا. أخذ جيرمايا عصاه ونزل بها على ذراع الرجل، فأفلتني. ثم دفعه، فترنح إلى الوراء ناحية جدار النزل، وسقط جالسًا في روث حصان. حينها أطلق الآخرون عليه عويلهم المتهكم، لأن هذا النوع سيوجه تهكمه دائمًا نحو صاحب الموقف الأضعف أيًا يكن. ألديك مقام في الحي؟ سأل جيرمايا عندما شكرته. رددت بالإيجاب، وقال إنه سيأتي ويرى ما يمكن أن يبيعني. وعندها جاء رجل ثالث: هل يمكن أن يكون اسمك غريس ماركس؟ قال ذلك، أو شيئًا من هذا القبيل. لا أستطيع تذكر كلماته تحديدًا. قلت إن هذا هو اسمي. وقال إنه السيد توماس كينير، رب عملي الجديد، وقد جاء لأخذي. كانت لديه عربة خفيفة يجرها حصان واحد، اكتشفت في وقت لاحق أن اسمه تشارلي، على اسم

حصان تشارلي.[20] كان كُمَيْتًا مخصيًا ووسيمًا جدًا، مع عرف وذيل بديعين وعينين بنيّتين كبيرتين، وقد أحببته كثيرًا من النظرة الأولى.

طلب السيد كينير من السائس وضع حزمتي في مؤخرة العربة، كانت هناك بعض الرزم بالفعل. وقال: حسنًا، لم يمضِ على وجودك أكثر من خمس دقائق، وها أنت تجذبين معجبين اثنين من الرجال المحترمين. وقلت إنهم ليسوا كذلك. وقال: ليسوا سادة، أم ليسوا معجبين؟ وقد اختلط عليّ الأمر، ولم أعرف ما يريد مني قوله.

ثم قال: هيّا اصعدي غريس. وقلت: أوه، هل تعني أن أجلس في الأمام؟ وقال: حسنًا، يمكننا بصعوبة أن نجد لك مكانًا في الخلف كقطعة من الأمتعة، ومد يده ليساعدني على الجلوس بجانبه. شعرت بالحرج الشديد، لأنني لم أكن معتادة على الجلوس بجانب رجل مثله، وخصوصًا مع كونه رب عملي، لكنه كان حازمًا، ثم نهض على الجانب الآخر ونقر للحصان، وهكذا كنّا نسير في شارع يونغ، تمامًا كما لو كنت سيدة رفيعة، واعتقدت أن الذين ينظرون إلينا من نوافذهم، سيتحدثون عنّا. ولكن كما عرفت لاحقًا، فالسيد كينير ليس من النوع الذي يلتفت للقيل والقال، لأنه لم يهتم قيد أنملة بما يقوله الآخرون عنه. كان لديه ماله الخاص ولم يكن يسعى إلى أي منصب سياسي، وهكذا كان بإمكانه احتمال تبعات مثل هذه الأشياء.

- كيف كان يبدو السيد كينير؟
- رجل نبيل بلحية وشارب، سيدي.
- هل هذا كل شيء؟ ألم تلاحظيه بتمعن!
- لم أكن أرغب في الحملقة إليه بفم مفتوح. وفور أن صرنا في العربة لم أنظر إليه بالطبع. كنت أحتاج إلى أن ألوي رأسي بالكامل لأتمكن من رؤيته عبر قلنسوتي. أفترض أنك لم ترتدِ قلنسوةَ سيدات من قبل، هل فعلت سيدي؟

20 نوع من التشنجات العضلية. (م).

- لا لم أفعل -يبتسم ابتسامته المائلة- لكني أتوقع أن تكون مقيّدة.
- هذا صحيح سيدي. لكني رأيت قفازاته مع ذلك، تغطي يديه وهما تمسكان بالزمام، كانت قفازات صفراء فاتحة، من الجلد الأملس، جيدة الصنع، تلائمه تمامًا دون أي تجعيد، حتى إنّك لتظن أن ذلك جلده وليس قفازًا. شعرت بأسف أشد لأنني لم أمتلك قفازات، وأبقيت يديّ مغطاتين جيدًا تحت شالي.

«أفترض أنك متعبة جدًا غريس.» قال. وقلت: «نعم يا سيدي.» وقال: «إن الطقس حار جدًا.» وقلت: «نعم سيدي.» وبقينا هكذا، ولأكون صادقة معك، فالجلوس بجانبه كان أصعب من ركوب العربة الرجراجة بجانب تاجر الأدوات الزراعية، لا أعرف لماذا، إذ كان السيد كينير ألطف بكثير. لكن لحسن الحظ أن ريتشموند هيل لم تكن مكانًا كبيرًا جدًا، فتجاوزنا الأمر سريعًا. كان يعيش بعد حافة القرية، على بعد أكثر من ميل إلى الشمال منها. في النهاية كنا نتجاوز بستانه، صاعدين الطريق الداخلي، الذي كان منحنيًا وبطول حوالي مئة ياردة، وامتد بين صفين من أشجار القيقب متوسطة الحجم. وكان المنزل في نهاية الطريق. بيت بشرفة أرضية على طول الجزء الأمامي منه وأعمدة بيضاء، منزل كبير ولكن ليس بحجم منزل السيدة بركنسون.

جاء صوت تقطيع الخشب من خلفه. كان صبيٌّ بعمر أربعة عشر عامًا يجلس على السياج، عندما وصلنا، قفز وجاء ليمسك الحصان. كان له شعر أحمر، مقصوص بشكل رثّ، ونمش يتماشى معها. قال السيد كينير موجّهًا كلامه له: مرحبًا جيمي، هذه غريس ماركس جاءت قاطعة الطريق إلينا من تورنتو، وجدتها في النزل، نظر الولد إليّ وابتسم ابتسامة عريضة، كما لو أنه وجد ما يُضحك فيّ، لكن الحقيقة أنه كان خجولًا ومحرجًا فقط.

كانت هناك زهور مزروعة أمام الشرفة الأرضية، من الفاوانيا البيضاء والورود الوردية، مالت لتقطفها سيدة كيسة المظهر، بفستان ذي كشكشة

من ثلاث طبقات. كانت لديها سلة مسطحة معلقة بذراعها لوضع الزهور فيها. عندما سمعتْ عجلات عربتنا وحوافر الحصان على الحصى، اعتدلت واقفة، وظلّلت عينيها بيدها، فرأيت أنها كانت تلبس قفازات. ثم أدركت أن هذه المرأة هي نانسي مونتغمري. كانت تلبس قبعة بذات اللون الفاتح الذي لثوبها، وكأنها لبست أفضل ملابسها لتخرج إلى مقدمة البيت وتقطع الزهور. لوحت بيدها في أناقة باتجاهي، لكنها لم تُبدِ أي حركة لتأتي ناحيتي. أحسست بانقباض في قلبي.

كان صعود العربة شيئًا، والنزول عنها شيئًا آخر تمامًا. لأن السيد كينير لم يساعدني، فقد مضى لوحده، وأسرع باتجاه مقدمة المنزل، وأمال رأسه نحو قلنسوة نانسي، فيما تركني في العربة أمام خيارين إمّا الجلوس مثل كيس من البطاطا، أو الزحف إلى الأسفل دون مساعدة، وهو ما فعلته. خرج رجل من الخلف. كان يحمل فأسًا، لا بد أنه الذي كان يقطع الخشب. بسترة سميكة منسوجة معلقة على إحدى كتفيه، وأكمام مرفوعة إلى أعلى، وقميص مفتوح الرقبة، ومنديل أحمر مربوط حولها، بينطال فضفاض مدسوس في قمة حذائه. كان ذا شعر داكن، نحيلًا، وليس طويلًا جدًا، ولم يبدُ أنه يتجاوز الحادية والعشرين. لم يقل شيئًا، لكنه حدق بي مشتبهًا ومقطّبًا قليلًا، وكأنني عدو له. حتى الآن لا يبدو وكأنه ينظر إلي على الإطلاق، ولكن إلى شخص آخر خلفي.

قال الصبي جيمي: هذه غريس ماركس. لكنه بقي دون كلام. ثم نادت نانسي: ماكديرموت... أدخل الحصان من فضلك، وخذ أشياء غريس إلى غرفتها، يمكنك أن تطلعها على مكانها. عند ذلك احمرّ وجهه كما لو كان غاضبًا، وأومأ برأسه لي لأتبعه.

وقفت هناك للحظة وضوء الغروب في عيني، أنظر إلى نانسي والسيد كينير بجانب الفاوانيا. كانا محاطين بضباب ذهبي، وكأن غبارًا من الذهب سقط عليهما من السماء، وسمعت ضحكتها. كنت أشعر بالحر والتعب

والجوع، مغطاة بالغبار من أثر الطريق، ولم تقدم لي حتى التحية.

ثم تبعت الحصان والعربة نحو الجزء الخلفي من المنزل. كان الصبي جيمي يسير إلى جانبي، وقال بخجل: هل هي كبيرة، أعني تورونتو، هل هي ضخمة جدًا؟ لم يسبق لي الذهاب إليها. ولكن كل ما قلته هو أنها كبيرة بما يكفي. لم أستطع احتمال التحدث عن تورنتو، فكل ما شعرت به حينها، هو أسفي المرير على مغادرتها.

عندما أغلق عيني أستطيع تذكر كل تفاصيل ذلك البيت، واضحة مثل صورة: الشرفة الأرضية مع الزهور، النوافذ والأعمدة البيضاء في ضوء الشمس الساطع. يمكنني أن أمشي عبر غرفه معصوبة العينين، على الرغم من أني لم أمتلك شعورًا محدّدًا تجاهه حينها، وكل ما أردته هو شربة ماء. من الغريب التفكير في سكان ذلك البيت، إذ إنّي سأكون الحية الوحيدة بينهم جميعًا في غضون ستة أشهر.

باستثناء جيمي والش بالطبع، لكنّه لم يكن يقيم هناك.

24

أرشدني ماكديرموت إلى الغرفة المعدة لي، والتي كانت خارج المطبخ الشتوي. لم يكن مهذّبًا، كل ما قاله هو: ستنامين هنا. بينما كنت أفك حزمتي دخلت نانسي، وقد صارت منشرحةً الآن. قالت: إنني مسرورة جدًا لرؤيتك غريس، وسعيدة جدًا لأنك جئت. أجلستني على الطاولة في المطبخ الشتوي، الذي كان أبرد من المطبخ الصيفي لأن الموقد غير مضاء، وأرشدتني إلى المغسلة حيث يمكنني غسل وجهي ويدي، ثم أعطتني كوبًا صغيرًا من البيرة وبعض اللحم البارد من مخزن اللحوم، وقالت: لا بدّ أنك متعبة بعد رحلتك، إنّه أمر مجهد، وجلست معي بكل كرم بينما كنت آكل.

كانت تلبس زوجًا من الأقراط الجميلة، يمكنني أن أرى أنها من الذهب الحقيقي، وتساءلت كيف يمكنها تحمل كلفتها، براتب مدبرة منزل.

بعد أن انتهيت من الاغتسال، أطلعتني على المنزل والمباني الملحقة. كان المطبخ الصيفي منفصلًا تمامًا عن البيت الرئيس، حتى لا تتسبب الحرارة في تسخين البيت، وهو ترتيب معقول يجب أن يتبناه الجميع. كانت لكلّ من المطبخين أرضية مرصوفة وموقدٌ حديديٌ بحجم جيّد مع غطاء مسطح في الأمام لحفظ الأشياء الدافئة، وفق أحدث طراز حينها. وكان لكل مطبخ حوضه الخاص الموصل بأنبوب تصريف إلى البالوعة، ولكل منهما أيضًا مغسلة أطباق ومخزن لحوم. كانت مضخة الماء في الفناء بين المطبخين، وقد أسعدني أنه لم يكن بئرًا مفتوحًا، لأن ذلك النوع من الآبار أخطر، حيث يمكن أن تسقط الأشياء داخلها، وغالبًا ما تكون مأوًى للجرذان.

كان الإصطبل وراء المطبخ الصيفي، مجاورًا المرآب، حيث توضع العربات. كان المرآب يتسع لعربتين، لكن لم يكن للسيد كينير سوى العربة الخفيفة، أفترض أن عربة حقيقية ستكون عديمة الفائدة على تلك الطرق. كان الإصطبل مقسّمًا إلى أربع حظائر، ولكن السيد كينير لم يضع فيه سوى بقرة واحدة وحصانين؛ الحصان تشارلي، والمهر الذي يفترض أن يصبح حصان ركوب عندما يكبر. غرفة

السرج كانت خارج المطبخ الشتوي، والذي كان أمرًا غير معتاد، وغير عمليّ أيضًا.

توجد غرفة علوية فوق الإصطبل، ينام فيها ماكديرموت. أخبرتني نانسي أنه وصل منذ أسبوع أو نحو ذلك. وعلى الرغم من أنه متيقظ لأوامر السيد كينير، إلا أنه يحمل ضغينة ضد نانسي، ويعاملها بوقاحة. أخبرتها أنه لا يخصها وحدها بالضغينة، وهي ليست موجهة إليها بل للعالم كما يبدو، إذ كان فظًا معي أنا أيضًا. قالت نانسي إمّا أن يصلح أسلوبه أو يغادر، فهناك الكثير مثله من حيث أتى، إذ إنّ الجنود المسرحين رهن الطلب.

لطالما أحببتُ رائحة الإصطبلات. ربّتُ على أنف المهر وتمنيتُ لتشارلي يومًا جيدًا، ورحبت بالبقرة التي سأكون المسؤولة عن حلبها، تمنيت أن نبدأ بداية جيدة. كان ماكديرموت يعد القش للحيوانات في هذه الأثناء، لم يحادثنا سوى بنخيره، ووجه لنانسي نظرة متجهمة، واستطعت أن أرى أنه ما من ودّ بينهما، وعندما خرجنا من الإصطبل، قالت نانسي: إنه يزداد شراسة، حسنًا، عليه أن يقرر؛ إما الابتسامة، أو الطريق المفتوح. ثم ضحكتْ، تمنيتُ ألّا يكون قد سمعها.

بعد ذلك رأينا حظيرة وفناء الدجاج، الذي كان مسوّرًا بسياج مشبوك من الصفصاف لإبقاء الدجاج في الداخل، على الرغم من أنه لم يكن مثاليًا لحمايتها من الثعالب وأبناء عرس، وحيوانات الراكون، المشهورة بسرقتها للبيض. حديقة المطبخ مزروعة لكن بحاجة للجرف. ثم بعيدًا إلى الوراء يوجد المرحاض في نهاية المسار.

كانت لدى السيد كينير أرضٌ واسعة، حقل رعي مخصص للبقرة والخيول، وبستان صغير أسفل شارع يونغ، والعديد من الحقول الأخرى المزروعة، أو في طريقها لتخلى من الأشجار. «والد جيمي والش هو المسؤول عنها.» قالت نانسي. إنهم يملكون كوخًا في تلك الأرض يبعد حوالي أربعمئة متر. من حيث وقفنا، لم يكن بإمكاننا أن نرى غير السطح والمدخنة الخارجة من بين الأشجار. أما جيمي نفسه فقد كان فتًى ذكيًا وواعدًا، وقد كان يؤدي مهامًا للسيد كينير. ويمكنه عزف الفلوت أو ما يطلق عليه الفلوت، بالرغم من أنه لم يكن أكثر من مزمار. قالت

نانسي إنه سيأتي في بعض الأمسيات ويعزف لنا، فهو يحب العزف، وهي تستمتع بالموسيقا، كما أنها تتعلم حاليًا العزف على البيانو. تفاجأت إذ إنّه شيء غير مألوف بالنسبة لمدبرة منزل. لكني لم أقل شيئًا.

عُلقت في الفناء بين المطبخين ثلاثة حبال للغسيل. لا توجد غرفة منفصلة للغسيل، إلّا أن متعلقاته، المرجل وحوض الغسيل وألواح الفرك كانت موجودة في المطبخ الصيفي بجانب الموقد، وكلها بجودة عالية. أسعدني أنهم لا يصنعون صابونهم الخاص وإنما يستخدمون الصابون المشترى، وهو ألطف بكثير على اليدين.

أسعدني أنهم لا يملكون خنازير فهي كائنات ذكية بشكل يتعارض مع مصلحتها، وميالة للهروب من حظائرها، وكذلك لها رائحة غير مقبولة على الإطلاق. تعيش قطتان في الإصطبل، لإبعاد الفئران والجرذان، لكن لا كلاب، فقد توفي فانسي الكلب السابق للسيد كينير. قالت نانسي إنها ستشعر براحة إذا ما وُجد كلب في المكان لينبح في وجوه الغرباء، وكان السيد كينير يبحث عن كلب جيد ليصطاد معه. لم يكن رياضيًا عظيمًا، لكنه يحب أن يطلق النار على بطة أو اثنتين في الخريف، أو ربما أوزة برية، وهي متوفرة إلا أنها شديدة التليف حين يأتي الأمر لأكلها. عدنا إلى المطبخ الشتوي، وسرنا على طول الممر المؤدي من المطبخ إلى قاعة الدخول، والتي كانت كبيرة، تحوي موقدًا تعلوه قرون أيّل، وورق حائط أخضر جميل، بسجادة تركية فاخرة. الباب الأرضي إلى القبو موجود في هذه القاعة، وكان عليك أن ترفع زاوية من السجادة للوصول إليه، وهو ما وجدته غريبًا، فوجوده في المطبخ سيكون ملائمًا أكثر، غير أن المطبخ لم يكن له قبو تحته. لم تكن سلالم القبو مريحة إذ إنّها شديدة الانحدار. قُسّم القبو إلى قسمين عبر بناء نصف جدار؛ الألبان على جانب واحد، حيث تحفظ الزبدة والجبن، فيما يخزن على الجانب الآخر النبيذ والبيرة في براميل، والتفاح، والجزر والملفوف والشمندر والبطاطس في صناديق من الرمل في الشتاء، كما توجد براميل النبيذ الفارغة أيضًا. هناك نافذة، لكن نانسي قالت إن عليّ حمل شمعة أو فانوس فالمكان مظلمٌ تمامًا في الأسفل، ويمكن للمرء أن يتعثر ويسقط على طول الدرج فتتكسر عنقه.

لم ننزل القبو تلك المرة.

خارج القاعة تقع الصالة الأمامية، مع موقد خاص بها وصورتين معلقتين، إحداهما صورة عائلية، أفترض أنها لأسلافه إذ إنّ لهم وجوهًا قاسيةً ولباسًا من الطراز القديم. أما الأخرى فلثور كبير سمين ذي أرجل قصيرة. هناك البيانو أيضًا، ليس بيانوفورت وإنما مجرد بيانو قائم، ومصباح كروي وضعت به أفضل أنواع زيت الحوت، المجلوب من الولايات المتحدة؛ إذ لم يكن الكيروسين متوفرًا للمصابيح وقتها. خلفها كانت غرفة الطعام، أيضًا بموقدها الخاص، مع الشمعدانات الفضية وأواني الخزف الجيدة والصحون المحفوظة في خزانة مقفلة، وصورة لطيور دُرّاجٍ ميتة على رفّ الموقد، والتي لا أظن أن وجودها ملائم أثناء تناول الطعام. تتصل هذه الغرفة بالصالون من خلال باب مزدوج، كما يمكن الوصول إليها أيضًا عبر باب مفرد مطل على الممر، معد لجلب الطعام من المطبخ. على الجانب الآخر من الممر كانت مكتبة السيد كينير، لكننا لم ندخل حينها فقد كان يقرأ فيها، تقع خلفها غرفة دراسة أو مكتب صغير مع منضدة، حيث يكتب رسائله ويجلس لينجز أعماله.

تقود إلى الطابق الثاني سلالم جميلة بالقاعة الأمامية، ذات درابزين مصقول. صعدنا لنرى حجرة نوم السيد كينير التي تضمُ سريرًا كبيرًا، وغرفة ملابس مجاورة، ومنضدة زينة مع مرآة بيضاوية، وخزانة منقوشة. عُلّقت في حجرة النوم لوحة لامرأة دون ملابس، على أريكة، ملتفة وناظرة من فوق كتفها، واضعة شيئًا شبيهًا بالعمامة على رأسها، تحمل مروحة من ريش الطاووس. ريش الطاووس داخل المنزل فأل سيئ، كما يعلم الجميع. صحيح أنها مجرد صورة، مع ذلك ما كنت لأسمح بها أبدًا لو كان منزلي. هناك صورة أخرى لامرأة عارية تأخذ حمامًا، لكني لم أجد الفرصة لفحصها. كنت مأخوذة بفكرة أن لدى السيد كينير امرأتان عاريتان في غرفة نومه، أما في منزل السيدة باركنسون فقد كانت معظم اللوحات مناظر طبيعية أو زهورًا.

في أسفل القاعة باتجاه الخلف، كانت تقع حجرة نوم نانسي، التي لم تكن

كبيرة كالبقية. وكانت توجد سجادة في كل غرفة، ينبغي أن تضرب وتنظَّف هذه السجادات وتخزَّن خلال الصيف، لكن نانسي لم تتمكن من ذلك، لافتقارها للمساعدة. اندهشتُ لوجود غرفتها في الطابق الذي توجد فيه غرفة السيد كينير، لكن لم يكن هناك طابق ثالث للمنزل، ولا علية، على عكس منزل السيدة باركنسون، حيث كان أضخم منه بكثير. هناك أيضًا حجرة للضيوف. توجد خزانة في نهاية الممر، لأشياء مثل الملابس الشتوية، وخزانة الكتان المجهزة جيدًا بالعديد من الرفوف. وبجانب حجرة نوم نانسي كانت غرفة صغيرة سمّتها غرفة الخياطة، وكانت بها طاولة وكرسي.

بعد أن رأينا الطابق العلوي من المنزل، عدنا إلى الطابق السفلي وناقشنا واجباتي، وفكرت بيني وبين نفسي أنني محظوظة لأننا في الصيف، وإلا فإنني سأضطر لتحضير وإشعال النيران، بالإضافة إلى تنظيف وتلميع كل تلك القضبان والمواقد. قالت نانسي إنني لن أبدأ العمل في اليوم نفسه بالطبع، ولكن في اليوم التالي، وإنّني بلا شك أرغب في أن آوي مبكرًا إلى فراشي، إذ لا بد أنّني متعبة. وقد كان الأمر كذلك بالفعل، ومع غروب الشمس، ذهبت للسرير.

- ثم مضى كل شيء بهدوء شديد لمدة أسبوعين.

يقول الدكتور جوردن. إنه يقرأ بصوت عالٍ نصًا من اعترافي.

- نعم سيدي، هذا ما حصل تقريبًا.
- ما هو كل شيء؟ كيف مضت الأمور؟
- عفوًا سيدي؟
- ماذا كنت تفعلين كل يوم؟
- أوه، المعتاد سيدي. لقد قمت بواجباتي.
- عفوًا، لكن ماذا شملت هذه الواجبات؟

نظرت إليه. كان يلبس ربطة عنق صفراء مع مربعات بيضاء صغيرة. لم يكن يمزح. لم يكن يعرفُ حقًا. الرجال مثله لا يضطرون إلى تنظيف الفوضى التي يتسببون بها، أما نحن فعلينا أن ننظف فوضانا وفوضاهم في طريقنا. وهم في

هذا مثل الأطفال، ليس عليهم أن يفكّروا في المستقبل، أو أن يقلقوا حول عواقب أفعالهم. هذا ليس خطأهم، إنها فقط الطريقة التي نشؤوا عليها.

25

استيقظت صباح اليوم التالي عند الفجر. كانت حجرة نومي الصغيرة مغلقة وساخنة؛ فقد بدأ الطقس الصيفي. ومعتمة أيضًا، لأني أبقيت المصاريع مغلقة في الليل اتقاء المتسلّلين. النوافذ مغلقة أيضًا، بسبب البعوض والذباب. وفكرت أنني بحاجة لقطعة من الموسلين لتغطية النافذة، أو ربما فراشي، وتحدثت إلى نانسي عن ذلك. كنت قد نمت مرتدية قميصي الداخلي فقط من شدة الحرارة.

خرجت من السرير وفتحت النافذة والستائر ليدخل الضوء، وقلبت أغطية السرير لتهويتها، ثم لبست ثوب العمل والمئزر، رفعت شعري، ووضعت غطاء الرأس. كنت أنوي تصفيف شعري بشكل أفضل لاحقًا، عندما أتمكن من استخدام المرآة على مغسلة المطبخ، فغرفتي بلا مرايا. رفعت أكمامي، انتعلت القباقيب، ورفعت مزلاج باب غرفة النوم. كنت أبقيه مغلقًا دائمًا، لأنه إذا ما اقتحم أي شخص المنزل، فإن حجرة نومي ستكون أول مكان يصل إليه.

كنت أحب الاستيقاظ مبكرًا؛ لأستطيع التظاهر لبعض الوقت أن المنزل ملكي. أفرغت وعاء غرفتي في سطل القاذورات أولًا، ثم خرجت عبر باب المطبخ الشتوي حاملة السطل، مُلاحِظة أن الأرضية كانت في حاجة إلى شطف، فقد أهملت نانسي الكثير من الأمور، وهي مغطاة الآن بالطين المتراكم الذي لم يُتعامَل معه. هواء الفناء الخارجي منعش. هناك وهج وردي في الشرق، وضباب لؤلؤي رمادي يخرج من الحقول، وطائر ما يغني في ناحية قريبة -أظنه طائر النمنمة- وأبعد قليلًا غربان تنادي. في بدايات الفجر، يبدو كل شيء كما لو أنه يبدأ جديدًا.

لا بدّ أن الخيول قد سمعت باب المطبخ ينفتح، لأنها بدأت تصهل. لم يكن إطعامها أو إرسالها إلى المراعي ضمن واجباتي، مع أني سأحب ذلك. خارت البقرة، فلا بدّ أن ضرعها كان ممتلئًا، لكن سيكون عليها الانتظار إذ ليس بمقدوري فعل كل شيء دفعة واحدة.

عبرت الطريق، مجتازة فناء الدجاج وحديقة المطبخ والحشائش ذات الندى المتناثر، دافعة جانبًا الشباك العنكبوتية الرقيقة التي نسجت في الليل. لن أقتل

عنكبوتًا أبدًا. أخبرتني ماري ويتني أن ذلك يجلب الحظ السيّئ، وهذا ليس رأيها وحدها. عندما كنت أعثر على إحداها داخل المنزل، كنت أحملها في نهاية المكنسة، وأتخلص منها في الخارج، لكنني بلا شك قتلت بعضها عن طريق الخطأ، لأنني منيت بالحظ السيّئ على أي حال.

وصلت إلى المرحاض وأفرغت سطل المياه المستخدمة، وهكذا...

- وهكذا... غريس؟

أنظر إليه. إن كان لا يعرف حقًا ما يفعل المرء في المرحاض، فلا أمل يرجى منه.

ما فعلته هو أنني رفعت تنورتي، وجلست فوق طنين الذباب، على نفس المقعد الذي يجلس عليه كل من في المنزل، سيدة كانت أو خادمة للسيدة، كلاهما تتبولان، ولبولهما الرائحة نفسها، وهي ليست رائحة الليلك أيضًا، كما اعتادت ماري ويتني أن تقول.

كانت هناك نسخة قديمة من كتاب غودي للسيدات، من أجل المسح. أنظر للصور دائمًا قبل استخدامها. معظمها حول أحدث الموضات، لكن بعضها كان لدوقاتٍ من إنجلترا ولسيدات المجتمع الراقي في نيويورك وما شابه. يجب ألّا تدع صورتك تظهر في مجلة أو جريدة إن استطعت، لأنك لا تعرف أبدًا الغرض الذي يمكن أن يؤديه وجهك للآخرين، بمجرد أن يخرج من تحت سيطرتك.

لكني لا أقول أيًا من هذا للدكتور جوردن. «وهكذا.» أقول بحزم، لأن «وهكذا.» هي كل ما يحق له أن يعرفه. وكونه يزعجني لمعرفة كل شيء، ليس سببًا كافيًا لكي أخبره.

ثم حملت دلو القاذورات إلى المضخّة في الفناء، وزودت المضخة بالماء من الدلو الموضوع بجانبها لهذا الغرض. فحتى تعمل المضخة، يجب أن تصب بعض الماء قبل أن تتمكن من إخراجه. وكانت ماري ويتني تقول إن هذه هي بالضبط الطريقة التي ينظر بها الرجال إلى المغازلة، وسيلة من أجل غرض نهائي. حين بدأت المضخة بالعمل شطفت سطل القاذورات، وغسلت وجهي، ثم وضعت يدي

للشرب. المياه من بئر السيد كينير عذبة، لا يوجد بها طعم الحديد أو الكبريت. وبحلول هذا الوقت، كانت الشمس تصعد، حارقة الضباب، وعلمت أنه سيكون صباحًا لطيفًا.

ذهبت بعد ذلك إلى المطبخ الصيفي وبدأت أشعل النار في الموقد. نظفتُ رماد اليوم السابق واحتفظت به لرشه في المرحاض، أو في حديقة المطبخ، لأنه يساعد على إبعاد الحلزونات والبزاقات. كان الموقد جديدًا، لكنه مزاجي، وكلما أشعلتُه، رمى دخانًا أسود في وجهي ما يجعلني أبدو كساحرة تشتعل. كان عليّ أن أتملقه، لقمته جزءًا من الصحف القديمة -كان السيد كينير يحب قراءتها، وقد اشترى العديد منها- وكذلك قطعًا من المواد المستخدمة لإضرام النار، سعل الموقد وأطلق النار من خلال الشبكة، وفي النهاية اشتعلت النيران وبدأت تلتهب. كان الحطب مقطّعًا إلى قطع أكبر من أن يتسع لها الموقد، وكان عليّ أن أحشرها باستخدام قضيب تذكية النار. كان عليّ إخبار نانسي بالأمر لاحقًا، لتتحدث إلى ماكديرموت، فهي مسؤوليته.

ثم خرجت إلى الفناء وأخرجت ماءً من المضخة وعدت به متثاقلة إلى المطبخ وعبأت الغلاية منه باستخدام المغرفة، ووضعته على الموقد ليغلي.

ثم أخرجت حبّتي جزرٍ من السلة في غرفة السرج قبالة المطبخ الشتوي، كانت حبات جزر قديمة، وضعتها في جيبي وتوجهت إلى الحظيرة حاملة سطل الحلب. كانت الجزرات للخيول، أطعمتها إياها بسرور بالغ. ولأنها كانت من الجزر المخصص للخيول، لم أطلب الإذن لأخذها. بقيت مصغية لأي صوت قادم من الدور العلوي يدل على أن ماكديرموت قد نهض، ولكن لم يصلني أي حفيف، كان غارقًا في النوم، أو أنه يدعي ذلك.

ثم حلبت البقرة. كانت بقرة جيدة، اعتادت عليّ فورًا. هناك بعض الأبقار ذات المزاج السيّئ، يمكن أن تعلقك بقرنها، أو تركلك ركلة لا تنسى، لكن هذه لم تكن إحداها، وعندما وضعت جبهتي عند وسطها، أخذت موضعها استعدادًا لمباشرة العمل. جاءت قطط الحظيرة تموء من أجل الحليب، وأعطيتها بعضًا

منه. ثم ودعت الخيول، وأمال تشارلي رأسه إلى أسفل نحو جيب مئزري. كان يعلم أين يخبَّأ الجزر، حسنًا إذًا.

في طريق الخروج سمعت ضوضاء غريبة قادمة من فوق. كما لو أن أحدهم يدق بشدة مستخدمًا مطرقتين، أو يضرب على طبلة خشبية. في البداية لم أتمكن من معرفة ما يكون على الإطلاق. ولكن عندما أنصتُّ، أدركت أنه ماكديرموت، يرقص على الألواح العارية للدور العلوي. يوحي رنين الخطوات أنه بارع. ولكن لماذا كان يرقص بنفسه هناك، وفي الصباح الباكر؟ ربما كانت نوبة من الفرح الشفيف، أو فيضانًا للروح الحيوانية. لكني شعرت بطريقة ما أن الأمر ليس كذلك.

حملت الحليب الطازج إلى المطبخ الصيفي وأخذت بعضه للشاي. ثم غطيت سطل الحليب بقطعة قماش اتّقاء الذباب، وتركتها تسكن حتى ترتفع القشدة. كنت أخطط لأصنع منه زبدة في وقت لاحق من اليوم إذا لم تكن هناك عواصف رعدية، حيث إنّ الزبدة لا تخرج عندما تُرعد. ثم اقتطعت بعض الوقت لترتيب غرفتي الخاصة.

لم تكن غرفة تستحق الذكر، لم تكن مغطاة بورق الجدران، ولم تحوِ أي صور، ولا حتى ستائر. مسحتها سريعًا بالمكنسة، وزلقت وعاء الغرفة تحت السرير. كانت هناك لفات من الصوف الرث تحته، تكفي لتغطية خروف بأكمله، ويمكن أن ترى أنه لم يُنظَّف منذ فترة طويلة. هززت المرتبة ورتّبت الملاءة والمخدة، وسحبت الغطاء إلى أعلى. كان غطاء قديمًا باليًا، على الرغم من كونه جيد الصنع، على نمط (مطاردة الإوز البري). ثم فكرت في الأغطية التي سأصنعها لنفسي، بعد أن أدخر ما يكفي من الأجور وأتزوج، وأمتلك منزلي الخاص.

أحسست بالرضى لكون غرفتي مرتبة. عندما أعود إليها لاحقًا في نهاية اليوم، ستكون أنيقة ومنظمة، تمامًا كما لو أن خادمة رتبتها لي.

ثم أخذت سلة البيض ونصف سطل من الماء وخرجت إلى قن الدجاج. كان جيمس ماكديرموت في الفناء، يخلل شعره الداكن تحت المضخة، لكن لا بدّ أن

يكون قد سمعني خلفه. وعندما أخرج وجهه من الماء، بدت عليه -للحظة- نظرة ضائعة، متوحشة ومسعورة، كطفل نصف غارق، وتساءلت عمّن ظن أنه يتبعه. ولكن بعد ذلك رأى من يكون، ولوح لي بمرح، وكانت -على الأقل- إشارة ودودة، أول إشارة ود يمنحها. ولأن كلتا يدي مشغولتان، أومأت إليه فقط.

صببت الماء في حوض الدجاج، وأخرجتها من القن، وبينما كانت الدجاجات تشرب وتتقاتل أيها تفعل ذلك أولًا، دخلت وجمعت بيضها. كان بيضًا كبيرًا، فهو موسمها من العام. ثم نثرت لها الحبوب، وفضلات المطبخ من اليوم السابق. لم أكن مغرمة بالدجاج إلى ذلك الحد، فلطالما فضلت الحيوانات ذات الفراء على قطيع طيور رثة تنق وتندس في الأوساخ. ولكن إن كنت راغبًا في بيضها فعليك أن تعتاد على طرقها الجامحة.

خدش الديك كاحلي بمخلبه، لإبعادي عن زوجاته، لكنني ركلته وكدت أُسقط قبقابي عن قدمي وأنا أفعل. يقولون إنّ ديكًا في القطيع يبقي الدجاج سعيدًا، لكن واحدًا كان أكثر من اللازم حسب ما أرى. أحسن التصرف وإلا قطعت رقبتك. قلت له. على الرغم من أنني في الحقيقة ما كنت لأتحمل شيئًا من هذا القبيل.

ماكديرموت يراقب عبر السياج بابتسامة عريضة على وجهه. علي الاعتراف أنه يبدو بمنظر أفضل وهو مبتسم، على الرغم من القتامة، والتكشيرة المحتالة لفمه. ولكن -سيدي- ربما كنت أتصور ذلك على ضوء ما حدث لاحقًا.

«هل كنتِ تتحدثين إلي؟» قال ماكديرموت. «لا، لم أقصدك.» قلت على نحو بارد وأنا أتجاوزه. ظننت أنني أعرف ما يدور في ذهنه، إذ لم يكن الأمر مبتكرًا. لم أكن أرغب في هذا النوع من المشاكل، والأفضل أن أحافظ على مسافة ودية.

أخيرًا غلت الغلاية. وضعت قدر حساء الشعير على الموقد، مع العصيدة التي كانت منقوعة. ثم صنعتُ الشاي وتركته يتشبع، بينما خرجت إلى الفناء لأضخ سطلًا آخر من الماء وعدت به للداخل، ورفعت المرجل النحاسي الكبير إلى الجزء الخلفي من الموقد وعبأته بالماء، لأني أحتاج إلى إمدادات وافرة من الماء الساخن للأطباق القذرة ومثل هذه الأمور.

جاءت نانسي عندها مرتدية فستانًا قطنيًا من الجهام ومئزرًا، لم تكن ملابس أنيقة كالتي لبستها ظهر اليوم السابق. قالت صباح الخير ورددت التحية. وسألتُ إن كان الشاي جاهزًا، وقلت إنه كذلك. «أشعر أنني بالكاد أكون حية في الصباح إلى أن أشرب كوب الشاي.» قالت، لذلك سكبت بعضه لأجلها.

«سيتناول السيد كينير شايه في الطابق العلوي.» قالت. لكنني عرفت ذلك حيث وضعت صينية الشاي في الليلة السابقة مع إبريق شاي صغير مع الكوب والصحن الصغير. ليست الصينية الفضية بشعار العائلة، ولكن واحدة من الخشب المطلي. وأضافت: «هو معتاد على شرب كأسٍ ثانٍ قبل الإفطار عندما ينزل.»

وضعت الحليب الطازج في إبريق صغير، والسكر، ثم حملت الصينية. «أنا سآخذها.» قالت نانسي. لقد فوجئت، ففي منزل السيدة باركنسون، لم تكن مدبرة المنزل تفكر حتى في حمل صينية الشاي إلى أعلى، فهذا أقل من مستواها، وهو واجب الخادمات. حدقت نانسي بي للحظة ولم تكن سعيدة. ولكن بعد ذلك قالت إنّها كانت تأخذه بنفسها عندما تفتقر للمساعدة وحيث لم يوجد أي شخص آخر للقيام بذلك، حتى اعتادت الأمر. لذلك شرعتُ في مهمتي.

باب حجرة نوم السيد كينير في أعلى الدرج. لم يوجد بالقرب منه مكان حيث يمكنني وضع الصينية، لذلك حاولت حملها بتوازن بذراع واحدة أثناء الدق. «شايك سيدي.» قلت. سمعت غمغمة من الداخل فدخلت. كانت الغرفة مظلمة، لذلك وضعت الصينية على المنضدة المستديرة المنخفضة بجوار السرير وذهبت إلى النافذة وفتحت الستائر قليلًا. كانت الستائر من الديباج البني الداكن ذات المظهر اللامع، ناعمة الملمس وبشراريب على جافتها. ولكن في رأيي، فالستائر البيضاء -المصنوعة من القطن أو الموسولين- أفضل في الصيف، إذ إنّ الأبيض لا يمتص الحرارة ويحبسها في المنزل بنفس القدر، كما أنه يبدو أبرد.

لم أتمكن من رؤية السيد كينير، فهو في أحلك ركن من الغرفة ووجهه تحت الظل. لم يكن لسريره غطاء مرقع، بل غطاء سرير داكن يتناسب مع الستائر.

كان مرميًا للوراء، ولم يكن يغطيه سوى الشرشف. جاءني صوته كما يمكن أن تقول من تحت الشرشف: «شكرًا لك غريس.» كان من النوع الذي يقول «لو سمحت... وشكرًا.» يجب أن أقول إنه يعرف كيف يتكلم.

«عفوًا سيدي.» قلت، وقد قلتها من قلبي. لم أضن عليه بشيء، وعلى الرغم من أنه يدفع لي مقابل القيام بهذا، كان الأمر كما لو أنني أفعله من تلقاء نفسي.

«لدينا بيض جميل هذا الصباح، سيدي. هل تريد واحدة منها لفطورك؟»

«نعم.» قال بطريقة مترددة. «شكرًا لك غريس. أنا متأكد من أنها ستكون مفيدة لي.»

لم تعجبني الطريقة التي قال بها ذلك، حيث تحدث كما لو كان مريضًا. لكن نانسي لم تذكر أي شيء عن هذا.

عندما عدت إلى الطابق السفلي، قلت لنانسي إن السيد كينير يريد بيضة لفطوره. فقالت إنها ستأخذ واحدة أيضًا. «إنه يتناول بيضته مقلية، مع لحم الخنزير المقدد، ولكنّني لا أستطيع أن آكل البيض المقلي، يجب أن تكون مغلية. سوف نتناول الفطور معًا في غرفة الطعام، فهو يطلب رفقتي، إذ إنّه لا يحب أن يأكل بمفرده.»

وجدتُ ذلك مثيرًا للفضول قليلًا، على الرغم من أنه ليس شاذًا تمامًا. ثم قلت: هل السيد كينير مريض بأي شكل؟

ضحكت نانسي قليلًا، وقالت: « إنه يتوهم في بعض الأحيان. ولكن كل ذلك في رأسه فقط. إنه يريد الاهتمام.»

«أتساءل لماذا لم يتزوج قط -قلت- رجل جيد مثله.» كنت أخرج المقلاة للبيض، وكان مجرد سؤال بقصد تمضية الوقت، لم أكن أقصد أي شيء به. لكنها ردت بنبرة غاضبة، أو بدت غاضبة لي. وقالت إن بعض السادة لا يميلون لوضع الزواج. إنهم راضون للغاية عن أنفسهم كما هم، ويعتقدون أنهم يستطيعون المضي بشكل جيد كفاية من دونه.

«أفترض أنهم يستطيعون ذلك.» قلت.

«من المؤكد أنهم يستطيعون، إذا كانوا أثرياء بما يكفي.» قالت. «إذا أرادوا شيئًا، فكل ما عليهم فعله هو الدفع للحصول عليه. لا فرق بالنسبة لهم.»

الآن ها هو أول صدام يقع بيني وبين نانسي. كان ذلك وأنا أرتب غرفة السيد كينير، في اليوم الأول، وكنت مرتدية مئزري، لإبقاء الأوساخ وسخام الموقد بعيدًا عن الملاءات البيضاء. كانت نانسي تحوم في الأنحاء، وتخبرني أين توضع الأشياء، وكيف تدس زوايا الشراشف، وكيف تهوّي قميص نوم السيد كينير، وكيف توضع فراشيه وأدوات زينته على طاولة التزيين، وعدد المرات التي ينبغي فيها تلميع ظهورها الفضية، وعلى أي رف يجب أن توضع قمصانه المطوية وبياضاته، جاهزة لتلبس. وكانت تتصرف كما لو أنني لم أفعل أيًا من هذه الأشياء سابقًا.

فكرت حينها، أنه من الأصعب العمل في خدمة امرأة كانت هي نفسها خادمة في يوم من الأيام، مقابل امرأة لم تفعل ذلك؛ فالذين يخدمون لديهم طرقهم الخاصة للقيام بالأشياء، ويعرفون أيضًا الاختصارات، مثل الإلقاء ببضع ذبابات ميتة خلف السرير، أو جرف القليل من الرمال أو الغبار تحت السجادة، وهي أمور لا تُلاحَظُ ما لم تفتَّش تلك الأماكن عن كثب، وستكون عيونهم حادة، وسيكون من المرجح أكثر أن يقبضوا عليك في مثل هذه الأمور. لا يعني هذا أنني كنت مهملة كقاعدة، لكننا جميعًا نكون في عجلة من أمرنا في بعض الأيام.

وعندما كنت أقول إنها ليست الطريقة المتبعة في منزل السيدة باركنسون، كانت نانسي تجيب بحدة أنها لا تبالي، لأنني لست الآن في منزل السيدة باركنسون. لم تحب أن تذكَّر بأنني عملت ذات مرة في منزل كبير، واختلطت مع من هم أفضل منها. لكنني فكرت منذ ذلك الحين أن السبب وراء كل ما أثارته هو أنها لم ترغب في تركي لوحدي بغرفة السيد كينير، في حال قدم إليها.

حتى أشغل تفكيرها عن التململ بعصبية، سألتها عن الصورة على الجدار. لم أسألها عن تلك اللوحة مع مروحة ريش الطاووس، ولكن عن الأخرى؛ السيدة الشابة التي تأخذ حمامًا في حديقة -وهو مكان غير مألوف لفعل ذلك- وقد ربطت شعرها، فيما تقف الخادمة حاملة منشفة كبيرة مهيئة لها، ومجموعة من الرجال

كبار السن باللحى يحدقون إليها من وراء الشجيرات. أستطيع القول من خلال الملابس إنّها تعود لعصور قديمة. قالت نانسي إنها مطبوعة، وإنّها لوّنت بطريقة يدوية، وكانت نسخة من لوحة شهيرة عن سوزانا والشيوخ، والتي كانت موضوعًا للكتاب المقدس. وبدتْ فخورة جدًا بمعرفة الكثير.

لكنني كنت منزعجة منها بسبب أفعال الانتقاء والإعابة، وقلت إنني أحفظ كتابي المقدس عن ظهر قلب من الغلاف إلى الغلاف -وهو أمر لم يكن بعيدًا عن الحقيقة- وأن هذه القصة لم تكن مضمنة. لا يمكن أن تكون موضوعًا للكتاب المقدس.

وقالت إنها كذلك، وقلت لم يكن الأمر كذلك، وكنت على استعداد للتحقق من الأمر. وقالت إنني لست هنا للجدال حول الصور، بل لترتيب السرير. وفي تلك اللحظة جاء السيد كينير إلى الغرفة. لا بدّ أنه كان يستمع إلينا وهو قادم عبر الممر، فقد بدا مستمتعًا. ماذا -قال- هل تناقشن اللاهوت؟ وأيضًا في هذا الوقت المبكر من الصباح؟ وأراد أن نخبره بكل شيء.

قالت نانسي إنه أمر لا يستحق أن يزعج نفسه لأجله، لكنه أصر على أن يعرف، وقال: حسنًا غريس، أرى أن نانسي ترغب في إبقائه سرًا، ولكن عليك أن تخبريني. وكنت خجولة، لكنني سألته مطولًا ما إذا كانت الصورة موضوعًا من الكتاب المقدس كما قالت نانسي. فضحك، وقال إنّ القصة بالمعنى الدقيق للكلمة لم تكن، إذ كانت من أبوكريفا. وفوجئت، وسألت ما يعنيه ذلك. أستطيع القول إنّ نانسي لم تسمع بالكلمة من قبل، لكنها كانت منطفئة إذ أُثْبِت خطؤُها، وأخذت تقطب بطريقة متجهمة.

قال السيد كينير إنني محبة للاطّلاع بالنسبة لشخص صغير السن، وقريبًا ستكون لدية أكثر الخادمات اطّلاعًا في ريتشموند هيل، وسيضطر إلى عرضي، والحصول على المال مقابل ذلك، مثل الخنزير الذي يعرف الرياضيات في تورنتو. ثم قال إن أبوكريفا عبارة عن كتاب وضعوا فيه كل القصص من الأوقات التوراتية التي قرروا أنها لا ينبغي أن تدخل في الكتاب المقدس. دهشتُ كثيرًا لسماع هذا،

وقلت: من الذي قرر؟ لأنني كنت أظن دائمًا أن الكتاب المقدس قد كتبه الرب، إذ يُسميه الجميع كلمة الرب.

ابتسم، وقال إنه على الرغم من أن الرب قد أوحاه، فإنّ الرجال من دونوه؛ وهناك فارق بين الأمرين. لكن قيل إن هؤلاء الرجال قد ألهموا. ممّا يعني أن الرب قد تحدث معهم، وقال لهم ما يجب القيام به.

سألت إن كانوا قد سمعوا أصواتًا، وقال نعم. وكنت سعيدة أن شخصًا آخر حدث معه الأمر نفسه، على الرغم من أنني لم أقل أي شيء حول ذلك، وعلى أي حال فالصوت الذي سمعته تلك المرة، لم يكن صوت الرب بل صوت ماري ويتني.

سألني إذا كنت أعرف قصة سوزانا، فقلت لا. قال إنها كانت شابة اتُهمت -من قبل بعض كبار السن- زورًا بالزنى مع شاب، لأنها رفضت ارتكاب الخطيئة نفسها معهم. فحكم عليها بالرجم حتى الموت. ولكن لحسن الحظ كان لديها محامٍ ذكي، استطاع أن يثبت أن كبار السن كاذبون، عن طريق حثهم على تقديم أدلة متناقضة. ثم قال: ما هو المغزى من القصة؟ وقلت إن المغزى هو أنك لا ينبغي أن تستحم خارجًا في الحديقة. فضحك وقال إنه يعتقد أن المغزى هو أنك تحتاج إلى محام ذكي. وقال لنانسي: هذه الفتاة ليست ساذجة بعد كل شيء. وخمنت من كلامه أن هذا ما قالته له. أما نانسي فنظرت إليّ شزرًا.

ثم قال إنه وجد قميصًا مكويًا وُضِع على الرغم من وجود زر مفقود، وإنّه لأمر مزعج أن تبدأ بلبس قميص نظيف، لتجد في النهاية أن زرًا قد فقد، وطلب منّا أن ننتبه لئلّا يحدث هذا مرة أخرى. وحمل صندوق الشمة الذهبي الذي أتى من أجله، وخرج من الغرفة.

وبذلك أصبحت نانسي الآن مخطئة مرتين، لأنها لا بدّ أن تكون من غسل وكوى القميص، قبل أن أكون في أي مكان قريب من هنا. وهكذا أعطتني قائمة بالأعمال المنزلية بطول ذراع، وخرجت متخبطة من الغرفة، على الدرج، وخارجًا في الفناء، وبدأت في توبيخ ماكديرموت لعدم تنظيف حذائها جيدًا ذلك الصباح.

قلت لنفسي إن المتاعب قادمة، وكان عليّ أن أصون لساني. لأن نانسي لا تحب أن تُتَجَاوز، والأهم من ذلك كله أنها لا تحب أن يشير السيد كينير إلى أخطائها.

عندما وظفتني بعيدًا عن منزل السيد واتسون، ظننت أننا سنكون مثل أخوات أو صديقات جيدات على الأقل، نعمل جنبًا إلى جنب كما كنت وماري ويتني. عرفت الآن أن الأمور لن تسير أبدًا على هذا النحو.

26

كانت قد مضت علي ثلاث سنوات في الخدمة حينها، وكنت أجيد الدور جيدًا بحلول ذلك الوقت. لكن نانسي كانت متقلبة المزاج للغاية، يمكنك أن تسميها ذات وجهين، ولم يكن من السهل معرفة ما تريده من حين إلى آخر. في لحظة كانت تركب حصانها العالي وتأمرني وتتصيد أخطائي، وفي اللحظة التالية تصبح صديقتي المقربة، أو تتظاهر بذلك، وتضع ذراعها بذراعي، وتقول إنّني أبدو متعبة، وعلي الجلوس معها، وتناول كوب من الشاي. العمل لشخص كهذا أصعب بكثير، فأول ما تبدأ بالانحناء لهم ومناداتهم بسيدتي، ينقلبون عليك مزعوجين لكونك قاسيًا ورسميًا، ويريدون أن يفضوا إليك، ويتوقعون الأمر نفسه في المقابل. لا يمكنك فعل الشيء الصحيح معهم أبدًا.

كان نهار اليوم التالي صحوًا مع نسيم عليل، لذلك قمت بالغسيل، ولوقت طويل أيضًا حيث كانت تنقصنا الأشياء النظيفة. كان المكان حارًا، حيث اضطررت لإبقاء النار مشتعلة في موقد المطبخ الصيفي بوتيرة سريعة. ولم أجد أي فرصة لفرز الأشياء ونقعها في الليلة السابقة، ولم يكن بإمكاني المخاطرة بالانتظار، حيث إنّ الطقس في ذلك الوقت من العام يمكن أن يتغير بسرعة. لذا شطفت وفركت، وأخيرًا صارت معلقة بشكل جميل، وكانت المناديل ومناديل الجيب البيضاء منشورة بعناية على العشب للتبييض. كانت هناك بقع صغيرة من الشمة، وبقع حبر، وبقع عشب في تنورة نانسي الداخلية -تساءلت كيف وصلت إليها، لكنها على الأرجح انزلقت وسقطت- وبعض بقع العفن الفطري على أشياء كانت في الرطوبة في أسفل الكومة. وبقع النبيذ على مفرش المائدة -من حفل العشاء- الذي لم يكن مغطًى بالملح حينها، كما ينبغي. ولكن بفضل مبيض جيد -مصنوع من محلول الصابون وكلورايد الجير، والذي تعلمت إعداده من مسؤولة الغسيل لدى السيدة باركنسون- أستطيع استخراجها في الغالب، ووثقت أن أشعة الشمس ستكمل المهمة.

وقفت للحظة معجبة بعملي اليدوي. فيمكنك إيجاد قدر كبير من المتعة في

كون الغسيل نظيفًا، تحركه الريح مثل الرايات في السباق أو أشرعة السفينة. ولها صوت كأن أيدي حشود سماوية تصفق، لكنها تسمع من بعيد. يقولون إن النظافة من الإيمان. وفي بعض الأحيان، عندما أرى السحب البيضاء النقية منتفخة في السماء بعد المطر، كنت أفكر أنها تبدو كما لو كانت ملائكةً تعلق غسيلها. أرجأت ذلك إلى كون كل شيء في السماء نظيفًا ومنعشًا، وعليه فلا بدّ أن يتولّى أحد ما موضوع الغسيل. كانت كل هذه خيالات طفولية، حيث يحب الأطفال أن يحكوا لأنفسهم قصصًا عن أشياء غير مرئية، وكنت حينها -بالكاد- أكثر من طفلة، على الرغم من أنني كنت أعتبر نفسي امرأة ناضجة، لكوني أملك مالي الخاص الذي أكسبه بنفسي.

بينما كنت واقفة هناك، جاء جيمي والش عند زاوية المنزل، وسألني إن كانت هناك أي مهمات ليؤديها. وقال لي بشيء من الخجل، إنه إذا ما أرسلته نانسي أو السيد كينير إلى القرية، وإذا ما كنت راغبة في شيء ما، فمن دواعي سروره أن يشتريه، ويجلبه لي، إذا ما أعطيته المال لذلك. على الرغم من أنه كان محرجًا، إلا أنه كان مهذبًا بقدر التهذيب الذي يعرفه، حتى إنّه نزع قبعته، والتي كانت قديمة من القش وكانت لوالده على الأرجح، فهي كبيرة جدًا عليه. قلت إن هذا من لطفه، لكنّني لا أحتاج إلى أي شيء في الوقت الراهن. لكنّي تذكرت أنه لم يكن هناك محلول مرارة الثور[21] في المنزل، لتثبيت صبغات الغسيل، وأحتاج إلى بعضه لغسيل الألوان الداكنة. لأن كل ما غسلته ذلك الصباح كان أبيض. ذهبت معه إلى نانسي، وأوصته ببعض الأشياء الأخرى ليشتريها، وكان لدى السيد كينير رسالة يرغب في توصيلها إلى أحد أصدقائه في الجوار، وهكذا ذهب.

أخبرته نانسي أن يعود بعد الظهر، ويحضر معه الفلوت. وعندما رحل، قالت إنه يعزف على نحو جميل للغاية، وكان الاستماع إليه ممتعًا. كانت في مزاج جيد حينها، وساعدتني في إعداد العشاء، الذي كان طبقًا باردًا، مكوّنًا من لحم الخنزير والمخللات، وسلطة من حديقة المطبخ. التي حوت الخس والثوم المعمر.

21 طلاء أصفر. (م).

لكنها -كما فعلت سلفًا- أكلت في غرفة الطعام مع السيد كينير، فيما كان عليّ أن أتعشى برفقة ماكديرموت.

من غير المريح مشاهدة شخص آخر يأكل، والاستماع إليه كذلك، خاصة إذا كان ذا نزعة للالتهام بنهم، لكن ماكديرموت لم يكن ميّالًا إلى الحديث، بعد أن عاد لمزاجه المتجهم. لذا سألته ما إذا كان يستمتع بالرقص.

ما الذي يجعلك تسألين عن ذلك؟ قال مدهوشًا. ولأني لم أرد أن يعرف بأني كنت أتنصت عليه وهو يتدرب، قلت إنه معروف بذلك.

قال: ربما كنت وربما لم أكن، لكنه بدا مسرورًا. وهكذا بدأت أدفعه إلى الحديث بسؤاله عن حياته الخاصة، قبل أن يأتي للعمل لدى السيد كينير. قال: من يهمه سماع ذلك؟ فقلت أنا، حيث إنّ كل هذه القصص تهمني. وسرعان ما بدأ يحكي.

وقال إنّ أسرته كانت محترمة كونها من ووترفورد في جنوب إيرلندا، وكان والده وكيل أعمال. أما هو نفسه فكان المتمرد الذي لا يحب لعق أحذية الأثرياء، وكان دائمًا يتورط في المشاكل. بدا فخورًا بذلك أكثر من أي شيء آخر. سألته إن كانت أمه حية، فقال إنه لا فرق لديه بين حياتها وموتها، فهي ضده على أي حال، وكانت تقول إنه ذاهب مباشرة إلى الشيطان. وإن كانت ميتة فإنّ معرفة ذلك لن تهمّه. لكن صوته لم يكن حازمًا مثل كلماته.

هرب من المنزل في سن مبكرة، وانضم إلى الجيش في إنجلترا، مدعيًا أنه كان أكبر من سنه ببضع سنوات. لكنه وجدها حياة صعبة الاحتمال ذهنيًا، وتتطلب الكثير من الانضباط واحتمال المعاملة المتشددة، فهاجر مختبئًا في سفينة متجهة إلى أمريكا. وعندما اكتُشِفَ عمل لباقي رحلته، لكنه هبط في كندا الشرقية بدلًا من الولايات المتحدة. ومن ثم عثر على وظيفة على متن القوارب التي كانت تبحر صعودًا ونزولًا على نهر سانت لورانس، ومن ثم على قوارب البحيرة، حيث كانوا مسرورين بوجود رجل قوي مثله، قادر على التحمل، بإمكانه العمل دون توقف، تمامًا مثل محرك بخاري. وكان ذلك جيّدًا لبعض الوقت. لكنه أصبح رتيبًا. ولأنه يحب التنويع، فقد انضم للخدمة مرة أخرى كجندي في فرقة المشاة الخفيفة

جلينجاري، التي كانت تتمتع بسمعة سيئة بين المزارعين، كما عرفت من ماري ويتني، إذ أحرقت عددًا لا بأس به من بيوت المزارع خلال التمرد، ودفعوا النساء والأطفال إلى الثلج، وفعلوا بهم ما هو أسوأ من ذلك، لكن أيًا من هذا لم يذكر في الصحف. وإذًا فقد كانوا مجموعة من الرجال الجامحين، وقد انغمسوا في الملذات واللعب والشرب وما شابه مما يُعد من الخصال الرجولية.

لكن التمرد كان قد انتهى حينها، ولم يعد هناك الكثير ممّا يمكن عمله، خصوصًا أن ماكديرموت لم يعمل جنديًا نظاميًا، بل خادمًا شخصيًا للكابتن ألكسندر ماكدونالد. كانت حياة سهلة بأجر لائق، وكان آسفًا لحل هذا الفوج، ووجد نفسه مضطرًا للاعتماد على موارده الخاصة. ذهب إلى تورنتو وعاش عاطلًا بالاعتماد على مدخراته. ولكن بعد ذلك تضاءلت أمواله، وعلم أنه مضطر للبحث عن وظيفة في الأرجاء، فذهب إلى شارع يونغ، واستمر إلى أن وصل إلى ريتشموند هيل. سمع في إحدى الحانات أن السيد كينير في حاجة إلى رجل، فقدّم نفسه، وكانت نانسي من وظفته. لكنه كان يعتقد أنه سيعمل لصالح الرجل نفسه، ويؤدي المهام له شخصيًا كما فعل مع الكابتن ماكدونالد. وانزعج من اكتشاف أنه -بدلًا من ذلك- تحت تصرف امرأة، وهي فوق ذلك لا تمنحه لحظة راحة من لسانها السليط، وتتصيد أخطاءه باستمرار.

صدقت ما قاله، لكن بعد ذلك عندما بدأت أقلب الموضوع في رأسي، شعرت أنه لا بدّ أن يكون أكبر بعدة سنوات من الواحدة والعشرين سنة التي أعطاها لنفسه. إما ذلك، أو أنه يكذب. وعندما سمعت في وقت لاحق من الآخرين في الحي، بمن فيهم جيمي والش حول امتلاك ماكديرموت سمعة قوية ككاذب ومتبجح، لم أفاجأ على الإطلاق.

ثم بدأت أشعر أنّني أخطأت في إظهار اهتمامي بقصته، لأنه ظن أنني مهتمة به شخصيًا. وبعد أن كان قد تناول عدة أكواب من البيرة، بدأ يرميني بنظرات متغزلة، ويسأل عما إذا كان لديّ حبيب، إذ إن ذلك شيء متوقع لفتاة جميلة مثلي. كان عليّ أن أجيب أن حبيبي بطول ستة أقدام وخبير في الملاكمة. ولأني

كنت أصغر من أن أعرف كيف أجيب، قلتُ الحقيقة. قلت لم يكن لي حبيب، وعلاوة على ذلك فليست لدي ميول من هذا النوع.

قال إن هذا مؤسف، ولكن هناك مرة أولى لكل شيء، وكل ما أحتاجه هو اقتحام المجال، مثل مهرة، ومن ثم سأكون جيدة تمامًا كالآخرين، وكان هو الرجل المناسب للمهمة. انزعجت بشدة من هذا، وقفت فورًا وبدأت في تنظيف الأطباق محدثة قرقعة عالية، قلت إنني سأكون ممتنة إذا ما أبقى ملاحظاته المسيئة لنفسه، فأنا لستُ فرسًا. ثم قال إنه لم يكن يعني ما يقوله، وإنّه يمزح لا أكثر، وما أراده هو اختبار أي نوع من الفتيات أنا. قلت إن مسألة أي نوع من الفتيات أنا لا تعنيه، عندها أصبح متجهمًا، كما لو أنني أنا من أهنته، وخرج إلى الفناء، وبدأ يقطع الأخشاب.

بعد أن انتهيت من الأطباق، التي توجب غسلها بعناية بسبب الذباب، الذي يمشي على النظيفة منها، تاركًا مخلفاته القذرة، إذا لم تكن مغطاة بقطعة قماش. وبعد أن ذهبت للخارج لأرى إن كان الغسيل قد جف، وبعد رش مناديل الجيب ومناديل الطاولات بالماء، لتبيضّ أكثر. حان الوقت لإزالة القشدة عن الحليب، وإعداد الزبدة.

فعلت ذلك في الخارج، تحت ظل البيت، لاستنشاق بعض الهواء. وبما أن المخضة كانت من النوع الذي يعمل بدواسة القدم، تمكنت من الجلوس على الكرسي أثناء العملية، وقمت بالحياكة في الوقت نفسه. بعض الناس لديهم ممخضات يحركها الكلاب إذ يضعونها في قفص ويجعلونها تركض على حزام متحرك، بعد دس الفحم الساخن تحت ذيولها. لكني أجد هذا قاسيًا.

بينما كنت جالسة هناك في انتظار أن تصبح الزبدة جاهزة، وأخيط زرًا على أحد قمصان السيد كينير، مر بجانبي السيد كينير بنفسه في طريقه إلى الإصطبل. شرعت بالوقوف، لكنه أخبرني أن أبقى حيث كنت، لأنه يفضّل الزبدة الجيدة على الكياسة. أرى أنك دائمًا مشغولة غريس. قال. نعم سيدي -قلت- فالشيطان يوجِد عملًا للأيدي العاطلة. ضحك، وقال: أرجو أنك لا تعنيني بهذا، بالرغم من أن يدي

عاطلتان معظم الوقت، ولكن ليستا شيطانيتين كما أريد. ارتبكت وقلت أوه لا يا سيدي، أنا لم أقصدك. فابتسم، وقال إن احمرار المرأة من الخجل أمر جذاب.

لا يوجد رد على ما قيل، لذلك لم أقل شيئًا، فذهب في سبيله. بعدها بقليل مر ممتطيًا تشارلي، ونزل به عبر الطريق الداخلي. خرجت نانسي لترى ماذا فعلت مع الزبدة، وسألتُ أين يذهب السيد كينير. إلى تورنتو -قالت- يذهب إلى هناك كل خميس، ويقضي ليلة، للقيام ببعض الأعمال في البنك، وأداء بعض المهمات أيضًا. لكن أولًا يذهبُ إلى منزل الكولونيل بريدجفورد، الذي تكونُ زوجته وابنتاه خارج المنزل، حتى يتمكن من زيارته بأمان، فعندما تكون زوجته هناك لا يكون محل ترحيب.

تفاجأت، وسألتُ لماذا. وقالت نانسي إن السيدة بريدجفورد ترى أن السيد كينير ذا تأثير سيئ، فهي تعتقد أنها ملكة فرنسا، وأن ما من شخص جيد كفاية ليليق بمقامها، وضحكت. لكنها لم تكن مستمتعة في الواقع.

لماذا، ماذا فعل؟ سألتُ. لكن حينها شعرت أن الزبدة بدأت تتكون -حيث يمكن الشعور بكثافتها- لذا لم أتابع الحوار.

ساعدتني نانسي في استخراج الزبدة، وملّحنا معظمها، وغطيناها بالماء البارد للتخزين، وضغطنا بعضها في القوالب. كان لاثنين منها تصميم الشوك، أما الثالث فكان شعار عائلة كينير، مرفقًا بعبارة (أعيش على الأمل). قالت نانسي إنه إذا ما مات الأخ الأكبر للسيد كينير في إسكتلندا، والذي كان أخاه غير الشقيق، فإن السيد كينير سيحصل على بيت كبير وأراضٍ هناك. لكنها قالت إنه لا يترقب ذلك، وزعم أنه سعيد بما يكفي، أو هذا ما يقوله عندما يشعر بأنه في صحة جيدة. لكنه ليس على وفاق مع أخيه غير الشقيق، وهو أمر معتاد في مثل هذه الحالات، وخمنت أن السيد كينير أبعِدَ إلى المستعمرات، لإزاحته عن الطريق.

عندما انتهينا من الزبدة، حملناها عبر سلالم القبو إلى مخزن الألبان. لكننا تركنا بعضًا من الحليب الرائب، لإعداد البسكويت لاحقًا. قالت نانسي إنها لا تحب القبو، إذ إنّ له رائحة الأرض، والفئران والخضروات القديمة. وقلت إنه ربما يمكننا تهويته يومًا ما، إذا أمكننا فتح النافذة. ثم عدنا إلى الطابق العلوي،

وبعد أن جمعت غسيلي، جلسنا في الخارج على الشرفة الأرضية، نخيط معًا وكأننا أصدقاء مقربون. لاحظت في وقت لاحق أنها تصبح عذبة المعشر عندما لا يكون السيد كينير حاضرًا، بينما تصبح سريعة الاهتياج كالقطط عندما أكون في نفس الغرفة معه. لكن حينها لم أكن قد فطنت لذلك بعد.

بينما كنا نجلس هناك، جاء ماكديرموت راكضًا على طول السور المتعرج، رشيقًا كسنجاب، يجري متعرجًا. دهشتُ وقلت: ما تراه يفعل؟ وقالت نانسي: أوه... هو يفعل ذلك في بعض الأحيان، يقول إنه من أجل التمرين، لكن الحقيقة أنه يتباهى، لا ينبغي أن تعيريه أي اهتمام. ولذا تظاهرت أنني غير منتبهة، بينما شاهدته سرًا، فقد كان في الواقع رشيقًا جدًا. وبعد أن ركض ذهابًا وإيابًا، نزل عن السور، ثم قفز من فوقه بالاعتماد على يد واحدة فقط.

وهكذا كنت هناك، متظاهرة بعدم المشاهدة، وكان هناك متظاهرًا بأنه لا يُشاهد. وقد ترى الشيء نفسه -سيدي- في أي تجمع مهذب لسيدات المجتمع وسادته. يمكن رؤية الكثير بالنظرات المائلة، خاصة من قبل السيدات اللواتي لا يرغبن في أن يقبَض عليهن يحدقن. يمكنهن أيضًا المشاهدة من وراء خمار، ستائر النوافذ، ومن فوق المراوح. من الجيد أنهن قادرات على المشاهدة بهذه الطريقة، وإلا فاتهن كل شيء تقريبًا. أما نحن الذين بلا أقنعة ومراوح نتدبر أمرنا فنشاهد أكثر حتى ممّا يشاهدون.

بعد مدة قصيرة ظهر جيمي والش قادمًا عبر الحقول، وقد جلب الفلوت كما طلب منه. استقبلته نانسي بحرارة، وشكرته على قدومه. أرسلتني لإحضار كوب من البيرة لجيمي، وبينما كنت أسكبها دخل ماكديرموت، وقال إنه سيأخذ كوبًا هو أيضًا. بعدها لم أستطع المقاومة فقلت: لم أكن أعلم أن دماء القردة تسيل في عروقك، كنت تقفز كواحد منها. ولم يكن يعرف ما إن كان عليه أن يُسرّ لأنني رأيته، أو يغضب لنعته بالقرد.

وقال إنّ الفئران تلعب عندما تغيب القطة، وعندما يذهب كينير إلى المدينة، فإنّ نانسي تقيم دائمًا حفلاتها الصغيرة، ويفترض أنّ الصبي والش سيصرخ

الآن في صفارته القصديريّة. وقلت إن ذلك صحيح تمامًا، وسأمنح نفسي متعة الاستماع إليه. وقال إنه ما من متعة في ذلك بالنسبة له. وقلت له أن يهدأ. عند ذلك أمسك بذراعي، ونظر إليّ بجدية شديدة، وقال إنه لم يقصد الإساءة إليّ سابقًا، ولكن احتكاكه بالرجال القساة لوقت طويل، الذين لم يكونوا يحسنون التصرف، جعله يميل لأن ينسى نفسه، ويسيء التعبير، وأنه يأمل أن أسامحه، وأن نصبح أصدقاء. قلت إنني كنت دائمًا على استعداد لأكون صديقة مع أي شخص صادق. وأما المغفرة فقد أوصى بها الكتاب المقدس، وأنا آمل بالتأكيد أن أتمكن من الصفح، كما آمل أن يُصفَح عني في المستقبل. قلت ذلك ببالغ الهدوء.

بعد ذلك أخذت البيرة إلى الشرفة الأرضية، كما أخذت بعض الخبز والجبن لنتناول عشاءنا معها، وجلست هناك مع نانسي وجيمي والش بينما كانت الشمس تنحدر، ولم تعد الخياطة ممكنة بسبب العتمة. كان مساءً جميلًا بلا ريح، وكانت الطيور تزقزق، وكانت الأشجار في البستان القريب من الطريق ذهبية في ضوء الشمس المتأخر، وكانت زهور الصقلاب الأرجوانية التي نمت على جانب الطريق الداخلي تبعث رائحة جميلة للغاية. وكذلك الفاوانيا القليلة المتبقية بجانب الشرفة، والورود المتسلقة. وجاء الهواء ببرودة معتدلة، بينما جلس جيمي وعزف على فلوته بحزن ينعش القلب. بعد فترة وجيزة قدم ماكدمروت متسللًا عبر جانب البيت مثل ذئب مُروَّض، واتّكأ على جانب المنزل، وأخذ يستمع أيضًا. وكان هناك نوع من الانسجام، وكان المساء جميلًا جدًا، لدرجة أنني شعرت بألم في قلبي، كما لو أنك لا تستطيع أن تقول جازمًا ما إذا كنت سعيدًا أم حزينًا. وفكرت أنه لو كان لي أن أتمنى، لتمنيت ألّا يتغير أي شيء أبدًا، وأن نبقى هكذا إلى الأبد.

لكن لا يمكن لأحد أن يوقف سير الشمس، باستثناء الرب، وقد فعل ذلك مرة واحدة فقط، ولن يفعل ذلك مرة أخرى حتى نهاية العالم. أما هذه الليلة فقد نزلت كالعادة تاركة وراءها غروبًا غامق الاحمرار. وللحظات تلون الجزء الأمامي من المنزل باللون الوردي. ثم في الغسق خرجت اليراعات، فقد كان موسمها من العام. ولمعت في الأجمات والحشائش المنخفضة، تضيء وتنطفئ كنجوم تتلألأ

عبر السحاب. اصطاد جيمي والش إحداها بكأس زجاجي، وغطاه بيده، وجلبها حتى أتمكن من رؤيتها عن قرب. كانت تومض ببطء، بنار خضراء فاترة. وفكرت أنني لو تمكنت من تعليق يراعتين في أذني كأقراط، ما كنت لأهتم إطلاقًا بحلق نانسي المصنوع من الذهب.

ثم أوغلت الظلمة وخرجت من وراء الأشجار والبساتين وصعدت فوق الحقول وامتدت الظلال واندمجت معًا. وفكرت في أنه يشبه ماء يخرج من الأرض، ويرتفع ببطء ليكون بحرًا. واستغرقت في تفكيري الحالم، وعادت إلي ذكرى عبور المحيط العظيم، وكيف كان البحر والسماء في هذا الوقت من اليوم يتخذان اللون النيلي نفسه، لذلك لا تستطيع معرفة الخط الفاصل بين نهاية أحدهما وبداية الآخر. وطفت في ذاكرتي جبال الجليد، بيضاء كأقصى ما يمكن للبياض أن يكون، وعلى الرغم من دفء المساء شعرت بقشعريرة.

لكن بعد ذلك قال جيمي والش إن عليه العودة إلى المنزل، لأن والده سيفتقده. وتذكرت أنني لم أحلب البقرة، ولم أغلق الباب على الدجاج لليلة، وسارعت إلى القيام بهما مستعينة بالضوء الأخير. عندما عدت إلى المطبخ، كانت نانسي لا تزال هناك، وقد أضاءت شمعة. سألتُ لماذا لم تذهب إلى الفراش، وقالت إنها تخاف النوم وحدها عندما لا يكون السيد كينير في المنزل، وسألتني أن أنام معها في الطابق العلوي.

قلت إنني سأفعل، ولكن تساءلتُ ما الذي تخاف منه. هل هم اللصوص؟ أو ربما جيمس ماكديرموت؟ لكنني قلت ذلك مازحة.

قالت بأقصى مكر يمكنها أن تعبر عنه بعينيها، إن لديّ أسبابًا للخوف منه أكثر ممّا لديها، إلا إن كنت في حاجة إلى عاشق جديد. وقلت إنني أخشى الديك العجوز في فناء الدجاج، أكثر ممّا أخشاه. وبالنسبة للعشاق، فليس بإمكانهم الاستفادة مني أكثر ممّا يمكن الاستفادة من رجل في القمر.

ضحكت، وذهبت كل منا إلى السرير بأنس. لكنني تأكدت قبل ذلك من أن كل الأبواب موصدة.

VIII

الثعلب والإوزة

مضى كل شيء بهدوء شديد لمدة أسبوعين، باستثناء تأنيب مدبرة المنزل لماكديرموت عدة مرات على عدم إنجاز عمله بالشكل الصحيح، وأعطته إشعارًا بالرحيل بعد أسبوعين... وكثيرًا ما قال لي بعد ذلك إنه سعيد لذهابه، لأنه لم يعد يرغب في العيش مع مجموعة ع... لكنه سيرضي نفسه قبل أن يذهب، وقال لي إنه متأكد أن السيد كينير ونانسي مدبرة المنزل، ينامان معًا. كنت مصممة على اكتشاف ذلك، واقتنعت بعدها، إذ كان واضحًا أن سرير نانسي لا يُمسُ إلا عندما يغيب السيد كينير، حيث أنام معها.

- اعتراف غريس ماركس، ستار آند ترانسكريبت، تورنتو، نوفمبر 1843.

كانت غريس ماركس... فتاة جميلة، تؤدي عملها بذكاء، لكنها ذات مزاج صامت، وطبع كئيب. كان من الصعب جدًا معرفة متى تكون مسرورة... بعد أن ينتهي العمل اليومي، غالبًا ما نبقى أنا وهي لوحدنا في المطبخ، لكون مدبرة المنزل مأخوذة تمامًا بسيدها. كانت غريس تغار من التفرقة الحاصلة بينها وبين مدبرة المنزل، التي تكرهها، والتي كانت في كثير من الأحيان وقحة، متغطرسة... «ما هذا؟ أهي أفضل منا -قالت لي- حتى تعامل كسيدة، تأكل وتشرب من أفضل ما يكون؟ هي لم تولد بنسب أرفع، وليست أفضل تعليمًا.»

جذب حُسن غريس اهتمامي بوضعها، وعلى الرغم من وجود شيء ما لم استسغه في الفتاة، ولكنني في النهاية كنت رجلًا خليعًا متمردًا على القانون، وإذا كانت الفتاة يافعة وجميلة فإنّي لا ألتفت كثيرًا لشخصيتها. كانت غريس نكدة مغرورة، ولم تستجب بسهولة لي. ولكن من أجل الفوز بإعجابها -إذا كان ذلك ممكنًا- أنصتُّ بانتباه لتذمرها الساخط.»

- جيمس ماكديرموت، إلى كينيث ماكنزي، كما أعيد سرده من قبل سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

بعدها شعرت بشرك يُنصب لإيذائي

يعلم الرب متى: ربما في كابوس.

ينتهي ويمضي شيء من الوقت

وبينما الشعور على وشك أن يخبو تمامًا،

يأتي صوت صفيق كأن فخًا ينغلق، وها أنت واقع فيه!

- روبرت براون، (شايلد رولاند يأتي إلى برج الظلام)، 1855.

27

كان هناك شروق زهري جميل عندما استيقظت اليوم، والضباب مستلقٍ على الحقول مثل سحابة بيضاء ناعمة من الموسولين، والشمس تسطع من خلال تلك الطبقات، مستترة ورديّة مثل خوخة تشتعل بلطف.

في الحقيقة ليست لدي أي فكرة كيف هو شروق الشمس في الخارج. فنوافذ السجن عالية، حتى لا تتسلّقها وتهرب حسب ما أظن، ولكن أيضًا حتى لا ترى من خلالها، أو على الأقل حتى لا ترى العالم الخارجي. إنهم لا يريدونك أن تنظر إلى الخارج، إنهم لا يريدونك أن تفكر بكلمة (خارج)، ولا يريدونك أن تنظر إلى الأفق، ولا أن تفكر في أنك ستسقط خلفه بنفسك في يوم من الأيام، مثل شراع سفينة ترحل، أو فارس يتلاشى مع حصانه أسفل التلال البعيدة. وهكذا فكل ما رأيته هذا الصباح هو التكوين المعتاد للضوء، ضوء بلا شكل، يدخل عبر النوافذ الرمادية القذرة المرتفعة، لا تصوبه شمس ولا قمر، لا مصباح ولا شمعة. مجرد كتلة من ضوء النهار تنتقل بالهيئة نفسها على طول الطريق، كقطعة شحم.

خلعت ثوب السجن الليلي، الذي كان خشن النسج وبلون أصفر. لا ينبغي أن أقول إنه ثوبي، لأننا لا نملك شيئًا هنا، نتشارك كل شيء، مثل المسيحيّين الأوائل، حتى ملابس النوم التي تلبسها أسبوعًا، لصق جلدك أثناء النوم، قد تكون استلقت قبل أسبوعين فقط على قلب ألدّ أعدائك، ثم غسلت وأصلحت على يدي أولئك الذين لا يتمنون لك الخير.

بينما كنت ألبس ملابسي وأرتب شعري، مر لحن برأسي، لأغنية اعتاد جيمي والش أن يعزفها على الفلوت في بعض الأحيان:

«توم، توم، ابن نافخ القربة،
سرق خنزيرًا وهرب،
وكل الألحان التي يمكنه عزفها الآن،
تأتي من فوق التلال، بعيدةً جدًا.»

كنت أعلم أنني أستعيدها على نحو خطأ، وكانت الأغنية الحقيقية تقول

إن الخنزير كان يؤكل وتوم كان يُضرب، ثم ذهب يعوي في الشارع. لكنني لا أجد ما يمنعني من أن أصيغها بطريقة أفضل. وطالما لا أخبر أحدًا بما يدور في ذهني، فما من أحد يُحاسبني، أو يصححني، أو يقول إن الشروق الحقيقي غير مطابق للذي أخترعه لنفسي، بل إنّه عوضًا عن ذلك لم يكن سوى شروق أبيض مصفر متسخ، مثل سمكة ميتة عائمة في المرفأ.

يمكنك في مصحة المجانين -على الأقل- أن ترى الخارج بشكل أفضل. عندما لا تكون مقموعًا في غرفة مظلمة.

قبل الإفطار تحدث عملية جلد في الفناء. يفعلون ذلك قبل الإفطار، فلو أكل المجلودون قبل جلدهم، فمن المرجّح أن يتقيّؤوا طعامهم، الأمر الذي يسبب فوضًى، فضلًا عن كونه مضيعة للغذاء الجيد. يقول الحراس والسجانون إنهم يحبون التمرين في ذلك الوقت من اليوم، لأنه يفتح شهيتهم. كان مجرد جلد روتيني، فهم يدعوننا للمشاهدة عندما يكون استثنائيًا. اثنان أو ثلاثة فقط، وجميعهم رجال، لا تتعرض النساء للجلد بشكل متكرر. الأول كان شابًا، أستطيع معرفة مثل هذه الأشياء من خلال الصراخ، فلدي قدر كبير من الخبرة. حاولت عدم الاستماع، وفكرت بدلًا من ذلك في الخنزير الذي سرقه اللص توم، وكيف التُهِمَ، لكن الأغنية لم تحدد ما إن كان أكله توم نفسه، أو الذين أمسكوا به. عيّن لصًا للقبض على لص، كما اعتادت ماري ويتني القول. تساءلت ما إذا كان الخنزير ميتًا من الأصل؟ على الأرجح لا. كان على الأرجح يسير بحبل مربوط حول عنقه أو حلقة عبر أنفه، واضطر للهرب مع توم. هذا منطقي أكثر، لأنه سيوفر عناء حمله. من بين كل من في الأغنية، كان الخنزير المسكين هو الوحيد الذي لم يرتكب أي خطأ، ولكنه أيضًا الوحيد الذي مات. لاحظت أن العديد من الأغاني غير عادلة على النحو نفسه.

خلال وجبة الإفطار، كان الجميع صامتين، لم تُسمع سوى أصوات مضغ الخبز وارتشاف الشاي، وجر الأقدام، والتنفس العالي من الأنوف، وقراءة نص من الكتاب المقدس، وقد كان موضوع اليوم يعقوب وعيسو وصحن الحساء

والأكاذيب التي قيلت والبركة والحق المكتسب الذي بيع، والخداع والتمويه الذي كان يمارس، والتي لم يمانعها الرب على الإطلاق بل العكس. مثلما كان إسحاق العجوز يحنو على نجله المشعَّر، الذي لم يكن ابنه على الإطلاق، بل عنزة مسلوخة. قرصتني آني ليتل بشدة على الفخذ، تحت الطاولة حيث لا يمكن رؤيتها. كنت أعرف ما يدور في بالها، أرادت أن تدفعني للصراخ، حتى أُعاقب أو أن يحسبوا أني في نوبة جنون جديدة، لكنني كنت مستعدّةً لها، حيث توقعت حدوث شيء من هذا القبيل.

بالأمس في مبنى الغسيل، بينما وقفنا أمام المغسلة، اتكأت عليها وهمست لي «دلوعة الدكتور، عاهرة مدللة.» حيث انتشر الخبر حول زيارات الدكتور جوردن، وظن البعض أنه يوليني اهتمامًا خاصًا، وأنني صرت أفتخر بذلك. إذا ظنوا ذلك هنا فسيعرفون كيف يتصرفون مع غرورك. ولن تكون هذه هي المرة الأولى، فهم مستاؤون من خدمتي في منزل الآمر أيضًا، لكنهم خائفون من التصرف بشكل علني، ظنًا منهم أنني على اتصال بأحد من أصحاب النفوذ. لا مكان كالسجن يذكي الغيرة. رأيت بعض الخلافات تتحول إلى شجار، وأحيانًا تقترب من أن تصبح قتلًا، على شيء تافه كقطعة من الجبن.

لكنني أحْكَمُ من أن أشتكي للمراقبات. ليس لأنهن ينظرن لمثل هذه الوشايات باشمئزاز فقط، مفضّلات الحياة الهادئة لأنفسهن؛ بل أيضًا لأنهن قد لا يصدقنني، أو قد يدعين ذلك، حيث يقول المأمور إن كلمة المدان ليست دليلًا كافيًا. بعدها ستعمل آني ليتل على الانتقام مني بطريقة أخرى. على المرء تحمل كل هذا بصبر، كجزء من التصحيح الذي نخضع له. ما لم تتمكن من العثور على طريقة تطرح بها عدوك دون اكتشافك. لا ينصح بسحب الشعر، فالجلبة تأتي بالحراس، ثم يعاقب الطرفان معًا؛ لإحداث الشغب. دس التراب في الطعام عن طريق الكم، كما يفعل السحرة، أمر يمكن تحقيقه دون ضجة كبيرة، ويمكن أن يحقق بعض الرضى. لكن آني ليتل كانت معي في المصحة، وجريمتها هي القتل غير المتعمد، إذ أطاحت بفتى إصطبل ثم قتلته بلوح من الخشب. وقيل إنها تعاني من

الإثارة العصبية، وأُعيدت إلى هنا في الوقت نفسه الذي عدت فيه. ولكن ما كان ينبغي ذلك، إذ إنّي أشك في سلامة عقلها. لذلك قررت أن أغفر لها هذه المرة، إلا إذا قامت بما هو أسوأ. ويبدو أن القرصة قد أراحت أعصابها.

ثم حان الوقت للحراس لأخذي عبر البوابة.

- آه غريس، خارجة للتنزه برفقة عاشقها، ألست محظوظة؟ لا، بل نحن المحظوظون، نحن الأولاد المحظوظون بهذه اللقمة السائغة بين يدينا. يقول أحدهم.

- ما رأيك غريس؟ فلنأخذ زقاقًا جانبيًا، إلى إصطبل خلفي، ونفعلها على القش، لن يستغرق الأمر وقتًا إذا بقيت ساكنة، لكن أيضًا سيكون أسرع إذا حاولتِ التملص. يقول الآخر.

- لماذا تستلقي من الأساس، اسندها إلى الحائط، ثم هوب، ارفع تنورتها، ستكون مجامعة سريعة وأنتما واقفان، إذا لم تخر ركبك. تعالي غريس، فقط اعطينا موافقتك، ونحن لها، الواحد منا جيد كالآخر، أولماذا تستقرين على واحد فيما لديك شخصان يقفان على أهبة الاستعداد طوال الوقت، هنا، ساعدينا وسيكون بإمكانكِ اختبار حقيقة الأمر. يقول الأول.

- ولن نطالبك بفلس واحد، لا مقابل بين الأصدقاء القدامى. يقول الآخر.

- أنتما لستما صديقاي، أنتما وحديثكما القذر، ولدتما في الحضيض وستموتان فيه أيضًا. أقول.

- ياهووو، هذا ما أحبه، بعض الروح العالية في المرأة، نار صغيرة، يقولون إنها تأتي مع احمرار الشعر. يقول الأول.

- ولكن هل هو أحمر حيث يهمّ أن يكون الشعر أحمر؟ -يقول الآخر- لا فائدة على الإطلاق من النار في أعلى الشجرة، لا بدّ أن تكون في الموقد لإنتاج حرارة كافية، في موقد طهي صغير، أتعرف لماذا يلبس الله النساء تنانير؟ حتى يمكن سحبها فوق رؤوسهن وربطها في الأعلى، وبهذه الطريقة لا تتسبب في الكثير من الضجيج، أكره العاهرات الصاخبات، يجب أن تولد النساء بلا

أفواه، الجزء الوحيد النافع فيهن هو الواقع تحت الخصر.

- عار عليك أن تتحدث بهذه الطريقة -أقول، ونحن نتجنب بركة صغيرة ونعبر الشارع- أمك امرأة أيضًا أو على الأقل أفترض أنها كذلك.

- اللعنة عليها -يقول- تلك الساحرة العاهرة العجوز، الجزء الوحيد الذي كانت تريد رؤيته هو مؤخرتي العارية المغطاة بآثار ضرب العصى، أنها تحترق الآن في الجحيم، والأمر الوحيد الذي آسف عليه هو أنني لم أكن من بعثها إلى هناك. بل بحار مخمور، حاولت أن تنشل جيبه، فضربها على رأسها بزجاجة.

- حسنًا -يقول الآخر- كانت أمّي ملاكًا بالتأكيد، قديسة على الأرض وفق تصورها الخاص، ولم تكن تسمح لي أبدًا أن أنسى ذلك. وأنا لا أعرف أيهما أسوأ.

- أنا الفيلسوف -قال الأول- بالنسبة لي فالأفضل هو الاعتدال، لا يجب أن تكون نحيلة جدًا ولا سمينة جدًا، والأفضل هو عدم إهدار عطايا الرب، بالحديث عن ذلك غريس، أنت ناضجة بما يكفي لتُنتَقَي، لماذا تبقين معلقة على الشجرة دون أن تتذوَّقي، سوف تسقطين وتتعفنين في أسفلها على أي حال.

- صحيح -يقول الآخر- لماذا يسمح للحليب أن يفسد في الوعاء، يجب أن يكسر الجوز فيما لا يزال صالحًا، إذ لا يوجد ما هو أسوأ من الجوز العفن. تعالي، إنك تجعلين لعابي يسيل، إنك كافية لتحويل رجل نزيه إلى متوحش، أريد قضمك بأسناني، مجرد عضة صغيرة كما يمكن أن تسميها، عضة صغيرة من نهاية الفخذ، لن تفتقديها، إذ إنّ لديك ما يكفي ويزيد.

- إنك فعلًا كذلك -يقول الأول- انظر، يبدو أن لديها خصرًا مثل الصفصاف، لكنها تخزن الدهون أسفله، لا بدّ أن طهي السجن اللذيذ هو المسؤول عن ذلك، إنها تتغذى على الكريمة، يمكنك أن تتحسّسها، هذا الفخذ مناسب لمائدة البابا.

وأخذ يعجن وينخس باليد المخبأة تحت ثنايا فستاني.

- سأكون ممتنة لعدم التصرف بحرية. أقول متملّصة.

- أما أنا فكلي تحرر -يقول الأول- كوني جمهوريًا في داخلي، إذ إنّه لا فائدة من ملكة إنجلترا إلا الفائدة التي أوجدتها الطبيعة لها، وبالرغم من أن لديها زوجًا رائعًا من النهود، وأنا على استعداد لإعطائها شرف عصرهما متى طلبت، إلا أنها تفتقر للذقن، إنّه أصغر من ذقن بطة. ما أحاول قوله، هو ألّا وجود لإنسان أفضل من الآخر، كلنا متساوون ولا فضل لأحد على أحد. وبما أنك منحتِ نفسك لأحدنا من قبل، فلماذا يُمنع الآخرون من حقّهم كديمقراطيين حقيقيين، ولماذا سمح لذلك القزم ماكديرموت بالاستمتاع بما يُحْرَمُ منه من هم أفضل منه؟

- نعم -قال الآخر- إنك قد سمحت له بأن يكون متحررًا بالكامل معك، لا أشك في أنكما قضيتما وقتًا رائعًا، متعرقًا طوال الليل في الحانة بلويستون، بلا توقف تقريبًا لالتقاط أنفاسه، إذ يقولون إنه كان رياضيًا من الطراز الأول، وبارع اليد في استخدام الفأس أيضًا، ويمكنه تسلق الحبل مثل قرد.

- فعلًا -قال الآخر- وفي النهاية حاول الرفيق البارع الصعود إلى السماء، وانتهى بقفزة عالية في الهواء علِق فيها مدة ساعتين، ولم يكن ممكنًا أن يَنزل طواعية، مهما نادوا عليه، ولكن كان لا بدّ من أن ينزَل. وكان يرقص وهو معلق هناك، في ترنح خفيف مع ابنة صانع الحبال، نابضًا بالحياة مثل ديكٍ لُوِيت رقبته للتو، لذلك كان منظره شارحًا للنفس.

- وأصبح بعد حين منتصبًا كلوح -كما قيل لي- تمامًا كما تحب السيدات.

وهنا ضحكا كثيرًا، معتقدين أنهما جاءا بأروع نكتة في العالم، لقد كان قاسيًا منهما أن يسخرا من رجل لمجرد أنه ميت، وهو أمر جالب لسوء الحظ أيضًا، إذ إنّ الأموات لا يحبون أن تلقى النكات بحقهم. وطمأنت نفسي بأن للأموات طرقهم الخاصة لحماية أنفسهم من التنمر، وسوف يتعاملون مع الحراس في الوقت المناسب، إما فوق الأرض أو تحتها.

قضيت الصباح في إصلاح بعض الدنتيل الأشقر للآنسة ليديا، الذي مزقته في حفلة ما. إنها تميل إلى إهمال ملابسها، ويجب أن يقال لها إن مثل هذه الملابس الجميلة لا تنمو على الأشجار. كان عملًا حساسًا، مجهدًا للعينين، لكنني أتممته في النهاية.

جاء الدكتور جوردن كالعادة بعد الظهر، وبدا مرهقًا، ومضطربًا أيضًا. لم يحضر معه أي خضار، ليسألني عن رأيي فيها. وكنت مذهولة قليلًا، حيث اعتدت على هذا الجزء من الظهيرة، واستمتعت بالتساؤل عمّا سيأتي به في المرة القادمة، وماذا كان يريد مني أن أقول عنها.

لذا قلت:

- سيدي لم تأتِ بشيء اليوم.
- شيء... ماذا تقصدين غريس؟
- بطاطا أو جزر، أو بصل. أو شمندر.
- نعم، عندي خطة أخرى غريس.
- ما هي سيدي؟
- قررت أن أسألك، ما الذي ترغبين أنتِ في أن أجلبه؟
- حسنًا سيدي. هذه في الواقع خطة مختلفة. ينبغي أن أدرسها.

لذلك قال إن هذا مرحب به. وسألني إن كنت قد رأيت أيّ أحلام يمكنني قصها إلى أن أقرر. ولأن علامات البؤس كانت بادية عليه، وبدا كما لو أنه قد خسر، وبما أنني كنت أشك في أن الأشياء لم تكن على ما يرام معه؛ لم أقل إنني لا أتذكر. بدلًا من ذلك قلت إنني حلمت بالفعل. «بماذا» قال منشرحًا وعابثًا بقلم الرصاص.

- حلمت بالزهور.

فانكب يدون ذلك، وسأل عن أي نوع من الزهور.

- زهور حمراء، كبيرة جدًا، بأوراق لامعة مثل الفاوانيا.

لكنني لم أقل إنها كانت مصنوعة من القماش، ولم أقل متى رأيتها آخر مرة.

ولم أقل إنها لم تكن في الحلم.

- وأين نمت؟
- هنا.
- هنا في هذه الغرفة؟ (قال فيما بدا يقظًا).
- لا، في الخارج، في الفناء، حيث نمشي على سبيل التمرين.

كتب ذلك أيضًا. أو أفترض أنه كتبه. لا أستطيع أن أكون متيقنة، لأنني لم أرَ أبدًا ما يكتبه، وأحيانًا أتخيّل أنه أيًا يكن، فلا يمكن أن يكون شيئًا قد خرج من فمي، لأنه لا يفهم الكثير ممّا أقوله، على الرغم من أنني أحاول وضع الأشياء بوضوحٍ قدر الإمكان. يبدو الأمر كما لو أنه أصمّ، ولم يتعلم بعد قراءة الشفاه. ولكن في أوقات أخرى يبدو أنه يفهم جيدًا، على الرغم من أنه مثل معظم الرجال النبلاء، يريد غالبًا أن تعبّر الأشياء عن معنًى أكثر ممّا هي عليه.

عندما انتهى من الكتابة قلت:

- فكرت بما أريد أن تحضره في المرة القادمة سيدي.
- وما هو غريس؟
- الفجل.
- فجل -أجاب- الفجل الأحمر؟ ولماذا اخترت الفجل؟

وقطب جبينه، كما لو كان الأمر يستحق التفكير العميق.

- حسنًا سيدي -قلت- الأشياء الأخرى التي أحضرتها لم تكن للأكل، أو هكذا بدا. لأن معظمها يجب أن يُطهى أولًا، ثم إنّك تأخذها معك، باستثناء التفاحة التي جلبتها في اليوم الأول، وقد كانت لذيذة. لكني فكرت أنك إذا أحضرت فجلًا، فيمكن تناوله بدون طهي، وهذا موسمه. نادرًا ما نحصل على أي شيء طازج في السجن، وحتى عندما آكل في مطبخ هذا المنزل، لا أحصل على مثل هذه الخضروات، لأنها مخصصة للعائلة. لذلك ستكون هدية نادرة. وسأكون ممتنة أكثر إذا أحضرت معه القليل من الملح أيضًا.

تنفس الصعداء، ثم قال:

- هل كان لديهم فجل في منزل السيد كينير؟
- نعم سيدي -قلت- كان لديهم، ولكن بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى ذلك المكان، كان موسمها قد ولّى، بما أنه يفضل تناول الفجل في بداية الموسم، فهي تصبح لينة وغالبًا ما تكون مليئة باليرقات عندما يحل الطقس الحار. عندها لا تصبح جيدة إلا للاستنبات.

لم يكتب ذلك.

بينما كان يستعد للمغادرة، قال:

- شكرًا لك على إخباري حلمك يا غريس. ربما تخبريني بحلم آخر قريبًا.
- ربما أفعل سيدي -ثم قلت- سأحاول جاهدة أن أتذكرها، ما دام ذلك يساعدك سيدي، نظرًا للمتاعب التي أنت فيها.

لقد شعرتُ بالشفقة تجاهه، إذ بدا على غير طبيعته.

- ما الذي يجعلك تعتقدين أنني في ورطة غريس؟
- أولئك الذين مروا بأوقات عصيبة يرون ذلك في غيرهم سيدي.

قال إنه لطف مني أن أفكر بذلك. ثم تردد لحظة، كما لو كان سيخبرني أكثر، لكنه أعاد التفكير في الأمر، وأومأ مودّعًا. دائمًا ما يعطي نفس الإيماءة الصغيرة عندما يخرج.

لم أكن قد انتهيت من حياكة قطعة الغطاء الخاصة بي لهذا اليوم، لأنه لم يبقَ في الغرفة معي المدة المعتادة. وهكذا بقيت جالسة، وواصلت الخياطة. بعد فترة قصيرة جاءت الآنسة ليديا.

- هل غادر الدكتور جوردن؟ قالت.
- نعم.

كانت تلبس فستانًا جديدًا ساعدت في خياطته، من قماش بنفسجي عليه تصاميم بيضاء لطيور وزهور صغيرة، لاق بها، وتنورة بشكل نصف قرعة. واعتقدت أنها على الأرجح توقعت أن يكون غيري حاضرًا.

جلست في المقعد المقابل لي، حيث كان الدكتور جوردن جالسًا، وبدأت في

تفتيش سلة الخياطة.

- لا أستطيع أن أجد كشتباني، ظننت أنني وضعته هنا -قالت- أوه، لقد نسي المقص، ظننت أنه من المفترض ألّا يتركه في متناول يدك.

- إننا لا نعطي اهتمامًا كبيرًا بالأمر -قلت- إنه يعلم أنني لن أؤذيه.

جلستُ قليلًا وسلة الخياطة في حضنها.

- هل تعلمين أن لديك معجبًا غريس؟

- أوه، من يكون؟

اعتقدت أنه سيكون فتى إصطبل أو فتًى صغيرًا ربّما سمع قصتي ووجدها رومانسية.

- الدكتور جيروم ديبونت. وهو يقيم حاليًا مع السيدة كوينل. يقول إنك عشت حياة استثنائية، ويجدك مثيرة للاهتمام للغاية.

- أنا لا أعرف أي رجل بهذا الاسم. أتوقع أنه يقرأ الصحف، وأنه في جولة، وينظر إليّ كمشهد تتوجّب رؤيته.

قلت بحدة، لأني شككت أنها تسخر مني. إنها محبة للمزاح، وأحيانًا تبالغ فيه.

- هو رجل ذو حرفة جادة. يدرس التنويم المغناطيسي العصبي.

- وما هذا؟

- أوه، إنّه يشبه المسمرية، ولكنه مبني على قواعد علمية أكثر، إنه يتعلق بالأعصاب. لكن يبدو أنه يعرفك، أو على الأقل لا بدّ أنه رآك من قبل، لأنه قال إنك لا تزالين جميلة جدًا. ربما مرّ بك في الشارع، وأنت في طريقك إلى هنا في الصباح.

- ربما.

قلت مفكرة في الصورة التي بدوت عليها، وأنا بين رجلين همجيين بابتسامتين معتدّتين.

- له عينان غامقتان، تجتازك كما لو كان يمكن أن يرى ما في داخلك.

لكني لست متأكدة من أنه يعجبني. بالطبع هو عجوز إنه مثل ماما والبقية، أفترض أنه ذهب إلى حلقة طاولة القرع، وجلسات استحضار الأرواح. أنا لا أؤمن بهذا، وكذلك الدكتور جوردن.

- هل قال ذلك؟ إنه إذًا رجل يحسن التقدير. هذا ليس شيئًا يجب التطفل عليه.

- رجل حسن التقدير، وبارد جدًا -وتنهدت- رجل حسن التقدير حتى ليبدو وكأنه مصرفي.

ثم قالت:

- غريس إنه يتحدث معك أكثر من أي واحد منا. أي نوع من الرجال هو حقًا؟

- رجل نبيل.

- حسنًا، أعرف هذا، ولكن كيف هو؟

- إنه أمريكي.

وكان شيئًا آخر تعرفه. ثم استدركتُ، وقلت:

- يبدو وكأنه شاب لائق بما فيه الكفاية.

- لا أريده أن يكون لائقًا جدًا. القس فيرينغر لائق جدًا.

كنت أتّفق معها -بيني وبين نفسي- ولكن كون القس فيرينغر يحاول الحصول على عفو عني، قلت:

- إن القس فيرينغر رجل دين، وهو أمر يتطلب أن يكونوا لائقين.

- أعتقد أن الدكتور جوردن ساخر للغاية. هل هو ساخر جدًا معك أيضًا غريس؟

- لا أفترض أنني أعرف ما إذا كان كذلك آنسة.

تنهدت مرة أخرى، وقالت:

- سيلقي كلمة في إحدى جلسات الثلاثاء التي تنظّمها ماما. إنني لا أحضرها عادة لأنها مضجرة للغاية، على الرغم من أن ماما تقول إنني يجب أن أبدي

اهتمامًا أكبر بالقضايا الجادة التي تعنى برفاهية المجتمع، والقس فيرينغر يقول الأمر نفسه. لكن هذه المرة سأذهب، لأني متأكدة أنه سيكون من المثير أن نسمع الدكتور جوردن يتحدث عن المصحات. على الرغم من أنني أفضل لو يدعوني لتناول الشاي في غرفته. مع ماما وماريان بالطبع، إذ لا بدّ أن يكون لدي مرافق.

- من المستحسن دائمًا، بالنسبة لفتاة صغيرة.

- غريس أنت تتصرفين كعجوز أحيانًا! وأنا لم أعد فتاة صغيرة حقًا، عمري تسعة عشر. أفترض أنه لا يعني شيئًا بالنسبة لك، لقد فعلت كل أنواع الأشياء، لكنني لم أُدْعَ إلى الشاي في غرفة رجل من قبل.

- كونك لم تفعلي الشيء من قبل -يا آنسة- ليس سببًا وجيهًا للقيام به. ولكن إذا كانت والدتك ستذهب، فأنا متأكدة أنه سيكون تصرفًا محترمًا بما فيه الكفاية.

وقفت، وجرت يدها على طول طاولة الخياطة. قالت:

- نعم، سيكون محترمًا بما فيه الكفاية.

أصابتها الفكرة بالإحباط. ثم قالت:

- هلّا ساعدتني في ثوبي الجديد لحلقة الثلاثاء؟ أريد ترك انطباع به.

قلت إنني سوف أساعدها بسرور، وقالت إنني كنز، وأملت ألّا يسمحوا لي بالخروج من السجن نهائيًا، لأنها تريدني دائمًا أن أكون هناك، لمساعدتها في فساتينها. الذي أفترض أنه كان مجاملة من نوع ما.

لكن لم أرتح للنظرة الجارفة في عينيها، أو النغمة المنحدرة في صوتها. وفكرت أن المشاكل قادمة. كما هو الحال دائمًا عندما يحب المرء من لا يبادله الحب.

أحضر لي الدكتور جوردن الفجل الموعود، في اليوم التالي، مغسولًا وخاليًا من الأوراق، طازجًا وهشًا، وليس مطاطيًا كما يصبح عند تركه لمدة. لقد نسي الملح، لكنني لم آتِ على ذكر الأمر، إذ ليس من الصواب أن تعيب هدية منحت لك. أنا آكل الفجل بسرعة -تعلمت عادة ابتلاع طعامي في السجن، حيث يجب أن يؤكل قبل انتزاعه- وتلذّذت بحدة طعمه الذي يشبه الرائحة اللاذعة لنبات الكبوسين. أسأله كيف جاء بها؟ فيقول إنها من السوق، على الرغم من أنه فكر في زراعة حديقة مطبخ صغيرة لنفسه في المنزل الذي يقيم فيه، حيث يتوفر مكان لها، وقد بدأ الحفر بالفعل. الآن هذا شيء أحسده عليه.

ثم قلت:

- أشكرك سيدي من أعماق قلبي، كان الفجل مثل رحيق الآلهة.

يبدو مندهشًا لاستخدامي هذا التعبير، ولكن هذا فقط لأنه لا يتذكر أنني قرأت شعر السير والتر سكوت.

ولأنه كان كريمًا بإحضاره الفجل، فقد شرعت طواعية في قص حكايتي، وجعلها مثيرة للاهتمام قدر المستطاع، وغنية بالأحداث، كنوع من رد الجميل. لأنني أؤمن دائمًا بأن البادرة الطيبة تستحق مقابلًا لها.

توقفنا آخر مرة سيدي، عندما توجه السيد كينير إلى تورنتو، ثم جاء جيمي والش وعزف على فلوته، وحظينا بغروب جميل، ثم ذهبتُ للنوم مع نانسي، حيث كانت تخاف اللصوص، حين لا يكون في المنزل رجل. لم تضع ماكديرموت في الحسبان لأنه لا ينام في المنزل نفسه. أو ربما لم تكن تعده رجلًا، أو لعلها ظنت أن الأرجح هو أن يقف في صف اللصوص، وليس ضدهم. لم تقل.

وهكذا، كنا نصعد الدرج حاملين شموعنا. حجرة نوم نانسي -كما ذكرت- كانت في الجزء الخلفي من المنزل، وكانت أكبر بكثير وأجمل من غرفتي، على الرغم من أنه ليس لديها غرفة ملابس منفصلة كالتي لدى السيد كينير. ولكن كان لديها سرير واسع، وغطاء جميل عليه، كان غطاء صيفيًا بألوان وردية وزرقاء على

قماش أبيض. كان على نمط الدرج المكسور. كانت لديها خزانة ملابس، تحوي فساتينها، وتساءلت كيف كان بإمكانها أن تدخر ما يكفي من المال لشراء كل ذلك، لكنها قالت إن السيد كينير كان سيدًا سخيًا عندما يريد. كما كانت لديها طاولة زينة يعلوها مفرشٌ مطرزٌ، وورودٌ وزنابقُ ذاتُ براعمَ، وصندوقٌ من خشب الصندل يحوي أقراطها ودبوسًا مزخرفًا، وكذلك قواريرَ من الكريمات والأدوية. إذ إنها تدهن جلد وجهها قبل الذهاب إلى الفراش، وكأنها تلمع حذاء. لديها زجاجة من ماء الورد أيضًا، وقد سمحت لي أن أجرب بعضًا منه، بما أنها اجتماعية هذا المساء، كان ذو رائحة لذيذة. هناك أيضًا صحن صغير من دهن الشعر، والذي فركت القليل منه، وقالت إنه يعطي الشعر لمعانًا، وطلبت مني أن أمشط شعرها، تمامًا كما تفعل خادمة السيدة، الأمر الذي فعلته بكل سرور. كان لديها شعر حلو طويل، بني غامق، ومموج. قالت: أوه غريس، هذا يشعرني بالترف، إن لديك لمسة جيّدة. وشعرت بالإطراء. لكنني تذكرت ماري ويتني، وكيف كانت تمشط شعري. والواقع أنها لا تغيب أبدًا عن ذهني لمدة طويلة.

وهكذا كنّا حبّتي بازلاء في جراب واحد. قالت على نحو ودي للغاية حين أصبحنا في السرير. ولكنها تنهدت بعد أن نفخت الشمعة، لم تكن تنهيدة امرأة سعيدة، بل تنهيدة شخص يحاول أن يصنع الأفضل ممّا يتوفر لديه.

عاد السيد كينير صباح يوم السبت. كان يعتزم العودة يوم الجمعة، ولكن أخرته بعض الأعمال في تورنتو، أو هكذا قال. وتوقف أثناء عودته، في نزل لم يكن بعيدًا عن شمال أول بوابة، ولم تكن نانسي مسرورة بسماع ذلك، حيث إنّ للمكان سمعة سيئة وقيل إنه يؤوي نساء سائبات، أو هكذا أخبرتني في المطبخ.

أجبتها أن بإمكان الرجل النبيل أن يمكث في أماكن كهذه دون أي خطر على سمعته، محاولةً تهدئتها. كانت مهتاجة للغاية، لأن السيد كينير قد التقى باثنين من معارفه في الطريق إلى البيت، الكولونيل بريدجفورد والكابتن بويد، ودعاهما إلى تناول الطعام. كان ذلك هو اليوم الذي يأتي فيه جيفرسون الجزار، غير أنه لم يفعل بعد، لهذا لم يكن لدينا أي لحم طازج في المنزل.

قالت نانسي: أوه غريس، سنضطر إلى ذبح دجاجة، اخرجي واطلبي من ماكديرموت القيام بذلك. قلت سنحتاج بالتأكيد إلى دجاجتين، سيكون المجموع ستة مع السيدات. لكنها ردت منزعجة أنه لن تحضر السيدات، فزوجات هؤلاء السادة لا يتنازلن أبدًا لاجتياز عتبة المنزل، وهي نفسها لن تتناول العشاء معهم في غرفة الطعام، لأن كل ما كانوا يفعلونه هو الشرب والتدخين وحكاية القصص عن الأفعال الخيرة التي قاموا بها خلال التمرد، بعدها سيقضون وقتًا طويلًا يلعبون الورق، ولهذا تأثير سيئ على صحة السيد كينير، وسيصاب بالسعال، كما هو الحال دائمًا عندما يأتي هؤلاء الرجال للزيارة. كانت تسمح لنفسها بإظهاره بهيئة سيئة عندما يصب ذلك في مصلحتها.

عندما خرجت للبحث عن جيمس ماكديرموت، لم أستطع العثور عليه في أي مكان. ناديت، حتى إنّني صعدت السلم إلى الدور العلوي فوق الإصطبلات حيث ينام. لم يكن هناك، لكنه لم يهرب أيضًا، فأشياؤه لا تزال في العلية، حيث كانت. ولا أعتقد أنه سيرحل دون استلام الأجر المستحق. فيما كنت أنزل الدرج رأيت جيمي والش، ونظر إليّ بفضول، ظانًا أني -حسبما أفترض- كنت أزور ماكديرموت. ولكن عندما سألت عن مكانه، لأنه مطلوب، ابتسم جيمي والش لي مرة أخرى، وكان ودودًا، وقال إنه لا يعرف، ولكن ربما يكون قد مشى إلى منزل هارفي، الذي كان رفيقًا جلفًا يعيش في منزل خشبي، مثل الكشك، مع امرأة ليست زوجته. حدود معرفتي بها هي رؤيتها ذات مرة، اسمها هانا ابتون، ذات نظرة فظة، وهي متجنّبة عمومًا. لكن هارفي كان... لن أقول صديقًا، لكن أحد معارف ماكديرموت، الذي يشاركه الشرب، ثم سأل جيمي إن كانت هناك أي مهمات يمكنه القيام بها.

عدت إلى المطبخ لأشعر نانسي أنّني لم أعثر على ماكديرموت، وقالت إنها اكتفت من ألاعيبه الكسولة، كان دائمًا يغيب عندما تدعو الحاجة إليه، ويتركني أترنح، وأن علي ذبح الدجاج بنفسي. قلت: أوه لا، لا أستطيع فعل ذلك، لم أفعل ذلك من قبل ولا أعرف كيف يكون الأمر. إذ كنت أنفر من سفك دم أي

شيء حي، على الرغم من أنني أنتف الطير على نحو جيد بعد أن يقتل. وطلبت مني ألّا أكون سخيفة، فالأمر سهل، كل ما علي فعله هو حمل الفأس وضربها على الرأس، ومن ثم توجيه ضربة قوية إلى رقبتها.

لكنني لم أتحمل الفكرة، وبدأت في البكاء. وأنا آسفة على قول ذلك -إذ إنّه من غير اللائق التحدث بالسوء عن الموتى- لقد هزتني ثم صفعتني، ودفعتني عبر باب المطبخ إلى الفناء، وطلبت مني ألّا أعود دون طائر ميت وبسرعة أيضًا، حيث لم يكن لدينا الكثير من الوقت للتحضير، وكان السيد كينير يحب تناول وجباته في موعدها.

دخلت إلى حظيرة الدواجن واصطدت طيرًا ممتلئًا، طيرًا أبيض، وكنت أبكي طوال الوقت، ودسسته بإحكام تحت ذراعي، وذهبت نحو مكان قطع الأخشاب، فمسحت دموعي بمئزري. لأنني لم أستوعب كيف يمكنني حمل نفسي على فعل شيء كهذا. تبعني جيمي والش وسألني عن سبب بكائي وتوسلت إليه أن يقتلها بالنيابة عني، وقال إنه لا يوجد ما هو أسهل من ذلك، وإنّه سيفعل بكل سرور، فأنا رقيقة القلب. أخذ الطير مني وقطع رأسه ببراعة، استمر في التحرك مقطوع الرأس للحظة، ثم استلقى يركل في الأوساخ، واعتقدت أنه مثير للشفقة. ثم جلسنا جنبًا إلى جنب على حاجز السياج ننتف الريش ونطيره. ثم شكرته بصدق على مساعدته، وقلت إنني لا أملك شيئًا أجازيه به، لكنني سأبقى ممنونة إلى الأبد. فابتسم على نحو أخرق، وقال إنه مستعد للمساعدة طواعية متى ما احتجت إليه.

جاءت نانسي في الجزء الأخير من العملية، وكانت تقف على باب المطبخ مظللة عينيها بيدها، منتظرة بفارغ الصبر أن يصبح الطائر جاهزًا للطهي. لذلك نظّفته بأسرع ما أمكنني، حابسة أنفاسي اتّقاءً للرائحة، مبقية على حويصلة الطائر في حال احتيجَ للمرق، وغسلتها تحت المضخة، ودخلت بها. وقالت في المطبخ، بينما كنا نحشوها: حسنًا يبدو أنك قمت باحتلال جديد. سألتها ما الذي تعنيه، وقالت: جيمي والش يعاني حالة جادة من الحب الطفولي، مكتوبة على وجهه، اعتاد أن يكون معجبي ولكن أرى أنه الآن لك. ولاحظت أنها كانت تحاول مجددًا

أن تكون صديقتي، بعد أن فقدت أعصابها. لذلك ضحكت، وقلت إنه ليس صيدًا ثمينًا بالنسبة لي، فهو مجرد صبي، بشعر أحمر مثل الجزر، ونمش مثل البيضة، بالرغم من أنه طويل بالنسبة لعمره. وقالت: حسنًا، مصير اليرقة أن تتحول. وجدته كلامًا غامضًا، لكنني لم أسألها عمّا تعنيه، حتى لا تظنني جاهلة.

كان علينا إشعال الموقد جيدًا وإبقائه ساخنًا في المطبخ الصيفي، لشيّ الدجاج. لذلك أكملنا بقية العمل في مطبخ الشتاء. أعددنا طبقًا من البصل والجزر الممزوج بالقشدة، لتقديمه مع الدجاج. حضّرنا للحلوى الفراولة، مع القشدة التي صنعناها بأنفسنا، متبوعة بجبن من صنعنا. يحتفظ السيد كينير بالنبيذ في القبو، بعضه في برميل وبعضه في الزجاجات. أرسلتني نانسي لإحضار خمس زجاجات منها. لم تكن تحب النزول إلى هناك، قالت إن المكان مليء بالعناكب.

دخل جيمس ماكديرموت وسط جنون التحضيرات ذاك، ماشيًا ببطء، مرتاحًا لأقصى حد، وعندما سألته نانسي أين ذهب، مستخدمة نبرة صوت دافئة، قال بما أنه أنهى واجباته الصباحية قبل مغادرته، فإن أمره اللعين لا يعنيها. وإذا كان يجب أن تعرف، فقد كان في مهمة خاصة أوكلها إليه السيد كينير، قبل ذهابه إلى تورونتو. وقالت نانسي إنها ستنظر في هذا لاحقًا، وإنه ليس من حقه المجيء والذهاب كما يشاء، والاختفاء عن وجه الأرض ببساطة في اللحظة التي تتطلب وجوده بشدة، وقال كيف له أن يعرف وهو لا يستطيع قراءة المستقبل. وقالت إنه لو استطاع، فإنه سيرى أنه لن يقضي الكثير من مستقبله في هذا المنزل. ولكن بما أنها منشغلة حاليًا، فستتحدث معه في وقت لاحق، أما الآن فيمكنه الاعتناء بخيول السيد كينير، التي كانت بحاجة إلى التمشيط بعد رحلتها الطويلة، هذا إن لم يُعدّ هذه المهمة أقل من مستواه الملكي. وذهب إلى الإصطبلات بوجه عابس.

وصل الكولونيل بريدجفورد والكابتن بويد كما هو متفق، وتصرفوا على النحو الذي ذكرته نانسي. أصواتهم العالية تأتي من غرفة الطعام، مع الكثير من الضحك، وجعلتني نانسي أقدم الطعام على المائدة. لم ترغب في فعل ذلك

بنفسها، بل جلست في المطبخ، تتناول كأسًا من النبيذ، وصبّت لي كأسًا أيضًا. كان واضحًا أنّها تبغض هؤلاء السادة، قالت إنها لا تعتقد أن الكابتن بويد كابتن حقيقي، لأن البعض حصلوا على اللقب لمجرد امتطاء أحصنتهم في يوم التمرد. وسألتُ: ماذا عن السيد كينير، فالبعض في الحي يناديه بالكابتن أيضًا؟ وقالت إنها لم تكن تعرف عن هذا، فهو لم يلقب نفسه، وكانت بطاقة تعريفه تقول (السيد) فقط. على أي حال، فلو كان كابتنًا، لكان من المؤكد أنه في جانب الحكومة. وكان هذا شيئًا آخر تبغضه.

سكبت لنفسها كأسًا آخر من النبيذ، وقالت إن السيد كينير يمازحها أحيانًا بخصوص اسمها، ويطلق عليها لقب الثورية الصغيرة، لأن اسم عائلتها كان مونتغمري، مثل جون مونتغمري الذي كان يمتلك الحانة حيث يلتقي المتمردون، والتي أصبحت الآن خرابة. وكان يتباهى بأنه عندما يحترق أعداؤه في الجحيم، فستكون لديه حانة أخرى في شارع يونغ. والذي أصبح واقعًا سيدي، على الأقل بالنسبة للحانة. ولكنه في ذلك الوقت كان لا يزال في الولايات المتحدة، بعد أن هرب بطريقة جريئة من سجن كينجستون. لذلك كان هذا ممكنًا.

صبت نانسي لنفسها كأسًا ثالثة من النبيذ، وقالت إنها تصبح سمينة بالرغم من كل ما تفعله، ووضعت رأسها على ذراعيها. لكن حان موعد حمل القهوة، قبل أن أسألها لماذا أصبحت مغمومة فجأة. كان الجو مرحًا في غرفة الطعام، بعد أن استهلكوا الزجاجات الخمس وطلبوا المزيد. وسأل الكابتن بويد أين وجدني السيد كينير، وهل هناك المزيد على الشجرة التي جئت منها، وهل هن جاهزات للقطاف. وسأل الكولونيل بريدجفورد ما فعله توم كينير مع نانسي؟ هل حبسها في الخزانة مع بقية حريمه التركي. وقال الكابتن بويد إنني يجب أن أنتبه إلى عينيّ الزرقاوين الناصعتين، وإلّا انتزعتهما نانسي، إذا تجرأ توم العجوز حتى للغمز لي. كان كل ما قيل من باب الدعابة، لكنني كنت آمل أن نانسي لم تسمعه.

صباح يوم الأحد، قالت نانسي إن عليّ الذهاب معها إلى الكنيسة. قلت إنني لا أملك ثوبًا جيدًا، على الرغم من أن هذا كان مجرد عذر، لم أكن أرغب

في الذهاب حيث الغرباء، والتعرض إلى تحديقهم. لكنها قالت إنها ستعيرني أحد فساتينها، وهو ما فعلته، على الرغم من أنها حرصت على أن يكون ثاني أفضل ما لديها، وألّا يكون بجمال الذي تلبسه. وأعارتني قلنسوة أيضًا، وقالت إنني أبدو لائقة. سمحت لي أيضًا بلبس زوج من قفازاتها، والتي لم تناسبني، حيث كانت يدا نانسي كبيرتين. كما التفعت كل واحدة منا بشالٍ خفيفٍ من الحرير المزخرف.

كان السيد كينير يعاني من الصداع، وقال إنه لن يذهب -فهو لم يكن رجل كنيسة على أي حال- لكنه قال إنه يمكن لماكديرموت أن يأخذنا في العربة، ومن ثم يعود لجلبنا لاحقًا، ما يفهم منه أنه لن يحضر القداس هو نفسه، لأنه كان كاثوليكيًا والكنيسة مشيخية، وهي الوحيدة هناك حتى الآن، والكثير من الذين لم يكونوا أعضاء في تلك الكنيسة حضروا إليها، إذ إنّها أفضل من لا شيء، وهي أيضًا الوحيدة في البلدة التي حوت مقبرة، لذا فقد احتكرت الأموات كما فعلت مع الأحياء.

جلسنا في العربة على أفضل حال، وكان الجو مشرقًا وصافيًا، وكانت الطيور تغني، وشعرت بالسلام مع العالم، كما لم أفعل من قبل، والذي كان مناسبًا لذلك اليوم. وضعت نانسي ذراعها في ذراعي، بينما كنا نسير إلى الكنيسة، من باب الصداقة كما أحسب. أدار البعض رؤوسهم، ظننت أن السبب هو أنني جديدة عليهم. كان هناك أناس من شتى الأنواع، المزارعون الفقراء وزوجاتهم، الخدم، تجار البلدة وكذلك أولئك الذين يمكن أن تعرف من ملابسهم ومن موقعهم على المقاعد الأمامية، أنهم يعدون أنفسهم الطبقة العليا، أو شيئًا من هذا. جلسنا على المقاعد في الخلف، وهو الشيء الصحيح.

بدا القس مثل طائر مالك الحزين، بأنفه المشابه لمنقار مدبّب، والعنق الطويلَ النحيف، وخصلة من الشعر تلتصق أعلى رأسه. كانت الخطبة حول موضوع النعمة الإلهية، وكيف يمكن أن نجد الخلاص بها وحدها، وليس من خلال أي جهد من جانبنا، أو أي أعمال خيرة نقوم بها. لكن هذا لا يعني أننا يجب أن نتوقف عن بذل الجهود، أو القيام بأعمال خيرة، لكن أيًضا ليس بوسعنا

الاعتماد عليها، ونكون على يقين من أنّنا قد أُنقِذْنا، احترامًا لجهودنا وأعمالنا الحسنة؛ لأن النعمة الإلهية كانت لغزًا، والمستحقون لها يعرفهم الرب وحده. وبالرغم من أن الكتاب المقدس قال إنّه يمكن معرفتها من ثمارها، فإنّ الثمار المقصودة هي ثمار روحية، وهي غير مرئية سوى للرب. وبالرغم من أنه يجب علينا أن نصلي من أجل النعمة الإلهية، فلا ينبغي لنا أن ننتفخ بالغرور مصدقين أنّ صلواتنا قد يكون لها أي تأثير، لأن الإنسان يطلب ولكن الرب يحسم، والأمر ليس متروكًا لأرواحنا الضئيلة الآثمة والهالكة؛ لتحديد مسار الأحداث. الأوائل سيكونون الأواخر، والأواخر سيكونون الأوائل، والبعض ممن تدفّؤوا بنيرانهم الدنيوية لسنوات عديدة، سيجدون أنفسهم قريبًا يشوون في شيء أسخن، يوازي سخطهم ودهشتهم. تتجوّل وسطنا الكثير من الأضرحة البيضاء البديعة، جميلة من الخارج ولكنها مليئة بالعفن والفساد من الداخل. وعلينا أن نحذر من المرأة التي تجلس على باب بيتها -والتي تحذرنا منها الآية التاسعة- أو من أي شخص قد يغرينا بالقول إن المياه المسروقة حلوة، والخبز الذي يؤكل سرًا لذيذ؛ فتلك المرأة وضيوفها -كما يقول الكتاب المقدس- في الدرك الأسفل من الجحيم. وفوق كل ذلك يجب أن نحترس من الرضى عن النفس، مثل العذراء الحمقاء، ويجب ألّا نتباهى تاركين مصابيحنا تشع إلى الخارج. فلا يعلم أحد اليوم ولا الساعة. ويجب أن ننتظر في خوف ورعدة.

استمر بهذه الطريقة لبعض الوقت، ووجدت نفسي أتفحص قبعات السيدات الحاضرات، بقدر ما أستطيع رؤيته من الخلف. والزهور على شالاتهن. وقلت لنفسي إنه إذا لم تستطع الحصول على النعمة الإلهية عن طريق الصلاة من أجلها، أو بأي طريقة أخرى، وإن لم يكن بمقدورك أن تعرف هل حزتها أو لا، فالأفضل أن تنسى الأمر بأسره، وتهتم بشؤونك، لأن حقيقة أن تكون ملعونًا أو محفوظًا ليس من شأنك. لا جدوى من البكاء على اللبن، ما دمت لا تعلم هل كان اللبن مسكوبًا أو لا، وإذا كان الرب وحده يعلم، فإن الرب وحده يمكنه تنظيفه إذا لزم الأمر. لكن التفكير في مثل هذه الأمور يشعرني بالنعاس، وكان للقس صوت

يبعث على الكسل. وكنت على وشك النوم، عندما وقفنا على أقدامنا لغناء (ابق معي)، أو هذا ما أذكره؛ والتي لم تغنيها الطائفة جيدًا، ولكن على الأقل كانت هناك موسيقا، وهي عزاء دائمًا.

لم يحيّنا أنا ونانسي أي شخص بحرارة أثناء خروجنا. بل كانوا يتجنبوننا عوضًا عن ذلك، على الرغم من أن بعضًا من الفقراء أومؤوا لنا بطريقةٍ ما؛ سمعنا همسات أثناء عبورنا، الأمر الذي وجدته غريبًا، فعلى الرغم من أنني غريبة، فلا بدّ أن نانسي مألوفة لهم؛ وعلى الرغم من أن النبلاء -أو أولئك الذين يتصورون أنهم نبلاء- لا يحتاجون لملاحظتها، فإنها لا تستحق مثل هذه المعاملة من المزارعين وزوجاتهم، ومن الآخرين الذين يعملون كخدم. رفعت نانسي رأسها عاليًا ولم تتطلع يسارًا أو يمينًا. وفكرتُ أنهم أناس باردون ومتكبرون، وليسوا جيرانًا جيدين. إنهم منافقون، يعتقدون أن الكنيسة هي قفص لإبقاء الرب في الداخل، لذا سيبقى محتجزًا هناك ولن يذهب للتجول عبر الأرض خلال الأسبوع، يدس أنفه في شؤونهم، وينظر في عمق وظلمة وازدواجية قلوبهم وافتقارهم إلى البر الحقيقي. يعتقدون أنهم لا يحتاجون للقلق بشأنه سوى في الآحاد وهم بأفضل ملابسهم، ووجوههم مستقيمة، وأياديهم مغسولة وقفازاتهم مُرتداة، وقِصصهم معدة. لكن الله في كل مكان، ولا يمكن تقييده، كما يقيد الرجال.

شكرتني نانسي على الذهاب إلى الكنيسة معها، وقالت إنها كانت مسرورة بالرفقة. لكنها أرادت مني أن أعيد الفستان والقبعة في اليوم نفسه، لأنها كانت قلقة من أن يتّسخا.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، جاء ماكديرموت إلى المطبخ لتناول الغداء بوجه طويل ومتجهم. كانت نانسي قد أعطته إخطاره، وكان من المقرر أن يغادر نهايةَ الشهر. قال إنه مسرورٌ جدًا، لأنه لا يحب أن يكون تحت إمرة امرأة، ولم يكن الأمر مماثلًا في الجيش أو على القوارب. ولكن عندما اشتكى، فكل ما قاله السيد كينير هو أن نانسي سيدة المنزل، وهي تتقاضى أجرها لقاء ترتيب الأمور، ويجب على ماكديرموت أن يتلقى أوامره منها، فهو لا يستطيع شغل نفسه

بالتفاصيل التافهة. كان ذلك سيئًا، لكنه أصبح أسوأ بكثير، بالنظر إلى أي نوع من النساء كانت. ولم يرغب في البقاء لفترة أطول مع هذه المجموعة العاهرة.

صُدِمْتُ، وظننت أنها لم تكن أكثر من طريقة ماكديرموت في الحديث، والمبالغة، والكذب. وسألته بسخط عمّا يقصده. وسأل إن كنت حقًا لا أعلم أن نانسي والسيد كينير ينامان معًا، إذ كانا بجرأة محارب، ويعيشان سرًا كزوج وزوجة، على الرغم من أنهما لم يكونا متزوّجين أكثر ممّا كان هو. غير أن الأمر لم يكن سرًا، إذ إنّ كل الحي يعرف. فوجئت جدًا، وعبرت عن دهشتي، وقال ماكديرموت إنني مغفلة، وعلى الرغم من حديثي عن أنّ السيدة باركنسون فعلت هذا وذاك، ومفاهيم حياة المدينة، فأنا لا أعرف بالقدر الذي أظنه، وكنت بالكاد أستطيع أن أرى ما هو أمام أنفي. أما بالنسبة لعهر نانسي، فيمكن لأي شخص ما عدا شخص ساذج مثلي أن يكتشفه مباشرة، حيث كان معروفًا أن نانسي أنجبت طفلًا عندما كانت تعمل في منزل رايتس، من شاب عاطل هرب وتركها، غير أن الطفل مات. لكن السيد كينير وظفها وأخذها على أي حال، وهو ما لم يكن ليفعله أي رجل محترم. وكان واضحًا من البداية ما ينوي فعله، فَفَوْر خروج الحصان من الإصطبل، لا نفع من إغلاق باب الحظيرة، وحالما تستلقي المرأة على ظهرها، تصبح في ورطة السلحفاة التي تقع على ظهرها، بالكاد يمكنها أن تنهض من جديد، بل تصبح طريدة متاحة للجميع.

على الرغم من اعتراضي، إلا أنه خطر لي بأنه لمرة واحدة كان يقول الحقيقة، وفهمت ما تعنيه الرؤوس المتفادية في الكنيسة، والهمسات، وكذلك العديد من الأشياء الصغيرة الأخرى التي لم أعرها كثير اهتمام. فضلًا عن الفساتين الجميلة والأقراط الذهبية، والتي كانت -إن صح التعبير- أجرة الخطيئة، وحتى تحذير السيدة سالي -طاهية آل واطسون- لي قبل أن أقبل بالوظيفة. بعد ذلك أبقيت عيني وأذني مفتوحتين، وتجولت في المنزل كجاسوسة، وتيقنت أن نانسي لا تنام على سريرها عندما يكون السيد كينير في المنزل. وخجلت من نفسي لأنني خدعت ولأنني جعلت الأمر يُفرض عليّ بهذا الشكل، ومن كوني عمياء وساذجة.

29

يؤسفني الاعتراف بفقداني الكثير من الاحترام الذي حملته يومًا لنانسي، باعتبارها سيدة البيت، والأكبر سنًا. وتركت احتقاري يظهر، وكنت أرد عليها على نحو غير حكيم، وكان هناك جدال ارتفعت على إثره أصواتنا، وصفعة أو اثنتان من جانبها. لأن مزاجها سريع التعكر، يفقدها القدرة على التحكم بيديها. لكنني حتى ذلك الحين بقيت أتذكر مكانتي، فلم أضربها في المقابل. ولو أنني أمسكت لساني، لكانت أذني أقل رنينًا. لذا فإنني ألقي بعض اللوم على نفسي.

يبدو أن السيد كينير لم يلاحظ الخلاف. بل إن كان هناك أي فرق في معاملته، فهو أنه أصبح أكثر لطفًا معي، وكان يقف بجانبي أثناء أداء واجباتي المختلفة، ويسألني كيف أمضي في العمل، وكنت دائمًا أقول له: على ما يرام سيدي. إذ ما من شيء يرغب الرجل النبيل في التخلص منه سريعًا، مثل خادم ساخط. من الجيد تذكر أنه يُدفع لك لتبتسم. وكان يقول إنني فتاة جيدة وعاملة نشطة. وذات مرة بينما كنت أصعد السلالم بدلو من الماء، لحمّامه الذي طلب أن يملأ في غرفة ملابسه، سأل لماذا لا يفعل ماكديرموت ذلك، فالدلاء ثقيلة علي. قلت إن هذه مهمتي، وأراد أن يأخذ الدلو مني ويحمله بنفسه، ووضع يده على يدي التي كانت على المعلاق. «لا سيدي -قلت- لا أستطيع السماح بذلك.» ضحك، وقال إنه هو من يقرر ما هو مسموح أو لا، فهو سيد البيت، أليس هو السيد؟ فكان علي أن أقول نعم. وبينما كنا نقف هكذا، قريبين من بعضنا على السلم ويده في يدي، دخلت نانسي قاعة الطابق السفلي ورأتنا. الأمر الذي لم يؤدِّ لتحسين تصرفاتها نحوي.

اعتقدتُ في كثير من الأحيان أن الأوضاع ستكون أفضل لو أن لدى الخدم سلّمًا منفصلًا في الجزء الخلفي من المنزل، كما كان معتادًا. لم تكن هناك سلالم منفصلة، وهذا يعني أننا مضطرون جميعًا للعيش معًا بالقرب من بعضنا البعض، ولم يكن ذلك أمرًا مرغوبًا. لأنك بالكاد تستطيع أن تضحك أو تسعل في ذلك البيت دون أن تُسمع، خاصة من قاعة الطابق السفلي.

أما بالنسبة إلى ماكديرموت، فقد أصبح أكثر إحباطًا وميلًا إلى الانتقام بحلول كل يوم. وقال إن نانسي كانت تخطّط لطرده قبل نهاية الشهر، وحرمانه من أجره، لكنه لن يقبل ذلك، وما دامت تعامله على هذا النحو، فسوف تعاملني بنفس الطريقة قريبًا، وأنه ينبغي علينا أن نتكاتف معًا ونطالب بحقوقنا. وعندما كان السيد كينير بعيدًا، وكانت نانسي تزور صديقاتها في منزل رايتز -لأنهن كن من بين الجيران الذين لا يزالونَ ودودين تجاهها- كان يسرف أكثر في شرب ويسكي السيد كينير، الذي كان يشتريه بالبرميل، وبوفرة، وما كان لأحد أن ينتبه إذا فقد بعضه. في هذا الوقت كان يقول إنه يكره جميع الرجال الإنجليز، وعلى الرغم من أن كينير كان من المناطق المنخفضة في سكوتلندا، فالأمر سيان، إذ إنّهم جميعًا لصوص وعاهرون، وسالبو أراضٍ، يطحنون الفقراء أينما حلوا، وأن كلًا من السيد كينير ونانسي يستحقان أن يضربا على الرأس، ثم يلقيا في القبو، وهو الرجل المناسب لهذه المهمة.

لكنني اعتقدت أنه يثرثر لا أكثر، فلطالما كان متبجّحًا، يتكلم عن الأشياء العظيمة التي سيفعلها. وعندما كان والدي نفسه يسكر، فكثيرًا ما كان يهدد بأن يفعل هذا بأمي، لكنه لم يفعل ذلك أبدًا في الواقع. وكان أفضل ما يمكن فعله في مثل هذه الأوقات هو مجرد الإيماء والمسايرة، وعدم إثارة أي انتباه.

رفع الدكتور جوردن نظره عن دفتر الملاحظات الذي كان يدون عليه.

- إذًا فأنت لم تصدقيه في البداية؟ يقول.

- أبدًا سيدي. وما كنت ستفعل، لو كنت المستمع. أخذتها على أنها تهديدات فارغة.

- قال ماكديرموت قبل أن يشنق إنّك الشخص الذي دفعه لذلك. ادّعى أنك كنت تنوين قتل نانسي والسيد كينير عن طريق وضع السم في العصيدة، وقد ألححت عليه مرارًا لمساعدتك، وهو ما رفضه بورع شديد.

- من أخبرك بهذه الكذبة؟

- إنه مكتوب في اعتراف ماكديرموت. وهو أمر أعرفه جيدًا، حيث إنّني

قرأته بنفسي، في سجل قصاصات زوجة الآمر.

- إن مجرد كتابة شيء ما سيدي، لا يعني أنه حقيقة ربانية.

يضحك ضحكته النابحة، هاه، ويخبرني أنني على حق بهذا الخصوص.

- على أي حال غريس، ما هو ردك على هذا؟

- حسنًا سيدي، أعتقد أنه واحد من أكثر الأشياء التي سمعتها سخافة.

- لم ذلك يا غريس؟

أسمح لنفسي أن أبتسم:

- لو كنت أرغب في وضع السم في وعاء العصيدة -سيدي- فما حاجتي إلى أي مساعدة من مثله؟ كان بإمكاني فعل كل شيء بنفسي، يمكنني أيضًا إضافة بعضه إلى عصيدته، في طريقي. لن يتطلب قوة أكثر من القوة التي تحتاجها إضافة ملعقة من السكر.

- أنت هادئة جدًا غريس. لماذا تعتقدين أنه قال عنك هذا ما دام خطأً؟

- أفترض أنه يريد أن يلقي اللوم عليّ -أقول ببطء- لا يحب أبدًا أن يكون على الخطأ. وربما كان يريد أن يحتفظ بي كرفيقة للرحلة. الطريق إلى الموت طريق مليء بالوحدة، أطول ممّا يبدو، حتى وإن كان في حقيقة الأمر لا يتعدى طول حبل المشنقة. وهو طريق مظلم أيضًا، مع غياب أي قمر يمكن أن يضيء طريقك.

- يبدو أنك تعرفين قدرًا كبيرًا عن هذا الموضوع غريس، بالنسبة لشخص لم يخض الطريق.

قال بابتسامته المائلة.

- لم أكن هناك، إلا في الأحلام. فكرت في الأمر مليًا في ليالٍ عديدة، لا تنسَ أنه قد حكم علي أنا أيضًا بالشنق، واعتقدت أن هذا مصيري فعلًا، وما كنت لأنجو لولا الحظ، ومهارة السيد ماكنزي الذي التمس لشبابي اليافع. عندما تعتقد أنك ذاهب إلى نفس الطريق، فلا بدّ أن تتخذ موقفًا.

- صحيح.

يقول بصوت مدروس.

- لكنني أيضًا لا ألوم جيمس ماكديرموت المسكين. ليس لمثل هذه الرغبة. لا يمكنني لوم أي مخلوق بشري لإحساسه بالوحدة.

صادف الأربعاء التالي عيد ميلادي. ولأن علاقتي بنانسي كانت فاترة حينها، لم أتوقع أن تلتفت إليه، على الرغم من أنها تعرف التاريخ، فقد أخبرتها بسنّي عندما توظفت، ومتى أبلغ السادسة عشرة. ولدهشتي، كانت ودودة للغاية عندما جاءت إلى المطبخ في الصباح، وتمنت لي عيد ميلاد سعيد، وتوجهت إلى مقدمة المنزل بنفسها واختارت باقة صغيرة من ورود التعريشات، ووضعتها لي في آنية لآخذها إلى غرفتي. غمرني الامتنان للطفها، الذي كان نادرًا في ذلك الوقت -وسط كل شجاراتنا- حتى إنّني كدت أبكي.

ثم أخبرتني أن بإمكاني التفرغ لنفسي بعد الظهر، بما أنه عيد ميلادي. شكرتها كثيرًا، وقلت إنني لا أعرف ماذا أفعل بنفسي، فلا أصدقاء لي في الحي لزيارتهم، ولم تكن هناك متاجر حقيقية، ولا شيء لرؤيته، وربما ينبغي علي البقاء في البيت والحياكة أو تنظيف الفضيات، كما كنت أخطط. وقالت إن باستطاعتي التجول في القرية إذا أحببت، أو الذهاب لنزهة ممتعة في الريف. ويمكنني استعارة قبعة القش خاصتها.

علمت لاحقًا أن السيد كينير كان ينوي البقاء في المنزل بعد ظهر ذلك اليوم. فظننت أن نانسي أرادت إقصائي عن طريقها لتتمكن من قضاء الوقت برفقته، دون القلق بشأن ما إن كنت سآتي فجأة إلى الغرفة أو أصعد الدرج، أو ما إذا كان السيد كينير سيتجول مجددًا في المطبخ ويبقى هناك، يسأل عن هذا وذاك، كما يفعل مؤخرًا.

مع ذلك، فبعد أن قدمت العشاء لهما، والذي كان مكونًا من لحم بقري محمص بارد وسلطة، تماشيًا مع الطقس الحار، وتناولت عشائي مع ماكديرموت في المطبخ الشتوي، ونظّفت الأطباق، وغسلت يدي ووجهي، خلعت المئزر وعلقته، ولبست قبعةَ قشّ نانسي ومنديل الحرير الأبيض والأزرق الخاص بي؛ لحماية عنقي

من الشمس. سأل ماكديرموت، الذي كان لا يزال جالسًا على الطاولة، إلى أين أذهب. فقلت إنه عيد ميلادي، لذلك أعطتني نانسي إجازة للخروج في نزهة. وقال إنه سيأتي معي، لأني أحتاج لمن يحميني من الرجال المتعصبين ومثيري المشاكل على الطريق. كدت أن أقول إن الشخص الوحيد الذي أعرف أنه بهذه الصفات، كان جالسًا معي هنا في المطبخ. ولكن بما أن ماكديرموت بذل جهده ليكون متحضّرًا، فقد بلعت لساني وشكرته على بادرته اللطيفة، وأخبرته ألّا داعي لذلك.

قال إنه سيأتي على أي حال، لأنني كنت صغيرة وطائشة ولا أعرف مصلحتي. وقلت إنه ليس عيد ميلاده، وكان لديه واجبات يؤديها. قال اللعنة على أعياد الميلاد، إن أعياد الميلاد لا تهمه قيد أنملة، وهو لا يرى فيه سببًا للاحتفال، لأنه ليس شاكرًا لوالدته على ولادته، وحتى لو كان عيد ميلاده، فإن نانسي لن تمنحه إجازة. وقلت إنه لا ينبغي أن يحسدني، إذ إنّي لم أطلب ذلك ولم أرغب في جمائل خاصة. وغادرت المطبخ فور أن استطعت.

لم تكن لدي أي فكرة عن وجهتي. لم أرغب في السير إلى الجزء الرئيس من القرية، فلا أحد لي هناك. صعقني إدراك مدى عزلتي، لا أصدقاء لدي هنا باستثناء نانسي، إن كان بالإمكان وصفها بالصديقة، فهي متقلبة، بحيث تكون صديقتي يومًا، ثم تنقلب ضدي في اليوم التالي. ربما جيمي والش أيضًا، لكنه مجرد صبي. هناك تشارلي، لكنه مجرد حصان، وعلى الرغم من أنه مستمع جيد ومصدر مواساة كبير، فهو لا يكون ذا نفع عندما أحتاج إلى مشورة.

لم أكن أعرف أين عائلتي، وهو لا يختلف عن كونك بلا عائلة. ليس الأمر أنني أريد رؤية والدي مرة أخرى، لكنني سأكون سعيدة بمعرفة أخبار الأطفال. هناك العمةِ بولين، كنت سأكتب لها، لو استطعت تحمل رسوم البريد. فإرسال بريد عبر البحر كان باهظًا جدًا قبل الإصلاحات. حين أتأمل الأشياء تحت ضوء النهار البارد، أجدني وحيدة تمامًا في هذا العالم، والمستقبل الذي ينتظرني ينطوي على المزيد من الكدح. وعلى الرغم من أن بإمكاني تغيير وضع والانتقال إلى آخر، إلا أنه سيكون دائمًا المصير نفسه، العمل من الفجر إلى الغسق، تحت تصرف سيدة تأمرني.

هكذا فكرت وأنا أقطع الطريق الداخلي، محافظة على وتيرة سريعة إلى حد ما، فقد يكون ماكديرموت يراقبني، وقد يفهم تمهلي على أنه دعوة للانضمام. وبالفعل، عندما استدرت مرة، رأيته هناك، متكئًا على باب المطبخ. لكني تباطأت فور وصولي إلى البستان، ظنًا أنّني أصبحت بعيدة عن الأنظار. عادة ما أحكم القبضة على مشاعري، ومع هذا فهنالك شيء كئيب في عيد الميلاد، خاصة عندما تكون وحيدًا. اتجهت إلى البستان، وجلست مسندة ظهري على أحد الجذوع القديمة الكبيرة من بقايا الغابة التي جُرِفَت. كانت الطيور تغني حولي، لكنني كنت أفكر أن الطيور -حتى الطيور- غريبة عني، فأنا لا أعرف أسماءها. وبدا لي هذا أتعسَ من كل شيء، وبدأت الدموع تتدحرج فوق وجنتيّ. ولم أجففها، بل سمحت لنفسي بالبكاء عدة دقائق.

قلت لنفسي بعد ذلك إن ما لا يمكن علاجه، يجب تحمله. نظرت حولي إلى الأقحوان الأبيض، وزهور الجزر البري، والكرات الأرجوانية لزهور الصقلاب، المغطاة بالفراشات البرتقالية، والتي تفوح منها رائحة حلوة. ثم نظرت إلى أغصان شجرة التفاح فوقي، حيث تشكل التفاح الأخضر الصغير، وإلى بقع السماء الزرقاء التي تظهر من خلالها، وحاولت تشجيع نفسي، عبر التفكير في أن الرب الخيّر وحده، الذي يهتم بأمرنا، من شأنه أن يخلق مثل كل هذا الجمال، وأيًا كانت الأعباء التي تقع على كاهلي، فهي ليست أكثر من اختبار لقوتي وإيماني، كما هو الحال مع المسيحيين الأوائل، أيوب، والشهداء. ولكن كما قلت سابقًا، فإن التفكير في الرب يجعلني أشعر بالنعاس، فغفوت.

من الغريب أنني مهما كنتُ غارقة في النوم، فباستطاعتي الشعور عند اقتراب شخص مني، أو جلوسه لمراقبتي. يبدو الأمر كما لو أن هناك جزءًا مني لا ينام على الإطلاق، بل يبقي عينه مفتوحة قليلًا. عندما كنت أصغر سنًا اعتدت على أن أفكر في أنه ملاكي الحارس. لكن الحقيقة أنها ربما تكون من مخلفات الماضي، حين كنت أتجاوز موعد الاستيقاظ، والبدءَ في أعمال البيت، فيجعل منها والدي مناسبة للصراخ، وإلقاء الكلمات القاسية، والسحب من الشعر أو من ذراع

واحدة للنهوض. على أي حال، كنت أحلم بأن دبًّا خرج من الغابة، وأخذ يحدق بي. ثم استيقظت برعشة، كما لو أن يدًا لمستني، فرأيت رجلًا يقف بالقرب، حاجبًا الشمس ممّا منعني من رؤية وجهه. أطلقتُ صرخة ذعر صغيرة، واندفعت واقفة. حينها رأيت أنه ليس رجلًا، بل الصبي جيمي والش. وبقيت حيث كنت.

- أوه جيمي -قلت- لقد روعتني.
- لم أقصد ذلك، قال.

وجلس إلى جانبي تحت الشجرة:

- ماذا تفعلين هنا في منتصف النهار؟ ألن تبحث عنك نانسي؟

إنه فتًى فضولي، لا يكل من طرح الأسئلة. شرحت له أن اليوم عيد ميلادي، وقلت إن نانسي كانت لطيفة بما يكفي لمنحي فترة الظهيرة بالكامل لنفسي. وتمنى لي عيد ميلاد سعيدًا. ثم قال:

- رأيتك تبكين.
- أين كنت، لتتجسس عليّ هكذا؟

وقال إنه غالبًا ما يأتي إلى البستان، عندما لا يراقبه السيد كينير. ففي وقت لاحق من الموسم، يقف أحيانًا على الشرفة الأرضية مستخدمًا منظاره للتأكد من أن الأولاد لا يسلبون بستانه، لكن التفاح والكمثرى لا تزال غضة على السرقة. ثم قال:

- لماذا أنت حزينة يا غريس؟

شعرت بأنني سأبكي مرة أخرى، وقلت ببساطة:

- ليس لدي أصدقاء هنا.
- أنا صديقك -ثم توقف- هل لديك حبيب غريس؟
- ليس لي.
- أود أن أكون حبيبك. وفي غضون سنوات قليلة، عندما أكبر وأدخر بعض المال، سنتزوج.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام. قلت مازحة:

- ظننت أنك تحب نانسي؟
- لا، على الرغم من أنها تعجبني... إذًا ما قولك؟
- لكن جيمي، أنا أكبر منك بكثير.

قلت من باب المشاكسة. إذ لم أستطع التصديق أنه جاد.

- عام وأكثر بقليل. لا يشكل عام واحد فرقًا.
- مع ذلك، أنت مجرد فتى.
- لكني أطول منك.

الأمر الذي كان صحيحًا. لا أعرف لماذا تعد الفتاة في عمر خمسة عشر أو ستة عشر امرأة، بينما الصبي بعمر خمسة عشر أو ستة عشر لا يزال صبيًا. لم أقل هذا على أي حال، إذ رأيت أنه سيكون موجعًا له. لذا شكرته بجدية على عرضه، وأخبرته بأنني سأفكر فيه، إذ لم أرغب في إيذاء مشاعره.

- تعالي، بما أنه عيد ميلادك، سوف أعزف لك لحنًا.

وأخرج الفلوت، وعزف:

الجنديّ إلى الحروب قد رحل[22]

على نحو لطيف جدًا وبإحساس عالٍ، على الرغم من نشاز قليل في النغمات العليا. ثم عزف:

صدقني إذا فُتن هؤلاء الشباب جميعًا[23]

واستطعت تخمين أنها بعض المعزوفات الجديدة التي كان يتمرن عليها، وكان فخورًا بها، لذا أخبرته كم كانت جميلة.

بعد ذلك قال إنه سيصنع لي تاجًا من الأقحوان، على شرف هذا اليوم. وجلسنا نحن الاثنان نصنع سلاسل الأقحوان، وكنا مشغولين جدًا بها وعاكفين عليها، تمامًا مثل الأطفال الصغار. ولا أظن أنني استمتعت هكذا منذ الأوقات التي قضيتها مع ماري ويتني. عندما انتهينا، وضع بخفة سلسلة واحدة حول قبعتي،

---

22 The Soldier Boy to the Wars Has Gone

23 Believe Me If All These Endearing Young Charms

وأخرى حول رقبتي كعقد، وقال إنني ملكة مايو. وقلت إن عليّ أن أكون ملكة يوليو، بما أننا في شهر يوليو، وضحكنا. وسأل عمّا إذا كان بإمكانه تقبيلي على خدي. فقلت نعم، ولكن واحدة فقط. ففعل. أخبرته أنه صنع من عيد ميلادي مناسبة رائعة بعد كل شيء، لأنه شغلني عن همومي، فابتسم.

انقضى الوقت بسرعة، ومرت الظهيرة. عندما عدت عبر الطريق الداخلي رأيت السيد كينير يقف على الشرفة الأرضية، يراقبني بمنظاره. وعندما اقتربت من الباب الخلفي، دار حول جانب المنزل، وقال: مساء الخير يا غريس. فرددت التحية، وسأل: من الرجل الذي كان برفقتك في البستان؟ وماذا كنت تفعلين معه؟

لمست في صوته الشكوك التي تدور بباله. وقلت إنه لم يكن سوى الصبي جيمي والش، وكنا نصنع سلاسل الأقحوان لعيد ميلادي. وقد قبل ذلك، لكن هذا لم يغير من مزاجه. وعندما ذهبت إلى المطبخ لأبدأ تحضيرات العشاء، قالت نانسي: ما الذي تفعله هذه الزهرة الذابلة في شعرك؟ فهي تبدو سخيفة جدًا. إذ علقت إحداها بينما كنت أخلع قلادة الأقحوان.

لكن هذين الأمرين معًا أخذا بعض البراءة من اليوم.

شرعت في إعداد العشاء، وعندما جاء ماكديرموت في وقت لاحق حاملًا ملأ ذراعيه خشبًا للموقد، قال بطريقة ساخرة: أها، كنت تتدحرجين في العشب، وتقبّلين فتى المأموريات، يجب أن يصرع ضربًا، كنت سأفعل ذلك بنفسي لولا أنه مجرد طفل. من الواضح أنك تفضلين الأولاد على الرجال، يا لك من مغتصبةِ طفولة. وقلت: لم يكن الأمر كذلك. لكنه لم يصدقني.

شعرت كما لو أن فترة بعد الظهر لم تكن لي على الإطلاق، وليست شيئًا لطيفًا ولاِ خاصًا، بل تجسسوا جميعًا عليها، بمن فيهم السيد كينير، الذي لم أكن أظنه سيتدنى إلى هذا المستوى. كان الأمر أشبه باصطفافهم أمام باب غرفتي، يتناوبون على النظر من خلال ثقب المفتاح، ممّا جعلني حزينة جدًا وغاضبة أيضًا.

30

مرت عدة أيام الآن دون وقوع أي حادثة. كنت قد أمضيت أسبوعين تقريبًا في منزل السيد كينير، مع أنّ المدّة بدت أطول، فالوقت يمر بطيئًا عندما لا يكون لديك ما تفعله، وكذلك عندما لا يكون المرء سعيدًا سيدي. ركب السيد كينير حصانه وخرج، وأظنه ذهب إلى ثورنهيل، وكانت نانسي تزور صديقتها في منزل السيدة رايت. لم يقدم جيمي والش إلى المنزل منذ مدة، وتساءلت عمّا إذا كان ماكديرموت قد هدده، وطلب منه الابتعاد.

لا أعرف أين كان ماكديرموت؛ أتوقع أنه كان نائمًا في الحظيرة. لم أكن على وفاق معه، حيث بدأ يطري في ذلك الصباح على عيني الجميلتين الكبيرتين، قائلًا إنهما مثاليتان للنظر إلى الصبية الصغار الذين لا يزالون يحملون أسنانهم اللبنية، وقلت له أن يبقيّ محادثته لنفسه بما أنه الوحيد في الغرفة الذي يستمتع بها، وقال إن فمي يحوي لسان أفعًى سامة، وقلت إنْ كان يريد من لا يجادله، فلم لا يخرج إلى الحظيرة ويمارس الحب مع البقرة، وهو ما كان يمكن أن تقوله ماري ويتني، أو هكذا قلت لنفسي.

كنت في حديقة المطبخ، أنتقي البازلاء الجديدة؛ للتخفيف عن غضبي. كنت لا أزال غاضبة من تعرضي للشك والتطفل، ومن مضايقات ماكديرموت اللاذعة، عندما سمعت صفيرًا رخيمًا، ورأيت رجلًا يصعد الطريق الداخلي حاملًا حزمةً على ظهره، مرتديًا على رأسه قبعة أعطبها الطقس، وبعكازِ مشيٍ طويل في يده.

إنه جيرمايا البائع المتجول. كنت سعيدة للغاية لرؤية وجه من الماضي الجميل، حتى إنّ البازلّاء سقطت من مئزري متكوّمة على الأرض. لوحت بيديّ، وركضت عبر الطريق الداخلي لملاقاته. فقد كان صديقًا قديمًا، أو هذا ما ظننته حينها. في بلد جديد، يصبح الأصدقاء أصدقاء قدامى بسرعة كبيرة.

- حسنًا غريس، أخبرتك أنّني سآتي.
- وأنا سعيدة جدًا لرؤيتك جيرمايا.

مشيت معه إلى الباب الخلفي للمنزل، وقلت:

- ماذا لديك اليوم؟

فقد كنت أحب مشاهدة محتويات حزمة الباعة المتجولين، حتى وإن كانت معظم الأشياء تفوق إمكانياتي.

ألن تدعيني إلى المطبخ غريس، حيث الجو لطيف بعيدًا عن الشمس؟ وتذكرت أن هذه هي الطريقة التي يكون بها الأمر لدى السيدة باركنسون، فعلت ذلك، وفور أن دخل أجلسته على طاولة المطبخ، وجلبت له بيرة من مخزن الطعام، وكوبًا من الماء البارد، وقطّعت له شريحة من الخبز والجبن. وعلى الرغم من شعوري بأنني أتطفل على مَؤُونة المنزل، إلا أنه كان ضيفي، وكنت مضيفته التي ينبغي أن تحسن ضيافته. جلبت لي كوبًا من البيرة أيضًا، للمشاركة.

- في صحتك غريس -شكرته ورددت النخب- هل أنت سعيدة هنا؟

- البيت جميل جدًا، مع الصور والبيانو.

هذا ما قلته، فأنا لا أحب التحدث بسوء عن الآخرين، ولا سيما سيد وسيدة البيت.

- ولكن في وضع هادئ ومعزول.

قال ذلك ناظرًا إليّ بعينيه المشرقتين البرّاقتين. كانت له عينان مثل التوت الأسود، ومظهر من له القدرة على رؤية أكثر ممّا يراه معظم الناس. ويمكنني القول إنه كان يحاول قراءة أفكاري، ولكن على نحو لطيف. فلطالما اعتقدت أنه يكنّ لي التقدير.

- المكان هادئ، لكن السيد كينير رجل متحرّر.

- وبذوق رجل نبيل -ورمقني بدهاء- يقولون في الحي إنه يلهث وراء الخادمات اليافعات، لا سيما القريبات من المنزل. آمل ألّا ينتهي بك الأمر مثل ماري ويتني.

فوجئت، كنت أعتقد أنني الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة حول هذه المسألة، ويعرف أي نوع من الرجال كان، وحول مدى قرب الخادمات المقصودات من المنزل، لكني لم أخبر بشريًا بالأمر.

- كيف خمنت ذلك؟ سألت.

وضع إصبعه على جانب أنفه، للدلالة على الصمت والحكمة. وقال:

- يستلقي المستقبل كامنًا في الحاضر، لأولئك الذين يستطيعون قراءته.

ولأنه كان يعرف الكثير عن الأمر، فقد أفضيت له، وأخبرته بكل شيء أخبرتك به سيدي، حتى الجزء الذي سمعت فيه صوت ماري، وغيابي عن الوعي، وركضي حول البيت دون تذكر شيء لاحقًا. باستثناء الطبيب، لأنني شعرت أن ماري لا تريد أن يعرف هذا. لكني أعتقد أن جيرمايا قد خمن، لأنه عظيم في ما يتعلق بالتكهن بما يُقصد، حتى عندما لا يُذكر الأمر صراحة.

- إنها قصة حزينة -قال جيرمايا عندما انتهيت- أما بالنسبة لك غريس، فيفضل التعامل مع المشاكل مباشرة قبل أن تتفاقم. أنت تعرفين أنه لم يمضِ وقت طويل مذ كانت نانسي خادمة المنزل، وكانت تقوم بكل الأعمال القاسية والقذرة التي تقومين بها الآن.

كان هذا مباشرًا جدًا، نظرت إلى الأسفل، وقلت:

- لم أكن أعلم.

- فور أن يألف الرجل عادة ما، يصعب كسرها. إنه مثل كلب جرّب قتل خروف. يعتاد الكلب على مذاقه، ويجد نفسه مضطرًا للقتل مرة أخرى.

- هل سافرت كثيرًا؟

سألته؛ إذ لم يرق لي الحديث عن القتل.

- نعم، أنا دائم التنقل. كنت في الآونة الأخيرة في الولايات المتحدة، حيث يمكنني شراء أدوات الخياطة بسعر رخيص، وبيعها هنا بأكثر من سعرها. فهذه هي الطريقة التي نكسب بها نحن الباعة المتجوّلون خبزنا. لا بدّ أن ندفع لأحذيتنا الجلدية.

- وكيف هي الأمور هناك؟ البعض يقول إنها أفضل حالًا.

- إن الأوضاع متشابهة في نواحٍ كثيرة. إذ إنّ المحتالين والأوغاد في كل مكان، لكنهم يستخدمون لغة مختلفة لإيجاد الأعذار لأنفسهم؛ فهناك يكثرون من

الكلام الفارغ حول الديمقراطية، تمامًا كما يتشدقون هنا بالنظام السليم للمجتمع، والولاء للملكة. مع أن الفقير فقير على كل ضفة. لكن عبور الحدود يشبه المرور خلال الهواء، إنك لا تعرف أنك قد فعلتها؛ فالأشجار هي نفسها على كلي الجانبين. وعمومًا فأنا أمرّ من خلال الأشجار في الليل؛ إذ إن دفع الرسوم الجمركية على سلعي سيكون مزعجًا. كما أنّني سأضطر لرفع السعر على العملاء الجيدين أمثالك.

قال بابتسامة.

- ألست تخالف القانون بهذه الطريقة؟ وماذا سيحدث إذا ما ألقي القبض عليك؟

- القوانين وجدت لتكسر، وهذه ليست قوانيني وأنا لم أسنها. بل سنتها السلطات من أجل أرباحها الشخصية. لكنني لا أضر أحدًا. أي إنسان ذي روح يحب خوض بعض التحديات، وإثبات أنه يفوق الآخرين ذكاء. أما بالنسبة لموضوع القبض علي، فأنا ثعلب قديم، وقد مرت سنوات عديدة وأنا أفعل ذلك. كما أنني رجل محظوظ، إنه مكتوب في يدي.

وأراني خطوطًا متقاطعة على راحة يده اليمنى، وأخرى على اليسرى أيضًا، كلاهما على شكل X؛ وقال إنه محمي في نومه ويقظته، لأن اليد اليسرى كانت يد الأحلام. وبحثت في يدي، لكن لم أتمكن من رؤية أي من هذه الصلبان.

- يمكن أن ينفد الحظ. لذا فأنا آمل أن تكون أكثر حذرًا.

- لماذا غريس، هل لديك مخاوف رقيقة على سلامتي؟ -قال مبتسمًا، فخفضت نظري نحو الطاولة- في الحقيقة -قال بجدية أكبر- لقد فكرت في التخلي عن هذا العمل، حيث أصبحت المنافسة أشد من السابق، ومع تحسن الطرق، صار الكثيرون يذهبون إلى المدن للتسوق، بدلًا من البقاء في المنزل والشراء مني.

شعرت بخيبة أمل عندما سمعت أنه قد يتوقف عن البيع المتجول، لأن ذلك يعني أنه لن يأتي بعد الآن حاملًا حزمته.

- ماذا ستفعل إذًا؟

- يمكنني أن أذهب إلى المعارض، وأكونَ آكلَ نار، أو عرافًا طبيًا، وأتاجر في المسمرية والتنويم المغناطيسي، والتي هي جذابة دائمًا. عندما كنت شابًا، كنت في شراكة مع امرأة تعرف العمل جيدًا، فهذا النوع من العمل عمومًا يحتاج إلى زوجٍ. كنت الشخص الذي ينظم المرور، ويجمع المال أيضًا، وكانت هي التي تضع خمار الموسولين، وتدخل في غشية، وتتحدث بصوت أجوف، وتشخص الناس، مقابل رسوم بالطبع. إنه مضمون تقريبًا، إذ ليس بإمكانهم النظر داخل أجسامهم، وعليه فمن الذي يمكن أن يحكم ما إذا كنت على حق أم لا؟ لكن المرأة تعبت من ذلك، أو أنها تعبت مني، فذهبت عبر المسيسيبي في أحد القوارب. أو يمكنني أن أصبح واعظًا. هناك طلب كبير عليهم تحت الحدود، أكثر بكثير من هنا، خصوصًا خلال الصيف، عندما يقام الوعظ في الهواء الطلق، أو في الخيام. والناس هناك يحبون السقوط في نوبات، والتحدث بلغة غريبة، وأن يجدوا الخلاص مرة واحدة كل صيف، أو أكثر من ذلك إن كان متاحًا. وهم على استعداد لإظهار امتنانهم من خلال تبديد عملاتهم المعدنية. هذا هو خط العمل الواعد، والمدعوم بقوة، يمكنك أن تكسب منه أكثر بكثير من هذا العمل.

- لم أكن أعرف أنك متديّن.

- ولا أنا، ولكن يمكنني القول من خبرتي إنّ هذا ليس شرطًا أساسيًا. العديد من الوُعَّاظ هناك ليس لديهم إيمان بالله أكثر ممّا لحجر.

قلت إن هذا كلام شرير، لكنه ضحك.

- طالما يحصل الناس على ما جاؤوا من أجله، فما أهمية ذلك؟ سوف أنفذ العملية بالكامل. إن الواعظ الخالي من العقيدة بأسلوب وصوت جيد، سيكون مطمئنًا أكثر من أحمقَ رخو اليد، طويل الوجه، بغض النظر عن مدى تقواه.

ثم اتخذ وضعية شعائرية، وتلا: يعرف أقوياء الإيمان، أنه بين يدي الرب،

يمكن إيجاد استخدام مفيد حتى للإناء البالي.

- أرى أنك شرعت في الدراسة بالفعل.

فقد بدا وكأنه واعظ، فضحك مرة أخرى. ولكن بعد ذلك بدا أكثر جدية، واتّكأ على الطاولة:

- أعتقد أن عليك أن تأتي معي يا غريس. إذ ينتابني شعور سيّئ.
- ماذا تعني؟
- ستكونين أكثر أمانًا معي، ممّا لو بقيت هنا.

ارتجفتُ حينها، إذ كان ما عبر عنه قريبًا مما أشعر به أنا نفسي، على الرغم من أنني لم أعرف ذلك حتى ذلك الحين. قلت:

- لكن ماذا سأفعل؟
- يمكنك السفر معي. يمكنك أن تكوني عرافة طبية، سأرشدك وأعلمك ما يجب قوله، وأضعك في غشية. أعرف من يدك أن لديك الموهبة لذلك، وبإسدال شعرك للأسفل سيكون لديك المظهر المناسب. أعدك بأنك ستكسبين في يومين أكثر ممّا تكسبينه من شطف الأرضيات شهرين هنا. ستحتاجين لاسم مختلف بالطبع. اسم فرنسي أو أجنبي بصفة عامة، لأن الناس على هذا الجانب من المحيط سيجدون صعوبة في تصديق أن امرأة تحمل اسم غريس العادي تملك قوًى غامضةً. إنهم يجدون المجهول دائمًا أكثر إدهاشًا من المعروف، وأكثر إقناعًا.
- ألن يكون ذلك غشًا وخداعًا؟
- بل هو أقرب لأن يكون أداء مسرحيًا. إذا أراد الناس أن يؤمنوا بشيء، وتعلقوا به وتاقوا لأن يكون حقيقيًا، وشعروا أنهم أفضل بفضله، فهل تعد مساعدتهم على إيمانهم غشًا، من خلال شيء عديم القديمة كاسم؟ أليست بالأحرى إحسانًا، وعطفًا بشريًا؟

عندما عرض الأمر على هذا النحو، بدا قابلًا للتأييد.

- إن اسمًا جديدًا لا يشكل مشكلة بالنسبة لي، فأنا غير مرتبطة باسمي،

هو ملك والدي على أي حال.

ابتسم وقال:

- اتفقنا، دعينا نتصافح إذًا.

لن أخفي عنك -سيدي- أن الفكرة كانت مغرية إلى حد كبير. لأن جيرمايا كان رجلًا وسيمًا، ذا أسنان بيضاء وعينين داكنتين، وتذكّرت أنه كان من المفترض أن أتزوج رجلًا يبدأ اسمه بحرف (ج). وفكرت أيضًا في المال الذي قد أمتلكه، والملابس التي سأتمكن من شرائها، وربما بعض أقراط الذهب أيضًا، كما أنه ستتسنى لي رؤية العديد من الأماكن والبلدات الأخرى، وسأتحرر من أداء المهام الصعبة والقذرة نفسها.

لكني تذكرت ما حدث لماري ويتني. وعلى الرغم من أن جيرمايا كان يبدو لطيفًا، إلا أن المظاهر يمكن أن تكون خادعة، كما تعلمنا بأنفسنا. ماذا لو سارت الأمور بطريقة خاطئة، وتُركت وحيدة على نحو مفاجئ في مكان غريب؟ قلت:

- هل سنتزوج إذًا؟

- ما الداعي لذلك؟ الزواج -كما أرى- لا يأتي بأي خير، فلبّ الموضوع أنه إذا ما أزمع الاثنان على أن يكونا معًا، فسيبقيا معًا، عدا ذلك سيهربان.

نبهني ذلك، فقلت:

- أظن أن من الأفضل لي البقاء هنا. على أي حال فأنا أصغر من أن أتزوج.

- فكري في ذلك غريس. لأني أتمنى لك الخير، وأنا راغب في تقديم المساعدة والرعاية. وأقول لك إنك محاطة بالأخطار هنا.

في هذه اللحظة دخل ماكديرموت الغرفة، وتساءلت إذا ما كان يتنصت خلف الباب، ومنذ متى؟ لأنه بدا غاضبًا جدًا. سأل جيرمايا من يكون بحق الشيطان، وما الذي يفعله في المطبخ بحق الشيطان أيضًا.

قلت إن جيرمايا بائع متجول، وكنت على معرفة به من الماضي. نظر ماكديرموت إلى الحزمة التي كانت مفتوحة بحلول ذلك الوقت، لأن جيرمايا كان قد فتحها بينما كنا نتحدث، على الرغم من أنه لم يخرج كل الأشياء. وقال لا

بأس بهذا، ولكن ستزعج السيد كينير معرفة أن البيرة والجبن الجيد أهدِرا على بائع متجول محتال وسوقي. لم يقل هذا من باب الاهتمام، ولو بالحد الأدنى، بما قد يفكر به السيد كينير، ولكن فقط لإهانة جيرمايا.

وأجبت أن السيد كينير رجل كريم، لا يمكن أن يحرم رجلًا شريفًا مشروبًا باردًا في يوم حار. وعند ذلك اغتاظ ماكديرموت أكثر، إذ لم تعجبه الإشادة بالسيد كينير.

ثم قال جيرمايا -حتى يفصل بيننا، ويعيد السلام- إنه كان يملك بعض القمصان، وهي وإن كانت مستعملة إلا أنها جيدة، وستمثل صفقة رابحة، وهي بقياس يناسب ماكديرموت. وعلى الرغم من تذمر ماكديرموت، فقد أخرج جيرمايا القمصان وأبرز ميزاتها. وكنت أعلم أنه كان بحاجة إلى بعض القمصان الجديدة، بعد أن مزّق أحدها والذي سبق إصلاحه، وأتلف آخر عبر تعريضه للوحل والرطوبة، حتى نال منه العفن الفطري. ولاحظت أن الأمر قد لفت انتباهه، وأخرجتُ له بصمت قدحًا من البيرة.

كانت القمصان تحمل علامة إتش. سي. وقال جيرمايا إنها تنتمي إلى جندي، ومقاتل شرس أيضًا. وليس ميتًا، لأن لبس ملابس الموتى جالب لسوء الحظ، وسمى سعرًا للقمصان الأربعة. قال ماكديرموت إن بوسعه تدبر أمر ثلاثة فقط بهذا السعر، وسمى سعرًا أقل، واستمر الأمر هكذا حتى قال جيرمايا حسنًا، وإنّه سيفعل ذلك، سيعطي الأربعة بثمن ثلاثة، لكن ليس أقل ببنس واحد، على الرغم من أنها سرقة وأنه سيشهر إفلاسه خلال وقت قصير إذا ما سارت الأمور على هذا النحو. وكان ماكديرموت مسرورًا للغاية إذ ظن أنه قام بصفقة صعبة. لكن كان بإمكاني أن أرى من خلال وميض عيني جيرمايا أنه يتظاهر فقط بأن ماكديرموت حصل على أفضل صفقة، بينما خرج هو منها في الواقع بربح جيد.

والآن سيدي، فإنّ هذه القمصان هي نفسها التي برزت بشكل كبير في المحاكمة، وكان هناك الكثير من الالتباس بشأنها، أولًا: لأن ماكديرموت قال إنه حصل عليها من بائع متجول، ثم قال بعدها إنها من جندي. وبمعنًى ما، فقد كان

الأمران صحيحان. وأعتقد أنه حوّر القصة على هذا النحو لأنه لم يكن يريد أن يقف جيرمايا أمام المحكمة ضده، وهو يعلم أنه صديقي، وأنه سيساعدني، وسيشهد ضد شخصية ماكديرموت. أو لا بدّ أنه فكر هكذا. أو ثانيًا: لأن الصحف لم تتمكّن من الحصول على العدد الصحيح للقمصان. لكنها كانت أربعة، وليست ثلاثة، كما ذكروا. اثنان منها في حقيبة ماكديرموت، ووُجِد آخر مغطّى بالدم خلف باب المطبخ. وهو ما لبسه ماكديرموت حين تخلص من جثة السيد كينير. والرابع كان على السيد كينير نفسه، لأن جيمس ماكديرموت ألبسه إياه. وهذا يجعلها أربعة، وليس ثلاثة.

مشيت مع جيرمايا إلى أسفل الطريق الداخلي، وكان ماكديرموت ينظر بتجهّم مهلك من مدخل المطبخ. لكنني لم أهتم بما يظنه، لأنه لا يملكني. عندما جاء وقت الافتراق، نظر جيرمايا بجدية إلي، وقال إنه سيعود قريبًا لمعرفة ردي، وكان يأمل لمصلحتي، ومصلحته هو أن أرد بالموافقة. وشكرته على تمنياته الطيبة. مجرد معرفة أن بإمكاني الرحيل إذا ما أردت، جعلني أشعر بأمان أكبر، وسعادة أكبر كذلك.

عندما عدت إلى المنزل، قال ماكديرموت إنها كانت طريقة جيدة للتخلص منه، إذ لم يعجبه الرجل، لأن له مظهرَ الغريب الوضيع. وكان يفترض أنه سيأتي ليتشمّم أثري ككلب يبحث عن كلبة في الحر. لم أردّ على هذه الملاحظة، فقد وجدتها شديدة الغلظة، وقد فوجئت بعنفِ تعبيره. وطلبت منه التكرم بإخراج نفسه من المطبخ، حيث كان الوقت قد حان لأشغل نفسي بالعشاء.

حينها فقط تذكرت البازلاء التي أسقطتها في الحديقة وخرجت لالتقاطها.

31

زارنا الطبيب بعد عدة أيام. كان اسمه الدكتور ريد، رجل نبيل مسن، أو هكذا بدا. يصعب التيقن من ذلك بالنسبة للأطباء، إذ إنّهم يضعون وجوهًا جدية ويحملون معهم شتى أنواع الأمراض، في حقائبهم الجلدية حيث يضعون السكاكين، وهذا يجعلهم كبارًا قبل أوانهم. أما بالنسبة للغربان، فعندما يجتمع اثنان أو ثلاثة منها، فاعلم أن الموت قادم، وقد اجتمعوا لمناقشته. إذ إنّهم يقررون الأجزاء التي سيشرّحونها، وينتزعونها، وهذا هو الحال مع الأطباء. لا أعنيك سيدي فأنت لا تملك حقيبة جلدية أو مشارط.

عندما رأيت الطبيب قادمًا عبر المدخل بعربته التي يجرها حصان واحد، شعرت أن قلبي ينبض بألم، وظننت أنه سيغمى علي. لكن هذا لم يحدث، فقد كنت لوحدي في الطابق السفلي وكنت سأضطر لتلبية الطلبات. لن تكون نانسي ذات نفع، إذ إنّها مستلقية في الطابق العلوي.

في اليوم السابق، ساعدتها على قياس الفستان الجديد الذي تصنعه، وهكذا أمضيت ساعة على ركبتي فوق الأرض وفمي مليء بالدبابيس بينما كانت تستدير وتنظر إلى نفسها أمام المرآة. ولاحظت أنها كانت ممتلئة جدًا، وقلت إنه من الجيد أن يكون لديك القليل من اللحم، إذ ليس من المفترض أن يكون الإنسان جلدًا على عظم، وإن السيدات الشابات في هذه الأيام يجوّعن أنفسهن بسبب الموضة، التي تنص على أن يكنّ شاحبات كالمرضى، وكنّ يربطن مشداتهن كثيرًا لدرجة أنه يغمى عليهن حالما يُنظر إليهنّ. اعتادت ماري ويتني القول إنه ما من رجل يرغب في هيكل عظمي، فهم يحبون الإمساك بشيء، القليل في المقدمة والقليل في الخلف وكلما زاد حجم المؤخرة كان أفضل. لكن لم أقل ذلك لنانسي. كان الثوب الذي تصنعه ذا طباعة أمريكية ذات لون قشدي فاتح بأغصان وبراعم، وصدرية مدسوسة تصل إلى تحت الخصر، وثلاث طبقات من الكشكشة المثبتة إلى التنورة. وقلت لها إن الثوب في غاية الجمال.

كانت نانسي تقطب في وجه المرآة، وتقول إن خصرها يزداد ضخامة، وإذا

استمرت هكذا، فستحتاج إلى زوج جديد من المشدات، وسرعان ما ستصبح مثل بائعة سمك سمينة.

بلعت لساني، ولم أقل إنه إذا ما أبقت إبهاميها خارج الزبدة فستكون أقلّ عرضة لذلك. كانت تلتهم نصف رغيف من الخبز قبل الإفطار، بعد أن تدهنه بزبدة سميكة مثل القطران، يعلوها مربى البرقوق. رأيتها في اليوم السابق تأكل شريحة من الشحم الخالص الذي انتزعته من لحم خنزير في مخزن الطعام.

طلبت مني أن أشد المشد أكثر قليلًا، ثم أقيس الخصر مرة أخرى. وبينما كنت أفعل قالت إنها تشعر بتوعك. لم يكن ذلك مستغربًا، بالنظر إلى ما كانت تأكله، على الرغم من أنني سأعزو توعكها لضيق الأربطة أيضًا لا لما كانت تأكله فقط، لكنها عانت نوبة دوار هذا الصباح أيضًا، أو هكذا قالت. كان هذا بعد وجبة الفطور مباشرة، دون أربطة ضيقة على الإطلاق. لذا بدأت في التساؤل عن الأمر، وفكرت في أن الطبيب استدعي لفحص نانسي.

كنت في الفناء أضخ سطلًا آخر من الماء للغسيل، عندما رأيت الطبيب قادمًا. كان صباحًا رائعًا ذا هواء نقي وشمس ساطعة، وهذا مثالي للتجفيف. خرج السيد كينير لاستقبال الطبيب، الذي ربط حصانه إلى السياج، ثم ذهب كلاهما إلى المنزل من الباب الأمامي. أكملت ما كنت أفعله وسرعان ما كان الغسيل على الحبل، وهو غسيل أبيض، يتألف من قمصان وأغطية للنوم وتنانير، وما شابه، لكن بلا ملاءات؛ وكنت أتساءل طوال الوقت ما نوع العمل الذي يجمع الطبيب بالسيد كينير.

ذهب الاثنان إلى مكتب السيد كينير الصغير، وأغلقا الباب. وبعد القليل من التفكير، ذهبت بهدوء إلى المكتبة المجاورة لأنفض الغبار عن الكتب. لكنني لم أتمكن من سماع أي شيء من داخل المكتب باستثناء الهمس.

كنت أتخيل كل الأشياء، كأن يكون السيد كينير يسعل دمًا ويلفظ آخر أنفاسه، وكنت أشعر بالتوتر بسبب هذه الأفكار. لذلك عندما سمعت مقبض باب المكتب يدور، اتجهت بسرعة عبر غرفة الطعام إلى الردهة الأمامية مع

منفضة الغبار وقطعة القماش، فمن الأفضل دائمًا معرفة السوء الذي يتربص بك. وقاد السيد كينير الدكتور ريد إلى المدخل الأمامي، وقال الطبيب إنه متأكد من أن السيد كينير سيشرّفنا برفقته لسنوات عديدة قادمة، وإن السيد كينير كان يقرأ الكثير من المجلات الطبية، مما أوحى له بالمرض، بالرغم من أنه لا يشكو من شيء لا يمكن للنظام الغذائي الصحي وجدول يومي معتدل أن يعالجه. لكن عليه أن يحد من شرابه من أجل سلامة كبده. أراحني هذا الكلام. لكنني فكرت في أنه شيء قد يقوله الطبيب لرجل يموت، لتجنيبه القلق.

نظرت بحذر من صالة الاستقبال، من خلال النافذة الجانبية. مشى الدكتور ريد إلى حصانه وعربته، ثم ظهرت نانسي فجأة، وقد لفت شالها وشعرها نصف مسدلٍ إلى أسفل، وبدأ بمحادثتها. لا بدّ أنها تسللت عبر الدرج دون أن أنتبه إليها، مما يعني أنها لم ترغب في أن يسمعها السيد كينير أيضًا. اعتقدت أنها قد تحاول معرفة ما أصاب السيد كينير، إن وجد. ولكن بعد ذلك خطر لي أنها تستشيره بشأن مرضها المفاجئ.

قاد الدكتور ريد حصانه مبتعدًا، واستدارت نانسي نحو الجزء الخلفي من المنزل. سمعت السيد كينير يناديها من المكتبة. ولكن بما أنها كانت لا تزال في الخارج، وقد لا تريد أن يعرف ما كانت تفعله، فقد ذهبتُ إليه بنفسي. لم يبدُ السيد كينير أسوأ من المعتاد، وكان يقرأ نسخة من مجلة ذه لانسِت[24]، أخذها من كومة كبيرة كان يحتفظ بها على الرف. كنت أتصفحها أحيانًا أثناء تنظيف الغرفة، لكنني لم أتمكن من فهم قدر كبير ممّا جاء فيها، باستثناء أن بعضها كان يتعلق بوظائف جسدية لا يجب أن تطبع، حتى مع الأسماء الفاخرة التي أطلقت عليها.

حسنًا غريس -قال السيد كينير- أين هي سيدة البيت؟

قلت إنها لم تكن على ما يرام، وكانت مستلقية في الطابق العلوي، ولكن إن كان هناك شيء يرغب به، فيمكنني التكفل بذلك. وقال إنه يريد بعض القهوة،

---

24 The Lancet

إن أمكن. قلت بالطبع، وإن كان ذلك قد يستغرق بعض الوقت، لأنني سأضطر إلى إشعال النار مرة أخرى. وطلب أن أحضرها إليه متى ما أصبحت جاهزة. وشكرني، كما يفعل دائمًا.

ذهبت عبر الفناء إلى المطبخ الصيفي. كانت نانسي هناك، جالسة على الطاولة متعبة وحزينة وشاحبة إلى حد ما. قلت إنني آمل أنها تشعر بالتحسن، وقالت إنها أفضل حالًا، ثم سألتني عمّا كنت أفعله، بينما كنت أشعل النار، التي كانت على وشك الانطفاء. قلت:

- السيد كينير أراد مني أن أعد له بعض القهوة، وأن أحملها إليه.
- لكنني من يأخذها إليه عادة، فلماذا طلب منك أنت ذلك؟

قلت إنني متأكدة من أن السبب هو أنها لم تكن متوفرة. كنت أحاول فقط أن أعفيها من المهمة، لأنني أعرف أنها كانت مريضة. قالت:

- سأحملها بنفسي، وبالمناسبة غريس أريد منك فرك هذه الأرضية بعد ظهر هذا اليوم. إنها قذرة جدًا وقد تعبت من العيش في حظيرة.

لم تكن لقذارة الأرضية علاقة بالأمر، لكني عوقبت بها، لأنني ذهبت إلى مكتب السيد كينير بنفسي. وهو أمر غير عادل، فقد كنت أحاول مساعدتها لا غير.

على الرغم من أن اليوم قد بدأ لطيفًا وصحوًا، إلا أنه بحلول الظهيرة أصبح مليئًا بالظلم والنظرات الحادة. لم يكن هناك أي نسيم يتحرك في أي مكان، وكان الهواء رطبًا، وقد غطت سحبٌ متجهمةٌ باللون الرمادي المصفر السماءَ، مع ذلك فقد كانت السماء ساطعة خلفها، مثل المعدن الساخن. وكانت لها نظرة فارغة ومشؤومة. غالبًا ما يكون التنفس صعبًا في مثل هذا الطقس. لكن على الرغم من رداءة الجو، كنت -في الأحوال العادية- سأقضي منتصف الظهيرة في الخارج لاستنشاق بعض الهواء، فيما أخيط، وأريح قدمي لأنني أكون قد وقفت عليهما معظم اليوم، لكني عوضًا عن ذلك كنت على ركبتيّ أفرك الأرضية الحجرية للمطبخ الصيفي. كانت بحاجة إلى تنظيف فعلًا، لكن كنت أخطط لفعل هذا فور أن يصبح الطقس أبرد، فالجو الآن حار بما يكفي لقلي بيضة. وكان العرق

ينزلق عليّ كما ينزلق الماء عن البطة، واعذرني على الوصف سيدي. كنت قلقة على اللحم بالجزء المخصص لحفظ اللحوم من مخزن المؤن، حيث كان هناك ذباب أكثر من المعتاد يطن حوله. لو كنت نانسي، ما كنت لأطلب مثل هذه الكمية من اللحم في مثل هذا الطقس الحار، فقد كنت على يقين من أنه سيفسد، ويذهب هدرًا. كان يجب وضعه في القبو، بما أنه أبرد. لكنني عرفت أنه لا فائدة من تقديم أي اقتراحات لها، لأنني لن أحصل في المقابل إلّا على المشاكل.

كانت الأرضية متسخة كإصطبل، وتساءلت متى نظفت جيدًا آخر مرة. كنستها أولًا بالطبع، والآن أنا أغسلها بالطريقة الصحيحة، على ركبي واضعة كل ركبة على خرقة قديمة اتقاء لصلابة الحجر، بعد أن خلعت حذائيّ وجوربيّ، فحتى تحصل على نتيجة جيدة، عليك فعل الأمر بالطريقة الصحيحة، ورفعت أكمامي فوق المرفقين، ومررت تنورتي والتنورة الداخلية بين ساقي إلى الخلف وثبتها بحزام مئزري، وهو ما تفعله سيدي للحفاظ على جوربيك وملابسك، كما يعلم أي شخص سبق وشطف الأرضيات. كانت لديّ فرشاة خشنة للفرك وقطعة قماش قديمة للمسح، وكنت أعمل ابتداء من الزاوية البعيدة، أتحرك إلى الخلف نحو الباب. لأنك لا تريد أن تحصر نفسك في زاوية سيدي عند القيام بمثل هذه المهمة.

سمعت أحدهم يدخل للمطبخ خلفي. إذ تركت الباب مفتوحًا ليدخل الهواء الذي يساعد على تسريع تجفيف الأرضية. اعتقدت أنه ماكديرموت بلا شك.

«لا تمشِ على الأرضية النظيفة، وأنت بحذائك الموحل.» قلت، وواصلت الفرك.

لم يجب، ولم يرحل أيضًا. بقي واقفًا في المدخل، فخطر في بالي أنه يراقب كاحليَ وساقي العاريتين، بقذارتهما، بالإضافة -إذا سمحت لي سيدي- إلى مؤخرتي التي تتحرك ذهابًا وإيابًا أثناء الفرك، مثل كلب يهز ردفيه.

«أليس لديك ما تقوم به؟ -قلت له- لا يُدفع لك للوقوف هناك والتحديق.» أدرت رأسي للنظر إليه من وراء كتفي. لم يكن ماكديرموت، بل السيد كينير نفسه، مع بسمة متكلفة كما لو أنه وجدها نكتة جيدة. استقمت على قدمي،

وسحبت تنورتي بيد واحدة، وحملت الفرشاة بالأخرى، فيما تقطر المياه القذرة على ثوبي.

- أنا آسفة سيدي.

قلت ولكني فكرت، لماذا لا يتحلى باللباقة الكافية ليقول من هو؟

- لم يقع أي ضرر، يجوز للقطة أن تنظر إلى ملكة. قال.

وفي تلك اللحظة، دخلت نانسي عبر المدخل، ووجهها مبيضّ مثل الطباشير وأخضر حول الخياشيم، لكن عينيها حادتان مثل الإبر.

- ما هذا؟ ما الذي تفعلينه هنا؟

قالت موجهة الكلام لي، بينما كانت تعنيه.

- أفرك الأرضية سيدتي.

فكرت ما الذي بدا لها أنني أفعله؟ أرقص؟

- تردين علي؟ لقد سئمت من غطرستك.

لكنني لم أكن، كل ما كنت أفعله هو الإجابة على سؤالها فقط. قال السيد كينير، كما لو كان يعتذر، ولكن عمّ يعتذر؟

- كل ما أردته هو فنجان ثانٍ من القهوة.

- سأحضره -قالت نانسي- غريس تستطيعين الانصراف.

- أين أذهب سيدتي؟ -قلتُ- والأرضية نصف مغسولة.

- إلى أي مكان خارج المطبخ.

قالت نانسي، كانت غاضبة جدًا مني. وأضافت:

- ولأجل الرب ارفعي شعرك، تبدين مثل بغي.

- سأكون في المكتبة.

قال السيد كينير، وغادر.

ذكت نانسي نار الموقد بالعصى، وكأنها تطعنه. قالت لي:

- أغلقي فمك. وستبقينه مغلقًا في المستقبل إذا كنت تعرفين مصلحتك.

فكرت في إلقاء فرشاة التنظيف عليها، والدلو أيضًا لإكمال العملية، والمياه

القذرة وكل شيء. تصوّرتها واقفة هناك، وشعرها منسدل على وجهها، مثل شخص يغرق.

ولكني فهمت الأمر كله فجأة. رأيت ذلك في مناسبات كثيرة من قبل. تناول الأطعمة الغريبة في أوقات غريبة، الغثيان والمسحة الخضراء حول الفم، الوزن الذي تكتسبه، مثل الزبيب في الماء الساخن، وغرابتها ومزاجها العكر. كانت في وضع حساس. كانت في طريق الأمومة. كانت في ورطة.

وقفت هناك أحدق إليها، كما لو كنت قد ركلت في معدتي. أوه لا، أوه لا، فكرت. شعرت بأن قلبي يدق بقوة مثل المطرقة. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.

بقي السيد كينير في المنزل ذلك المساء، وتناول هو ونانسي عشاءهما في غرفة الطعام، وكنت من حمله إليهما. فبحثت في وجهه عن أثر لإدراكه حالة نانسي، لكنه لم يكن يعرف. تساءلت ماذا سيفعل عندما يكتشف الأمر، يلقي بها في الخندق؟ يتزوجها؟ لم تكن لدي أدنى فكرة، ولم أستطع تقبل أي من الاحتمالين. لم أتمنَّ أن يلحق بنانسي أي أذى، ولم أرغب في أن تطرد، متشردة على الطريق العام وفريسة للأنذال المتجولين. ولكن أيضًا لن يكون عدلًا أن ينتهي بها المطاف سيدة متزوجة محترمة بخاتم في إصبعها، وغنية فوق ذلك. لن يكون ذلك صحيحًا على الإطلاق. حين فعلت ماري ويتني الشيء نفسه، قادها ذلك إلى حتفها. لماذا يجب أن يكافأ شخص بينما يعاقب آخر على نفس الخطيئة؟

أخليتُ الأشياء على الطاولة كالمعتاد بعد ذهابهما إلى الصالون. وبحلول هذا الوقت كان الجو حارًا كفرن، بغيوم رمادية تمتصّ الضوء، على الرغم من أن المغرب لم يحل بعد. وكان الهواء ثابتًا كقبر، بلا ريح، ولكن بوهج برق يومض في الأفق، وهدير رعد باهت. عندما يكون الطقس هكذا، تستطيع سماع دقات قلبك. تمامًا كما لو أنك تختبئ بانتظار أن يجدك شخص ما، وأنت لا تعرف من سيكون هذا الشخص. أضأتُ شمعة لأتمكن من رؤية عشائي وتناوله، وكان ذلك مع ماكديرموت، وهو عبارة عن لحم بقر محمص بارد، إذ لم أطق طهي أي شيء ساخن لنا. أكلنا في المطبخ الشتوي، وشربنا البيرة معه، وبعضًا من الخبز الذي لا

يزال طازجًا بما يكفي وطيبًا جدًا، مع شريحة أو اثنتين من الجبن. ثم غسلت أواني العشاء وجففتها ووضعتها جانبًا.

كان ماكديرموت ينظف الأحذية. كان نكدًا أثناء العشاء، وسأل لم لا يُقدم لنا طعام مطبوخ، كشرائح اللحم مع البازلاء الطازجة التي يتناولها الآخرون؟ وقلت له إن البازلاء الطازجة لا تنمو على الأشجار، وكان ينبغي عليه أن يعرف أن لهم الأولوية، إذ إنّ المتوفر لا يكفي إلا لشخصين فقط، وعلى أي حال فأنا خادمة السيد كينير، ولست خادمته. وقال لو كنت خادمته لما دمت طويلًا، لأنّني ساحرة عصبية، وكان العلاج الوحيد لي هو طرف الحزام. وقلت له إن الكلمات البذيئة لا تطهو الجزر الأبيض.

استطعت سماع صوت نانسي من الصالون، وعرفت أنها بلا شك تقرأ بصوت عالٍ. كانت تحب أن تفعل ذلك، ظانّة أنه أمر مميز. متظاهرة دائمًا أن السيد كينير يطلب منها ذلك. لقد تركا نافذة الصالون مفتوحة، على الرغم من أن العث سيدخل بهذه الطريقة، وهذا هو السبب في أن باستطاعتي سماعها.

أضأت شمعة أخرى وأخبرت ماكديرموت أنني ذاهبة للنوم، لم يعلق على الأمر لكنه نخر فقط. وأخذ شمعته وخرج. عندما رحل فتحت باب الممر ونظرت عبره. كان ضوء المصباح المكور يسقط من خلال باب الصالون نصف المفتوح، صانعًا رقعة ضوئية على أرضية الممر، وكان صوت نانسي يخرج إلى القاعة أيضًا.

مشيت بهدوء على طول الممر، تاركة الشمعة على طاولة المطبخ، ووقفت مائلة على الجدار. أردت أن أسمع القصة التي كانت تقرؤها. كانت سيدة البحيرة[25] التي قرأتها أنا وماري ويتني معًا، وقد أحزنني تذكر ذلك. قرأتها نانسي بطريقة جيّدة، لكن ببطءٍ، كما كانت تتلعثم أحيانًا مع بعض الكلمات.

كانت النار قد أطلقت على المرأة المجنونة المسكينة عن طريق الخطأ، وكانت تلفظ نفسها الأخير، بينما تقرأ بعض الآيات. ووجدته جزءًا يسبب الانقباض. الرأي الذي لا يتفق معه السيد كينير، فقد قال إنه لا يكاد يتحرك أي شخص

25 بالإنجليزيّة: (The Lady of the Lake)

سنتيمترًا واحدًا في قطعة أرض رومانسية مثل تلك التي في إسكتلندا، دون أن يقابل المخبولات، اللاتي كن يقفزن دائمًا أمام السهام والرصاص الذي لا يكون مصوّبًا عليهن، والذي كان له على الأقل فضيلة وضع حد لحالة العويل والبؤس، وكن أيضًا يرمين بأنفسهن باستمرار في المحيط، وبمثل هذا المعدل فسيُسدّ البحر قريبًا بأجسادهن الغارقة، مما يشكل خطرًا جادًا على الملاحة. ثم قالت نانسي إنه يفتقر إلى الحس السليم. وقال السيد كينير لا، ولكن من المعروف أن السير والتر سكوت قد وضع الكثير من الجثث في كتبه من أجل السيدات، لأن السيدات يعشقن الدماء، لا يوجد شيء يبهجهن أكثر من جثة مترنحة.

أخبرته نانسي بغنج أنه يجب أن يكون هادئًا وأن يتصرف بلباقة، أو ستضطرّ إلى معاقبته والتوقف عن القراءة، وتعزف البيانو بدلًا من ذلك. ضحك السيد كينير وقال إنه يمكن أن يتحمل أي شكل من أشكال التعذيب عدا هذا. ثم سمعت صوت صفعة صغيرة، وحفيف أقمشة، ممّا أوحى لي أنها تجلس على ركبته. حل الهدوء لبعض الوقت، حتى سأل السيد كينير نانسي إن كانت القطة قد أكلت لسانها، ولم هي شاردة الفكر.

ملت إلى الأمام، لاعتقادي أنها على وشك إبلاغه بحالتها، ومن ثم سأعرف أين تتجه الأمور. لكنها لم تفعل. وبدلًا من ذلك أخبرته أنها قلقة على الخدم.

«أي من الخدم؟» أراد السيد كينير أن يعرف. قالت نانسي كليهما، وضحك السيد كينير وقال بالطبع هناك ثلاثة خدم في المنزل، وليس اثنان، لأنها كانت -هي نفسها- خادمة. قالت نانسي إن من لطفه تذكيرها بذلك، وإن عليها أن تتركه الآن، حيث يجب أن تهتم بواجباتها في المطبخ، سمعتُ صوت حفيف مجددًا، كما لو أنها كانت تحاول النهوض. ضحك السيد كينير أكثر، ثم قال إنها يجب أن تبقى في مكانها، كما يأمر سيدها، وقالت نانسي بمرارة إنها تفترض أن هذا هو ما يُدفع لها للقيام به. ثم هدّأها وسألها عن سبب قلقها بخصوص الخدم؟ وقال إن العمل كان يتم، وهو الأمر الأساسي، وقال إنه لا يهتم كثيرًا من الذي نظف أحذيته طالما أنها نظيفة، فهو يدفع أجورًا جيدة، ويتوقع الحصول على مقابل لذلك.

نعم -قالت نانسي- إنّ العمل يُنجَز، لكن في حالة ماكديرموت فهذا لأنها فقط تقف وراءه بالسوط، وعندما تؤنبه لأنه كسول، يصبح وقحًا معها، وقد أعطته إشعاره. قال السيد كينير إنه كان نذلًا شرسًا نكدًا، وما كان يروقه أبدًا. ثم قال: ماذا عن غريس. وقد دفعتُ بأذني إلى أقصى جهدها من أجل سماع ما تقوله نانسي.

قالت إنني كنت منظمة وسريعة في عملي، لكنني أصبحت في الآونة الأخيرة محبة للشجار، وكانت تفكر في إعطائي إشعارًا. وعندما سمعت ذلك، شعرت بالحرارة تسري في وجهي. ثم قالت إن هناك شيئًا فيّ يشعرها بعدم الراحة، وتساءلت إن كنت سليمة، إذ سمعتني أتحدث بصوت عالٍ إلى نفسي عدة مرات.

ضحك السيد كينير وقال إن هذا لا يعد شيئًا، فكثيرًا ما يتحدث مع نفسه، لأنه كان أفضل محاور يعرفه. كما قال إنّني بالتأكيد فتاة جميلة، إذ إنّي أملك مظهرًا نقيًا بالفطرة، وإنّه إذا ما وضعني في الملابس المناسبة وأخبرني أن أبقي رأسي عاليًا وفمي مغلقًا، فيمكن للناس أن يظنوا أنني سيدة.

قالت نانسي إنها تأمل بشدة ألّا يُسمعني مثل هذا الإطراء، لأنه سيزيد غروري، ويوحي لي بأفكار فوق مستواي، وهو ما ليس في صالحي. ثم قالت إنه لم يعرب عن مثل هذه الآراء العذبة تجاهها، فقال شيئًا لم أستطع سماعه، وعندها حلّ المزيد من الصمت وأصوات الحفيف. ثم قال السيد كينير إن الوقت قد حان للنوم. فاتخذت طريقي بسرعة للعودة إلى المطبخ، وجلست على المائدة. لأنه لم يكن لصالحي أن تقبض علي نانسي متنصّتةً.

لكنني عدت للتنصت بعد حين، فور صعودهم. وسمعت السيد كينير يقول: أعلم أنك مختبئة، أخرجي حالًا أيتها الفتاة المشاكسة، افعلي ما أقول، وإلا اضطررت إلى الإمساك بك، وما إن أفعل...» ثم صوت ضحك صادر عن نانسي، ومن ثم بعض الصراخ.

كان الرعد يقترب. لم أكن أحب العواصف الرعدية قط، ولم أحبها حينها. عندما ذهبت إلى الفراش، أمنت المصاريع بحيث لا يتمكن الرعد من الدخول،

وسحبت الأغطية على رأسي، على الرغم من أن الجو حار للغاية. وظننت أنني لن أغفو أبدًا. لكنّني فعلت واستيقظت على صوت ارتطام هائل لأجد نفسي في ظلام حالك، كما لو أن نهاية العالم قد حانت. كانت عاصفة عنيفة تثور، مُصاحَبَةً بصوت طبول وزئير، وكنت سأموت من الرعب، واختبأت في سريري أصلّي حتى تنتهي، أغمض عينيّ اتقاء ومضات الضوء الآتية من خلال شقوق المصاريع. كان المطر ينهمر بشدة، والبيت يهتز في الريح مصدرًا صوتًا شبيهًا بطحن الأسنان. وكنت على يقين من أن البيت سينقسم إلى شطرين في أي لحظة مثل سفينة في البحر، ونغرق في الأرض. ثم سمعت بجوار أذني صوتًا يهمس: لا يمكن أن يكون. لا بدّ أن الخوف صرعني، لأنني فقدت وعيي تمامًا بعد ذلك.

ثم راودني حلم غريب جدًا. حلمت أن الجو عاد هادئًا مرة أخرى، وأنني خرجت من السرير في ثوب النوم، فتحت باب غرفتي، سرت عبر المطبخ الشتوي عاريةَ القدمين، وخرجت إلى الفناء. كانت الغيوم قد انزاحت، وكان القمر يسطع بشدة، وكانت أوراق الأشجار تشبه ريشًا من الفضة. وكان الهواء أبرد، مع لمسة كالمخمل. وكان هناك صراصير تصرّ. استطعت أن أشم رائحة تراب الحديقة الرطب، والرائحة الحادة لحظيرة الدجاج، واستطعت أيضًا سماع تشارلي وهو يصهل بهدوء من الإصطبل، مما يعني أنه كان يعرف أن هناك شخصًا يقف بالقرب. وقفت هناك في الفناء بجانب المضخة وضوء القمر ينهمر فوقي مثل الماء. وكان الأمر كما لو أنني لا أستطيع التحرك.

ثم لفّتني ذراعان من الخلف، وبدأت بمداعبتي. كانت ذراعي رجل. واستطعت الشعور بفم الرجل نفسه على رقبتي وخدي، يقبلني بحماس، وكما شعرت بجسده يضغط على ظهري. ولكنها كانت مثل لعبة الشخص المعصوب، التي يلعبها الأطفال، لأنني لم أتمكن من معرفة من هو، ولم أتمكن من الاستدارة والنظر. استطعت شم رائحة غبار الطريق والجلود، فظننت أنه قد يكون جيرمايا البائع المتجول. ثم تغيرت الرائحة إلى روث حصان، لذلك اعتقدت أنه كان ماكديرموت. لكني لم أستطع أن أحرض نفسي على دفعه بعيدًا. ثم تغيرت مرة أخرى، وكانت

رائحة تبغ، وصابون الحلاقة الجميل للسيد كينير، ولم أتفاجأ، حيث كنت أتوقع شيئًا من هذا القبيل منه؛ وطوال الوقت كان فم الرجل المجهول على رقبتي، وكنت أشعر أن نفسه يحرك شعري. ثم شعرت أنه لم يكن أيًا من هؤلاء الثلاثة، بل رجلًا آخر، شخصًا كنت أعرفه جيدًا وكنت آلفه منذ فترة طويلة، كما لو كنت أعرفه منذ طفولتي، ولكنني نسيته منذ ذلك الحين. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها نفسي معه. شعرت بدفء وإحساس نعاس يغطيني، ويحثني على التنازل، وتسليم نفسي. إذ سيكون ذلك أسهل بكثير من المقاومة.

لكنّي سمعت صهيل حصان وخطر لي أنه ليس تشارلي، ولا المهر الموجود في الحظيرة، ولكنْ حصانًا مختلفًا تمامًا. تسلل البرد إلى جميع أجزاء جسدي، وشعرت بالرّعب الذي ما إن وقفت حتّى شلّني؛ لأنّني عرفت أن الحصان ليس حصانًا أرضيًا، بل الحصان الشاحب الذي يُرسَل في يوم الحساب، وراكبه هو الموت. وكان الموت نفسه هو من يقف ورائي، وذراعاه ملفوفتان حولي مشدودتان مثل القيود الحديدية، وفمه عديم الشفاه يقبّل رقبتي كما لو كان واقعًا في حبّي. لكن بالإضافة إلى الرعب، شعرت أيضًا بتوق غريب.

عندها أشرقت الشمس، وليس تدريجيًا كما تفعل عندما نكون مستيقظين سيدي، بل مرة واحدة، يرافقها وهج عظيم من الضوء. لو كان صوتًا، لكان عبارة عن نغمة متزامنة للعديد من الأبواق. أما الأذرع التي كانت تمسكني فذابت. اندهشت من الوهج. لكن عندما نظرت إلى الأعلى، رأيت على الأشجار المحاذية للبيت، وعلى أشجار البستان أيضًا، العديد من الطيور الجالسة، طيورًا ضخمة بيضاء كالجليد. كان هذا مشهدًا مشؤومًا وإنذارًا بالهلاك، حيث بدت جاثمة كما لو كانت مستعدة للقفز والتدمير. وكانت في هذا تشبه تجمعًا للغربان، غير أنه أبيض. وعندما وضحت رؤيتي، رأيت أنها ليست طيورًا على الإطلاق. إنما كانت لها هيئة إنسان، وهم الملائكة الذين غسلت أرديتهم البيضاء بالدم، كما يذكر الإنجيل في نهايته. وكانوا يجلسون في محاكمة صامتة لمنزل السيد كينير، وجميع من بداخله. ثم رأيت أنهم بلا رؤوس.

في الحلم فقدت الوعي من الرعب المطلق. وعندما استعدت وعيي، وجدت نفسي في سريري، في غرفتي الصغيرة، وغطائي مسحوب حتى أذني. ولكن بعد أن وقفت -فقد كان الفجر قد بزغ- وجدت أن حاشية ثوبي مبللة، وتغطي قدمي آثار التراب والعشب. واعتقدت أنني لا بد قد تجولت في الخارج دون وعي، كما حدث لي من قبل، في اليوم الذي ماتت فيه ماري ويتني. فانقبض قلبي.

شرعت في لبس ملابسي كالمعتاد، متعهدة بالحفاظ على حلمي لنفسي، فمن من سكان البيت يمكنني أن آتمنه عليه؟ إن سردته باعتباره تحذيرًا، فسأكون محل ضحك فقط. ولكن عندما ذهبت إلى الخارج لضخّ أول سطل من الماء، وجدت أن الغسيل الذي أنجزته في اليوم السابق، طار إلى الأشجار بفعل العاصفة أثناء الليل. لقد نسيت أن أُدْخِلَه. ليس من عادتي أن أنسى شيئًا كهذا، خاصةً الغسيل، الذي عملت بجد، لتنظيفه من البقع. وكان هذا نذيرًا آخر لي. أما بالنسبة لملابس النوم والقمصان التي كانت عالقة في الأشجار فقد بدت بالفعل وكأنها ملائكة بلا رؤوس. وكان الأمر كما لو كانت ملابسنا تجلس لتطلق الأحكام علينا.

لم أستطع تجاوز الشعور بأن الهلاك قادم إلى المنزل، وأصبح الموت محتومًا على بعض من كانوا فيه. لو أنني خُيّرت حينها، لجازفت ورحلت مع جيرمايا البائع المتجول. وبالفعل فقد رغبت في اللحاق به، وكان خيرًا لي لو أنّني فعلت، لكنني لم أكن أعرف إلى أين أتجه.

يكتب الدكتور جوردن بتعطش، كما لو أن يده بالكاد تستطيع المواكبة. لم تسبق لي أبدًا رؤيته بهذه الحيوية. إن قدرتي على جلب القليل من المتعة لحياة بشري آخر تثلج صدري. وأتساءل ما الذي سيفهمه من كل هذا.

IX

القلوب والأحشاء

جاء جيمس والش في المساء، جالبًا فلوته، قالت نانسي: يمكننا أن نحظى ببعض المرح، في ظل غياب السيد كينير. قالت نانسي لماكديرموت: لطالما تفاخرت برقصك، هيا بنا نرقص. كان متجهمًا للغاية طوال المساء، وقال إنه لن يرقص. حوالي الساعة العاشرة ذهبنا للنوم. نمت مع نانسي تلك الليلة. قبل الذهاب إلى الفراش قال لي ماكديرموت إنه مصمم على قتلها بالفأس، في سريرها. وطلبت منه ألّا يفعلها تلك الليلة، لأنه قد يضربني بدلًا عنها. قال: اللعنة عليها. سوف أقتلها أول الصباح إذًا. استيقظت في وقت مبكر صباح يوم السبت، وعندما ذهبت إلى المطبخ كان ماكديرموت ينظف الأحذية، كانت النار مضاءة، سألني أين نانسي، فقلت إنها تلبس ملابسها، وقلت: هل ستقتلها هذا الصباح؟ قال إنه سيفعل. قلت: ماكديرموت لأجل الرب لا تقتلها في الغرفة، سوف تدمي الأرضية. حسنًا -قال- ليس هناك، لكني سأضربها بالفأس فور أن تخرج.

- اعتراف غريس ماركس، ستار آند ترانسكريبت، تورنتو، نوفمبر 1843.

قدَّمَ القبو مشهدًا مروّعًا... لم تمت نانسي مونتغمري كما حسبت، لكن الضربة شلتها فقط. استعادت حواسها جزئيًا، وكانت راكعة على ركبة واحدة ونحن ننزل السلم حاملين الضوء. لا أدري إن كانت قد رأتنا، إذ أعماها -بلا شك- الدم المتدفق على وجهها. لكنها بالتأكيد سمعتنا، ورفعت يديها المشبوكتين، كأنما تطلب الرحمة. التفتُ إلى غريس. كان التعبير على وجهها الشاحب أفظع حتى من التعبير على وجه المرأة سيئة الحظ. لم تصرخ، لكنها وضعت يدها على رأسها، وقالت: سيلعنني الرب على هذا. «وإذا فليس لديك ما تخشينه بعد -قلت- انزعي ذلكِ المنديل عن عنقك، وناوليني إياه.» فأعطتنيه دون أن تنبس بكلمة. ألقيت بنفسي على جثة مدبرة المنزل، وغرست ركبتي في صدرها، وربطت المنديل حول رقبتها في ربطة واحدة، وأعطيت غريس طرفًا لتمسكه، في حين سحبت الطرف الآخر، وشددته بما يكفي لإنهاء عملي الرهيب. عيناها خرجت من رأسها حرفيًا، بدرت عنها آهة أخيرة، وانتهى بذلك كل شيء. ثم قطعت الجثة إلى أربع قطع،

وقلبت حوض الغسيل عليها.

- جيمس ماكديرموت، إلى كينيث ماكنزي، أعادت صياغتها سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

...وإذًا فموت امرأة جميلة هو -بلا جدال- الموضوع الأكثر شاعرية في العالم.

- إدغار آلان بو، فلسفة التأليف، 1846.

حلَّتْ حرارة الصيف دون سابق إنذار. إذ كنّا في يوم ربيع بارد، مع نسيم ممطر وسحابات بيضاء باردة تتحرك عبر الزرقة الجليدية للبحيرة. وفجأة ذبل النرجس البري، وتفتقت الزنابق، وأصبح داخلها خارجها كما لو أنها تتثاءب، ثم سقطت بتلاتها. وارتفعت أبخرة المجاري من الأفنية الخلفية والمزاريب، وصارت سحب البعوض تتكاثف حول رؤوس المشاة. يومضُ الهواء عند الظهيرة، كالفراغ المحيط بشواية ساخنة، وتلمع البحيرة، وتطلق حافتها رائحة فاترة للسمك الميت وبيض الضفادع. في الليل يحاصر العث مصباح سايمون، يرفرف حوله، تشبه اللمسة الناعمة لأجنحتها، تفريش شفاه حريرية.

إنّه منبهر من التغيير. بعد أن عاش مواسم أوروبا الأكثر تدرجًا، نسي هذه التحولات الوحشية. ملابسه ثقيلة كالفراء، يبدو جلده رطبًا دائمًا. لديه انطباع أن رائحته مثل لحم الخنزير المقدد والحليب المتخمر. أو ربما تكون هذه رائحة حجرة نومه. إذ إنّها لم تحظَ بتنظيف شامل منذ فترة طويلة، ولم تغير الملاءات، حيث لم يُتحصّل على خادمة لكل الأعمال بعد، على الرغم من أن السيدة همفري تشرح له كل صباح مساعيها الحثيثة. ووفقًا لها، فإن الراحلة دورا كانت تنشر القصص حول المدينة -بين جميع الفتيات المحتملات، على الأقل- حول كيف أن السيدة همفري لم تدفع لها، وكيف أنها على وشك أن تطرد مع جميع ممتلكاتها خارجًا، بسبب افتقارها للمال، وحول هروب الرائد أيضًا، وهو خزي يتجاوز خزي المال. بالطبع -تقول لسايمون- من المنطقي ألّا ترغب أي خادمة في تجربة حظها مع أسرة كهذه. وابتسمت ابتسامة رثاء.

كانت تطبخ بنفسها وجبات الإفطار، والتي ما زال يتشاركها معها على مائدتها. كان ذلك اقتراحها، الذي وافق عليه، لأنه سيكون من المهين لها أن تحمل صينية إليه. يستمع سايمون إليها اليوم بقلة انتباه عصبية، عابثًا بخبزه المحمص الرطب، ومع بيضته التي أصبحت تقدم له مقلية الآن. على الأقل فالبيض المقلي لا يحتمل المفاجآت.

الإفطار هو كل ما يمكنها تدبره. وهي عرضة لنوبات من الانهيار العصبي والصداع، التي تحدث كرد فعل على الصدمة -أو هكذا يفترض، وهو ما أخبرها به- وبحلول الظهيرة تتمدد دائمًا على سريرها، واضعة قطعة قماش مبللة على جبينها، تبعث رائحة قوية من الكافور. لا يستطيع أن يدعها تموت جوعًا، لذلك على الرغم من أنه في معظم الأحيان يتناول وجباته في النزل البائس، فإنه يحاول إطعامها من وقت إلى آخر.

بالأمس اشترى دجاجة من عجوز شمطاء حقود في السوق، لكنه لم يكتشف إلا حين وصل إلى المنزل أنه بالرغم من أنها نتفت، فإنها لم تنظف. لم يتمكن من مواجهة المهمة، إذ لم ينظف دجاجة في حياته، وفكر في التخلص من جثة الطائر. كل ما يتطلبه الأمر، نزهة على ضفاف البحيرة، ومن ثم يقذفها قذفة رشيقة بذراعه... لكنه تذكر أنه كان مجرد تشريح بعد كل شيء، وقد قام بتشريح ما هو أسوأ من الدجاج. وفور وضع المشرط في يده -إذ كان يحتفظ بأدوات مهنته السابقة في حقيبته الجلدية- كان كل شيء على ما يرام مرة أخرى، وقطع شقًا متقنًا. بعد ذلك، ازدادت الأمور سوءًا، لكنه عالج الأمر بحبس أنفاسه. طهى الدجاج بتقطيعه إلى قطع وقليه. جاءت السيدة همفري إلى الطاولة، قائلة إنّها تشعر بتحسن كبير، وتناولت الكثير بالنسبة لشخص ضعيف للغاية. ولكن عندما حان وقت الغسيل عاودها المرض، وتركت سايمون يفعل ذلك بنفسه.

كان المطبخ لزجًا حتى أكثر ممّا كان عليه عند دخوله أول مرة. تجمعت لفات الغبار تحت الموقد، العناكب في الزوايا، فتات الخبز بجانب المغسلة. انتقلت عائلة من الخنافس إلى مخزن الطعام. من المرعب ملاحظة كيف أن المرء يمكن أن ينزلق إلى الحضيض بهذه السرعة. لا بدّ من القيام بشيء في أسرع وقت، لا بدّ من إحضار عبد أو خادم. بالإضافة إلى القذارة، هناك مسألة المظاهر. لا يستطيع أن يستمر في العيش بمفرده في هذا البيت مع صاحبة المسكن، لا سيما وإن كانت ذات شخصية مهزوزة، هجرها زوجها مؤخرًا. إذا أصبح معروفًا على الملأ وبدأ الناس يتحدثون -بغض النظر عن عدم صحة أقوالهم- فقد تتأثر

سمعته ومكانته المهنية. لقد أوضح القس فيرينغر أن أعداء الإصلاحيّين سوف يستخدمون أي وسيلة، مهما كان أساسها، لتشويه سمعة خصومهم، وفي حال حدوث فضيحة، فسيُسرَّح في وقت قصير.

يمكنه على الأقل أن يفعل شيئًا بشأن حالة المنزل، إذا كان بإمكانه استدعاء ما يلزم من الإرادة لذلك. يمكنه -إن لزم- أن يكنس الأرضيات والسلالم، وينفض الغبار عن الأثاث في غرفته. لكنه لن يتمكن من إخفاء رائحة الكارثة المكتومة، من التحلل البطيء والقابض، الذي يخرج من الستائر المرخية ويتراكم فوق الوسائد والخشب. إن حلول الصيف، جعل الأمر أسوأ. يتذكر بحنين خشخشة مجرفة دورا. لقد اكتسب احترامًا جديدًا (لدورات) العالم، لكن على الرغم من أنه يتوق إلى أن تحل هذه المشاكل المنزلية نفسها، إلا أنه لا يعرف كيف يمكن تحقيق ذلك. فكر مرة أو مرتين في طلب النصيحة من غريس ماركس: ما هي الطريقة الصحيحة لتوظيف خادمة، ما هي الطريقة الصحيحة لتنظيف الدجاج؛ لكنه تراجع بعد إعادة التفكير، إذ لا بدّ أن يحافظ على دور العريف في عينيها.

تعاود السيدة همفري الحديث. الموضوع امتنانُها له، كما هو الحال في كثير من الأحيان عندما يأكل خبزه المحمص. تنتظر حتى يمتلئ فمه، ثم تنطلق. نظراته تتجول فوقها: الشكل البيضاوي الشاحب لوجهها، شعرها المتصلب الذي تعوزه الحيوية، الخصر الحريري الأسود المطقطق، حواف الدانتيل البيضاء المفاجئة. لا بدّ أن ثيابها الصلبة تخفي ثديين، ليسا من القماش، وليسا بتشكيل المشدات، بل من لحم ناعم، مع حلمات. يجد نفسه -بلا دافع- يخمن لون الحلمات، تحت ضوء الشمس أو تحت أضواء المصابيح، وما هو حجمهما. حلمات قرنفليّة وصِغيرة مثل خطوم الحيوانات من أرانب أو فئران. أو ما يقارب الأحمر من الكشمش الناضج، أو البني القشري مثل قبعات البلوط. ويلاحظ أن خياله يتجه لتفاصيل الأخشاب البرية، والأشياء الصلبة أو المنبهة. في الواقع هذه المرأة لا تجذبه: هذه الصور تأتي كإنذار. تشعر عيناه بالضغط، ليس صداعًا حتى الآن، بل ضغط باهت. يتساءل ما إذا كان يعاني من حمًّى منخفضة. فحص لسانه هذا

الصباح في المرآة بحثًا عن مؤشرات المرض كالبقع، وشحوب اللون. لسان المرضى يبدو كلحم العجل المطبوخ، أبيض رماديًا، يعلوه الزبد.

إنه يسلك نمط حياة غير سليم. والدته على حق، يجب أن يتزوج. الزواج أو الاحتراق، كما يقول القديس بول. أو البحث عن البدائل المعتادة. هناك مواخير في كينغستون، كما في كل مكان، لكنه لا يستطيع الانتفاع منها كما يمكن أن يفعل في لندن أو باريس. فالبلدة صغيرة للغاية، وملاحظته سهلة للغاية، وموقفه متزعزع للغاية، وزوجة الآمر متدينة للغاية، وأعداء الإصلاح حاضرون ومتأهبون للغاية. الأمر لا يستحق المخاطرة، وعلى أي حال فإن المواخير هنا ستكون محبطة. متكلفة بشكل محزن، مع فكرة ريفية حول الإغراء عبر المفروشات المنجدة بشاعة. الكثير من الديباج والشراشيب. ولكن أيضًا عملية، تشغل على مبدأ المعالجة السريعة كمصنع نسيج بلدي في أمريكا الشمالية، والتكريس للحصول على أكبر عدد من السعداء، بغض النظر عن مدى قتامة وتدني جودة تلك السعادة. تنانير داخلية متسخة، عاهرات لا ترى لحومهن الشمس، حتى صارت باهتة كمعجنات غير مطبوخة وملطخة بأصابع البحارة السميكة المغطاة بالقطران، بالإضافة إلى هؤلاء المشذبين قليلًا من المشرعين الحكوميين، الذي يقدمون في المناسبات مسافرين ومتسترين برخص.

عليه كذلك تجنب هذه الأماكن. مثل هذه التجارب تستنزف الطاقة الذهنية.

«هل أنت مريض، دكتور جوردن؟» تساءلت السيدة همفري. بينما كانت تناوله كوبًا ثانيًا من الشاي، والذي صبته دون أن يطلب منها ذلك. عيناها بلا حراك، خضراء، بحرية، بؤبؤا العينين صغيران وأسودان. يستيقظ برعشة. هل كان نائمًا؟

«كنت تضغط بيدك على جبينك -تقول- هل لديك ألم هناك؟»

لديها عادة الظهور من العدم عند بابه أثناء محاولته العمل، وسؤاله عما إذا كان بحاجة إلى أي شيء. إنها تهتم به، لطيفة معه تقريبًا، ومع ذلك فهناك شيء غريب فيها، كما لو أنها تنتظر صفعة، أو ركلة، أو ضربة يد، والتي تعرف بإيمانها

الكئيب بالقدر أنها آتية بالتأكيد عاجلًا أم آجلًا. لكن ليس منه، ليس منه. إنه من النوع الذي يحتج بصمت. إنه رجل بأعصاب هادئة، لم تبدر عنه أبدًا أي ثورات، أو هيجان أو عنف. لا يوجد خبر حول الرائد. يفكر في أقدامها العارية، برقة صدفة، مكشوفة ومعرضة للأذى، مربوطة معًا -من أين أتت هذه الأفكار؟- بقطعة عادية من الخيوط. مثل حزمة. إن كان ولا بدّ أن تنغمس عتبة لا وعيه في مثل هذه المواقف الغريبة، فيجب على الأقل أن يكون قادرًا على توفير قيد من الفضة.

يشرب الشاي. طعمه كالمستنقعات، معد من جذور نبات البردي. متشابكة وغامضة. كانت لديه بعض المشاكل المعوية في الآونة الأخيرة، وكان يعالجها بمستحضر أفيوني. لحسن الحظ أن لديه مؤنة جيدة منه. إنه يشك في الماء في هذا البيت. ربما يكون قد أضر بالبئر بحفره المتناوب. لم يصل إلى أي نتيجة مرضية لخطة حديقة المطبخ، على الرغم من أنه قلب قدرًا مرضيًا من الطين. بعد أن قضى أيامه في مصارعة الظلال، وجد أنه -ويا الغرابة- من المريح أن يضع يديه على شيء حقيقي، مثل الأرض. لكن الجو أصبح حارًا على مثل هذا العمل.

«يجب أن أذهب.» قال وهو يقف دافعًا كرسيه للخلف، ماسحًا فمه بفظاظة، ممّا يجعله يظهر حازمًا، على الرغم من أنه في الواقع غير ملتزم بأي مواعيد حتى الظهر. لا فائدة من بقائه في الغرفة، لمحاولة العمل. بجلوسه على المكتب سينعس فقط، وستكون آذانه في حالة تأهب، كقطة كسولة، تترقب صوت خطًى على السلالم.

يخرج، يتجول عشوائيًا. يشعر جسده بالميوعة كمثانة، مفرغ من الإرادة. أوصلته قدماه إلى ضفاف البحيرة، نظر إلى ضوء الصباح الساطع بعينين نصف مغمضتين، يمر بالصيادين المفردين هنا وهناك وهم يلقون بالطعم للموجات الفاترة والمتراخية.

حالما يكون مع غريس، تصبح الأمور أفضل قليلًا، لأنه لا يزال بإمكانه أن يخادع نفسه بتغذية إحساسه بأنه يعمل من أجل غاية. تمثل غريس على الأقل هدفًا أو إنجازًا. لكنه كان اليوم، وهو يستمع إلى صوتها المنخفض والنزيه -الشبيه

بصوت المربية في طفولته وهي تقرأ قصة محبوبة- يكاد يغفو. لا يوقظه سوى صوت قلم الرصاص الذي يرتطم بالأرضية. يعتقد للحظة أنه أصم، أو يعاني من سكتة دماغية صغيرة، إذ يستطيع أن يرى شفتيها تتحركان، لكنه لا يستطيع فهم أيٍّ من تلك الكلمات. لكن هذا ليس سوى خدعة من الوعي، لأنه يستطيع تذكر كل ما قالته فور أن يعتزم ذلك.

بينهما على الطاولة تكمن حبة لفت أبيض صغيرة ومثبطة، والتي تجاهلها كلاهما حتى الآن.

لا بدّ له أن يستجمع قوته الفكرية. لا يستطيع أن يرفع علمه الآن، ويستسلم للخمول، ويفقد قبضته على الخيوط التي كان يتبعها على مدار الأسابيع الماضية، لأنهما أخيرًا يصلان معًا إلى مركز حكاية غريس. يقتربان من اللغز الفارغ، من منطقة الانمحاء. يدخلان غابة فقدان الذاكرة، حيث فقدت الأشياء أسماءها. وبعبارة أخرى، فإنهما يستعيدان (يومًا بيوم، ساعة بساعة) الأحداث التي سبقت القتل مباشرة. أي شيء تقوله الآن قد يكون دليلًا، أي إشارة، أي رفة. إنها تعرف، إنها تعرف. قد لا تعرف أنها تعرف، لكن المعرفة مدفونة في أعماقها.

المشكلة هي أنها كلما تذكرت أكثر، ازدادت قدرتها على الربط، وازدادت صعوبة عمله هو. لا يبدو أنه يستطيع تتبع القطع. يبدو الأمر كما لو أنها تستنزف طاقته، مستخدمة قوته الذهنية لتجسيد الأشكال في قصتها. إذ يقال إن العرافات يفعلن ذلك في غشياتهن. هذا هراء، بطبيعة الحال. يجب أن يرفض الانغماس في مثل هذه الأوهام الذهنية. لكن مع ذلك، كان هناك شيء عن رجل ما، في الليل: هل فاته شيء؟ أحد الرجلين: ماكديرموت، أو كينير. لقد دون في دفتر ملاحظاته كلمة (همس)، ووضع تحتها ثلاثة خطوط، ما الذي كان يحاول تذكير نفسه به؟

ابني العزيز. أشعر بالقلق إذ لم تصلني أخبارك لفترة طويلة. هل أنت على غير ما يرام؟ أينما وجد الضباب والرذاذ، وجدت الأمراض. وكما أفهم فموقع كينغستون منخفض إلى حد ما، تحدّها العديد من المستنقعات القريبة. لا يمكن

للمرء أن يكون حذرًا كفاية في بلدة عسكرية، حيث الجنود والبحارة يمارسون عاداتهم المنحلة. أرجو أن تتخذ الاحتياطات بالبقاء في الداخل قدر الإمكان خلال موجة الحر الشديد، وعدم الخروج تحت الشمس.

اشترت السيدة هنري كارترايت واحدة من آلات الخياطة المنزلية الجديدة، ليستخدمها خدمها. واسترعت انتباه الآنسة فيث كارترايت، وقد جربتها بنفسها، وتمكنت من صنع تنورة داخلية باستخدامها، في وقت قصير جدًا. وكان من لطفها أن تجلبها لي بالأمس، لأتفقد الخياطة، لأنها تعلم اهتمامي بالاختراعات الحديثة. تعمل الآلة بشكل مقبول، على الرغم من وجود مجال للتحسين، إذ يحدث تشابك الخيوط أكثر من الحد المقبول، ويجب عندها قطعه وفك الاشتباك. ولكن لا تكون مثل هذه الأجهزة مثالية الصنع في البداية. وتقول السيدة كارترايت إن زوجها يرى أن الأسهم في الشركة التي تصنع هذه الآلات، ستثبت أنها استثمار جيد على مر الزمن. إنه أب محب ومراعٍ، وقد فكر مليًا في رفاهية ابنته مستقبلًا، فهي ابنته الوحيدة الباقية على قيد الحياة.

لكنني لن أزعجك بالحديث عن المال، إذ أعلم أنك تجده حديثًا مضجرًا. على الرغم من ذلك يا ولدي العزيز، فهو يبقي غرفة المؤن ممتلئة، وهذه وسيلة للحصول على وسائل الراحة البسيطة، التي تصنع الفرق بين العيش الرث، والحياة السهلة نسبيًا. وكما اعتاد والدك العزيز أن يقول: إنها مادة لا تنمو على الأشجار.

الوقت لا يعمل وفق الوتيرة الثابتة المعتادة: إنه يتذبذب بطريقة غريبة. وقد حل المساءِ بسرعة. يجلس سايمون على مكتبه، والمفكرة مفتوحة أمامه، ويحدق بغباء من خلال النافذة التي تظلم شيئًا فشيئًا. وقد تلاشى غروب الشمس الحار، تاركًا لطخة أرجوانية. الهواء الخارجي يهتز مع أزيز الحشرات ونقيق البرمائيات. يشعر بالانتفاخ في كامل جسده، كالخشب في المطر. تأتي من المرج رائحة الليلك الذابل، إنها رائحة فريدة، مثل حروق الشمس على الجلد. غدًا يوم الثلاثاء،

اليوم الذي يجب عليه فيه إلقاء كلمة في الصالون الصغير لزوج الحاكم، كما وعد. ماذا يمكنه أن يقول؟ يجب عليه تدوين بعض الملاحظات، وتنظيم نوع من العرض المترابط. لكن هذا بلا فائدة، لا يمكنه تحقيق أي شيء ذي أهمية، ليس الليلة. لا يستطيع أن يفكر.

ارتطم العث بالمصباح. يضع مسألة اجتماع الثلاثاء جانبًا، ويتحول بدلًا من ذلك إلى رسالته غير المكتملة. أمي العزيزة. صحتي لا تزال ممتازة. نشكرك على إرسال محفظة الساعة المطرزة التي صنعتها لك الآنسة كارترايت. أنا مندهش من استعدادك للتخلي عنها، على الرغم من أنها -كما تقولين- واسعة بالنسبة لساعتك. وهي متقنة بالتأكيد. أتوقع أن أنهي عملي هنا قريبًا جدًا...

الأكاذيب والمراوغات من جانبه، والمؤامرات والإغواء من جانبها. ما الذي يعنيه من الآنسة فيث كارترايت وشغل إبرتها اللّا نهائي والجهنمي؟ كل رسالة ترسلها والدته تحتوي المزيد من أخبار الحياكة والغرز، والكروشيه المملة. لا بدّ أن كل أنحاء منزل كارترايت أصبحت بحلول هذا الوقت مغطاة بها. كل طاولة، كرسي، مصباح، وبيانو، بفدادين من الشراريب والحواشي، تتفتح زهرة من الصوف المشغول في كل زاوية منه. هل تعتقد أمه حقًا أن هذه الصورة عن نفسه تسحره. صورته متزوجًا بفيث كارترايت ومسجونًا في كرسي بذراعين، متجمدًا في نوع من السبات المشلول، فيما تلفه زوجته العزيزة تدريجيًا بخيوط الحرير الملونة مثل شرنقة، أو مثل ذبابة عالقة في شبكة العنكبوت؟

إنّه يجعد الصفحة، ويرميها على الأرض. سوف يكتب رسالة مختلفة. عزيزي إدوارد. أرجو أن تكون في صحة جيدة. أما أنا فما زلت في كينغستون، مواصلًا... مواصلًا ماذا؟ ماذا الذي يفعله بالضبط هنا؟ لا يمكنه الحفاظ على نبرته المرحة المعتادة. ما الذي يمكن أن يكتبه لإدوارد، أي كؤوس وجوائز سيعرضها له؟ لا أثر لذلك حتى الآن، يداه فارغتان، إنه لم يكتشف شيئًا. كان يسافر بعمًى، لا يستطيع أن يقول إن كان في الاتجاه الصحيح أم لا، دون أن يتعلم شيئًا عدا أنه لم يتعلم شيئًا بعد، ما لم يحسب مدى جهله. مثل أولئك الذين بحثوا دون

جدوّى عن مصدر النيل. مثلهم، يجب عليه أن يأخذ في الاعتبار إمكانية الهزيمة. رسائل يائسة محفورة على قطع من اللحاء، مرسلة عبر العصي المشقوقة من الغابة المزدردة. يعانـون الملاريـا، عضـات الأفاعـي، يطلبـون إرسـال المزيـد مـن الـدواء، الخرائـط خاطئـة. ليس لديه شيء قاطع يعده مرجعًا.

سيكون أفضل حالًا في الصباح. سوف يستجمع قواه، عندما يصبح الجو أبرد. أما في هذه اللحظة، فسيذهب إلى الفراش. أزيز الحشرات في أذنيه. تستقر الحرارة الرطبة على وجهه مثل يد. يتوهج وعيه للحظة -ما الذي يوشك على تذكره؟- ثم يخمد.

يستيقظ فجأة. هناك ضوء في الغرفة، شمعة، تطفو في المدخل. يلتمع شكل خلفها: إنها صاحبة المسكن، بلباس نوم أبيض، وقد التفعت بشالٍ فاتح اللون. يبدو شعرها الطويل الطليق رماديًا في ضوء الشمعة.

يسحب الملاءة فوقه، فهو لا يلبس قميص نوم. يقول: «ما الأمر؟» لا بدّ أنه بدا غاضبًا، لكنه في الواقع خائف. ليس منها بالتأكيد. ولكن ما الذي تفعله في غرفة نومه بحق الشيطان؟ يجب أن يحرص على إيصاد الباب في المستقبل.

- دكتور جوردن، إنني آسفة على إزعاجك -تقول- لكنّني سمعت جلبة. كما لو أن شخصًا يحاول اقتحام إحدى النوافذ. روعني ذلك.

لا ارتجاف في صوتها، ولا تهدج. إن هذه المرأة تملك أعصابًا باردة. أخبرها أنه سيأتي معها في غضون دقيقة واحدة، وسيتحقق من الأقفال والمصاريع؛ يطلب منها الانتظار في الغرفة الأمامية. يلبس ثوب نومه على عجالة، والذي يلتصق فورًا بجلده الرطب، ثم يجتاز الظلمة باتجاه الباب.

يقول لنفسه إن هذا يجب أن يتوقف. لا يمكن أن يستمر هكذا. لكن لم يحدث شيء، وبالتالي لا يمكن لشيء أن يتوقف.

إنه منتصف الليل، لكن الوقت يمضي، وهو أيضًا يدور ويدور، مثل الشمس والقمر على الساعة الطويلة في الصالون. قريبًا سينشق النهار من ظلمة الليل. قريبًا سينشق النهار. لا أستطيع منعه من الانشقاق بالطريقة نفسها التي يفعلها دائمًا، ثم من الاستلقاء هناك منشقًا؛ نفسُ اليومِ دائمًا، والذي يأتي مرة أخرى مثل الساعة. بدأ باليوم الذي يسبق اليوم السابق، ثم اليوم السابق، ثم يحل اليوم نفسه. يوم السبت. يوم الانشقاق. يوم يأتي الجزار.

ماذا أقول للدكتور جوردن عن هذا اليوم؟ لأننا أصبحنا تقريبًا هناك. أستطيع تذكر ما قلته عندما اعتقلت، وما قال المحامي السيد ماكنزي إنه ما ينبغي لي قوله، وما لم أقله له حتى، وما قلته في المحاكمة، وما قلته بعد ذلك، والذي كان مختلفًا أيضًا. وما ادّعى ماكديرموت أنني قلته، وما قال الآخرون إنّني لا بدّ وأن أكون قد قلته، لأن هناك دائمًا أولئك الذين يزودونك بخطبهم، ويضعونها في فمك أيضًا. وهذا النوع يشبه السحرة الذين يتحدثون من بطنهم، في المعارض والأسواق، ولن تكون أنت أكثر من دميتهم الخشبية. وهذا ما كان عليه الحال في المحاكمة، كنت هناك في قفص الاتهام، ولكنني أيضًا كنت مصنوعة من القماش، ومحشوة، برأس من الخزف. وكنت محبوسة داخل دميتي، ولم أستطع إخراج صوتي الحقيقي.

قلت إنني أتذكر بعض الأشياء التي قمت بها. ولكن هناك أشياء أخرى قالوا إنني فعلتها، والتي لا أستطيع تذكرها على الإطلاق.

هل قال: لقد رأيتك في الخارج ليلًا، مرتدية ثوب النوم، تحت ضوء القمر؟ هل قال: عمن كنت تبحثين؟ هل كان رجلًا؟ هل قال: أنا أدفع أجورًا جيدة ولكني أريد خدمة جيدة بالمقابل؟ هل قال: لا تقلقي، لن أخبر سيدة البيت، سيكون هذا سرنا؟ هل قال: أنت فتاة جيدة؟

ربما قال ذلك. أو ربما كنت نائمة.

هل قالت: لا تظني أني لا أعرف ما الذي تسعين إليه؟ هل قالت: سأدفع

أجرك يوم السبت وبعدها يمكنك الذهاب من هنا، وستكون هذه نهاية الأمر، وسيكون خلاصًا مريحًا؟

نعم. لقد قالت ذلك.

هل انهرت خلف باب المطبخ -بعدها- أبكي؟ هل أخذني بين ذراعيه؟ هل تركته يفعل ذلك؟ هل قال غريس، لماذا تبكين؟ هل قلت إنني أتمنى موتها؟

أوه، لا. بالتأكيد لم أقل ذلك. ليس بصوت عالٍ على الأقل. ولم أكن أتمنى حقًا موتها. لم أتمنَ لها إلا أن تكون في مكان آخر، وهو ذات الشيء الذي تمنته لي.

هل دفعته؟ هل قال: قريبًا سأغير رأيك بي؟ هل قال إنّني سأخبرك سرًا إذا وعدتِ بالحفاظ عليه؟ وإذا لم تحفظيه، فإن حياتك لن تكون ذات قيمة.

ربما حدث ذلك.

أحاول أن أتذكر كيف كان يبدو السيد كينير، حتى يكون بإمكاني إخبار الدكتور جوردن عنه. كان لطيفًا معي دائمًا، أو هكذا سأقول. لكن لا يمكنني تذكر ذلك بيقين. في الواقع، بغض النظر عن الأفكار التي كونتها يومًا عنه، فقد تلاشت. كانت تتلاشى عامًا بعد عام، مثل ثوب يغسل مرارًا وتكرارًا، والآن ماذا تبقّى منه؟ نمط باهت. زر أو اثنان. صوت في بعض الأحيان. لكن لا عيون ولا فم. كيف كان يبدو حقًا، عندما كان له جسد؟ لم يدون أحد ذلك، ولا حتى الصحف. لقد سردوا كل شيء عن ماكديرموت، وعني أيضًا، عن نظراتنا ومظهرنا، ولكن ليس عن السيد كينير، لأن القاتل أهم من المقتول، كنت محط انتباه في ذلك الوقت، لكن ذهب كل هذا الآن. أتخيله نائمًا ويحلم في سريره، صباحًا عندما أحضر له الشاي، فيما وجهه مخبّأ تحت الملاءات المبعثرة. في الظلام هنا، أستطيع تذكر أشياء كثيرة، لكنه ليس من ضمنها.

أعدد أشياءه: صندوق الشمة الذهبي، المنظار، بوصلة الجيب، المدية، الساعة الذهبية، الملاعق الفضية التي لمعتها، والشمعدانات التي تحمل شعار العائلة: أعيش على الأمل. سترة الترتان. لا أدري أين ذهبت.

أستلقي على السرير الصلب والضيق، على مرتبة مصنوعة من (قماش

التكتكة)، وهو ما يطلقونه على غطاء الفراش، ولكن لماذا يسمونها تكتكة وهي ليست ساعة. المراتب محشوة بالقش الجاف الذي يفرقع كالنار عندما أتقلب، وعندما أتحرك يهمس لي: هش هش. الغرفة مظلمة كحجر، وحارة كقلب محمص. إذا حدقت في العتمة بعيون مفتوحة، فمن المؤكد أنك سترى شيئًا بعد مرور بعض الوقت. آمل ألا تكون زهورًا. ولكن هذا هو الوقت الذي تنمو فيه، زهور حمراء، زهور الفاوانيا الحمراء الساطعة التي تشبه الساتان، التي تشبه لطخات طلاء. تربتها هي الفراغ، إنها مساحة فارغة وصامتة. أهمس: تحدث معي! لأنني أفضل الحديث على البستنة البطيئة التي تحدث في الصمت، مع بتلات الساتان الحمراء التي تقطر على الجدار.

أعتقد أنني أنام.

أنا في الممر الخلفي، أتحسس طريقي على طول الجدار. بالكاد أستطيع أن أرى ورق الحائط. كانت خضراء. ترتفع الدرجات هنا، ها هو الدرابزين. باب غرفة النوم نصف مفتوح، ويمكنني سماع ما يأتي من خلالها. أقدام عارية على السجادة المصنوعة من الزهور الحمراء. أعلم أنك تختبئين مني، اخرجي فورًا وإلّا وجدتك وأمسكت بك، وعندما تكونين في قبضتي، من يعلم ماذا سأفعل.

لا أزال أقف خلف الباب، أستطيع سماع قلبي. أوه لا، أوه لا، أوه لا.

أنا قادم، إنني قادم الآن. أنت لا تطيعيني أبدًا، أنت لا تفعلين أبدًا ما أقول، أيتها الفتاة المشاغبة. الآن سيكون عليّ أن أعاقبك.

هذا ليس خطئي. ماذا يمكنني أن أفعل الآن، أين يمكنني أن أتجه؟

يجب أن تفتحي الباب، يجب أن تفتحي النافذة، يجب أن تسمحي لي بالدخول.

انظر، انظر إلى البتلات الملقاة، ماذا فعلت؟ أعتقد أنني أنام.

أنا في الخارج ليلًا. هناك أشجار، وهناك الطريق، وسياج الثعبان ونصف قمر مضيء، وأقدامي العارية على الحصى. ولكن عندما صرت في مقدمة المنزل، كانت الشمس قد غربت لتوها. وأعمدة المنزل البيضاء اتخذت لونًا ورديًا، وكانت

الفاوانيا البيضاء تتوهج باللون الأحمر في الضوء المتلاشي. يداي خدرتان، لا أستطيع الإحساس بأطراف أصابعي. هناك رائحة لحم طازج، تخرج من الأرض وتنتشر في المكان، على الرغم من أنني أخبرت الجزار أننا لا نرغب في شيء.

هناك كارثة على راحة يدي، لا بدّ أنني ولدت بها، وها أنا أحملها معي أينما ذهبت. حالما لمسني، انتقل الحظ السيّئ إليه.

أعتقد أنني أنام.

أستيقظ على صياح ديك فأعرف أين أنا. أنا في الصالون. أنا في غرفة غسل الأطباق. أنا في القبو. أنا في زنزانتي. تحت غطاء السجن الخشن، الذي من المحتمل أنني صنعته بنفسي. نحن نصنع كل ما نلبسه أو نستخدمه هنا، سواء كنا مستيقظين أو نائمين. لذلك فقد صنعت هذا السرير، وها أنا الآن مستلقية عليه.

إنه الصباح وقد حان الوقت للنهوض. وعلي اليوم أن أواصل القصة. أو على القصة أن تستمر بي، حاملة إياي بداخلها، يجب أن تسافر على طول المسار، مباشرة إلى النهاية، صائحة مثل القطار وصماء وبعين واحدة ومغلقة بإحكام. على الرغم من أنني أقذف نفسي على جدرانها وأصرخ وأبكي، وأتوسل الرب نفسه أن يخرجني.

عندما تكون في منتصف قصة، فهي ليست قصة على الإطلاق، بل مجرد فوضًى. هديرًا مظلمًا، عمًى، حطامَ زجاج مكسورًا، وخشبًا منشقًّا. كمنزل في زوبعة، أو قارب سحقته الجبال الجليدية أو جرف عبر المنحدرات، وكل من على متنه عاجزون عن إيقافه. لكنها بعد ذلك تصبح قصة. عندما تقصها على نفسك أو على شخص آخر.

يتناول سايمون كوب الشاي من زوجة الآمر. إنه لا يحب الشاي كثيرًا، لكنه يعتبر شربه واجبًا اجتماعيًا في هذا البلد. وهو يمثل تحية لجميع النكات حول (حفل شاي بوسطن)[26] التي كان هناك الكثير منها، مع ابتسامة متحفظة ولكن متساهلة.

يبدو أن توعكه قد مرّ، إذ يشعر اليوم بتحسن، على الرغم من حاجته إلى النوم. تمكن من اجتياز حديثه الصغير إلى مجموعة الثلاثاء، ويشعر أنه أوفى بوعده على نحو كافٍ. بدأ بدعوة لإصلاح المصحات العقلية، إذ إنّ كثيرًا منها لا يزال أوكارًا للقذارة والظلم، كما كانت في القرن الماضي. استقبل هذا الرأي استقبالًا حسنًا. ثم واصل الحديث بالتطرق لبعض الملاحظات حول اللغط الفكري حول مجال الدراسة هذا، وحول المدارس المتنافسة بين الأطباء النفسيين.

تطرق أولًا إلى المدرسة المادية. إذ يرى هؤلاء الممارسون أن الاضطرابات العقلية كانت عضوية في الأصل. على سبيل المثال: أضرار الأعصاب والدماغ، أو حالات وراثية من نوع محدد مثل الصرع، أو الأمراض المعدية، بما فيها الأمراض المنقولة جنسيًا – عندها نقل الحديث بسرعة، مع الأخذ في الاعتبار وجود السيدات، ولكن الجميع فهم ما الذي يعنيه. بعدها وصف منهج المدرسة العقلية، الذي يعتقد بصعوبة تحديد المسببات. إذ كيف يمكن قياس آثار الصدمة، على سبيل المثال؟ كيف يشخص فقدان الذاكرة دون أي تمظهر مادي واضح، أو بعض التغيرات الجذرية للشخصية المتعذرة على التفسير؟ وما هو -يسألهم- الدور الذي تلعبه الإرادة، وماذا عن الروح؟ هنا مالت السيدة كوينل إلى الأمام، للتراجع بعدها إلى الوراء عندما قال إنه لا يعرف.

بعد ذلك انتقل إلى العديد من الاكتشافات الجديدة التي تمت، علاج البروميد للدكتور ليكوك لعلاج مرض الصرع، على سبيل المثال، الذي يفترض

26 احتجاج ضد فرض ضرائب على الشاي من قبل مجلس العموم البريطاني، في المستعمرات الأمريكية التي لا تتمتع بالتمثيل السياسي. تمثل في إلقاء شحنات الشاي في البحر. (م).

أن تزيح الكثير من المعتقدات والخرافات الخطأ. التحقيق في بنية الدماغ. استخدام المخدرات في كل من الاستقراء والتخفيف من الهلوسة من مختلف الأنواع. كانت المنجزات الريادية تمضي قدمًا باستمرار. هنا يود أن يذكر شجاعة الدكتور شاركوه من باريس، الذي كرس نفسه مؤخرًا لدراسة الهستيريا، وفحص الأحلام باعتبارها مفتاح التشخيص، وعلاقتها بفقدان الذاكرة، والذي يأمل هو نفسه في تقديم مساهمة متواضعة في ما يتعلق بهذا عندما يحين الوقت. كل هذه النظريات كانت في المراحل الأولى من التطوير، لكن يُتوقع الكثير منهم قريبًا. وكما قال الفيلسوف والعالم الفرنسي البارز ماين دي بيران: هناك عالم جديد داخلي بانتظار أن يكتشف، والذي يتطلب من المرء الغوص في الكهوف الجوفية للروح.

خلص إلى أن القرن التاسع عشر سيكون قرن دراسة العقل، كما كان القرن الثامن عشر -عصر التنوير- مكرسًا لدراسة المادة. كان فخورًا بكونه جزءًا من هذا التقدم الكبير في المعرفة، ولو بطريقة صغيرة ومتواضعة جدًا.

تمنى لو لم يكن الجو حارًا ورطبًا بطريقة لعينة. إذ كان منتقعًا بحلول الوقت الذي اختتم فيه، ولا يزال مدركًا لرائحة المستنقعات التي تأتي من يديه. لا بدّ أنه بسبب الحفر، إذ قام بنوبة أخرى منه هذا الصباح، قبل أن يصبح النهار حارًا.

صفقت مجموعة الثلاثاء بأدب، وشكره القس فيرينغر. وقال إنه لا بدّ من تهنئة الدكتور جوردن على الملاحظات البناءة التي شرفهم بها اليوم. لقد أعطاهم قدرًا كبيرًا من الأفكار للتأمل فيها. إن الكون حقًا مكان غامض، لكن الرب أنعم على الإنسان بالعقل، ممّا يجعله قادرًا على فهم كل الألغاز التي في متناول إدراكه. أشار ضمنيًا إلى أن هناك بعضًا ممّا لا يمكن إدراكه. بدا هذا مُرضيًا للجميع.

بعد ذلك، شُكِر سايمون فرديًا. أخبرته السيدة كوينل أنه تحدث برهافة، وهو ما جعله يشعر بالذنب قليلًا، حيث كان هدفه الرئيس الانتهاءَ من هذه المناسبة في أسرع ما يمكن. كان غير قادر على التنفس أمام إطراء ليديا التي كانت في غاية الجاذبية بثوب صيفي نضر وذي حفيف، وأمام إعجابها به كما يشتهي أي رجل، لكنه لم يستطع التخلص من فكرة أنها في الحقيقة لم تفهم كلمة واحدة

ممّا قال.

- مثير للاهتمام -يقول جيروم ديبونت، دافعًا سايمون بمرفقه- لاحظت أنك لم تقل شيئًا عن الدعارة، والتي تعد إلى جانب الشراب، واحدة من الأمراض الاجتماعية الرئيسة التي ابتلي بها جيلنا.
- لم أرغب في طرح الموضوع، نظرًا للرفقة.

يقول سايمون.

- صحيح. أنا مهتم برأيك حول وجهة نظر بعض من زملائنا الأوروبيين، بأن الميل إليها هو شكل من أشكال الجنون. إنهم يربطونها بالهستيريا والوهن العصبي.
- أنا مطّلع على الأمر.

يقول سايمون مبتسمًا.

في أيام دراسته، اعتاد أن يجادل على أنه إذا لم يكن لدى المرأة أي أفق آخر مفتوح سوى الموت جوعًا، الدعارة، أو رمي نفسها من الجسر، فمن المؤكد أن البغي التي تكشف عن غريزتها العنيدة للبقاء، يجب أن تعتبر أقوى وأكثر عقلانية من أخواتها سهلات الانقياد، واللاتي لم يعدن على قيد الحياة.

لم يكن باستطاعة المرء الحصول على كل شيء، يجادل مشيرًا إلى أنه إذا ما أغريت المرأة وتخُلّيَ عنها، فإن ذلك كاف لإصابتها بالجنون، لكن إذا ما تخطت الأمر، وأغرت بدورها، فإنها تكون مجنونة بالفطرة. وقال إن هذا يبدو له منطقًا مشكوكًا فيه، مما أكسبه السمعة بأنه إمّا ساخر، أو متزمت منافق، اعتمادًا على جمهوره.

- شخصيًا -يقول الدكتور ديبونت- أميل إلى وضع الدعارة في الفئة التي يوضع فيها الهوس الإجرامي والهوس الديني. يمكن اعتبارها جميعًا حوافز للعب دور ما يخرج -في النهاية- عن السيطرة. وقد لوحظت مثل هذه الظواهر في المسرح، بين الممثلين الذين يدعون أنهم أصبحوا الشخصية التي يتقمصونها. مغنيات الأوبرا الإناث عرضة بشكل خاص لذلك. هناك حالة

مسجلة للوسيا التي قتلت عشيقها بالفعل.

- إنه احتمال مثير للاهتمام.

يقول سايمون.

- أنت نفسك لا تؤمن بذلك -يقول الدكتور ديبونت وهو ينظر إلى سايمون بعينيه الداكنتين اللامعتين- لكنك ستذهب إلى حد الإقرار بأن النساء عمومًا لديهن تنظيم عصبي أكثر هشاشة، وبالتالي قدر أكبر من قابلية الإيحاء؟

- ربما -يقول سايمون- من المؤكد أنه الاعتقاد السائد.

- إنهن، على سبيل المثال، أكثر قابلية للتنويم المغناطيسي.

آه -يفكر سايمون- كل مهتم بهوايته الخاصة. ها قد بدأ بذلك.

- كيف حال مريضتك الجميلة، إن كان بإمكاني أن أناديها بذلك؟ -يقول الدكتور ديبونت- هل تحرز أي تقدم؟

- لا شيء حاسم بعد -يقول سايمون- هناك عدة خيوط محتملة أتمنى متابعتها.

- سأتشرف إذا ما سمحت لي بتجربة طريقتي الخاصة، كنوع من التجربة لا أكثر، يمكنك أن تعتبره نموذجًا شارحًا لما أقوم به.

- وصلتُ إلى نقطة حاسمة -يقول سايمون. لا يريد أن يكون فظًا، لكنه لا يريد أن يتدخل هذا الرجل. غريس تقع ضمن منطقة نفوذه. يجب عليه صد الصيادين الذي يصطادون خارج مناطقهم- قد يزعجها ذلك، ويبدد عمل أسابيع من الإعداد الدقيق.

- كما تحب -يقول الدكتور ديبونت- أتوقع أن أبقى هنا لشهر آخر على الأقل. سأكون سعيدًا بالمساعدة.

- أنت تقيم مع السيدة كوينل، كما أظن.

يقول سايمون.

- مضيفة أكثر من سخية. لكنها مفتونة بالروحانيين، كالكثيرين هذه الأيام. نظام بلا أي أساس، أؤكد لك. ولكن في النهاية، يمكن فرض الأشياء

بسهولة على الثكالى.

يمتنع سايمون عن القول إنه لا يحتاج إلى أي تأكيدات:

- لقد حضرت بعضًا منها... أمسياتها... هل يجب أن أسميها جلسات استحضار أرواح؟

- واحدة أو اثنتان. أنا -بعد كل شيء- ضيف، والأوهام المرافقة هي ذات أهمية كبيرة، للدراسة السريرية. لكنها بعيدة كل البعد عن إقفال عقلها عن العلم، بل إنّها مستعدة حتى لتمويل أبحاث منطقية.

- آه.

يقول سايمون.

- تريدُ مني تجربة جلسة للتنويم المغناطيسي العصبي، مع الآنسة ماركس -يقول الدكتور ديبونت متملقًا- نيابة عن اللجنة. لن يكون لديك أي اعتراض؟

اللعنة عليهم جميعًا -يفكر سايمون- لا بدّ من أن صبرهم قد نفد معي، يعتقدون أنني أستغرق وقتًا طويلًا. ولكن إذا تدخّلوا أكثر من اللازم، فسوف يخرجون عربة التفاح عن مسارها، ويدمرون كل شيء. لماذا لا يتركوني لوسائلي الخاصة؟

***

بما أن الدكتور جوردن سيتحدث في اجتماع الثلاثاء الذي يُقام اليوم، لم نتقابل خلال الظهيرة، كان عليه أن يُحضّر نفسه. سألتُ زوجة الآمر ما إذا كان بإمكاني أن أمكث لفترة أطول، إذ كانوا بحاجة للدعم، وهي تريد مني المساعدة في إعداد المرطبات، كما كنتُ أفعل في كثير من الأحيان. بالطبع كان الطلب شكليًا فقط، إذ إنّ المراقبات مجبرات على الموافقة، وهذا ما فعلته، وكان يفترض أن أتناول طعامي في المطبخ بعدها، تمامًا مثل خادمة حقيقية، حيث سيكون موعد عشاء السجن قد ولّى بحلول الوقت الذي أعود فيه. كنت أتطلع إلى ذلك، إذ

سيكون كالأيام الخوالي، عندما كنت حرة في المجيء والذهاب، وكان هناك تنوع أكبر في أيامي، ومتع صغيرة أتطلع إليها.

كنت أعرف أنني سأضطر لتحمل بعض الازدراء، والنظرات الحادة، والتعليقات اللاذعة على شخصيتي. ليس من كلاري، التي لطالما كانت صديقة لي على الرغم من أنها صديقة صامتة، وليس من كوك التي اعتادت عليّ الآن. لكن إحدى خادمات الطابق العلوي حانقة علي، لأنني كنت في هذا المنزل لفترة أطول، وأعرف طريقة العمل به، وأتمتع بثقة الآنسة ليديا والآنسة ماريان، فيما لا تتمتع هي بذلك. وهي تتقصد إبداء بعض التلميحات حول القتل، أو الخنق، أو أيٍ من هذه الأشياء البغيضة. أيضًا هناك دورا، التي تأتي للمساعدة في الغسيل، ووظيفتها ليست ثابتة هنا، بل يدفع لها بالساعة. إنها شخص ضخم بأذرع قوية، مفيدة لحمل السلال الثقيلة من الأغطية المبللة. ولكنها غير جديرة بالثقة، إذ إنّها تتحدث دائمًا عن سيدتها وسيدها، وتقول إنهم لا يدفعون ما يدينون لها به، بجانب أنها تستمر في قص الفضائح، حول أنه يسرف في الشراب حتى يتحول إلى أبله، وأنه ضرب زوجته على عينها أكثر من مرة، وأنها تدعي المرض من أبسط الأشياء، ولن تفاجأ دورا لو وجدت أن الشرابَ سببُ دوارها وصداعها.

لكن على الرغم من أن دورا تقول كل هذه الأشياء، فقد قبلتْ العودة إلى هناك، وقبلت أن تصبح خادمة لكل الأعمال مرة أخرى، وقد بدأت ذلك بالفعل. وعندما سألتها كوك عن سبب قيامها بذلك، مع أنها تراهم أشخاصًا سيّئي السمعة، غمزت، وقالت إن المال يتحدث، وهو يتحدث بصوت عالٍ أيضًا. وإنّ الطبيب الشاب الذي يقيم هناك قد دفع أجورها السابقة، وتوسل -جاثيًا على ركبتيه تقريبًا- لاستعادتها، إذ لم يعثروا على بديل آخر. وهو رجل يحب أن تكون له مساحته الخاصة والهادئة، ويحب إبقاء الأشياء نظيفة ومرتبة، وهو على استعداد لدفع ثمن ذلك، على الرغم من أن صاحبة المسكن لا تستطيع، بما أن زوجها هجرها، إنها تكاد تكون أرملة، وهي بالتالي فقيرة. وقالت دورا إنها لن تتلقى أي أوامر منها، فلطالما كانت سيدة مُعيّبَةً ونكدة، ولكنها تأخذ أوامرها من الدكتور

جوردن وحده، فمن يدفع لعازف المزمار يحصل على النغم.

وهذا لا يعني أنه يخطط لشيء جيد -تقول- إذ إنّه محاط بهواء مسمم، كما هو الحال مع الكثير من الأطباء، بزجاجاتهم وجرعاتهم وحبوبهم، وهي تشكر الربّ القدير كل يومٍ على أنها ليست سيدة عجوزًا غنية تحت رعايته، وإلا فما كانت لتستمر طويلًا في هذا العالم. ولديه عادة غريبة تتمثل في حفر الحديقة، على الرغم من أن الوقت أصبح متأخرًا جدًا لزرع أي شيء، لكنه يذهب إليها مثل قندلفت[27] وقد قلب الفناء كاملًا تقريبًا، ومن ثم تكون هي من يضطر إلى تنظيف الوحل الذي يخلفه، وفرك الأوساخ عن قميصه أثناء الغسل، وتسخين الماء لحمّامه.

ذهلتُ لإدراك أن الدكتور جوردن الذي كانت تتحدث عنه، هو الدكتور جوردن الذي يقابلني. لكنني كنت أشعر بالفضول أيضًا، لأنني لم أكن أعرف كل تلك الأشياء عن صاحبة المسكن، في الواقع لم أكن أعرف شيئًا عنها على الإطلاق. لذا سألت دورا: أي نوع من النساء هي؟ وقالت دورا: نحيفة كسكة حديد، وشاحبة كجثة، مع شعر طويل شديد الصفار حتى يكاد يكون أبيضَ تقريبًا. وبالرغم من تصرفها كسيدة رفيعة، وهو ما يجب أن تكونه، وبالرغم من أن دورا لا تملك الأدلة على ذلك؛ لكن السيدة هيمفري هذه كانت لعوبًا بعض الشيء، وتتصرف كأنها تخفي شيئًا ما، وكان هذان الأمران معًا يعنيان دائمًا عملًا دافئًا وراء الأبواب المغلقة، وعلى الدكتور جوردن أن يكون حذرًا، لأنها إن كانت قد رأت في حياتها تصميمًا على خلع بنطال رجل، فهو في عيني السيدة همفري. كما أنهما الآن يتناولان الإفطار معًا كل صباح، وهو ما بدا لها أمرًا غير طبيعي. وهو ما وجدتُه قاسيًا، الجزء المتعلق بالبنطلون على الأقل.

ثم فكرت، إن كان هذا ما تقوله عن الذين تعمل لديهم، من وراء ظهورهم، إذًا غريس، ما الذي قد تقوله عنك؟ قبضت عليها تنظر إليّ بعينيها الورديّتين الصغيرتين، وتبتكر الحكايات المثيرة التي ستقصها على أصدقائها، إن كان لها أي

27 خادم الكنيسة.

أصدقاء، حول تناولها الشاي مع قاتلة شهيرة، كان يجب شنقها منذ فترة طويلة، ثم تقطع إلى شرائح من قبل الأطباء، مثلما يتعامل الجزارون مع الذبائح، ثم يؤخذ ما يتبقى ويُرتب كما يُفعل ببودينغ الشحم، ثم يتركونني لأتعفن في قبر مشين، لا ينمو عليه سوى الشوك والقراص.

لكني أفضل الحفاظ على جو مسالم، لذلك لم أقل شيئًا. لأنّني إذا دخلت في شجار معها، فأنا أعرف بالتأكيد على من سيقع اللوم.

كانت لدينا أوامر لإبقاء آذاننا مفتوحة ترقبًا لنهاية الاجتماع، والتي ستكون إشارتها التصفيق، وخطاب شكر للدكتور جوردن على ملاحظاته التنويرية، وهو ما يقولونه لكل شخص يتحدث في هذه المناسبات. وسيكون ذلك إشارة لنا لجلب المرطبات. لذا قيل لأحد الخادمات أن تتنصت عبر باب الردهة. هبطت بعد فترة، وقالت إن الشكر يقدّم، فعددنا حتّى العشرين، ثم أرسلنا أول إبريق من الشاي، وأول صواني الكعك. كنت قد أُبقيت في الأسفل لتقطيع كعك الباوند، وترتيبه على طبق دائري، فقد أعطت زوجة الآمر تعليمات بوضع وردة أو اثنتين في المركز، ممّا جعله جميلًا. بعدها طلبوا مني شخصيًا تقديم ذلك الطبق، الأمر الذي وجدته غريبًا. لكنني صففتُ شعري وحملت كعك الباوند عبر السلالم، ثم عبر باب الردهة، دون توقع أي ضرر.

كانت هناك -من بين آخرين- السيدة كوينل بشعرها الشّبيه بإسفنجة البودرة، مرتدية الموسلين الوردي، الذي لم يكن يليق بسنها، وزوجة الآمر باللون الرمادي، والقس فيرينغر ينظر مترفّعًا، والدكتور جوردن الذي كان شاحبًا ومرتخيًا بعض الشيء، كما لو أن حديثه أبلاه. والآنسة ليديا في الثوب الذي ساَعدتها على صنعه، جميلة كلوحة.

لكن من هذا الذي ينظر إليّ مباشرة بابتسامة صغيرة، ليس سوى جيرمايا البائع المتجول! كان مهندمًا بشكل واضح بشعره ولحيته، ونهض كرجل نبيل، في بدلة حسنة التصميم بلون الرمال، مع سلسلة ساعة ذهبية تمر عبر السترة. محتسيًا فنجان الشاي بأسلوب رجل نبيل أنيق، تمامًا كما اعتاد أن يفعل عند

تقليدهم في مطبخ السيدة باركنسون. لكنني قادرة على التعرف عليه في أي مكان.

فوجئتُ كثيرًا لدرجة أنني أطلقت صرخة ذعر صغيرة، ثم بقيت واقفة في مكاني من أثر الصدمة، بفم مفتوح مثل سمك الحدوق، وكدت أسقط الطبق. وبالفعل انزلقت عدة قطع من كعكة الباوند على الأرض والورود أيضًا. ولكن حينها وضع جيرمايا فنجانه، وبسط سبابته بطول أنفه، وكأنه يخدشها. وهي إشارة لا أظن أن أحدًا غيري رآها، إذ كانوا جميعهم ينظرون إلي. من خلال هذه اللفتة عرفت أن عليّ أن أبقي فمي مغلقًا، وألّا أقول شيئًا، وإلا كشفتُ عن شخصيته.

لذا لم أفعل ذلك، بل اعتذرت عن إسقاط الكعك، ووضعت الطبق على المائدة الجانبية، وانحنيت لاسترجاع الكعك الواقع في مئزري. لكن زوجة الآمر قالت: لا تأبهي بذلك حاليًا غريس، أودّ أن أقدمك لشخص ما. وأخذتني من ذراعي وقادتني إلى الأمام. هذا هو الدكتور جيروم ديبونت -قالت- وهو ممارس طبي شهير، فأومأ لي جيرمايا، وقال: كيف أنت آنسة ماركس؟ كنت لا أزال مرتبكة، لكن تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشي. قالت زوجة الآمر: إنها تجفل من الغرباء غالبًا. الدكتور ديبونت صديق لي، ولن يؤذيك.

كدت أضحك بصوتٍ عالٍ حينها، لكن بدلًا من ذلك قلت: نعم سيدتي. ونظرت إلى الأرض. لا بدّ أنها خائفة من تكرار ما حدث سابقًا، عندما جاء طبيب قياس الرأس إلى هنا، وصرخت كثيرًا. لكنها لا يجب أن تقلق.

يجب أن أنظر في عينيها، قال جيرمايا. غالبًا ما تكون إشارة إلى ما إذا كان الإجراء سيكون فعّالًا أم لا. ورفع ذقني، وحدقنا إلى بعضنا البعض. «جيد جدًا.» قال برسمية ورصانة، تمامًا كما لو كان الشخص الذي يتظاهر أنه هو. جعلني ذلك أعجب به. ثم قال:

- غريس، هل نوِّمتِ مغناطيسيًا من قبل؟

بقي ممسكًا بذقني لبرهة، لتثبيتي، وإعطائي الوقت للسيطرة على نفسي.

- إنني آمل بالتأكيد أن هذا لم يحدث سيدي -أقول ببعض الاستنكار- لا

أعرف حتى ما يعنيه ذلك حقًا.

- إن هذا إجراء علمي بالكامل. هل ستكونين على استعداد لتجربته؟ إذ من شأنه أن يساعد أصدقائك، واللجنة. إذا تقرّر من قبلهم أن ذلك يجب عليك. وضغط على ذقني قليلًا، وحرك عينيه صعودًا وهبوطًا بسرعة، كإشارة إلى أنه ينبغي لي أن أقول نعم.

- سأفعل أي شيء ضمن مقدرتي سيدي -قلت- إذا كان هذا هو المطلوب.

- جيد، جيد -قال بصوت رنان تمامًا مثل طبيب حقيقي- ولكن كي ينجح الأمر، يجب عليك أن تثقي بي. هل تعتقدين أن بإمكانك فعل ذلك غريس؟ كان كل من القس فيرينغر والآنسة ليديا والسيدة كوينل وزوجة الآمر كلهم يشجعونني بشدة. قلت:

- سأحاول سيدي.

ثم تدخل الدكتور جوردن، وقال إنه يظن أنني حظيت بما يكفي من الإثارة ليوم واحد، ولا بدّ من مراعاة ألّا تتضرّر أعصابي، لأنها حساسة. وقال جيرمايا: بالطبع، بالطبع. لكنه بدا مسرورًا. وعلى الرغم من أنني أقدر الدكتور جوردن، إذ كان لطيفًا معي، لكنه بدا لي كسمكة مسكينة مقارنة بجيرمايا، مثل رجل في السوق كان قد نُشل جيبه، لكنه لم يدرك ذلك بعد.

أما أنا فبإمكاني الضحك بطرب لأن جيرمايا قام بخدعته السحرية بتمكن كما لو أنه سحب قطعة نقدية من وراء أذني، أو أقنعهم بابتلاعه شوكة. وكما اعتاد فعل مثل هذه الحيل على مرأى ومسمع الجميع، بينما هم ينظرون دون القدرة على اكتشافه، فقد فعل الشيء نفسه هنا، وأبرم اتفاقًا معي أمام أعينهم، ولم تكفِهم كل حكمتهم ليفطنوا إلى ذلك.

لكن تذكرت بعدها أنه حدث وسافر كرجل مسمراني، وقام بأعمال طب استبصاري في المعارض، وعرف فعلًا أسرار المهنة، وربما يرسلني فعلًا في غشية. جعلني هذا أقف وقفة تأمل، وشعرت بأنني تسرعت في قراري.

- لا تهمني مسألة ذنبك أو براءتك -يقول سايمون- أنا طبيب، ولست قاضيًا. أود ببساطة أن أعرف ما يمكن أن تتذكريه أنت بنفسك.

وصلَ أخيرًا إلى جرائم القتل. راجع جميع الوثائق الموجودة تحت تصرفه: تقارير المحاكمة، آراء الصحافة، الاعترافات، وحتى الدراما المفرطة للسيدة مودي. إنه مستعد تمامًا ومتوتر أيضًا: ما يحدث اليوم سيحدد ما إذا كانت غريس ستنفتح في نهاية المطاف، وستكشف عن كنوزها المكنونة، أو ما إذا كانت بدلًا من ذلك ستشعر بالتهديد وتختبئ، وستنغلق على نفسها مثل البطلينوس.

لم يحضر معه أي خضروات اليوم. عوضًا عن ذلك أحضر شمعدانًا من الفضة -وفره له القس فيرينغر- مماثلًا -كما يأمل- للنوع المستخدم لدى عائلة كينير، والذي سرقه جيمس ماكديرموت. لم يعرضه بعد، إنه في سلة خوص -سلة تسوق، في الواقع، استعارها من دورا- وخبأها بجانب كرسيه. ليس متأكدًا تمامًا كيف ينوي استخدامه.

غريس تواصل الخياطة، إنها لا ترفع نظرها:

- لم يهتم أحد بذلك من قبل سيدي -تقول- قالوا لا بد أني أكذب. كانوا دائمًا يريدون معرفة المزيد. باستثناء المحامي السيد كينيث ماكنزي. لكنني متأكدة أنه لم يصدقني هو الآخر.

- أنا أصدقك.

يقول سايمون، فيما يستوعب أنها مهمة هائلة.

تزم غريس فمها قليلًا، تقطب، لا تقول شيئًا. يتدخل:

- غادر السيد كينير إلى المدينة يوم الخميس، أليس كذلك؟

- نعم، سيدي.

- في تمام الساعة الثالثة؟ على ظهر حصان؟

- نعم، كان ذلك هو الوقت بالضبط سيدي. كان من المقرر أن يعود يوم السبت. كنت في الخارج، أرش مناديل الكتان التي وضعتها في الشمس

للتبييض. ماكديرموت أحضر الحصان لأجله. السيد كينير كان ممتطيًا تشارلي، حيث أودعت العربة في القرية لتطلى بطبقة طلاء جديدة.

- هل قال لك أي شيء حينها؟
- قال: ها هو عشيقك المفضل غريس، تعالي وقبليه قبلة الوداع.
- يعني جيمس ماكديرموت؟ لكن ماكديرموت لم يكن ذاهبًا إلى أي مكان.

نظرت غريس إليه بتعبير فارغ، يقترب من أن يكون ازدراءً:

- كان يعني الحصان، سيدي. لعلمه بولعي الشديد بتشارلي.
- وماذا فعلتِ؟
- ذهبت ومسدت على تشارلي سيدي، على أنفه. لكن نانسي كانت تشاهد من باب المطبخ الشتوي، وكانت قد سمعت ما قاله، ولم يعجبها الأمر. كما لم يعجب ماكديرموت. لكن لم يكن هناك أي ضرر في ذلك. كان السيد كينير يحب المشاكسة.

أخذ سايمون نفسًا عميقًا:

- هل قام السيد كينير بأي فعل غير ملائم معك يا غريس؟

تنظر إليه مرة أخرى، بابتسامة باهتة هذه المرة:

- أنا لا أعرف ما تقصده بالفعل غير اللائق، سيدي. لم يستخدم لغة قذرة معي أبدًا.
- هل سبق أن لمسك؟ هل رفع الكلفة؟
- ما هو معتاد فقط سيدي.
- المعتاد؟

يقول سايمون محتارًا. لا يعرف كيف يقول ما يعنيه، دون أن يكون صريحًا أكثر من اللازم. فغريس على قدر كبير من الاحتشام.

- لقد كان سيدًا طيبًا مع الخدم سيدي -تقول غريس في البداية- ويرفع الكلفة عندما يريد ذلك.

يتيح سايمون لنفاد الصبر أن يعلو على جانبه الأفضل. ماذا تعني؟ هل تقول

إنه دفع لها مقابل خدمات؟ يقول:

- هل وضع يديه داخل ملابسك؟ بينما أنت مستلقية؟

تقف غريس:

- سمعت ما يكفي من هذا الكلام -تقول- لست مجبرة على البقاء هنا. إنك لا تختلف عن الآخرين في المصحة، وقساوسة السجن، والدكتور بانرلينغ بأفكاره القذرة!

يجد سايمون نفسه يعتذر لها، ويكتشف أنه أساء الفهم.

- أرجوك أن تجلسي -قال بعد أن تدارك الأمر- دعينا نرجع إلى سلسلة الأحداث. ركب السيد كينير حصانه في الساعة الثالثة من يوم الخميس. ثم ماذا حصل؟

- قالت نانسي إنّنا الاثنان سنغادر بعد غد، وكانت تملك المال لتدفع لنا. وقالت إن السيد كينير كان موافقًا على ذلك.

- هل تعتقدين أنت ذلك؟

- في ما يتعلق بماكديرموت، أجل. لكن ليس في ما يتعلق بي.

- لكن أنت لا؟

يقول سايمون.

- كانت خائفة أن يفضلني السيد كينير عليها. إذ كانت كما قلت سيدي، في طريقها إلى أن تصبح أمًا، وغالبًا ما يحدث مثل هذا مع الرجال، إنهم يذهبون إلى امرأة لا تمر بالحالة، استبدالًا للمرأة التي في الحالة، يحدث نفس الشيء مع الأبقار والخيول، وإذا ما حدث هذا لنانسي، فستجد نفسها في الشارع، هي ونغلها. كان من الواضح أنها تريد إزاحتي عن الطريق، وتريدني خارج المنزل قبل أن يعود السيد كينير. لا أعتقد أنه يعرف أي شيء عن ذلك.

- ماذا فعلت بعد ذلك غريس؟

- بكيت سيدي، في المطبخ. لم أرغب في المغادرة، دون توفر وظيفة جديدة أذهب إليها. كان الأمر مفاجئًا جدًا، ولم أملك الوقت للبحث عن واحدة.

وكنت أخشى أنها لن تدفع لي بعد كل شيء، وترسلني دون إشادة، ماذا أفعل حينها؟ كانت لدى ماكديرموت المخاوف نفسها.

- ثم؟

يقول سايمون، عندما سكتت.

- عندها سيدي، قال ماكديرموت إن لديه سرًا، ووعدت بعدم إفشائه، وأنت تعرف سيدي، أنه بمجرد أن أعد بشيء كهذا، أصبح ملزمة به. ثم قال إنه سوف يقتل نانسي بالفأس، ويخنقها أيضًا، ويطلق النار على السيد كينير عندما يعود، ويأخذ الأشياء الثمينة. وكان علي أن أساعده وأذهب معه إذا كنت أعرف مصلحتي، وإلّا ألقي باللوم علي. لو لم أكن مستاءة للغاية لضحكت عليه، لكنني لم أفعل ذلك، ولأكون صادقة معك، كان كلانا قد تناول كأسًا أو اثنين من ويسكي السيد كينير، الذي لم نكن نرى مانعًا من تناوله، ما دمنا سنُبعد على أي حال. كانت نانسي لدى آل رايتز، وهكذا كانت يدنا طليقة.

- هل صدقتِ أن ماكديرموت سيفعل ما يدعيه؟

- أبدًا سيدي. من ناحية، كنت أظنه يتفاخر بكونه رجلًا قادرًا، ويتفاخر بالأمور التي يمكنه فعلها، وهو شيء كان يتطرق له عندما يكون مخمورًا، وكان والدي يفعل الأمر نفسه. ولكن في الوقت نفسه بدا جديًا، وكنت خائفة منه. وكان لدي شعور قوي أن الأمر مقدر، ولا يمكن تجنبه، مهما فعلت.

- لم تحذري أي شخص؟ نانسي مثلًا، عندما عادت من زيارتها؟

- وما الذي سيدفعها لتصديقي سيدي؟ كان الأمر ليبدوَ غبيًا. كانت ستعتقد أنّني أنتقم منها لأنها طلبت مني الرحيل؛ أو أنها مشاجرة بين الخدم، وكنت أردها لماكديرموت. لم يكن هناك دليل سوى كلماتي التي يمكن إنكارها بسهولة، والقول إنني لم أكن سوى فتاة هستيرية سخيفة. في الوقت نفسه، إذا كان ماكديرموت يعني حقًا ما يقوله فربما يقتل كلينا في المكان نفسه

والوقت نفسه، وأنا لا أريد أن أقتل. أفضل ما يمكنني القيام به هو محاولة تأخيره حتى عودة السيد كينير. في البداية قال إنه سيفعلها في تلك الليلة تحديدًا، وقد أقنعته بالعدول عن الأمر.

- كيف تمكنت من القيام بذلك؟

يسأل سايمون.

- قلت إنه إذا قُتلت نانسي يوم الخميس، فإن ذلك سيعني أن لدينا يومًا كاملًا ونصف يوم، نحسب فيه حسابًا لمكان وجودها لأي شخص قد يستفسر. أما إذا أجله لوقت لاحق، فسيكون هناك قدر أقل من الريبة.

- أرى ذلك -يقول سايمون- معقولًا جدًا.

- من فضلك لا تسخر مني سيدي -تقول غريس بوقار- فذلك يزعجني للغاية، ويضاعف عدم إمكانيتي على تذكر ما يطلب مني تذكره.

يقول سايمون إنه لا يقصد السخرية. يبدو أنه يقضي الكثير من الوقت في الاعتذار لها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

يسأل في محاولة لأن يبدو لطيفًا، وليس متلهفًا.

- ثم عادت نانسي من زيارتها، وكانت مبتهجة للغاية. فلطالما كانت تتصرف على هذا النحو، بعد أن تفلت أعصابها. تتظاهر بأن شيئًا لم يكن، وأننا جميعًا أفضل الأصدقاء. على الأقل عندما لم يكن السيد كينير حاضرًا. لذا تصرفت كما لو أنها لم تطلب منّا المغادرة، أو أنها أسمعتنا كلامًا قاسيًا، وواصلت كل شيء كالمعتاد. تناولنا العشاء معًا في المطبخ نحن الثلاثة، وكان عبارة عن لحم خنزير بارد، والبطاطا المعدة كسلطة، مع الثوم المعمر المجلوب من الحديقة. ضحكت وثرثرت. كان ماكديرموت متجهّمًا وصامتًا، لكن لا جديد في ذلك. ثم ذهبت أنا ونانسي إلى الفراش معًا، كما كان الحال دائمًا عندما يغيب السيد كينير، بسبب خوفها من اللصوص. ولم تشك في شيء. لكنني تأكدت جيدًا أن باب الغرفة موصد.

- ولم ذلك؟
- كما قلت، أنا دائمًا أغلق الباب عندما أنام. ولكن أيضًا، كان لدى ماكديرموت فكرة حمقاء تتضمن الزحف نحو المنزل ليلًا بالفأس. أراد قتل نانسي أثناء نومها. قلت إنه لا يجب أن يفعل ذلك، لأنه قد يضربني عن طريق الخطأ. لكن كان من الصعب إقناعه وقال إنه لا يريدها أن تنظر إليه وهو يفعل ذلك.
- أستطيع فهم ذلك -يقول سايمون بجفاف- وماذا حدث بعدها؟
- أوه، بدا يوم الجمعة طبيعيًا تمامًا للمراقب من الخارج سيدي. كانت نانسي منشرحةً ومبتهجةً، ولم توبخ على الإطلاق، أو على الأقل ليس كما اعتادت. وحتى ماكديرموت كان أقل تجهّمًا في الصباح، إذ أخبرته أنه إذا ما بقي بذلك الوجه المكشر، فإن نانسي ستتأكد من أنه يدبر شيئًا. في منتصف الظهيرة، جاء الصبي جيمي والش بفلوته، كما طلبت نانسي منه. وقالت بما أن السيد كينير غائب فسنحتفل جميعًا. ما الذي نحتفل به؟ لست متأكدة، ولكن نانسي تكون حيوية جدًا وعندما تكون في مزاج جيد، وتحب الغناء والرقص. تناولنا عشاء جيدًا، مكونًا من الدجاج المحمص البارد، وبيرة إلى جانبه. بعدها طلبت نانسي من جيمي أن يعزف لنا، وسألني إذا كنت أريد الاستماع إلى لحن محدد، وكان مهتمًا بي ولطيفًا معي، وهو ما لم يعجب ماكديرموت، وطلب منه أن يتوقف عن النظر إلي بعين الإعجاب، إذ كان الأمر كافيًا لقلب معدته، فيما احمرت وجنتا جيمي المسكين. ثم قالت نانسي لماكديرموت إنّ عليه ألّا يضايق الصبي، وسألته ألّا يستطع أن يتذكر أنه كان صغيرًا ذات مرة. وأخبرت جيمي أنه سيكبر ليصبح وسيمًا، إذ بمقدورها دائمًا أن تتوقع مثل هذه الأشياء، أوسم بكثير من ماكديرموت بعبوسه وتجهمه، وعلى أي حال، فإن الجمال جمال الأخلاق. ورمقها ماكديرموت بنظرة كره صرف، تصنعت عدم رؤيتها. ثم أرسلتني إلى القبو لجلب المزيد من الويسكي، فبحلول ذلك الوقت أتينا على أواني الخمر في الطابق العلوي.

ثم ضحكنا وغنينا. أو ضحكت نانسي وغنت، ثم انضممت أنا. غنينا وردة ترالي[28] وتذكّرت ماري ويتني، وتمنيت بشدة أن تكون معي، لأنها ستعرف كيف تتصرف، وستساعدني على الخروج من محنتي. لم يغنِّ ماكديرموت، حيث كان مزاجه عكرًا. ولم يرقص كذلك عندما كانت نانسي تحثه قائلة إنّها فرصته ليتباهى ويثبت أي راقص رشيق هو. لقد أرادت أن نفترق جميعًا كأصدقاء، لكنه لم يملك أي نياتٍ لذلك.

بمرور الوقت أصبحت الحفلة بلا روح. قال جيمي إنه تعب من العزف، وقالت نانسي إن الوقت قد حان للنوم. وقال ماكديرموت إنه سيرافق جيمي إلى بيته عبر الحقول، أعتقد أنه أراد التيقن من أنه على ما يرام وأنه رحل حقًا. ولكن في الوقت الذي عاد فيه ماكديرموت، كنت أنا ونانسي في الطابق العلوي، في غرفة السيد كينير، وقد أوصدنا الباب.

- غرفة السيد كينير؟

يقول سايمون.

- كانت فكرة نانسي. قالت إن سريره أكبر، وأبرد في الطقس الحار، وكانت لي عادة الركل أثناء نومي. وعلى أي حال، فلن يكتشف السيد كينير ذلك، بما أننا من يرتب الأسرة، وليس هو. وحتى لو اكتشف، فإنه لن يهتم، بل ستعجبه بلا شك فكرة وجود خادمتين معًا في سريره. كانت قد شربت عدة أكواب من الويسكي، وكانت تتحدث بتهور. وقد حذرت نانسي، في النهاية سيدي. بينما كانت تمشط شعرها، قلت: ماكديرموت يريد أن يقتلك. ضحكت، وقالت: أتوقع أن يفعل، لن أمانع قتله أيضًا، إننا تقريبًا نتبادل الكره. إنه جاد. قلت. إنه ليس جادًا بخصوص أي شيء -قالت بخفة- إنه دائمًا يتبجّح ويتباهى، لكنه كلام فارغ.» علمتُ أنه ليس بإمكاني فعل أي شيء لإنقاذها. عندما أصبحت في السرير، غفت حالًا. جلست أمشط شعري، على ضوء شمعة واحدة، فيما امرأة عارية تتطلع إليّ عبر الصورة، تلك التي كانت تستحم في الخارج، والأخرى

28 بالإنجليزية: (The Rose of Tralee)

بريش الطاووس. وكانت كلاهما تبتسمان لي، بطريقة لم تعجبني. ظهرت ماري ويتني في أحلامي تلك الليلة. لم تكن تلك المرة الأولى. زارتني من قبل، لكنها لم تقل شيئًا. كانت إما تعلق الغسيل وتضحك، أو تقشر التفاح، أو تختبئ خلف الشراشف المعلقة على الحبال في العلية، وهي الأشياء التي كانت تفعلها قبل أن تأتي المشاكل. وعندما أحلم بها على هذا النحو، استيقظ مرتاحة، كما لو كانت لا تزال حية وسعيدة. لكن تلك كانت مشاهد من الماضي. هذه المرة كانت في الغرفة معي، الغرفة نفسها التي كنت فيها، والتي كانت غرفة نوم السيد كينير. كانت تقف بجانب السرير في ثوب النوم، فيما شعرها منسدل إلى أسفل، كما كانت عندما دُفِنَت. وعلى الجانب الأيسر من جسدها، استطعت أن أرى قلبها من خلال الثوب الأبيض، أحمر فاتحًا. لكنني بعد ذلك، رأيت أنه لم يكن قلبًا بعد كل شيء، بل محفظة الإبر التي صنعتها لها في عيد الميلاد، والتي وضعتها معها في التابوت، تحت الأزهار والبتلات المتناثرة. وكنت سعيدة برؤيتها وهي لا تزال محتفظة بها، وبمعرفة أنها لم تنسَني. كانت تمسك كأسًا زجاجيًا في يدها، داخله يراعة، محتجزة ومتوهجة بنار باردة مائلة إلى الخضرة. كان وجهها شاحبًا جدًا، لكنها نظرت إلي وابتسمت. ثم أزاحت يدها عن أعلى الكأس، وخرجت اليراعة واندفعت محلقة في أرجاء الغرفة، فعرفت أن تلك كانت روحها، تحاول إيجاد طريقها للخروج، لكن النافذة كانت مغلقة، بعدها لم أتمكن من رؤية المكان الذي ذهبت إليه. استيقظت، ودموع الحزن تغطي وجهي، لأنني فقدت ماري مرة أخرى. تمددت في العتمة، أستمع إلى صوت تنفس نانسي. واستطعت أن أسمع دقات قلبي في أذني، يخطو بتثاقل ويخطو بتثاقل، كما لو أنه حكم عليه بالسير في طريق طويل ومرهق، بغض النظر إن كنت راغبة أم لا، من يعلم متى سأصل إلى نهايته. كنت خائفة من العودة للنوم، خشية أن أرى حلمًا آخر كالذي رأيته، ولم تكن مخاوفي باطلة، لأن هذا ما حدث بالفعل. في الحلم الجديد، حلمت أنّني أسير في مكان لم أكن فيه من قبل، محاطة بجدران عالية مصنوعة من الحجر الرمادي والكئيب

مثل أحجار القرية التي ولدت فيها، على الجانب الآخر من المحيط. على الأرض ينتشر حصًى رمادي، ومن الحصى تنمو زهور الفاوانيا. لا تظهر سوى براعمها، صغيرة وصلبة مثل التفاح غير الناضج، ثم تفتحت، وبرزت منها زهور حمراء داكنة ضخمة مع بتلات لامعة، كالساتان. ثم تفتحت في الريح وسقطت البتلات على الأرض. لولا أنها حمراء، لطابقت الفاوانيا في الحديقة الأمامية لمنزل السيد كينير في اليوم الأول الذي جئت فيه، عندما كانت نانسي تقطفها، وقد رأيتها في الحلم، تمامًا كما كانت حينها، في ثوبها الفاتح ذي البراعم الوردية والكشكشة ذات الطبقات الثلاث، وقبعة القش التي أخفت وجهها. كانت تحمل سلة مسطحة، لوضع الأزهار فيها، بعدها استدارت، ووضعت يدها على حلقها كما لو أنها مرتاعة. بعدها عدت إلى الساحة الحجرية، أمشي فيما طرف حذائي يظهر ويختفي تحت حافة تنورتي، والتي كانت زرقاء مخططة بالأبيض. كنت أعرف في الحلم أنني لم أملك أبدًا تنورة بهذا الشكل، وعند مشاهدتها شعرت بالثقل والأسى. لكن الفاوانيا كانت لا تزال تنمو من الحجارة. وعرفت أنها لا يجب أن تكون هناك. مددت يدي لألمس إحداها وكان لها ملمسٌ جاف، فعرفت أنها مصنوعة من القماش. رأيت نانسي أمامي، جاثية على ركبتيها، شعرها منسدل والدم ينزلق إلى عينيها. ثمة منديل قطني أبيض مطبع بزهور الشونيز الدمشقي الزرقاء ملفوفٌ حول عنقها، إنه منديلي. ترفع وجهها، تمد يديها نحوي طالبة الرحمة. تلبس أقراطًا ذهبية صغيرة، كنت أحسدها عليها. كنت أرغب في الركض نحوها ومساعدتها، لكنني لم أستطع. وواصلت قدماي المشي بالسرعة الثابتة نفسها، كما لو لم تكونا قدميّ على الإطلاق. كدت أصل إلى المكان الذي تجثو فيه نانسي. تبتسم، فمها يبتسم، أما عيناها فمخبأتان بالدم والشعر. تتناثر بعدها إلى لطخات من اللون، في مد من بتلات القماش الأحمر والأبيض عبر الحجارة. تظلم فجأة، وهناك يقف رجل بشمعة، يعترض السلالم التي تؤدي إلى أعلى. وجدران القبو تحيط بي، وأنا أعلم أنني لن أخرج أبدًا.

- حلمت بهذا قبل الحدث؟

يسأل سايمون. وهو يكتب بشكل محموم.

- نعم سيدي، ثمّ في مرات عديدة منذ ذلك الحين -تحول صوتها إلى همس- هذا هو السبب في أنهم أرسلوني بعيدًا.

- بعيدًا؟

يحضها سايمون على المتابعة.

- إلى المصحة سيدي. بسبب الأحلام السيئة -وضعت عدة الخياطة جانبًا، وهي تنظر الآن إلى يديها.

- فقط بسبب الأحلام؟

يسأل سايمون بلطف.

- قالوا إنها لم تكن أحلامًا على الاطلاق سيدي. قالوا إنني كنت مستيقظة. لكنني لا أريد التحدث أكثر عن هذا.

36

استيقظت فجر السبت. الديك يصيح على نحو أجشّ صاخبٍ في الخارج، داخل قن الدجاج تحديدًا، كما لو كان أحدهم يضيق الخناق على رقبته، وفكرت: تدرك أنك ستكون في إناء اليخنة قريبًا. قريبًا ستكون جثة. وعلى الرغم من أنني كنت أفكر في الديك، فلن أنكر أنني كنت أفكر في نانسي أيضًا. بدت فكرة قاسية وربما كانت قاسية بالفعل. شعرت برأسي خفيفًا، بأنّني منفصلة عن نفسي، كما لو لم أكن حاضرة سوى بجسدي.

أعلم أنها أفكار غريبة يصعب الإقرار بها سيدي، لكنني لن أكذب بإخفائها، كما يمكنني بسهولة أن أفعل، لم أخبر أحدًا بذلك من قبل. أريد سرد كل شيء مثلما حدث معي، وقد كانت تلك هي الأفكار التي مرت ببالي.

كانت نانسي لا تزال نائمة، وقد حرصت على عدم إزعاجها. لتستغرق في النوم، فبقاؤها في السرير يؤخر السوء المتربص بها وبي على حد سواء. عندما تسللت بحذر من سرير السيد كينير، أنّت ثم انقلبت على جانبها، وتساءلت ما إذا كانت ترى كابوسًا.

في الليلة السابقة، لبست ثوب النوم في غرفتي الخاصة بجانب المطبخ الشتوي قبل أن أذهب إلى الطابق العلوي حاملة شمعتي، لذلك ذهبت إلى هناك ولبست لباس العمل كالمعتاد. كل شيء كان مثل العادة ولكن على غير العادة، وعندما ذهبت لغسل وجهي وتصفيف شعري، لم يكن الوجه في مرآة حوض المطبخ يشبه وجهي إطلاقًا. بدا أكثر استدارة وأبيضَ، بعينين جافلتين محدقتين، فلم أرغب في النظر إليه.

ذهبت إلى المطبخ وفتحت مصاريع النوافذ. كانت الكؤوس والصحون لا تزال على الطاولة من الليلة السابقة، وكانت تبدو وحيدة ومهجورة، كما لو أن كارثة عظيمة ومفاجئة أتت على كل الذين تناولوا طعامًا وشرابًا منها، وها أنا أمر عليها عن طريق الصدفة بعد عدة سنوات، فشعرت بالحزن الشديد. جمعتها وحملتها إلى غرفة غسل الأواني.

عندما عدت رأيت ضوءًا غريبًا في المطبخ، كما لو كانت غشاوة من الفضة تغطّي كل شيء، مثل ندف الثلج غير أنها أنعم، مثل مياه تتدفق برقة على الحجارة المسطحة. ثم تفتحت عيناي وعلمت أن الرب قدم إلى المنزل، وكانت تلك الفضة التي تغطي الجنة. لقد دخل الرب، لأن الرب في كل مكان، لا يمكنك إبقاؤه في الخارج، إنه جزء من كل شيء موجود، فكيف يمكنك بناء جدار أو أربعة أو باب أو نافذة موصدة، لمنعه من المرور، فيما يمر هو كأنه الهواء.

قلت: لماذا أنت هنا؟ لكنه لم يجب، بل استمر في كونه فضة، لذلك خرجت لحلب البقرة. لأن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله في ما يتعلق بالرب، هو المضي قدمًا في ما تنوي فعله على أي حال، لأنك لا تستطيع إيقافه أو الحصول على أي مسوغات منه. يخبرنا الرب أن نفعل هذا ونفعل ذاك، لكن دون توضيح الأسباب.

عندما عدت مع دلاء الحليب رأيت ماكديرموت في المطبخ. ينظف الأحذية.

- أين نانسي؟
- إنها تلبس ملابسها -قلتُ- هل ستقتلها هذا الصباح؟
- نعم، اللعنة عليها، سآخذ الفأس الآن، وأضربها به على رأسها.

وضعت يدي على ذراعه، ونظرت في عينيه. قلتُ:

- بالتأكيد لن تفعل، بالتأكيد لا يمكنك إجبار نفسك على القيام بفعل شرير كهذا.

لكنه لم يفهمني، ظن أنني أسخر منه. ظن أنني أصفه بالجبان، وقال غاضبًا:

- سترين في غضون دقيقة ما يمكنني القيام به.
- أوه... لأجل الرب لا تقتلها في الغرفة، سوف تلطخ الأرضية بالدماء.

كان من السخف قول ذلك، لكن هذا ما تبادر إلى ذهني، وكما تعرف سيدي، كان واجبي تنظيف أرضيات ذلك المنزل، وغرفة نانسي تحوي سجادة. لم أحاول أبدًا إخراج الدم عن سجادة لكنني أخرجته عن أشياء أخرى، ودعني أخبرك أنها

ليست بالمهمة الهينة.

رمقني ماكديرموت بنظرة مزدرية، كما لو كنت بلهاء، ولا بدّ أنني بدوت كبلهاء فعلًا. غادر المنزل، التقط الفأس وأمسكه من الجانب الأقرب لشفرة القطع.

لم أستطع التصرف، فذهبت إلى الحديقة، لجمع بعض الثوم المعمر، إذ طلبت نانسي إعداد العجة للفطور. على أوراق الخس المنغلقة، زحفت الحلزونات صانعة دانتيلها الخاص. جلستُ على ركبتي وشاهدتها، بعيونها الواقعة في أطراف مجاسّها الصغيرة. فيما مددت يدي لالتقاط الثوم المعمر، كان الأمر كما لو أن يدي لا تنتميان إليّ، بل مجرد قشرة أو جلد، تنمو يدٌ أخرى بداخلها.

حاولت الصلاة، لكنّني لم أجد الكلمات، وظننت السبب يعود إلى أنّي تمنيت السوء لنانسي. صحيح أنني تمنيت أن تموت، غير أني لم أتمنّها ميتة حينها. لكن ما حاجتي للصلاة بعد كل شيء، والرب هناك، يحوم فوقنا كما حام ملاك الموت على فرعون، كنت أستطيع الشعور بأنفاسه الباردة، كنت أسمع ضربات أجنحته الداكنة، داخل قلبي. إن الرب في كل مكان -فكرت- فالرب إذًا في المطبخ، والرب في نانسي، والرب في ماكديرموت، وفي يدي ماكديرموت، والرب في الفأس أيضًا. ثم سمعت صوتًا خفيفًا قادمًا من الداخل، كصوت باب ثقيل يوصد، وبعدها لا يمكنني تذكر أي شيء لفترة من الزمن.

- لا شيء حول القبو؟ -يقول سايمون- لا شيء حول مشاهدة ماكديرموت يجر نانسي من شعرها، إلى باب القبو، ويلقي بها على الدرج؟ إذ ذكر ذلك في اعترافك.

تقبض غريس على رأسها بيديها:

- هذا ما أرادوا أن أقوله. أخبرني السيد ماكنزي أنني يجب أن أقول ذلك، لإنقاذ حياتي -كانت ترتجف للحظة- قال إنها ليست كذبة، فهذا ما حدث، سواء استطعت تذكره أم لا.

- هل نزعت المنديل عن رقبتك لتعطيه جيمس ماكديرموت؟ -يبدو سايمون كمحامٍ في محكمة، أكثر ممّا يرغب، لكنه يواصل الضغط- ذلك

الذي استخدم في خنق نانسي المسكينة؟

- لقد كان لي. أعلم ذلك. لا أتذكر شيئًا عن إعطائي إياه.
- ولا شيء عن نزولك القبو؟ -يقول سايمون- ولا عن مساعدته لقتلها؟ ولا الرغبة في سرقة الأقراط الذهبية عن الجثة، كما قال؟

تغطي غريس عينيها بإحدى يديها، لبعض الوقت:

- إنها مدة مغيبة بالنسبة لي سيدي. وعلى أي حال، فلم تؤخذ أي أقراط من الذهب. لن أدعي أنّني لم أفكر في ذلك لاحقًا، عندما كنا نحزم أمتعتنا. لكن التفكير شيء والفعل شيء آخر. لو حوكم الجميع على أفكارهم، لشنقوا جميعًا.

على سايمون الاعتراف أن هذا منصف. يجرب خطًا مختلفًا:

- شهد الجزار جيفرسون على أنه تحدث معك ذلك الصباح.
- أعلم أنه فعل سيدي، لكنني لا أستطيع تذكر ذلك.
- قال إنه دهش، فلستِ المسؤولة عن الطلبات عادة بل نانسي، وكان أكثر دهشة عندما قلت إنكم لا تحتاجون لحومًا طازجة لذلك الأسبوع. وجد الأمر غريبًا.
- لو كنت طبيعية سيدي، وأتصرف بكامل وعيي، لفطنت إلى طلب اللحوم كالمعتاد. كان يمكن أن يكون ذلك أقل إثارة للريبة.

على سايمون أن يتفق مع ذلك.

- حسنًا -يقول- ما هو الشيء التالي الذي تتذكرينه؟
- وجدت نفسي واقفة عند مقدمة المنزل سيدي، حيث الزهور. أشعر بالدوار، وأعاني الصداع. فكرت في حاجتي إلى فتح النافذة، لكن ذلك حمق، إذ إنّني في الخارج. لا بدّ أن يكون ذلك حوالي الساعة الثالثة. كان السيد كينير يقترب من الممر الداخلي، بعربته الخفيفة، وهي بطلائها الجديد باللونين الأصفر والأخضر. خرج ماكديرموت من الخلف، وتساعدنا في إنزال الأمتعة، وقد رمقني ماكديرموت بنظرة تهديد. بعدها دخل السيد كينير إلى المنزل، أدركتُ أنه يبحث عن نانسي. خطر ببالي: إنك لن تجدها هناك،

عليك أن تنظر في الأسفل، إنها الآن جثة. وأصبحتُ مرعوبة للغاية.

ثم قال ماكديرموت: «أعرف أنك ستشين، وإذا فعلتِ، فإن حياتك لن تساوي شيئًا معي.» أربكني هذا. «ماذا فعلت؟» قلت. «أنت تعرفين جيدًا.» قال ضاحكًا. لم أكن أعرف، لكنّني الآن أشك في حدوث الأسوأ. ثم جعلني أعد بالمساعدة في قتل السيد كينير، وهو ما وعدت به. لأنّني إذا لم أفعل -كما رأيت في عينيه- فإنه سيقتلني أنا أيضًا. ثم أخذ الحصان والعربة إلى الإصطبل.

ذهبت إلى المطبخ لأداء واجباتي وكأن شيئًا لم يحدث. جاء السيد كينير، وسأل أين نانسي؟ قلت إنها ذهبت إلى البلدة في العربة العمومية. قال إن ذلك غريب، لأنه مر بها على الطريق ولم يرَ نانسي. سألته ما إذا كان يرغب في تناول شيء ما، فقال نعم. وسأل إن كان جيفرسون جاء باللحم الطازج، وقلت لا. فتعجب، ثم قال إنه يريد بعض الشاي والخبز المحمص والبيض.

وهكذا أعددته، وقدمته له في غرفة الطعام، حيث كان جالسًا ينتظر، ويقرأ كتابًا أحضره معه من المدينة. إنه أحدث كتب غودي للسيدات، والذي كانت نانسي المسكينة تحب اقتناءه، للاطّلاع على الأزياء. وبالرغم من أن السيد كينير كان يتظاهر دومًا بأنّها مجرد أزياء مبهرجة للسيدات، إلا أنّه عادةً ما كان يلقي نظرة خاطفة عليها عندما لا تكون نانسي في الجوار، فهو يحوي أشياء أخرى بخلاف الفساتين. كان يحب الاطّلاع على الطرازات الجديدة للملابس الداخلية، قراءة المقالات حول الكيفية التي يجب أن تتصرف وفقها السيدة، والتي غالبًا ما أقبض عليه يقهقه بسببها في المناسبات التي أحضر فيها قهوته.

عدت إلى المطبخ، وجدت ماكديرموت هناك، قال: أعتقد أنني سأذهب وأقتله الآن. لكني قلت: يا إلهي ماكديرموت، إن ذلك سابق لأوانه، انتظر حتى يحل الظلام.

ثم صعد السيد كينير إلى الطابق العلوي وأخذ غفوة، مرتديًا كامل ملابسه، وهكذا كان ماكديرموت مضطرًا للانتظار، سواء أراد ذلك أم لا. فحتى

هو، ما كان ليطلق النار على رجل نائم. التصق ماكديرموت بي طوال الظهيرة، مثل غراء، لأنه على يقين من أنني سأهرب وأشي بكل شيء.

كان يحمل البندقية، وظل يعبث بها. كانت بندقية مزدوجة المواسير، يحتفظ السيد كينير بها لاصطياد البط، لكنها لم تكن محمّلة بطلقات البط. قال إن لديه رصاصتين: عثر على إحداهما، وصنع الأخرى من قطعة رصاص وجدها. فيما حصل على البارود من صديقه جون هارفي في الشارع المقابل، على الرغم من أن هانا أبتون، العاهرة ذات الوجه القاسي -وهي المرأة التي تعيش مع هارفي- منعته من أخذه. لكنه حصل عليه على أي حال، وأخذ يلعنها. وبحلول هذا الوقت كان متحمسًا جدًا ومتوترًا، ومتبجحًا أيضًا، وفخورًا بجرأته. كان يشتم كثيرًا، لكنني لم أعترض، فقد كنت خائفة.

نزل السيد كينير حوالي الساعة السابعة، وتناول شايه، وكان مهمومًا بموضوع نانسي. «الآن سأفعلها.» قال ماكديرموت، يجب أن تذهبي هناك وتطلبي منه القدوم إلى المطبخ، حتى أتمكن من إطلاق النار عليه على الأرض الحجرية. لكني رفضت.

وقال إنّه -في هذه الحالة- سيفعل ذلك بنفسه. كان سيجبره على القدوم بإخباره أن عنان سرجه الجديد قد قطع.

لم أرغب أن تكون لي أي علاقة بكل ذلك. أخذت صينية الشاي عبر الفناء إلى المطبخ الخلفي، إذ كان الموقد مشتعلًا، استعدادًا للغسيل. وبينما كنت أضع الصينية، سمعت طلقة بندقية.

ركضت إلى المطبخ الأمامي ورأيت السيد كينير يرقد ميتًا على الأرض، وماكديرموت يقف فوقه. كانت البندقية على الأرض. حاولت الجري إلى الخارج، لكنه صاح وشتم، وقال إن علي فتح باب القبو الذي يقع في القاعة. قلت: «لن أفعل.»، قال: «يجب عليك ذلك.» لذا فعلت، وألقى ماكديرموت الجثة على الدرج.

كنت خائفة لدرجة أنني هربت عبر الباب الأمامي إلى المرج، وما إنْ

تجاوزت المضخة نحو المطبخ الخلفي، حتى خرج ماكديرموت من باب المطبخ الأمامي حاملًا البندقية، وأطلق النار، فسقطت على الأرض مغمًى علي. وهذا كل ما أتذكره سيدي، حتى وقت متأخر من ذلك المساء.

- شهد جيمي والش بأنه دخل الفناء حوالي الساعة الثامنة، ولا بدّ أن يكون ذلك بعد أن أغمي عليك مباشرة. وقال إن ماكديرموت كان لا يزال يحمل السلاح في يده، وادّعى أنه يصطاد الطيور.

- أعلم ذلك سيدي.

- قال إنك كنتِ تقفين بجانب المضخة. قال إنك أخبرته أن السيد كينير لم يعد بعد، وأن نانسي قد ذهبت لزيارة آل رايتز.

- لا يمكنني تفسير ذلك سيدي.

- قال إنك كنت بخير، وفي حالة معنوية جيدة. قال إنك كنت تلبسين ملابس أفضل من المعتاد، وكانت جواربك بيضاء. في إشارة ضمنية إلى أنها كانت لنانسي.

- كنت في قاعة المحكمة سيدي. سمعت ما قاله، على الرغم من أنها كانت جواربي. لكنه كان قد نسي كل عواطف الحب السابقة تجاهي، وكل ما رغب فيه هو إلحاق الضرر بي، وشنقي إن أمكن. لا يوجد ما يمكنني فعله حيال أقوال الآخرين.

كانت نبرتها واهنة لدرجة أن سايمون شعر بالشفقة الرقيقة تجاهها. شعر بدافع لأخذها بين ذراعيه، وتهدئتها، وتمسيد شعرها.

- حسنًا غريس -يقول برشاقة- أستطيع أن أرى أنك متعبة. سنواصل قصتك غدًا.

- نعم سيدي. آمل أن تكون لدي القوة.

- عاجلًا أم آجلًا سنصل إلى قاعها.

- أتمنى ذلك سيدي -تقول بهدوء- ستشكل معرفة الحقيقة الكاملة حول الماضي، مصدر ارتياح كبير لي.

اتخذت أوراق الأشجار مظهر أغسطس الخالي من البريق، المغبر، والمترهل. على الرغم من أن أغسطس لم يحل بعد. يسير سايمون ببطء عبر حرارة الظهيرة الذابلة. يحمل معه الشمعدان الفضي. لم يخطر بباله أن يستخدمه. إنه يجر ذراعه. في الواقع، كلا ذراعيه يحملان توترًا غريبًا، كما لو كان يسحب بقوة حبلًا ثقيلًا. ماذا كان يتوقع؟ الذكريات المفقودة، تلك الساعات القليلة الحاسمة؟ حسنًا، لم يحصل عليها.

يجد نفسه يتذكر أمسية طويلة، عندما كان لا يزال طالبًا في جامعة هارفارد. ذهب إلى نيويورك في رحلة قصيرة مع والده، الذي كان لا يزال ثريًا آنذاك وعلى قيد الحياة. ذهبوا إلى الأوبرا. كان عرض Bellini's Sonnambula: قروية صغيرة طاهرة تدعى أمينة Amina، وجدت نائمة في غرفة نوم أحد الكونتات، بعد أن سارت إليها دون وعي. اتهمها خطيبها والقرويون بالعهر، على الرغم من احتجاج الكونت، الذي استند إلى معرفته العلمية المتفوقة، ولكن عندما شُوهدت أمينة وهي تمشي أثناء نومها عبر جسر محفوف بالمخاطر، ينهار خلفها ساقطًا في مجرًى متدفّق، ثبتت براءتها دون أدنى شك، فاستيقظت لتستعيد السعادة.

إنها رمز للروح، كما أشار معلمه اللاتيني بإفراط، كون لفظة أمينة تجانس لفظة أنيما[29] جناسًا ناقصًا. لكن لماذا؟ سأل سايمون نفسه، هل تصور الروح على أنها غير واعية؟ والأكثر إثارة للفضول: من كان يمشي، بينما أمينة نائمة؟ إنه سؤال يحمل ضمنيًا تبعات أكثر إلحاحًا بالنسبة له الآن.

هل كانت غريس غير واعية خلال الفترة التي زعمت فيها ذلك، أم أنها كانت مستيقظة بالكامل، كما شهد جيمي والش؟ كم من محتوى قصتها يمكن أن يسمح لنفسه أن يصدق؟ هل يحتاج لتفسير الأمور بشك، وعدم أخذها بحرفيّتها. هل هي حالة حقيقية من فقدان الذاكرة، من نوع السرنمة، أم أنه هو ضحية لمزاح ماكر؟ إنه يحذر نفسه من الحكم المطلق: لماذا لا يتوقع منها أن تأتي

29 لفظة تشير إلى الجانب الأنثوي في الذكور. (م).

بشيء سوى الحقيقة البحتة والكاملة وغير المشكوك فيها؟ أي شخص في مكانها سينتقي ويعيد الترتيب، ليعطي انطباعًا إيجابيًا. يصب في صالحه، إن الكثير ممّا حكته يتوافق مع اعترافها المطبوع، لكن هل يصب ذلك فعلًا في صالحها؟ ربما، فهما ينسجمان جيدًا. ويتساءل ما إذا كانت قد راجعت النص الذي يستخدمه، لإقناعه بصورة أفضل.

مكمن الصعوبة هو أنه يريد أن يقتنع. يريدها أن تكون «أمينة.» يريد لها البراءة.

يجب أن يكون حذرًا، يقول لنفسه. يجب أن يتراجع. وأن ينظر بموضوعية، لما كان يجري بينهما، بغض النظر عن قلقها الواضح تجاه جرائم القتل وإذعانها السطحي، فما كان يحدث بينهما، كان معركة إرادة.[30] بعيدًا عن ذلك، هي لم ترفض الحديث. لقد أخبرته الكثير، لكن فقط ما اختارت أن تخبره. ما يريده هو الأشياء التي ترفض أن تدلي بها، ما اختارت ألّا تعرفه ربما. المعرفة بالذنب، أو البراءة: كلاهما يمكن إخفاؤهما. لكنه سوف ينقب عنه داخلها. إن الخطاف في فمها الآن، لكن هل يستطيع سحب المعرفة منها؟ إلى أعلى، إلى خارج الهاوية، إلى النور. من عمق البحر الأزرق.

يتساءل لماذا يفكر في مثل هذه المصطلحات القاسية. إنه يعنيها كثيرًا، يقول لنفسه إنه يفكر فيها على أنها عملية إنقاذ، بالتأكيد يفعل.

لكن هل ترى فيه منقذًا؟ إذا كان لديها أي شيء تخفيه، فقد ترغب في البقاء في الماء، في العتمة، في مجالها الملائم. ربما كانت تخشى ألّا تعود قادرة على التنفس.

يحث سايمون نفسه على أن يتوقف عن كونه متطرفًا ومسرحيًا. قد تكون غريس فاقدة الذاكرة حقًا. أو ببساطة عكس ذلك، ببساطة: مذنبة.

يمكن بالطبع أن تكون مجنونة، مع خداع مذهل مقبول لمهووس متمرس. بعض ذكرياتها، لا سيما تلك المتعلقة بيوم القتل، تقترح تعصبًا من الصنف

---

30 مصطلح يشير إلى الرغبة في الفوز بالجدال دون الإتيان بحقائق جديدة، بل بالاعتماد على استسلام الخصم. (م).

الديني. ومع ذلك، يمكن بسهولة تفسير هذه الذكريات نفسها على أنها خرافات ساذجة ومخاوف روح بسيطة. ما يريده هو اليقين، بطريقة أو بأخرى، وهذا بالضبط ما تمنعه عنه.

ربما كانت أساليبه هي المعيبة. المؤكد أن أسلوبه في الاقتراح لم يكن ذا نفع: فالخضروات كانت فشلًا ذريعًا. ربما كانت أولية وسطحية للغاية، وسهلة الاستيعاب أيضًا، ربما كان ينبغي استخدام شيء أكثر تطرفًا وأعنف. ربما ينبغي عليه أن يشجع جيروم ديبونت في تجربته العصبية، تجربة التنويم، وأن يرتب لحضورها بنفسه، يمكنه حتى اختيار الأسئلة. إنه مرتاب من الطريقة. ومع ذلك، قد ينبثق شيء جديد، قد يُكتشَف شيء لم يتمكن هو نفسه من اكتشافه حتى الآن. الأمر يستحق المحاولة على الأقل.

يصل إلى المنزل، ويتحسس جيبه بحثًا عن المفتاح، لكن دورا تفتح الباب له. إنه يجدها مثيرة للاشمئزاز: امرأة خنزيرية، وتعرق بشكل ظاهر في هذا الطقس، لا يُفترض السماح بالتعرق في الأماكن العامة. إنها تعد قدحًا في جنس النساء بأسره. لعب دورًا أساسيًا في إعادتها إلى العمل هنا، عمليًا لقد رشاها للقيام بذلك. ولكن هذا لا يعني أنه يحبها أكثر ممّا كان يفعل في أي وقت مضى. ولا هي تحبه، بالاعتماد على النظرة الحقود التي تلقيها عليه، من عيونها الحمراء الصغيرة.

«حضرتها تريد أن تراك.» تقول مشيرة برأسها نحو الجزء الخلفي من المنزل. أخلاقها لم تتغير.

كانت السيدة همفري تعارض بشدة عودة دورا، إذ لا تكاد تتحمل وجودها في نفس الغرفة، وهو أمر غير مستغرب. ومع ذلك، فقد أشار سايمون إلى أنه لا يمكن توقع أن يعمل في مكان يفتقر للترتيب والتنظيم، وعلى شخص ما أن يقوم بأعمال المنزل، وبما أنه لم يكن هناك أي شخص آخر في هذه اللحظة، فإن دورا ستفعل. وما دام يُدفع لها -يقول- فإنها ستكون طيّعة بما فيه الكفاية، على الرغم من أن اللباقة غير متوقعة، ما ثبت أنه صحيح في النهاية.

- أين هي؟

يقول سايمون. ما كان يجب أن يقول (هي)، إذ بدت حميمية جدًا، كان يجب أن يقول (السيدة همفري).

- أتوقع أنها مستلقية على الأريكة -تقول دورا بازدراء- كالعادة.

لكن عندما يدخل سايمون الصالون -لا يزال خاليًا من الأثاث بشكل مخيف، على الرغم من أن بعض القطع الأصلية قد عادت إلى الظهور مرة أخرى بصورةٍ غامضةٍ- كانت السيدة همفري واقفة بجوار الموقد، فيما وضعت يدها بكياسة على رف الموقد الأبيض. اليد تحمل منديل دانتيل. إنه يشم رائحة البنفسج.

- دكتور جوردن -تقول مغيرة وضعيتها- ظننت أنك قد ترغب في تناول العشاء معي الليلة كتعويض رديء عن كل الجهود التي بذلتها نيابة عني. لا أحب أن أقصر في إظهار الامتنان. أعدت دورا القليل من الدجاج البارد. إنها تلفظ كل كلمة بعناية، كما لو أنها خطبة تحفظها.

يرفض سايمون، بأقصى قدر من التهذيب. يشكرها كثيرًا، لكنه مرتبط هذا المساء. وهذا عذرٌ على شفا أن يكون صحيحًا، إذ أبدى نصف موافقة على دعوة الآنسة ليديا، للانضمام إلى حفلة تضمّ مجموعة من الشباب في رحلة تجديف عبر الميناء الداخلي.

تقبل السيدة همفري رفضه بابتسامة كريمة، وتقول إنه يمكنهم فعل ذلك في يوم آخر. شيء ما في الطريقة التي ينتصب بها جسدها -هذا، بالإضافة إلى بطئها في الحديث- يصعقه بغرابته. هل كانت المرأة تشرب؟ لعينيها تحديق ثابت، ويداها ترتجفان برفق.

حالما وصل الطابق العلوي، فتح حقيبته الجلدية. كل شيء يبدو منظّمًا. زجاجاته الثلاث من المستحضر الأفيوني: لم تكن أي منها مفرّغة أكثر ممّا يجب. ينزع السدادة، ويذوق محتوياتها: إحداها ماء نقي تقريبًا. لقد كانت تغير على مؤنته، يعلم الرب وحده منذ متى. يكتسب صداع بعد الظهر أهمية مختلفة الآن. كان يجب أن يعرف: مع زوج من هذا القبيل كانت ملزمة للبحث عن عكاز من نوع ما. عندما كانت تملك المال، كانت تشتريه بلا شك، لكن النقد كان شحيحًا،

وكان هو مهملًا. توجب عليه أن يوصد غرفته، لكن فات الأوان الآن على أن يبدأ بفعل ذلك.

بالطبع، لا يمكن أن يذكر الأمر لها. إنها امرأة حساسة. إن اتهامها بالسرقة لن يكون وحشيًا فحسب بل فاحشًا. إنّه لا يزال مأخوذًا بالأمر.

يذهب سايمون في رحلة التجديف. الليل دافئ وهادئ، وهناك ضوء قمر. يشرب القليل من الشمبانيا -هناك القليل فقط- ويجلس في الزورق الذي تجلس فيه ليديا، ويغازلها على نحو فاتر. إنها على الأقل طبيعية وسليمة وجميلة أيضًا. ربما يجدر به أن يعرض عليها الزواج. يعتقد أنها قد تقبل. ينقلها إلى بيته بالعربة لتقابل أمه، ويسلمها لها، ويسمح لهما بالعمل معًا من أجل رفاهه.

ستكون إحدى الطرق لتقرير مصيره أو إرضاء ضميره، أو إخراج نفسه من طريق الأذى. لكنه لن يفعل ذلك. إنه ليس على هذا القدر من الكسل والتعب، ليس بعد.

X

سيّدة البحيرة

ثم شرعنا في تعبئة جميع الأشياء الثمينة التي استطعنا إيجادها؛ نزل كلانا إلى القبو. السيد كينير مستلقٍ على ظهره في قبو النبيذ. حملت الشمعة أخذ ماكديرموت المفاتيح وبعض المال من جيوبه. لم نتحدث عن نانسي. لم أرها، لكني أدركت أنها كانت في القبو، وحوالي الساعة الحادية عشرة، أسرج ماكديرموت الحصان. وضعنا الصناديق في العربة واتجهنا إلى تورنتو. قال إنه سيذهب إلى الولايات المتحدة وسيتزوجني. لقد قبلت الذهاب. وصلنا إلى تورونتو، إلى فندق سيتي، حوالي الساعة الخامسة. أستيقظ الناس، تناولنا الإفطار هناك. فتحت صندوق نانسي ولبست بعض أغراضها، وغادرنا في القارب في الساعة الثامنة، ووصلنا إلى لويستون حوالي الساعة الثالثة. ذهب إلى الحانة. في المساء تناولنا العشاء على الطاولة العامة، وذهبت إلى الفراش: أنا في غرفة وماكديرموت في غرفة أخرى. قبل أن أخلد إلى النوم، أخبرت ماكديرموت بأنني سأتوقف في لويستون، ولن أذهب إلى أبعد من ذلك. قال إنه سيجبرني على الذهاب معه، وحوالي الساعة الخامسة صباحًا، جاء المأمور الأعلى السيد كينغزميل، وألقى القبض علينا، وأعادونا إلى تورنتو.

- اعتراف غريس ماركس، ستار آند ترانسكريبت، تورنتو، نوفمبر 1843.

قابل بفعل صدفة سماوية خاطفة،
الخادمة المقدرة.
يد خفية، تكشف له عن الفتنة
التي لا يستطيع الآخرون فهمها.
تنمو جدارته في حضورها،
لتكافئ الوعد في عينيها،
وحول خطاها السعيدة، يهب هواء الجنة الحقيقي...

- كوفنتري باتمور، الملاك في البيت، 1854.

أخبرني ماكديرموت لاحقًا أنه بعد إطلاق النار، وفقداني الوعي، ضخ دلوًا من الماء البارد وسكبه عليّ، وأعطاني بعض الماء بالنعناع الحار لأشربه، فانتعشت على الفور، وصرت بحالة جيدة كأنني عدت جديدة، ومبتهجة إلى حد ما، وأشعل النار وطهى العشاء لنفسه: لحم خنزير مع البيض، متبوع بالشاي، وجرعة من الويسكي لتثبيتنا. أكلناه معًا بودّ، وتقارعنا الكؤوس، وشربنا نخب نجاح مشروعنا. لكنني لا أتذكر أيًا من هذا على الإطلاق. لا أتخيل أن باستطاعتي التصرف على هذا النحو الخالي من العاطفة، بينما يرقد السيد كينير ميتًا في القبو، ناهيك عن نانسي، التي لا شكّ ميتة هي الأخرى، مع أنني لا أعلم على وجه اليقين ما حل بها. لكن ماكديرموت كاذب عظيم.

لا بد أنني فقدت الوعي لوقت طويل، فقد كان الضوء يتلاشى عندما استيقظت. وجدتني فوق سريري في حجرة النوم، مستلقية على ظهري، غطاء رأسي مخلوع، شعري المبعثر منسدل حتى كتفي، وكان رطبًا أيضًا، كما هو الجزء العلوي من ثوبي، لا بدّ أنه بسبب الماء الذي سكبه جيمس عليّ. وإذًا فذلك الجزء ممّا حكاه -على الأقل- كان صحيحًا. أستلقي على السرير، أحاول تذكر ما حدث، وكيف دخلت إلى الغرفة. لا بدّ أن جيمس حملني، فالباب مفتوح، ولو أنني مشيت بنفسي، لكنت أغلقته خلفي.

أردتُ النهوض وإغلاق الباب بالمزلاج، لكن رأسي الموجع خذلني، وكذلك الغرفة بسخونتها الشديدة وافتقارها للتهوية، فغفوت مرة أخرى. لا بدّ أنني كنت أتقلب في الفراش بلا هوادة، فحين استيقظت وجدتُ شراشف السرير مجعدة وقد سقط الغطاء على الأرض، وعلى الرغم من الحرارة كنت مغطاة بعرق بارد. استيقظت فجأة وجلست مصعوقة باعتدال هذه المرة، إذ رأيت رجلًا واقفًا في الغرفة ينظر إلي. إنه جيمس ماكديرموت، ظننت أنه جاء ليخنقني وأنا نائمة، بعد أن قتل الآخرين. كان صوتي قد جف في حلقي من الهلع، ولم أقوَ على نطق كلمة واحدة.

لكنه عوضًا عن ذلك سأل بشيء من اللطف ما إذا كنت أشعر بالتحسن الآن بعد أن ارتحت. فاستعدت صوتي مرة أخرى، وأخبرته أنني أفضل حالًا. كنت أعرف أنه من الخطأ إظهار الخوف، وفقدان السيطرة على النفس. لأنه سيعتقد في هذه الحالة، أنه لا يمكن الوثوق بي، والاعتماد عليّ للحفاظ على أعصابي، وسيقلق من أن أنهار وأبدأ بالبكاء أو الصراخ في حضور الآخرين، فأفضي بكل شيء. لهذا تحديدًا أطلق النار عليّ، فإن كان سيتخلص مني في النهاية، فليفعل ذلك في غمضة عين وفي غياب الشهود.

ثم جلس على جانب السرير، وقال إن الوقت حان لأفي بالتزامي. سألته أي التزام، وقال إنّني أعرف جيدًا الوعد الذي قطعتهُ لقاء قتل نانسي.

لم أتذكر أي شيء من هذا القبيل. ولكن بما أنني كنت مقتنعة الآن أنه رجل مجنون، اعتقدت أنه حوَّرَ شيئًا قلته بالفعل، شيئًا بريئًا، أو أنه أخذ بجدية كلامًا عاديًا يمكن أن يتلفظ به أي شخص، كقولي إنني أتمناها ميتة، وإنني سأفعل أي شيء مقابل ذلك. وكانت نانسي شديدة القسوة معي من وقت لآخر. لكن هذا ما يقوله الخدم دائمًا، وراء مسامع سادتهم، فإن لم تكن قادرًا على الرد عليهم، فيجب التنفيس عن مشاعرك بطريقة أخرى.

لكن ماكديرموت حور الأمر ليعني شيئًا لم أكن أقصده أبدًا، والآن ها هو يجرني لصفقة لم أعقدها. كان جادًا، بحيث وضع يده على كتفي، ودفعني إلى الوراء على السرير. فيما رفع تنورتي باليد الأخرى. واستطعت أن أخمن من رائحة فمه أنه كان عاكفًا على ويسكي السيد كينير، على الكثير منه.

أدركتُ أن طريقة النجاة الوحيدة تكمن في المسايرة. أوه لا -قلت ضاحكة- ليس على هذا السرير، إنه ضيق جدًا وغير مريح على الإطلاق لشخصين. دعنا نذهب إلى سرير آخر.

دهشت لأنه وجدها فكرة جيدة، وقال إنه سيُسرُ بالنوم على سرير السيد كينير، السرير الذي كانت تمثل فيه نانسي غالبًا دور العاهرة. وفكرت أنني بمجرد أن أعطيه ما يطلب، سيعتبرني عاهرة أيضًا، وستكون حياتي رخيصة لديه،

وسيقتلني بالفأس على الأرجح ويرميني إلى القبو، فكثيرًا ما قال إن العاهرات لا يصلحن سوى لمسح أحذيتك القذرة، فيما ترفس أجسادهن النجسة. لذلك خططت للمماطلة، وتأجيل الأمر قدر المستطاع.

سحبني لأقف على قدمي، وأضأنا الشمعة التي كانت في المطبخ، وصعدنا السلالم. ثم ذهبنا إلى غرفة السيد كينير، التي كانت مرتبة، وسريرها منسق بأناقة، إذ رتبته بنفسي ذلك الصباح. رمى الأغطية، وسحبني إلى جواره. وقال: القش لا يليق بأسرّة النبلاء، لا يليق بهم سوى ريش الإوز. لا عجب في أن نانسي أحبت قضاء الكثير من الوقت في هذا السرير. وللحظة بدا متأثرًا، ليس بسبب ما فعله، بل لفخامة السرير الذي كان عليه. لكن بعدها انهال عليّ بالقبل، وقال: والآن يا فتاتي، حان الوقت، وبدأ يحل أزرار فستاني. وتذكرت أن أجرة الخطيئة هي الموت، وشعرت أنه سيغمى علي. لكنني عرفت أنني إذا فقدت الوعي، فستتساوى حياتي بموتي، نظرًا إلى الحالة التي هو فيها.

انفجرت بالبكاء، وقلت: لا، لا أستطيع، ليس هنا، ليس في سرير رجل ميت، ليس هذا بالفعل الصائب، خصوصًا مع وجوده في القبو متصلبًا ومتيبسًا. وبدأت أنشج وأبكي.

انزعج جدًا، وهدّدني بالصفع إذا لم أتوقف فورًا؛ لكنه لم يفعل. فما قلته كان قد أفتر هياجه. كما يقولون في الكتب، أو كما تقول ماري ويتني: فقد القضيب تذكية ناره. ففي تلك اللحظة -وإن كان السيد كينير ميتًا- إلا أنه الرجل الأصلب بينهما.

سحبني من السرير، وجذبني بعنف من ذراع واحدة، وكنت لا أزال أنتحب وأعول، بأقصى ما استطعت.

- إذا كنت لا تحبين هذا السرير -قال- فسأفعلها على سرير نانسي، لأنك بغي مثلها.

استطعت أن أرى مآل الأمور، وظننت أن نهايتي قد حانت. وتوقعت أن أرمى في أي لحظة وأجر من شعري.

دفع الباب، أدخلني الغرفة، التي كانت في حالة من الفوضى، تمامًا كما تركتها نانسي، لأنني لم أرتّبها، إذ لم يكن هناك داعٍ لهذا، وما من وقت -في الواقع- للقيام بذلك. لكن عندما سحب الغطاء، كان الشرشف مبقعًا بدماء داكنة، وكان هناك كتاب ملقًى على السرير يغطيه الدم أيضًا. ما دفعني لإطلاق صرخة رعب. لكن ماكديرموت توقف، ونظر إليه، وقال: لقد نسيت أمره.

سألته ما هذا بحق الرب، وما الذي يفعله هناك. قال إنه الكتاب الذي كان يقرؤه السيد كينير، وقد حمله معه إلى المطبخ، حيث أطلق النار عليه. وفي سقوطه وضع يديه على صدره، حاملًا الكتاب، وعليه فقد تلقى أولى دفقات الدم. وكان ماكديرموت قد ألقى به على سرير نانسي، لإبعاده عن الأنظار، وأيضًا لأنه ينتمي إلى هناك، فقد جُلب من المدينة لأجلها، وأيضًا لأن دم كينير في عنق نانسي، لأنها لو لم تكن عاهرة وسليطة لعينة، لكان كل شيء مختلفًا، وما كان السيد كينير ليموت. وإذًا فهذه علامة. وعند ذلك رسم إشارة الصليب بيديه، وهي المرة الوحيدة التي رأيته فيها يعبر عن كاثوليكيته.

حسنًا، ظننت أنه جُنّ كموظ في الحر، كما اعتادت ماري ويتني أن تقول، لكن مشهد الكتاب أيقظه، وأخرج الأفعال التي نواها من رأسه. قربت الشمعة، وأدرت الكتاب بإبهامي، وكان بالفعل كتاب غودي للسيدات الذي كان السيد كينير يستمتع بقراءته في وقت سابق من اليوم. وكدت مع هذه الذكرى أن أنفجر بالبكاء صدقًا.

لكن لم يكن هناك أي مؤشر حول المدة التي سيستمر فيها مزاج ماكديرموت الحالي. فقلت: هذا سيربكهم، عندما يجدونه، لن يستطيعوا تخمين كيف وصل إلى هنا. وقال نعم، إنه سيعطيهم شيئًا ليتحيروا بشأنه. وضحك بطريقة جوفاء.

ثم قلت: من الأفضل لنا أن نسرع، قبل أن يأتي أحدهم بينما نحن هنا، لا بدّ أن نستعجل، ونحزم الأشياء. لأننا سنضطر للسفر في الليل، وإلا شُوهدنا على الطريق، نركب عربة السيد كينير، وسيدركون أن خطبًا ما قد حصل. سوف نستغرق وقتًا طويلًا للوصول إلى تورونتو، في الظلام، وسيكون الحصان تشارلي

متعبًا أيضًا، بعد أن قام برحلة أخرى اليوم.

وافق ماكديرموت، بينما كان نصف نائم، وشرعنا في البحث عبر المنزل، وحزم الأغراض. لم أرغب في أخذ الكثير، فقط الأشياء خفيفة الوزن وعالية القيمة، مثل صندوق شمة السيد كينير الذهبي، ومنظاره، وبوصلة الجيب، وسكين الجيب الذهبية، وأي أموال نجدها. لكن ماكديرموت قال: ما دمنا قد بدأنا الأمر فلننهه، فإنك تشنق مقابل الماعز كما تشنق مقابل الخروف. وفي النهاية نهبنا المنزل، وأخذنا صحون الفضة، والشمعدانات، والملاعق والشوك، وكل شيء، حتى تلك التي عليها شعار عائلة كينير، فقد قال ماكديرموت إن بالإمكان صهرها.

نظرت إلى صندوق نانسي، الذي يحوي فساتينها. وفكرت، ليس هناك داعٍ لأن تذهب هدرًا، نانسي المسكينة لم تعد تحتاجها. لذا أخذت الصندوق وكل ما يحتويه، وأغراضها الشتوية أيضًا؛ لكنّني تركت الثوب الذي كانت تخيطه، بدا من الأفضل تركه قريبًا منها، إذ لم يكن جاهزًا بعد، وسمعت أن الموتى يعودون لإكمال أعمالهم العالقة، ولم أرغب في أن تفتقده، وتلاحقني لأجله. كنت على يقين حينها أنها ميتة.

رتبت المنزل قبل مغادرتي، وغسلت الأطباق، أطباق العشاء، وغيرها. وأعدت ترتيب سرير السيد كينير، وسحبت الغطاء على سرير نانسي، على الرغم من أنني تركت الكتاب عليه، إذ لم أشأ أن يعلق دم السيد كينير بيدي، وأفرغت وعاء غرفتها، إذ إنّ في تركه شيئًا من عدم اللطف وعدم الاحترام. في الوقت نفسه كان ماكديرموت يسرّج تشارلي، ويحمّل الصناديق والحقائب على العربة، على الرغم من أني وجدته مرة جالسًا في الخارج على عتبة الباب، يحدق بهدوء أمامه. فقلت له أن يتمالك نفسه، ويتصرف كرجل. فآخر شيء قد أرغب فيه هو أن أعلق معه هناك في ذلك المنزل، خاصة إذا كان قد خرج تمامًا عن طوره. وعندما قلت له أن يتصرف كرجل، كان لكلامي أثره، لأنه هز نفسه، ونهض، وقال إنني على حق.

آخر ما فعلته هو خلع الملابس التي لبستها ذلك اليوم. ولبست واحدًا من فساتين نانسي، تحديدًا الفستانَ الفاتحَ الأبيضَ ذا الطباعة الزهرية، الذي كانت

تلبسه يوم قدمت إلى منزل السيد كينير. ولبست تنورتها الداخلية ذات حواف الدانتيل، وتنورتي الداخلية الإضافية النظيفة، وحذاءها الصيفي ذا اللون الفاتح، الذي طالما أعجبت به، على الرغم من أنه لم يناسبني جيدًا. وقبعة القش أيضًا. وأخذت شال الكشمير الخفيف، على الرغم من أنني لا أتوقع احتياجه؛ فالليل دافئ. ووضعت بعض ماء الورد خلف أذنيّ وعلى معصمي، من زجاجة كانت في خزانة ملابسها. وكانت رائحته مريحة نوعًا ما.

ثم ائتزرت بمئزرٍ نظيفٍ، وأذكيت النار في موقد المطبخ الصيفي، الذي كان لا يزال يحوي بعض الجمر، وأحرقت ملابسي. لم تعجبني فكرة لبسها مرة أخرى، لأنها ستذكرني بأشياء أرغب في نسيانها. قد يكون مجرد خيال، غير أنني شممت رائحة لحم ملفوح تخرج منها، وكان الأمر كما لو أنني أحرق جلدي المتسخ غير المرغوب.

جاء ماكديرموت بينما أفعل هذا، وقال إنه مستعد، وسأل لماذا أضيع الوقت. قلت له إنني لم أتمكن من العثور على منديلي الأبيض الكبير، المنديل الذي يحوي زهورًا زرقاء، لأني أحتاجه لحماية رقبتي من الشمس، ونحن نجتاز البحيرة بالعبارة في اليوم التالي. فضحك ضحكةَ مذهولٍ، وقال إنه في الطابق السفلي داخل القبو، يحمي رقبة نانسي من الشمس. كما ينبغي أن أتذكر، نظرًا إلى أنني أنا من سحبه حتى ضاق وربط العقدة. صدمت، لكنّني لم أرغب في مناقضته، فمعارضة المجانين أمر خطير، لذلك لم أقل أكثر من أني سهوت عن الأمر.

خرجنا في حوالي الحادية عشرة ليلًا. ليلة جميلة، يهب فيها ما يكفي من النسيم للتبريد، وقليل من البعوض، بنصف قمر، لم أستطع تذكر ما إذا كان قمرًا متناقصًا أو متزايدًا. وبينما كنا نسير على الطريق الداخلي بين صفوف القيقبِ، وبعد أن تجاوزنا البستان، نظرت خلفي، ورأيت المنزل يقف هادئًا ومضاءً بأشعة القمر، كما لو كان يتوهج بلطف. وفكرت: من تراه يخمن من مظهره ما يكمن في الداخل. ثم تنهدت، وأعددت نفسي للرحلة الطويلة.

سرنا ببطء إلى حد ما، على الرغم من أن تشارلي كان يعرف الطريق. لكنه يعرف أيضًا أن هذا ليس سائقه الحقيقي، وأن هناك شيئًا غير صائب. توقف عدة

مرات، رافضًا المضي قدمًا إلى أن حُثَّ بالسوط. أصبح مستقرًا بعد عدة أميال، حين تجاوزنا الأماكن التي ألفها، ومضينا عابرين الحقول الصامتة والفضية، وأسيجة الثعابين الشبيهة -وهي جنبًا إلى جنب- بالجديلة المعتمة، والخفافيش متذبذبة الظهور، والرقع الكثيفة من الغابات، وفي لحظة ما عبرت بومة طريقنا، شاحبة وناعمة كغثة.

في البداية كنت أخشى أن نلتقي شخصًا نعرفه، ويسألون إلى أين نحن ذاهبون في مثل هذه المهمة السرية، لكن لم يكن هناك أحد. وأصبح جيمس أجرأ وأكثر بهجة، وبدأ الحديث عمّا سنفعله عندما نصل إلى الولايات المتحدة، وكيف أنه سيبيع الأشياء، ويشتري مزرعة صغيرة، ومن ثم سنصبح مستقلين، وإذا لم يتوفر لدينا ما يكفي من المال في البداية، فسنعمل خدمًا، ونوفر أجورنا. ولم أعقّب، لأنني لم أنوِ البقاء معه دقيقة أخرى، حالما نكون آمنين خلف البحيرة ووسط الناس.

لكنه غرق في الصمت بعد فترة، لم يكن هناك سوى صوت حوافر تشارلي على الطريق، وحفيف الرياح الخفيفة. فكرت بالقفز من العربة، والهرب إلى الغابة؛ لكنني أعرف أنني لن أصل بعيدًا، وحتى لو فعلت، فسوف أصبح طعامًا للدببة والذئاب. وفكرت في أنني ذاهبة عبر وادي ظل الموت، كما يذكر في الترنيمة[31] وحاولت ألّا أخشى شرا، ولكنّ الأمر كان صعبًا للغاية، لأن الشر نفسه كان معي على العربة، مثل نوع من الضباب. لذلك حاولت التفكير في شيء آخر. فنظرت إلى السماء، الصافية المليئة بالنجوم، وبدت قريبة حتى أنني أكاد ألمسها، وبالغة الرقة لدرجة أن في مكنتي تمرير يدي عبرها، مثل شبكة عنكبوت متلألئة بقطرات الندى.

لكن بعد أن أطلت النظر، بدأ جزء منها يتجعد، مثل غشاء على حليب حَميم؛ ولكن أقسى وأكثر هشاشة، مرصوفٍ بالحصى، مثل شاطئ مظلم، أو مثل قماش كريب حريري أسود. بعدها لم تكن السماء سوى سطح رقيق، مثل

31 الترنيمة: (Though I walk through the valley of the shadow of death, I will fear no evil)

الورق، وكانت تُسفع، فيما يقبع خلفها سواد بارد، ولم أكن أنظر لا إلى الجنة ولا إلى الجحيم، بل إلى الفراغ المطلق. كان هذا أكثر إثارة للخوف من أي شيء يمكن أن أفكر فيه، وصليت بصمت ليغفر الرب لي خطاياي. ولكن ماذا لو لم يكن هناك إله ليغفر؟ ثم فكرت في أن الظلمة الخارجية، التي تنوح وتصر بأسنانها، هي التي لا رب فيها. وحالما فكرت في هذا، انطبقت السماء ثانية، كما يحدث للماء بعد رميك حجرًا. عادت من جديد سلسة وسليمة، ومليئة بالنجوم.

تواصل العربة تقدمها، فيما ينحدر القمر. أنعس تدريجيًا، يبرد الهواء الليلي، فألف شال الكشمير حولي. لا بد أن رأسي كان يسقط من شدة النعاس، ولا بدّ أنني تركته يسقط على ماكديرموت؛ فآخر ما أتذكره إحساسي به يُحكم وضع الشال بحنان حول كتفي.

بعدها وجدت نفسي ملقاةً على الأرض، فوق الأعشاب بجانب الطريق، يمسك بي شيء ثقيل محاولًا تثبيتي، ويد تتلمس سبيلها تحت تنورتي الداخلية. بدأت المقاومة والصراخ، فإذا بيد تغلق فمي، وجاء صوت جيمس غاضبًا، يسألني ماذا أريد من اختلاقي لكل هذه الضجة، هل أريد أن نُكتشف؟ صمتُ، وسحب يده في المقابل، وقلت له أن يزيح نفسه، ويتركني أنهض فورًا.

ثم أصبح غاضبًا جدًا، لأنه ادعى أنني طلبت منه أن يوقف العربة، حتى أتمكن من النزول وإراحة نفسي على جانب الطريق، وبعد أن فعل، نزعت شالي، ودعوته للانضمام إليّ كمومس مثيرة. لم يمضِ على ذلك أكثر من دقيقتين. وقال إنني سأفي بوعدي فورًا.

كنت أعرف أنني لم أفعل شيئًا كهذا، نظرًا إلى أني كنت نائمة، وهذا ما أخبرته به. وقال إنه لن يسمح بأن يُخدع، وأنني بغي لعينة وشيطانة، وكنت أسوأ من أن تكون الجحيم كافية لي، بما أنني قدته وأغويته، وجعلته يلعن نفسه أيضًا. بدأت في البكاء، إذ شعرت أنني لا أستحق مثل هذه الكلمات القاسية. وقال إن دموع التماسيح لن تفيدني هذه المرة، لأنه اكتفى منها. وواصل سحب تنورتي عنوة، مثبتًا رأسي إلى أسفل عبر الإمساك بشعري. فعضضت أذنه بقوه.

هدرت عاليًا، وظننت أنه سيقتلني في تلك اللحظة وذلك المكان. بدلًا من ذلك تركني ونهض، وساعدني على النهوض أيضًا. وقال إنني فتاة جيدة بعد كل شيء، وسينتظر حتى يتزوجني، إذ إنّ ذلك أفضل، وأكثر ملائمة. ولم يكن هذا أكثر من اختبار لي. ثم قال إنني أملك بالتأكيد أسنانًا جيدة وقوية، لأنني أدميته. والذي بدا أنه يرضيه.

فوجئت بالأمر، لكنني لم أقل شيئًا، إذ كنت لا أزال وحدي معه على طريق فارغ، على بعد أميال عديدة نقطعها معًا.

وهكذا مضينا طوال الليل، إلى أن أصبحت السماء تضيء تدريجيًا، ووصلنا إلى تورنتو بعد أن تجاوزت الخامسة بقليل. قال ماكديرموت إننا سنذهب إلى فندق سيتي، ونوقظ الناس هناك، ونجعلهم يطهون لنا وجبة الإفطار، إذ يكاد يموت جوعًا. قلت إنها ليست بالخطة الجيدة، وعلينا الانتظار حتى نكون محاطين بعدد أكبر من الناس، فلو فعلنا ما يقترحه ستكون ملاحظتنا سهلةً، ومثلُها وتذكُّرنا. وسأل لماذا أجادله دائمًا حول كل شيء، وإن هذا كاف لقيادة رجل عاقل إلى الخبل، وما دام لديه المال في جيبه كأي رجل، فإنّه سيحصل على وجبة الإفطار التي يريد.

من اللافت للنظر -فكرت- كيف لرجل حاز للتو على بعض النقود، بغض النظر عن الطريقة التي حازها بها، أن يعتقد على الفور أنّه جدير بها، وبأي شيء يمكنها شراؤه، متخيلًا نفسه مركز الكون.

فعلنا ما اقترحه. ليس لأجل الفطور -كما أظن الآن- ولكن لأنه أراد أن يريني من هو السيد. تناولنا لحم خنزير مقدد مع البيض. وكان من المذهل مشاهدة كيف يتبختر، ويتعجرف، ويلقي بالأوامر على الخادم، قائلًا إنّ بيضته لم تكن مطهيةً كفاية. لكني بالكاد استطعت تجرع لقمتين. كنت أرتعد خوفًا، بسبب كل الاهتمام الذي ينادي به.

ثم وجدنا أن العبارة التالية إلى الولايات المتحدة لن تغادر حتى الساعة الثامنة، ويتوجب علينا الانتظار في تورنتو ساعتين إضافيتين أو نحو ذلك. شعرت أن ذلك خطير للغاية، فمن المؤكد أن عربة وحصان السيد كينير معروفان لدى بعض سكان المدينة، لأنه كان يأتي باستمرار إلى هنا. لذا جعلت ماكديرموت يترك العربة في أبعد مكان ممكنٍ عن الأنظار، في شارع جانبي صغير، بالرغم من أنه أراد أن يقودها في الأرجاء، ويتباهى بنفسه، لكنني علمت لاحقًا أنها لوحظت على الرغم من احتياطاتي.

لم ألقِ نظرة فاحصة على ماكديرموت إلى أن طلعت الشمس، أدركت تحت

الضوء الساطع أنه ينتعل حذاء السيد كينير. وسألت إن كان انتزعه عن الجثة، بينما كانت مستلقية في القبو، فرد بالإيجاب، القميص أيضًا كان يعود لكينير، أخذه من على رفوف غرفة ملابسه، إذ كان قميصًا جيدًا ذا جودة أفضل من أي قميص امتلكه. كان يفكر في أخذ القميص من على الجثة أيضًا، لكنّه وجده مغطًّى بالدم، فألقى به خلف الباب. شعرت بالرعب وسألت كيف يمكنه فعل شيء كهذا. سأل ما الذي أعنيه، وأنا نفسي ألبس ملابس نانسي وقبعتها. وقلت إن الأمرين ليسا سواء، وقال بل هما، وقلت إنني على الأقل لم أنزع حذاء عن الجثة. وقال إنه ما من فرق، وعلى أي حال، لم يكن يريد ترك الجثة عارية، ولذلك فقد ألبسها أحد قمصانه.

وسألت أي قميص وضع على السيد كينير، وقال إنه واحد من تلك التي اشتراها من البائع المتجول. شعرت بالكرب وقلت: سوف يلام جيرمايا الآن، لأنهم سيتتبّعون المصدر، وسأكون آسفة فهو صديقي بعد كل شيء.

وقال ماكديرموت إنه صديق مقرب أكثر من اللازم، في رأيه. وسألته ماذا يقصد بذلك؟ وقال إن جيرمايا كان ينظر إليّ بطريقة لم تعجبه، وإنه لن يسمح لزوجته بأن تخالط أي باعة من اليهود، وتثرثر معهم عند الباب الخلفي، وتستقبل غزلهم. وإذا ما فعلت، فإنه سيضرب عينها، ويدق عنقها.

كنت غاضبة. وكنت على وشك القول إن جيرمايا لم يكن يهوديًا، ولكن حتى لو كان، فإنّني أفضل الزواج ببائع يهودي متجول، على الزواج منه. لكنني أدركت أن الشجار لن يكون في صالح أي منّا، خاصة إذا تطور إلى صفع وصراخ. لذلك بلعت لساني، فقد كانت خطتي هي الوصول بأمان إلى الولايات المتحدة دون وقوع أي حوادث، ومن ثم التسلل تاركة ماكديرموت.

قلت له إن عليه أن يغير زيه، وسأفعل الشيء نفسه. حتى نشتت من يأتي لاحقًا للسؤال عنا. لم نتوقع أن يحدث هذا حتى الاثنين على الأقل، إذ لم نكن نعلم أن السيد كينير قد دعا بعض الأصدقاء لعشاء الأحد. وهكذا غيرت فستاني في فندق سيتي، فيما ارتدى جيمس سترة صيفية خفيفة للسيد كينير. وقال لي بقليل

من السخرية إنني أبدو أنيقة، تمامًا كسيدة، مع مظلتي الوردية وباقي الأشياء.

ثم ذهب ليحلق. وكانت تلك هي اللحظة التي استطعت فيها أن أهرع لطلب المساعدة. لكنه أخبرني عدة مرات أننا إما أن نعلَق معًا، أو نُعلّق منفصلين. وعلى الرغم من شعوري بأنني بريئة، كنت أعرف أن المظاهر كانت ضدي. وحتى لو كان يستحق الشنق الذي لا أستحقه، وحتى لو لم أكن راغبة في رفقته أكثر من ذلك، ومع خوفي منه، فلا أزال أرفض أن أكون من يخونه. هناك شيء حقير حول الخيانة. أشعر بأن قلبه ينبض بجوار قلبي، على الرغم من أنه غير مرغوب، ولكنه كان قلبًا بشريًا، ولم أتمنَّ أن يكون لي أي دور في إيقاف خفقانه إلى الأبد، ما لم أجبر على ذلك. وتذكرت كذلك، ما كتب في الكتاب المقدس: الثأر هو لي، يقول الرب. لم أشعر أنني مسؤولة عن تولي شيء خطير كالانتقام؛ وهكذا بقيت حيث أنا حتى عودته.

وبحلول الساعة الثامنة، أصبحنا على متن الباخرة (ترانزيت) -برفقة العربة، والحصان تشارلي، والصناديق، وكل شيء- خارجين من الميناء. فشعرت بالارتياح لذلك. كان اليوم صحوًا، مع نسيم عليل، فيما تلمع الشمس على الموجات الزرقاء. وبحلول هذا الوقت كان جيمس في حالة معنوية عالية، فخورًا جدًا بنفسه، وكنت أخشى أنه ما إن يبتعد عن نظري، حتى يبدأ بالتباهي، متبخترًا في ثيابه الجديدة، مستعرضًا المقتنيات الذهبية للسيد كينير. لكنه كان حريصًا على إبقائي في المشهد، في حال طلب شهادتي حول ما فعله، فتشبث بي وكأنه علقة.

كنا في الطابق السفلي، إذ لم أرغب في ترك تشارلي وحيدًا. كان عصبيًا، فشككت في أنه لم يركب باخرة من قبل، ولا بدّ أن ضوضاء المحرك، وعجلة التجديف، كانتا مخيفتين بالنسبة له. لذلك بقيت معه، أطعمه البسكويت المملح، الذي كان يحب ملحه. من المتوقع أن تجذب فتاة وحصانها انتباه المعجبين الشباب، ممن يزعمون أنهم مهتمون بالحصان. وسرعان ما حدث ذلك فعلًا، ووجدت نفسي مضطرة للإجابة عن الأسئلة.

أخبرني جيمس أن علينا أن نقدم أنفسنا باعتبارنا أخًا وأختًا، وقد رحلنا تاركين

أقرباءنا، الذين كنا على خصام معهم؛ لذلك اخترت أن أكون ماري ويتني، وقلت إنه ديفيد ويتني، وكنا في طريقنا إلى روتشستر. لم ير الرفاق الشباب أي سبب يمنعهم من مغازلتي، بما أن جيمس لم يكن سوى شقيقي، وهذا ما فعلوه. واعتقدت أن عليّ أن أرد على مجاملاتهم بالدعابة، لكنه انقلب ضدي في المحاكمة، وفي الوقت الذي رمقني فيه جيمس بنظرات سوداء. لكنني كنت أحاول تبديد الشكوك فقط، شكوكهم وشكوكه. وتحت سعادتي المصطنعة، كنتُ كسيرة القلب.

توقفنا في نياجرا، ولكنّ المكان لم يكن قريبًا من الشلالات، لذلك لم أرها. ذهب جيمس إلى الشاطئ، وأخذني معه، وأكل شريحة لحم بقري. لم أتناول أي طعام، لأنني كنت قلقة طوال وقتنا هناك. لكن لم يحدث شيء، فواصلنا.

أشار أحد الرفاق الشباب إلى باخرة أخرى على مسافة منا، وقال إنها (سيدة البحيرة[32])، وهي سفينة تابعة للولايات المتحدة، كانت تعد حتى وقت قريب أسرع مركب في البحيرة. لكنها خسرت مؤخرًا سباق سرعة أمام مركب البريد الملكي المسمى (الكسوف[33]) الجديد، الذي تفوق عليها بأربع دقائق ونصف. وسألت إن كان ذلك يجعله يشعر بالفخر؟ فقال لا، لأنه راهن بدولار على السيدة. فضحك كل الحاضرين.

ثم اتضح لي شيء لطالما تساءلت بشأنه. هناك نمط أغطية يسمى (سيدة البحيرة)، والذي اعتقدت أنه سمي تيمّنًا بالقصيدة. لكنني لم أجد أي سيدة بهذا النمط ولا أي بحيرة. مع ذلك أرى الآن أن اسم القارب كان على اسم القصيدة، وقد سمي الغطاء تيمنًا بالمركب. لأنه كان يأخذ شكل العجلة، التي كانت ترمز إلى عجلة التجديف. واعتقدت أنه يمكن للأشياء أن تكون منطقية، وذات معنًى، إذا تأملتها ما يكفي من الوقت. وربما يكون الأمر كذلك بالنسبة للأحداث الأخيرة، التي بدت لي في ذلك الوقت بلا معنًى. وكان اكتشاف السبب وراء تسمية نمط الغطاء، درسًا لي للتحلي بالإيمان.

---

32 Lady of the Lake

33 The eclipse

ثم تذكرت ماري ويتني وهي تقرأ تلك القصيدة معي، وكيف كنا نتخطى فترة التودد المملة، ونقفز إلى الأجزاء المثيرة، والقتال. لكن الجزئية التي أتذكرها جيدًا هي عندما أُخذت المرأة المسكينة من الكنيسة يوم زفافها، واختطفت من أجل متعة النبلاء، وجُنّت بسبب ذلك، وصارت تتجول في الأنحاء تقطف الزهور البرية، وتغني لنفسها. وأنا أعتبر نفسي مخطوفة بطريقةٍ ما، لكن ليس في يوم زفافي. وكنت أخشى أن ينتهي بي المطاف في نفس المحنة.

في هذه الأثناء كنا نقترب من لويستون. كان جيمس يحاول بيع الحصان والعربة لأولئك الذين كانوا على متن المركب، خلافًا لما أجده منطقيًا، لكنه طلب سعرًا زهيدًا للغاية، ممّا أثار الشكوك. ولأنها عرضت للبيع، فرض موظف الجمارك في لويستون ضريبة عليها، واحتجزها لأننا لم نملك المال لتأديتها.

على الرغم من غضب جيمس في البداية، إلا أنه سرعان ما تجاوز الأمر، واعتبره قليل الأهمية، وقال إننا سنبيع بعض الأشياء الأخرى، ونعود في اليوم التالي من أجل العربة. لكنني كنت قلقة حيال ذلك، لأنه عنى قضاءنا الليلة هناك. وعلى الرغم من أننا كنا في الولايات المتحدة، ويجب أن نعتبر أنفسنا آمنين، بما أننا في بلد أجنبي الآن؛ لكن أمرًا كهذا لم يمنع تجار الرقيق من الولايات المتحدة من الاستيلاء على العبيد الهاربين الذين قالوا إنهم ملكهم. كان الوضع بأسره لا يزال بعيدًا عن الارتياح.

حاولت جعله يتعهد بعدم بيع الحصان تشارلي، فيما يمكنه التصرف بالعربة كما يشاء. فقال: اللعنة على الحصان. وأعتقد أنه كان يشعر بالغيرة من الحصان المسكين لأنني مولعة به.

المنظر في الولايات المتحدة مشابه للريف الذي جئنا منه للتو، لكنه مكان مختلف، لأن الأعلام مختلفة. تذكرت ما أخبرني به جيرمايا عن الحدود، ومدى سهولة عبورها. بدا لي أنه مضى وقت طويل على حديثنا في مطبخ السيد كينير، كما لو أنه حصل في حياة مختلفة. لكن في الواقع، لم يمضِ على الأمر سوى قرابة أسبوع.

ذهبنا إلى أقرب حانة، لم يكن فندقًا، كما قيل في القصيدة المنشورة عني في العريضة، وإنما نزلًا رخيصًا بالقرب من رصيف الميناء. سرعان ما ابتلع جيمس الكثير من البيرة والبراندي، بقدر يتجاوز مصلحته. ثم تناولنا العشاء، وشرب المزيد. وعندما حان وقت النوم، أراد أن نتظاهر بأننا زوج وزوجة، وأن نأخذ غرفة معًا. لأنها ستكون -كما قال- بنصف التكلفة. لكنني تنبأت بما ستؤول إليه الأمور، وقلت إنه بما أننا ادعينا على متن المركب أننا أخ وأخت، فلا يمكننا العدول عن ذلك الآن، في حال تذكرنا أي شخص من المركب. لذا أعطوه غرفة مع رجل آخر، وكانت لي غرفتي.

حاول مع ذلك شق طريقه إلى غرفتي، قائلًا إنّنا سنتزوج قريبًا على أي حال. وقلت إننا لن نفعل، وإنني أفضل تزوج الشيطان، على الزواج به، وقال إنه سيجبرني. ثم قلت إنني سوف أصرخ، وهو ما سيكون مختلفًا في بيت مليء بالناس، عن بيت به جثتان فقط. وطلب مني أن أغلق فمي لأجل الرب، ودعاني بالبغي والعاهرة. وقلت إن عليه التفكير في استخدام بعض الكلمات الجديدة، لأنني تعبت بشدة من تلك الكلمات. وغادر في مزاج كريه.

قررت الاستيقاظ مبكرًا، ولبس ملابسي، والتسلل. لأنني إذا ما أُجبرت بطريقة ما على الزواج به، فسأقتل وأدفن بسرعة هزة من ذيل خروف، فإن كان يشك بي في الوقت الحاضر، فسيكون أكثر شكًا لاحقًا. وحالما يأخذني إلى بيت في مزرعة، في حي غريب بلا أصدقاء حولي، فلن تساوي حياتي فلسًا، لأن كل ما سيتطلبه الأمر هو ضربة على الرأس، ثم سأكون على عمق ستة أقدام تحت حديقة المطبخ. وسأجعل البطاطا والجزر تنمو أسرع ممّا أتخيل.

لحسن الحظ كان في غرفتي باب يوصد بمزلاج، فأوصدته. ثم خلعت ملابسي، كلها عدا الثوب الداخلي، وطويتها بطريقة أنيقة ووضعتها على ظهر الكرسي، كما اعتدت أن أفعل في الغرفة الصغيرة في منزل السيدة باركنسون حيث كنت أنام مع ماري. ثم أطفأت الشمعة وانزلقت بين الأغطية التي كانت -ويا للعجب- نظيفة تقريبًا، ثم أغلقت عيني.

أستطيع أن أرى الماء يتحرك داخل جفني، الأكوام الزرقاء من الأمواج بينما نعبر البحيرة، فيما الضوء يتلألأ عليها، غير أنها كانت أمواجًا أكبر، وأكثر قتامة، مثل التلال المتموجة. كانت تلك موجات المحيط الذي اجتزته قبل ثلاث سنوات، بالرغم من أنه يبدو كما لو كان حصل قبل قرن. وتساءلت كيف آلت بي الأمور إلى حيث أنا، وواسيت نفسي بالتفكير في أنه خلال مئة عام، سأكون ميتة في سلام، داخل قبري. وظننت أن الذهاب إليه في وقت أبكر، قد يجنبني -إجمالًا- الكثير من العناء.

لكن الأمواج واصلت التحرك، مع أثر السفينة الأبيض الذي يتبعها للحظة، قبل أن يصقله الماء. وكان الأمر كما لو أن آثار خطواتي تمحى خلفي، الخطى التي تركتها كطفلة، في الشواطئ والدروب، على الأرض التي غادرتها، والخطوات التي مشيتها على هذا الجانب من المحيط، منذ قدومي إلى هنا، كل آثاري، صقلت وأزيلت كأنها لم تكن، مثل إزالة الصدأ الأسود عن الفضة، أو رسم اليد على الرمال الجافة.

فكرت وأنا على حافة النوم: يبدو الأمر وكأنني لم أوجد، إذ لم يتبقَّ لي أي أثر، لم أترك أي علامات. ولهذا لا يمكن تتبّعي.

إن ذلك لا يختلف عن كوني بريئة. ثم نمت.

40

هذا ما حلمت به، وأنا أغرق في النوم بين الأغطية النظيفة تقريبًا، في الحانة بلويستون.

كنت أسير صاعدة الطريق الداخلي المنحني إلى منزل السيد كينير، بين صفوف أشجار القيقب التي زرعت على الجانبين. كنت أرى كل شيء للمرة الأولى، على الرغم من علمي أيضًا أنّني كنت هناك من قبل، كما هو الحال في الأحلام. وكنت أتساءل من الذي يعيش في ذلك البيت؟

ثم لاحظت أنني لستُ وحيدة في الممر، فالسيد كينير يسير ورائي، إلى اليسار مني؛ لحمايتي من أي مكروه. بعدها تقدم مصباح عبر نافذة الردهة، عرفتُ -على نحو يقيني- أن نانسي في الداخل، تنتظر الترحيب بي بعد عودتي من رحلة، غبت بسببها لفترة طويلة. لم تكن نانسي تلك التي تنتظر، بل ماري ويتني. وشعرت بالسعادة، لرؤيتها مجددًا، وقد استعادت صحتها وضحكتها السابقة.

رأيت كم كان البيت جميلًا، أبيض بالكامل، بأعمدة في مقدمته، فيما تلمع زهور الفاوانيا البيضاء بجانب الشرفة في الغسق، ويسطع الضوء عند النافذة.

تُقت إلى أن أكون هناك، على الرغم من أنني كنت بالفعل هناك في الحلم، ولكن كان لدي حنين شديد تجاه هذا المنزل، لأنه كان بيتي الحقيقي. وعندما بدأت أشعر بالمصباح يبهت، والبيت يعتم، ورأيت اليراعات تخرج وتتوهج، وزهور الصقلاب تعبق في الحقول المجاورة، وشعرت بهواء المساء الصيفي الرطب الدافئ على خدي، معتدلًا وناعمًا، وبيد تنزلق في يدي.

عند ذلك سمعت طرقًا على الباب.

XI

الأخشاب الساقطة

عوضًا عن إظهار أي أثر للاضطراب أو تأنيب الضمير، بدت الفتاة هادئة جدًا، وعيناها متيقّظتان وصافيتان، كما لو أنها وبالرغم من نومها بعمق وبدون إزعاج، إلا أن هاجسها الوحيد كان إرسال بعض ملابسها إليها، وصندوقها أيضًا. لم يكن لديها في السابق سوى القليل، لكنها تلبس في الوقت الحاضر ثوب المرأة المقتولة، والصندوق الذي تطلبه يعود للضحية المسكينة نفسها.

- صحيفة كرونيكل آند غزات، كينغستون، 12 أغسطس، 1843.

على الرغم من أنني تبت عن الشر بدموع مريرة، فقد شاء الرب ألّا أنعم بلحظة سلام واحدة. فمنذ اللحظة التي ساعدت فيها ماكديرموت على خنق نانسي مونتغومري، لم يفارقني لحظة، وجهها المروع وعيناها الفظيعتان المحتقنتان بالدماء. تنظر ساخطة إليّ ليل نهار، وعندما أغمض عيني بيأس، أراهما تتطلعان إلى روحي، يستحيل إبعادهما. في الليل -في صمت ووحشة زنزانتي- تجعل تلك العيون الملتهبة سجني مضيئًا كالنهار. لا، ليس النهار، إن لديها وهجًا شديد الحرارة، لا شبيه له في هذا العالم...

- غريس ماركس، إلى كينيث ماكنزي، كما أعيدت صياغتها بفعل سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

لم يكن حبًا، على الرغم من أنه صريع جمالها المترف. ولا رهبة، حتى حين كان يتصور روحها مشبعة بالجوهر المهلك نفسه الذي بدا أنه يتخلل إطارها المادي، بل نسلًا وحشيًا من الحب والرهبة، اللّذين يحملان شيئًا من الأبوين كليهما. يحرق كأحدهما، ويرتعد كالآخر... طوبى لكل المشاعر البسيطة، سواء كانت قاتمة أو ساطعة! إن الامتزاج الرهيب للاثنين، هو ما ينتج البريق المضيء للمناطق الجهنمية.

- ناثانيل هاثورن، ابنة رابتشيني، 1844.

للدكتور سايمون جوردن، بمسكن الرائد سي. دي. همفري، شارع لور يونين، كنغستون، غرب كندا؛ من السيدة ويليام ب. جوردن. بيت لبورنوم، لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية.
الثالث من أغسطس، *1859*.

ابني العزيز:

أنا في أشد حالات القلق؛ بسبب الغياب الطويل لرسائلك. أرسل لي ولو كلمة واحدة، تُعْلِمُني فيها أن ما من كارثة حلت بك. في هذه الأيام الخبيثة، واقتراب الحروب الكارثية، فإن أمل الأم الأهم هو أن يكون أبناؤها الأعزاء -الذين لا أملك منهم سواك- آمنين وسالمين. ربما من الأفضل أن تبقى حيث أنت؛ لتفادي المحتوم. لكن قلب الأم الضعيف هو ما يحثني، إذ لا أستطيع الدفاع عن الجبن بكل ضميري، بينما تكون العديد من الأمهات الأخريات على استعداد لمواجهة ما يخبئه القدر.

أتوق إلى رؤية وجهك المحبب مرة أخرى، يا عزيزي. السعال الطفيف، الذي بليتُ به منذ ولادتك، ازداد في الآونة الأخيرة، أما في المساء فيصبح عنيفًا جدًا. تتعذب أعصابي، كل يوم تكون فيه بعيدًا عنّا؛ لخوفي من الرحيل فجأة، في منتصف ليلة ما، دون أن تتاح لي فرصة إعطائك وداعًا حانيًا أخيرًا، ومنحك آخر مباركاتي. يجب تجنب الحرب، وهو ما نأمله جميعًا، وأنا أُصلّي لأراك مستقرًا، وفي منزلك الخاص، قبل ذلك اليوم المحتوم. لكن لا تدع مخاوفي وخيالاتي -العاطلة بلا شك- تشغلك عن دراستك وأبحاثك، ومرضاك العقليين، أو أيًا كان ما تفعله، والذي أنا على يقين من أهميته.

آمل أن تكون مواظبًا على نظام غذائي غني، ومحافظًا على قوتك. لا توجد نعمة أعظم من الحصول على بنية جسم قوية، وإذا لم يكن الواحد منا قد ورثها،

فلا بد من اتخاذ المزيد من الحذر. تقول السيدة كارترايت إنها شاكرة للغاية لأن ابنتها لم تمرض يومًا في حياتها، وهي قوية كالحصان. وراثة عقل سليم في جسد معافًى هي أفضل ما يمكن أن يورثه المرء لأبنائه. وقد تعذر على أمك المسكينة، وا حسرتاه، توفير أحدهما لصبيها العزيز، على الرغم من أن ذلك لا يعود إلى نقصان الرغبة. ولكن -في النهاية- علينا جميعًا أن نقنع بحصصنا في الحياة، بالقدر الذي تراه العناية الإلهية مناسبًا لنا.

المخلصتان مورين وسمانثا ترسلان تحيّاتهما وحبّهما إليك، وتتوسّلان أن تظلّا في الذاكرة. تقول سامانثا إنّ معلبات الفراولة، التي أحببتها كثيرًا وأنت صبيّ، مستمرة بذات الجودة، وعليك العودة بسرعة لتذوقها، قبل أن «تعبر النهر.» كما قالت. أما مورين المسكينة، والتي قد يحل أجلها عاجلًا كأمك، فتقول إنها لا تضع لقمة في فمها، دون أن تفكر فيك، وتتذكر الأوقات السعيدة، وكلاهما متلهفتان إلى رؤية طلتك المحببة من جديد، ألف تحية لك من،

محبتك المخلصة/ أمك.

سايمون -مرة أخرى- في الرواق العلوي للعلية حيث تعيش الخادمات. يستشعرهن منتظرات وراء أبوابهن المغلقة -ينصت- فيما تلمع عيونهن في العتمة الخفيفة. لكنهن لا يصدرن صوتًا. خطواته بحذاء التلاميذ السميك، تتسبّب في رنين أجوف على الألواح. لا بدّ من وضع شيء من السجّادات أو قطعة حصير هنا، وإلا سمعه كل شخص في المنزل.

يفتح الباب عشوائيًا، على أمل العثور على أليس، أم إنّ اسمها إيفي؟ لكنه يجد نفسه خلف مستشفى جاي. يمكنه أن يشم -ويتذوق تقريبًا- تلك الرائحة الكثيفة الثقيلة للحجر الرطب، الصوف الرطب، ورائحة الفم الكريهة، واللحم البشري النتن. إنها رائحة التجربة والرفض: سيُختَبر. أمامه طاولة مفروشة: إنه مطالب بالتشريح، على الرغم من أنه طالب هنا، لم يُعلَّم ذلك، ولا يعرف كيف يفعله. الغرفة فارغة، لكنه يعلم أنه مراقب، من قِبَلِ من هم هناك ليحكموا عليه.

توجد امرأة تحت الشرشف، يمكنه تخمين ذلك من معالمها. يأمل أنها ليست كبيرة في السن، لأن ذلك من شأنه أن يكون أسوأ. امرأة مسكينة، ماتت إثر مرض غير معروف. لا أحد يعرف من أين يحصلون على الجيف، بالأحرى لا أحد يعرف على وجه اليقين. يحفرون المقابر تحت ضوء القمر، هكذا يمزح الطلبة. لا يستعينون بضوء القمر، أيها الغبي: بل بنباشي القبور.

يقترب من الطاولة خطوة خطوة. هل أدواته جاهزة؟ نعم، ها هو الشمعدان. ولكنه لا ينتعل حذاءً، وقدماه مبلولتان. يجب عليه أن يزيح الغطاء، ثم يزيح جلدها، أيًا تكن، أو أيًا كانت بالأحرى، طبقة طبقة. يشق لحمها المطاطي، يقشرها، يخرج أحشاءها مثل سمك الحدوق. يرتجف رعبًا. ستكون باردة وغير مرنة. إنهم يحفظون الجثث مجمدة.

لكن تحت الغطاء، هناك غطاء آخر، وتحته غطاء آخر أيضًا. يبدو مثل ستارة موسلين بيضاء. ثم هناك خمار أسود، وبعد ذلك -هل يمكن أن يكون هذا ما أظنه؟- تنورة داخلية. لا بدّ أن تكون المرأة هناك في مكان ما؛ يفتش بشكل

محموم. لكن لا، فالغطاء الأخير عبارة عن ملاءة سرير، لا شيء تحتها غير السرير نفسه. هذا بالإضافة إلى أثر شخص كان مستلقيًا هنا، ولا يزال مكانه دافئًا.

يفشل يائسًا، يفشل في اختباره، يفشل علانية أيضًا؛ لكنه لا يمانع الآن. كما لو أنه منح مهلة. سيكون كل شيء بخير، سيُعتَنى به. خارج الباب، وهو نفس المكان الذي دخل منه، هناك مرج أخضر، وجدول يتدفق على الجانب البعيد. صوت الماء الجاري له مفعول مسكن. هناك شهيق متسارع، ورائحة فراولة، ويد تمس كتفه.

يستيقظ، أو يحلم بأنّه يستيقظ. يدرك أنه نائم، لأن غريس ماركس تميل عليه في العتمة الدامسة، وشعرها المسدل يمشط وجهه. لا يفاجأ، ولا يسأل كيف تمكنت من مغادرة زنزانتها للقدوم إلى هنا. يسحبها إلى أسفل -إنها لا تلبس سوى ثوب نومها- ويعتليها، ويندفع داخلها مطلقًا آهة شهوة ماجنة، فكل شيء جائز في الأحلام. يدفعه عموده الفقري إلى الارتعاش كسمكة عالقة بالسنارة، ثم يريحه. يلهثُ طالبًا الهواء.

حينها فقط يدرك أنه لا يحلم، وأن المرأة ليست حلمًا. إنها هنا حقًا، ذات كيان مادي، مستلقية بلا حراك بجانبه على الفراش الذي هدأ فجأة، وذراعاها إلى جانبها كتمثال، لكنها ليست غريس ماركس. من المستحيل الآن أن يخطئ نحلها، قفصها الصدري الأشبه بضلوع طائر، ورائحتها من خليط الكتان المسفوع والكافور والبنفسج. طعم الأفيون من فمها. إنها صاحبة المسكن، التي لا يعرف اسمها الأول حتى.

لم يبدر عنها أي صوت عندما ولجها، سواء أكان تعبيرًا عن الاحتجاج أو التلذذ. هل تتنفس؟ يقبلها مرة أخرى بتردد، ثم مرة أخرى: قبلات صغيرة. إنه البديل عن قياس نبضها. يشق طريقه بحثًا عن وريد، ذلك الذي في رقبتها، إنه يخفق. بشرتها دافئة، لزجة بعض الشيء، مثل عصير الفاكهة، وللشعر وراء أذنها رائحة شمع العسل.

ليست ميتة إذًا.

«أوه لا.» يفكر. ماذا بعد؟ ماذا فعلت؟

43

ذهب الدكتور جوردن إلى تورنتو. لا أدري كم من الوقت سيغيب، آمل ألّا يكون لوقت طويل، فقد اعتدت عليه بطريقة ما، وأخشى أن رحيله -عاجلًا أم آجلًا- سيخلف فراغًا حزينًا في قلبي.

بماذا أخبره عندما يعود؟ سيريد أن يعرف عن الاعتقال والمحاكمة وما قيل فيها. بعضها مختلط تمامًا في ذهني، يمكنني أن أختار له هذا أو ذاك، بعض الرقع من قطعة القماش الكاملة -كما يمكن أن تقول- تمامًا كما تفعل حين تفتش عبر حقيبة الخِرق بحثًا عن شيء يسد الحاجة، لتوفير لمسة من الألوان.

أستطيع أن أقول هذا:

حسنًا سيدي، لقد اعتقلوني أولًا، ثم اعتقلوا جيمس بعدي. كان لا يزال نائمًا في فراشه، وأول شيء فعله عندما أيقظوه هو محاولة إلقاء اللوم على نانسي. إذا وجدتم نانسي، فستعلمون أنها غلطتها. وجدت هذا تصرفًا غبيًا من قِبله، فعلى الرغم من أنها لم تكن قد اكتشفت بعد، إلا أنهم سينقبون عنها حتى يجدوها عاجلًا أو آجلًا، ولو اضطروا للاعتماد على الرائحة وحدها، في الواقع لقد فعلوا ذلك في اليوم التالي. حاول جيمس التظاهر بأنه لا يعرف أين هي، أو لا يعرف حتى أنها ميتة. كان ينبغي عليه أن يصون لسانه.

اعتُقِلْنا أول الصباح. أجبرونا على مغادرة حانة لويستون بأقصى سرعة. أظنهم خافوا أن يوقفهم الرجال هناك، وأن يجتذبوا الغوغاء، فينقذونا، كما كان يمكن أن يفعلوا إذا ما فكر ماكديرموت بالصراخ، قائلًا إنّه ثوري، أو جمهوري، أو شيء من هذا القبيل، وإنّ لديه حقوقًا، وليسقط البريطانيون؛ لأن المشاعر كانت لا تزال بعد متأججة وقتها، فبجانب السيد ويليام ليون ماكنزي والتمرد، كان في أمريكا راغبون في غزو كندا. والرجال الذين اعتقلونا ليست لديهم سلطة حقيقية. لكن ماكديرموت كان مرعوبًا على نحو يمنعه من الاحتجاج، أو أنه افتقر إلى سرعة البديهة. وعندما وصلنا إلى الجمارك، وقالوا إننا مطلوبون للاشتباه في جريمة قتل، سمح للمجموعة بالمضي قدمًا، والإبحار دون مزيد من اللغط.

كنتُ في غاية الهمّ وأنا أعبر البحيرة عائدةً، على الرغم من أن الجو كان صافيًا والأمواج هادئة، ولكنّني كنت أسلّي نفسي بإخبارها أن العدالة لن تسمح بأن أشنق لشيء لم أفعله، وكان عليّ فقط أن أروي القصة كما حدثت، أو بالقدر الذي أستطيع تذكره. لم أقدّر أن فرص ماكديرموت ستكون عالية. لكنه كان لا يزال ينكر الاتهامات، وقال إننا أخذنا بعض حوائج السيد كينير فقط لأن نانسي رفضت دفع مستحقاتنا، وهكذا دفعنا لأنفسنا. وقال إن كان كينير قد قتل فعلى الأرجح أن قاتله متشرد ما. وقد كان يتجول في الأنحاء رجل بمظهر مثير للريبة، قال إنه بائع متجول، وقد باعه بعض القمصان؛ ويتوجب عليهم البحث عن ذلك الرجل، وليس عن رجل نزيه مثله، والذي كانت جريمتُه الوحيدة السعيَ إلى تحسين مصيره في الحياة عبر العمل الشاق والهجرة. كان كاذبًا بالتأكيد، لكنه لم يكن كاذبًا جيدًا على الإطلاق؛ ولم يصدقه أحد، وكان الأمر سيان لو أنه أبقى فمه مغلقًا. ولم أشعر بأن من الصائب سيدي، محاولة إلقاء جريمة القتل على عاتق صديقي القديم جيرمايا، الذي لم يفعل أي شيء من هذا القبيل في حياته، ليس على حد علمي.

وضعونا في السجن بتورنتو، محبوسين في زنزانات، مثل حيوانات في قفص، لكن ليس بالقرب الذي يسمح لنا بالحديث، ثم حققوا معنا منفصلَين. سألوني الكثير من الأسئلة. كنت خائفة، ولم أكن على يقين ممّا يجب قوله. لم يكن لديّ محامٍ في ذلك الوقت، إذ لم يأتِ السيد ماكنزي إلا لاحقًا. سألتُ عن صندوقي الذي صنعوا منه جلبة في الصحف، ساخرين من الإشارة إليه على أنه لي، ولأنّني لا أملك ملابس تخصني تستحق الذكر. ولكن على الرغم من أنهم محقون في ما يتعلَق بأن الصندوق والملابس التي يحويها كانت تعود -في السابق- لنانسي، لكنها لم تعد لها، فليس باستطاعة الموتى الانتفاع من مثل هذه الأشياء.

كانوا يأخذون علي -أيضًا- هدوئي أول الأمر، وكوني في حالة معنوية جيدة، وبعينين متيقظتين وصافيتين، اعتبروا كل هذا دليلًا على القسوة. ولكن لو كنت أنتحب وأبكي، لقالوا إنه إظهار لشعوري بالذنب. لأنهم قرروا أنني مذنبة، وبمجرد

أن يقتنع الناس أنك ارتكبت جريمة، فإن أي شيء تقوم به يعتبر دليلًا عليها، وما كان بإمكاني أن أحك أو أمسح أنفي دون أن يكتب عنه في الصحف، وتطلق التعليقات الخبيثة حوله، في عبارات منمقة. وصفوني بخليلة ماكديرموت، وشريكته في الجريمة، وكتبوا أيضًا أنّني ساعدت -بلا شك- في خنق نانسي، حيث إنّها مهمة تحتاج إلى شخصين. الإعلاميون والصحفيون يحبون أن يصدقوا الأسوأ. يمكنهم بيع المزيد من الصحف بهذه الطريقة، كما أخبرني أحدهم بنفسه. حتى الناس الشرفاء والمحترمون يودون قراءة الأشياء السيئة حول الآخرين.

بدأ الاستجواب فور إعادتنا إلى البلاد، بهدف معرفة كيف ماتت نانسي والسيد كينير، سواء أكانت حادثًا أو جريمة قتل، ولهذا وجب استجوابي في المحكمة. بحلول ذلك الوقت كنت أشعر بالرعب الشديد، فمشاعري كانت تعمل ضدي، وكان السجانون في تورنتو يطلقون نكاتًا قاسية عندما يحضرون طعامي، وقالوا إنهم يأملون أن تكون السقالة عالية عندما أشنق، حتى يتأتّى لهم النظر إلى كاحليّ. وحاول أحدهم أن يستغلني، وقال إن عليّ الاستمتاع بالأمر ما دام متاحًا، فحيث أذهب، لن أجد مطلقًا عاشقًا رائعًا نشيطًا مثله ليكون بين ركبتي. لكني أخبرته أن يبقي قذارته لنفسه. وكان من الممكن أن يزداد الأمر سوءًا، لولا تدخل زميله بالقول إنني لم أُحاكم بعد، ولم أُدن بطبيعة الحال. وإذا كان (السجان الأول) مهتمًا بالبقاء في منصبه، فيجب عليه الابتعاد عني. وهو ما فعله معظم الوقت.

سأخبر الدكتور جوردن بهذا، لأنه يحب الاستماع لمثل هذه الأشياء، ويكتبها باستمرار.

حسنًا سيدي، سأواصل. جاء يوم التحقيق، وكنت حريصة على الظهور بمظهر مرتب وأنيق، لأنني أدرك أهمية المظهر، كما هو الحال عند التقدم لشغل منصب جديد، وهم ينظرون دائمًا إلى معصميك وكميك، لمعرفة ما إذا كنت ملتزمًا بعادات النظافة، وقد قالوا في الصحف إنني كنت لائقة الملبس.

أُجري التحقيق في قاعة المدينة، مع وجود عدد من القضاة، كلهم يحدقون

ويقطبون، وحشد كبير من المتفرجين، ورجال الصحافة، كانوا يتدافعون ويحتشدون ويزدحمون، من أجل أن يكونوا في وضع أفضل للمشاهدة والاستماع، وقد أنّبوا عدة مرات، لتسببهم في التشويش. لا أعرف كيف ظنوا أن بإمكانهم إدخال المزيد من الأشخاص إلى الغرفة التي كانت محشوة حتى كادت تنفجر، لكنهم استمرّوا في محاولاتهم لدفع أنفسهم إلى الأمام.

حاولت أن أسيطر على ارتجافي، وأن أواجه القادم بالقدر الذي أستطيعه من الشجاعة، والذي -لأكون صادقة معك سيدي- لم يكن كثيرًا حينها. رأيت ماكديرموت هناك لأول مرة منذ اعتقالنا، عابسًا كما لم أره من قبل. وقالت الصحف إنه أظهر إصرارًا عنيدًا واستخفافًا طائشًا، هذه كانت طريقة تعبيرهم على ما أعتقد. لكنه بالنسبة لي لم يكن مختلفًا أبدًا عمّا بدا عليه دائمًا على مائدة الإفطار.

وقعت في حيرة عندما بدؤوا في استجوابي حول جرائم القتل. فكما تعلم سيدي، ما كنتُ أذكر أحداث ذاك اليوم الرهيب كاملةً، لم أشعر أنني حاضرة فيه على الإطلاق، وغبت عن الوعي لعدة أجزاء منه؛ أدركتُ مع ذلك أنني سأكون محطّ سخرية، إذ إنّ هذا يعارض شهادة الجزار جيفرسون الذي ادّعى أنّه رآني وتحدث معي، وأخبرته أنّنا لن نكون في حاجة إلى أي لحم طازج، وهي المقولة التي حولوها إلى نكتة لاحقًا، بسبب الجثث الموجودة في القبو، في قصيدة العريضة التي كانوا يبيعونها وقت شنق ماكديرموت. واعتقدت أن هذا الفعل يعكس الغلظة والسوقية وعدم الاحترام للمعاناة البشرية.

أخبرتهم أن آخر عهدي بنانسي كان خلال العشاء، عندما نظرت خارج باب المطبخ ورأيتها تضع البط في الداخل. بعدها قال ماكديرموت إنها ذهبت إلى المنزل، وقلت إنها لم تكن هناك، وأخبرني أن أهتم بشؤوني. ثم قال إنها ذهبت إلى زيارة منزل السيدة رايت. ارتبت، وسألت ماكديرموت عنها عدة مرات، عندما كنا نسافر إلى الولايات المتحدة، وقال إنها على ما يرام؛ لكنني لم أعلم قطعيًا عن وفاتها حتى اكتُشِفت صباح الإثنين.

ثم أخبرتهم عن الطلقة التي سمعتها، وعن جثة السيد كينير التي رأيتها ملقاة على الأرض، وكيف صرختُ وجريت في الأنحاء، وكيف أطلق ماكديرموت النار تجاهي، فأغمي عليّ وسقطت. كنت أتذكر ذلك الجزء. وبالفعل، وجدوا رصاصة البندقية، متعلقة بخشب باب المطبخ الصيفي، والذي أظهر أنني لم أكن أكذب.

كنّا محتجزين حتى موعد المحاكمة، التي ما كانت لتجري حتى نوفمبر. وهكذا قضيت في سجن تورنتو ثلاثة أشهر مرهقة، أسوأ من وضعي الآن، حيث حُبستُ لوحدي، في وضع بائس للغاية، بينما يتوافد الناس بذريعة أداء مهمة ما، فيما يأتون -في الحقيقة- للتحديق وفغر الأفواه.

تغيرت الفصول في الخارج، والاختلاف الوحيد الذي استشعرته هو الفارق في الضوء الداخل من خلال النافذة المخططة، المرتفعة على الحائط، أعلى من أن أنظر عبرها، وكان الهواء الذي يمر، يأتي بعطور وروائح الأشياء التي أفتقدها. في أغسطس، كانت هناك رائحة التبن الطازج، ثم رائحة العنب والخوخ وهو ينضج، والتفاح في سبتمبر، وفي أكتوبر الأوراق المتساقطة، وأول بوادر الثلج. لم يكن هناك ما يمكن فعله، سوى الجلوس في زنزانتي، والقلق بشأن ما سيحدث، وما إذا كنت سأشنق بالفعل، كما يقول لي السجانون كل يوم. علي القول إنهم استمتعوا بكل كلمة من كلمات الموت والفاجعة التي خرجت من أفواههم. لا أعرف ما إذا كنت قد لاحظت سيدي، لكن هناك من يستمتع بمحنة الآخرين، خصوصًا إذا اعتقدوا أن ذلك الآخر قد ارتكب خطيئة، الأمر الذي يكسب امتحانه لذة إضافية. ولكن مَن مِنا لم يخطئ، كما يقول الكتاب المقدس؟ شخصيًا أخجل من التلذذ بمعاناة الآخرين.

عينوا في أكتوبر السيد ماكنزي للدفاع عني. لم يكن بتلك الوسامة، بأنف قنينة. اعتقدت أنه صغير جدًا وغير متمرس، بما أنها كانت قضيته الأولى. وفي بعض الأحيان كان في أسلوبه شيء من عدم الرسمية، رغب مثلًا في أن تغلق الزنزانة علينا وحدنا، وعرض عليّ أن يريحني، مع وضع يده بتكرار على يدي؛ ولكني كنت سعيدة بأن يكون معي شخص أيًا كان، للمرافعة عن قضيتي وجعل

الأشياء تظهر جيدة قدر الإمكان؛ لذلك لم أقل أي شيء، بل بذلت جهدي لأبتسم وأتصرف بامتنان. أراد مني أن أحكي قصتي بتماسكٍ -كما وصفها- لكنّه كثيرًا ما اتهمني بالشرود، وصار يتضايق مني، وقال أخيرًا إن من الأفضل عدم سرد القصة كما أذكرها، فهي تفتقر للمنطق، بل سرد قصة من شأنها أن تبدو متّسقة، تحظى بفرصة التصديق. كان عليّ أن أتجاهل الأجزاء التي لا أستطيع تذكرها، وخصوصًا حقيقة أنّني لا أستطيع تذكرها. وينبغي أن أسرد ما يفترض أنه حدث، حسب المعقول، بدلًا ممّا أتذكّره. وهذا ما حاولت القيام به.

كنت -إلى حد بعيد- لوحدي، وقضيت الكثير من الوقت أعيش محنتي المستقبلية. وأتأمّل كيف سيكون الأمر إذا ما إلتُ إلى الشنق، وكم يمكن لطريق الموت -الذي قد أجبر على قطعه- أن يكون طويلًا ومعزولًا، وماذا ينتظرني على الطرف الآخر. صليت للرب، دون الحصول على إجابة. واسيت نفسي عبر التفكير بأن هذا الصمت من جانبه كان إحدى وسائله الغامضة. حاولت التفكير في كل الأشياء التي أخطأت بها، حتى أتمكن من التوبة عنها، كاختيار ثاني أفضلِ ملاءةٍ لأمي، وعدم السهر على فراش ماري ويتني عند احتضارها. وعندما أدفن أنا نفسي، قد لا أغطّى بملاءة على الإطلاق، قد أقطّع إلى أجزاء وقطع وإرب، إذ يقال إن هذا ما يفعله الأطباء إذا شُنِقْتَ. وكان هذا أسوأ مخاوفي.

ثم حاولت أن أرفع معنوياتي، من خلال تذكر المشاهد السابقة. تذكرتُ ماري ويتني، وكيف خططت لزواجها وبيت المزرعة، مختارة الستائر وكل شيء، وكيف أن كل هذا لم يحدث، وكيف ماتت في عذاباتها. ثم جاء اليوم الأخير من أكتوبر، وتذكرت الليلة التي كنا نقشر فيها التفاح، وكيف قالت إنني سأعبر الماء ثلاث مرات، ثم أتزوج من رجل يبدأ اسمه بحرف الجيم، كل هذا بدا لي لحظتها وكأنه لعبة طفولية، ولم يعد لدي أي إيمان به. أوه ماري -سأقول- كم أتوق إلى العودة إلى غرفة نومنا الباردة في منزل السيدة باركنسون، ذات المغسلة المتصدعة والكرسي الوحيد، بدلًا من هذه الزنزانة المظلمة، وحياتي المهددة. إنني أجد بعض العزاء أحيانًا في المقابل، وحدث ذات مرة أن سمعت ضحكتها. لكنك غالبًا ما

تتخيل أشياء عندما تكون وحيدًا لفترات طويلة.

كان ذلك حين بدأت زهرة الفاوانيا الحمراء بالنمو أول مرة.

في المرة الأخيرة التي قابلت فيها الدكتور جوردن، سألني ما إذا كنت أتذكر السيدة سوزانا مودي، عندما جاءت لزيارة السجن. كان ذلك قبل حوالي سبع سنوات، قبل أن يضعوني في مصحة المجانين. قلت إنني أذكرها. سألني عن رأيي فيها، فقلت:

- إنها تشبه الخنفساء.
- خنفساء؟

قال الدكتور جوردن، وقد لاحظت أنّني صعقته.

- نعم، خنفساء سيدي. مستديرة وبدينة وتلبس الأسود، ولها طريقة مشي سريعة بخطوات صغيرة، كما أنّ لها عيونًا سوداءَ أيضًا. أنا لا أعني ذلك كإهانة سيدي. أضفت -بعد أن ضحكَ واحدةً من ضحكاته القصيرة- أنّني أصف فقط المظهر الذي بدت عليه في رأيي.
- وهل تتذكرين حين زارتك بعدها بوقت قصير، في المصحة الإقليمية؟
- ليس تمامًا سيدي. كان لدينا الكثير من الزوار هناك.
- وصفت وضعك بأنك كنت تصيحين وتركضين في الأنحاء. كنت محتجزة في الجناح المخصص لمن يظهرون سلوكًا عنيفًا.
- يجوز ذلك سيدي. لا أتذكر التصرف بطريقة عنيفة تجاه الآخرين، ما لم يبادروا بذلك.
- والغناء أيضًا، كما أعتقد.
- أنا أستمتع بالغناء -أجبت بعد لحظة، إذ لم أكن راضية عن هذا النوع من الاستجواب- ترنيمة أو أغنية راقصة مفيدة لرفع المعنويات.
- هل أخبرت كينيث ماكنزي أن باستطاعتك رؤية عيني نانسي مونتغمري تتبعانك أينما ذهبتِ؟
- قرأت ما كتبته السيدة مودي حول ذلك سيدي. لا أحب أن أدعو أي

شخص بالكاذب. لكن السيد ماكنزي فسر كلامي على نحو خطأ.

- وماذا كان ذلك؟
- قلتُ إنّها بقع حمراء في البداية سيدي، وكان هذا صحيحًا، إذ بدت كبقع حمراء.
- وبعدها؟
- وبعد ذلك، عندما ضغط عليّ للحصول على تفسير، قلت له ما اعتقدت أنها كانته. لكنني لم أقل عيونًا.
- نعم، تابعي!

قال الدكتور جوردن الذي حاول الظهور بمظهر هادئ، كان يميل إلى الأمام، وكأنه ينتظر سرًا عظيمًا. لكنه لم يكن سرًا كبيرًا. كنت سأخبره سابقًا، لو أنه سأل.

- لم أقل عيونًا سيدي، قلت فاوانيا. لكن السيد ماكنزي كان مولعًا على الدوام بالاستماع إلى صوته أكثر من الاستماع إلى صوت شخص آخر. وأفترض أن وجود عيون تتابعك أكثر شيوعًا. وهو المطلوب، في ظل الظروف، إن فهمت ما أعنيه سيدي. وأظن أن هذا هو السبب في أن السيد ماكنزي قد أساء مشاركتها مع السيدة مودي. أرادوا إنجاز الأشياء بطريقةٍ صحيحةٍ. بالرغم من أنها كانت فاوانيا. فوانيا حمراء. لا يوجد مجال للخطأ.
- حسنًا.

يقول الدكتور جوردن بحيرة.

بعد ذلك سيريد معرفة ما حصل في المحاكمة. بدأتْ في الثالث من نوفمبر، وقد اِحتشد الكثير من الناس في قاعة المحكمة لدرجة أن الأرضية تداعت. عندما وُضعت في قفص الاتهام، اضطررت للوقوف في البداية، ثم جلبوا لي كرسيًا بعدها.

الجو خانق، يُسمع أزيز متواصل من الأصوات، مثل سرب من النحل. شهد أشخاص مختلفون، بعضهم لصالحي، قائلين إنّني لم أتورط في المشاكل من قبل، وإنّني عاملة مجتهدة، وذات طباع جيدة. فيما شهد آخرون ضدي، الأكثرية فعلت

ذلك. نظرت حولي باحثة عن جيرمايا البائع المتجول، لكنه لم يكن هناك. كان على الأقل سيفهم مأزقي، وسيحاول مساعدتي للخروج، للصلة التي قال إنها بيننا. أو هذا ما اعتقدته.

ثم أحضروا جيمي والش. كنت آمل أن تبدر منه إشارة تعاطف معي، لكنه منحني تحديقًا مليئًا بالعتب والغضب الحزين، ففهمت ما يدور بخلده. شعر بأني خنت حبه، لأنني رحلت مع ماكديرموت. وتحولت من كوني ملاكًا في عينيه -صالحًا للتأليه والعبادة- إلى شيطان. سيفعل ما في وسعه لتدميري. عندها شعرت بقلبي يغرق، فمن بين جميع من أعرف في ريتشموند هيل، كنت أعتمد عليه ليقول كلمة طيبة عني، حيث بدا يافعًا وفتيًا، وذا طبيعة بريئة لم تفسد. لدرجة أنني شعرت بالانقباض، لأنني كنت أقدّر رأيه فيّ، وكان من المفجع أن أخسره.

نهض للشهادة، تحت القسم. الطريقة التي أدّى بها اليمين على الكتاب المقدس -والتي كانت متزنة، ولكن يخالطها غضب شديد في صوته- لم تبشّر بخير. تحدث عن احتفالنا في الليلة السابقة، وعزفه الفلوت، وكيف رفض ماكديرموت الرقص، وكيف رافقه إلى المنزل، وكيف تركنا ونانسي لا تزال حية، وفي طريقها إلى النوم في الطابق العلوي. ثم حكى كيف جاء بعد ظهر اليوم التالي، ورأى ماكديرموت ببندقية مزدوجة الماسورة في يده، والتي ادّعى أنه يستخدمها لصيد الطيور. قال إنني وقفت بجوار المضخة ويداي متشابكتان، مرتدية جوارب قطنية بيضاء، وعندما سُئلت عن مكان نانسي، ضحكت باستفزازٍ، وقلت إنه لطالما كان فضوليًا، لكنّ نانسي ذهبت إلى بيت رايت، أقلها رجل لحالة مرض لديهم.

لا أتذكر شيئًا من هذا سيدي، لكن جيمي والش قدم شهادته بوضوحٍ ومباشرة، من الصعب الشك فيها. لكنّ عاطفته غلبته بعدها، وأشار إلي، وقال: إنها تلبس فستان نانسي، والشرائط تحت قبعتها تعود إلى نانسي أيضًا، وشال الفرو عليها، والمظلة في يدها.

عند ذلك ضجت القاعة بالصياح، كاحتشاد الأصوات في يوم القيامة؛ وعرفت أنني سأُدان.

قلت ما أوصاني السيد ماكنزي بقوله، عندما جاء دوري، وكان رأسي في حالة فوضى، محاولًا تذكر الإجابات الصحيحة. وضُغِط عليّ لأشرح لماذا لم أحذّر نانسي والسيد كينير، عندما عرفت بنيات جيمس ماكديرموت. وقال السيد ماكنزي إنه كان خوفًا على حياتي، وبصرف النظر عن أنفه فقد كان بليغًا للغاية. قال إنني لستُ أكثر من طفلة، طفلة فقيرة بلا أم، ويتيمة على جميع الأصعدة، طردتُ إلى العالم دون توجيه من أحد. واضطررت للعمل بجد من أجل لقمة العيش، في سن مبكرة، وهذا ما فعلته بمثابرة، كما قال إنّني جاهلة وغير متعلمة، وأمية، وأفضل قليلًا من بلهاء، وناعمة جدًا ومرنة، ومن السهل فرض الأشياء علي.

وعلى الرغم من كل ما فعله سيدي، فقد جرت الأمور ضدي. وجدتني هيئة المحلفين مذنبة بارتكاب جريمة قتل، وشريكة سواء قبل أو بعد وقوع الحادثة، وأصدر القاضي حكمًا بالإعدام. أُجبرت على الوقوف لسماع الحُكم، وقد أغمي علي فور سماعه، وسقطت على السور المصنوع من الأطراف المسننة المحيطة بقفص الاتهام، وانغرز أحد المسامير في ثديي، بجوار قلبي.

أستطيع أن أريه الندبة.

44

استقل سايمون القطار الصباحي إلى تورونتو. إنه يسافر في الدرجة الثانية، أنفق الكثير من المال مؤخرًا، ويشعر بالحاجة إلى الاقتصاد.

يتطلع إلى لقاء كينيث ماكنزي: فمن خلاله قد يكشف عن بعض التفاصيل، شيء ما فشلت غريس في ذكره، إما لأنه قد يُظهرها بمظهر سيئ، أو لأنها نسيته بصدق. فالعقل -يفكر- بمثابة بيت، والأفكار التي لم يعد المالك يرغب في عرضها -أو تلك التي تثير ذكريات مؤلمة- مخفية عن الأنظار، وأُودعت العلية أو القبو. وعند النسيان، كما هو الحال عند تخزين الأثاث المكسور، هناك بالتأكيد مقدار ضئيل من الإرادة في العمل.

إرادة غريس من النوع الأنثوي السالب؛ يمكنها أن تنكر وترفض بسهولة تفوق كثيرًا ما تستطيع إقراره أو قبوله. في مكان ما بداخلها: لقد رأى -وأن كان للحظة واحدة فقط- ذلك الوعي، الذي يصل حدّ المكر في زاوية عينها، إنها واعية بإخفائها شيئًا عنه.

عندما تنشغل بغرزها أثناء الخياطة، بهدوء ظاهري، كأنها عذراء منحوتة من الرخام، حينها تمارس كل قوتها المستترة العنيدة ضدّه. السجن لا يحبس السجناء داخله فحسب، بل يبقي الآخرين في الخارج. إنّ سجنها الأقوى ذلك الذي شيدته بنفسها. في بعض الأيام يود لو يصفعها. يحركه لذلك إغراء شبه ساحق. لكنها كانت ستوقعه في الشباك، ويصبح لديها سبب لمقاومته. كانت ستسلط عليه نظرة ظبية جريحة، النظرة التي تحتفظ بها النساء لمثل هذه المناسبات. كانت ستبكي.

ومع ذلك فهو لا يشعر أنها تكره محادثاتهم. على العكس، يبدو أنها ترحب بها، بل وتستمتع بها، بقدر ما يتمتع الواحد منا بأي نوع من الألعاب عندما يكون رابحًا – يقول لنفسه بخيبة. العاطفة التي تعبر عنها بانفتاح تجاهه هي الامتنان المكبوح. وصل إلى مرحلة يكره فيها امتنان النساء. يشبه الأمر تودّد أرنبٍ لك، أو كأن تكون مغطًّى بعصير الفواكه اللزج: لا يمكنك إزالته. إنه يبطّئك، ويعيقك. في كل مرة تعبّر فيها امرأة عن امتنانها له يشعر وكأنه يأخذ حمامًا باردًا.

امتنانهن ليس حقيقيًا، ما يعنينه حقًا بذلك أن عليه هو أن يكون ممنونًا لهنّ. إنّهن يحتقرنه سرًا. يتذكر بخجل، ونوع واهن من كراهية الذات، التفضل الذي يكشف عنه وهو يدفع لفتاة شارع مثيرة للشفقة، ومهترئة إثر الاستعمال المتكرر: النظرة المتضرعة في عينيها، وشعوره هو بالعظمة والثراء والعطف، كأنه هو من على وشك تقديم خدمة لها، وليست هي. أي ازدراء ذلك الذين أبقينه مخفيًا تحت شكرهن وابتساماتهن!

تصيح صافرة القطار، يعبر دخان رمادي النافذة. إلى اليسار، على الجانب الآخر من الحقول المستوية، تقع البحيرة المسطحة، عليها غمازات مثل سبيكة مطروقة. أكواخ خشبية هنا وهناك، حبل غسيل تخفق عليه الملابس، أم -بلا شك- سمينة تلعن الدخان، مجموعة أطفال يحدقون. أشجار مقطوعة حديثًا، ثم جذوع قديمة، محروقة مخمدة. بيت أكبر يظهر عرضيًا، ذو طوب أحمر أو ألواح بيضاء. يخفق المحرك مثل قلب حديدي، يتحرك القطار بلا هوادة باتجاه الغرب.

بعيدًا عن كينغستون. بعيدًا عن السيدة همفري. رايتشل، كما صار ملزمًا بمناداتها الآن. كلما زاد عدد الأميال التي يستطيع وضعها بينه وبين رايتشل همفري، كلما شعر أنه أخف وزنًا وأقل اضطرابًا في الروح. تورط بشدة معها. يتخبط -تتبادر إلى ذهنه صور رمال متحركة- لكنه لا يستطيع أن يرى كيف بإمكانه تخليص نفسه، ليس بعد. وجود عشيقة -وهذا ما أصبحت عليه، كما يفترض، في وقت قصير- أسوأ من وجود زوجة. المسؤوليات المرتبطة بها أثقل وزنًا، وأكثر تشويشًا.

كانت المرة الأولى حادثًا: تعرض لكمين في نومه. استغلته الطبيعة، زحفت إليه وهو مستلقٍ، دون درع النهار، خانته أحلامه. وهو الشيء نفسه الذي تدّعيه رايتشل: كانت تسير في نومها، قالت. ظنّت أنها في الخارج تحت ضوء الشمس، تجمع الزهور، ولكن بطريقة ما وجدت نفسها في غرفته، في الظلام، بين ذراعيه، ضائعة، كان قد فات الأوان حينها. (ضائعة) كلمة تستخدمها كثيرًا. لطالما كانت ذات طبيعة حساسة، كما أخبرته، وعرضة للسرنمة حتى وهي طفلة. اعتادوا

إيصاد باب غرفتها في الليل، لمنعها من التجول في ضوء القمر. لم يصدق هذه القصة ولو للحظة، ولكن بالنسبة لامرأة مهذبة بمنزلتها، يفترض أنها طريقة للحفاظ على ماء الوجه. ما الذي دار في ذهنها حينها، وبماذا تفكر الآن، إنه بالكاد يجرؤ على التكهن.

منذ ذلك الحين صارت تذهب إلى غرفته كل ليلة تقريبًا، في ثوب نوم يعلوه روب بكشكشة بيضاء. شرائط الروب غير مربوطة، الأزرار مفتوحة. تحمل شمعة واحدة: تبدو شابة في الغسق. عيناها الخضراوان لامعتان، وشعرها الناعم الطويل منسدل حول كتفيها كخمار براق.

إذا بقي في الخارج لوقت متأخر -وهو ما صار ميّالًا إليه أكثر- ليمشي بجوار النهر في ليلة باردة، تكون بانتظاره عندما يعود. ردة فعله الأولية هي الضجر: هناك رقصة شعائرية لا بدّ من خوضها، وهي ما يبرمه. تبدأ المواجهة بالدموع، الارتجاف، والممانعة: تتنهد، تعاتب نفسها، تصوّر نفسها على أنها محطمة، تتمرغ في العار، روح مدانة. لم تكن من قبل عشيقة، لم تنحدر إلى هذا المستوى من قبل، متساهلة مع مثل هذا الخزي. ماذا سيحدث لها، إذا ما اكتشفها زوجها؟ المرأة هي الملامة دائمًا.

يسمح لها سايمون أن تجزع لبعض الوقت. ثم يواسيها ويطمئنها بعبارات مبهمة تفيد أن كل شيء سيكون على ما يرام، ويقول إنّ ما فعلته عن غير قصد، لا يحط من قدرها لديه. ثم يضيف إنّه ما من داعٍ ليعلم أحد بذلك، بشرط أن يكونا متكتّمين. يجب عليهما الحذر حتى لا تفشيَ سرهما كلمةٌ أو نظرةٌ، أمام الآخرين -خاصة دورا، لأن على رايتشل أن تعرف ولع الخدم بالنميمة- وهذا الاحتياط ليس لحمايتها فقط، بل لحمايته أيضًا. يمكنه أن يتخيل ما سيقوله -من بين آخرين- القس فيرينغر.

تبكي أكثر عند التفكير في اكتشافهما. تتلوى ذلًا. لا يظن أنها لا تزال تتعاطى المستحضر الأفيوني، أو على الأقل ليس بالمقدار السابق؛ وإلا ما كانت مثارة المشاعر على هذا النحو. سلوكها ما كان ليستحق اللوم، لو أنها أرملة، تتابع. لو

أن الرائد كان ميتًا، فإنها لن تخون بذلك عهود زواجها. لكن والوضع كما هو... يخبرها أن الرائد قد عاملها بفظاعة، وهو وغد، ونذل، وكلب، ويستحق ما هو أسوأ منها. لقد حافظ على درجة من الحذر: فهو لم يعرض عليها الزواج الفوري، إذا ما سقط الرائد فجأة وبصورة غير مقصودة عن جرف ودق عنقه. يتمنى -بينه وبين نفسه- للرائد حياة طويلة وسليمة.

يجفف عينيها بمنديلها، الذي هو دائمًا نظيف، وحديث الكي، يشم رائحة البنفسج، مدسوسًا بطريقة عملية في أكمامها. تحيطه بذراعيها، ضاغطة عليه بشدة، فيشعر بثدييها يندفعان باتجاهه، ثم فخذيها، ثم بكامل جسدها. لديها خصر صغير بصورة مدهشة. فمها يحتك بعنقه. ثم تتراجع، مذعورة من نفسها، مع لفتة من الخجل المغري، وتنحني بعيدًا عنه كأنها على وشك الفرار؛ لم يعد يشعر بالملل.

لا تشبه رايتشل أي امرأة عرفها. أولًا لإنها امرأة محترمة، وهي الأولى -من هذا النوع- بالنسبة له؛ والاحترام في المرأة -كما يكتشف الآن- يعقّد الأمور إلى حد كبير. المرأة المحترمة باردة جنسيًا بطبيعتها، بدون الشهوات المنحرفة والتوق العصبي الذي يدفع أخواتها المنحطات إلى البغاء، أو هكذا تقول النظرية العلمية. أما استكشافه الخاص فيشير إلى أن المومسات مدفوعات بالفقر أكثر من الفساد، ولكن مع ذلك يجب أن يظهرن كما يرغب زبائنهن في تخيلهن. يجب أن تصطنع العاهرة الرغبة ثم المتعة، سواء كانت تشعر بها أم لا. هذا التظاهر هو ما يدفع لأجله. العاهرة الرخيصة ليست رخيصة لأنها قبيحة أو متقدمة في السن، ولكن لأنها ممثلة سيئة.

بينما الأمور معكوسة مع رايتشل. تظاهرها هو التظاهر بالنفور. يتمثل دورها في إظهار المقاومة، ودوره في السيطرة عليها. ترغب في أن تكون مغوية، مغمورة، تؤخذ بخلاف إرادتها. في لحظة بلوغها النشوة -التي تحاول إخفاءها باعتبارها ألمًا- كانت تقول دائمًا لا.

بالإضافة إلى أنها توحي من خلال انكماشها وتشبّثها، ومن خلال توسلها

البائس، بأنها تعرض عليه جسدها كنوع من دفع الدين مقابل المال الذي أنفقه نيابة عنها، كما في بعض الميلودرامات المبالغ فيها التي تعرض المصرفيين الأشرار والعذراوات العفيفات ولكن المفلسات. أما لعبتها الأخرى فبكونها محاصرة، تحت رحمة إرادته، كما هو الحال في الروايات الفاحشة التي يمكن الحصول عليها من أكشاك الكتب الأردأ في باريس، بالسلاطين الذين يبرمون شواربهم، والفتيات الضعيفات المستعبدات. ألبسة الجوخ الفضية، والكواحل المقيدة. أثداء كالبطيخ. عيون غزلان. إن مثل هذه الترتيبات المبتذلة لا تسلبهم سلطتهم.

ما كانت تلك الحماقات التي تفوه بها، في سياق تلك الخلاعة الليلية؟ بالكاد يستطيع أن يتذكر. كلمات العاطفة والحب المضطرم، من قبيل أنه لا يمكن مقاومتها، والتي -للغرابة- كان يعنيها في ذلك الوقت. تكون رايتشل خلال النهار، عبئًا، حملًا ثقيلًا يودّ التخلص منه؛ ولكنها في الليل شخص مختلف تمامًا، وهو كذلك. هو أيضًا يقول لا عندما يقصد نعم. إنه يعني أكثر، يعني أبعد، يعني أعمق. بوده لو يشق جرحًا فيها -جرحًا صغيرًا فقط- حتى يتمكن من تذوق دمها، الرغبة التي تبدو في ظلمة غرفة نومه المظللة، رغبة طبيعية تمامًا. إنه مدفوع بما يشبه الرغبة متعذّرة الضبط؛ ولكن بصرف النظر عن ذلك -بصرف النظر عن نفسه، في هذه الأوقات، حيث تقذف الشراشف كالأمواج وهو يتداعى وينغمس ويلهث- جزء آخر من نفسه يقف بأذرع مطوية، مرتديًا كامل ملابسه، مجرد فضوليٍّ، مجرد مراقبٍ. إلى أي مدًى سيذهب؟ إلى أي عمق.

يقف القطار في محطة تورنتو، يحاول سايمون وضع هذه الأفكار خلفه. يستأجر عربة بعجلتين في المحطة، ويرشد السائق إلى الفندق المتفق عليه؛ ليس الأفضل -فهو لا يريد أن يبدد المال دون داعٍ- لكنه ليس زريبة أيضًا، فهو لا يريد أن تعضه البراغيث واللصوص. بينما يتنقلون في الشوارع -الحارة، المغبرة والمزدحمة بمركبات من جميع الأصناف: العربات الثقيلة، العربات التي تجرّها أربعة أحصنة، والعربات الخاصة- ينظر من حوله باهتمام. كل شيء جديد ومنعش، مهتاج ومتألق، خشن ومنسجم، مع رائحة النقود الطازجة والطلاء الجديد من

حوله. صُنِعَت ثروات هنا في وقت قصير جدًا، فيما يُصْنَع المزيد منها الآن. هناك المتاجر المعتادة والمباني التجارية، وعدد مفاجئ من البنوك. لكن لا تبدو أي من مؤسسات الغذاء واعدة. يبدو الناس على الأرصفة -في الغالب- لائقين بالقدر الكافي، دون حشد المتسولين المعدمين، وأسراب الأطفال السّقام القذرين، وشرذمة البغايا المتمايلات أو المبهرجات، الذين يشوّهون العديد من المدن الأوروبية. لكنه في النهاية منحرف إلى درجة أنه يفضل أن يكون في لندن أو باريس. هناك سيكون مجهولًا، ولن تكون لديه أي مسؤوليات. لا روابط ولا علاقات. سيكون قادرًا على أن يفقد نفسه تمامًا.

XII

معبد سليمان

نظرت إليها بذهول. «يا إلهي -فكرت- هل يمكن أن تكون هذه امرأة؟ وامرأة ذات مظهر جميل وناعم فوق ذلك، بل إنها مجرد فتاة! أي قلب ذاك الذي تملكه!» شعرت بإغراء إخبارها أنها شيطان، وأني لا أريد أن تكون لي أي علاقة بهذا العمل الرهيب، لكنها بدت جميلة جدًا، إلى درجة أنني بطريقة أو بأخرى استسلمت للإغراء...»

- جيمس ماكديرموت، إلى كينيث ماكنزي، كما أعيد سرده من قبل سوسانا مودي، الحياة في القصاص، 1853.

لأن مصير المرأة
أن تصبر وتصمت طويلًا، وتنتظر مثل شبح عاجز عن الكلام،
إلى أن يأتي صوتٌ مستطلع، يفك لعنة الصمت.
هذه هي الحياة الداخلية للعديد من النساء المعذبات
معتمة، صامتة، عميقة مثل أنهار جوفية
تجري عبر كهوف من الظلمة...

- هنري وادسورث لونجفيلو، مغازلة مايلز ستاندش، 1858.

45

تقع مكاتب محاماة برادلي وبورتر وماكنزي في مبنًى جديدٍ مبنيٍ من الطوب الأحمر في كينج ستريت ويست. في المكتب الخارجي، يجلس شاب ضامر بشعر عديم اللون على طاولة عالية، يحك نفسه بقلم حبر ذي رأس من فولاذ. يقفز فور دخول سايمون، ناثرًا قطرات الحبر مثل كلب يهز نفسه.

«السيد ماكنزي بانتظارك سيدي.» يقول. يضع كلمة ماكنزي بين قوسين للتبجيل. كم هو صغير -يفكر سايمون- لا بدّ أن هذه وظيفته الأولى. يُرشد سايمون على طول ممرٍّ مغطًّى بالسجاد، ويقرع بابًا سميكًا من خشب السنديان.

كينيث ماكنزي في محرابه. وقد أطّر نفسه بأرفف كتب مصقولة، مجلدات تخص المهنة ذات تغليف ثمين، وثلاث لوحات لخيول رهان. فوق مكتبه قلم ومحبرة بالطراز البيزنطي الفخم. أما هو فلا يبدو كما توقعه سايمون: ليس بيرسيوس بمظهره البطولي، وليس فارس الصليب الأحمر، بل رجلًا قصيرًا بجسد على هيئة الكمثرى: أكتاف ضيقة، وبطن صغيرة مستريحة تنتفخ تحت سترة الترتان. وأنف دربي مغطًّى بالبثور، وخلف نظارته الفضية، عينان صغيرتان ولكنهما شديدتا الملاحظة. ينهض عن كرسيه بيد ممدودة، يبتسم. لديه سنّان أماميان طويلان مثل قندس. يحاول سايمون تخيل مظهره قبل ستة عشر عامًا، عندما كان شابًا -أصغر من سايمون الآن- لكنه فشل في المحاولة. لا بدّ أن كينيث ماكنزي بدا في منتصف العمر حتى وهو في عمر الخامسة.

إذًا فهذا هو الرجل، الذي أنقذ حياة غريس ماركس، بالرغم من كل العراقيل: الأدلة الدامغة، الرأي العام المثار، وشهادتها المرتبكة، غير القابلة للتصديق. يتملّك سايمون الفضول لمعرفة كيف -بالضبط- تدبّر ذلك.

- دكتور جوردن، يا له من شرف.
- لطف منك أن تخصص لي بعضًا من وقتك.

يقول سايمون.

- على الإطلاق. استلمت خطاب القس فيرينغر، إنه يطري عليك، وقد

أخبرني بشأن مشروعك. يسعدني أن أقدم ما أستطيعه لصالح العلم. وكما سمعت بالتأكيد، فنحن المحامون نرحب بأي فرصة للتباهي. ولكن قبل أن نبدأ...

يقدم إناء الخمر، السيجار. الشيري ممتاز، يبدو أن أمور السيد ماكنزي على أحسن ما يرام.

- لا تربطك صلة قرابة بالمتمرد الشهير، أليس كذلك؟

يسأل سايمون مستفتحًا الحوار.

- إطلاقًا، بالرغم من أنني أفضل ادّعاء أننا أقارب، إذ لم يعد هذا الأمر يحمل مساوئ كالسابق، عُفِيَ عن الرجل منذ فترة طويلة، ويُنظَر إليه الآن على أنه أب الإصلاحات. لكن المشاعر كانت متأججة ضده في تلك الأيام. كان بإمكان هذا وحده أن يضع حبلًا حول رقبة غريس ماركس. إذا ما أعدت قراءة الصحف مرة أخرى، فستلاحظ أن هؤلاء الداعمين للسيد ماكنزي وقضيته هم المساندون الوحيدون لغريس. أمّا الآخرون جميعًا فكانوا يطالبون بشنقها، وشنق ويليام ليون ماكنزي، وأي شخص آخر يُشك في تعاطفه مع الجمهوريين.

- لكن بالطبع لم تكن هناك أي علاقة!

- لا شيء على الإطلاق. ليس هناك أي حاجة للربط في مثل هذه الأمور. كان السيد كينير رجلًا نبيلًا من حزب المحافظين، فيما وقف ويليام ليون ماكنزي في صف الإسكتلنديين الفقراء، والإيرلنديين، والمهاجرين المستعمرين بشكل عام. الطيور على أشكالها تقع، هذا ما ظنوه. دعني أقول لك إنني تعرقتُ دمًا في المحاكمة. كانت قضيتي الأولى كما تعلم، الأولى تمامًا، فور أن أُجزتُ. إما أن أصيب أو أخيب، وكما تبين في النهاية، أعطتني القضية دفعة إلى أعلى.

- كيف توليت القضية على أي حال؟

- رُميت عليّ يا عزيزي، مثل بطاطا ساخنة، لم يرغب فيها أحد. أخذتها

الشركة دون مقابل، إذ لم يملك أي من المتهمين المال بالطبع، ولأني أصغرهم، استلمتها في اللحظة الأخيرة، بالكاد حصلت على شهر للتحضير. «حسنًا يا فتى -قال برادلي- دعني أوضح الأمر. يعلم الجميع أنك ستخسر، لا شك أنهم مذنبون؛ لكنّ ما يُحْتَسَبُ هو طريقتك في الخسارة. هناك خسارة فاحشة، وهناك خسارة أنيقة. دعنا نشاهدك وأنت تخسر بأقصى قدر ممكن من الأناقة. سنقف جميعًا لتشجيعك.» ظن الرجل أنه يسدي إليّ خدمة بذلك، وربما كان كذلك في الواقع.

- ترافعت عن كليهما، حسب ما أظن.

- فعلًا. تبين لاحقًا أنّ هذا خطأ، حين ثبت أن مصالحهما متضاربة. كانت هنالك الكثير من الأخطاء في ما يتعلّق بالمحاكمة؛ لكنّ ممارسة القانون كانت أكثر تساهلًا حينها.

ماكنزي يقطب بوجه سيجاره الذي انطفأ. صُدم سايمون من حقيقة أن رفيقه المسكين لا يستمتع بالدخان، بل يعده إلزامًا يتماشى مع صورة فرس الرهان.

- لقد التقيت بسيدة الصمت إذًا؟

يسأل ماكنزي.

- أهكذا تسميها؟ نعم في الواقع. كنت أقضي الكثير من الوقت معها مؤخّرًا، في محاولة تحديد...

- ما إذا كانت بريئة؟

- ما إذا كانت مجنونة. على الأقل وقت حدوث جرائم القتل. الذي أفترض أنه براءة من نوع ما.

- حظًا سعيدًا. إنه شيء لم أستطع أبدًا الشعور بالرّضى تجاهه.

- إنها تدّعي فقدان الذاكرة وقت جرائم القتل؛ أو على الأقل عند مقتل امرأة مونتغمري.

- ستدهش يا عزيزي من مدى هشاشة الذاكرة بين جماعة المجرمين.

القليل منهم يمكنه تذكر فعل أي شيء خطأ على الإطلاق. يضربون رجلًا حتى الموت، ويقطعونه إربًا، ثم يدّعون أنها ليست أكثر من ضربة صغيرة بمؤخرة قنينة. إن النسيان في مثل هذه الحالات، ملائم أكثر من التذكر.

- يبدو فقدان الذاكرة لدى غريس أصيلًا، أو هذا ما أعتقده في ضوء تجاربي السريرية السابقة. من ناحية أخرى، على الرغم من أنها لا تستطيع تذكر جريمة القتل، إلا أنها استدعت بدقة التفاصيل المحيطة بها، كل قطعة غسيل غسلتها على سبيل المثال، وأشياء مثل سباق المراكب قُبيل رحلتها عبر البحيرة. حتى إنّها تتذكر أسماء القوارب.

- كيف تحققت من الوقائع؟ الصحف، كما أفترض. هل خطر في بالك أنها استمدت تفاصيلها من المصدر نفسه؟ يقرأ المجرمون عن أنفسهم دون كلل، إذا ما أتيحت لهم الفرصة. إنهم مزهوون بأنفسهم كالمؤلفين. عندما أكد ماكديرموت أن غريس ساعدته في مهمة الخنق، فربما تكون صحيفة كنغستون كرونيكل آند غزات قد أوحت له بالفكرة، الأمر الذي قُدم كحقيقة، حتى قبل إجراء التحقيق، قائلين إنّ العقدة حول رقبة المرأة الميتة تتطلب بجلاء شخصين لربطها. يا له من هراء: لا يمكنك أن تعرف من خلال العقدة ما إذا تمت بفعل شخص واحد أو اثنين أو حتى عشرين. سحقتُ هذه النظرية -بالطبع- في المحاكمة.

- أرى أنك تلتف الآن، وترافع عن الطرف الآخر في القضية.

- يجب على المرء دائمًا أن يبقي الطرفين حاضرين في ذهنه. إنها الطريقة الوحيدة لتوقع تحركات الخصم. لا أدّعي أنها كانت مهمة صعبة. لكنني على أي حال فعلت ما أستطيعه، ليس بمقدور الرجل إلّا أن يقدم أفضل ما لديه، كما ذكر والتر سكوت في مكان ما. بغض النظر عن جوّ نوفمبر، ازدحمت قاعة المحكمة كالجحيم، طقس حار، وجو خانق. ومع ذلك، استجوبت بعض الشهود لأكثر من ثلاث ساعات. تطلب ذلك قدرًا عاليًا من التحمل، لكنني كنت شابًا حينها.

- بدأتَ بنقض الاعتقال نفسه، حسب ما أذكر.
- فعلًا. قبض على ماركس وماكديرموت على الأراضي الأمريكية، ودون أمر قضائي. أدليتُ بخطاب رفيع حول انتهاك الحدود الدولية، واستصدار مذكرة للمثول أمام القضاء وهكذا؛ لكنّ كبير القضاة روبنسون لم يقبل أيًا من ذلك.

حاولت بعدها إثبات أن السيد كينير خروفٌ أسود في قطيع الخرفان البيض، ومتساهلٌ أخلاقيًا؛ والذي كان صحيحًا بلا شك. مصابًا بوسواس المرض أيضًا. لم يكن لأي من هذا علاقة كبيرة بحقيقة أنه قُتل، لكنني بذلت قصارى جهدي، لا سيما مع موضوع الأخلاق. وحقيقة أن هؤلاء الأشخاص الأربعة ظلّوا يظهرون في أسرّة بعضهم البعض وكأنهم في ملهاة فرنسية، حتى صعب التنبؤ بمن ينام مع من.

ثم شرعت في تدمير سمعة امرأة مونتغمري سيئة الحظ. لم أشعر بالذنب للتشهير بها، فأمر المخلوقة المسكينة مضى وانقضى. أنجبت طفلًا في السابق -كما تعلم- أماتته القابلات كما أفترض شفقةً عليه. وعند تشريح الجثة وُجد أنها حامل. كان كينير الأب بلا شك، لكنني بذلت كل جهدي لتقديم نسخة لروميو الذي خنق المرأة المسكينة بدافع الغيرة. ومع أنني سحبت بأقصى قوتي، إلا أن ذلك الأرنب رفض الخروج من القبعة.

- ربما لأنه ما من أرنب في القبعة.
- هذا صحيح إلى حد ما. كانت خدعتي التالية عبارة عن خفة يد باستخدام القمصان. من كان يلبس أي قميص ومتى ولماذا؟ قُبِض على ماكديرموت لابسًا أحد قمصان كينير -ماذا بعد؟ أثبتُّ حقيقة أن نانسي اعتادت بيع ملابس رب عملها للخدم، بإذن سيدها أو بدونه؛ لذا كان بإمكان ماكديرموت أن يحصل على قميص نيسوس[34] بطريقة نزيهة. لسوء الحظ أن أحد قمصان ماكديرموت كسى جثة كينير -على عجل- بشكل فاضح، وكان هذا

34 القميص الذي قتل هرقل. (م).

حجر عثرة في الواقع. حاولت بذل قصارى جهدي لإبطال ذلك، لكن الادّعاء صدمني بالحقيقة الناصعة.

ثم أشرت بإصبع الاتهام إلى البائع المتجوّل الذي يعود له القميص الدامي وراء الباب، فقد كان يحاول بيع البضائع نفسها في مكان آخر. لكن هذا لم يكن جيدًا أيضًا. هناك من شهد ببيع ذلك القميص تحديدًا إلى ماكديرموت -مجموعة كاملة من القمصان في الواقع- ثم اختفى تمامًا. لم يرغب -لسبب ما- في المثول أمام المحكمة، وتعريض رقبته لخطر الشنق.

- جبان.

- تمامًا -يقول ماكنزي ضاحكًا- فيما يتعلق بغريس، يجب أن أعترف بأنني لن أكون مفيدًا جدًا. ما كان بالإمكان أن تثني الفتاةَ الحمقاءَ عن لبس الملابس المبهرجة للمرأة المقتولة، وهو عمل نُظر إليه بفزع من قبل الصحف والعامة؛ على الرغم من أنني لو فطنت، لقدمت هذه الحقيقة كدليل على ضمير بريء وغير مكدر، أو -أفضل من ذلك- كدليل على اختلال العقل. لكني لم أملك الدهاء للتفكير بهذا حينها.

فوق ذلك، شوشت غريس المحاكمة كثيرًا. قالت عند اعتقالها إنها لا تعرف مكان نانسي. ثم قالت في التحقيق إنها تشتبه في مقتل نانسي ووجودها في القبو، على الرغم من أنّها لم تشهد وضعها هناك. لكنها ادّعت في المحاكمة، وفي اعترافها المزعوم -تلك المقالة التي نشرتها مجلة ستار، وربحت أموالًا طائلة من ورائها- أنّها شاهدت ماكديرموت يسحب نانسي من شعرها، ويلقي بها عبر الدرج. لم تذهب أبدًا إلى حد الاعتراف بالخنق.

- لكنها اعترفت به لاحقًا.

- هل فعلت؟ لا أذكر...

- في السجن، أخبرتك أن عيني نانسي الملطختين بالدماء تطاردانها؛ أو هذا ما أبلغتْ السيدةُ مودي بأنك قلته.

يتحرك ماكنزي بانزعاج، وينظر إلى أسفل:

- كانت غريس بالتأكيد في حالة ذهنية مضطربة. مشوشة ومغتمة. لكن العيون؟

للسيدة مودي -التي أكنّ لها أعظم الاحترام- مخيلة تقليدية إلى حد ما، وميل إلى المبالغة. إنها تضع الخطب المنمقة في أفواه الناس الذين تخضعهم للدراسة، الخطب التي يستبعد أنهم أعدّوها بأنفسهم، كون ماكديرموت جاهلًا تمامًا -حتى أنا الذي كنت أدافع عنه، احتجت لبذل مجهود من أجل تجميع بعض الكلام الجيد في حق الرجل- وغريس أقرب إلى طفلة غير متعلمة. أما بالنسبة للعيون، فإن معظم ما يدركه العقل يوفر غالبًا عبر العينين. إنّك تراه كل يوم على منصة الشهود.

- لم تكن هناك عيون إذًا؟

يتحرك ماكنزي بانزعاج مرة أخرى، ويقول:

- ما كنت لأقول شيئًا بشأن العينين تحت القسم. غريس لم تقل أي شيء في المحكمة يمكنه أن يشكل اعترافًا، قالت إنها تأسف لموت نانسي. لكن يمكن لأي شخص أن يقول ذلك.

- صحيح.

يقول سايمون، وهو يشك الآن في أنّ العيون لم تبتدعها السيدة مودي، ويتساءل ما هي الأجزاء الأخرى من روايتها التي تعود إلى طبيعة ماكنزي المزخرفة كراوٍ:

- ولكن لدينا أيضًا اعتراف ماكديرموت، الذي أدلى به قبل شنقه.

- أجل أجل، إن تصريح ما قبل الشنق يجد دائمًا طريقه إلى الصحف. أتساءل لماذا انتظر طويلًا؟ حتى اللحظة الأخيرة، كان يأمل في تخفيف العقوبة، كما حدث مع غريس. واعتبر أنهما متساويان في الذنب، وعليه فإن الأحكام يجب أن تكون متساوية أيضًا، ولم يستطع أن يتّهمها دون أن يشد حبل المشنقة أكثر حول رقبته، لأن ذلك يستدعي الاعتراف بما ارتكبه.

- في حين يمكن لغريس اتهامه والإفلات نسبيًا من العقوبة.

- هذا صحيح. لم تتوانَ عن ذلك عندما أتت الفرصة. يا حافظ! تلك المرأة لديها أعصاب كالصوان بإمكانها أن تكون محاميًا جيدًا، لو كانت رجلًا.
- لكن ماكديرموت لم يحصل على إرجاء لتنفيذ العقوبة.
- بالطبع لا! كان مجنونًا ليتوقّع شيئًا كهذا، لكنه غضب مع ذلك. واعتبرها غلطة غريس أيضًا، لأنها احتكرت سوق الرأفة. وكما قرأت، أراد أن ينتقم بعدها.
- يمكن تفهم ذلك إلى حد ما. حسب ما أذكر، فقد ادّعى أن غريس نزلت معه إلى القبو، وخنقت نانسي بمنديلها.
- في الحقيقة، عُثِر على المنديل بالفعل. لكنه لا يعد دليلًا قويًا على ما حدث. حكى الرجل العديد من القصص المختلفة، وكان كاذبًا سيئ السمعة أيضًا.
- على الرغم من ذلك -وحتى نُعمِل محامي الشيطان[35]- فكون الرجل معروفًا بالكذب، لا يعني أنه يفعل ذلك دائمًا.
- تمامًا. حسنًا، أرى أن غريس الفاتنة كانت تقودك في مطاردة مرحة.
- ليست مرحة جدًا. عليّ الاعتراف بأنني محتار. في ما تقوله رنةُ حقيقةٍ، سلوكها نزيه وصادق. مع ذلك لا أستطيع إزاحة الشبهة بأنها -بطريقة لا أستطيع الإشارة إليها بإصبعي- تكذب علي.
- تكذب! إنه مصطلح قاس بالتأكيد. هل كانت تكذب عليك، تسأل؟ دعني أعبر عن الأمر بهذه الطريقة: هل كذبت شهرزاد؟ ليس من وجهة نظرها. في الواقع، لا يجب إخضاع القصص التي حكتها لتصنيفات قطعية كالحق والباطل. إنها تنتمي إلى حقل آخر تمامًا. ربما كانت غريس ماركس تخبرك فقط ما يجب أن تخبره، من أجل تحقيق الهدف المنشود.
- وهو؟
- لتوفر التسلية للسلطان، لمنع وقوع الكارثة. لإحباط مغادرتك، وتمديد

35 إثارة الجدل لاختبار قوة الحجج المعارضة. (م).

إقامتك في الغرفة معها أطول فترة ممكنة.

- ما الجدوى من ذلك بحق السماء؟ تسليتي لن تخرجها من السجن.

- لا أفترض أنها تتوقع ذلك حقًا. لكن أليس ذلك واضحًا؟ وقعت المخلوقة المسكينة في حبك. رجل عزب، شاب إلى حد ما، غير معيب. يظهر لشخص ظل محتجزًا لفترة طويلة، وحُرم من الرفقة الذكورية. أنت بلا شك موضوع أحلام يقظتها.

- بالطبع لا.

تحمر وجنتاه رغمًا عنه. إذا كانت غريس تحبه، فقد صانت السر على نحو جيد للغاية.

- لكنني لا أزال عند رأيي! عشت التجربة نفسها، أو شيئًا شبيهًا. لأنني اضطررت إلى قضاء عدة ساعات معها، في زنزانتها بتورنتو، بينما كانت تغزل خيوطها لي لأقصى حد يمكنها الذهاب إليه. سَلبتُ لبها، ولم ترغب في أن أبتعد عن نظرها. النظرات الناعمة الحالمة! لو أني وضعت يدي في يدها، لألقت بنفسها بين ذراعي.

سايمون مشمئز. يا له من قزم ضئيل متغطرس، بسترته الأنيقة، وأنفه البصلي! يقول: حقًا؟ محاولًا ألّا يُظهر غضبه.

- آه نعم. ظننّتُ أنها ستشنق، كما تعلم. الخوف هو مثير مدهش للشهوة الجنسية. أنصحك بتجربته. كثيرًا ما نُختار نحن المحامون لدور القديس جورج، على الأقل حتى حين. اعثر على عذراء مغلولة إلى صخرة وعلى وشك أن يفترسها وحشٌ ما، أنقذها ثم استبقها لنفسك. هذا ما يحدث بالعادة مع العوانس، ألا تتّفق معي؟ لن أقول إنه لم يكن مغريًا. كانت صغيرة جدًا ورقيقة حينها، على الرغم من أن حياة السجن -بلا شك- قد زادتها صلابة.

يسعل سايمون، لإخفاء غضبه. كيف لم يلاحظ أن للرجل فمًا كفم فاجر منحرف عجوز؟ حصان مواخير ريفية. شهواني ماكر. يقول:

- في حالتي، لم يكن هناك أي تلميح لذلك على الإطلاق.

كان يظن أن أحلام اليقظة من جانبه فقط، لكنه بدأ يشك في ذلك. كيف كانت غريس تفكر فيه حقًا، وهي تخيط وتروي؟

- كنت محظوظًا للغاية، وغريس بالطبع، لأن محاكمة قتل السيد كينير أتت قبل محاكمة نانسي. كان من الواضح للجميع أنه لا يدَ لها في حادث إطلاق النار على كينير. ولقتل نانسي -بالنسبة لكليهما في الواقع- كانت الأدلة ظرفية فقط. لم تُدَن باعتبارها مسؤولة، ولكن متواطئة، لأن كل ما يمكن إثباته ضدها هو أنها عرفت مقدمًا بنيات ماكديرموت لقتله، لكنها فشلت في الإبلاغ عنه؛ وأنها أهملت بالمِثْلِ بثّ الأخبار بعد أن أتمّ الأمر. حتى رئيس القضاة نفسه أوصى بالرأفة، وبمساعدة العديد من الالتماسات القوية لصالحها، تمكنتُ من إنقاذ حياتها. بحلول ذلك الوقت، كان حكم الإعدام قد صدر ضدهما، وأُغلقت المحاكمة، إذ كان من غير الضروري الدخول في تفاصيل القضية الثانية؛ لذا لم تُحاكم غريس أبدًا بتهمة قتل نانسي مونتغمري.
- ولو أن ذلك حدث؟
- ما كنت لأتمكن من إنقاذها. لكان الرأي العام قويًا جدًا. لو أن المحاكمة تمت، لكانت قد شنقت.
- لكنها بريئة برأيك.
- لا، على العكس -يقول ماكنزي، وهو يرشف الشيري، ماسحًا شفتيه بتلذذ، مبتسمًا ابتسامة استدعاء ذكرى لطيفة- إنها في رأيي، مذنبة ذنب الخطيئة نفسها.

46

ماذا يفعل الدكتور جوردن ومتى يعود؟ أستطيع تخمين أنه يتحدث للناس بتورنتو، في محاولة لمعرفة ما إذا كنت مذنبة. لكنه لن يجد الحقيقة بهذه الطريقة. لم يفهم حتى الآن أن الذنب لا يأتي من الأشياء التي فعلتها، بل ممّا فعله الآخرون بك.

اسمه الأول سايمون. أتساءل لماذا سمته والدته ذلك، أو ربما والده. لم يشغل والدي نفسه أبدًا بتسميتنا، فالأمر عائد لوالدتي وللعمة بولين. هناك سايمون بطرس من الحواريين بالطبع، والذي عيّنه الرب صيادًا للبشرية. ولكن هناك أيضًا سايمون البريء[36] الذي التقى بصانع الفطائر، في طريقه إلى السوق. سأل أن يسمح له بتذوق الفطيرة، مع أنه لا يملك فلسًا. ماكديرموت أيضًا ظن أنه يستطيع أن يأخذ الأشياء دون أن يدفع لها؛ وكذلك الدكتور جوردن. ليس الأمر أنني لا أشعر بالأسف عليه. لطالما كان ضعيفًا، لكنه على إثري يصبح أكثر ضعفًا. أعتقد أنه فريسة في فم الحزن.

أما عن سبب تسميتي[37] فقد تكون الترتيلة. لم تقل أمي ذلك أبدًا، لكن أيضًا، هناك أشياء كثيرة لم تقلها أبدًا.

نعمة مذهلة!

ما أعذب الصوت، الذي أنقذ تعيسًا مثلي!

كنت ضائعًا، لكني وُجدت الآن،

كنت أعمًى، لكني أصبحتُ بصيرًا.

آمل أن يكون هذا ما تسميت عليه. أود لو أجد نفسي. أود لو أبصر. أو أن يُنظر إلي. أتساءل إن كان الأمران متساويان في نظر الرب. فكما يقول الكتاب المقدس: فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ، فِي لُغْزٍ، لكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لِوَجْهٍ. إن كان وجهًا لوجه، فيجب أن يكون هناك اثنان ينظران.

---

36 أغنية للأطفال. (م).

37 Grace تعني النعمة. (م).

اليوم يوم الحمام. يدور نقاش حول جعلنا نستحم عاريات في مجموعات، بدلًا من أن نستحم اثنتين اثنتين مرتديات ثيابنا الداخلية. يقولون إن من شأن هذا توفير الوقت والمال، حيث تُستَخْدَمُ كمية أقل من المياه، أعتقد أنها فكرة غير محتشمة، وإذا ما حاولوا تطبيقها فسوف أشتكي للسلطات. قد لا أفعل مع ذلك، إذ تأتي هذه التعليمات بهدف اختبارنا ويجب أن أتعامل معها دون شكوًى، كما أفعل مع باقي الأشياء، في معظم الأحيان. الحمامات -كما هي الآن- غير سارة أصلًا، وحجارة الأرضية زلقة بفعل تراكم الصابون القديم القذر، مثل هلام، والحارسات اللاتي يراقبن. وهو ما قد يكون فكرة جيدة -وإن لم يكن ضروريًا- من أجل تجنب التراشق بالمياه. في الشتاء تتجمد حتى الموت، ولكن مع حرارة الصيف وكل العرق والأوساخ، وهو ما يكون مضاعفًا بعد العمل في المطابخ، لا أمانع التحمم بالماء البارد كثيرًا، لأنه منعش.

بعد أن انتهينا من الحمام، قضيت الوقت في الخياطة. إن السجن متأخر في توفير الملابس الرجالية الموحدة للسجناء، مع توافد المزيد والمزيد منهم، خاصة في أيام الكلب[38] الصيفية عندما يكون المزاج سريع التعكر، ويصبح الناس انتقاميين. لذا فإن عليهم الاستفادة من زوج إضافي من اليدين -يديّ- لإتمام العمل. إن لديهم طلبات وحصصًا يجب إتمامها، مثلما هو الحال في المصنع.

جلست آني ليتل على الدكة بجانبي، مالت نحوي وهمست: غريس، غريس، طبيبك الشاب، هل هو وسيم؟ هل سيخرجك من السجن؟ هل أنت مغرمة به، أفترض أنك كذلك.

«لا تكوني سخيفة -همستُ لها- بالتحدث بمثل هذا الهراء، ما أحببت في حياتي، ولا أخطط للبدء الآن. محكوم عليّ بالحبس مدى الحياة، ولا وقت لمثل هذه الأشياء هنا، ولا مجال لذلك أيضًا في ما يتعلق بالحب.»

آني في الخامسة والثلاثين من عمرها، وهي أكبر مني، ولكن بما أنها ليست معافاة عقليًا، فإنها لم تكبر أبدًا. يحدث ذلك في السجن، بعضهم يبقى بالعمر

---

38 تشير إلى أشد أيام الصيف حرًا. (م).

نفسه طوال الوقت محبوسًا داخل نفسه، بالعمر نفسه الذي وفد فيه إلى هنا.

«ترجّلي عن فرسك العالي -قالت ولكزتني بكوعها- أنت لن تمانعي أن تحشري في ركن ضيق مع عضو صلب، لا سوء في ذلك، وأنت ماكرة جدًا -همست- ستجدين التوقيت والمكان المناسب لو أردتِ، هذا ما فعلته بيرثا فلود مع أحد الحراس في سقيفة الأدوات، لولا أنه قُبض عليها، أمّا أنت فلن يمسكوا بك أبدًا، لأنكِ تملكين يدًا ثابتة، حتى إنّ بإمكانك قتل جدتك في فراشها دون أن يرف لك جفن.» وأطلقت ضحكة مرفقة بشخير.

أخشى أنها عاشت حياة وضيعة.

«هدوء -قالت المراقبة المناوبة- أو سأدون أسماءكن.» أصبحوا أكثر صرامة مرة أخرى، مع رئيس المراقبين الجديد، وإذا ما توفرت الكثير من العلامات ضدك يحلقون شعرك.

بعد وجبة الظهيرة، أُرسلت إلى منزل الآمر. كانت دورا هناك مرة أخرى، رتبتْ مع صاحبة مسكن الدكتور جوردن للقدوم إلينا في أيام الغسيل الشامل. في جعبتها الكثير من الثرثرة كالعادة. لو أنني أفصحت بنصف ما أعرف، لأسقطتُ شخصًا ما من عليائه، هناك الكثير من ذوي المظاهر الأنيقة ممن يلبسون الحرير الأسود ويحملون مناديل الدانتيل، ويعانون صداعَ ما بعد الظهر المغثي، كما لو كانوا محترمين تمامًا. يمكن أن ينطلي هذا على البعض، أما هي فما من غشاوة صوفية على عينيها. قالت إنه منذ غادر الدكتور جوردن، أصبحت سيدتها تقضي الساعات في تمشيط الأرضية، والنظر عبر النافذة، والجلوس غارقة في شرودها. والذي لم يكن مستغربًا، إذ لا بدّ أنها خائفة من أن يهرب منها، كما فعل الآخر. بعدها من سيهتم بأهوائها ونزواتها، والسعي في حوائجها؟

تتجاهل كلاري أغلب ما تقوله دورا. هي غير مهتمة بالثرثرة عن الطبقات الأعلى، إنها تدخن غليونها فقط وتقول هممم. ولكنها سألت اليوم لماذا يجب عليها أن تهتم بما يحصل مع أمثال هؤلاء؟ ربما ترغب دورا أيضًا في مراقبة مراوغات الدجاج والديكة في الفناء، والقول إنّ الرب قد أوجد هؤلاء على الأرض

بهدف توسيخ الغسيل، لأنها لم تستطع العثور على فائدة أخرى من وجودهم. وقالت دورا: حسنًا، عليّ الاعتراف بأنهم يقومون بعملهم هذا على أكمل وجه، إنّهم يوسخونه فور أن أنظفه، الحقيقة أنهم يوسخونه معًا.

أصبت حينها بقشعريرة في كامل جسدي، لم أطلب منها أن تشرح ما قصدته. لم أشأ أن تقول شيئًا سيئًا عن الدكتور جوردن، لأنه لطيف للغاية معي، أخرج حياتي عن مسار الرتابة والكدح.

سأخضع للتنويم، عندما يعود الدكتور جوردن. لقد تقرر كل شيء. جيرمايا -ينبغي عليّ التفكير فيه على أنه الدكتور ديبونت لأن هذا ما يجب أن أدعوه به الآن- هو من سيقوم بالتنويم المغناطيسي، وسوف يراقب الآخرون ويستمعون إليه. شرحتْ لي زوجة الآمر كل شيء، وقالت إنه ينبغي ألّا أخاف. إذ سأكون بين مجموعة أصدقاء يريدون مصلحتي، وكل ما عليّ فعله هو الجلوس على كرسيٍّ والإغفاء عندما يطلب الدكتور ديبونت مني ذلك. سيسألني بعض الأسئلة وأنا منومة. إنهم يأملون أن أستعيد ذاكرتي بهذه الطريقة.

أخبرتها أنّني لست متأكدة على الإطلاق من رغبتي في استعادتها، لكني سأفعل بالطبع ما يطلب مني. وأعربت عن سعادتها لأني في حالة ذهنية مستعدة للتعاون، وكيف أنها تثق بي، وأنها متأكدة من أنني سأكشف عن براءتي.

بعد وجبة المساء، كلفتنا المراقبة بإنهاء بعض أعمال الحياكة في زنازيننا خلال الساعات القادمة، لأنهم كانوا في حاجة إلى جوارب. في الصيف تغرب الشمس في وقت متأخر، لا يضطرون إلى إهدار الشمع علينا.

وهكذا فأنا أحيك الآن. أنا حائكة سريعة، بإمكاني العمل دون الحاجة إلى النظر، ما دامت مجرد جوارب، وليست شيئًا فاخرًا. أفكر بينما أحيك: ما الذي سأضعه في ألبوم تذكاراتي، لو كنت أملك واحدًا؟ قطعة من حافة شال والدتي. نسيجًا من الصوف الأحمر، مأخوذًا من القفازات ذات الأزهار التي صنَعَتْها لي ماري ويتني. قصاصةً من الحرير، من شال نانسي. زرَّ عظم من جيرمايا. أقحوانةً من طوق الأقحوان الذي صنعه لي جيمي والش.

لا شيء من ماكديرموت، لأنّني لا أرغب في تذكره.

لكن ما الذي يجب أن يحويه ألبوم التذكارات؟ هل يقتصر على الأشياء الجيدة في حياتك فقط، أم يجب أن يحوي كل شيء؟ كثيرون يضعون صورًا للمشاهد والأحداث التي لم يشهدوها، كالدوقات وشلالات نياجارا، وهو ما أعتبره نوعًا من الغش. هل أفعل ذلك؟ أم أكون مخلصة لحياتي.

قطعةٌ من القطن الخشن، مأخوذةً من منامة الإصلاحية. مربعٌ من ثوب نسائي ملطخ بالدماء. شريطٌ من منديل أبيض بزهور زرقاء. شونيز دمشقي.

صباح اليوم التالي، بعد شروق الشمس مباشرة، انطلق سايمون إلى ريتشموند هيل، على الحصان الذي استأجره من إصطبل التأجير خلف فندقه. وحش عنيد ككل الخيول التي اعتادت أن يتعاقب عليها الراكبون الغرباء، بفم صعب التحكم، حاول مرتين طحنه على الأسوار. بعدها يستقر، ويمشي بخطوات متثاقلة في خبب مُلحّ، متذبذبِ النشاط، بمشية ارتجاجية. مع أن الطريق مغبر ووعر، إلّا أنه أفضل مما توقع سايمون، وبعد التوقف في العديد من الأنزال على الطريق الجانبي بقصد الراحة، والتزود بالمياه، يصل ريتشموند هيل حوالي بعد الظهر.

لا يمكن اعتبارها مدينة إلى الآن. هناك متجر عام، حداد صنائعي، منازل متفرقة. لا بد أن النزل هو نفسه الذي تتذكره غريس. يدخله، يطلب لحمًا بقريًا محمصًا وبيرة، ويستفسر عن موقع المنزل السابق للسيد كينير. لا يفاجأ المالك: سايمون ليس أول من يطرح مثل هذا السؤال. في الواقع -يقول- كانوا يحتشدون بشكل كبير في وقت وقوع جرائم القتل، ومنذ ذلك الحين كان هناك وفود ثابتة من المشاهدين. سئمت البلدة من كونها معروفة بهذا الشيء وحده: دع الموتى يدفنون الموتى، قال لنفسه. ولكن بعد ذلك، فإن الناس يريدون التحديق في المأساة، هذا غير لائق. قد تظن أنهم سيتركون المشكلة في حالها، لكن لا، إنهم يريدون أن يكون لهم دور فيها. ذهب البعض إلى حدّ حمل بعض الأشياء معهم: كحمل حصى الطريق الداخلي، وبعض الزهور من حديقة الزهور. الرجل الذي يملك المنزل الآن ليس منزعجًا، إذ قل عدد الناس القادمين. ومع ذلك، فهو لا يريد فضولًا عاطلًا.

- يؤكد له سايمون أن فضوله أبعد ما يكون عن العطالة: إنه طبيب، يقوم بدراسة غريس.

- إنها مضيعة للوقت -يقول المالك- لأن غريس كانت مذنبة. كانت امرأة جميلة المظهر -يضيف بنوع من الفخر بمعرفتها- كانت رقيقة إلى درجة أن الزبدة لا تذوب في فمها. ما كنت ستخمن أي مؤامرة تحاك تحت ذلك الوجه

الناعم.

- أظن أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة حينها.

يقول سايمون.

- لكنها تبدو كما لو كانتِ في الثامنة عشرة. من المؤسف أنها آلت إلى الفساد، في سنّ مبكرة. كان السيد كينير رجلًا ممتازًا على الرغم من مجونه، وكان معظم الناس يحبون نانسي مونتغمري، على الرغم من أنها كانت تعيش في الخطيئة. كان يعرف ماكديرموت أيضًا. رياضي من الدرجة الأولى، وكان يمكن أن يعيش حياة جيدة في النهاية، لولا غريس. كانت هي من يقوده، وكانت من وضعت حبل المشنقة حول رقبته أيضًا. تنجو النساء بسهولة دائمًا.

يسأل سايمون عن جيمي والش، لكن جيمي والش قد رحل. يقول البعض إنّه غادر إلى المدينة، ويقول آخرون إنه ذهب إلى الولايات المتحدة. اضطر آل والش إلى الانتقال بعد بيع منزل السيد كينير. في الواقع، لم يبقَ الكثير ممن كانوا في الحي حينها، نظرًا لصفقات البيع والشراء والقدوم والذهاب منذ ذلك الحين. دائمًا ما يكون العشب أكثر خضرة على الجانب الآخر من السياج.

ينطلق سايمون إلى الشمال، ويجد بعض الصعوبة في تحديد ممتلكات كينير. لم يكن يقصد الذهاب إلى المنزل -كان ينوي النظر إليه من بعيد فقط- لكن البستان اليافع أيام غريس كبر الآن، وحجب الرؤية جزئيًا. وقبل أن ينتبه وجد نفسه في منتصف الطريق الداخلي، ثم واقفًا مع حصانه على السياج مباشرة إلى جوار المطبخين، وها هو الآن عند الباب الأمامي.

المنزل أصغر حجمًا، وأكثر قتامة ممّا تخيل. الرواق والأعمدة في حاجة إلى طبقة من الطلاء، وشجيرات الورد أصبحت برية، ولا يظهر سوى عدد قليل من الزهور المليئة بالحشرات. ما الذي يمكن للمظهر أن يقوله، يسأل سايمون نفسه. بصرف النظر -لنقل- عن الإثارة المبتذلة، والانغماس في الاهتمام المهووس؟ الأمر أشبه بزيارة موقع معركة: لا يوجد شيء قابل للرّؤية إلّا بعيون العقل. هذه

المواجهات مع الواقع هي دائمًا خيبة أمل.

يقرع الباب الأمامي مع ذلك، ثم يقرعه مرة أخرى. لا أحد يستجيب. كان يستدير ذاهبًا عندما فُتح الباب. تفتحه امرأة، نحيلة، حزينة الوجه، ليست كبيرة السن لكنها هرمة، رصينة الملبس بثوبٍ غامقٍ مطبوعٍ عليه وقد لبست مئزرًا. يتملك سايمون إحساس بأن هذا ما كانت ستبدو عليه نانسي مونتغمري لو أنّها عاشت.

- أنت هنا لترى المنزل -إنها تخبره لا تسأله- السيد ليس في المنزل، ولكن لدي الإذن لإطلاعك على المكان.

أُخذ سايمون بذلك: كيف عرفوا أنه قادم؟ ربما لا يزال يفد إليهم الكثير من الزوار، بالرغم ممّا أخبره به صاحب الفندق؟ هل أصبح المكان متحف رعب؟

مدبرة المنزل -لا بد أنها المدبرة- تفسح الطريق لسايمون حتى يمر إلى القاعة الأمامية.

- أفترض أنك راغب في رؤية البئر أيضًا -تقول- هذا ما يرغبون فيه دائمًا.

- البئر؟

يسأل سايمون.

لم يسمع شيئًا عن البئر. ربما تستحق هذه الزيارة عناءها أخيرًا، بتوفير بعض التفاصيل الجديدة حول القضية، لم يسبق ذكرها من قبل.

- ماذا بشأن البئر؟

تنظر إليه المرأة نظرة تعجب:

- إنه بئر مغطّى سيدي، بمضخة جديدة. من المؤكد أنك تريد معرفة وضع البئر، عندما تتطلع إلى شراء ملكية ما.

- لكنني لا أتطلع إلى شرائه -يقول سايمون بارتباك- أهو للبيع؟

- وإلا لماذا أريك إياه؟ بالطبع هو للبيع، وليس للمرة الأولى أيضًا. أولئك الذين يعيشون هنا لا يشعرون بالراحة التامة. ليس لأي شيء، لا أشباح أو شيء من هذا القبيل، على الرغم من أنك قد تظن أن وجودها محتمل، أنا

لا أحب الذهاب إلى القبو. لكنه يجذب المتطفّلين العاطلين.

تحدق فيه بشدة: إذا لم يكن مشتريًا، فما الذي يفعله هنا؟ لا يرغب سايمون في أن يظن أنه مجرد متطفل عاطل آخر.

- أنا طبيب.

- آه -تقول مومئة بفطنة، كما لو أن هذا يفسر كل شيء- إذًا تريد أن ترى المنزل. كثير من الأطباء يأتون لرؤيته. أكثر من أي صنف آخر، حتى المحامون. حسنًا، الآن بما أنك هنا، فلنفعل ذلك. هذه صالة الاستقبال، حيث يحتفظون بالبيانو، أخبروني أن الآنسة نانسي مونتغمري اعتادت العزف عليه أيام السيد كينير. قالوا إنها كانت تغني مثل الكناري. كانت مولعة بالموسيقا.

ابتسمت لسايمون، كانت تلك أول ابتسامة تمنحها له.

جولة سايمون شاملة. أُطلع على غرفة الطعام، المكتبة، المطبخ الشتوي، المطبخ الصيفي، الإصطبل ودوره العلوي «حيث كان الوغد ماكديرموت ينام ليلًا.» غرف النوم في الطابق العلوي «يعلم الرب وحده ما جرى هنا.» وغرفة غريس الصغيرة. كل الأثاث مختلف بالطبع. أردأ وأحقر. يحاول سايمون أن يتخيل ما كانت عليه حينها، لكنه يفشل.

بزهو رفيع، تبقي مدبرة المنزل القبو للأخير. تضيء شمعة وتنزل أولًا، تحذّره من الانزلاق. ضوء خافت، وزوايا مغطاة بشباك العنكبوت. هناك رائحة رطوبة عفنة، بفعل الأرض والخضروات المخزنة.

- عُثِرَ عليه هنا -تقول مدبرة المنزل بتلذذ- أمّا هي فأخفيت بوساطة هذا الجدار. على الرغم من أني لا أفهم لماذا أتعبوا أنفسهم بإخفائها. الجريمة تخرج للعلن دائمًا، وقد فعلت. من المؤسف أنهم لم يشنقوا غريس تلك، وهذا ليس رأيي وحدي.

- متأكد من ذلك.

يقول سايمون.

شاهد ما يكفي، ويريد أن يرحل. عند الباب الأمامي، يعطيها قطعة نقدية -يشعر أن هذا ما يجب فعله- فتومئ وتضعها في جيبها.

- يمكنك رؤية القبور أيضًا في فناء الكنيسة في البلدة -تقول- لا توجد عليها أسماء، لكنك ستتعرف عليها. إنها القبور الوحيدة التي تحيطها الأوتاد.

يشكرها سايمون. يشعر وكأنه يتسلل في خزي بعد النظر عبر صندوق الحكواتي. أي نوع من المتلصّصين أصبح؟ من النوع المغالي على ما يبدو، فيما يتجه مباشرة إلى الكنيسة المشيخية. من السهل العثور عليها، إذ إنّ برجها هو الوحيد في الأفق.

تقع المقبرة خلفها، منظمة وخضراء، لقد أحكموا السيطرة على الموتى. لا حشائش عشوائية، لا أكاليل ذابلة، لا فوضًى، ولا تشويشَ، بعيدة كل البعد عن الإزهار الباروكي في أوروبا. لا ملائكة، لا صلبان، لا شيء من هذا الهراء. لا بدّ أن الجنة بالنسبة للمسيحية المشيخية، تشبه مؤسسة مصرفية، حيث تعرف وتنظم كل روح، وتوضع في الحفرة المناسبة من برج الحمام.

القبور التي يبحث عنها جليّة. لكل منها سياج من الوتد الخشبي حوله، وهي الأسوار الوحيدة -من هذا النوع- في المقبرة؛ لإبقاء المقيمين فيها محتجزين بلا شك، بما أن القتلى يشتهرون بخروجهم للمشي. يبدو أن المشيخية أيضًا لم تسلم من الخرافات.

طُلِي سياج الأوتاد الخاصة بتوماس كينير باللون الأبيض، بينما طلي سياج نانسي مونتغمري بالأسود، وهو ما يشير إلى حكم المدينة عليها: ضحية قتل أو لا، ليست بأفضل ممّا تستحق أن تكون. لم يدفنا في القبر نفسه؛ إذ لا داعي للتصِديق على الفضيحة. ومن الغريب أن قبر نانسي قد وضع عند قدمي كينير، بزاوية مستقيمة، تعطيك انطباعًا بأنها سجادة سرير. توجد شجيرة ورد كبيرة تغطي المكان المحاط بسياج نانسي كاملًا تقريبًا -وكأن أغنية العريضة القديمة كانت نبوءة آنذاك- باستثناء أنه ما من كرمة على سياج توماس كينير. يختار سايمون وردة من قبر نانسي، بنية نصف يقينية للعودة بها إلى غريس، ولكن

بعدها يغض النظر عن الفكرة.

يقضي الليل في نزل غير خلاب في منتصف الطريق إلى تورنتو. زجاج النافذة قذر إلى درجة أنه بالكاد يستطيع الرؤية من خلاله، تفوح من البطانيات رائحة العفن. تحت غرفته مباشرة، مجموعة من السكارى الصاخبين يحتفلون حتى منتصف الليل. هذه هي أخطار السفر إلى الأرياف. يضع كرسيًا إزاء الباب لمنع التطفل غير المرغوب.

في الصباح ينهض مبكّرًا ويتفقد مختلف لدغات الحشرات التي نالها أثناء الليل. يغمر رأسه في حوض ضئيل من الماء الفاتر الذي جلبته خادمة الغرف، والتي تعمل أيضًا خادمةً لغسل أوانٍ في الطابق السفلي، ممّا يجعل الماء برائحة البصل.

بعد تناول وجبة الإفطار المكونة من شريحة لحم خنزير منذ عهد الطوفان، وبيض من عمر غير معروف، يكمل طريقه. قلة من الناس في الخارج. يمر بعربة، برجل مع فأسه يقطع شجرة ميتة في حقله، بعامل يتبول في الخندق. حفنات من الضباب تطفو فوق الحقول هنا وهناك، وتتبدد مثل الأحلام في ضوء الشروق. الهواء ضبابي، الندى متعلق بالأعشاب على جانب الطريق. الحصان يشرب على عجل جرعات منها أثناء مروره. يكبحه سايمون بفتور، ثم يجعله يسير متمهّلًا. إنه يشعر بالعطالة، بعيدًا عن جميع الأهداف والجهود.

لديه مهمة أخيرة، قبل أن يستقل قطار الظهيرة. يريد زيارة قبر ماري ويتني. يريد التأكد من أنها موجودة فعلًا.

ذكرت غريس كنيسة أديلايد ستريت الميثودية[39] بحث عنها في ملاحظاته. في المقبرة، يحل الجرانيت المصقول محل الرخام، والآيات تصبح نادرة: التباهي يكمن في الحجم والصلابة، وليس في الزخرفة. الميثوديون مثل آثارهم الضخمة: تكتلات، لا تشوبها شائبة، مثل الخطوط السوداء السميكة المندرجة تحت الحسابات النهائية في دفتر حسابات والده: مدفوع بالكامل.

يسير صاعدًا ونازلًا صفوف المقابر، قارئًا الأسماء عليها -آل بيغز وآل

39 بالإنجليزية: (The Adelaide Street Methodist Church)

ستيوارت، آل فلوك وآل شامبر، آل كوك، وآل راندولف، وآل ستالورثي. وجده في النهاية، في أحد الزوايا: حجر رمادى صغير، يبدو أقدم من التسعة عشر عامًا التي مضت على وضعه. عليه اسم ماري ويتني، لا شيء غير الاسم. لكن غريس قالت إنها لم تستطع تحمل تكلفة أي شيء عدا الاسم.

يشتعل الاقتناع فيه كاللهب -قصتها صحيحة إذًا- ثم يخبو سريعًا. ما قيمة مثل هذه العلامات المادية؟ يخرج الساحر عملة من قبعة، ولأنها عملة حقيقية وقبعة حقيقية، يعتقد الجمهور أن الوهم حقيقي أيضًا. لكن هذا الحجر ليس سوى... حجر. أولًا لأن الشاهد بلا تواريخ، وماري ويتني المدفونة تحته قد لا يكون لها أي ارتباط بغريس ماركس على الإطلاق. يمكن أن تكون ماري مجرد اسم، اسم على حجر، شاهدته غريس هنا واستخدمته في غزل قصتها. يمكن أن تكون امرأة عجوزًا، زوجة، رضيعة صغيرة، أي شخص على الإطلاق.

لم يثبت شيئًا. لكنه لم يدحض أي شيء أيضًا.

***

عائدًا إلى كينغستون، يسافر سايمون على الدرجة الأولى. القطار ممتلئ تقريبًا، يستحق تجنب الازدحام ما دفعه من تكلفة إضافية. بينما يأخذه القطار شرقًا تاركًا تورنتو خلفه، وريشموند هيل ومزارعها ومروجها، يجد نفسه يتساءل كيف سيكون العيش في مكان مثل ذاك، في هذا الريف الثمل الهادئ في منزل توماس كينير -على سبيل المثال- فيما تكون غريس مدبرة منزله. ليست مدبرة منزله فقط، بل وعشيقته الحبيسة السرية. سيبقيها مخفية، تحت اسم آخر.

ستكون حياة كسولة، متساهلة، بمتعها البطيئة الخاصة. صوّرها جالسة على كرسي في الصالون، تخيط، ضوء المصباح يسقط على جانب وجهها. لكن لماذا تكون عشيقته فحسب؟ يتبادر إلى ذهنه الآن أن غريس ماركس هي المرأة الوحيدة التي قابلها وأراد أن يتزوجها. إنها فكرة مفاجئة، ولكن فور أن التقطها بدأ يقلبها، آخذًا إياها بعين الاعتبار. ويفكر -بالمفارقة اليقينية المحرقة- في أنها قد

تكون الوحيدة التي تفي بجميع متطلبات والدته التي لمّحت إليها، أو تقريبًا كلها: غريس ليست غنية على سبيل المثال. لكن لديها جمال دون رعونة، وألفة دون بلادة، وبساطة السلوك، والتعقل، والحذر. وهي أيضًا تجيد شغل الإبرة بامتياز، ويمكنها دون شك أن تحيك حلقات من الكروشيه حول الآنسة فيث كارترايت. لن تتذمر والدته من النتيجة.

بعدها تأتي متطلباته الخاصة. تملك غريس شغفًا في مكان ما، هو متأكد من ذلك، على الرغم من أنه قد يتطلب بعض المطاردة. وستكون ممتنة له، وإن كان على مضض. الامتنان بحد ذاته لا يأسره، لكنه يحب فكرة الممانعة.

لكن هناك جيمس ماكديرموت أيضًا. هل كانت تقول الحقيقة بهذا الصدد؟ هل كرهته وخافت منه بالقدر الذي زعمته؟ لقد لمسها بالتأكيد. ولكن إلى أي حد، وإلى أي حد كانت موافقة؟ مثل هذه الوقائع تظهر عند استذكارها، بشكل يختلف عمّا كانت عليه في حرارة اللحظة. لا أحد يعرف ذلك أفضل منه، ولماذا يجب أن تكون مختلفة كونها امرأة؟ يراوغ المرء، ويمنح الأعذار لنفسه، ثم يخرج من هذا بأفضل طريقة يستطيعها. ولكن ماذا لو كشفت في إحدى الأمسيات تحت ضوء مصباح الصالون أكثر ممّا يهتم بمعرفته؟

لكنه مهتم بالمعرفة.

جنون بالطبع، خيال منحرف، الزواج ممن يشتبه في كونها قاتلة. ولكن ماذا لو التقى بها قبل جرائم القتل؟ يفكر في هذا، ثم يرفضه. قبل القتل كانت غريس مختلفة تمامًا عن المرأة التي يعرفها الآن. فتاة صغيرةً، بالكاد تشكلت؛ فاترة، طيعة، وعديمة الطعم. كمنظر مسطح.

قاتلة... قاتلة، يهمس لنفسه. إن لهذا جاذبيته، مثل عطر تقريبًا. كبيت زجاجي مزروع بالغاردينيا. صارخ، ولكنه ماكر أيضًا. يتخيل نفسه وهو يستنشقه فيما يسحب غريس نحوه، ويضغط بفمه على فمها. قاتلة. يضعه على عنقها مثل وسم.

XIII

صندوق باندورا

ابتدع زوجي نوعًا مبتكرًا جدًا من السبرتوسكوب.[40] لطالما رفضت وضع يدي على هذه اللوحة، التي تتحرك بفعل الناس الواقعين تحت تأثير الغشية، وتتهجّى الرسائل والأسماء حرفًا حرفًا. لكن بما أنني كنت وحدي في ذلك، فقد وضعت يدي على اللوح، وسألت: «أهي روح تلك التي رفعت يدي؟» ودارت مؤشرات اللوحة وتهجت: نعم.

قد تظن -أنت أيضًا- كما كنت أظن، أن الأمر بأسره عمليّة ذهنية، لكن ذهني يجب أن يكون أذكى بكثير ممّا أنا عليه، لا تكون لصاحبه أي فكرة عمّا يمكن أن يتهجاه حرفًا حرفًا، صفحات من المواد المتصلة والغامضة -في أغلب الأحيان- دون أن أعي كلمة واحدة منها، إلى أن يقرأها لي السيد مودي، بعد نهاية الاتصال فأعرف الموضوع حينها. تمثل أختي السيدة تريل، وسيلة قوية جدًا لهذه الاتصالات، وتتلقاها بلغات أجنبية. تسيء أرواحها إليها غالبًا وتطلق عليها نعوتًا قبيحةً جدًا... والآن، لا تعتقد أنّي مجنونة أو أن بي مسًا من الأرواح الشريرة. يمكنني أن أتمنى لكم جميعًا أن تصابوا بمس من هذا الجنون الجليل.

- سوسانا مودي، رسالة إلى ريتشارد بنتلي، 1858.

يرفرف طيف أمامي،
لست أنت، ولكنه شبيه بك.
يا إلهي كيف يمكن ذلك!
أن نرى -خلال برهة-
أرواح من نحبهم، والتي يمكن أن تخبرنا
ماذا وأين أصبحوا!

- الفريد، لورد تينسون، ماد، 1855.

---

40 أداة مصممة للحصول على أدلة تجريبية على التواصل الروحي. (م).

شعرت بشقّ في عقلي

كما لو أن دماغي قد انقسم

حاولت أن أزاوجهما -شطرًا إلى شطر- لكنّي لم أستطع المطابقة.

- إميلي دكنسون، سي. 1860.

48

إنهم ينتظرون في مكتبة منزل السيدة كوينل، جالسين على كراسٍ مستقيمة الظهر، في ميل غير واضح ناحية الباب، الباب المفتوح قليلًا. ستائر المخمل -الكستنائية ذات الزخارف والشراريب السوداء التي تذكر سايمون بجنازات الأسقفية- مغلقة، أضيء مصباح كروي مظلل. يقف وسط طاولة مستطيلة مصنوعة من شجر السنديان. يتحلقون حوله، صامتين، مترقبين، لائقين، وحذرين، مثل هيئة محلفين قبل المحاكمة.

السيدة كوينل مسترخية، تطوي يديها بسكون في حجرها، تتوقع العجائب، لكن من الواضح أنها لن تتفاجأ بها أيًا كانت. لديها مظهرُ دليلٍ سياحيّ محترفٍ أصبحت دهشة -لنقل- شلالات نياغارا شيئًا معتادًا بالنسبة له، لكنه يأمل -بدلًا من ذلك- أن يستمتع بدهشة الزوار المستجدين. يرتسم على زوجة الآمر تعبير تقوًى توّاقة، ومزاج من التسليم. في حين يتدبر القس فيرينغر أمره ليبدو بمظهر اللطيف الرافض في الوقت نفسه، هناك لمعة حول عينيه كما لو كان يلبس النظارات، بالرغم من أنه لا يفعل. تلبس ليديا الجالسة إلى يسار سايمون، ثوبًا معتمًا لامعًا، باللون البنفسجي الفاتح، المضرّج بالأبيض، بقصة واسعة بما يكفي لإظهار عظمة الترقوة الساحرة، تنضح برائحة ندًى شذيّة من زنبق الوادي، تلوي منديلها بعصبية، لكنها تبتسم عندما تلتقي عيناها بعيني سايمون. أما سايمون، فيشعر أن وجهه اتّخذ ملمح سخرية مرتابة وغير سائغة؛ لكنه وجه زائف، إذ تقبع تحته لهفة طالب مدرسة في كرنفال. هو لا يصدق أيًا من هذا، إنه يتوقع خدعة من نوع ما ويتوق إلى اكتشاف كيفية عملها، لكنه يتمنى في الوقت نفسه أن يُدهش. يعلم أن هذه حالة ذهنية خطيرة، إذ يجب عليه الحفاظ على موضوعيته.

تُسمع طرقة على الباب، الذي ينفرج، يدخل الدكتور جيروم ديبونت، يقود غريس من يدها. غريس لا تلتفع بغطاء رأس، وشعرها الملفوف يلمع باللون الأحمر تحت ضوء المصباح. إنها تلبس ياقة بيضاء، لم يسبق له أن رآها، وتبدو

شابة بطريقةٍ مدهشةٍ. تمشي بتردد، كما لو كانت عمياء، لكن عينيها مفتوحتان باتساع، ومثبّتتان على ديبونت بهيبة، برعدة، بمناشدة شاحبة صامتة، العينان اللتان أدرك سايمون للتو أنه يتمنّاها عبثًا.

- أرى أنكم مجتمعون -يقول الدكتور ديبونت- أنا ممتن لاهتمامكم، وثقتكم، كما آمل. يجب إزالة المصباح عن الطاولة. هل لي أن أتطفل سيدة كوينل وأزيحه من فضلك؟ والباب يجب أن يكون مغلقًا أيضًا.

تنهض السيدة كوينل وتنقل المصباح بصمت إلى مكتب صغير في الزاوية. يغلق القس فيرينغر الباب بحزم.

- ستجلس غريس هنا -يقول الدكتور ديبونت، ويضعها بحيث يواجه ظهرها الستائر- هل أنت مرتاحة تمامًا؟ حسنًا. لا تخافي، لا أحد هنا يتمنّى لك الأذى. أوضحتُ لها أن كل ما عليها فعله هو أن تستمع إلي، ثم تغفو. هل تفهمين ذلك تمامًا غريس؟

تومئ غريس. تجلس بجمود، ضاغطة شفتيها معًا، بؤبؤا عينيها يتضخّمان في الضوء الخافت. تمسك يداها بذراعي الكرسي. رأى سايمون مواقف كهذه في عنابر المستشفيات، لدى أشخاص يعانون الألم، أو في انتظار إجراء عملية جراحية. إنه نوع من الخوف الحيواني.

- إنه إجراء علمي بالكامل -يقول الدكتور ديبونت، موجهًا حديثه للبقية، وليس لغريس- أرجو منكم أن تتخلصوا من أفكاركم السابقة حول التنويم المغناطيسي المسمري، وما شاكله من أساليب الاحتيال. نظام بريد منطقي ودقيق تمامًا، وقد أثبته خبراء أوروبيين بدون أدنى شك.

وهو ينطوي على إرخاء مدروس وإعادة تنظيم للأعصاب، يحثُ التنويم العصبي. يمكن ملاحظة الأمر عينه في الأسماك، عند مداعبة الزعنفة الظهرية، وفي القطط أيضًا. على الرغم من أن النتائج بالطبع أعقد لدى الكائنات الحية الأسمى. أرجو منكم تجنب الحركات المفاجئة والأصوات العالية، لأنها قد تكون صادمة، وربما ضارة، للشخص المنوم. سأطلب منكم

البقاء صامتين تمامًا إلى أن تغفو غريس، بعدها يمكنكم التحدث بصوت منخفض.

تحدق غريس في الباب المغلق وكأنها تفكر في الهرب. من شدة توترها يمكن لسايمون أن يشعر بتذبذبها كحبل مشدود. لم يرها من قبل مرعوبة بهذا الشكل. ما الذي قاله أو فعله ديبونت قبل إحضارها إلى هنا؟ تبدو كما لو أنها هُدّدت. ولكن عندما يتكلم معها تنظر إليه بثقة. أيًا كان الأمر، فليس ديبونت ما يرعبها.

يخفض ديبونت ضوء المصباح. يبدو أن هواء الغرفة يتكاثف مع دخان بالكاد يُرى. أصبحت ملامح غريس في الظل الآن، باستثناء بريق عينيها الزجاجي.

يبدأ ديبونت إجراءاته. أولًا يوحي بالثقل، بالنعاس، بعدها يخبر غريس أن أطرافها تطفو، تنجرف، أنها تغرق إلى أسفل، إلى أسفل، إلى أسفل، كما لو كانت في الماء. لصوته رتابة مسكّنة. تهن أجفان غريس. تتنفس بعمق وبهدوء.

- هل أنت نائمة غريس؟

يسألها ديبونت.

- نعم.

تجيب بصوت بطيء وواهن، ولكنه مسموع بوضوح.

- هل تستطيعين سماعي؟

- نعم.

- يمكنك سماعي وحدي فقط؟ حسنًا. عندما تستيقظين، لن تتذكري شيئًا ممّا فعلناه هنا. والآن، نامي أعمق. -يتوقف لحظةً- رجاءً ارفعي ذراعك اليمنى.

- ترتفع الذراع ببطء كما لو كانت تسحب بخيط، إلى أن تستقيم.

- ذراعك -يقول ديبونت- قضيب حديدي. لا أحد يستطيع أن يحنيه -ينظر حوله- هل يود أحد أن يجرب؟

يشعر سايمون بالإغراء لفعل ذلك، لكنه يقرر عدم المخاطرة. في هذه المرحلة لا يريد أن يكون مقتنعًا، كما لا يريد أن يتحرر من الوهم.

- لا أحد؟ -يقول ديبونت- اسمحوا لي إذًا.

يضع يديه على ذراع غريس الممدودة، يميل إلى الأمام.

- أنا أستخدم كل قوتي. لكن الذراع تأبى أن تنحني. حسنًا. يمكنكِ خفض ذراعك الآن.

- إن عينيها مفتوحتان.

تقول ليديا مروعة. وهناك بالتأكيد أنصاف أقمار بيضاء تظهر بين جفونها.

- إنه أمر طبيعي -يقول ديبونت- لكنه عديم الأهمية. في مثل هذا الوضع، يبدو المنوم قادرًا على تمييز بعض الأشياء، حتى مع إغلاق العينين. إنها ميزة يمتلكها النظام العصبي الذي لا بدّ أن يشتمل على بعض الأجهزة الحسية التي لا يمكن قياسها -ليس بعد- بالأدوات البشرية. لكن دعونا نمضي قدمًا.

ينحني باتجاه غريس كما لو كان ينصت إلى قلبها. ثم يخرج من جيب مخفي قطعة من القماش -خمارًا نسائيًا عاديًا، باللون الرمادي الفاتح- ويسقطه برفق فوق رأسها، يتحرك الخمار قليلًا إلى أن يستقر. الآن لا يوجد سوى رأس، مع هيئة وجه خلفه. الإيحاء بالكفن غير قابل للتجاهل.

يفكر سايمون في أن الأمر مسرحي جدًا، مبهرج جدًا. تفوح منه رائحة عفونة قاعات المحاضرات في البلدات الصغيرة قبل خمسة عشر عامًا، بجمهورها من موظفي المتاجر السذج، والمزارعين العمليين، وزوجاتهم الرتيبات، والمتحدثين السلسين من الدجالين الذين اعتادوا على نشر هراء خارج نطاق خبرتهم، وتقديم المشورات الطبية كذريعة لنشل جيوبهم. إنه يسعى إلى السخرية؛ ومع ذلك فمؤخرة رقبته تقشعر.

- إنها تبدو غريبة... غريبة جدًا.

تهمس ليديا.

- هل يأمل في الحصول على إجابة منها أو إلى تحويلها؟ خلف الخمار، خلف الخمار.

يقول القس فيرينغر، بصوته الجهور. لا يستطيع سايمون معرفة ما إذا كان

ينوي أن يكون مزوحًا أو لا.

- عفوًا -تقول زوجة الآمر- أوه نعم عزيزي السيد تينيسون.
- إنه يساعد على التركيز -يقول الدكتور ديبونت بصوت منخفض- الرؤية الداخلية تكون حادة أكثر عندما تحجب عن المشهد الخارجي. والآن يمكننا أن نسافر بأمان إلى الماضي دكتور جوردن. ما الذي ترغب في أن أسألها عنه؟

يتساءل سايمون من أين يبدأ:

- اسألها عن مسكن كينير.
- أي جزء منه؟ يجب أن نكون دقيقين.
- الشرفة.

يقول سايمون، الذي يعتقد بأهمية الشروع بلطف.

- غريس -يقول ديبونت- أنت على شرفة منزل السيد كينير. ماذا ترين هناك؟
- أرى زهورًا -تقول غريس. صوتها ثقيل، وفيه شيء من الوهن- إنه وقت الغروب. أنا سعيدة جدًا. أريد البقاء هنا.
- اسألها، أن تنهض الآن، وتمشي إلى المنزل. اطلب منها الذهاب نحو الباب المؤدي إلى القبو في القاعة الأمامية.

يقول سايمون.

- غريس -يقول ديبونت- يجب عليك...

يُسمع فجأة صوت طرقة مدوية، أشبه بانفجار صغير. هل كان قادمًا من الطاولة، أم من الباب؟ تُطلق ليديا صرخة رعب صغيرة، وتقبض على يد سايمون، سيكون من الفظاظة أن يسحبها، لذلك لا يفعل، خاصة أنها ترتجف مثل ورقة شجر.

- هش! -تقول السيدة كوينل في همسة نافذة- لدينا زائر!
- إنه وليام! -تبكي زوجة الآمر بهدوء- أنا أعلم أنه عزيزي الصغير.
- أتوسل إليكم -يقول ديبونت بحنق- هذه ليست جلسة استحضار

أرواح!

تحت الخمار، لا تزال غريس غير مرتاحة تمامًا. تَتمَخَّطُ زوجة الآمر في منديلها. يلقي سايمون نظرة على القس فيرينغر. الذي يصعب التيقن من تعابيره في العتمة؛ يبدو أنها ابتسامة متوجعة، مثل طفل يعاني من الغازات.

- أنا خائفة -تقول ليديا- أشعلوا الضوء!

- ليس بعد.

يهمس سايمون مربتًا على يدها.

تُسمع ثلاث طرقات حادة أخرى، كما لو أن أحدهم يقرع الباب، طالبًا الدخول.

- هذا أمر غير معقول -يقول ديبونت- اطلبوا منهم الرحيل.

- سأحاول -تقول السيدة كوينل- لكنه الخميس. اعتادوا المجيء يوم الخميس.

تحني رأسها وتشبك يديها. بعد لحظات، سمعت سلسلة من الفرقعات الصغيرة المتقطعة، مثل حفنة من الحصى تقرقع أسفل المصب.

- حسنًا -تقول- أعتقد أن الأمر نجح.

لا بدّ أن هناك حلفًا، يفكر سايمون -بعض التواطؤ أو الأدوات المساعدة، خارج الباب، تحت الطاولة. هذا بعد كل شيء منزل السيدة كوينل. من يدري كيف تلاعبت به؟ لكن ما من شيء تحت الطاولة عدا أقدامهم. كيف يفعلون هذا؟ فور جلوسه هنا، يصبح غاويًا مداهنًا، بيدقًا جاهلًا، مغفلًا. لكنه -مع ذلك- لا يستطيع المغادرة الآن.

- شكرًا -يقول ديبونت- عذرًا على المقاطعة دكتور. دعونا نواصل.

يصبح سايمون واعيًا بتزايدٍ بيد ليديا في يده. إنها يدٌ صغيرة، ودافئة جدًا. في الواقع، الغرفة بأسرها أضيق من أن تكون مريحة. يريد أن يحرّر نفسه، لكن ليديا تمسكه بقبضة من حديد. يأمل ألّا يرى أحد ذلك. ذراعه متنمّلة، يضع ساقًا على ساق. تباغته صورة مفاجئة لساقي راتشيل همفري، عارية عدا من

الجوارب، ويداه عليهما، يمسك بها وهي تقاوم. تقاوم عن قصد، ترقبه عبر رموش عينيها شبه المغمضة لترى تأثيرها عليه. يتلوى مثل أنقليس ماكر. يتضرع مثل أسير. زلِق، يمر كجلد من عرق عليها، عرقه أو عرقها، شعرها الرطب على وجهها، على فمه، كل ليلة. إنه سجين. حيثما يلعق جلدها يضيء مثل الساتان. لا يمكنه أن يستمر.

- اسألها -يقول- إن كانت على علاقة بجيمس ماكدرموت.

لم يعتزم طرح هذا السؤال، بالتأكيد ليس في البداية، وليس على نحو مباشر أبدًا. لكن أليس هذا -إنه يدرك ذلك الآن- هو أكثر ما يريد معرفته؟

يكرر ديبونت السؤال على غريس بصوت مُستوٍ. يعمّ الصمت لوهلة. ثم تضحك غريس. أو يضحك شخص لا يبدو مثل غريس:

- العلاقات يا دكتور؟ ماذا تقصد؟ -الصوت رفيع، متذبذب، مائي؛ لكنه حاضر بالكامل، متيقظ بالكامل- حقًا دكتور، يا لك من مراءٍ! تريد أن تعرف ما إذا كنت قبلته، إذا كنت نمت معه. ما إذا كنت عشيقته! أهذا ما تريد معرفته؟

- نعم.

يقول سايمون.

إنه يرتجف، لكن من المستحسن ألّا يظهر ذلك. كان يتوقع سلسلة من كلمات أحادية المقاطع، مجرد نعم ولا، تُسحب عنوة منها، من سباتها ونعاسها، سلسلة من الاستجابات الخدرة المكرهة على الخروج كرد على طلباته.

ليس هذا تهكمًا خالصًا. لا يمكن أن يكون هذا صوت غريس. لكن في هذه الحالة، صوت من هو؟

- ما إذا كنتُ قد فعلتُ ما تود فِعله مع تلك العاهرة الصغيرة التي تُمسك يدها؟

هناك ضحكة جافة مكتومة.

تشهق ليديا، وتسحب يدها وكأنها تحترق. تضحك غريس مرة أخرى:

- ما دمت تريد معرفة ذلك فسأخبرك. نعم. كنت أقابله في الفناء الخارجي، في ثوب النوم، تحت ضوء القمر. كنت أضغط جسدي إزاءه، كنت أسمح له بتقبيلي، ولمسي بالكامل، يا دكتور، الأماكن نفسها التي تودّ أن تلمسها، لأنّني أستطيع دائمًا أن أخمن ما تفكر فيه عندما تجلس معي في غرفة الخياطة الصغيرة الخانقة تلك. لكن كان هذا كل شيء يا دكتور، هذا كل ما سمحت له بفعله. كنت أعلقه في حبالي، هو والسيد كينير. كلاهما يرقص على لحني!

- اسألها عن السبب.

يقول سايمون.

لا يستطيع فهم ما يحدث، لكن قد تكون هذه فرصته الأخيرة للفهم. يجب عليه أن يبقى هادئًا، ويلتزم بخط مستقيم في استجوابه. يبدو صوته -حسب ما يسمعه- نعيبًا أجشَّ.

- كنت أتنفس هكذا -تقول غريس، مطلقة تأوهًا مثيرًا عاليًا- كنت أتلوى وألتف. بعدها يقول إنه سيفعل أي شيء -تضحك ضحكة مكبوتة- لكن لماذا يا دكتور؟ أنت تسأل لماذا دائمًا. داسًا أنفك، وليس أنفك فقط. يا لك من رجل فضولي! الفضول قتل قطة، كما تعلم أيها الطبيب. عليك أن تكون حذرًا من ذلك الفأر الصغير بجانبك، ومن فتحتها الفرائية أيضًا!

لدهشة سايمون، يقهقه القس فيرينغر، أو ربما كان يسعل فقط.

- هذه إساءة -تقول زوجة الآمر- لن أجلس هنا وأستمع إلى هذه القذارة! ليديا، تعالي معي!

تبادر بالوقوف فتصدر تنورتها حفيفًا.

- رجاء -يقول ديبونت- تحمّلي ذلك معي. يجب أن يأتي الاحتشام في المرتبة الثانية بعد العلم.

بالنسبة لسايمون، تخرج هذه المناسبة برمتها عن السيطرة. يجب عليه اغتنام هذه المبادرة، أو على الأقل محاولة اغتنامها، يجب عليه أن يمنع غريس من قراءة أفكاره. سمع عن القوى الاستبصاريّة لأولئك الذين يخضعون للتنويم

المغناطيسي، لكنه لم يصدق بها من قبل.

- اسألها -يقول بصرامة- إن كانت في قبو منزل السيد كينير يوم السبت 23 يوليو 1843.
- القبو -يقول ديبونت- يجب عليكِ تصور القبو غريس. عودي بالوقت، اهبطي في الفضاء.
- نعم -تقول غريس بصوتها الرقيق الجديد- أسير على طول الممر، أرفع باب القبو، أنزل الدرج. البراميل، الويسكي، والخضروات في صناديقها المليئة بالرمل. هناك على الأرض. نعم، كنت في القبو.
- اسألها إن كانت قد رأت نانسي هناك.
- أوه نعم، لقد رأيتها -تصمت لحظة- كما أستطيع رؤيتك دكتور. من وراء الخمار. ويمكنني سماعك أيضًا.

يبدو ديبونت مندهشًا.

- غير معتاد -يتمتم- لكنه وارد.
- هل كانت حية؟ -يسأل سايمون- هل كانت لا تزال على قيد الحياة عندما رأيتها؟

يقهقه الصوت:

- كانت على قيد الحياة جزئيًا. أو ميتة جزئيًا. لقد احتاجت إلى -ضحكة مكبوتة- أن تنقذ من بؤسها.
- يأخذ القس فيرينغر نفسًا عميقًا. يمكن لسايمون أن يشعر بقلبه يدق.
- هل ساعدتِ في خنقها؟

يقول.

- منديلي خنقها -قهقهة، ضحك مكبوت من جديد- كان ذا نمط جميل!
- مخزٍ.

يتذمّر فيرينغر. لا بدّ أنه يفكر في جميع الصلوات التي أنفقها عليها، وكل الحبر والورق أيضًا. الرسائل، الالتماسات، والإيمان.

- من المؤسف أن أفقد ذلك المنديل. احتفظت به منذ وقت طويل. إنه يعود لوالدتي. كان يجب عليّ خلعه عن رقبة نانسي. لكن جيمس لم يسمح لي بأخذه، ولا بأخذ أقراطها الذهبية أيضًا. صحيح أنّه ملطخ بالدماء، لكن بالإمكان غسله.

- لقد قتلتِها -تتنفس ليديا- لطالما اعتقدتُ ذلك.

إن كان صوتها يحمل أي معنًى أثناء قول ذلك فهو الإعجاب.

- قتلها المنديل، لم تقم الأيدي سوى بإمساكه -يقول الصوت- كان يجب أن تموت. الموت جزاء الخطيئة. هذه المرة مات الرجل النبيل كذلك، كان جزاؤهم متعادلًا، ولو لمرة واحدة.

- أوه غريس -تأنّ زوجة الآمر- ظننتك أفضل من ذلك! لقد خدعتنا طوال هذه السنوات!

يقول الصوت جذلًا:

- توقّفي عن الهراء. لقد خدعتم أنفسكم! أنا لست غريس! غريس لا تعرف شيئًا عن هذا!

يعمّ الصمت في الغرفة. يُصدر الصوت أزيزًا الآن، موسيقا دقيقة عالية، مثل نحلة:

- يا صخرة العصور، انصدعي من أجلي، دعيني اختبئ فيك. دعي الماء والدم...

- لستِ غريس -يقول سايمون شاعرًا بالبرودة تسري في جسمه، على الرغم من دفء الغرفة- إن لم تكوني غريس، فمن أنتِ؟

- انصدعي من أجلي... دعيني اختبئ فيك.

- يجب أن تجيبي -يقول ديبونت- آمرك بذلك.

هناك سلسلة أخرى من الطرقات، ثقيلة، إيقاعية، مثل شخص يرقص بالقباقيب على الطاولة. ثم تهمس: لا يمكنك أن تأمرني. عليك أن تخمن!

- أعرف أنك روح -تقول السيدة كوينل- يمكن للأرواح التحدث من

خلال الآخرين، أثناء الغشية. إنّهم يستفيدون من كياننا المادي. هذه الروح تتحدث من خلال غريس. لكنهم يكذبون في بعض الأحيان، كما تعلمون.

- أنا لا أكذب! -يقول الصوت- أنا أرفع من الكذب! لم أعد بحاجة إلى الكذب!

- لا يمكنك تصديقهم دائمًا -تقول السيدة كوينل، كما لو كانت تتحدث عن طفل أو خادم- لا بدّ أنها روح جيمس ماكديرموت، قدمت إلى هنا لتلويث سمعة غريس. لاتهامها. فهذا آخر ما فعله في الحياة، وأولئك الذين يموتون برغبة انتقام في قلوبهم، غالبًا ما يظلون محتجزين في المستوى الأرضي.

- من فضلك سيدة كوينل -يقول الدكتور ديبونت- لا روح هنا. ما نشهده يجب أن يكون ظاهرة طبيعية.

يبدو عليه بعض اليأس.

- ليس جيمس -يقول الصوت- أيتها المحتالة العجوز!

- نانسي إذًا -تقول السيدة كوينل، التي لا يبدو أنها تأثرت إطلاقًا بالإهانة- غالبًا ما يكونون فظّين، إنهم يطلقون علينا النعوت. بعضهم غاضبون، تحديدًا تلك الأرواح الراسخة في الأرض، التي لا تستطيع التصالح مع موتها.

- لستُ نانسي، أيتها الحمقاء الغبية! لا تستطيع نانسي أن تقول أي شيء، لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة وعنقها هكذا. كان عنقًا جميلًا ذات مرة! لكن نانسي ليست غاضبة بعد، فهي لا تمانع، نانسي صديقتي. إنها متفهمة الآن، وتريد مشاركة الأشياء. هيا يا دكتور -يقول الصوت، متزلفًا الآن- أنت تحب الأحاجي. أنت تعرف الإجابة. أخبرتك أنه منديلي، الذي تركته لغريس، عندما... عندما...

تبدأ في الغناء مرة أخرى:

- أوه لا، لقد كانت الحقيقة تبزغ في عينيها، وهذا ما جعلني أحب ماري...

- لست ماري -يقول سايمون- لست ماري ويتني.

يُسمع تصفيق حار، قادم من السقف.

- طلبت من جيمس القيام بذلك. حثثته عليه، كنتُ هناك طوال الوقت!
- هناك؟

يقول ديبونت.

- هنا! مع غريس، حيث أنا الآن. كان الجو باردًا عند الاستلقاء على الأرضية، وكنت وحيدة، وبحاجة للتدفئة. لكن غريس لا تعرف، إنها لم تعرف أبدًا! -توقّف الصوت عن محاولة الإغاظة- كانوا على وشك شنقها، لكان ذلك خطأً لو حدث. إنها لا تعرف شيئًا! لقد استعرت ملابسها فحسب، لبعض الوقت.
- ملابسها؟

يستفهم سايمون.

- قوقعتها الأرضية. ملابسها الجسدية. لقد نسيت فتح النافذة، لذا لم أستطع الخروج! لكنّني لم أرغب في أذيتها. عليك ألّا تخبرها!

يتضرع الصوت الصغير الآن.

- لم لا؟

يسأل سايمون.

- أنت تعرف لماذا د. جوردن. هل تريد أن تراها في المصحّة ثانية؟ أعجبني الوضع هناك في البداية، كان بإمكاني التحدث بصوت عالٍ. كان بإمكاني أن أضحك. كان بإمكاني أن أحكي ما حدث. لكن لم يستمع إليّ أحد -تنهيدة رقيقة- لم ينصتوا إليّ.
- غريس -يقول سايمون- توقفي عن هذه الألاعيب!
- أنا لست غريس.

يقول الصوت محاولًا الإقناع.

- هل هذه حقًا أنت؟ -يسأل سايمون- هل تقولين الحقيقة؟ لا تخافي.
- أترى؟ -ينتحب الصوت- أنت مثلهم، لا تنصت إليّ، أنت لا تصدقني، فأنت تريدها على طريقتك، لن تستمع...

يتلاشى الصوت، ويحل الصمت.

- لقد رحلت -تقول السيدة كوينل- يمكنك دائمًا تخمين متى يعودون إلى عالمهم. يمكنك أن تشعر به في الهواء. إنها الكهرباء.

مضت برهة طويلة قبل أن يقول أحد أي شيءٍ. بعدها تحرك الدكتور ديبونت.

- غريس -يقول، وهو ينحني تجاهها- غريس ماركس، هل يمكنك سماعي؟

يضع يده على كتفها. وتمضي برهة أخرى من الصمت، تمكّنوا خلالها من سماع تنفس غريس، غير مستقر الآن، كما لو كانت في نومٍ مضطرب.

- نعم.

تقول في النهاية، بصوتها المعتاد.

- سأوقظك الآن.

يقول ديبونت.

يرفع الخمار برفق من على رأسها، ويضعه جانبًا. وجهها ثابت ومستوٍ.

- أنت تطفين إلى أعلى. إلى أعلى. خارجة من الأعماق. لن تتذكري ما حدث هنا. عندما أفرقع أصابعي، ستستيقظين.

يتجه إلى المصباح، يزيد مستوى الإضاءة، ثم يعود ويضع يده بالقرب من رأس غريس. ويفرقع أصابعه.

تحدّق غريس، تفتح عينيها، تنظر حولها مدهوشة، تبتسم لهم. إنها ابتسامة هادئة، لم تعد متوترة أو خائفة. ابتسامة طفل مطيع. تقول:

- لا بدّ أنني غرقت في النوم.

- هل تتذكرين أي شيء؟ -يسأل الدكتور ديبونت متلهفًا- أي شيء حدث للتو؟

- لا -تقول غريس- كنت نائمة. ولكن لا بد أنني كنت أحلم. حلمت بأمي. تطفو في البحر، بسلام.

يتخفف سايمون من العبء، وديبونت أيضًا، يمكن تخمين ذلك بالنظر

إليه. يأخذ يدها، يساعدها للنهوض عن الكرسي.

- قد تشعرين ببعض الدوار -يقول بلطف- هذا هو الحال في كثير من الأحيان. سيدة كوينل، هلّا بحثت إمكانية أخذها إلى غرفة النوم حيث باستطاعتها الاستلقاء؟
- تغادر السيدة كوينل الغرفة مع غريس، ممسكة بذراعها كما لو كانت عاجزة. لكنها تسير بخفة الآن، ويبدو كما لو أنها سعيدة.

يبقى الرجال في المكتبة. سايمون سعيد بكونه جالسًا، لا يرغب في أي شيء في هذه اللحظة كرغبته في كأس براندي، لتهدئة أعصابه، لكن لا يبدو أن هناك أملًا في تحقيق ذلك بالنظر إلى الرفقة الحالية. يشعر بالدوار، ويتساءل إن كانت الحمى قد عاودته.

- أيها السادة -يبدأ ديبونت- أنا ضائع. لم يسبق لي أن جربت شيئًا كهذا من قبل. كانت النتائج غير متوقعة. كقاعدة، يبقى الشخص المنوم تحت سيطرة الممارس.

يقول بارتعاش في صوته.

- ما كانوا ليشعروا بالحيرة قبل مائتي عام -يقول القس فيرينغر- بل سيكون نموذجًا واضحًا للمسّ. كانوا سيفترضون أن ماري ويتني تسكن جسد غريس ماركس، وبالتالي ستكون المسؤولة عن التحريض للجريمة، وعن المساعدة في خنق نانسي مونتغمري. وستكون الرقية هي الحل.

- لكننا في القرن التاسع عشر -يقول سايمون- قد تكون هذه حالة عصبية.

كان يريد قول «لا بد أنها.» لكنه لا يرغب في مناقضة فيرينغر بجلافة شديدة. كما أنه لم يستقر على رأي بعد، وغير واثق من الأرضية الفكرية التي يقف عليها.

- كانت هناك حالات من هذا النوع -يقول ديبونت- في وقت مبكر من عام 1816، كانت هناك حالة ماري رينولدز من نيويورك، التي وصف الدكتور س. ل. ميتشل من نيويورك، التحول الشاذ في حالتها. هل أنت على اطّلاع على الحالة دكتور جوردن؟ لا؟ ومنذ ذلك الحين، كتب واكْلِي من مجلة ذه لانسِت باستفاضة حول هذه الظاهرة، وهو يسميه الوعي المزدوج، على الرغم من أنه يرفض قاطعيًا إمكانية الوصول إلى ما يسمى الشخصية الثانوية عبر التنويم المغناطيسي العصبي، حيث إنّ هناك فرصة كبيرة للتأثير على الشخص المنوم، من قبل الممارس. لطالما كان خصمًا لدودًا للتنويم المغناطيسي المسمري والوسائل ذات الصلة، لأنه محافظ في ما يتعلق بهذا.

- يصف بويزغار شيئًا من هذا القبيل، حسب ما أذكر -يقول سايمون- قد تكون حالة من حالات ما يطلق عليه (النسخ): حيث يُظهر موضوعُ الدراسة وهو في غشية السرنمة، شخصية مختلفة تمامًا عن شخصيته في حالة اليقظة، وهذان النصفان لا يعرف أي منهما شيئًا عن الآخر.
- أيها السادة -يقول فيرينغر- صحيح أنه يصعب التصديق، لكن أشياء غريبة حدثت.
- تنتج الطبيعة أحيانًا رأسين في جسد واحد -يقول ديبونت- وعليه فلماذا نستبعد وجود شخصين، إن صح التعبير، في دماغ واحد؟ قد توجد أمثلة، ليس في حالات الوعي المتناوب وحدها، كما ادّعى بايسيجور، ولكن من شخصيتين متمايزتين، تتعايشان في الجسد نفسه، ومع ذلك فلديهما مجموعتان مختلفتان تمامًا من الذكريات، بل ويمكن القول إنّهما فردان منفصلان. إذا كنت تقبل الرأي المثير للجدل والقائل إننا ما نتذكره.
- يرجح -يقول سايمون- أنّنا أيضًا ما ننساه.
- إذا كنت على حق -يقول القس فيرينغر- ماذا سيحدث للروح؟ لا يمكننا أن نكون مجرد رقع مجمعة، إنها فكرة مرعبة، وإذا ما كانت صحيحة، فإنها تهزأ من جميع مفاهيم المسؤولية الأخلاقية، بل ومن الأخلاق نفسها، بما أننا بصدد تعريفها الآن.
- الصوت الآخر، أيًا يكن -يقول سايمون- فإن عنفه ملاحظ.
- لكن ليس بدون منطق معين -يقول فيرينغر بجفاف- والقدرة على الرؤية في الظلام.

يتذكر سايمون يد ليديا الدافئة، فيحمرّ وجهه. في هذه اللحظة يتمنى لو كان فيرينغر في قاع البحر.

- إذا كانوا شخصين، فلم لا تكونان روحين؟ -يواصل ديبونت- إن كان لا بدّ من إشراك الروح في الموضوع على الإطلاق. أو ثلاثة أرواح لثلاثة أشخاص. تأمل في الثالوث المقدس.

- دكتور جوردن -يقول القس فيرينغر، متجاهلًا هذا الاعتراض اللاهوتي- ما الذي ستقوله عن هذا في تقريرك؟ من المؤكد أن أحداث هذا المساء بالكاد مألوفة من وجهة نظر طبية.

- علي دراسة موقفي بتمعن -يقول سايمون- على الرغم من أن القبول بفرضية د. ديبونت، يُبرّئ غريس ماركس.

- يتطلب الاعتراف بهذا الاحتمال الكثير من الشجاعة -يقول القس فيرينغر- شخصيًا سأصلي من أجل أن نُمنَح تلك الشجاعة؛ فلطالما آمنت ببرائة غريس، أو أملت في براءتها بالأحرى، بالرغم من أن ثقتي فيها -يجب أن أعترف- مزعزعة. ولكن إن كان ما شهدناه ظاهرة طبيعية، فمن نحن لنشكّك؟ الرب هو أساس كل ظاهرة، ولا بدّ أن لديه أسبابه، التي تبدو مع ذلك غامضة بالنسبة لعيوننا الفانية.

يسير سايمون وحيدًا إلى المنزل. الليلة صافية ودافئة، بقمر كامل تقريبًا، منطوٍ على سحابة من الضباب. للهواء رائحة جزّ العشب وروث الأحصنة، وصوت خافت لنباح كلب.

تمالك نفسه طوال فترة المساء، لكن دماغه الآن مثل كستناء تحمص، أو حيوان يشتعل. هناك عواء صامت في داخله، هناك حركة مرتبكة ومسعورة، تهرول باندفاع ذهابًا وإيابًا. ماذا حدث في المكتبة؟ هل كانت غريس حقًا في غشية، أم أنها كانت تمثل الدور، تضحك في داخلها على نتيجة خطتها السرية؟ إنه يعرف ما رآه وسمعه، لكن ما عرض عليه قد يكون وهمًا محضًا، وهو أمر لا يمكن أن يثبته.

لو وصف ما شهده في تقريره، وإذا وجد التقرير طريقه إلى أي عريضة مقدمة بالنيابة عن غريس ماركس، فهو يعلم أنه سوف يسحق على الفور أي فرصة ممكنة للنجاح. وزراء العدل وما شاكلهم ممّن يقرؤون مثل هذه الالتماسات، إنهم رجال عنيدون وموضوعيّون يحتاجون إلى أدلة قوية. إذا ما أصبح التقرير علنيًا، ومرجعًا للقضية، معمّمًا على نطاق واسع، فسيجعل منه أضحوكة على الفور،

خاصة بين الأعضاء الراسخين في مهنة الطب. من شأن ذلك أن يضع النهاية لمخططات إنشاء مصحته الخاصة، فمن ذا الذي يساهم في مؤسسة يديرها ثلة من المؤمنين المخبولين ذوي الأصوات الصوفية؟

لا توجد طريقة يمكنه من خلالها كتابة التقرير الذي يرغب فيه فيرينغر دون أن يخون نفسه. الأسلم هو ألّا يكتب شيئًا على الإطلاق، لكن فيرينغر بالكاد سيسمح له بالخروج من الخطاف بسهولة. ومع ذلك، فالواقع أنه لا يستطيع أن يصرح بأي شيء على وجه اليقين، ملتزمًا الحقيقة في الوقت نفسه، فالحقيقة تتملّص منه. أو بالأحرى فإن غريس نفسها هي التي تنسل منه. إنها تنزلق أمامه، من قبضته، مديرة رأسها إلى الوراء للتأكد ممّا إذا كان لا يزال يتبعها.

يصرف تفكيره عنها بفظاظة، ويتحول إلى التفكير في رايتشل. فهي على الأقل شيء يمكنه القبض عليه، يمكنه الإمساك به. شيء لن يفلت من بين أصابعه.

البيت غارق في الظلمة، لا بدّ أن رايتشل نائمة. يتمنى ألّا يقابلها، إذ لا رغبة له فيها هذا المساء. بل على العكس، يملؤه التفكير بها -بتشنجها وجسدها العظمي، ورائحتها التي تعبق بالكافور والبنفسج الذابل- باشمئزاز ثقيل الوطأة؛ لكنه يعرف مع ذلك أن كل هذا سيتغير حالما يتخطى العتبة. سوف يصعد الدرج على أطراف أصابعه، معتزمًا تجنّبها. ثم سيستدير، شاقًا طريقه إلى غرفتها، ويهزها بقسوة حتى تستيقظ. سيضربها الليلة، فهي تتوسل إليه ليفعل؛ لم يفعل ذلك من قبل، إنه شيء جديد. يريد معاقبتها على دفعه إلى إدمانها. يريد أن يجعلها تبكي، ليس بصوت عالٍ، وإلا سمعتهم دورا، ونفخت بوق الفضيحة. الغريب أنها لم تسمعهم من قبل؛ مع أنهما يصبحان مهملين بتزايد.

يعلم أنه وصل إلى نهاية مخزونه من المسرحيات؛ بلغ نهاية ما يمكن أن تقدمه رايتشل؛ بلغ نهايتها. ولكن ماذا سيحدث قبل النهاية؟ وما الشكل الذي ستتخذه النهاية نفسها؟ لا بدّ أن تكون هناك خاتمة، لا بدّ من حركة أخيرة. إنه غير قادر على التفكير. ربما يكون عليه الزهد الليلة.

يفتح الباب بمفتاحه، ويفتحه بهدوء قدر استطاعته. إنها هناك، في الداخل،

تنتظره في القاعة، في الظلام، في روبها المكشكش، الذي يلمع بشحوب في ضوء القمر. تحيطه بذراعيها وتأخذه إلى الداخل، وتضغط جسدها عليه. جسدها يرتعش. لديه رغبة ملحة في ضربها وإبعادها، كما لو كانت شبكة عنكبوت على وجهه، أو خصلة من هلام متشابك. لكنه قبّلها بدلًا من ذلك. وجهها رطب. كانت تبكي. إنها تبكي الآن.

- هش -يهمهم، يمسد شعرها- هش، رايتشل.

هذا ما أراد غريس أن تفعله: هذا الارتجاف والتعلق. لقد تخيله كثيرًا، على الرغم من أنه ينظر إليه الآن، بطريقة متصنعة مريبة. لطالما كانت هذه المشاهد مضاءة بإتقان، والإيماءات -إيماءاته أيضًا- فاترة وكيسة، مع نوع من الارتجاف الفاخر، مثل مشاهد الموت في الباليه. المعاناة المائعة أقل جاذبية بكثير الآن، لأن عليه في الواقع أن يتعامل معها عن قرب، أن يتعامل مع جسدها. إنّ مسح العينين الشبيهتين بعيني الظبي شيء، ومسح الأنف الشبيه بأنف الظبي شيء آخر تمامًا. يفتش عن منديل جيبه.

- سيعود -تقول رايتشل في همسة ثاقبة- لقد تلقيت رسالة منه.

لوهلة يجهل سايمون عمّن تتحدث. لكنها تعني الرائد بالطبع. أرسله سايمون في خياله، إلى هوة ملذات لا قعر لها، ثم نسيه تمامًا.

- ماذا سيحدث لنا؟

تتنهّد. الطريقة الميلودرامية في التعبير لا تقلل من العاطفة، ليس بالنسبة لها على الأقل.

- متى؟

يهمس سايمون.

- كتب لي رسالة -تشهق- يقول فيها إن علي أن أسامحه. يقول إنه تاب، إنه راغب في بدء حياة جديدة. هذا ما يقوله دائمًا. يعني هذا أن أخسرك. إنه أمر لا يطاق!

كتفاها تهتزان، ذراعاها تحيطان به وتشدان عليه بتشنج.

- متى يأتي؟

يسأل سايمون مرة أخرى.

يعود المشهد الذي اعتاد تخيله -مع وخز من الخوف الممتع- الآن بحيوية جديدة: أن يكون في داخل رايتشل، عندما يظهر الرائد في المدخل، وما يتبعه من غضب واستلال للسيوف.

- خلال يومين -تقول رايتشل بصوت مختنق- بعد غد، في المساء. بالقطار.

- تعالي.

يقول سايمون.

يقودها على طول القاعة إلى غرفة نومها. والآن بعد أن عرف أن هروبه منها ليس ممكنًا فحسب بل ضروريًا، فإنه يشعر برغبة جارفة تجاهها. أشعلت شمعة، إنها تعرف نيته.

الساعات المتبقية لهما قليلة؛ الاكتشاف يلوح في الأفق؛ يقال إن الذعر والخوف يسرعان ضربات القلب ويزيدان الرغبة. يدون ملاحظة في عقله -هذا صحيح- ربما تكون المرة الأخيرة التي يدفعها إلى الوراء على السرير ويسقط فوقها بثقل، مفتشًا عبر طبقات القماش.

- لا تتركني -تنوح- لا تتركني وحدي معه! أنت لا تعرف ما الذي قد يفعله بي! -تتلوّى معذبة، وعذابها حقيقي هذه المرة- أنا أكرهه! ليته كان ميتًا!

- هش -يهمس سايمون- قد تسمع دورا.

يكاد يتمنى لو أنها تسمعهما، يشعر في هذه اللحظة، بحاجة ماسة إلى جمهور. يجمع حول السّرير حشدًا متخيّلًا من المراقبين: ليس الرائد فقط، بل القسّ فيرينغر، وجيروم ديبونت، وليديا. وعلى رأسهم غريس ماركس. يريدها أن تغار.

تتوقف رايتشل عن الحركة. تفتح عينيها الخضراوين، وتنظر مباشرة إلى سايمون.

- لا يجب أن يعود.

تقول.

حدقتا عينيها ضخمتان، حتى إنّ البؤبؤين أصبحا كثقبي إبرة لا أكثر. هل عادت إلى تعاطي الأفيون من جديد؟

- يمكن أن يتعرض لحادث. بعيدًا عن الأنظار. يمكن أن يتعرض لحادث داخل المنزل. يمكنك دفنه في الحديقة -هذا ليس ارتجالًا، لا بدّ أنها كانت تخطط- لا يمكننا البقاء هنا، قد يعثر عليه. يمكننا العبور إلى الولايات المتحدة. على قطار السكة الحديدية! سنكون معًا حينها. لن يعثروا علينا أبدًا!

يضع سايمون فمه على فمها لإسكاتها، تظن أن هذا يعني موافقته:

- أوه سايمون -تتنهد- كنت أعلم أنك لن تتركني، أحبك أكثر من حياتي.

تقبل وجهه بالكامل، وحركاتها تتحول إلى ما يشبه الصرع. إنه سيناريو من سيناريوهاتها لإثارة الشغف، في ذاتها قبل كل شيء. مرتاحًا إلى جانبها بعد فترة وجيزة من انتهائهما، يحاول سايمون تصوّر ما كانت تتخيله. الأمر أشبه بعمل إثارة رخيصة، لانسروث، أو بولوير لايتون في أكثر أعمالهما ابتذالًا وتعطشًا للدماء: الرائد يترنح ثملًا صاعدًا الدرجات الأمامية، وحيدًا، في الغسق، ثم يدخل القاعة الأمامية. رايتشل هناك: يهاجمها، ثم يشد هيأتها المتذللة بشهوته المخمورة. تصرخ وتتوسل إليه طالبة الرحمة، يضحك ضحكة شيطانية. لكنها لا تزال قادرة على إنقاذ نفسها بضربة مجرفة حادة على رأسه، من الخلف. يسقط مصدرًا صوتًا خشبيًا مكتومًا، ويُجرّ من عقبيه عبر الممر إلى المطبخ، حيث تنتظره حقيبة سايمون الجلدية. شق سريع إلى الوِداج بسكين الجراحة. دم يغرغر في دلو المخلفات، ثم ينتهي كل شيء. الكثير من الحفر تحت ضوء القمر، ثم يوضع في رقعة الملفوف، فيما رايتشل في شالها الجذاب تمسك فانوسًا قاتمًا، وتقسم أنها ستكون له إلى الأبد، بعد ما تجرأ على فعله من أجلها.

لكن ها هي دورا، تراقب من باب المطبخ. لا يمكن السماح لها بالهرب، يطاردها سايمون في أرجاء المنزل، ويحاصرها في حجرة غسل الأطباق، ويثبتها مثل

خنزير، فيما ترتعد رايتشل ويكاد يغمى عليها، لكنها تتمالك نفسها بعد ذلك مثل بطلة حقيقية وتهب لمساعدته. تتطلب دورا مزيدًا من الحفر، حفرة أعمق، يليها مشهد عربدة على أرضية المطبخ.

إن هذا كثير على سهرة منتصف الليل. ثم ماذا؟ ثم يكون قاتلًا، ورايتشل هي الشاهد الوحيد. سيكون مرتبطًا بها، مقيدًا إليها، ملتحمًا بها، وهو ما تريده. لن يصبح حرًا بعدها أبدًا. ولكن هذا هو الجزء الذي فشلت في تخيله بالتأكيد: فور أن يصبحا في الولايات المتحدة، ستكون متنكرة. ستكون بدون اسم. ستكون امرأة غير معروفة، من النوع الذي يعثر عليه طافيًا في القنوات، أو أشكال تجمعات المياه الأخرى: امرأة غير معروفة وجدت عائمة في القناة. من سيشتبه به؟

ما الطريقة التي سيستخدمها؟ في السرير، في لحظة اهتياج، شعرها ملفوف حول عنقها، لن يتطلب منه سوى جهد طفيف. طريقة لها إثارتها الحاسمة، وتستحق هذا الأسلوب الفني.

ستنسى كل شيء عن هذا عندما يأتي الصباح. يستدير جهتها مرة أخرى، يصلح مظهرها. يمسد على عنقها.

يوقظه ضوء الشمس. لا يزال بجانبها في سريرها. نسي العودة إلى غرفته الليلة الماضية، ولا عجب إذ كان منهكًا. يمكنه سماع دورا في المطبخ، تقرقع وتطرق. رايتشل مستلقية على جانبها، مستندة على ذراع واحدة، تراقبه. إنها عارية، لكنها لفت نفسها بالشراشف. هناك كدمة في أعلى ذراعها، لا يمكنه تذكر كيف تسبب بها.

يجلس.

- يجب أن أذهب -يهمس- سوف تسمعنا دورا.
- لا يهمني.

تقول.

- ولكن سمعتك...
- لا يهم -تقول- إننا هنا ليومين آخرين فقط.

نبرة صوتها عملية، وقد اعتبرته أمرًا مقررًا، مثل اتفاق تجاري. يخطر بباله

-لماذا لم يفكر بذلك من قبل؟- أنها قد تكون مجنونة، أو تكاد، أو تعاني من انحطاط أخلاقي، على أقل تقدير.

يتسلق سايمون الدرج، حاملًا حذاءه وسترته، كأنه طالب جامعي شقي عائد من لهو صاخب. يشعر بالبرد. ما كان ينظر إليه على أنه مجرد نوع من التمثيل، كانت تخلطه بالواقع. إنها حقًا تعتقد أنه هو سايمون، سوف يقتل زوجها، من أجل الحب الذي يكنه لها. ماذا ستفعل عندما يرفض؟ هناك دوامة في رأسه، الأرضية تحت قدميه تبدو غير حقيقية، كما لو أنها على وشك التحلل.

يبحث عنها قبل الإفطار. إنها على الأريكة في الردهة الأمامية، تنهض وتحييه بقبلة شغوفة. يحرر سايمون نفسه منها ويخبرها أنه مريض. عادت له حمى الملاريا، التي التقطها في باريس. إذا أرادا تحقيق نياتهما -إنه يعبر عن الأمر على هذا النحو، لنزع أسلحتها- سيكون عليه الحصول على الدواء المناسب لذلك، فورًا، وإلا فلن يكون مسؤولًا عن العواقب.

تتحسس جبهته، التي رطبها بإسفنجته كإجراء احترازي، عندما كان في الطابق العلوي. إنها مروعة كفاية، ومع ذلك فهناك قدر من الغبطة أيضًا: إنها تستعد لتمرضه، لتلعب دورًا آخر. يمكنه رؤية ما يدور في ذهنها: ستعد شاي اللحم[41] والجلي، وتلفه بالبطانيات والخردل، وتضمد أي جزء يخرج منه، أو يرجح أن يفعل. سيُضعَفُ، سوف يهن ويصبح عاجزًا، سيكون راسخًا في حوزتها: هذا هو هدفها. يجب أن ينقذ نفسه منها ما دام لديه وقت لذلك.

يقبل أطراف أصابعها. يجب أن تساعده، يقول بحنان. حياته تعتمد عليها. يدفع مذكرة إلى يديها، مذكرة موجهة إلى زوجة الآمر: إنها تطلب اسم الطبيب، لأنه لا يعرف أحدًا هنا. فور حصولها على الاسم، يجب عليها أن تسرع إلى الطبيب وتأتي بالدواء. كتب الوصفة، في خربشة غير مقروءة، وأعطاها المال لذلك.

- لا يمكن لدورا أن تذهب -يقول- إذ لا يمكن الوثوق في أنها ستتعجل. الوقت مهم: يجب أن تبدأ علاجه على الفور.

41 شاي يصنع عبر طبخ اللحم بالماء، ومن ثم تصفيته لاستخراج السائل. (م).

تومئ:

- ستفعل أي شيء لأجله.

تخبره بحرارة.

مبيضة الوجه ومرتعدة، ولكن مع شفتين منضبطتين، وضعت غطاء رأسها وهرعت بعيدًا. حالما أصبحت خارج نطاق الرؤية، جفف سايمون وجهه، وبدأ في حزم أمتعته. يرسل دورا لاستئجار عربة، راشيًا إياها ببقشيش سخي. بينما ينتظر عودتها يكتب رسالة لرايتشل، مودعًا إياها وداعًا مهذّبًا، متحجّجًا بصحة والدته. لا يخاطبها برايتشل. يضمن العديد من الأوراق النقدية، لكن بدون ألفاظ تحبّب. إنه رجل خبر الحياة، ولن يقع في الشرك بهذه الطريقة، أو يُبتز أيضًا: لا خرق للوعود، يمكن أن يُدان به في حالة وفاة زوجها. قد تقتل الرائد بنفسها. هي أكثر من قادرة على ذلك.

يفكر في كتابة ملاحظة إلى ليديا أيضًا، لكنه يتراجع بعد التفكير في الأمر. من الجيد ألّا يصدر تصريحًا رسميًا أبدًا.

تصل مركبة النقل -إنها أشبه بعربة- فيقذف حقيبتيه فيها. «إلى محطة القطارات.» يقول. فور أن يرحل، سيكتب إلى فيرينغز، واعدًا بتقرير من نوع ما، ليكسب بعض الوقت. قد يتمكن -على الرغم من كل شيء- من القيام بشيء ما؛ شيء لن يشوه سمعته بالكامل. لكن قبل كل شيء يجب أن يضع هذه الفترة الكارثية بحزم وراء ظهره.

بعد زيارة سريعة إلى والدته، وإعادة ترتيب وضعه الاقتصادي، سيذهب إلى أوروبا. إذا تمكنت والدته من العيش بتقشف -وهي قادرة على ذلك- يمكنه بالكاد تحمل تكاليفها.

لا يبدأ الشعور بالأمان إلى أن يصبح في عربة القطار، بعد إغلاق الأبواب بإحكام. إن وجود مسؤول القطار، في زيه الرسمي، يطمئنه. النظام بحد ذاته يأتي بنوع من الطمأنينة.

حالما يصبح في أوروبا، سيواصل أبحاثه. سيدرس مختلف مدارس التفكير

السائدة، لكنه لن يضيف إليها، ليس بعد. لقد ذهب إلى عتبة اللّا وعي، ونظر نحوه، أو بالأحرى نظر إلى أسفل. كان يمكن أن يسقط. كان يمكن أن يسقط داخله. كان يمكن أن يغرق.

ربما من الأفضل التخلي عن النظريات والتركيز على الطرق والوسائل. عندما يعود إلى أمريكا سوف يتغلب على نفسه. سيقدم محاضرات، سيجتذب المساهمين. سيبني مصحة نموذجية، مزودة بمساحات جيدة التجهيز وأفضل النظم الصحية ونظم الصرف الصحي. ما يفضله الأمريكيون في المقام الأول هو مظاهر الراحة، هذا ينطبق على أي نوع من المؤسسات أيًا كانت. إن مصحة بغرف مريحة واسعة، مجهزة بمرافق للعلاج المائي، والعديد من الأجهزة الميكانيكية؛ لا بدّ أن تبلي بلاء حسنًا. لا بدّ أن تتوفر عجلات تدور في المكان مصدرة طنينًا، يجب أن تكون هناك أكواب شفط مطاطية. أسلاك تربط بالجمجمة. أجهزة قياس. وسوف يضمن بيانه الدعائي كلمة (كهربائي). يجب أن يكون الهدف الأساسي هو الحفاظ على المرضى نظيفين وطيعين -الأدوية ستكون ذات نفع- والحفاظ على أقاربهم مبهورين وراضيين. وكما هو الحال في مدارس الأطفال، فإن من يجب إذهاله ليس النزلاء، بل أولئك الذين يدفعون الفواتير.

سيكون كل هذا تنازلًا. لكنه الآن -فجأة كما يبدو- وصل إلى السن المناسب لذلك.

يتحرك القطار خارجًا من المحطة -هناك سحابة من الدخان الأسود- يتلوه عويل حزين، والذي يتبعه مثل شبح مرتبك على طول المسار.

لم يسمح لنفسه بالتأمل في أمر غريس إلى أن بلغ منتصف الطريق إلى كورنوال. هل تظن أنه هجرها؟ أو -ربما- فقد الإيمان بها؟ إذا كانت في الواقع جاهلة بأحداث الأمسية الماضية، فسيكون لديها ما يسوغ هذا الظن. سيشعرها بالحيرة، كما كانت تشعره بها.

لا تعرف حتى الآن أنه غادر المدينة. يصورها جالسة في كرسيها المعتاد، تخيط غطاءها، ربما تغني قليلًا، في انتظار وقع أقدامه عند الباب.

بدأ الرذاذ يتساقط في الخارج. بعد مرور بعض الوقت، تهدهده حركة القطار حتى ينام، يقع مستندًا على الجدار. الآن تتقدم غريس باتجاهه عبر مرج واسع في ضوء الشمس، مرتدية ملابس بيضاء بالكامل، حاملة زهورًا حمراء ملأ ذراعيها: إنها واضحة جدًا لدرجة أنّ بإمكانه أن يرى قطرات الندى عليها. شعرها منسدل، قدماها حافيتان، إنها تبتسم. ثم يدرك أنها لا تمشي على العشب، بل على الماء؛ وعندما يحاول معانقتها، تنحل ببطء مثل الضباب.

يستيقظ. لا يزال في القطار، والدخان الرمادي يهب عابرًا النافذة. يضغط بفمه على الزجاج.

XIV

X الحرف

الأول من أبريل، 1863. المتهمة غريس ماركس وجدت مذنبة بارتكاب جريمة قتل مزدوجة توازي بشاعتها ما وصف من جرائم القتل في الكتاب المقدس. إن جرأتها لا تُظهر أنها شخص حساس، وإن رغبتها في الامتنان، لهي دليل مقنع على تصرفها المؤسف.

الأول من أغسطس 1863، أصبحت هذه المرأة التعيسة مخلوقًا خطيرًا، وأخشى أن تظهر لنا المزيد ممّا باستطاعتها القيام به. لسوء الحظ، إن لديها أطرافًا تساعدها. إنها لن تجرؤ على الكذب كما تفعل، ما لم تساعدها تلك الأطراف.

- دفتر يوميات المأمور، السجن الإقليمي، كنغستون، كندا الغربية، 1863.

سلوكها المثالي طوال ثلاثين عامًا من احتجازها في السجن، ثم الجزء الذي قضته لاحقًا كنزيلة يستحق الثقة في منزل الآمر، وكون عدد كبير من السادة المؤثرين في كينغستون يعتقدون أنها جديرة ومستحقة للعفو، كل ذلك يميل إلى إظهار أن هناك مجالًا لشكوك جدية في ما يتعلق بكونها المرأة الشريرة والشيطان المتجسد، وهي الصورة التي حاول ماكديرموت أن يصورها للجمهور.

- ويليام هاريسون، (ذكرى مأساة كينير)، نيومارك إيرا، 1908.

رسائلي كلها صفحات ميتة... بكماء وبيضاء!
ومع ذلك تبدو حية ومرتعشة
إزاء يدي المرتجفة التي ترخي الخيط...

- إليزابيث باريت براونينغ، سوناتا من البرتغالية، 1850.

50

إلى السيدة س. د. همفري. من الدكتور سايمون جوردن، كينغستون، كندا الغربية.

15 أغسطس 1859.

عزيزتي السيدة همفري:

أكتب على عجل، بعد أن استدعيت إلى المنزل بصورة عاجلة؛ لقضية عائلية اضطررت للامتثال لها فورًا. عانت أمي العزيزة من انهيار غير متوقع في حالتها الصحية غير المثالية، وهي حاليًا على شفا الموت. وأنا أصلّي حتى ألحق بها في الوقت المناسب لأكون بجانبها في لحظاتها الأخيرة.

أنا آسف لأنني لم أتمكن من البقاء وتوديعك شخصيًا، وشكرك على حسن اهتمامك بي كنزيل في بيتك؛ لكنني متأكد أنك ستتكهنين سريعًا بقلبك وحساسيتك الأنثوية ضرورة رحيلي المستعجل. لا أعرف المدة التي سأقضيها بعيدًا، وما إذا كنت -في الواقع- سأتمكن من العودة إلى كينغستون. فإذا ما رحلت أمي، ستتعيّن عليّ رعاية شؤون العائلة. وإذا ما بقيت معنا لبعض الوقت، فمكاني هو بجانبها، تلك الإنسانة التي ضحت بالكثير من أجل ابنها، يجب ألّا يبخل عليها بالتضحيات من جانبه في المقابل. عودتي إلى مدينتك في المستقبل غير مرجّحةٍ؛ لكنني سأحتفظ دائمًا بذكريات أيامي في كينغستون – الذكريات التي تشكلين جزءًا مهمًا منها. أنت على علم بالإعجاب الذي أكنه لشجاعتك في مواجهة الشدائد، وكيف أحترمك. وآمل أن تجدي مكانًا في قلبك لتبادليني الشعور.

المخلص/ سايمون جوردن.

ملاحظة: تركت لك في المظروف المرفق، مبلغًا أفترض أنه سيغطّي أي مبالغ معلقة بيننا.

ملاحظة إضافية: أنا على ثقة من أنك ستستعيدين -بسعادة- زوجك قريبًا.

- س.

***

من السيدة وليم ب. جوردن، دار لوبرنم، لومسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية؛ إلى السيدة س. د. همفري، شارع لور يونيون، كينغستون، كندا الغربية.

29 سبتمبر 1859.

عزيزتي السيدة همفري:

اسمحي لي بإعادة رسائلك السبع التي وجّهتها إلى ابني العزيز، والتي تراكمت هنا في غيابه. لقد فتحها الخدم خطأً، وهذا هو سبب وجود ختمي عليها بدلًا من ختمك.

يجول ابني حاليًا بين المصحات العقلية والعيادات الخاصة في أوروبا، وهو إجراء ضروري للغاية للعمل الذي ينخرط فيه. عمل على أقصى قدر من الأهمية، سيؤدي إلى تخفيف المعاناة الإنسانية، العمل الذي لا تجب مقاطعته بأي شأن دونه في الاعتبار، مهما بدا ذلك الشأن ملحًّا للذين لا يفهمون أهمية قضيته. لم أتمكن من تحويل رسائلك إليه، كونه كثير التنقل. وأنا أعيدها الآن، مفترضة أنك ترغبين في معرفة سبب عدم الرد؛ على الرغم من أنني أتوسل إليك لملاحظة أن عدم الرد هو رد في حد ذاته.

ذكر ابني أنك قد تحاولين استعادة علاقتك به. وعلى الرغم من أنه لم يكن دقيقًا كما ينبغي، إلا أنني لست على هذا القدر من العجز، كما أنني لست منفصلة عن العالم، لدرجة تمنعني من القراءة بين السطور. إن كنت تقبلين بنصيحة صريحة ولكن حسنة النية من امرأة عجوز، فاسمحي لي أن ألاحظ، أنه في الارتباطات طويلة الأمد بين الجنسين، فإن فرق العمر والثروة دائمًا ما يكونان ضارّين؛ ولكن الأكثر ضررًا، هو الاختلافات في النظرة الأخلاقية. إن أسلوب الطيش وسوء التصرف أمر مفهوم لدى امرأة في موقعك. أدرك تمامًا حالة الانزعاج التي تعيشينها إثر جهلك بمكان زوجك؛ لكن يجب أن تدركي أنه في

حالة غيابه، فلن يتخذك أي رجل ذو مبادئ زوجة له، امرأة تستبق زواجًا جديدًا قبل الأوان. الرجال بطبيعتهم وبمقتضى العناية الإلهية، يسمح لهم بقدر أكبر من الحرية؛ إلّا أن الإخلاص لنذور الزواج هو المطلب الأساسي في المرأة.

في الأيام الأولى من ترملي، وجدت القراءة اليومية للكتاب المقدس مهدئة للعقل، شغل الإبرة الخفيف يساعد أيضًا على إبقاء الفكر منشغلًا. بالإضافة إلى هذه العلاجات، فلعل لديك صديقة محترمة، يمكنها التخفيف من محنتك دون الرغبة في معرفة سببها. ما يعتقده المجتمع، لا يعادل الحقيقة دائمًا، ولكن في ما يتعلق بسمعة المرأة، فإن الأمرين سواء. وعليه يجب اتخاذ جميع التدابير اللازمة للحفاظ على هذه السمعة، من خلال عدم البوح بمصدر البؤس للخارج، حيث إنّه قد يصبح موضوعًا للنميمة الخبيثة؛ ولتحقيق هذه الغاية، من الحكمة تجنب التعبير عن المشاعر عبر الرسائل، التي لا بدّ أن تمر عبر البريد العام، وقد تقع في أيدي أشخاص قد تغريهم قراءتها دون علم المرسل.

أرجو أن تقبلي يا سيدة همفري، وجهات النظر التي أبديتها، بروح الرغبة الصادقة في سعادتك المستقبلية، والتي تقدمها لك، المخلصة لك،

السيدة كونستانس جوردن.

***

من غريس ماركس، سجن المقاطعة، كينغستون، كندا الغربية؛ إلى الدكتور سايمون جوردن. *19* ديسمبر *1859*.

عزيزي الدكتور جوردن:

أكتب إليك بمساعدة كلاري، التي لطالما ساندتني صديقةً، وجلبت لي هذه الورقة، وسترسلها عندما يحين الوقت، مقابل تقديم مساعدة إضافية في الأربطة وإزالة البقع. المشكلة أنني لا أعرف إلى أين أوجهها، لجهلي المكان الذي ذهبت إليه. ولكن إذا ما عثرت على العنوان، فسأرسلها. آمل أن تتمكن من قراءة خطي، إذ إنّني لست معتادة على الكتابة. ولا يمكنني سوى قضاء وقت قصير في ممارستها يوميًا.

عندما سمعت عن رحيلك المفاجئ، دون أن ترسل لي، شعرت بكرب شديد، إذ خمنت أنك -لا شكّ- مريض. لم أستوعب كيف يمكنك الذهاب دون وداع، بعد كل الأحاديث التي تبادلناها؛ وقد أُغمي علي في قاعة الطابق العلوي، حتى إنّ خادمة الغرف هلعت، وألقت المزهرية فوقي، الماء والمزهرية وكل شيء. الأمر الذي أعادني سريعًا إلى وعيي، لكن المزهرية انكسرت. ظننتُ أن النوبات قد عاودتني، وأني أعود إلى الجنون ثانية. لكن لم يحدث ذلك، سيطرت جيدًا على نفسي، مجرد صدمة سماع ذلك بهذه الطريقة المفاجئة، وخفقان القلب الذي لطالما عانيت منه. أصبت بجرح في جبهتي إثر تحطم المزهرية. مدهشة كمية الدم التي تتدفق من جرح في الرأس، مهما كان سطحيًا.

حزنت لمغادرتك، إذ كانت تمتعني محادثاتنا. لكنهم قالوا أيضًا إنك ستكتب رسالة إلى الحكومة بالنيابة عني، لإطلاق سراحي، وكنت أخشى أنك لن تفعل ذلك بعد الآن. لا شيء يثير الإحباط أكثر من ارتفاع الآمال ثم تلاشيها مرة أخرى، بل هو أسوأ من عدم وجود أي أمل في المقام الأول. أتمنى أن تكون قادرًا على كتابة رسالة تصب في صالحي، الأمر الذي سأكون ممتنة له، وأتمنى أن تظل بخير.

من/ غريس ماركس.

***

من الدكتور سايمون ب. جوردن، تحت كنف الدكتور بينسوانغر، بلفيو، كريتزلنغر، سويسرا. إلى الدكتور إدوارد مورشي، دورتشستر، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية.

12 يناير 1860.

عزيزي إد:

اغفر لي انقطاع رسائلي، وعدم إطلاعك على تغير عنواني. كانت الأمور مضطربة بعض الشيء، واستغرقت بعض الوقت لتعود إلى مجراها. وكما قال بيرنز: «إن أفضل الخطط التي تضعها الفئران والرجال غالبًا ما تحيد عن

طريقها.» وقد أجبرت على الابتعاد سريعًا عن كينغستون، حيث وجدت نفسي في ظروف معقدة يمكن أن تتحول عاجلًا إلى أضرار بالغة، تجاهي وتجاه خططي على حد سواء. قد أخبرك القصة الكاملة يومًا ما، على كأس من الشيري؛ على الرغم من أنها تبدو لي حاليًا أقرب إلى حلم مزعج، منها إلى قصة.

من بين عناصر القصة، حقيقة أن دراستي لغريس ماركس أخذت -في النهاية- منعطفًا مشوشًا، إلى درجة أنني بالكاد أستطيع تحديد ما إذا كنت أنا نفسي مستيقظًا أم نائمًا. عندما أفكر في الآمال العريضة التي بدأت بها مسعاي. عازمًا -بالتأكيد- على كشفٍ عظيمٍ يثير دهشة العالم المهتم بهذا المجال، يصيبني القنوط. ومع ذلك، هل كانت آمالًا كبيرة بالفعل، أم مجرد طموح لتحقيق الذات؟ من وجهة نظري حيث أقف، لا أجدني متأكدًا تمامًا. ولكن إن كان هذا مجرد طموح، ربما وجدت جزاء جهدي، كما هو الحال في القضية كلها، ربما أكون قد انخرطت في معضلة بلا طائل، ملاحقًا ظلالًا عقيمة، اقتربت من خسارة عقلي أثناء محاولتي الجاهدة لإصلاح عقول الآخرين. كالحواريّ الذي أحمل اسمه، ألقيت شبكتي في المياه العميقة. لكني بخلافه قد أكون سحبت حورية بحر، لا سمكةً ولا إنسانًا بل كليهما في الوقت نفسه، لها أغنية حلوة لكن خطيرة.

لا أعلم إن كان علي اعتبار نفسي ساذجًا لا يفطن إلى سذاجته، أو -أسوأ من ذلك- مغفّلًا يخدع نفسه، لكن حتى هذه الشكوك قد تكون أوهامًا، وكل ما في الأمر أنني كنت أتعامل مع امرأة بريئة على نحو جلي، بحيث لم أفطن -بذهني المبالغ في حدته- إلى إدراك ذلك. يجب أن أعترف لك -ولك وحدك- أنني قد اقتربت جدًا من الإرهاق العصبي بسبب هذه المسألة. غير عارفٍ -بانتزاع التلميحات والنذر، بالإشارات، بالهمسات المحيرة- أنه أسوأ من أن تطاردك الأشباح. أحيانًا في الليل يطفو وجهها أمامي في الظلمة، مثل سراب غامض وجميل.

اعذر ثرثرة دماغي المريض. لدي شعور بكشف عظيم قادم، لو أني أتمكن فقط من رؤية طريقي بوضوح. ما زلت هائمًا في الظلمات، لا تقودني في تجوالي سوى قناديل المستنقعات.

بالانتقال إلى أمر أكثر إيجابية: تعمل العيادة هنا بمناهج نظيفة وفعالة للغاية، وتستكشف طرقًا متنوعة من العلاج، بما في ذلك العلاج بالماء؛ ويمكن أن أشيّد مشروعي الخاص بناء على هذا النموذج، إذا ما اكتمل هذا المشروع. كان الدكتور بينسوينغر مضيافًا للغاية، مكنني من الاطّلاع على أكثر الحالات إثارة للاهتمام هنا. وما أراحني هو أنه لا يوجد بينهم قاتلات شهيرات، بل ما يطلق عليهم الدكتور وركمان في تورنتو (الأبرياء المجانين)، بالإضافة إلى الحالات العادية ممن يعانون من المشاكل العصبية، ومدمني الكحول ومرضى الزهري. لكن الأثرياء والفقراء -بالطبع- لا يعانون من الكروب نفسها.

شعرتُ بسعادة غامرة لسماع أنك قد تمن على العالم بنسخة مصغرة منك، عبر المساعي الحميدة لزوجتك الموقرة -التي أرجو إبلاغها تحياتي المحترمة. لا بدّ أن مشاركة حياة عائلية مستقرة مع امرأة جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها- أمر مريح! لا يقدر الرجال قيمة الطمأنينة، باستثناء أولئك الذين يفتقرون إليها. أنا أحسدك!

أما بالنسبة لي، فأخشى أن يكون قد حكمَ عليّ بأن أجوب وجه الأرض وحيدًا، مثل أحد المنفيّين الأكثر كآبة وبؤسًا في أعمال بايرون. وفي سياق آخر، يا رفيقي العزيز، ستسعدني مصافحة يد صديق حقيقي مثلك مرة أخرى. قد تأتي هذه الفرصة قريبًا، لأنني أفهم أن احتمالات التوصل إلى حل سلمي للاختلافات الحالية بين الشمال والجنوب لا تبعث على الأمل، وتتحدث الولايات الجنوبية بجدية عن الانفصال. في حالة اندلاع عدوان، سيكون واجبي تجاه بلدي واضحًا. وكما يقول تينيسون في أسلوبه المفرط في الموضوعية، فقد حان وقت اقتطاف «أزهار الحرب الحمراء الدامية.» نظرًا إلى حالتي العقلية الراهنة المضطربة والكئيبة، سيكون من المريح أن أكلف بواجب من نوع ما، بغض النظر عن مدى بؤس المناسبة.

صديقك المرهق مقروح الدماغ، ولكن المحب في الوقت نفسه،

سايمون.

***

من غريس ماركس، سجن المقاطعة، كينغستون؛ إلى السيد جيرالدو بونتي، ماجستير في التنويم المغناطيسي العصبي، المتحدث من بطنه، وقارئ العقل المثير للدهشة. القاطن في مسرح أمير ويلز، شارع كوين، تورنتو، كندا الغربية.

25 سبتمبر 1861.

عزيزي جيرمايا:

كان العرض الخاص بك على ملصق حصلت عليه دورا، وعلقته على جدار الغسيل، لتزيينه. وتعرفت عليك فورًا، حتى لو كان لديك اسم آخر وقد أطلت لحيتك على نحو جامح. حضر أحد السادة المعجبين بالآنسة ماريان العرض عندما كان في كينغستون، وقال إن (رواية المستقبل بأحرف من نار)[42] كان عرضًا من الدرجة الأولى، ويستحق ثمن رسوم الدخول المدفوعة، حيث أغمي على سيدتين أثناء العرض. وقال إن لحيتك كانت حمراء فاقعة. لذلك خمنت أنك صبغتها، ما لم يكن شعرًا مستعارًا.

لم أحاول مراسلتك أثناء وجودك في كنغستون، لأن ذلك قد يؤدي إلى مشاكل في حال اكتشافها. لكنني رأيت المكان الذي سيقام فيه العرض، ولهذا السبب أرسل هذا إلى المسرح في تورنتو، على أمل أن يجد طريقه إليك. لا بدّ أنه مسرح جديد، إذ لم يوجد مسرح بهذا الاسم عندما كنت هناك؛ لكن مضى على ذلك عشرون عامًا، على الرغم من أنه يبدو كمئة عام.

كم أتمنى رؤيتك مرة أخرى، للحديث عن الأيام الخوالي، في مطبخ زوجة الوالي باركنسون، أيام مرحنا، قبل أن تموت ماري ويتني وتبدأ لعنتي! عليك أن تعلم أن خداع الحشد هنا، لن يكون سهلًا، وعليك أن تخفي هويتك أكثر لأن اللحية الحمراء قد لا تكون كافية عن قرب. وإذا اكتشفوا أمرك، فسيظنون أنك خدعتهم، وما يُقبل على خشبة المسرح لا يقبل في المكتبة. وسيرغبون في معرفة

---

42 بالإنجليزية: (Future Told in Letters of Fire)

لماذا لم تعد الدكتور جيروم ديبونت. لكنني أفترض أن الشخصية الأخرى تعود عليك بمال أوفر.

أصبح الناس يعاملونني أفضل منذ التنويم المغناطيسي، وبمزيد من التقدير، أو ربما أصبحوا يخافونني أكثر. تصعب معرفة الفارق في بعض الأحيان. إنهم لا يتحدثون عمّا قيل في تلك المناسبة، لأنهم يرون أنه قد يشوش صوابي، وأنا أشك في ذلك. وبالرغم من أنني أدير المنزل، وأرتب الغرف وأقدم الشاي كما كنت أفعل، فإنه لم يكن له أي تأثير في مسألة إطلاق سراحي.

فكرت مليًا في ما دفع الدكتور جوردن إلى المغادرة فجأة، مباشرة بعد تلك الأمسية. ولكن بما أنك رحلت عاجلًا أنت أيضًا، فلا أتوقع أنك تعرف الإجابة. لقد أُخذت الآنسة ليديا كثيرًا برحيل الدكتور جوردن، ولم تنزل للعشاء مدة أسبوع، عوضًا عن ذلك كان يُبعث لها في صينية إلى غرفتها، فيما ترقد في السرير كمريضة، ممّا جعل مهمة ترتيب غرفتها صعبة للغاية، بوجهها الشاحب، وعينيها المحاطتين بالهالات السوداء، وسلوكها التراجيدي. لكن يُجاز للسيدات الشابات التصرف على هذا النحو.

بعد ذلك أخذت تخرج إلى المزيد من الحفلات مع المزيد من الشبان، ولا سيما ذلك القبطان، الذي لم تعد معرفتها به بأي نتيجة؛ وأصبحت معروفة بمرحها القاصف بين العسكر. ومن ثم دخلت في مشادات مع والدتها، وبعد شهر، أُعلن عن خطبتها للقس فيرينغر. وهو أمر مفاجئ، فلطالما سخرت منه وراء ظهره، وقالت إنه يبدو كضفدع.

حدّد موعد الزفاف ليكون أقرب بكثير من المعتاد، فانشغلتُ بالخياطة من الصبَاح إلى المساء. كان فستان سفر الآنسة ليديا من الحرير الأزرق، مع أزرار مغطاة بالقماش نفسه، وتنورة من طبقتين. وحسبت أنني سأصاب بالعمى إثر خياطة حاشيته.

أمضيا شهر العسل في شلالات نياجرا، التي يقولون إنها تجربة لا ينبغي تفويتها، لم تتسنّ لي -شخصيًا- سوى مشاهدة صورها. وعندما عادا، كانت

شخصًا مختلفًا، شخصًا مقهورًا وشاحبًا، وقد فقدت معنويّاتها العالية. ليس من الصواب الزواج بشخص لا تحبه، لكن الكثيرين يفعلون ذلك، ثم يعتادون عليه مع الوقت. وهناك أيضًا من يتزوجون عن حب لكنهم يندمون لاحقًا.

كنت أظن أنها تكن الإعجاب للدكتور جوردن. لكنها ما كانت لتسعد معه، وما كان ليسعد معها، لأنها لم تفهم اهتمامه بالمجانين، وفضوله، وأسئلته الغريبة عن الخضار. وعليه فقد كان ما حدث في مصلحتهما.

أما عن العون الذي وعدني به الدكتور جوردن، فلا خبر عنه، ولا عن صاحبه، باستثناء أخبار ذهابه إلى حرب الجنوب، حسب ما عرفت من القس فيرينغر. لكني لا أعرف هل كان حيًا أم ميتًا. بالإضافة إلى الكثير من الشائعات حوله هو ومؤجرة المسكن، التي كانت أرملة من نوع ما. كانت تُرى -بعد مغادرته- متجولة في حالة ذهول، على شاطئ البحيرة، في ثوب أسود وعباءة وخمار أسودين يرفرفان عند هبوب الريح، وقال البعض إنها نوت إلقاء نفسها في البحيرة. دار الكثير من الحديث حول الأمر، لا سيما في المطبخ وغرفة الغسيل، خصوصًا من دورا، التي كانت خادمة هناك. بالكاد تستطيع تصديق ما تقوله، حول أن شخصين يظهران محترمين في النهار، بينما يقهقهان ويتأوّهان ويمارسان أنشطة مروعة في الليل، كما لو أن المنزل مسكون، فيما تكون بياضات السرير في حالة فوضًى كل صباح، وبوضع يجعلها تحمر خجلًا لدى رؤيتها. وقالت دورا إنها تستغرب أنه لم يقتل السيدة ويدفن جثتها في الفناء الخارجي، إذ كانت المجرفة جاهزة، والقبر محفورًا بالفعل، ما جعل جسدها يقشعر. فقد كان من نوع الرجال الذين يستلبون النساء واحدة تلو الأخرى ثم يملُّوْنَهُنَّ، ويتخلصون منهن بقتلهن، وكان ينظر إلى الأرملة بعينين مهدِّدتين ملتهبتين كعيني النمر، إذ كان مستعدًا للوثب عليها ونشب أنيابه في لحمها. والأمر ذاته مع دورا، ومن يعلم فقد تكون هي الضحية التالية لنوبات نهمه. كان لديها جمهور في المطبخ من الراغبين في الاستماع إلى القصص المشينة، وعلي القول إنها صنعت قصة جيدة من ذلك. لكنني فكرت بيني وبين نفسي أن الحماس جرفها بعيدًا.

في الوقت نفسه طلبت زوجة الآمر حضوري إلى صالة الاستقبال، وسألتني بجدية تامة ما إن كان الدكتور جوردن قد قام بأي تصرفات غير ملائمة تجاهي. وقلت إنه لم يفعل، وإنّ باب غرفة الخياطة كان مفتوحًا دائمًا على أي حال. ثم قالت إنه غرر بها في ما يتعلق بشخصيته، وإنها كانت تأوي أفعًى سامّةً في حضن عائلتها. وأخبرتني أن السيدة المسكينة في الملابس السوداء كانت على علاقة به، بعد ما كانا بمفردهما في منزلها بعد رحيل الخادمة، على الرغم من أنه وجب علي عدم التحدث في الموضوع، لأن الأذى المترتب عليه أكثر من نفعه؛ وعلى الرغم من أن هذه السيدة كانت سيدة متزوجة، زوجها لئيم معها، بالرغم من أن الأمر لم يكن سيئًا كما لو كانت فتاة يافعة، إلّا أن الدكتور جوردن تصرف على نحو مقيت، وكانت الآنسة ليديا محظوظة لأن علاقتهما لم تصل حتى الخطوبة.

على الرغم من أني لا أحسب أن الخطوبة خطرت في بال الدكتور جوردن، كما أنني لا أصدق كل ما يقال ضده، بما أنني أدرك كيف يكون المرء محل أكاذيب، عاجزًا عن نفيها. وغالبًا ما تكون الأرامل لعوبات، إلى أن يكبرن على ذلك.

لكنه كلام فارغ. أريد أن أسألك بالأخص عن الأمر الآتي: هل استطعت حقًا استشراف المستقبل عندما نظرت إلى راحة يديّ وقلت إن الزر الخامس للحظ، الأمر الذي اعتبرته إشارة على أن كل شيء سيكون بخير في النهاية؟ أم كنت تحاول طمأنتي فقط؟ أود أن أعرف بشدة، فالوقت يطول أحيانًا، وأكاد لا أتحمله. أخشى الوقوع في قنوط متعذر، على حياتي المهدرة، فيما لا أزال غير متأكدة كيف حدث كل هذا. غالبًا ما يصلي القس فيرينغر معي، أو بالأحرى يصلي فيما أستمع إليه. لكنها صلوات بلا طائل، فكل ما تفعله هو إنهاكي. يقول إنه سيرفع التماسًا آخر، أخشى أنه لن يكون أجدى من الالتماسات السابقة، بل مجرد هدر للورق.

الشيء الآخر الذي أود معرفته هو: لماذا أردت مساعدتي؟ هل كان ذلك بمثابة تحدٍّ، لإثبات تفوّقك على الآخرين، كما هو الحال مع التهريب الذي اعتدت القيام به؛ أم كان من باب العاطفة والمودة؟ قلت مرة إنّنا ننتمي إلى النوع نفسه، ولقد أطلتُ التفكير في ذلك.

آمل أن يصلك هذا، مع أني لا أعرف كيف سترد علي لو وصلتك الرسالة، نظرًا إلى أن جميع رسائلي تُفتح قبل تسليمها. ومع ذلك، أظنني استلمت شيئًا منك، فلقد تلقيت قبل بضعة أشهر زرًا عظميًا موجهًا إليّ دون توقيع، وقالت المراقبات: غريس، لم قد يرسل إليك أي شخص زرًا واحدًا فقط؟ فقلت إنني لا أعلم. ولكن بما أنه كان من النمط الذي أعطيتني إياه في مطبخ السيدة باركنسون، فلا بدّ أن يكون منك، لإعلامي بأنني لم أُنسَ تمامًا. ربما ينطوي الزر على رسالة أخرى أيضًا، ربما يقصد به إبقاء الأشياء مغلقة، أو ربما يقصد به فتحها، وقد تكون إشارة حتى ألتزم الصمت حول أشياء معينة نعرفها كلانا. يعتقد الدكتور جوردن أنه يمكن للأشياء التي تبدو شائعة وعشوائية أن تكون ذات معنًى، كما يمكنها المساعدة في استرجاع ذكرى شيء قد نُسي. ربما كنت تسعى إلى تذكيري بك فقط، وهو ما لا تحتاجه في الواقع، لأنني لم أنسك ولم أنسَ لطفك، ولن أفعل أبدًا.

أتمنى أن تكون بصحة جيدة يا جيرمايا العزيز، وأتمنى أن يلاقي عرضك السحري نجاحًا كبيرًا.

صديقتك القديمة/ غريس ماركس.

***

من السيدة ويليام ب. جوردن، بيت لبورنوم، لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية. إلى السيدة س.د. همفري، شارع لور يونيون، كينغستون، كندا الغربية.

15 مايو 1862.

عزيزتي السيدة همفري:

وصلتني رسالتك الموجهة إلى ابني العزيز هذا الصباح. إنني أفتح بريده هذه الأيام، لأسباب سأشرحها لاحقًا. ولكن اسمحي لي في البداية أن أبدي رأيي حول الطريقة التي تعبرين بها عن نفسك، والتي تمنيت أن تكون أقل تطرفًا. فالتهديد

بأذية نفسك عبر القفز عن جسر أو أي مكان مرتفع آخر، قد يكون له أثر على شاب حساس ورقيق القلب، لكنه ليس ذا شأن لدى أمه المجربة.

على أي حال، عليك أن تفقدي أي أمل في لقائه مجددًا. فقبيل اندلاع حربنا الحالية المؤسفة، انضم ابني إلى جيش الاتحاد للدفاع عن بلده بوظيفة جرّاح عسكري، وقد أُرسل في الحال إلى مستشفى ميداني بالقرب من الجبهة. وتعطلت الخدمات البريدية لسوء الحظّ، وكانت القوات تتحرك بسرعة كبيرة بسبب خطوط السكك الحديدية، ولم يصلني خبر عنه منذ أشهر، الأمر الذي ينافي طبيعة كونه مراسلًا منتظمًا ومخلصًا، وأنا أخشى ألّا يكون بخير.

أنا حاليًا أفعل ما بوسعي. لقد قتلت هذه الحرب المؤسفة وجرحت الكثيرين، ونحن نرى نتائجها يوميًا، حيث يُحضَر المزيد من الرجال والفتيان إلى مستشفياتنا المرتجلة، مشوهين وعميًا، أو فاقدين لعقولهم إثر عدوى الحمى. وكل واحد منهم هو ابنٌ محبوبٌ لعائلة تنتظره. شُغِلَت سيدات بلدتنا بزيارتهم وتوفير سبل الراحة التي تقع ضمن حدود قدرتنا؛ ليشعروا أنهم في منازلهم. وبذلت أقصى ما بوسعي في مساعدتهم أنا نفسي، على الرغم من حالتي الصحية غير المستقرة. فإذا ما كان ابني العزيز يرقد في سرير المرض ويعاني في مكان ما، فإني آمل أن تكون بجانبه أم أخرى تفعل ما أفعل.

وأخيرًا، أبلغ جندي من هذه البلدة كان يتماثل للشفاء عن سماع شائعة بأن ابني العزيز قد أصيب في رأسه بقطعة من الحطام المتطاير، ويرقد الآن بين الحياة والموت، حسب آخر الأخبار التي سمعها عنه. كدت أموت من القلق بالطبع، وفعلت كل شيء لاكتشاف مكانه. إلى أن -ويا للبهجة!- أعيد إلينا حيًا ولكن بضعف شديد في الروح والجسد. وقد فقد جزءًا من ذاكرته نتيجةً للإصابة. بالرغم من أنه يتذكر والدته المحبة، وأحداث طفولته، إلا أن تجاربه الأخيرة قد انمحت بالكامل من عقله، من بينها اهتمامه بالمصحات العقلية، والفترة التي قضاها في كينغستون. بما في ذلك أي علاقة قد تكون أو لا تكون ربطتك به.

أقول هذا لتتمكّني من رؤية الأمور من منظور أوسع وأقل أنانية. تبدو أفعال

المرء الشخصية صغيرة -في الواقع- إزاء المخاض الهامّ للتاريخ، الذي نأمل أن يكون من أجل الصالح العام.

في هذه الأثناء، ينبغي لي تهنئتك على العثور على زوجك أخيرًا، كما ينبغي عليّ أيضًا تعزيتك على الظروف المؤسفة التي وجد عليها. فاكتشاف أن قرينك قد توفي بسبب الإفراط في السكر والهذيان الناتج عنه، لا يمكن أن يكون لطيفًا على الإطلاق. تسعدني معرفة أنه لم يستنفد كل موارده المالية، وأقترح عليك كمسألة عملية، استغلالها للحصول على معاش يعتمد عليه، أو تفعلين كما فعلت -الأمر الذي نفعني خلال محنتي- استثمار متواضع في أسهم السكك الحديدية، إذا كانت شركة راسخة، أو في ماكينات الخياطة، التي من المؤكد أنها ستحقق تقدمًا كبيرًا في المستقبل.

ومع ذلك فالمسار الذي تقترحينه على ابني ليس مرغوبًا وغير ممكن التنفيذ، حتى لو كان في حالة تسمح له بالترحيب به. لم يكن ابني مرتبطًا بك، وليس ملتزمًا تجاهك بأي شكل. ما فهمته بنفسك، لا يشكل تفاهمًا. من واجبي إبلاغك أيضًا، أن ابني -قبل رحيله- كان على وشك خطبة الآنسة فيث كارترايت، وهي شابة من عائلة راقية وذات شخصية خلوقة لا تشوبها شائبة، وكانت العقبة الوحيدة المتبقية، هي أن شرفه منعه من ربط الآنسة كارترايت برجل على وشك المجازفة بحياته؛ وعلى الرغم من الأذى الذي لحقه، ووقوعه في حالات هذيان في بعض الأحيان، إلا أنها عازمة على احترام رغبة العائلتين، ورغبة قلبها، وهي تساعدني حاليًا في تمريضه بتفانٍ مخلص.

وعلى الرغم من أنه لم يتذكر بعد فيث بشخصيتها الحقيقية، وهو مستمر في الاعتقاد بأن اسمها غريس، إلا أنه ارتباك يمكن فهمه، فالإيمان Faith والنعمة Grace مفهومان متقاربان. لكننا مواظبون على جهودنا. وبعرض مختلف الأشياء المنزلية الصغيرة العزيزة عليه يوميًا، وإرشاده للمشي عبر المواقع المحلية التي تمتاز بالجمال الطبيعي، لدينا آمال متزايدة بأنه سيستعيد ذاكرته الكاملة قريبًا، أو على الأقل الأجزاء الضرورية منها، وأنه سيكون قريبًا قادرًا على

الوفاء بالتزاماته الزوجية. هذا هو الشغل الشاغل للآنسة كارترايت، وينبغي على كل أولئك الذين يحبون ابني حبًا نزيهًا، أن يصلُّوا من أجل استعادته لصحته وقدراته الذهنية الكاملة.

في الختام، دعيني أضيف أنني على ثقة بأن حياتك المستقبلية ستكون وافرة بالسعادة، أكثر ممّا كانت في الماضي القريب، وأن خريف عمرك سيجلب معه الصفاء الذي يعيقه -على نحو مؤسف إن لم يكن كارثيًا- شغف الشباب المزهو والمهتاج.

تفضلي بقبول فائق الاحترام،

السيدة/ كونستانس ب. جوردن.

ملاحظة: ستُتلَف أي رسائل أخرى منك دون قراءتها.

***

من القس إينك فيرينغر، رئيس لجنة العفو عن غريس ماركس، كنيسة سايدنهام ستريت الميثودية، كينغستون، أونتاريو، دومينيون كندا. إلى الدكتور الطبيب صامويل بانيرلينغ، ذا ميبلز، شارع فرونت، تورنتو، أونتاريو، دومينيون كندا. كينغستون، *15* أكتوبر *1867*.

عزيزي الدكتور بانيرلينغ:

أكتب لك -سيدي- فيما يتعلق باللجنة التي أرأسها، في مهمة حاسمة مألوفة لك. بصفتك طبيب غريس ماركس السابق، عندما كانت في مصحة تورنتو العقلية، منذ ما يقارب الخمسة عشر عامًا، أنا على دراية بأنه قد تواصل معك ممثلون من عدة لجان سابقة مكلفة بتقديم التماسات إلى الحكومة، نيابة عن هذه المرأة التعيسة سيئة الحظ، والتي يرى البعض أنها أدينت خطأً، على أمل أن تضيف اسمك إلى الالتماس المذكور، وهي إضافة -كما تعلم، وأنا متأكد من ذلك- ستكون ذات وزن لدى السلطات الحكومية، فهم يميلون إلى احترام الآراء الطبية المستنيرة كرأيك.

تضم لجنتنا عددًا من السيدات، من بينهن زوجتي العزيزة، والعديد من السادة رفيعي الشأن، ورجال دين من ثلاث طوائف، بما في ذلك قسيس السجن، الذين ستجد اسمه ملحقًا بذيل العريضة. ما كانت التماسات كهذه لتنجح في الماضي، لكن تتوقع اللجنة وتأمل، أن هذا الالتماس -على عكس أسلافه- سيلاقي الترحيب المناسب، بالنظر إلى التغيرات السياسية الأخيرة، وعلى الأخص ظهور مجلسِ نوابٍ تمثيليٍّ بالكامل تحت قيادة جون أ. ماكدونالد.

بالإضافة إلى ذلك، لدينا ميزة العلوم الحديثة، والتقدم المحرز في دراسة الأمراض الدماغية والاضطرابات العقلية، التقدم الذي يصب في صالح غريس ماركس بالتأكيد. قبل عدة سنوات، أشركت لجنتنا اختصاصيًا في الأمراض العصبية الدكتور سايمون جوردن، الذي جاء وفق توصيات شديدة. قضى عدة أشهر في هذه المدينة لإجراء دراسة مفصلة لغريس ماركس، مع إيلاء اهتمام خاص بثغرات الذاكرة التي تخص جرائم القتل. أخضعها للتنويم المغناطيسي العصبي، في محاولة لإنعاش ذاكرتها، على يد ممارس ماهر في ذلك العلم. وهو العلم الذي يحظى بالتأييد من جديد بعد كسوف طويل، كطريقة تشخيصية وعلاجية أيضًا، على الرغم من أنه يحظى بتأييد أكبر في فرنسا منه في هذا النصف من الكرة الأرضية.

ونتيجة لهذه الجلسة والكشف المدهش الذي جاءت به، أكد الدكتور جوردن بأن فقدان ذاكرة غريس ماركس كان حقيقيًا، وليس مختلقًا، لقد كانت -في ذلك اليوم المصيري- تعاني من آثار نوبة هستيرية بسبب الرعب، والتي أسفرت عن شكل من أشكال السرنمة تحت أثر التنويم المغناطيسي التلقائي، الذي لم يدرس بعمق قبل خمسة وعشرين عامًا ولكنه وثّق جيّدًا منذ ذلك الحين؛ وعليه فإن هذه الحقيقة تفسر فقدان الذاكرة لاحقًا. أثناء غشية التنويم المغناطيسي العصبي، التي شهدها العديد من أعضاء اللجنة، لم تسترجع غريس ماركس ذكرى الأحداث الماضية فقط، بل أظهرت أيضًا دليلًا واضحًا على سرنمة الوعي المزدوج، مع وجود شخصية ثانوية متمايزة تمامًا وقادرة على العمل دون علم الأولى. كان

الاستنتاج الذي توصل إليه الدكتور جوردن -في ضوء الأدلة- أن المرأة المعروفة لنا باسم (غريس ماركس) لم تكن واعية وقت مقتل نانسي مونتغمري، وليست مسؤولة عن أفعالها أثناء ذلك، وأن ذكريات هذه الأعمال احتفظت بها الذات الثانوية والمخفية. وكان الدكتور جوردن مع الرأي القائل إنّ هذه الذات الأخرى أبدت مظاهر لوجودها المستمر خلال فترة اضطرابها الذهني عام 1852، إن أمكن التدليل على ذلك من خلال إفادة السيدة مودي وغيرها من شهود العيان.

كنت آمل تقديم تقرير كتابي لك، وقد أجّلت لجنتنا التماسها من سنة إلى أخرى، بانتظار إعداده. نوى الدكتور جوردن إعداد هذا التقرير في الواقع؛ لكنه استدعي فجأة إثر حالة مرضية في عائلته، تلاه عمل عاجل في أوروبا؛ وكان بعدها أن اندلعت الحرب الأهلية، التي خدم فيها بصفته جراحًا عسكريًا، ممّا شكل عائقًا جديًا أمام محاولاته. علمت أنه أصيب في مضمار القتال، وعلى الرغم من أنه يتعافى بفضل العناية الإلهية، إلا أنه لم يستعد قوة كافية تمكنه من إكمال مهمته. ولولا ذلك، فلا شك لدي بأنه سيضيف مناشدته المخلصة والقلبية إلى مناشداتنا.

حضرت شخصيًا جلسة التنويم المغناطيسي العصبي المشار إليها، كما حضرتها السيدة التي وافقت لاحقًا على أن تصبح زوجتي العزيزة؛ وكلانا تأثر بشدة بما رأيناه وسمعناه. إن التفكير بالظلم الذي تعرضت له هذه المرأة المسكينة بسبب تأخر العلم في تفسير حالتها، يدفعني إلى البكاء. إن الروح البشرية هي لغز قصيٌّ ومذهل، بالكاد بدأنا الآن في سبر أغواره. وكما يقول القديس بولس: «فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ، فِي لُغْزٍ، لكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لِوَجْهٍ.» لا يسع المرء إلّا أن يخمن غايات خالقنا، في تكوين الإنسانية المعقد الشبيه بعقدة غوردية.[43]

لكن أيًا كان ما تظنه في رأي الدكتور جوردن المهني -إذ أدرك تمام الإدراك أنه يصعب الاعتماد على استنتاجاته بالنسبة لشخص لم يألف ممارسة التنويم

43 مصطلح يشير إلى مشكلة مستعصية تُحلُّ من خلال مقاربة جريئة تجعل القيود المتصورة محل شك. (م).

المغناطيسي العصبي، ولم يكن موجودًا في الأحداث التي أشير إليها- فالأكيد أن غريس ماركس قضت في السجن سنوات عديدة، أكثر من كافية للتكفير عن أفعالها السيئة. لقد عانت من عذاب عقليّ لا يوصف، وعذاب جسدي أيضًا. وقد تابت توبة مريرة عن أي جزء من هذه الجريمة العظيمة يمكن أن تكون قد ارتكبته، سواء ارتكبته بوعي أو بغير وعي. لم تعد بأي حال من الأحوال امرأة شابة، وهي في حالة صحية غير مستقرة. وإذا ما أصبحت حرة، فمن المؤكد أنها ستتمكن من القيام بشيء في سبيل سعادتها في الدنيا والآخرة، وقد تجد الفرصة للتأمل في الماضي، والتحضير لحياتها المستقبلية.

أسألك باسم الإحسان، هل ما زلت مصرًا على رفض إدراج اسمك في التماس إطلاق سراحها، مغلقًا بذلك أبواب الجنة أمام خاطئ تائب؟ بالتأكيد لا! إني أدعوك -متوسلًا إليك مرة أخرى- لمساعدتنا في هذا المسعى الجديد بالثناء.

تفضل بقبول فائق الاحترام،

إينك فيرينغر، م.أ، د. ديف.

***

الدكتور الطبيب صامويل بانيرلينغ، ذا ميبلز، شارع فرونت، تورنتو. إلى القس إينك فيرينغر، رئيس لجنة العفو عن غريس ماركس، كنيسة سايدنهام ستريت الميثودية، كينغستون، أونتاريو.

1 نوفمبر 1867.

سيدي العزيز:

أقر باستلام رسالتك المؤرخة في 15 أكتوبر، وما احتوته من رواية للسلوك الصبياني من قبل غريس ماركس. خيب د. جوردن ظني به، لقد حذرته في مراسلاتنا السابقة صراحة من هذه المرأة الماكرة. يقولون إنه لا يوجد أحمق مثل أحمق عجوز، لكنني أقول إنه لا يوجد أحمق مثل أحمق يافع. وأنا مندهش كيف

لشخص يحمل شهادة الطب، أن يسمح لنفسه بأن تستغفله تمثيلية فاضحة من الدجل السخيف المنافي للعقل مثل (غشية التنويم المغناطيسي العصبي)، والتي لا يفوقها غباء سوى استحضار الأرواح، وحق الجميع في التصويت، وما شابه ذلك من كلام فارغ. إن هراء (التنويم المغناطيسي العصبي) هذا، مهما زوق بمصطلحات جديدة، فهو لا يعدو كونه تنويمًا مغناطيسيًا مسمريًا أو تنويمًا مغناطيسيًا حيوانيًا معاد الصياغة. وهذا الهراء الغثيث فقد مصداقيته منذ زمن بعيد، كاشفًا عن كونه مجرد احتيال ذي رنة ومظهر رسمي، يقف خلفه رجال بسوابق مريبة، وطباع شهوانية لتكون لهم سلطة على الشابات، تبيح لهم التوجه إليهنّ بأسئلة سفيهة ومهينة، وأمرهن بأداء أفعال غير لائقة، ما كن سيوافقن عليها في الأحوال العادية.

لذا أخشى أن يكون الدكتور جوردن إما ساذجًا إلى درجة طفولية، أو أنه محتال كبير بدوره. ولو أنه أعد (التقرير) وفق أسلوبه هذا، لما استحق الورقة التي كُتب عليها. لا أظن أنه أصيب بالجرح الذي تحدثت عنه خلال الحرب، بل قبلها؛ وما تسببت به تلك الضربة القوية على الرأس، هو الشيء الوحيد الذي يفسر مثل هذه البلاهة. إذا استمر الدكتور جوردن في هذا المسار المضطرب في التفكير، فإنه سيودع قريبًا في مصحة عقلية خاصة، من النوع الذي كان يجتهد لتأسيسه، إن لم تخني الذاكرة.

قرأتُ ما يطلق عليه (شهادة) السيدة مودي، بالإضافة إلى بعض من خربشاتها الأخرى، التي أودعتها النار حيث تنتمي، والتي نجحت في أن تنير قليلًا، ولو لمرة واحدة، وهو ما لم تكن لتفعله لولا إتلافها بالنار. السيدة مودي كأمثالها ممن يميلون إلى التنميق المفرط، ولاختراع القصص الخيالية التي تلائمهم. أما إن كان غرضك هو معرفة الحقيقة، فيمكنك الاعتماد على شهادتها بالقدر الذي تعتمد به على شهادة إوزّة.

أما بالنسبة لأبواب الجنة التي تشير إليها، فأنا لا أملك أي سيطرة عليها، وإذا كانت غريس ماركس تستحق دخولها، فستدخل دون اعتراض من جانبي.

لكني لن أساهم في فتح أبواب السجن لها. لقد درستها بعناية، وأنا أعلم منك بشخصيتها ونزعاتها. إنها مخلوق مجرد من الملكات الأخلاقية، وقد طورت ميلًا قويًا نحو القتل. إنها ليست مأمونة لتمنح الامتيازات العادية لتكون فردًا في المجتمع، واسترجاع حريتها، يعني التضحية -عاجلًا أو آجلًا- بحياة أخرى.

في الختام سيدي، اسمح لي أن أشير إلى أنه من غير الملائم لمن يلبس ملابس الكهنوت، أن يبهّر خطبه بتلميحات عن (العلم الحديث). قلة المعرفة شيء خطير، كما قال البابا ذات مرة. أشغل نفسك برعاية ضمائر الناس، وإلقاء الخطب التثقيفية من أجل تحسين الحياة العامة والأخلاق الخاصة، التي يعلم الله أن البلاد في حاجة إليها، واترك أدمغة المنحطين للجهات المعنية بها. وفوق كل شيء، سيسعدني أن تكفّوا عن مضايقتي في المستقبل، بهذه المناشدات اللحوحة والسخيفة.

خادمك المتواضع والمطيع.

الدكتور الطبيب/ صامويل بانيرلينغ.

XV

شجرة الجنة

أثمر الإصرار في النهاية. رفعت عريضة تلو الأخرى إلى الحكومة، بمساندة بعض المؤثرات. وقد حصلت هذه المجرمة الفريدة تقريبًا على عفو، ونقلت إلى نيويورك، حيث غيرت اسمها، وسرعان ما تزوجت بعد ذلك. وحسب معرفة كاتب هذه السطور، فهي لا تزال حية. لا يُعرف ما إذا كانت شهيتها للقتل قد أثبتت نفسها بقوة خلال تلك الفترة، لأنها حرست هويتها -على الأغلب- بأكثر من اسم مستعار.

- غير معروف، تاريخ تورنتو ومقاطعة يورك، أونتاريو، 1885.

الجمعة 2 أغسطس 1872. زرتُ المدينة بين الساعة 12 وحتى 2 للقاء وزير العدل بشأن غريس ماركس التي تلقت عفوًا هذا الصباح. كان السير جون هو من طلب أن أرافق -أنا وإحدى بناتي- هذه المرأة للمنزل المخصص لها في نيويورك.

الثلاثاء، 7 أغسطس 1872، فحصت غريس ماركس وأطلق سراحها، بعد أن احتُجِزت في هذا السجن لثمان وعشرين سنة وعشرة أشهر. انطلقتُ معها برفقة ابنتي إلى نيويورك في 1.00 مساءً بأمر من وزير العدل.

- ملاحظات من مجلة واردِن ديلي، سجن المقاطعة، كينغستون، أونتاريو، دومينيون كندا.

على هذا الجنة الأرضية،

إذا ما فهمتموني، وعذرتموني،

يا من تكافحون لبناء جزيرة شبحية من النعيم في مركز تراطم البحر الفولاذي،

حيث يقذف بكل قلوب الرجال...

- ويليام موريس، الجنة الدنيوية، 1868.

اللّا كمال هو جنتنا.

- والاس ستيفنز، (قصائد مناخنا)، 1938.

51

فكرت كثيرًا في الكتابة لك وإبلاغك بالبشرى، وكتبت لك العديد من الرسائل في رأسي، وفور أن أتوصل إلى الطريقة المثالية لسرد الأشياء فسأدوّنها على الورق، وهكذا ستعرف عن أخباري، إن كنت لا تزال على أرض الأحياء. وإن لم تكن هنا، فأنت تعلم كل شيء على أي حال. ربما سمعت عن العفو، وربما لم تفعل. لم أرَه في أي صحيفة، لا أستغرب ذلك، إذ بحلول الوقت الذي أُطلق فيه سراحي أخيرًا، أصبحت قصتي حكاية قديمة وبالية، ولن يرغب أحد في القراءة عنها. لكن ذلك لمصلحتي بلا شك. عندما أُشعرت بالعفو، كنت أعرف على وجه اليقين أن رسالتك إلى الحكومة كانت وراءَه، لأنها جاءت بنتيجة في النهاية، بالإضافة إلى جميع الالتماسات. على الرغم من أنهم أخذوا وقتًا طويلًا ليقرّروا بشأن هذا الموضوع، ولم يذكروا شيئًا عن رسالتك، بل قالوا إنه كان بمثابة عفو عام.

سمعت عن العفو لأول مرة من جانيت البنت الكبرى للمأمور. ليس هذا أحد المأمورين الذين سبق وشاهدتهم سيدي، فقد حدثت العديد من التغييرات منذ ذهابك، وكان هذا المأمور الجديد أحدهم، عُيِّن أيضًا آمران جديدان أو ثلاثة، والعديد من الحراس والمراقبين والمراقبات الذين أعجز عن تتبعهم. كنت جالسة في غرفة الخياطة عندما دخلت جانيت الغرفة التي دارت فيها أحاديثنا فترة الظهيرة، بينما أصلح الجوارب، فقد واصلت الخدمة المنزلية كالسابق تحت ظل الآمرين الجدد. كان سلوكها لطيفًا وكانت تبتسم لي دائمًا، على عكس البعض، وعلى الرغم من أنها ليست جميلة، إلّا أنها تمكنت من الارتباط بمزارع شاب ومحترم، ولها أحر أمنياتي القلبية لتوفّق في ذلك. هناك بعض الرجال، خصوصًا البسطاء، الذين يفضلون أن تكون زوجاتهم عاديات على أن يكنّ جميلات، إذ إنّ هذا النوع من النساء ينغمسن في العمل دون شكوًى، وفرصة هروبهن مع رجل آخر قليلة، إذ ما الذي يدفع الرجل الآخر إلى تكبّد عناء سرقتها؟

في ذلك اليوم، هرعت جانيت إلى الغرفة، بدت متحمسة جدًا. قالت: غريس، لدي خبر مذهل.

لم أتوقف عن الخياطة حتى، فعندما يقول الناس إن لديهم أخبارًا مذهلة يتبين دائمًا أنها تخص شخصًا آخر. كنت على استعداد لسماع ذلك بالطبع، ولكن لست على استعداد لتفويت غرزة من أجله، إذا كنت تفهم ما أعنيه سيدي.

- حقًا؟ قلت.

- أصدِرَ العفو -قالت- من السير جون ماكدونالد، ووزير العدل، في أوتاوا. أليس هذا رائعًا؟

شبكت يديها، وبدت في تلك اللحظة مثل طفلة، طفلة كبيرة وقبيحة تحدق في هدية جميلة. كانت واحدة من الذين لم يعتقدوا بكوني مذنبة، نظرًا إلى طيبة قلبي وطبيعتي العاطفية.

تركت الخياطة عند سماعي الخبر. شعرت فجأة بالبرودة الشديدة، كما لو كنت على وشك الإغماء، والذي لم يحدث لي منذ وقت طويل، منذ غادرتَ سيدي.

- هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟

قلت. لو أن شخصًا غير جانيت أخبرني بذلك لظننته يمازحني مزحة قاسية، لكنها لم تكن تستمتع بالمزاح من أي نوع.

- نعم صحيح. عُفيَ عنك! أنا سعيدة جدًا من أجلك!

رأيت القليل من دموعها المترقرقة، بينما كنت أذرف الكثير من دموعي.

في تلك الليلة، وعلى الرغم من أن والدها المأمور لم يمتلك وثيقة، بل مجرد رسالة حول الأمر، نقلت من زنزانتي في السجن إلى غرفة نوم احتياطية في منزل الحرس. كان هذا من تدبير جانيت، ذات الروح الطيبة، لكنها نفذت ذلك بمساعدة والدها، فالعفو حدث غير عادي في روتين السجن البليد، ويحب الناس أن تكون لهم علاقة بأحداث من هذا النوع، ليتسنى لهم التحدث عنها مع أصدقائهم بعد ذلك، وهكذا كنت مركز الاهتمام.

أطفأت شمعتي، واستلقيت على أفضل سرير في العالم، مرتدية واحدة من منامات جانيت المصنوعة من القطن بدلًا من ملابس السجن الخشنة المصفرة،

ونظرت إلى السقف المظلم. تقلبت وتقلبت، مع ذلك لم أستطع الشعور بالراحة، أظن أن (الراحة) تعني الألفة، وقد كان سرير السجن الضيق -بحلول ذلك الوقت- أكثر ألفة بالنسبة لي من غرفة ضيوف بملاءات نظيفة. الغرفة كبيرة لدرجة أنها أرعبتني، سحبت الملاءة فوق رأسي لجعلها أكثر قتامة. ثم شعرت كما لو أن وجهي يذوب متحولًا إلى وجه آخر، وتذكرت أمي المسكينة في كفنها، بينما كانوا يزلقونها إلى البحر، وكيف ظننت أنها قد تغيرت بالفعل داخل الملاءة لتصبح امرأة أخرى، يحدث الشيء نفسه معي الآن. لم أكن أموت بالطبع، لكنه كان مشابهًا بطريقة ما.

خلال فطور اليوم التالي، جلست عائلة المأمور أمامي بوجوه مشرقة وعيون مخضلة، وكأنني شيء نادر ومدلل، مثل طفل ينتزع من النهر. وقال المأمور إنه ينبغي علينا أن نمتن لإنقاذ الحَمَل المفقود، فردد الجميع بحماسة: آمين.

هكذا هو الأمر إذًا، فكرت. لقد أنقِذت، والآن يجب أن أتصرف مثل شخص أُنقِذَ. وهذا ما حاولت فعله. تملّكني شعور غريب وأنا أدرك أنه لن يُنظر إليّ باعتباري قاتلة شهيرة بعد الآن، بل باعتباري امرأة بريئة اتهمت خطأً وسُجنت ظلمًا، لفترة طويلة، وأني سأصبح موضوع شفقة عوضًا عن كوني محلّ رعب وخوف. احتجت إلى بضعة أيام حتى أعتاد الفكرة؛ في الواقع، أنا لم أعتدها حتى الآن. يتطلب الأمر تنسيق الوجه على نحو مختلف؛ أفترض أن ذلك سيأتي مع الوقت.

أما بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون قصتي فلن ينظروا إليّ باعتباري أي شخص على وجه التحديد.

***

بعد إفطار ذلك اليوم كنت واهنة على نحو غريب. لاحظت جانيت ذلك وسألتني عن السبب، فقلت:

- لقد كنت في السجن لما يقارب تسعةً وعشرين عامًا، وليس لي أصدقاء أو عائلة خارجه، أين سأذهب وماذا سأفعل؟ لا أملك مالًا، ولا وسيلة لكسبه،

ولا ملابس مناسبة، ومن المستبعد أن أحصل على وظيفة في أي مكان بالجوار، إذ إنّ قصتي معروفة. فعلى الرغم من العفو -وهو أمر جيد تمامًا- لن تقبل بي أي ربة منزل طبيعية في بيتها؛ لأنها تخاف على سلامة أحبائها، وهو ما كنت سأفعله أنا نفسي لو كنت مكانها.

لم أقل إنني كبرت على الوقوف في الشوارع، حتى لا أصدمها، إذ إنّها فتاة مهذبة أحسنت تربيتها على الطريقة الميثودية. عليّ القول إن الفكرة خطرت في بالي سيدي. لكن أي فرصة لديّ؟ فمع عمري، والمنافسة الشديدة، لن أحصل إلّا على بنس مقابل رفقة أسوأ البحارة المخمورين في زقاق ما، وسأكون ميتة في غضون عام بسبب المرض. إن قلبي ينكسر بمجرد التفكير بالأمر.

والآن، وبدل أن يكون العفو جوازي للحرية، بدا لي كعقوبة إعدام. سيلقى بي في الشارع، وحيدة وبلا أصدقاء، لأموت من الجوع والبرد في إحدى الزوايا، بلا شيء سوى ما عليّ من ملابس، الملابس نفسها التي دخلت بها السجن؛ وربما لا تتوفر لي حتى تلك الملابس، فأنا لا أعلم ماذا حل بها؛ قد تكون بيعت أو منحت منذ زمن طويل.

- أوه، عزيزتي غريس -قالت جانيت- دُبّر كل شيء. لم أكن أريد إخبارك بكل شيء في وقت واحد، إذ خشينا من الصدمة التي قد تسببها هذه السعادة التي تأتي بعد بؤس طويل، قد يكون لها مثل هذا التأثير في بعض الأحيان. الحقيقة أنه قد وُفّرَ لك منزلٌ جيّد في الولايات المتحدة، وحالما تصبحي هناك، يمكنك ترك الماضي الحزين وراء ظهرك، إذ لا داعي لأن يعلم أحد به. ستكون لك حياتك الجديدة.

لم تستخدم هذه الكلمات بالضبط، ولكن كان هذا فحواها.

- لكن ماذا سألبس؟ -قلت- لا زلت يائسة.

في الواقع ربما كان دماغي لا يزال مشوّشًا، لأن أي شخص عاقل، سيستفسر أولًا عن البيت الجيد الذي سيوفر، وأين يقع، وماذا سيفعل هناك. فكرت لاحقًا في الطريقة التي صاغت بها الأمر «وفّر منزل جديد لك.» هذا ما تقوله عن كلب أو

حصان أصبح عاجزًا عن العمل بسبب سنه، ولم تعد راغبًا لا في الاحتفاظ به، ولا في القضاء عليه.

- فكرت في ذلك أيضًا -قالت جانيت. لقد كانت مخلوقًا متعاونًا حقًا- لقد بحثت في المخزن، وبمعجزة ما كان الصندوق الذي أحضرته معك لا يزال هناك حاملًا اسمك على الملصق، أفترض أنهم أبقوا عليه بسبب الالتماسات التي جرت لصالحك بعد المحاكمة. ربما احتفظوا بأشيائك أول الأمر لأنهم اعتقدوا أنه سرعان ما سيُطلَقُ سراحك، ولا بدّ أنهم نسوا كل شيء بشأنه بعدها. سأحضره إلى غرفتك ثم نفتحه، هلا فعلنا ذلك؟

شعرت ببعض الراحة، وبعض الريبة أيضًا. وتبين أن لدي كل الحق لأرتاب، فعندما فتحنا الصندوق وجدنا أن العث قد تسلل وأكل الصوفيات، من بينها شال والدتي الشتوي السميك، تغير لون بعض الأشياء الأخرى، وخرجت منها رائحة تعفن فالصندوق ظل مغلقًا لفترة طويلة في مكان رطب؛ كانت الخيوط مهترئة في بعض المواضع، حتى إنّ بالإمكان تمرير يدك عبرها. أي قطعة قماش تحتاج إلى تهوية جيدة من حين إلى آخر، وما كان في الصندوق لم ينل شيئًا من ذلك.

أخرجنا كل شيء ونشرنا الأشياء في الغرفة؛ لنحدد ما يمكن إنقاذه. كانت هناك فساتين نانسي، التي كانت جميلة جدًا وهي جديدة، أما الآن فمعظمها تالف، والأشياء التي تركتها لي ماري ويتني، التي كانت لها قيمتها في ذلك الوقت، وها هي الآن تبدو رديئة وعتيقة. كان هناك أيضًا الفستان الذي صنعته لدى السيدة باركنسون، مع الأزرار العظمية من جيرمايا، لكن ما من شيء صالح فيه باستثناء الأزرار. عثرت على خصلة شعر ماري، مربوطة بخيط وملفوفة في منديل تمامًا كما تركتها، لكن العث تسلل إليها أيضًا، وهو يأكل الشعر إذا لم يجد شيئًا أفضل مُخَزَّنًا في خشب الأرز.

كانت العواطف التي اختبرتها قويّة ومؤلمة. بدت الغرفة تظلم، وبدأت أرى تقريبًا كلًا من نانسي وماري وهما تتخذان شكلًا ماديًا داخل ثيابهما مرة أخرى،

لكنها لم تكن فكرة لطيفة، حيث إنّهما ستكونان في حالة متداعية بحلول هذا الوقت. شعرت بأني على وشك الإغماء، واضطررت للجلوس وطلب كوب من الماء، وفتح النافذة.

جانيت نفسها أخذت بذلك؛ فهي أصغر من أن تدرك ما يعنيه الحبس في صندوق لتسع وعشرين سنة، على الرغم من أنها فعلت ما أملته عليها طبيعتها. وقالت إن الفساتين -على أي حال- صارت بعيدة عن الموضة ولن يسمحوا لي بالذهاب إلى حياتي الجديدة مثل فزاعة، لكن يبقى أن بعض الأشياء لا تزال قابلة للاستخدام، مثل التنورة الداخلية الحمراء المصنوعة من الفلانيل وبعض الملابس البيضاء التي يمكن غسلها بالخل للتخلص من رائحة العفن الفطري، ثم تبييضها في الشمس، لتعود ناصعة البياض. تبين أن الأمر ليس كذلك تمامًا، فحالما انتهينا كان لونها أفتح، ولكن ليس بالقدر الذي يسمح بتسميتها بيضاء.

أما بالنسبة لباقي الأشياء -قالت- فعلينا البحث في الجوار، سأحتاج إلى خزانة ملابس. لا أعرف كيف تم الأمر، أشك في أنها توسلت والدتها للحصول على لباس، ثم جالت بين معارفها وجمعت بعض الأشياء الأخرى، وأظن أن الآمر ساهم بالمال لشراء الجوارب والأحذية، لكنها في النهاية جمعت مخزونًا جيدًا من الملابس. وجدت الألوان فاتحة بإفراط، مثل الأخضر المطبع، واللباس الأزرق السماوي المقلم بخطوط تميل إلى الأرجواني، كانت ملونة باستخدام الأصباغ الكيميائية الجديدة الشائعة الآن. هذه الألوان لم تناسبني تمامًا. لكن لا يمكن للمتسولين أن يكونوا انتقائيين، كما تعلمت في مناسبات عديدة.

جلس كلانا للعمل معًا لجعل الثياب ملائمة. كنا مثل أم تعمل مع ابنتها على جهاز العرس، يكتنفنا مزاج ودود ودافئ للغاية، وبعد بعض الوقت غمرتني البهجة. أسفي الوحيد كان على الكرينولين؛ الذي تجاوزته الموضة، وحلت محله الآن أرداف سلكية مستعارة وسنام كبير من القماش مسحوب إلى الخلف، بثنيات وشراشيب، تبدو لي مثل أريكة؛ وهكذا فلن أحظى بفرصة للبس الكرينولين. لكن ماذا أقول سوى إن المرء لا يحصل على كل ما يرغب فيه في حياته.

موضة القلانس ولّت أيضًا. جميع القبعات الآن مزودة برباط يربط تحت الذقن ومسطحة إلى حد ما ومائلة إلى الأمام، مثل سفينة تبحر فوق رأسك، بخُمُرٍ تطفو خلفها مثل الأثر الذي تتركه السفينة في الماء عندما تبحر. عثرت جانيت على واحدة لي وشعرت بالغرابة عندما وضعتها أول الأمر ونظرت في المرآة. على الرغم من أنها لم تغطّ خصل شعري الرمادية، إلا أن جانيت قالت إنّني أبدو أصغر بعشر سنوات، أقرب إلى فتاة في الواقع، في الحقيقة لقد حافظت بالفعل على هيئتي ومعظم أسناني.

قالت إنني أبدو كسيدة حقيقية، وهو أمر ممكن، بالنظر إلى أن الفروق في اللباس بين السادة والخدم أصبحت أقل وضوحًا ممّا كانت عليه، كما أن الموضة يسهل نسخها. قضينا وقتًا ممتعًا في زخرفة القبعة بالأقواس وزهور الحرير، على الرغم من أنني انهرت باكية عدة مرات لأنني كنت مهتاجة. غالبًا ما يكون لتغير الحظ هذا الأثر، إن كان تغيرًا إلى الأسوأ أو الأفضل، كما لاحظت ذلك -بلا شك- خلال حياتك سيدي.

وبينما كنا نحزم الأمتعة ونطوي الملابس، اقتطعت قصاصات من الفساتين المختلفة التي لبستها في الماضي، والتي ننوي التخلص منها الآن. وسألت إن كان بإمكاني الاحتفاظ بثوب نوم -من النوع الذي لبسناه في السجن- كتذكار. قالت جانيت إنه تذكار غريب، لكنها قدمت الطلب بالنيابة عني ومنحت إياه. كنت بحاجة -كما ترى- إلى أن أحمل معي شيئًا يخصني.

عندما أصبح كل شيء جاهزًا، شكرت جانيت بامتنان عميق. كنت لا أزال متخوفة من القادم، لكنني سأبدو على الأقل شخصًا عاديًا ولن يحدق الناس بي، وهو أمر ذو قيمة عظيمة. أعطتني جانيت زوجًا من القفازات الصيفية الجديدة تقريبًا، لا أعرف من أين حصلت عليها. ثم أخذت تبكي، وعندما سألتها عن السبب، قالت لأنني سأحظى أخيرًا بنهاية سعيدة، تمامًا كما يحدث في الكتب. وتساءلت أي كتب كانت تقرأ.

52

لن أنسى يوم رحيلي طالما حييت، في السابع من أغسطس عام 1872.

بعد تناول وجبة الإفطار مع عائلة المأمور. الواقع أنني بالكاد استطعت أن آكل أي شيء من شدة القلق، لبست الفستان الذي كان من المفترض أن أسافر به، ذلك الذي باللون الأخضر، مع قبعة القش المهيأة بطريقةٍ تجعلها تتماشى مع القفازات التي قدمتها لي جانيت. كان صندوقي جاهزًا. لم يكن صندوق نانسي لأن رائحة العفن الفطري ظلت ملتصقة به، وإنما كان صندوقًا آخر من الجلد وفّره السجن لي، ولم يكن مهترئًا جدًا. ربما كان يعود إلى مسكينة قضت نحبها هناك، ولكني تعلمت منذ فترة طويلة ألّا أُسأل عن قيمة الهدايا.

أخذوني لمقابلة المأمور، كان أمرًا شكليًا ولم يكن لديه الكثير ليقوله عدا تهنئتي بإطلاق سراحي. على أي حال تقرر أن يرافقني هو وجانيت إلى المنزل المقدم لي، بناء على طلب خاص من السير جون ماكدونالد نفسه، ليتأكدوا أنني وصلت بأمان، خصوصًا مع معرفتهم أنني غير معتادة على وسائل السفر الحديثة، بعد الحبس الطويل. بالإضافة إلى أن الأرجاء تضج بالرجال الجلفين: الجنود المسرحين من الحرب الأهلية، بعضهم مشلول والبعض الآخر دون موارد مالية تعينهم، وقد يمثّلون خطرًا علي. لذلك كنت ممتنة للصحبة.

تجاوزت بوابة السجن للمرة الأخيرة بينما كانت الساعة تعلن حلول الظهيرة، قارعة في رأسي كألف جرس. لم أستطع الوثوق بحواسي حتى تلك اللحظة. بينما كنت أستعد للرحلة، كان شعور الخدر يعلو على أي شعور آخر، وبدا أن الأشياء من حولي مسطحة ومفتقرة للألوان، أما الآن فكل شيء يثب للحياة. بدت الشمس ساطعة، وبدا كل حجر في الجدار صافيًا كالزجاج ومضيئًا مثل مصباح، كان أشبه بالمرور إلى الجنة عبر بوابة الجحيم، أعتقد أن الجنة والجحيم متجاورتان، عمومًا أقرب إلى بعضهما ممّا يظنه معظم الناس.

كانت هناك شجرة كستناء خارج البوابة، وبدت كل ورقة منها مؤطّرة بالنار، تجلس على أغصانها ثلاث حمامات بيضاء، أشرقت مثل ملائكة عيد العنصرة،

عرفت في تلك اللحظة أنني حُرِّرتُ حقًا. عادة يغمى عليّ عندما أكون في مكان أسطع أو أظلم من المعتاد، ولكنّني سألت جانيت اليوم أن تعطيني أملاح الشم خاصتها، وهكذا بقيت منتصبة، على الرغم من أنني استندت إلى ذراعها. وقالت إنه سيكون من غير الطبيعي ألّا أتأثر بمناسبة مهمّة كهذه.

رغبت بشدة في الالتفات والنظر إلى الوراء، لكنّني تذكرت زوجة لوط وعمود الملح، فأحجمت. كان النظر إلى الوراء سيعني أيضًا أنني أسفت على مغادرتي ولَديّ رغبة في العودة، وهذا بالتأكيد غير صحيح، كما قد تتخيل سيدي. لكنك ستفاجأ عندما تسمعني أقول إن لدي بالفعل نوعًا من الأسف. فمع أن السجن لم يكن بيتي، إلا أنه البيت الوحيد الذي ألفته لما يقرب من ثلاثين عامًا، وهذا وقت طويل، أطول من الوقت الذي يقضيه كثير من الناس على الأرض، وعلى الرغم من أنه مكان بغيض، معد للحزن والعقاب، لكني كنت على الأقل متكيفة. إن الانتقال من المألوف -مهما كان غير مرغوب- إلى المجهول، مصدر رهبة، وأفترض أن هذا هو السبب الذي يخيف الناس في الموت.

بعد تلك اللحظة، عدت ثانية إلى ضوء النهار العادي، على الرغم من شعوري ببعض الدوخة. كان يومًا حارًا ورطبًا، كالمناخ بجانب البحيرات في أغسطس، لكن الطقس ليس مرهقًا جدًا؛ بما أن هناك نسيمًا ينبعث من المياه. ظهرت بعض الغيوم، لكنها غيوم بيضاء، من النوع الذي لا ينذر بالمطر أو الرعد. حملتْ جانيت المظلة، لتغطينا كلينا بينما نتقدم. المظلة هي الشيء الوحيد الذي ينقصني، إذ تعفن كل الحرير الذي يكسو مظلة نانسي الوردية.

ذهبنا إلى محطة السكك الحديدية في عربة خفيفة يقودها خادم مأمور السجن. يُفترض ألّا يغادر القطار قبل الواحدة والنصف، لكنني قلقتُ من أن نتأخر، وفور أن أصبحنا هناك، لم أتمكن من الجلوس بهدوء في غرفة انتظار السيدات، بل أخذت أسير ذهابًا وإيابًا عبر المنصة في الخارج، على نحو مضطرب للغاية. وأخيرًا وصل القطار، كوحش حديدي لامع ينفث الدخان. لم أرَ قطارًا من هذه المسافة القريبة، وعلى الرغم من أن جانيت أكدت لي أنه ليس خطيرًا، فقد

احتجت للمساعدة لصعوده.

أخذنا القطار حتى كورنوال، وعلى الرغم من قصر الرحلة، شعرتُ أنني لن أنجو منها. الحركة سريعة، والصوت صاخب، حتى ظننت أنني سأصاب بالصمم، تصاعد قدر كبير من الدخان الأسود، كادت صافرة القطار تفقدني صوابي، لكني تمالكت نفسي ولم أصرخ.

شعرت بتحسن عندما نزلنا في محطة كورنوال واستقللنا من هناك عربة يجرها مهران، ثم أخذنا العبّارة حتى نهاية البحيرة، فطريقة السفر هذه أكثر ألفة بالنسبة لي وتمكنني من الحصول على بعض الهواء النقي. أذهلتني حركة ضوء الشمس على الأمواج أول الأمر، لكن حالما انقطعت عن النظر توقف هذا التأثير. قُدِّمت المرطبات التي أحضرها المأمور معه في سلة، وتمكنت من تناول القليل من الدجاج البارد وشرب بعض الشاي الفاتر. شغلتُ ذهني بالنظر إلى أزياء السيدات على متن المركب، والتي كانت متنوعة وذات ألوان زاهية. تناوبت حركتي بين الوقوف والجلوس إذ كان لدي بعض المشاكل في التحكم بحشوة ردفي المستعارة، فشيء من هذا القبيل يحتاج إلى الممارسة، وأخشى أنني لم أكن أنيقة، الأمر أشبه بوجود مؤخرة أخرى مثبتة على مؤخرتك الحقيقية وكلتاهما تتبعانك مثل دلو من الصفيح عالق بخنزير، لكنني بالطبع لم أقل أيًا من هذا الكلام الجلف لجانيت.

على الجانب الآخر من البحيرة مررنا عبر مبنى الجمارك التابع للولايات المتحدة، وقال المأمور إنّنا لا نملك ما نبلغ عنه. ثم أخذنا قطارًا آخر، وكنت سعيدة بأن المأمور قد أتى، وإلّا فما كنت سأجيد التصرف مع الحمالين والأمتعة. بينما كنا نجلس في هذا القطار الجديد، الذي يهتز على نحو أقل من سابقه، سألتُ جانيت عن وجهتي النهائية. كنا ذاهبين إلى إيثاكا – نيويورك، وهذا ما أخبروني به حتى الآن؛ ولكن ماذا سيحدث لي بعد ذلك؟ كيف هو المنزل الذي تدبّروه؟ وهل سأعمل خادمة فيه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي أخبروا به الأسرة عني؟ لم أرغب في تزوير مكانتي -كما ترى يا سيدي- أو إخفاء الحقيقة حول ماضيّ.

قالت جانيت إن هناك مفاجأة تنتظرني، ولكونها سرًا فهي لا تستطيع إخباري عنها. لكنها مفاجأة جيدة، أو هذا ما تأمله. وصلت إلى حد أنها أخبرتني أن المفاجأة تتضمن رجلًا، رجلًا نبيلًا قالت؛ ولكن بما أنها اعتادت أن تطلق ذلك على أي شخص متسرولٍ، ويشغل وظيفة أعلى من وظيفة النادل، لكني كنت بدوري أجهل منها.

عندما سألت من هو الرجل، قالت إنها لا تستطيع إخباري. لكنه صديق قديم لي، أو هذا ما فهمته. ثم أصبحتْ حيية على نحو منعني من انتزاع أي كلمة إضافية منها.

فكرت بكل الرجال الممكنين. لم أعرف الكثير منهم، إذ -يمكنك القول- إنّه لم تتح لي الفرصة، وأفضل من عرفت -ليس بمعيار طول الفترة- قد ماتا، وأعني بذلك السيد كينير وجيمس ماكديرموت. كان هناك جيرمايا البائع المتجول، لكنني لا أظن أنه يعمل في الإتجار بالمنازل الجيدة، لأنه لم يبدُ من النوع المستقر. كان هناك أيضًا أرباب العمل السابقين، مثل السيد كوتس والسيد هيرفي، لكن جميعهم إما ميّتون أو مسنّون بالتأكيد. الشخص الوحيد عداهم الذي استطعت التفكير به سيدي، هو أنت. يجب أن أعترف أن الفكرة عبرت خاطري.

وهكذا كان الأمر مثيرًا للقلق، والترقب أيضًا مع نزولي أخيرًا في محطة إيثاكا. وقف حشد من الناس لاستقبال القطار يتكلمون في وقت واحد، وحمالون متعجلون، والكثير من الحاويات والصناديق التي تحمل أو تدفع بالعربات، ما جعل الوقوف هناك مخاطرة. تمسكت بجانيت بشدة بينما كان والدها يتدبر الترتيبات بشأن الأمتعة، ثم قادنا إلى الجانب الآخر من مبنى المحطة، الجانب البعيد عن القطارات، حيث بدأ يبحث في الأرجاء. وعبس لأنه لم يجد ما كان يتوقعه، ونظر إلى ساعته، وإلى ساعة المحطة؛ ثم تفقد رسالة أخرجها من جيبه، وبدأ قلبي يخفق. لكنه رفع نظره وابتسم قائلًا: ها هو رجلنا، وكان هناك بالفعل رجل يحث الخطى نحونا.

رجل ضخم بطول يتجاوز المتوسط، نحيف في الوقت نفسه. أعني أن ذراعيه

وساقيه كانت طويلة ولكن الجزء الأوسط من جسده أصلب وأكثر استدارة. كان له شعر أحمر ولحية حمراء كبيرة، وكان يلبس بدلة سوداء من النوع الذي يُلبس في الآحاد، والذي أصبح يمتلكه معظم الرجال ميسوري الحال، مع قميص أبيض ولفاع غامق اللون، وقبعة طويلة كان يحملها بين يديه، ممسكًا بها أمامه كدرع، وهي إشارة فهمت منها أنه متخوّف أيضًا. لم أرَ الرجل في حياتي من قبل، ولكن حالما بلغنا، منحني نظرة متفحصة ثم جَثَا على ركبتيه عند قدمي. تناول يدي، وهي بالقفاز وكل شيئًا، وقال غريس... غريس... هل يمكنك أن تغفري لي؟ في الواقع كان يصرخ تقريبًا وهو يقولها، كما لو أنه تدرب عليها لبعض الوقت.

ناضلت لسحب يدي، ظنًا مني أنه مجنون، ولكن عندما التفت إلى جانيت للمساعدة وجدتها غارقة في طوفان من الدموع العاطفية، وكان المأمور يبتسم بابتهاج وكأنه لا يتخيل مصيرًا أفضل. ورأيت أنني الوحيدة التي أذهلتها الحيرة.

أفلتَ الرجل يدي ووقف. لم تتعرفي علي، قال بأسف. غريس، ألا تعرفينني؟ ما كنت لأخطئك أيًا كان المكان الذي أراك فيه.

تمعنت فيه، كان مألوفًا بعض الشيء، لكنني مع ذلك لم أتمكن من تذكره. ثم قال: هذا أنا... جيمي والش. فاستطعت حينها الإدراك أنه هو فعلًا.

توجهنا بعد ذلك إلى فندق جديد بالقرب من محطة القطارات، حيث نسق المأمور لنا أمر الإقامة، وتشاركنا بعض المرطبات. كما قد تتخيل يا سيدي، فهناك حاجة إلى قدر كبير من التفسير، المرة الأخيرة التي رأيت فيها جيمي والش كانت خلال محاكمتي بتهمة القتل، عندما قلبتْ شهادته القضاة وهيئة المحلفين ضدي كوني ألبس ملابس امرأة ميتة.

أخبرني السيد والش -كما سأدعوه ابتداء من الآن- أنه كان يعتقد في ذلك الوقت أنني مذنبة، بالرغم من أنه لم يرغب في أن أكون كذلك، للإعجاب الذي حمله تجاهي، والذي كان صحيحًا. ولكن حين كان يتأمل المسألة مع تقدمه في العمر، أصبح مقتنعًا بالعكس، واستولى عليه الذنب بسبب الدور الذي لعبه في إدانتي؛ على الرغم من أنه كان مجرد صبي صغير في ذلك الوقت، غير قادر على

مجاراة المحامين، الذين قادوه إلى قول أشياء لم يرَ تبعاتها إلا بعد حين. واسيته وقلت إنّ ذلك قد يحدث لأي شخص.

أُرغم هو ووالده على مغادرة المكان بعد وفاة السيد كينير، إذ لم يجد المالكون الجدد أي جدوًى من وجودهم؛ وتولى منصبًا في تورنتو، حصل عليه نظرًا لأنه ترك انطباعًا جيدًا -خلال المحاكمة- كفتًى ذكي يتوقع نجاحه، كما كتب عنه في الصحف. لذلك يمكن القول إنه بدأ حياته على حسابي. ادّخر ماله لسنوات عديدة، ثم ذهب إلى الولايات المتحدة، حيث الفرصة أكبر هناك لأن يصبح رجلًا عصاميًا، فمكانتك هناك لا تحدد بمن أين جئت، بل بما أنت عليه، ولم تطرح سوى بعض الأسئلة. كان يعمل في خطوط السكك الحديدية وكذلك في الجهة الغربية من البلاد، مدخرًا طوال ذلك الوقت، وهو الآن يمتلك مزرعته الخاصة وحصانين. حرص على ذكر الخيول في وقت مبكر، لأنه يعرف الولع الذي كنت أكنه لتشارلي.

تزوج في السابق، لكنه الآن أرمل بلا أطفال. لم يكف عن الشعور بالعذاب لما ألحقه بي، وقد خاطب السجن عدة مرات ليتفقدني؛ لكنه لم يكتب لي مباشرة، لأنه لم يرغب في مضايقتي. وقد عرف عن العفو بهذه الطريقة، ورتب الأمور مع المأمور.

الخلاصة... توسل إليّ كي أسامحه، وهو ما فعلته فورًا. لا أشعر أنني قادرة على حمل الضغائن، وأخبرته أنني كنت سأودَعُ السجن على أي حال، حتى لو لم يَذكر ملابس نانسي. وبعد أن مررنا بكل هذا، وقد كان يضغط على يدي طوال الوقت، طلبني للزواج. وقال بالرغم من أنه ليس مليونيرًا إلا أنه قادر بالتأكيد على توفير منزل جيد لي، بكل ما يلزم، إذ إنّ لديه بعض المال في البنك.

تظاهرت بالتردد، لكن الحقيقة أنني لم أملك الكثير من الخيارات الأخرى، وكان من الجحود أن أقول لا، بعد أن تكبد الجميع الكثير من العناء لترتيب الأمر. قلت إنني لا أرغب في أن يتزوجني لمجرد الشعور بالواجب أو الذنب، وقد أنكر أن تكون هذه دوافعه، وزعم أنه لطالما شعر بمشاعر دافئة تجاهي، وأنني

بالكاد تغيرت عما كنته وأنا امرأة شابة. كنت لا أزال جذابة، هكذا عبّر عن الأمر. وتذكرت الأقحوان بجانب جذوع الأشجار في بستان السيد كينير، وكنت أعلم أنه يفكر في الأمر نفسه.

كان أصعب شيء بالنسبة لي هو أن أنظر إليه كرجل ناضج، إذ لم أعرفه سوى باعتباره فتًى أخرقَ، عزف على الفلوت في الليلة التي سبقت موت نانسي، وكان يجلس على السور في اليوم الأول الذي جئت فيه إلى منزل السيد كينير.

وأخيرًا قلت نعم. كان قد جهز الخاتم، بصندوق وضعه في جيب سترته، وقد غلبته العاطفة حتى أنه أسقط الخاتم مرتين على مفرش المائدة قبل وضعه في إصبعي. بعد أن نزعت القفاز عن يدي.

رُتِّبَت مسائل الزفاف في أسرع وقت ممكن، وبقينا في الفندق في هذه الأثناء، وجُلب الماء الساخن إلى الغرفة كل صباح، وقد أقامت جانيت معي بما أن ذلك لائق أكثر. تكفل السيد والش بجميع المصاريف. وأقمنا مراسم احتفال بسيطة مع كاتب العدل، وتذكرتُ الخالة بولين وهي تقول إنّني سأتزوج رجلًا أقل مكانة مني، أتساءل عمّا ستفكر فيه لو رأتني الآن. وقفت بجانبي جانيت كإشبينة، وأخذت تبكي.

كانت لحية السيد والش كبيرة وحمراء، لكنني طمأنت نفسي أنه يمكن تغييرها مع الوقت.

مرَّ ما يقارب الثلاثين عامًا، على اليوم الذي صعدت فيه أول مرة الطريق الداخلي الطويل إلى منزل السيد كينير، حينها لم أكن قد بلغت السادسة عشرة بعد. كنا -كما نحن الآن- في يونيو. وها أنا جالسة على شرفتي الخاصة فوق كرسي الهزاز، في آخر الظهيرة. المشهد أمامي هادئ للغاية، حتى لتحسبه صورة. ظهرت براعم الورد في الجزء الأمامي من المنزل، الورود من نوع (السيدة هاملتون) وهي بصحة جيدة، بالرغم من أنها عرضة لليرقات الآكلة للأوراق. يقولون إن رشها بالزرنيخ يجنبها ذلك، لكنني لا أريد رش شيء كهذا بجانب المنزل.

أزهر آخر فوج من الفاوانيا، تتنوع الزهور بين الوردي والأبيض وتمتلئ بالبتلات، لا أعرف الاسم، إذ لم أزرعها بنفسي؛ لكن رائحتها تذكرني بصابون الحلاقة الذي استخدمه السيد كينير. الجزء الأمامي من منزلنا يواجه الجنوب الغربي وأشعة الشمس دافئة وذهبية، لكني لا أعرّض نفسي لأشعة الشمس المباشرة، فذلك مضر بالبشرة. أفكر في بعض الأيام أنني في الجنة. بالرغم من أنني لم أحسب أنني سأدخلها.

مضى على زواجي من السيد والش ما يقرب عامًا الآن، وعلى الرغم من أن هذا لا يشبه ما تتخيله معظم الفتيات الصغيرات، فربما يكون ذلك لصالحنا، إذ يدرك كلانا على الأقل الصفقة التي عقدناها. عندما يتزوج الناس صغارًا، فغالبًا ما يتغيرون مع تقدمهم في السن، ولكن بما أن كلينا متقدم في السن، فلن يكون هناك الكثير من خيبة الأمل. يكون الرجل الأكبر سنًا قد شكل شخصيته بالفعل وليس من المرجح أن يتحول لسكير أو غيرها من الرذائل، لأنه لو كان سيفعل مثل هذا الشيء لكان قد فعله بحلول هذا الوقت، أو هذا رأيي، وآمل أن يثبت الوقت أنني على حق. أقنعت السيد والش أن يشذب لحيته بعض الشيء، وأن يقتصر على التدخين خارج المنزل، على أمل أن تزول كلٌّ من اللّحية والغليون مع الوقت، لكن ليس من الجيد أبدًا أن تدفع بالرجل أو تنكد عليه، إذ لن يأتي ذلك سوى بالمزيد من العناد. السيد والش لا يمضغ التبغ ويبصقه كما يفعل البعض، وكما

هو الحال دائمًا، أنا ممتنة لمثل هذه النعم الصغيرة.

إننا نقيم في مزرعة عادية، بمنزل أبيض اللون، ومصاريع مطلية باللون الأخضر، لكنه رحيب بالقدر الكافي بالنسبة لنا. يحتوي على قاعة أمامية مع صف من علاقات المعاطف لفصل الشتاء -على الرغم من أننا نستخدم باب المطبخ غالبًا- ودرج مع درابزين بسيطة الأسلوب. توجد على رأس الدرج خزانة من خشب الأرز لتخزين الأغطية والبطانيات. هناك أربع غرف في الطابق العلوي: غرفة معدة للأطفال، ثم غرفة النوم الرئيسة وأخرى للضيوف، على الرغم من أننا لا نتوقع أو نرغب في استضافة أحد، أما الرابعة فهي فارغة في الوقت الحاضر. تحتوي كل من غرفتي النوم المؤثثتين على مغسلة، ولكل منهما سجادة بيضاوية مضفّرة، إذ لم أرغب في حيازة أي نوع من السجادات الثقيلة، التي يصعب سحبها عبر الدرج ونفضها في الربيع، وهو ما سيكون أسوأ مع تقدمي في السن.

هناك لوحة غرز متقاطعة أعلى كل سرير، خطتها بنفسي. مزهرية وورد في غرفة الضيوف، وزُبديّة فاكهة في غرفتنا. الغطاء في غرفة الضيوف على نمط عجلة الغموض، والذي في غرفتنا على نمط الكوخ الخشبي، لقد اشتريتهما بسعر مخفض من أشخاص أفلسوا وعزموا على الانتقال إلى الغرب؛ لكنني شعرت بالأسف على المرأة، ودفعت أكثر ممّا ينبغي. كان هناك الكثير من الأشياء التي وجب الاعتناء بها لجعل المكان حميمًا، بما أن السيد والش قد طور عادات عزوبية بعد وفاة زوجته الأولى، بعضها ليس سائغًا. كان بانتظاري الكثير من خيوط العنكبوت، ولفيف من الصوف الرث لكنسه من تحت الأسرة، وقدر كبير من الغسيل والتنظيف أيضًا.

ستائر الصيف في غرفتي النوم بيضاء. أنا أيضًا أحب الستائر البيضاء.

توجد في الطابق السفلي صالة أمامية بها موقد، ومطبخ مجهز بالكامل بمخزن مؤن ومغسلة أطباق، وقد وضعت المضخة داخل المنزل، وهذه ميزة ستكون ذات نفع شديد في الشتاء. توجد غرفة لتناول الطعام، لكننا لا نملك رفقة تستدعي استخدامها كثيرًا. غالبًا ما نأكل على طاولة المطبخ. لدينا مصباحان

يعملان بالكيروسين، والمكان دافئ هناك. أستخدم طاولة غرفة الطعام للخياطة، وهي مفيدة بشكل خاص عند قص الأنماط. أصبحت لدي ماكينة خياطة الآن، تُدار بوساطة عجلة يدوية تعمل عمل السحر، وأنا ممتنة كثيرًا لوجودها لأنها توفر الكثير من الجهد، خاصة في ما يتعلق بالخياطة البسيطة مثل صنع الستائر وحواشي الشراشف. ما زلت أفضل القيام بالخياطة الأدق يدويًا، على الرغم من أن عينيّ لم تعودا كما كانتا.

بالإضافة إلى ما ذكرته، فلدينا الأشياء الاعتيادية: حديقة المطبخ، التي تحوي الأعشاب والملفوف والخضروات الجذرية، والبازلاء في الربيع، دجاج وبط، بقرة وحظيرة، وعربات تجرها الدواب وحصانان، تشارلي ونيل، وهما مصدر سرور بالغ بالنسبة لي، ورفقة جيدة عندما يغيب السيد والش؛ لكن تشارلي مجهد، بما أنه حصان الحرث. يقولون إن هناك آلات ستأتي قريبًا وستكون قادرة على القيام بكل هذه الأعمال، وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن يتحول تشارلي المسكين إلى علف. لن أسمح أبدًا ببيعه من أجل أن يصنع منه غراء وطعام للكلاب، كما هي العادة لدى البعض.

يوجد رجل مستأجر يساعد في المزرعة، لكنه لا يعيش معنا. أراد السيد والش توظيف فتاة أيضًا، أخبرته أنني أفضل القيام بعمل المنزل بنفسي. لا أريد أن يعيش خادم في المنزل، لأنهم يتطفلون كثيرًا، يتنصتون من وراء الأبواب؛ أفضل القيام بمهمةٍ ما على النحو الصحيح من المرة الأولى، عوضًا عن تكليف شخص آخر ليقوم بها، ثم إعادة فعلها من جديد.

قطتنا تدعى تابي؛ إنها باللون الذي تتوقعه لقطة من فصيلتها، وكلبنا يدعى ريكس، وهو كلب صيد من فصيلة الساطر وهو ليس ذكيًا، على الرغم من حسن نيته، إنّه بأجمل درجات البني المحمر، مثل الكستناء المصقولة. هذه ليست أسماء مبتكرة للغاية، لكننا لا نرغب في أن نشتهر في الحي بكوننا مبتكرين. التحقنا بالكنيسة الميثودية المحلية، والواعظ رجل مفعم بالحيوية، مولع بترهيب الناس عبر الحديث عن الجحيم أيام الأحد. مع ذلك، لا أعتقد أن لديه أي فكرة

عمّا يبدو عليه الجحيم في الواقع، لا يفوق علمه بذلك علم الأبرشية؛ إنّها جماعة فاضلة، على الرغم من ضيق أفقها. لكننا فضلنا عدم الكشف عن الكثير حول الماضي، ليس لهم ولا لأي شخص آخر، إذ لن يفضي ذلك سوى للفضول والثرثرة، وبالتالي إلى شائعات كاذبة. أخبرْنا الجميع أن السيد والش كان حبيب طفولتي، وأنني تزوجت من رجل آخر، لكنني ترملت مؤخرًا؛ وبما أن زوجة السيد والش كانت متوفاة، رتبنا للقاء مرة أخرى، والزواج. هذه قصة تقبل بسهولة، تتميز بكونها رومانسية، ولا تسبب الألم لأحد.

كنيستنا الصغيرة محلية وغير متقدمة؛ لكن إيثاكا نفسها أحدث، وتحوي عددًا لا بأس به من الروحانيين، بالإضافة إلى المشاهير منهم والذين يمرون بالمدينة ويقيمون في أفضل المنازل. لا أذهب إلى مثل هذه التجمعات، لأنك لا تعرف أبدًا ما قد تأتي به؛ وإذا ما رغبت في التواصل مع الموتى، فبإمكاني القيام بذلك على نحو جيد بنفسي، إضافة إلى أنني أخشى أن تحوي قدرًا من الغش والخداع.

رأيت في إبريل في إحدى وسائل الإعلام الشهيرة إعلانًا لرجل -على الرغم من أن صورته المنشورة كانت مظلمة للغاية- كان بلا شك جيرمايا البائع المتجول، وبالفعل اتضح أنه هو، فحين ذهبت إلى المدينة في إحدى المناسبات رفقة السيد والش من أجل التسوق وقضاء بعض المهمات، مررت به في الشارع. كان يلبس على نحو أنيق، أكثر أناقة من أي وقت مضى، وعاد شعره إلى اللّون الأسود مرة أخرى، وشذبت لحيته على الطريقة العسكرية التي توحي بالثقة، واسمه الآن السيد جيرالد بريدجز. كان ينتحل ببراعة صفة رجل بارز مرتاح لكل شيء، ولكنه ذو عقل ساع للحقيقة الأسمى؛ ورآني هو أيضًا، وتعرّف عليّ، وأمال القبعة احترامًا ثم غمز، على نحو طفيف جدًا حتى لا يُلاحظ. ولوحت له قليلًا فقط بيدي المغطاة بالقفاز، حيث كنت ألبسها كلّما ذهبت إلى المدينة. لحسن الحظ، لم يلاحظ السيد والش أيًا من هذه الأشياء، وإلا أثار ذلك قلقه.

لا أرغب في أن يعرف أي أحد هنا اسمي الحقيقي؛ لكنني أدرك أن أسراري آمنة مع جيرمايا، كما أن أسراره في أمان معي. وتذكرت حين أتيحت لي الفرصة

للهرب معه، لأصبح غجرية أو مستبصرة طبية، الفكرة التي أغرتني بالتأكيد، والتي كانت لتجعل مصيري مختلفًا تمامًا حينها. لكن يعلم الله وحده ما إذا كان مصيرًا أفضل أو أسوأ. وقد استنفدت الآن كل الهرب المقدر لي في الحياة.

أنا والسيد والش متفقان عمومًا، والأمور بيننا تسير على ما يرام. ولكن هناك شيئًا أهمني يا سيدي، وبما أنني لا أملك صديقة مقربة يمكنني الوثوق بها، فها أنا أخبرك بالأمر، لعلمي أنك أهل للثقة.

يصبح السيد والش حزينًا جدًا بين الحين والآخر. يمسك بيدي ويحدق إليّ بعينين ممتلئتين بالدموع، ويقول: يؤلمني التفكير في المعاناة التي سببتها لك.

أخبره أنه لم يسبب لي أي معاناة، إذ كان الآخرون هم الذين تسببوا بها، بالإضافة إلى الحظ السيئ والحكم السيئ. لكنه يحب الاعتقاد أنه مبتدعُ كل شيء، وأعتقد أنه سيدّعي أنه سبب وفاة والدتي المسكينة أيضًا، لو أمكنه التفكير في طريقة للقيام بذلك. يحب تصوير المعاناة أيضًا، وليس بوسعي سوى إخباره قصصًا من السجن، أو المصحة العقلية في تورنتو. كلما كان الحساء مائيًا أكثر ورائحة الجبنة أنتن، وكلما جعلت كلام وهمز الحراس أخشن؛ أعجبته القصة أكثر. يستمع إلى كل ذلك مثل طفل يستمع إلى حكاية خرافية، كما لو كان أمرًا رائعًا، ثم يطلب مني أن أخبره بالمزيد. إذا وصفت تقرح اليدين والارتجاف ليلًا تحت الملاءة الرقيقة، والجلد بالسوط إذا ما اشتكيت، فإنه يطرب. وإذا ما أضفت سلوك الدكتور بانرلينج غير المحتشم تجاهي، والإجبار على الحمامات الباردة وأنا عارية وملفوفة في شرشف، وإجباري على لبس قميص المصحة المحكم في غرفة مظلمة، فإنه يصل إلى النّشوة تقريبًا؛ لكن الجزء المفضل لديه من القصة هو عندما جرني جيمس ماكديرموت المسكين في أنحاء منزل كينير، باحثًا عن سرير مناسب لأغراضه الشريرة، فيما يستلقي كلٌ من نانسي والسيد كينير ميتين في القبو، وأنا فاقدة العقل تقريبًا من شدة الرعب. ثم يلوم نفسه لأنه لم يكن هناك لإنقاذي.

أُفضّل نسيان هذا الجزء من حياتي بأسرع ما يمكن، بدلًا من إثارتها على

هذا النحو المتفجع. صحيح أنني أحببت فترة السجن أثناء وجودك سيدي، لأنها بمثابة استراحة من أيامي المتشابهة حينها. لكن حين أفكر في الأمر الآن أدرك أنك كنت متلهفًا مثل السيد والش إلى سماع معاناتي وضناي في الحياة. ليس الاستماع فحسب، بل التدوين أيضًا. أستطيع أن أحس عندما يتراخى اهتمامك، إذ يجول نظرك عندها؛ لكنّ قدرتي على التوصل إلى شيء يثير اهتمامك، شكّلت مصدر ابتهاج لي. فحينها يتورد خداك وتبتسم مثل الشمس في ساعة الردهة، ولو كانت لديك آذان مثل آذان الكلب لانتصبت إلى الأمام، ولمعت عيناك وتدلّى لسانك إلى الخارج، كما لو وجدت طائرًا في الأجمة. جعلني ذلك أشعر أنني ذات نفع للعالم، على الرغم من أنني لم أدرك أبدًا ما ترمي إليه.

أما بالنسبة للسيد والش، فبعد أن أخبره ببعض القصص حول العذاب والبؤس، يأخذني بين ذراعيه ويمسد شعري، ويبدأ في فك أزرار منامتي، لأن هذه المشاهد تحدث غالبًا في الليل، ويسأل: هل تسامحيني؟

في البداية، كان الأمر يزعجني كثيرًا، على الرغم من أنني لم أظهر ذلك. الحقيقة هي أن قلة قليلة يفهمون حقيقة المغفرة. ليس الجناة هم من يحتاجون إلى الغفران، بل الضحايا، لأنهم من يسبب المشاكل. فكر في كل أحزان العالم التي يمكن تجنبها، لو كانوا أقل ضعفًا وإهمالًا، وأكثر استبصارًا، ولو حافظوا على أنفسهم بعيدًا عن المصاعب.

شعرت بالغضب لسنوات عديدة، تجاه ماري ويتني، وخصوصًا تجاه نانسي مونتغمري، تجاههما معًا على حد السواء، للسماح لنفسيهما بأن تُقادا إلى الموت بالطريقة التي فُعلت بهما، وتركي وراءهما حاملة ثقل كل ذلك. لوقت طويل لم أستطِع الصفح عنهما. سيكون من الأفضل بكثير لو غفر السيد والش لي، بدلًا من أن يكون عنيدًا جدًا تجاه الأمر، ومصرًا على قلبه في الاتجاه الآخر، لكن ربما يأتي الوقت المناسب لرؤية الأشياء على حقيقتها.

عندما بدأ بذلك أول الأمر، قلت إنه لا يوجد شيء أسامحه عليه، ولا ينبغي أن يشغل باله حيال ذلك؛ لكن لم تكن هذه الإجابة التي يريدها. إنه يصر على

الغفران، ويبدو أنه غير قادر على المضي قدمًا بارتياحٍ دون ذلك، وفي النهاية من أنا لأرفض شيئًا بسيطًا كهذا؟

أما الآن ففي كل مرة يحدث فيها ذلك، أخبره بأنني أسامحه. أضع يدي على رأسه كما لو كنت في رواية، وأرفع عيني إلى أعلى لأبدو مهيبة، ثم أقبله وأبكي قليلًا. وبعد أن أمنحه الغفران، يعود إلى طبيعته في اليوم التالي، عازفًا على الفلوت كما لو كان فتًى من جديد وأنا في الخامسة عشرة، بينما نحن في بستان السيد كينير نصنع سلاسل الأقحوان.

لكني لا أشعر بالرّضى تمامًا حيال الأمر، بأن أسامحه هكذا، لإدراكي أنني أكذب. على الرغم من أنها ليست كذبتي الأولى كما أفترض؛ ولكن كما اعتادت ماري ويتني القول: كذبة بيضاء صغيرة كما تخبرنا الملائكة هي ثمن بخس لقاء السلام والهدوء.

أفكر في ماري ويتني كثيرًا هذه الأيام، وفي الوقت الذي ألقينا فيه قشور التفاح من فوق أكتافنا، وقد أصبح كل ذلك حقيقة إلى حد ما. فقد تزوجت برجل يبدأ اسمه بالجيم كما قالت، واضطررت أولًا إلى عبور المياه ثلاث مرات كما قالت أيضًا، إذ ركبت العبارة مرتين إلى لويستون ذاهبًا وإيابًا، ثم مرة أخرى في الطريق إلى هنا.

أحلم أحيانًا أنّني في غرفة نومي الصغيرة في منزل السيد كينير، قبل كل الرعب والمآسي. وأشعر بالأمان الشديد هناك، جاهلة بالذي سيأتي. فيما أحلم أحيانًا أنني ما زلت في السجن، وأنني سأستيقظ لأجد نفسي حبيسة زنزانتي مجددًا، أرتجف فوق سرير القش في صباح شتوي بارد، فيما يضحك الحرس في الفناء الخارجي.

لكنني حقًا هنا، في منزلي، على كرسي الخاص، جالسة في الشرفة. أفتح وأغمض عيني وأقرص نفسي، لكن الأمر يبقى حقيقيًا.

والآن ها هو شيء آخر لم أخبر به أحد.

كنت قد بلغت الخامسة والأربعين عندما أُخرجت من السجن، وسأكون

في السادسة والأربعين خلال أقل من شهر، ظننت أنني تجاوزت فرصة الإنجاب. لكن -ما لم أكن مخطئة- فقد ولت ثلاثة أشهر حتى الآن، وهي إشارة إما على الحمل أو على دخول مرحلة جديدة. إنّه أمر يصعب تصديقه، لكن بما أنني شهدت معجزة واحدة في حياتي، فلماذا أفاجأ بحدوث معجزة أخرى؟ سُردت مثل هذه الأشياء في الكتاب المقدس، وربما قرر الرب أن يعوضني قليلًا عمّا مررت به في سن مبكرة. لكنه ببساطة قد يكون مجرد ورم، من النوع الذي قتل أمي المسكينة في النهاية، فعلى الرغم من وجود ثقل، إلا أنني لم أصب بغثيان الصباح. إنّني أحمل في داخلي إما حياة أو موتًا، دون أن أعرف أيهما، يا له من شعور غريب! بالرغم من أنه يمكن حل كل شيء عبر استشارة طبيب، إلا أنني مترددة في اتخاذ مثل هذه الخطوة، وعليه أظن أن الوقت وحده سيكشف المستور.

أخيط الغطاء الذي أعمل عليه حاليًا، بينما أجلس على الشرفة فترة الظهيرة. صنعت أغطية كثيرة، إلا أن هذا أول ما أخيطه لنفسي. على نمط شجرة الجنة؛ لكني أغير النمط قليلًا ليتناسب مع تصوري.

فكرت كثيرًا فيك وفي تفاحتك سيدي، واللغز الذي صنعته حين التقينا أول مرة. لم أكن أفهمك بعد، لكن لا بد أنك كنت تحاول تعليمي شيئًا، وربما أكون قد خمنته أخيرًا. إنّني أرى الأشياء على هذا النحو: قد يكون الرب هو من فكر في الكتاب المقدس، لكن الإنسان هو من كتبه. ومثل كل ما يكتبه البشر -في الصحف مثلًا- فقد فُهمت القصة الرئيسة بطريقة صحيحة، لكنّ بعض التفاصيل خطأ.

يُسمّى نمط الغطاء (شجرة الجنة)، وأيًا كانت من سمت النمط، فقد تفوقت على نفسها، إذ إنّ الكتاب المقدس لم يقل (شجرة). بل تحدث عن شجرتين مختلفتين، شجرة الحياة وشجرة المعرفة؛ لكنني أعتقد أنها واحدة فقط، وهكذا فإن ثمرة الحياة وثمرة الخير والشر كانتا متماثلتين. وإذا أكلت منها فسوف تموت، ولكن إذا لم تأكل منها فإنك تموت أيضًا؛ لكن إذا ما أكلت منها، فسوف تكون أقل جهلًا بحلول موعد وفاتك.

يبدو مثل هذا التدبير أقرب إلى الحياة كما نعرفها.

أنا لا أقول هذا لأحدٍ سواك، لأنّني أعلم أنه ليس التفسير المعتمد.

أعتزم وضع إطار من الأفاعي المضفّرة على غطاء شجرة الجنة الخاص بي، سيبدو مثل الكروم أو كحبل مرساة للآخرين، لأنّني سأخيط العيون بحيث تكون صغيرة للغاية، لكنها ستكون ثعابين بالنسبة لي. إذ إنّ الجزء المهم من القصة سيُفقد دون وجود ثعبان أو اثنين. بعض الذين يخيطون هذا النمط يصنعون عدّة أشجار، أربعة أو أكثر تأخذ شكل مربع أو دائرة، لكنّني سأصنع شجرة كبيرة واحدة، على خلفية بيضاء. ستكون الشجرة نفسها من المثلثات، بلونين: لونٌ منهما داكن للأوراق ولون آخر أفتح للثمار، الأرجواني للأوراق والأحمر للثمار. تتوفر العديد من الألوان الزاهية الآن، بسبب انتشار الأصباغ الكيميائية، وأظنه سيكون جميلًا عندما يصبح جاهزًا.

لكن ثلاثة مثلثات في شجرتي ستكون مختلفةً. مثلثٌ أبيض مأخوذٌ من تنورة داخلية تعود إلى ماري ويتني ما زلت أحتفظ بها. ومثلث باللون المصفر مقتطع من منامة السجن التي توسلت للاحتفاظ بها كتذكار لدى مغادرتي. وسيكون الثالث من القطن الباهت، ورديًا مطبعًا بزهور بيضاء، مقتطعًا من فستان نانسي الذي كانت تلبسه في اليوم الأول لي في منزل السيد كينير، والذي لبسته في أثناء ركوبي العبارة إلى لويستون، أثناء فرارنا.

سأطرز حول كل منها بغرزة الريشة مستخدمة الخيط الأحمر، لمزجها بحيث تبدو كجزء من النمط.

وهكذا نصبح جميعًا معًا.

خاتمة الكاتبة

مع أن رواية «المدعوة غريس» مبنية على قصة واقعية، فإنها تبقى عملا خياليا. الشخصية الرئيسية «غريس ماركس» من أشهر النساء في كندا خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، كونها أُدينت بالقتل في عمر السادسة عشر.

وقعت أحداث جريمة قتل كينير ومونتغمري في 23 من يوليو عام 1843، وتم تداولها بنهم ليس في الأخبار الكندية وحدها، بل حتى في تلك الأمريكية والبريطانية. كانت التفاصيل مثيرة: فغريس ماركس جميلة على نحو غير عادي، وصغيرة السن أيضا. أنجبت رئيسة خدم بيت كينير - نانسي مونتغمري - طفلا غير شرعي، وكانت خليلة توماس كينير، كما أنها وُجدت حاملا خلال تشريح جثتها. فرت غريس مع الخادم الزميل جيمس ماكديرموت إلى الولايات المتحدة. زعمت الصحافة أنهما كانا عُشاقا. خليط الجنس، والعنف، والانحطاط اليائس لأفراد الطبقة الدنيا، هو أكثر من لفت انتباه صحافة ذلك الوقت.

وقعت المحاكمة مع بداية نوفمبر. تم تداول واقعة قتل كينير أولا، وبما أنه حكم على المتهمين بالإعدام، وجد أن تداول جريمة قتل مونتغمري غير ضرورية. شُنق مكديرموت أمام حشد عظيم في 21 من نوفمبر، لكن الآراء بشأن غريس انقسمت منذ البداية، ونتيجة لجهد محاميها كينيث ماكنزي، وعريضة وقعها رجال محترمون - تضرعوا بشبابها، وضعف جنسها، وخبلها المزعوم - فقد حكم عليها بالسجن مدى الحياة، وقد أُودعت إصلاحية كينغستون في 19 نوفمبر، عام 1843.

واصلوا الكتابة عنها طوال ذلك القرن، وواصلت غريس استقطاب الآراء. عكست الآراء حولها غموض ذلك الوقت حول طبيعة النساء: هل كانت غريس الغاوي الشيطاني والمحرض على جريمة قتل نانسي مونتغمري، أم كانت ضحية

مغصوبة أرغمتها تهديدات مكديرموت على التزام الصمت خوفا على حياتها؟ لم يساعد على حسم الأمر حقيقة أنها أدلت بثلاث روايات مختلفة لواقعة قتل مونتغمري، بينما أدلى جيمس مكديرموت باثنتين.

وقعتُ على قصة غريس ماركس أول مرة عبر كتاب سوسانا مودي «الحياة في القصاص (1853). أُشتهرت مودي سابقا بكونها صاحبة «النجاة في الأحراش»، وهو سرد للحياة الرائدة فيما عُرف وقتها بكندا العليا، وما يُعرف اليوم باونتاريو، وهي عبارة عن سلسلة كتب، ابتغت عبر كتاب «الحياة في القصاص» أن تعكس الحياة المتحضرة - صارت متحضرة بحلول ذلك الوقت - في غربي كندا. احتوى الكتاب على وصف - يحمل الإعجاب - لكل من سجن كينغستون، ومصحة الأمراض العقلية في تورانتو. كانت مثل هذه المؤسسات العامة وجهة للزوار مثلها مثل حدائق الحيوان. طلبت مودي من كلا المؤسستين التنسيق للقاء النجمة الجذابة - غريس ماركس.

رواية مودي لواقعة القتل، هي رواية طرف ثالث، اعتبرت فيها غريس المحرك الأساسي، يدفعها حبها لتوماس كينير، وغيرتها من نانسي، مغرية مكديرموت بالجنس ليكون عونا لها. سلبت غريس عقله وجعلته طوع يديها. لا تستطيع مودي مقاومة الميلودراما المحتملة، وتقطيع جسد نانسي لأربع قطع ليس مبتكرا فحسب، بل أنه يكاد يكون عملا من أعمال هاريسون آينزورث. أثر ديكينز عبر عمل مودي المفضل اوليفر تويست، واضح في وصفها لبقع الدماء التي تطارد غريس ماركس.

بعد لقاء غريس في الإصلاحية بوقت قصير، لقتها سوسانا مودي في المصحة بتورانِتو، حيث أودعت جناح المرضى العنيفين. ملاحظات مودي الأولية أهل للثقة في الغالب، وعليه فإذا ما روت عن صياح ورقص غريس - فهذا ما رأته بلا شك. مع ذلك، فسريعا بعد نشر مودي لكتابها، وبعد تولي جوزيف وركمان الإنساني منصب المدير الطبي للمصحة، سُرحت غريس لكونها عاقلة بما يكفي، وعادت للإصلاحية مجددا، حيث أدلت التقارير باحتمالية حملها خلال فترة

غيابها. كان ذلك إنذارا خاطئا، لكن من ممن كانوا بالمصحة يمكن أن يكون المتجني المفترض؟ كان جناح النساء معزولا عن جناح الرجال، الوحيدين الذين يسهل دخولهم هم الأطباء.

خلال العقدين التاليين، ظهرت غريس في تقارير الإصلاحية من وقت لآخر. كانت متعلمة بلا شك، حيث وصفها جورنال مأمور السجن وهي تكتب بعض الرسائل. أثارت إعجاب العديد من الشخصيات المحترمة - من بينهم رجال دين عملوا بلا كلل بالنيابة عنها، وسلموا العديد من العرائض لتأمين تسريحها، ملتمسين الرأي الطبي لتعضيد قضيتهم. قال كاتبان أنها عملت كخادمة موثوقة في بيت المأمور - مأمور السجن على الغالب - مع أن تقارير السجن غير الكاملة لا تشير إلى ذلك. حسب العرف في أمريكا الشمالية، أُوكل للسجناء للقيام بالأعمال اليومية.

أُعفي عن غريس ماركس أخيرا عام 1872، نصت التقارير على ذهابها إلى نيويورك رفقة المأمور وابنته، للبيت الممنوح لها. زعم الكتاب اللاحقون أنها تزوجت هناك، واختفى كل ذكر لها بعدها، مع أنه ما من دليل ينص على ذلك. حقيقة ما إذا كانت شريكة في جريمة قتل نانسي مونتغمري وعشيقة جيمس مكديرموت، غير بينة تماما، وكذلك حقيقة ما إن كانت «مجنونة» حقا، أو أنها ادعت ذلك - كما فعل غيرها - لتأمين ظروفا أفضل لنفسها. الشخصية الحقيقية لغريس ماركس التاريخية ستبقى لغزا.

اتضح أن توماس كينير ينحدر من عائلة اسكتلندية من كينلوش، بالقرب من كوبار، في فايف. كما أنه الأخ غير الشقيق الأصغر لوريث الأملاك، مع أن نسخة «سلالات بيورك» المنشورة في أواخر القرن التاسع عشر - وللمفاجئة - عدته من الأموات، وأرخت موته لحوالي الوقت نفسه الذي ظهر فيه بغربي كندا. بيت كينير في ريشموند هيل بقي منتصبا، ووجهة للسياح الذين روى أحدهم عن زيارة سيمون جوردان للبيت. توجد قبور كل من توماس كينير ونانسي مونتغمري في باحة كنيسة البريسبيتاريّة في ريشموند هيل، مع أنها غير مُعلّمة. كتب ويليام

هاريسون في 1908 أن الأوتاد حولها قد أزيلت، في الوقت الذي أزيلت فيه جميع الأوتاد الخشبية الأخرى. كذلك اختفت أحراش الورد عند قبر نانسي.

ملاحظات إضافية: استخرجت تفاصيل السجن والحياة في المصحة من السجلات المتوفرة. معظم ما جاء في رسالة الدكتور وركمان وضعت كما جاء في الأصل. عبر الدكتور بانرلينج عن آراء عُزت للدكتور وركمان بعد وفاته، والتي لا يمكن أن تكون كلماته.

هناك شبه بين مسكن آل باركنسون وقصر داندورن في هاميلتون، اونتاريو. شارع لوت في تورانتو كان الاسم الرسمي لجزء من شارع كوين. التاريخ الاقتصادي للوميسفيل، وطريقة تعاملها مع فتيات المطاحن، تماثل - على نحو رديء - تلك التي في لوويل - ماساتشوستس. ثمة سجلات طبية للدكتور لانغستاف بريشموند هيل لقصص توازي مصير ماري ويتني. بورتريه كل من غريس ماركس وجيمس ماكديرموت في الصفحات الأولى مأخوذة من اعترافهم المنشور في تورانتو ستار آند ترانسكريبت.

بدأ جنون الروحانيات في أمريكا الشمالية في أعالي نيويورك بنهاية أربعينيات القرن التاسع عشر من خلال «التواصل عبر الطرق» الذي بدأته الأخوات فوكس، اللاتي كن من بيليفيل - حيث كانت تقيم سوسانا مودي وقتها، وهناك تحولت إلى الروحانية. مع أنه سريعا ما اجتذب عددا من الدجالين، انتشرت الحركة سريعا، وبلغت ذروتها في خمسينيات القرن التاسع عشر، بازغة بشكل خاص في نيويورك، وفي منطقة كينغستون-بيليفيل. يمكن عد الروحانية واحدة من الحركات شبه الدينية التي سُمح للنساء فيها بامتلاك قوى - وإن كانت مريبة - بما أنهن أنفسهن كن مجرد قنوات للأرواح.

فقدت الميزمرية (التنويم المغناطيسي) مصداقيتها كإجراء علمي حسن السمعة في بدايات القرن، ظل يمارسها - مع ذلك - شريحة واسعة من المستعرضين المشكوك بهم في أربعينيات القرن التاسع عشر. وكما هو الحال مع التنويم المغناطيسي العصبي - الذي جاء به جيمس برايد، والذي هدم فكرة

المائع المغناطيسي - عادت المزمرية لتصبح مرموقة، واكتسبت بحلول خمسينيات القرن 19 مريدين من الأطباء الأوربيين، مع أنها لم تنل قبولا واسعا كتقنية طب سلوكي حتى العقود الأخيرة من القرن.

التوليد المتتالي لنظريات جديدة للأمراض العقلية هو أحد سمات أواسط القرن التاسع عشر، كما هو الحال مع إنشاء العيادات والمصحات العقلية، الخاص منها والعام. كان هناك فضول حاد وحماس حول الذاكرة، فقدان الذاكرة، السرنمة، الهيستيريا، الغشيات، الأمراض العصبية، وأهمية الأحلام بين العلماء والكتاب على حد سواء. كان الاهتمام الطبي بالأحلام منتشرا لحد أن طبيبا ريفيا مثل الدكتور جيمس لانغستاف، كان يسجل أحلام مرضاه. كُتب عن «اضطراب تعدد الشخصيات» في أوائل القرن، كان موضوع جدلٍ حقيقي في أربعينيات القرن، بالرغم من أنه اكتسب شعبية عظيمة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن. حاولتُ أن أربط شكوك الدكتور سيمون جوردن بالأفكار المعاصرة المتاحة في ذلك الوقت.

اختلقتُ بالطبع أحداث تاريخية - كما فعل الكثير من المعلقين على هذه القضية ممن زعموا كتابة التاريخ. لم أغير أيا من الحقائق المعروفة، مع أن الروايات تعارضت للحد الذي لا يبقى فيه إلا القلة مما يمكن أن يُعد قطعا «حقائق معروفة». هل كانت غريس تحلب البقرة أم تقطف الثوم المعمر عندما ضُربت نانسي بالفأس؟ لماذا ارتدت جثة كينير قميص مكديرموت، ومن أين جاء ماكديرموت بالقميص، هل جاء به من البائع المتجول أم من صديق عسكري؟ كيف وصل الكتاب أو المجلة المغطاة بالدماء إلى سرير نانسي؟ أي من المحامين المعروفين باسم كينيث ماكنزي هو المحامي محل السؤال؟ متى ما كان ثمة شكوك أوردتُ الرواية الأكثر احتمالية، ومتى ما تأتى لي إيراد جميع الروايات المحتملة، فقد فعلت ذلك. ومتى ما لزم - نظرا لاحتواء السجلات على مجرد إشارات أو متى ما وجدت فجوات بالكامل - شعرت بالحرية لابتكر.

شُكر

أود أن أشكر بحرارة كل من موظفي الأرشيف، والمكتبات ممن ساعدوني على إيجاد بعض الأجزاء المفقودة، والذين لولا خبراتهم، ما كان لهذه الرواية أن تكون:

Dave St. Onge, Curator and Archivist, Correctional Service of Canada Museum, Kingston, Ontario; Mary Lloyd, Local History and Genealogy Librarian, Richmond Hill Public Library, Richmond Hill, Ontario; Karen Bergsteinsson, Reference Archivist, Archives of Ontario, Toronto; Heather J. Macmillan, Archivist, Government Archives Division, National Archives of Canada, Ottawa; Betty Jo Moore, Archivist, Archives on the History of Canadian Psychiatry and Mental Health Services, Queen Street Mental Health Centre, Toronto; Ann-Marie Langlois and Gabrielle Earnshaw, Archivists, Law Society of Upper Canada Archives, Osgoode Hall, Toronto; Karen Teeple, Senior Archivist, and Glenda Williams, Reception, City of Toronto Archives; Ken Wilson, of the United Church Archives, Victoria University, Toronto; and Neil Semple, who is writing a history of Methodism in Canada.

كما أود شكر من ساعدوني على تتبع نسب توماس كينير:

Aileen Christianson, of the University of Edinburgh, Scotland, and Ali Lumsden

بالإضافة لما اقتبس من الأرشيف، راجعت ما ورد في الصحف وقتها خصوصا:

Star and Transcript (Toronto), the Chronicle and Gazette (Kingston), The Caledonian Mercury (Edinburgh, Scotland), The Times (London, England), the British Colonist (Toronto), The Examiner (Toronto), the Toronto Mirror, and The Rochester Democrat.

وجدت العديد من الكتب المفيدة، بالأخص:

Susanna Moodie, Life in the Clearings (1853, reprinted by Macmillan, 1959); and Letters of a Lifetime, edited by Ballstadt, Hopkins, and Peterman, University of Toronto Press, 1985; Chapter IV, Anonymous, in History of Toronto and County of York, Ontario, Volume I, Toronto: C. Blackett Robinson, 1885; Beeton's Book of Household Management, 1859-61, reprinted by Chancellor Press in 1994; Jacalyn Duffin, Langstaff: A Nineteenth-Century Medical Life, University of Toronto Press, 1993; Ruth McKendry, Quilts and Other Bed Coverings in the Canadian Tradition, Key Porter Books, 1979; Mary Conway, 300 Years of Canadian Quilts, Griffin House, 1976; Marilyn L. Walker, Ontario's Heritage Quilts, Stoddart, 1992; Osborne and Swainson, Kingston: Building on the Past, Butternut Press, 1988; K.B. Brett, Women's Costume in Early Ontario, Royal Ontario Museum/University of Toronto, 1966; Essays in the History of Canadian Medicine, edited by Mitchinson and McGinnis, McClelland & Stewart, 1988; Jeanne Minhinnick, At Home in Upper Canada, Clarke, Irwin, 1970; Marion Macrae and Anthony Adamson, The Ancestral Roof, Clarke, Irwin, 1963; The City and the Asylum, Museum of Mental Health Services, Toronto, 1993; Henri F. Ellenberger, The Discovery of the Unconscious, Harper Collins, 1970; Ian Hacking, Rewriting the Soul, Princeton University Press, 1995; Adam Crabtree, From Mesmer to Freud: Magnetic Sleep and the Roots of Psychological Healing, Yale University Press, 1993; and Ruth Brandon, The Passion for the Occult in the Nineteenth and Twentieth Centuries, Knopf, 1983.

بُني عملين خياليين سابقين على أحداث قصة قتل كينير:

A Master Killing, by Ronald Hambleton (1978)

- أو «خبير القتل» الذي شُغل - بشكل أساسي - بتتبع الجانين.

Margaret Atwood, in the CBC television play The Servant Girl (1974, directed by George Jonas)

اعتمدت المسرحية المتلفزة «الخادمة» حصرا على رواية مودي، والتي لا يمكن عدها حاسمة بعد.

أخيرا، أود أن أشكر الباحثين الرئيسيين، الذين نسخوا أنماط أغطية الأسرة:

Ruth Atwood, Erica Heron

مساعدتي التي لا غنى لي عنها:

Sarah Cooper

الذين قرأوا النسخة الأولية من العمل، وقدموا اقتراحات ثمنية

Ramsay Cook, Eleanor Cook, Rosalie Abella

وكلائي:

Phoebe Larmore, Vivienne Schuster

محرري:

Ellen Seligman, Nan A. Talese, Liz Calder;

و

Marly Rusoff, Becky Shaw, Jeanette Kong, Tania Charzewski, Heather Sangster

من علموني تقدير أدب القرن التاسع عشر:

Jay Macpherson, Jerome H. Buckley

و

Michael Bradley, Alison Parker, Arthur Gelgoot, Gene Goldberg, and Bob Clark; Dr. George Poulakakis, John and Christiane O'Keeffe, Joseph Wetmore, Black Creek Pioneer Village, and Annex Books; and Rose Tornato.

تنويه المُترجمة:

- للرواية ترجمة أولى أصدرها المشروع القومي للترجمة عام 2005 بعنوان (المُذنبة) وتوقيع سحر توفيق.
- أقدّم شكري إلى أمل السعيدي وحسين العبري وعبدالحق شاربي ومريم حمود لمراجعتهم الترجمة.

نوف السعيدي - مدوّنة من سلطنة عمان. مهتمة بالعلوم والفنون والآداب. نالت جائزة الإبداع الثقافي عن أفضل إصدار عماني لعام 2016.

في كندا القرن التاسع عشر، يفكّر طبيب نفسي مليًا في أحقيّة العفو عن قاتلة بحجة إصابتها بالجنون.

مارغريت آتوود كاتبة كندية و شاعرة و ناقدة أدبية و ناشطة في المجال النسوي والاجتماعي. تُعتبر أحد أهم كتاب الرواية والقصص القصيرة في العصر الحديث. حازت على أكثر من 50 جائزة أدبية، و20 درجة علمية تشريفية، وكانت من بين المرشحين الأوائل للحصول على جائزة بوكر خمس مرات، وفازت بها عن روايتها السفّاح الأعمى. لها أكثر من أربعين كتابًا في الرواية والقصة والشّعر.

الفائزة بجائزة Giller Prize

القائمة القصيرة لجائزة بوكر 1996



